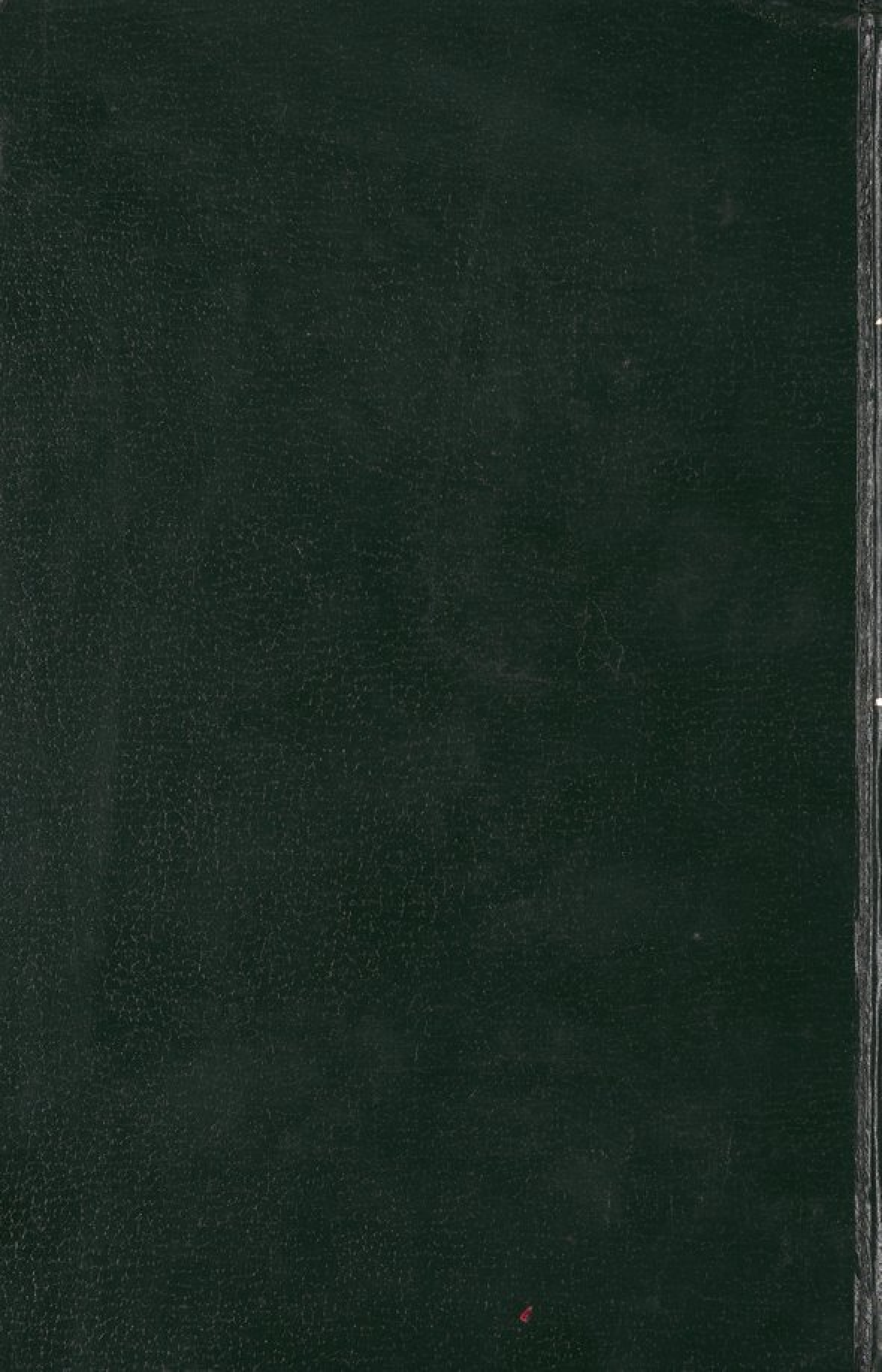
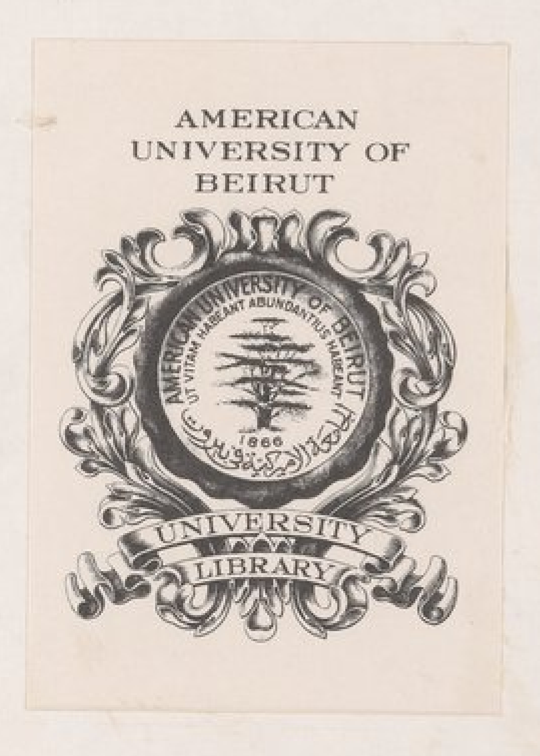
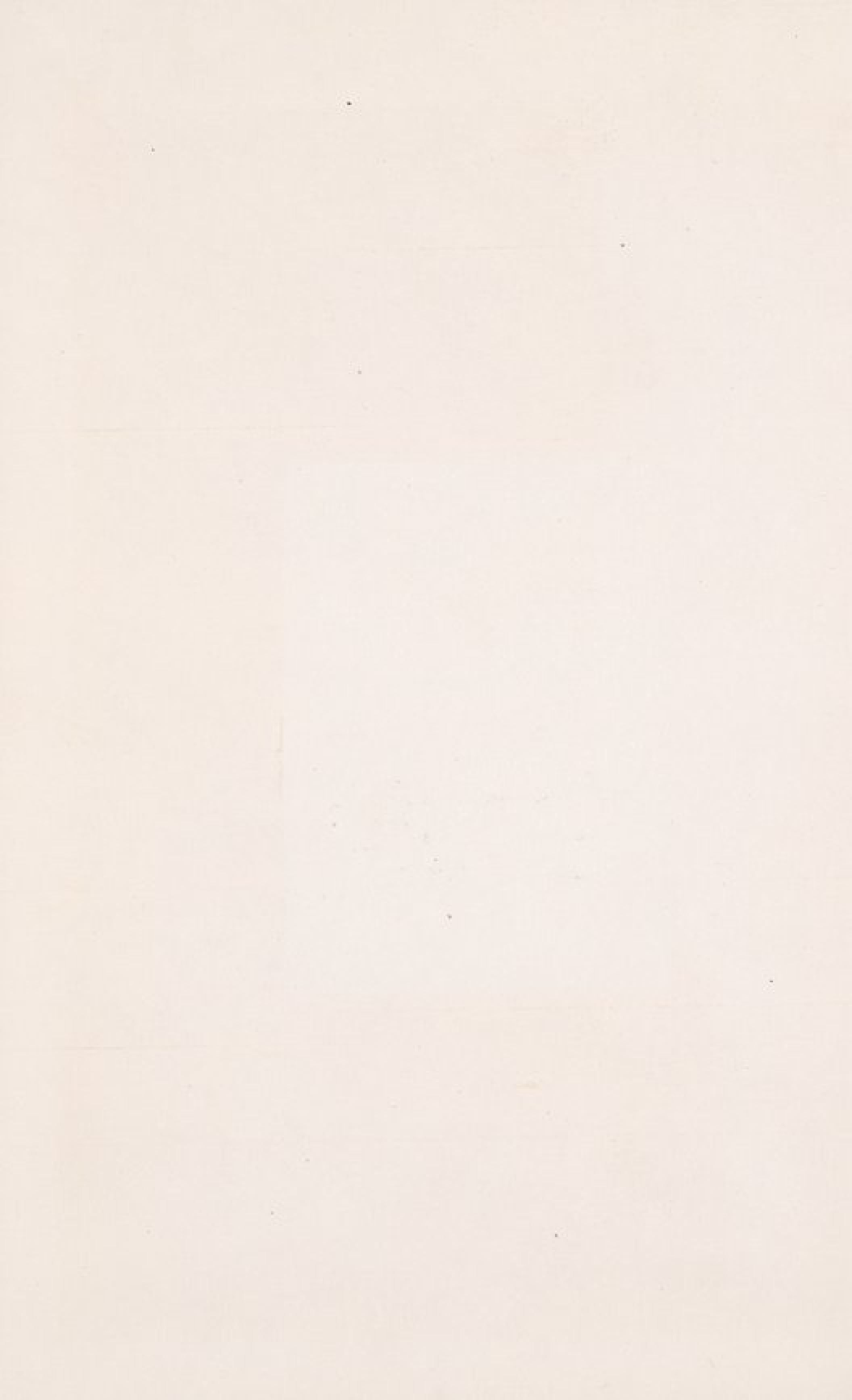
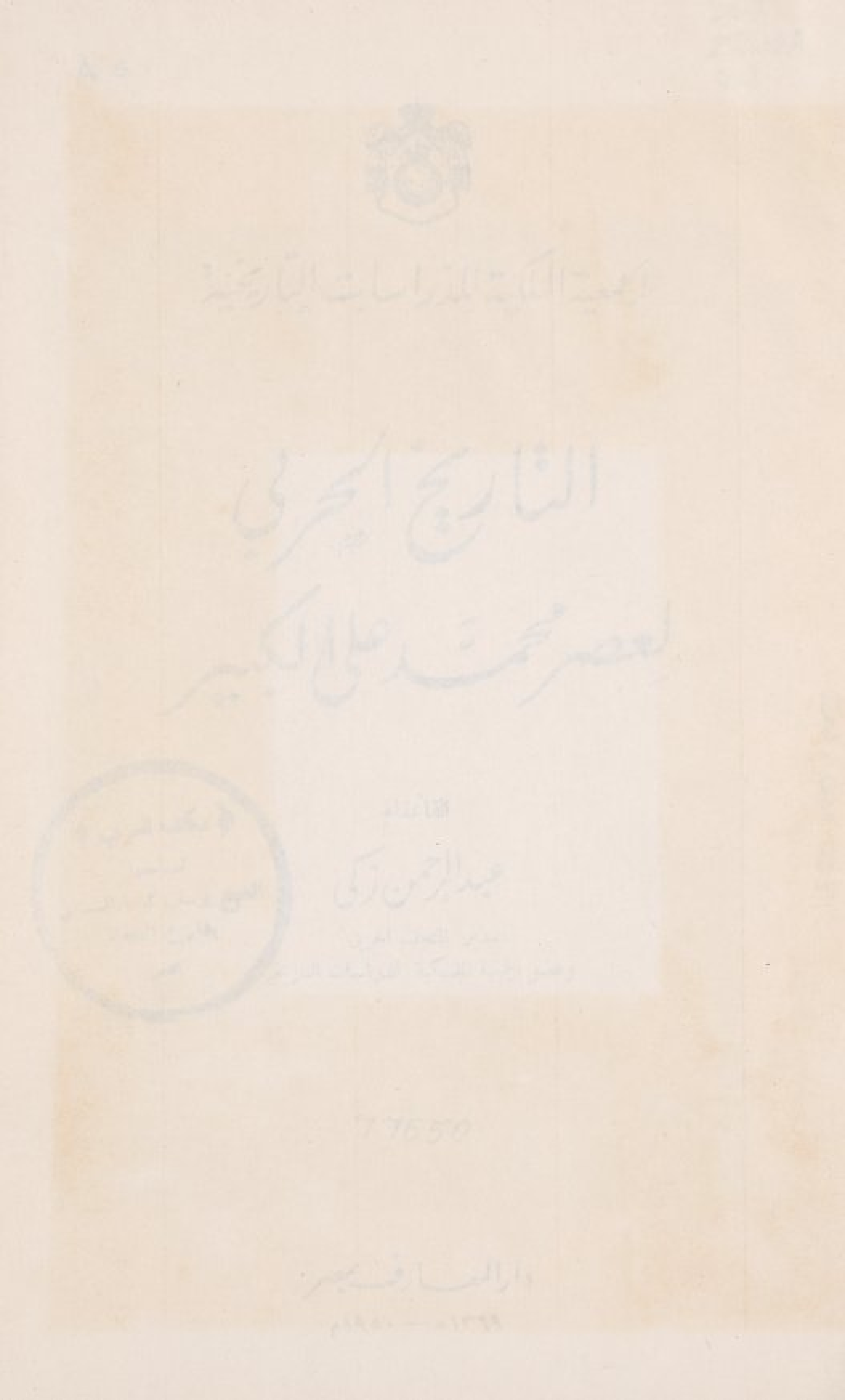



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY







الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير

تأليف

عبد الرحمن زكي

مدير المتحف الحربي
وعضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

دار المعارف بمصر

١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م

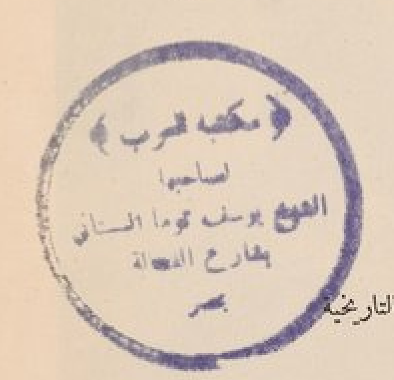




الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

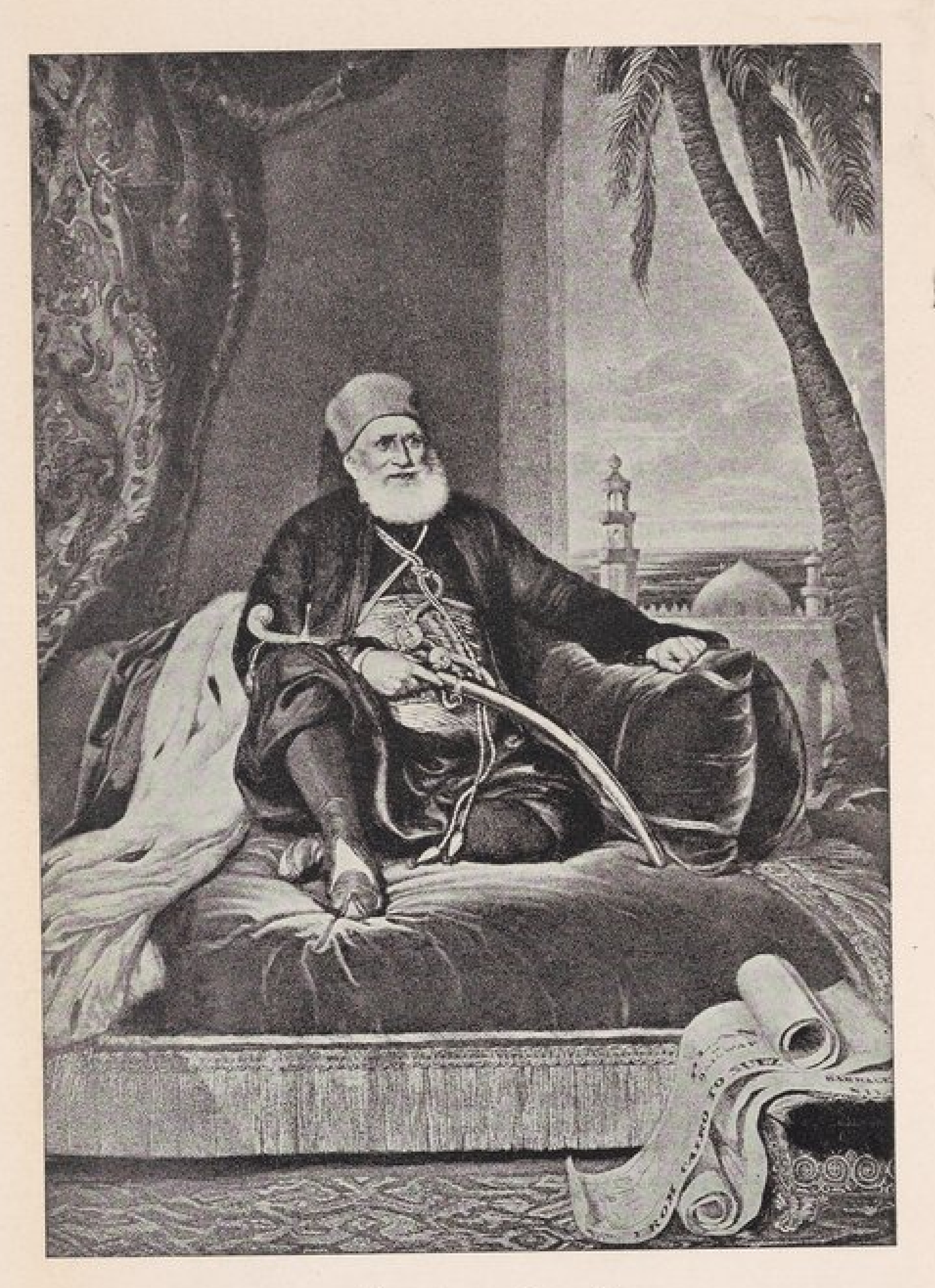
التاريخ الحربي لعصر محمد على الكبير

القائمقام
عبد الرحمن زكى
مدير المتحف الحربى
وعضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

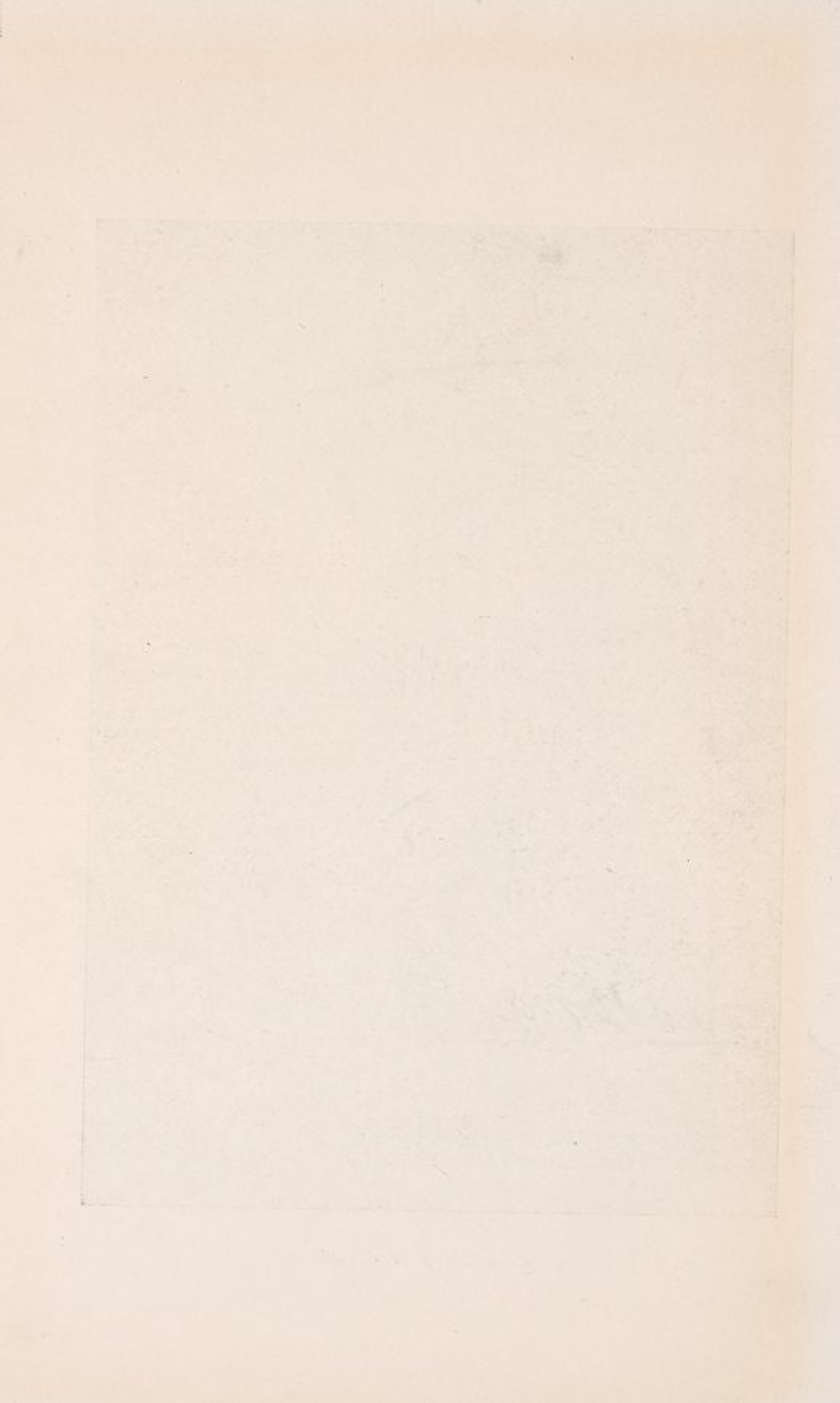


دار المعارف بمصر
١٣٦٩هـ — ١٩٥٠م



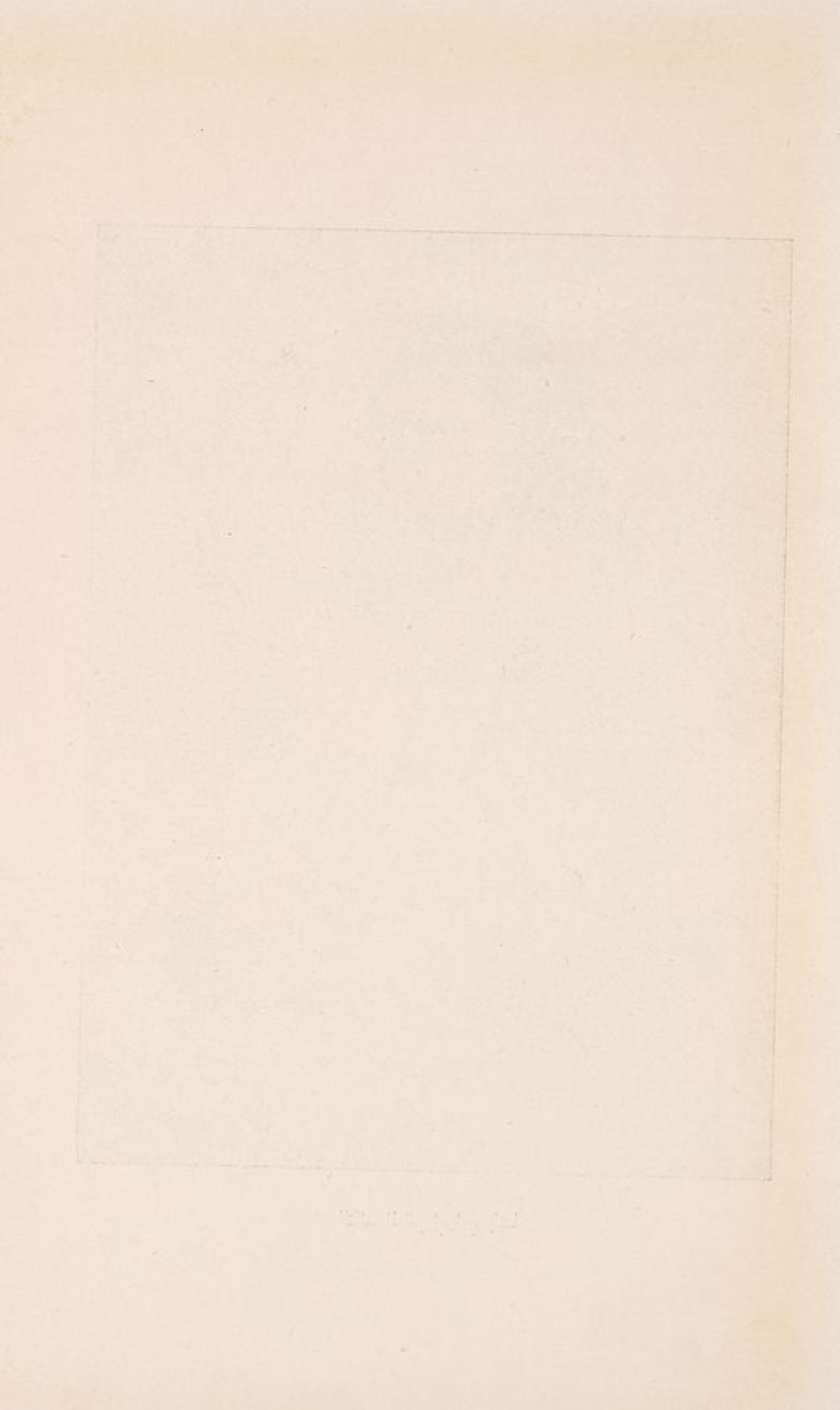


المغفور له محمد على باشا الكبير





القائد المظفر إبراهيم باشا



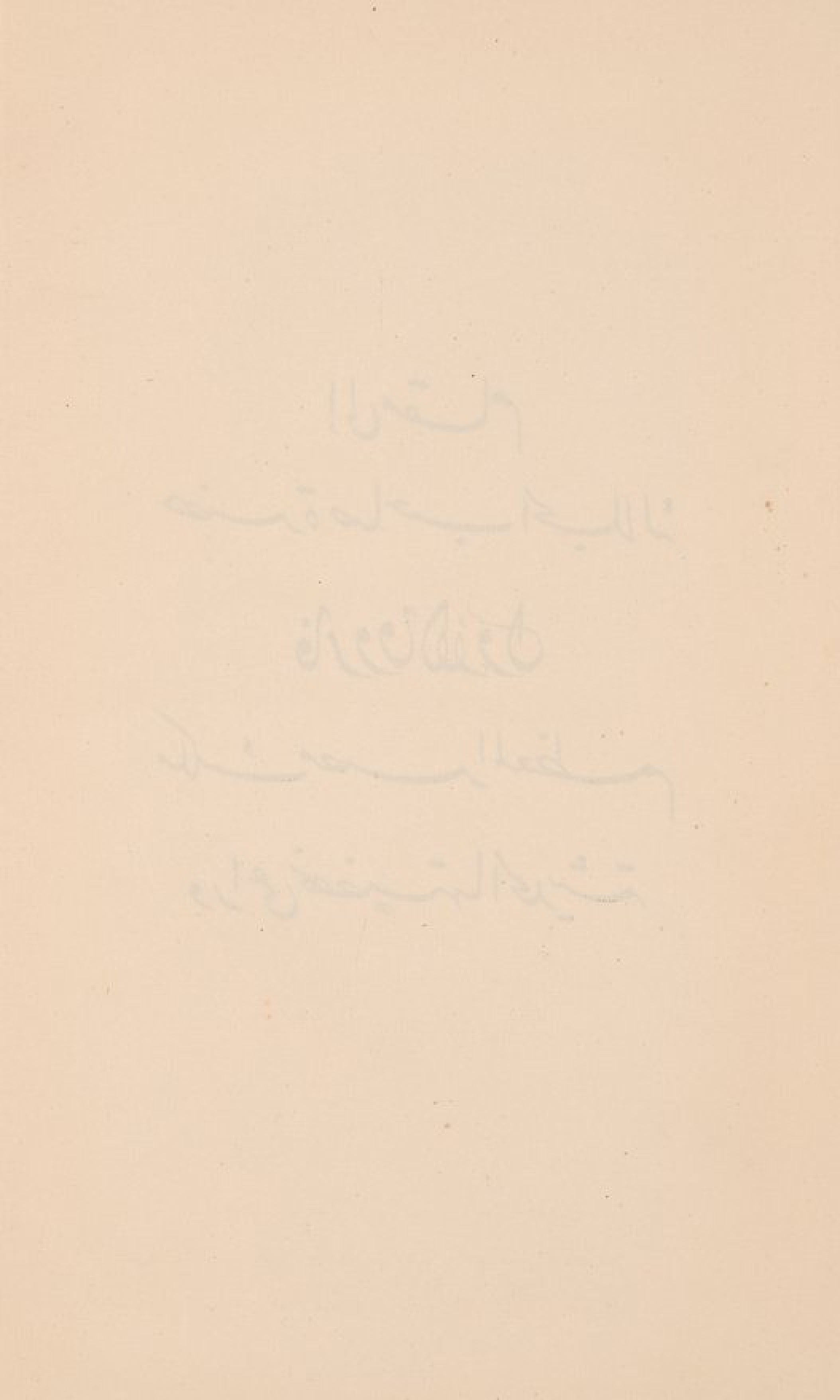
إلى مقام

حضرة صاحب الجلالة

فاروق الأول

ملك مصر المعظم

وراعي نهضتها الحديثة



فهرس

الفصل الحادى عشر:

الفصل الثانى عشر :

ملاحق الكتاب :

فهرس الصور والخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لسنا هنا فى مجال عرض أهمية التاريخ العام فى تربية الدارسين وتثقيفهم ، وأثره فى التربية العقلية والجمالية – فالمعروف أنه كلما نمت معلومات الفرد كلما زاد فهمه للحياة واتسع أفق تفكيره وارتقت مقدرته على الحكم – وعلى هذا يستطيع دارس التاريخ أن يجد فيه مواضع للتفكير الصحيح ويدرك أسباب الحركات العظيمة ونتائجها .

فالتاريخ بوجه عام كنز تجارب الماضى ، إذا فهم المرء بعضها فهماً صحيحاً تفادى الوقوع فى أخطاء شتى . والتاريخ الحربى بوجه خاص مرآة الأحداث الجسيمة التى غيّرت وبدّلت الكثير من أحوال العالم منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا . وليس بخاف أن الحرب هى أسمى اختبار لقوة الشعب وخلقه وتربيته ومدى تحمله الكوارث أو على الأقل اجتنابها . وليست الحرب اختبار لشجاعة الشعب فحسب ، بل امتحان لتفكيره وتربيته ومعنوياته وذكائه وحضارته أيضاً .

وليست كتابة التاريخ الحربى بالأمر اليسير ، ذلك لأن الاهتداء إلى مصادره الرئيسية تكاد تكون وقفاً على الإخصائيين من رجال العسكرية ، الذين قد لا يتسع وقتهم لتدوين تاريخ المعارك إلا بعد أبحاث شاقة فى وثائق الدولة الرسمية ، والاطلاع على المحفوظات السياسية والاقتصادية والعسكرية التى تخصها ، فضلا عن مثيلاتها لدى الدول الحليفة أو المعادية لها ، وجمع الإحصائيات الوفيرة ، ثم عمل الخرائط والمصورات الدقيقة . ولذلك تقع مهمة كتابة التاريخ الحربى على عاتق الهيئات العسكرية والإدارات المنسقة تنسيقاً فنياً ،

وليست فى طاقة الفرد مهما تهيأ له من ظروف الوقت والبحث والتدقيق والكتابة إلى جانب الإشراف على الطبع والنشر .

وتنضوى كتابة التاريخ الحربى على تدوين ما يتعلق بالأعمال الحربية التى تضطلع بها قوات الدولة المسلحة — من حملات كبيرة إلى وقائع وعمليات صغيرة ، ودراسة أسبابها من المناحى السياسية والاقتصادية والوطنية ، والإتيان بوصف مسهب لتلك القوات التى تنهض بها وقيادتها ونفسية أفرادها ، ووصف طبيعة أراضى العمليات الحربية ، وشرح الخطط الحربية ووسائل تنفيذ كل وحدة من الوحدات المشتركة، ونصيبها فى القتال ، ثم نقد الخطة ووسائل التنفيذ نقداً فنياً . ويأتى فى أعقاب ذلك الحديث المستفيض عن نتائج الحرب وما ترتب عليها.

ولقد برز بين قدماء مؤرخى الإغريق والرومان من دوّنوا السير الحربية بطريقة فنية فياضة ، فاقوا فيها ما دونه قدامى المصريين والآشوريين على الآثار الخالدة وفى طليعتها معارك مجدو وقادش[1] .

وتقابلنا فى العصر الحديث أسماء لامعة لمؤرخى الحروب الأوربية . أمثال أليسون وتييرز وهونيج ولوتكور وفورتيسكيو وأومان وغيرهم من مشاهير القادة والمؤرخين الألمان والفرنسيين والبريطانيين . الذين سجلوا ما كتبوه من أعمال التاريخ الحربى لفائدة العسكريين قبل غيرهم . ذلك لأن فى التاريخ الحربى مجال التجارب الفسيح الذى يكتسب منه الجندى الخبرة والمعرفة إذا لم تتح له الأحوال والظروف المحيطة ببلاده — القتال فى حرب حقيقية .

فليس لدى الضابط ما لزميله الطبيب مثلا غرفة للعمليات يقف فيها إلى جانب أستاذه وزملائه يشاهد فيها كيفية إجراء عملية جراحية فى جزء من جسم مريض لإزالة حصاة فى الكلى !

وأهم مصادر التاريخ الحربى الوثائق الرسمية ، التى تشمل جميع المعلومات الخاصة بسياسة الدولة قبل إعلان الحرب وفى خلالها وفيما بعدها . . . إلى جانب الوثائق العسكرية الدقيقة الخاصة بكافة البلاد المساهمة فى القتال . وبغير هذه العدة لا تكون كتابة التاريخ الحربى مستوفاة أو ذات جدوى !

---

(١) من مؤرخى الإغريق نذكر القائد إكسنوفون الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد — والمؤرخ الإغريق بوليبيوس الذى عاش بين سنة ٢٠٤ و سنة ١٢٢ ق. م. — والمؤرخ الرومانى ليفى (٥٩ ق.م. — ١٧ م.) الذى أرّخ لأعمال البطل هانيبال .

وإلى حين قريب كانت مهمة المؤرخ المصرى شاقة فى كتابة تاريخ بلاده الحديثة ذلك لأن أهم أدوات المؤرخ التى يعتمد عليها كانت تنقصه ... لأنه لم يكن قد عثر بعد على تلك الوثائق الرسمية التى تفصح عن مجرى الأحوال والحوادث الصحيحة . . . وإذا عثر عليها فى بلاده تعذر عليه بحث وثائق الجانب الآخر . فإذا ذللنا مهمة كتابة التاريخ الحربى وفى مصر خاصة لألفينا أنفسنا قبالة السؤال التالى :

وما هى أهمية دراسة التاريخ الحربى أو البحرى ؟ . . . ألا يكفى دراسة التاريخ السياسى العام للدولة ؟ . . .

ولقد نرد على هذا السؤال باستجواب سطحى : وما فائدة إذن دراسة التاريخ الاقتصادى أو المعمارى أو تاريخ الفنون وما أشبه . . . ولكننا لا نكون قد أجبنا على السؤال الأصلى وهو ما فائدة دراسة التاريخ الحربى ؟

كان علينا أن لا نسأل أنفسنا هذا السؤال فى عام ١٩٥٠ ، بعد أن استقرت منذ قرن تقريباً وتوطدت دراسة التاريخ الحربى فى جميع البلدان — دراسة أكاديمية — سواء فى الجامعات الكبرى أو فى المعاهد الحربية العالية . بيد أننا ونحن نكتب مقدمة أول كتاب فى التاريخ الحربى لعصر المغفور له محمد على الكبير ، نجد أنفسنا متأخرين فى هذا المضمار . . . فكان من الضرورى أن نبيِّن بجلاء فوائد هذه الدراسة عند كتابة هذه المقدمة .

من وراء دراسة التاريخ الحربى تضع الأمة خطتها الحكيمة فى نوع التربية التى تتخيرها لأفرادها ليوجهوا التوجيه الصحيح نحو تحقيق الأهداف القومية لا التوسع على حساب الاعتداء على حقوق الشعوب .

وما الحرب إلا تعبئة شاملة لطاقة الأمة لا تعبئة قواتها المسلحة فحسب . ومن هنا كانت الحرب عملا شاقاً معقدا لا تستطيع أمة أن تجنى ثمار النصر فيها إلا بعد جهود جبارة ، ولدينا أمثلة فى تاريخ الأمم لا حصر لها .

لعمرى . كم أتمنى لو أتيح لساسة الأمم وزعمائها أو الطامحين للزعامة ، قراءة التاريخ الحربى ودراسته ليتعلموا مدى أثر الأخلاق ومعنويات الجيوش مما يجعلهم يفكرون تفكيراً سليما فى توجيه الشعوب . فتلك المعنويات قوى ليس من اليسير أن تُقوَّم وليس من السهل أن تُدمر بسرعة . ولذلك لا ندهش إذا ما رأينا الكثيرين من أشباه الساسة لا يقدرونها فى حسابهم .

فبوساطة التاريخ الحربى ننفذ إلى أعماق الأحداث ونصل إلى إدراك العوامل الذهنية والطبيعية لهؤلاء القادة والأبطال الخالدين ومن كانوا تحت إمرتهم من جحافل — فى سجل الإنسانية بما سطروه على صفحاتها من أعمال غيّرت مجرى التاريخ .

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن معرفة التاريخ الحربى لازمة لزوماً أكيداً لا لفهم مجرى السياسات الخارجية والداخلية فهماً تاماً ، بل إلى جانب هذه ، فهم قصة الكون عامة لتطور الجنس البشرى المدونة وغير المدونة ، وهى قصة نضاله الحربى . . . سواء أردنا أو لم نرد . وليس من شك فى أن التاريخ الحربى هو منهل النصر فى هذا النضال المستمر للطاقة المعنوية فى تعاونها مع القوة المادية .

° ° °

لقد أسعدنا الحاضر بأن نكون من رعايا الجالس على عرش مصر الوطيد ، حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، عند ما احتفلت البلاد بالذكرى المئوية لوفاة المغفور له الجد العظيم محمد على الكبير . وكانت أن ساهمت الجمعية الملكية للدراسات التاريخية بنصيبها فى هذا الاحتفاء . وكان من بين ما قامت به نشر موسوعة كبيرة لتاريخ هذا العاهل العظيم كان نصيبى فيها « التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير » فأقدمت على تأدية الواجب وأنا مغمور بهذا الشرف الكبير الذى لا يفوز به كثيرون .

° ° °

ولى محمد على أمر مصر الخالدة ، وقلّب المصلح الكبير الفكر فيما هو بصدده ، وانتهى به الأمر إلى أن أفضل وسيلة لأن يبلغ بهذه البلاد أوج الرقى والتقدم أن يبعث الروح العسكرية فى صدور أبنائها . وأن يستعيد النعرة الحربية من مخلفات ماضيها . ورأى أنه على عاتق الجيش ينبغى أن تقوم النهضة الشاملة لوادى النيل ، وعلى أكتاف رجاله يتعين أن تنتشر الحضارة . وفى ضجة معاركه يشرق المجد . وفى ظل أعلامه تستتب السيادة .

وبنى محمد على خطته الحكيمة وساعدته الظروف فى تحقيقها كلها من ألفها إلى يائها . . . وكان الجيش آلة فى تنفيذ سياسته . . .

وجاء فى أعقاب هذه الحطة أن سطر محمد على سفره العظيم فى تاريخ وادى النيل

أسس محمد على المعاهد العسكرية ، وهيأ للجيش المصانع الحربية ، واستقدم الفنيين وأوفد البعثات للخارج ، وشق الطرق وبنى الحصون ، وشيّد الأسطول ، وأقام المعامل سواء لتلبية مطالب الجيش أو انصياعاً للدواعى العمرانية .

وبذا استطاع محمد على أن يصهر معدن الشعب المصرى من بين الأدران التى رانت عليه بفعل الخمول المتراكم . ويثير بين جوانحهم روح الزهو والافتخار ويقول لهم « أو لم تكونوا يوماً حملة المشاعل للحضارة والدنيا من حولكم تهيم فى بيداء الجهالة ، أو لم تكونوا يوماً أصحاب السيادة وغيركم سادرون فى مجاهل الخنوع والمذلة ، أو لم تجيّشوا الجيوش وتحسموا المعارك وسواكم لا يزال فى ضلالة الهمجية » .

وهكذا استطاع محمد على بفعال جيشه المجيد أن يحوّل مصر من أمة مهملة إلى أظهر دولة فى الشرق الوسيط . وشيد لمصر شهرة ومجداً لم يكونا لها من قبل . وأنشأ جيشاً من أظهر جيوش العالم قوة وتسليحاً . جيش لم يكن هدفه الغزو قدر ما كان قوامه الإصلاح والتعمير . وخير دليل على ذلك ما اعترف به معظم المؤرخين من أن جيش محمد على لم يكن آلة الفتح والسلطان فحسب بل كان وسيلة لنشر العلم وبث الحضارة .

وهكذا أصبح لمصر الحديثة تاريخ حربى مجيد يشرف أعظم الدول شأناً . والفضل فى هذا التاريخ الناصع يعود بلا مراء إلى هذا المصلح الكبير محمد على العظيم رأس الأسرة الملكية فى وادى النيل .

حفظ الله حفيده الكريم ، وصان جيشه الباسل ، وجعل عهده كعهد جده الأكبر ، وظل جيشه موسوماً بالجيش المظفر .

جمادى الأولى ١٣٦٩
مارس ١٩٥٠

القائمقام عبد الرحمن زكى
مدير المتحف الحربى
وعضو الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

الفصل الأول

نشأة محمد على

يقول السير تشارلس مورى[1] فى الكتيب الذى وضعه عن محمد على : إنه لما كانت أمه حاملا به ذهبت يوماً إلى عرافة ذاع صيتها فى « قوله » وسألتها عما يخبئه الزمان لمولودها الجديد فتنبأت لها بأن ولدها سيرقى ذروة المجد والعظمة ويبلغ مرتبة الحكام والملوك فاغتبطت بهذه النبوءة . ولما ترعرع ابنها لم تكف عن ترديدها له فأثرت فيه تأثيراً عظيما وتولد فيه شعور الطموح إلى المجد ثم لم يلبث أن أحس بدافع يدفعه إلى سلوك الطريق المؤدى إليه فأخذ يرقب الفرصة بفارغ صبره إلى أن سنحت له فتحينها بمهارة وشجاعة . . . كما سنرى .

لم يكن مألوفاً فى السلطنة العثمانية عند ما ولد محمد على فى « قوله » فى سنة ١٧٦٩ أو فى ١٧٧٠ أن يعرف المرء السنة التى رأى النور فيها على وجه التحقيق . كان والده يدعى « إبراهيم أغا » وكان رئيساً للحرس المنوط به حراسة الطرق . والشائع أنه توفى ومحمد على لا يزال حدثاً . ولكن يفهم من حديث له مع البرنس بوكلر موسكو أنه كان فى الخامسة عشرة على الأقل لما حرمه الموت من والده وإن يكن الذائع غير ذلك[2].

قال محمد على للبرنس بوكلر موسكو فى حديثه الذى نشير إليه هنا : « وعجيب أننى الوحيد الذى ظل حياً من سبعة عشر ولداً رزقهم والدى . وقد توفى تسعة

---

(١) قنصل إنجلترة فى مصر على عهد محمد على وعباس الأول وهو صاحب مؤلفات جمة ــ نقل هذا الكتيب إلى اللغة العربية الأستاذان سليم حسن وطه السباعى فى عام ١٣٣٧هـ . ونشرته دار المعارف .

(٢) بوكلر موسكو ص ٣١٩ . راجع فى هذا الكتاب صفحات كثيرة عن نشأة محمد على .

منهم وهم فى المهد . فبعث ذلك والدى على تنشئتى تنشئة رغدة هنية فلم ألبث أن ترعرعت رقيق العود فأخذ أصحابى يسخرون منى وكثيراً ما سمعتهم يقولون : «ماذا سيكون مصير محمد على . . . فإنه لا يملك شيئاً وليس أهلا لأن يعمل شيئاً » فكان لترديدهم هذا الكلام وقع عظيم فى نفسى . فلما بلغت الخامسة عشرة عزمت على إصلاح حالى والتغلب على الكيفية التى رُبيت عليها فأخذت أصوم أياماً برمتها لأروّض جسمى وأعوّده الجوع وأمسك عن النوم ليالى طويلة لأبث فى نفسى روح التجلد والصبر على المجهود والعناء » .

ولما توفى والده كفله عم له وكان يدعى « طوسون أغا » والشائع كذلك أنه لم يعتم أن توفى بعد أبيه بفترة قصيرة من الزمان فشمله حاكم « قوله » برعايته وزوّجه من ابنة صديق له كانت فى بسطة من العيش فاستعان بمالها على مزاولة تجارة الدخان .

ونقول « الشائع » لأنه جاء فى حديث رواه البرنس « بوكلر موسكو » أن محمداً علياً أفضى إليه بـ « أنه لما كان فى التاسعة عشرة من عمره اشتد عبث القرصان اليونانيين بالمناطق القريبة من قوله فصدر أمر إلى عمه أن يتولى البحث عنهم على رأس قوة من الجند ويقضى على عبثهم فذهب إلى الحاكم وشكا إليه قائلا إن أشغاله ومصالحه تخرب إذا انقطع عنها لأنه ليس فى العائلة من يستطيع الاعتماد عليه فيها وإن صحته لا تؤهله لهذه المهمة وإنه يؤثر فى هذه الحالة أن يرشح لها ابن شقيقه — أى محمد على — ولا سيما أنه شاب مقدام ومتدرب على الكر والفر . . . وبعد حديث طويل فاز بإقناع الحاكم .

قال محمد على : « أما أنا فلم يكن فى وسعى أن أشتهى خيراً من ذلك فما كاد الأمر يصدر إلىّ بالشروع فى مهمتى حتى خرجت حالا للبحث عن القرصان فهدانى حسن الحظ إلى مقرهم . وبعد ما تعقبتهم مدة غير طويلة وفقت إلى اعتقالهم بسفينتهم وهم أحياء فكوفئت على ذلك بأن عينت ضابطاً فى الأسطول العثمانى برتبة يوزباشى وكنت يومئذ فى العشرين من عمرى . غير أن ترقيتى السريعة أثارت حسد كثيرين . ويغلب على ظنى أن عمى

كان واحداً منهم فأرسلنى بعد ذلك بمدة قصيرة إلى مصر[١] .

ونقرأ فى مراجع أخرى الكثير من المهمات التى كان يوفد إليها محمد على بأمر حاكم قوله . وفى كل مهمة كان يعود منها موفقاً فائزاً .

وظل محمد على فى خدمة هذا الحاكم حتى اليوم الذى خشيت فيه الدولة عاقبة تقدم الفرنسويين فى مصر وقررت دفع عاديتهم عنها فبدأت تعد الحملة التى ترسلها إليها لهذا الغرض . وصدر الأمر إلى كل منطقة بأن تقدم عدداً من الرجال وتعين على بلدة قوله أن تقدم فصيلة مؤلفة من ثلاثمائة مقاتل بسلاحها وعُددها .

وبعد ما أتمّ حاكم قوله إعداد الفصيلة أراد أن يبالغ فى إظهار ولائه للسلطان فعيّن ابنه « على أغا » قائداً لها وتخير محمداً علياً مساعداً له ومستشاراً.

وما كاد يصل إلى مصر (١٨٠١) حتى اختلى به يوماً على أغا وصارحه بأنه لا يأنس من نفسه ميلا إلى حياة الجندية وأنه عوّل على أن يتخلى له عن قيادة القوة التى هو قائدها لاعتقاده أنه خير من ينزل له عنها[٢] .

وعلى أثر جلاء الفرنسويين عن مصر بموجب الاتفاق المعروف مع إنجلترة ذهب حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية فى إسكندرية إلى خسرو باشا المعين والياً على مصر من لدن السلطان وقدّم له « محمد على » مطرياً كفاءته منوهاً بما أبداه فى معركة الرحمانية من شجاعة فى منازلة الفرنسويين مؤكداً له أنه يستطيع أن يعتمد عليه .

وكان خسرو باشا مديناً لقبطان باشا بالمنصب الذى قلّده فاطمأن إلى النصيحة التى أسداها إليه واصطفى « محمد على » فلم ينقض على معرفته له غير وقت قصير حتى أتيح له أن يمتحن مواهبه فرقاه إلى رتبة لواء فغدا ثانى القواد الألبانيين فى المقام . أما الأول فكان طاهر باشا المعروف بطاهر باشا الأرناءودى .

---

(١) بوكلر موسكو . ص ٣١٩

(٢) كريم ثابت — محمد على ص ١٦—٣٢

ومنذ ذلك الحين شرع محمد على يمنى النفس بالآمال الواسعة . . .

وكان طاهر باشا رجلا طموحاً يرقب الظرف الملائم لينقلب على خسرو باشا . فلما كان شهر ابريل سنة ١٨٠٣ أيقن أن الجنود ممتعضون من معاملة خسرو لهم وناقمون عليه لتأخره فى دفع مرتباتهم فرأى أن الفرصة مواتية للتخلص منه فيخلو له الجو فهاجمه فى قصره على رأس قواته الألبانية . وشعر خسرو بأن القوة التى يمكن الاعتماد عليها لا تكفيه لمقاومة المعتدين عليه فلجأ إلى المنصورة أولا ثم إلى دمياط (مايو سنة ١٨٠٣)

ولم يمد محمد على يد المساعدة لخسرو باشا لأسباب أهمها شعوره بأن الجنود العثمانيين والأهلين غير راضين عنه ، وأن الجنود الألبانيين يشاطرونهم هذا الشعور .

ويشاء القدر أن يلقى طاهر باشا حتفه بعد التجاء خسرو إلى دمياط باثنين وعشرين يوماً (٢٥ مايو عام ١٨٠٣) . وبمصرعه أصبح محمد على القائد الأول للجنود الألبان فى مصر فازداد إيمانه بحسن طالعه .

والتفت محمد على يومئذ يميناً ويساراً فرأى أنه لم تبق فى مصر قوة يجب عليه أن يحسب حسابها سوى قوة المماليك وإن يكن محمد الألفى بك أحد كبار زعمائهم قد هجرهم ورحل مع الإنجليز عند جلائهم عن مصر بدورهم بعد الفرنسويين فقرر أن يخطب ود المماليك وتنفيذاً لهذه السياسة فتح لهم أبواب القاهرة .

وظن خسرو عندئذ أن الوقت ملائم له ليحاول العودة إلى القاهرة واسترداد السلطة التى كانت له فيها فتألبت عليه قوات محمد على مؤتلفة مع قوات المماليك وتغلبت على رجاله واقتادته أسيراً فاعتقل فى القاهرة فى أواخر يوليو عام ١٨٠٣ .

وفى تلك الأثناء عين الباب العالى على باشا والياً على مصر خلفاً لخسرو فنزل الإسكندرية فى ٨ يوليه سنة ١٨٠٣ وحاول أن يصل إلى القاهرة بطريق النيل فقبض عليه رجال البرديسى أحد زعماء المماليك وقتلوه فى الطريق إلى الشام .

محمد الألفى

وفى ١٢ فبراير عام ١٨٠٤ عاد محمد الألفى بك من زعماء المماليك إلى مصر على سفينة انجليزية أنزلته على شاطئ أبى قير . وكان الإنجليز يأملون أن يساعدهم نجاحه على بسط نفوذهم على السواحل المصرية .

علم محمد على بعودة الألفى إلى مصر فأوجس فى نفسه خيفة لأنه كان يحسب له حساباً كبيراً ويعده أقوى خصومه لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه فأنفذ رجاله للقبض على الألفى وقتله . وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا اختفاؤه وفراره فنجا بنفسه وذهب إلى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم .

وفى مارس سنة ١٨٠٤ عزم البرديسى على فرض ضريبة جديدة على الأهالى وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجولون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمطرون اللعنات على الحكام وكانت غالب صيحاتهم على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادى :

« إيش تاخد من تفليسى يا برديسى ! »

وأغلق التجار محلاتهم وحوانيتهم واتجهت جموع الناقمين إلى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة فقام هؤلاء إلى أمراء المماليك يطلبون إلغاءها .

لقد نفخ فى بوق الثورة ! وأخذت روحها تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة . . . فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الميادين والشوارع . وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده

فبادر إلى « كشف » المماليك قبالة الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضبه وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجماهير وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب فاختلطوا هم أيضاً بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضرائب وجاهروا أنهم يطالبون برواتبهم من الحكومة لا من الأهالى !

كسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك الفوضى الشاملة .

أما عثمان بك البرديسى فقد قابل تلك الثورة بالغطرسة والكبرياء ونقم على المصريين الذين لم يمتثلوا لأوامر المماليك بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك فى الأقاليم فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى مناحى العاصمة واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

رأى المماليك أنفسهم حيال قوتين : ثورة الأهالى من جهة وجنود محمد على من جهة أخرى فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة ، وكان أول الفارين البرديسى ثم إبراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فتسلم جنود محمد على القلعة .

قصد محمد على القلعة للقاء خسرو باشا الوالى القديم وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية فى البلاد . فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل وعين من بعده خورشيد باشا .

ثم نجح المماليك فى جمع شملهم وعادوا للجيزة بقيادة البرديسى وإبراهيم بك لفتح القاهرة واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة

أشهر حتى ارتدّوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد .

وبدأ خورشيد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على وقد رأى أمامه شخصية جبارة تطغى على نفوذه فاستصدر من الآستانة فرماناً بعودة محمد على وجنوده إلى بلادهم . فلما وصل الفرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة وتظاهر بالإذعان وأعدّ عدته للرحيل ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة .

اهتزت القاهرة لنبأ هذا الرحيل وأقفلت الأسواق وكاد حبل الأمن يضطرب وأخيراً قَبِل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد باشا عدول محمد على عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك فى الصعيد ليتخلص منه وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمده بإمدادات قوية فأوفدت إليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل إلى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة إلى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة فى البلاد .

ثورة القاهرة

فرض خورشيد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات فضجوا منها وأقفلوا حوانيتهم وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها إلا القليل . واشتد هياج الناس واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجماهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول وصعد الكثيرون منهم إلى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلعة دوى صياحهم وأخيراً اضطر خورشيد باشا إلى رفع الضرائب وأعلن إبطالها ونادى المنادون فاطمأن الناس وتفرقوا .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش

العثمانية فقد أخذوا يعيثون فى الأرض فساداً وقال عنهم الجبرتى الذى شاهد أفعالهم وهو يتنقل بين أنحاء القاهرة ليعود إلى بيته ويسجل فى تاريخه النفيس ما كان يراه كل يوم :

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها وكانوا إذا سكنوا داراً خربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عمّ الخراب سائر النواحى وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم » .

وكان خورشيد يرى أنه لا يهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد إلى المنيا محمد على مع حسن باشا بجنودهما فى الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما فى مهمتهما .

وكان خورشيد قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصدهما عن التقدم بالقرب من طرة . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هذا المعقل دون أن يلقى أية مقاومة . فإنه لما اقترب من قلعة طرة طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم فأجابوه إلى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم ألا يتعرضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريق .

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل سنة ١٨٠٥ ليبدأ النزال بينه وبين خورشيد باشا وجهاً لوجه .

القاهرة

بين أول مايو وتاسع يوليو

فى يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالى الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالا ونساء إلى جهة الجامع الأزهر وانتشر خبر

الاعتداء بسرعة البرق فى المدينة كلها .

اجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخاطبوه لوضع حد لفظائع الدلاة . فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس وكان هذا الأمر صورياً لأن الجنود لم ينفذوه .

خوطب الوالى ثانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة فلما علم الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها فى المدينة .

وفى يوم الخميس عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت واحتشدت الجماهير فى الميادين والطرق .

أدرك الوالى خطر الحالة وأرسل وكيله صحبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لكبح جماح الهياج فلم يجدهم بالأزهر فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له فى الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تتركه يدخل إليها دون أن ترجمه بالأحجار ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة .

لم يكن سهلا إجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالى فى القتال . واستمر العلماء مضربين عن إلقاء الدروس وأقفلت الأسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

ولاية جدة

اعتقد خورشيد باشا أنه نجح فى مسعاه لإقصاء محمد على عن مصر . فقد ورد فرمان سلطانى بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل فى الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخلع عليه خلعة الولاية الجديدة .

لكن محمد على أدرك ما فى هذا التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به إذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة بأى منزل يتخيره الباشا .

غضب خورشيد باشا من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع فى منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة وصديق محمد على . فرضى خورشيد باشا بهذا الحل مرغماً وذهب فى الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة الفرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد باشا عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات .

« محمد على لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لإعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظاً للقاهرة ووالى مصر وليذهب خورشيد لجدة » .

فماذا يصنع محمد على الآن ؟

جنود الألبان منظمون . وبإشارة من قائدهم يصطفون أمام الوالى ويحيطون به ويمتطى محمد على جواده فى طليعتهم ويحرس خورشيد باشا إلى القلعة . يتم كل ذلك بهدوء ليحفظ بنفسه لممثل خليفة المسلمين وقار منصبه وسمو مركزه !

القاهرة الآن حيال الخطوات الأولى لدولة عظيمة فى طريق البناء . . .

١٢ مايو

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة يوم السبت ١١ مايو وكان لا يزال باقياً منهم نحو ١٥٠٠ . وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية .

فى صباح يوم (١٢ صفر ١٢٢٠ — ١٢ مايو ١٨٠٥) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقـة الوجاقلية والمشايخ أمام دار

المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لإصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحاً فسلاحهم إيمانهم وتستطيع أن تتبين نفسية الشعب فى ذلك اليوم الرهيب وتحكم عليها من ندائه : « يا رب يا متجلى أهلك العثمانلى » .

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا فى تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ووافاهم وكلاء الوالى بعد أن طالبهم قاضى المحكمة فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها إلى القاضى وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة .

فلما اطلع عليها ارتأى أن الحركة خطيرة فأرسل إلى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء إلى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر إلى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب إليه .

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً ورفض إجابة مطالبهم .

ولاية محمد على

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع فى اليوم التالى بدار المحكمة للمداولة واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم . واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على والياً مكانه . وقاموا فى عصر اليوم إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية » .

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلا :

« إننا خلعناه عن الولاية »

فسأله محمد على : « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : « لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير » .

فتردد محمد على فى مستهل الأمر لكى لا يقال عنه إنه المحرض للثورة فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « إننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة » فقبل محمد على الولاية وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية .

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيد باشا فرفض الإذعان لمطالبهم وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لإخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإرغام الوالى على التسليم .

احتشد الثائرون فى ميدان الأزبكية وعبثاً حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة .

السيد عمر مكرم

استمر القلق والاضطراب إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ وفى تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج جنود الوالى من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار فتبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ثم ارتد جنود الوالى إلى داخل القلعة . واستمرت الحرب سجالا حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم . ولم يكن ذلك إلا خدعة منه ليتزود من الذخيرة وفى يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم فى حصار القلعة على رأس الوجاقلية والشعب وأهل خان الخليلى والمغاربة . ومن العجيب أن الفتور كاد يتسرب إلى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار فى القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد على باشا فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا فأبوا ولم يمتثلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا فأخذ مكانهم جماعة من المصريين .

وكان السيد عمر مكرم حريصاً على نجاح حركته وصيانتها من الفشل وقد حدث فى مدة الحصار أن حضر أحد قواد الوالى بقواته ورابط بمصر القديمة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وأن يمد حاميتها بالمؤن والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد على لصرفهم عن حركتهم . ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبة فى أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة . وبينما كانت إحدى قوافل الجمال المحملة بالمؤن فى طريقها إلى القلعة خرج عليها « حجاج الخضرى » شيخ طائفة الخضرية وطائفة من أهالى الرميلة فضربوا « الجمالين » وحاربوهم واستحوذوا على جمالهم وتغلبوا عليهم . فلما رأى الوالى ذلك أمر بإطلاق المدافع على القاهرة ولا سيما نحو جهة محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر واستمر الضرب من أول النهار إلى ما بعد الظهر فتهدمت بعض البيوت القديمة .

استمر القتال بين الشعب والوالى إلى أوائل شهر يولية عام ١٨٠٥ حتى أرسل محمد على باشا إلى السيد عمر مكرم مشيراً عليه بإرسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم المقطم التى تشرف على القلعة لتهديد الوالى وقوته المعسكرة فيها . فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر المدفع فأخرجوه من باب البرقية فباب الوزير حتى تم تركيبه فى المكان الذى عيّنه محمد على باشا . وأخذ الثوار يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلا بين الفريقين وبهذه الفكرة أنقذ محمد على العاصمة من أذى شديد كاد يلحق بها .

وفى تلك الآونة وصل الإسكندرية « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالى قادماً من الآستانة يحمل فرمان الولاية . ولكن يحمل اسم من يا ترى ؟ خورشيد ؟ محمد على . . . أيهما ؟ وصالح بك صامت لا يقول شيئاً كأنه لا يعرف مضمون أوراقه .

هذا المندوب السامى فى طريقه إلى القاهرة . . . ينتظره شعب مصر بفروغ صبر فمعه مستقبل بلاده . وليس للناس حديث سواه . وأخيراً يصل صالح بك إلى بولاق فى عاشر أغسطس — فيتفرس فى وجوه المستقبلين قارئاً ما يجول فى

أفكارهم ويعلن الملأ بأن السلطان العظيم قد لبى رجاء العلماء وولى محمد على قائمقامية القاهرة المحروسة وولاية مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية .

فكيف كان موقف القاهرة حينذاك ؟

خرج محمد على باشا وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالى بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والخليفة والرميلة والحطابة والحبالة وفى الطليعة « حجاج الخضرى » وبيده سيف مسلول وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين ومعهم الطبول والمزامير . وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا إلى الأزبكية فنزلوا بيت محمد على باشا وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم الذى أحضره « صالح بك » بولاية محمد على على مصر وعزل خورشيد باشا .

يوم مصر

هو اليوم السعيد الموافق (١١ ربيع الثانى ١٢٢٠ = ٩ يوليه ١٨٠٥) فى اليوم التالى بدأت القاهرة تتنفس الصعداء بزوال نظام بائد من الحكم واستقبلت حكم أسرة محمد على .

فى ذلك اليوم قصد السيد عمر مكرم بيت محمد على باشا فى جمع كثير من الجند والأهالى والمغاربة والصعايدة والأتراك وكانوا مسلحين وبعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده إلى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ثم عاد إلى بيته .

وامتنع رمى القنابل فى القلعة كما صدر أمر بوقف نيران مدافع الجبل واستمر الحصار حول القلعة منعاً للمفاجآت حتى أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الأثنين (٩ جمادى الأولى ١٢٢٠ هـ = ٥ أغسطس ١٨٠٥ م) وأنزل الوالى السابق حريمه وجنوده وأتباعه وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبل إلى باب النصر فجهة الحروبى فبولاق . وقد ودعه محمد على باشا وعمر بك

وصالح بك وأقلعت السفينة التى أقلته إلى الإسكندرية .

أصبح محمد على سيد القاهرة وسيد مصر على الإطلاق وبدأ فى تنفيذ مشروعاته العظيمة وأولها إخضاع المماليك وتطهير البلاد من جماعات الإرهاب .

ضربة قاضية

فى اليوم التالى من وصول خورشيد إلى الإسكندرية وصلت قوة من المماليك تبلغ الأربعمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم نذكر منهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى وأحمد كاشف سليم وعباس بك وعبروا بوابتى الفتوح والنصر ثم ساروا فى كبكبة عظيمة وأمامهم الطبول والمزامير والنقرزان فاخترقوا ميادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الأشرفية وكانت أتباعهم ينضمون إليهم كلما تقدموا داخل المدينة فما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجمت عليهم الجنود الألبان وحاصرتهم من كل جانب فلم يتقدموا ولما أرادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة فترجلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المساجد القريبة للاختفاء فيها ولجأ آخرون إلى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديداً فلم ينج منهم أحد ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويعرى من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تفصل رأسه عن جسمه ثم تسلخ وتحشى بالتبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسياً فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد ولكن عدوهم كان شديد الوطأة متيقظاً فأبادهم ولم يفلت منهم غير القليل إذ وقعوا فى الشرك الذى أتقن حبكه ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه فقد كان ينتظرهم شرك آخر . . .

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصراف الأهالى كل إلى داره فقاموا بمفاجأتهم وقد أيقنوا أنهم لا بد ناجحون ... وكأنهم لم يعرفوا من قبل بطش محمد على . فلم يتوان عن أن ينزل بهم ضربة قوية كانت القاضية.

ويريد القدر أن يعاون محمد على ويمهد له طريق النجاح .

فيموت البرديسى زعيم المماليك أحد خصمى محمد على .

وبعد أيام يموت الألفى مسموماً على يد حريمه فيخلو الجو أمام محمد على الذى أصبح سيد مصر بدون منازع .

الحملة الانجليزية على مصر

كان الميجور « ميست » قنصل إنجلترة العام فى مصر منذ سنة ١٨٠٣ لا يفتأ يلح على حكومته بضرورة العودة إلى احتلال مصر بعد جلاء الفرنسيين . وشرعت فكرة العودة تختمر فى رأس الحكومة الإنجليزية ولم يلبث أن استقر قرارها على أن يقتصر الاحتلال فى بادئ الأمر على الإسكندرية لأنها لم تكن حتى ذلك الحين خاضعة لسلطة محمد على إلا شكلا واسماً فقد نال سكانها فى سنة ١٨٠٥ بإيعاز من الميجور ميست فرماناً يجعلها تحت سلطة ضابط بحرى مستقل عن والى القاهرة استقلالا تاماً . وقد حاول محمد على أن يرشو هذا الضابط ليقبل حامية ألبانية فى الإسكندرية . فأبى بتأثير من القنصل (١) .

بين معركتى رشيد والحماد

وفى مارس ١٨٠٧ تصل القوات الإنجليزية ميناء الإسكندرية بقيادة الجنرال فريزر فتنزل بأمان إلى الشاطىء ، فقد تواطأ حاكمها العثمانى « أمين أغا » مع القادمين .

فى ذلك الحين كان محمد على يحارب المماليك الذين تمردوا عليه فى بعض أقاليم الوجه القبلى فاستطاع الاتفاق معهم ليتفرغ لمقاومة الجيش الإنجليزى وإجلائه قبل تثبيت أقدامه . وفى ٢٩ مارس تقدمت قوة إنجليزية مؤلفة من

---

(١) كتاب الميجور ميست إلى وزارة الخارجية البريطانية فى أول يناير عام ١٨٠٦ .

حوالى ألفى جندى بقيادة الجنرال ويكوب (Wacop) واحتلت رشيد بعد يومين .

وكان تحت إمرة محافظ رشيد « على بك السلانكى » سبعمائة جندى فعزم على مقاومة الجيش الإنجليزى وعدم التسليم إلا بعد أن تفنى قوته ويستشهد آخر مجاهد وأمر بإغلاق أبواب البيوت ونوافذها تضليلا لرجال الحملة . وبأن يعتصم الجنود والأهالى بالمنازل مستعدين للضرب عند ما تصدر إليهم الإشارة بإطلاق النار .

اطمأنت الجنود وتقدموا نحو المدينة ودخلوها آمنين . ثم انتشروا فى الطرقات والأسواق . وما كادت تشتمل المدينة عليهم حتى أصدر البطل على بك أمره بإطلاق النار فاقتحمهم الرصاص من كل ناحية وسقط الكثيرون منهم قتلى ومن بينهم الجنرال ويكوب . ولاذوا بالقهقرى إلى الإسكندرية بطريق أبى قير . وبلغت خسائرهم ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحاً و ١٢٠ أسيراً .

كان هذا النصر الأول لمعركة رشيد (٣١ مارس سنة ١٨٠٧) . وقد أصابت المعركة الجيش الإنجليزى فى كبريائه . فرام الجنرال فريزر (Fraser) أن يزيل أثرها ، وعزم على تجريد قوة أخرى للزحف على رشيد وعهد بقيادتها إلى الجنرال ستوارت .

بلغ خبر تلك المعركة محمد على باشا — وكان قد وصل إلى القاهرة (١٢ أبريل سنة ١٨٠٧) — فاطمأنت نفسه إلى نتائجها . وبادر بإعداد حملة للقضاء على الحملة الإنجليزية . وألفها من أربعة آلاف مقاتل من المشاة وخمسمائة وألف من الفرسان . وسارت قاصدة رشيد بقيادة طبوزاوغلى[1] ودارت المناوشات بين القوات الإنجليزية وأهالى رشيد . ولكن هؤلاء لم تؤثر فيهم نيران مدافع الإنجليز الطويلة المدى . وما قذفته عليهم من القنابل الثلاثمائة . بينما لم ينقطع الأهالى عن مناوشة مواقع الإنجليز فى الحماد .

واستمرت المعارك الصغيرة بين الطرفين إلى أن جاء المدد الذى أرسله

(١) هو كتخذا بك أى نائب محمد على . وهو جد حسين رشدى باشا أحد رؤساء الوزارة السابقين .

محمد على باشا بقيادة البطل طبوزأوغلى . . . فتغير الموقف . . .

والتحمت طلائع الأمداد بكتيبة من فرسان الإنجليز فقتلوا منهم عدداً وأسروا ما تبقى واسترسلت المعارك بين المصريين والإنجليز أياماً متتالية حتى ابتدأت وانتهت معركة الحماد بهزيمة الجيش الإنجليزى . وبلغت خسارته نحو ٤١٦ قتيلا و ٤٠٠ أسير .

أما قوات الجنرال ستوارت وكانت مرابطة فى جنوب رشيد فقد سارعت بالانسحاب قبل أن ينقض عليها الجيش المصرى . وأتلف مدافعه . ووصلت إلى بحيرة ادكو ومنها إلى أبى قير . ومن هناك استقلوا السفن إلى الإسكندرية .

كانت معركة الحماد (٣١ أبريل سنة ١٨٠٧) خاتمة هزائم الحملة الإنجليزية وأسقطت هيبة القادمين وخاصة لما جمع طبوزأوغلى بك أسراهم وشحنهم فى السفن إلى القاهرة ليتحقق الناس عظم انتصار الجيش المصرى[١] وبوصولهم سيقوا من بولاق إلى الأزبكية ومنها إلى القلعة وعددهم ٤٨٠ أسيراً وفى مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزى الماجور مور والماجور وجلسند (Wogelsand)

توقع محمد على أن يمتنع الإنجليز فى الإسكندرية بعد وصول الإمدادات إليهم فطفق يعد العدة للزحف على الإسكندرية ليجلى الإنجليز عنها ولكن جاءه رسول من قبل الجنرال فريزر يحمل رسالة المفاوضة فى الصلح وشرطها الأول جلاء الجيش الإنجليزى عن مصر .

وها هى ذى نسخة المعاهدة التى تم الاتفاق عليها بين الجنرال شيربروك والقومندان فلوز بالنيابة عن قومندان البحر هانويل والجنرال فريزر قائد الجنود البرية الإنجليزية وبين حضرة صاحب الدولة محمد على باشا والى مصر مستخرجة من دفتر السجل رقم (١) من السجلات التركية بدار المحفوظات المصرية بالقلعة وهذا معرب شروطها[٢] :

---

(١) تاريخ الحركة القومية — الجزء الثالث — ص٦٢ — للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك.

(٢) نشرها حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون فى جريدة الأهرام.

الشرط الأول :

إيقاف القتال بين الطرفين فى الحال عند البدء فى المفاوضة ، وعلى القواد الإنجليز أن يخلوا الإسكندرية ويتركوا القلاع والمتاريس والمدافع والمهمات بالحالة التى هى عليها بعد مضى عشرة أيام من إمضاء هذه المعاهدة ، وعلى سمو الوالى أن يقدم صهره مصطفى بك وخاله إسحاق بك ومهرداره سليمان أفندى ليكونوا فى سفينة إنكليزية بصفة رهائن إلى حين تنفيذ هذه الشروط .

الشرط الثانى :

تعطى الحرية التامة للأسرى الإنجليز الذين بالقطر المصرى وبعد استيلاء سمو الوالى على الإسكندرية تماماً ترسل الأسرى إلى المرفأ الواقع فى نهاية النيل (رشيد) وبعد إنزالهم إلى السفينة الإنجليزية يطلق سراح الرهائن .

الشرط الثالث :

العفو عن سكان الإسكندرية المذنبين وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم .

الشرط الرابع :

أمين بك الألفى المصرى الذى كان أبحر من الإسكندرية أثناء وجود الإنجليز بها يكون هو ورجاله الاثنا عشر آمنين على أموالهم وأرواحهم بعد عودتهم ويرسلون إلى المكان الذى يرغبون الإقامة فيه مع حفظهم وصيانتهم من التعدى عليهم .

الشرط الخامس :

يسلم الأسرى القريبون فى الحال وحيث أنه لا يتسنى تسليم الأسرى البعيدين حالا فبعد استيلاء سمو الوالى على الإسكندرية يبقى فيها مندوب إنجليزى ليتسلم كل من حضر منهم مع الترخيص له من سمو الوالى بترحيل الأسرى الذين يتسلمهم على سفينة إنجليزية أو كما يتراءى له ويسهل عليه لإرسالهم إلى سيسيليا

ومالطة فى ١١ رجب سنة ١٢٢٢ (١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧) .

وظل محمد على باشا فى الإسكندرية إلى أن قدم القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧) . فخرج للقائه العلماء والأمراء . وأطلقت لقدومه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت القاهرة ثلاث ليال .

ولا يفوتنا هنا أن نسجل ما نوه به البروفسور دودويل فى كتابه « مؤسس مصر الحديثة » فقد قال معقباً على انتصار جنود محمد على فى معركةالحماد :

« لو كان الذى أحرز هذا النصر غير محمد على لأسكرته نشوة الانتصار ولقتل الأسرى أو عذبهم وألقى بمن بقى حياً فى البحر من دون تقدير العواقب بيد أن محمداً علياً لم ينس أن الصلح سيعقد عاجلا أو آجلا » .

وإذا كانت الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ قد كلفت محمد على كثيراً من الرجال والأموال فإن نتائجها جاءت أسطع دليل على أنه غدا صاحب الأمر والنهى فى مصر . وكان من نتائجها كذلك أنها كشفت ضعف المماليك كما كشفت للسلطان ورجاله عن حقيقة قوة محمد على . فقدروه حق قدره وهيأوا لابنه إبراهيم سبيل العودة إلى مصر — وكان قد سافر إلى الآستانة (أكتوبر ١٨٠٦) بصحبة القبطان باشا ليقدم ولاء أبيه إلى السلطان — بعد ما بالغوا فى تكريمه . . .

وأسدت الحملة الإنجليزية فائدة أخرى إلى محمد على ، وهى أنها نبهته إلى ما للقوة البحرية من أثر بجانب القوة البرية وما للأسطول البريطانى من سلطان على البحار . فأخذ يفكر فى الفوائد الاقتصادية التى تجنيها مصر لو أصبح هذا الأسطول صديقاً لها[١] . . .

وفعلا شرع محمد على يدعم علاقاته الاقتصادية مع الإنجليز على كره من الفرنسويين الذين حاولوا القضاء على تلك الصلة الجديدة . ولكن محمد على

---

(١) كريم ثابت — محمد على ص ٥٣ .

وقد وضع نصب عينيه صوالح بلاده لم يفكر إلا فيما يعود عليها بالخير .

والآن لم يتبق قبالة محمد على سوى التخلص من البقية الباقية من المماليك ولا سيما جماعة الألفى بك – وهى الجماعة التى كان يتزعمها «شاهين» بك خليفة الألفى – بالرغم من المفاوضات التى كانت تدور بين الرجلين .

وفى أغسطس ١٨١٠ حشد محمد على قواته على مقربة من الفيوم وأنزل ونجله إبراهيم بك بالمماليك هزيمة نكراء أدركوا بعدها أنه لم يعد لهم أمل فى المقاومة فاستسلموا وقطن بعضهم فى القاهرة وذهب فريق آخر إلى الوجه القبلى للعيش فى أراضيه هناك .

ويطول الحديث إذا عرضنا بالتفصيل لما دار بين محمد على والمماليك بين سنة ١٨٠٧ وأغسطس سنة ١٨١٠ لما ضرب الباشا المماليك ضربته القاضية .

كان من الضرورى التخلص من تلك الفئة بعد ما تبين محمد على صلتهم بانجلترة عن طريق زعيم المماليك شاهين بك . فإنه على أثر استسلام هذا الزعيم وفق المسيو دروفتى قنصل فرنسا فى مصر للحصول على « أصل » عدة كتب دارت بين شاهين بك والإنجليز وأهمها كتاب أرسله شاهين بك فى شهر أغسطس سنة ١٨٠٩ إلى قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط . وهذا الكتاب مودع الآن فى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسوية فى باريس وقد أورده « مسيو دريو » بنصه الكامل فى كتابه الذى ظهر باللغة الفرنسوية بعنوان « محمد على ونابليون » وجمع فيه الكتب والتقارير التى بعث بها قناصل فرنسا فى مصر إلى حكوماتهم بين سنة ١٨٠٧ وسنة ١٨١٤ .

قال شاهين بك فى الجزء الأول من كتابه إلى قائد الأسطول البريطانى ما ترجمته : « إنه من الطبيعى أن يسعى كل امرئ لاسترداد أملاك انتزعت منه وسعادتكم لا تجهلون أن المماليك كانوا يحكمون مصر منذ زمان طويل وبناء عليه فإنى بوصفى الوارث الشرعى للمماليك أعتقد أن لى الحق كل الحق فى أن أصبو إلى حكم هذه البلاد ولكن بما أنى لا أستطيع أن أنتزع الحكم فى الوقت الحاضر من يد القابض عليه الآن – وحتى إذا استطعت ذلك فلا يمكننى

المحافظة عليه — من دون حماية بريطانيا العظمى فإنى أطلب حمايتها ومساعدتها بالشروط التى تريد هذه الحكومة — أى الحكومة البريطانية — أن تمليها علىّ . والشعب فى صفى . وجميع زعمائه يتمنون أن يروا السعادة فى اليوم الذى يعودون فيه إلى الحكم القديم . . . »

ويتبدى بجلاء من هذه السطور وغيرها مما ورد فى كتاب شاهين بك أن محمدا علياً كان مصيباً فى شكوكه وأن تقديره كان فى محله لما أفضى إلى دروفتى بأنه يخشى أن يعتمد الإنجليز على إلحاح المماليك وتأكيداتهم فيكرروا المحاولة التى حاولوها فى سنة ١٨٠٧ .

وما حلت سنة ١٨١١ حتى كان السواد الأعظم من المماليك قد دانوا لمشيئة محمد على وبينهم زعيمهم شاهين بك .

ولكن هؤلاء استمروا على تدبير المؤامرات ضد محمد على لينتهزوا الفرصة للخروج عليه . حتى اكتشف أن السبيل الوحيد هو القضاء عليهم قضاء مبرماً . فدعا بكوات المماليك ورجالهم إلى حفلة أقامها فى القلعة فى أول مارس ١٨١١ — بحجة الاحتفال بإلباس نجله طوسون باشا خلعة قيادة حملة الحجاز — فلم يروا مندوحة من الذهاب إلى الحفلة . فطوقهم رجال محمد على عند صدور الأمر إليهم بالإجهاز عليهم وظلوا يعملون فيهم الرصاص والسيوف إلى أن أفنوهم جميعاً . فلم ينج سوى واحد منهم قيل إنه ألقى نفسه من أعلى القلعة وهو على صهوة جواده[1] .

وبعد سنة تعقب إبراهيم « نجل محمد على » المماليك الضاربين فى الصعيد وأجهز على معظمهم وكان عددهم يقرب من ثمانمائة .

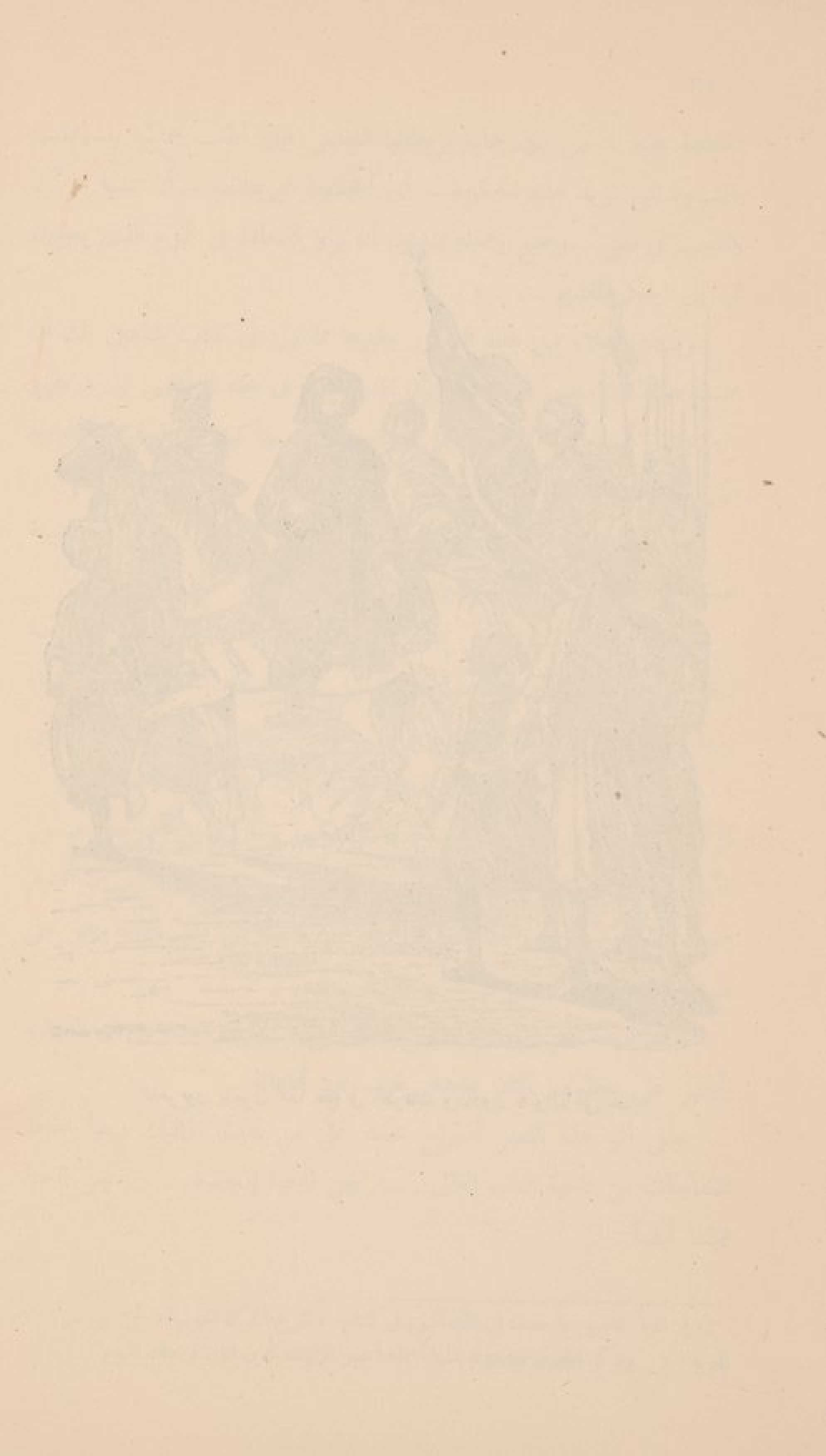
وعلى أثر هذا النصر استراح محمد على من عبث المماليك وبدأ يحتاط للمفاجآت من ناحية الباب العالى . . . ومن ناحية إنجلترة . . . ومن ناحية فرنسا أيضاً .

---

(١) اقرأ تفاصيل ما حدث فى ذلك اليوم فى كتاب « تاريخ الحركة القومية » ج٣ من ص ١٠١ إلى ١٠٨ . وذكر الجبرتى فيما دونه عنها أسماء أشهر المماليك الذين قتلوا فى ذلك اليوم .



القاهريون يتبعون محمداً علياً فى الطرقات وينادون به والياً على مصر



الفصل الثانى

الدفاع عن مصر قبل وصول محمد على

الحامية العثمانية والأوجاقات السبعة

كانت مهمة الحامية العثمانية بمصر الدفاع عنها والاشتراك فى حروب السلطان . وكذلك كانت لها اختصاصات أخرى غير حربية . فهى تساعد الباشا والصناجق وهم حكام المحافظات والأقاليم من الأتراك والأمراء المصريين فى توطيد الحكم العثمانى فى مصر . وفى الوقت نفسه تراقب الباشا والصناجق وتوازن سلطته . وكان رؤساء الحامية يحضرون اجتماعات ديوان القاهرة . وهم كهيئة رسمية لهم كلمة مسموعة فى إدارة البلاد . ويتضح ذلك فيما كانوا يقدمونه من المطالب إلى الباشا إذا ما أحسوا منه خروجاً على العرف القديم . وكلما فكروا فى استحداث قاعدة جديدة يعدلون بها نصوص قانون سليمان . وكذلك كان رجال الحامية العثمانية يشتركون فى صيانة الأمن فى القاهرة . ويساهمون فى حكم الأقاليم وفى جمع الأموال الأميرية[1] .

والحامية العثمانية فى مصر اشتملت على عناصر مختلفة . فهى كانت تضم أخلاطاً من العسكر من العثمانيين والمماليك والعرب والشوام والمغاربة . وبالتدريج أخذ عنصر المماليك فى الحامية يقوى على حساب العنصر العثمانى . وكان عدد الحامية يتراوح بين ١٢ ألفاً و ١٥ ألفاً[2] وكانت مقسمة إلى سبعة أوجاقات

(١) المجمل فى تاريخ مصر — تأليف بعض هيئة التدريس بكلية الآداب — جامعة فؤاد الأول ص ٢٥٥ — عام ١٩٤٢ .

(٢) مثال لعدد وحدات الحامية العثمانية فى مصر فى ١٠٧٤هـ (١٦٦٤) م ويوضح أهمية

« فرقة من الجند » وهى : المتفرقة والجاويشان والكوكللويان والتفنكجيان والجراكسة والمستحفظان أو يكيجريان والعزبان . وكان لكل أوجاق أغا أى رئيس وكتخدا وباش اختيار أى رئيس القدماء فيه . وجماعة اختيارية والجوربديه أى الضباط . وكاتب يمثل الأوجاق فى ديوان الروزناما لكى يساعد فى صرف مرتبات الأوجاق . ولنعرض بشىء من الإيجاز لهذه الأوجاقات كل على حدة :

١ ــ أوجاق متفرقة(١) : أهم أعمال هذا الأوجاق حفظ القلاع التى تحيط بمصر مثل قلاع الإسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط والعريش والطور وأسوان وأبريم . ولكل من هذه القلاع طوائف من المتفرقة المشاة والفرسان والطوبجية مع جماعة من الطبالين . ونافخى البورى والمعمارين والنجارين . ويشرف هذا الأوجاق أيضاً على تشهيل القوافل ونقل الغلال ومختلف البضائع والمهمات بين الصعيد والقاهرة والسويس . وتولى هذا العمل « قافلة باشى » أى رئيس القافلة وكذلك يعنى أوجاق المتفرقة بجمع البارود اللازم لشئون الدفاع عن مصر الذى يرسل جانب منه إلى السلطان .

٢ ــ أوجاق جاويشان (جمع جاويشية) كان العمل الرئيسى لهذا الأوجاق تحصيل الأموال الأميرية من الملتزمين وتوريدها إلى خزينة الروزنامة . ومن واجبه أيضاً الإشراف على شون الغلال الأميرية .

وكان المحتسب فى العهد العثمانى من رجال الجاويشان . وتتلخص اختصاصاته فى الإشراف على الأسواق وضبط الموازين والمكاييل وتسديد المواد التجارية وضبط الأمن .

٣ ــ ٥ أوجاقات كوكللويان وتفنكجيان وجراكسة(٢) : كانت هذه الأوجاقات من فرقة الاسباهية أى الفرسان . ويشرف كبراؤها على الباشا ومنهم

أوجاق مستحفظان ٣٢٦٥ متفرقة ــ ١٢٥٩ جاويشان ــ ١١٥٤ كوكللويان ــ ٩٠٧ تفنكجيان ــ ٨٣٣ جراكسة ٨٩٩ ٤ مستحفظان ــ ١٣٥٦ عزبان ــ مجموعها ١٣٦٧٣ .

(١) متفرقة فى الأصل التركى تدل على أنهم كانوا أصحاب نوع من الإقطاعات .

(٢) كوكللويان أى المتطوعين و تفنكجيان أى حملة البنادق وجراكسة هم المماليك الذين طلبوا إلى السلطان سليمان الانخراط فى سلك الحامية العثمانية .

أغلب رجال الضبط . وهم يشرفون أيضاً على حكم الأقاليم عن طريق من يقيم بها من رجال هذه الأوجاقات من الجورباجية والمتولية[١] .

وحكام الأقاليم لم يكونوا يبتون فى أمر إلا بعد مشورتهم . وكان الباشا ينص عليهم فى كل فرمان يصدره متعلقاً بحكم الأقاليم . ومن أعمالهم أيضاً المحافظة على الجسور ومساعدة الملتزمين فى تحصيل الأموال من الفلاحين .

٤ - أوجاق مستحفظان[٢] : وهؤلاء هم الانكشارية . وكانوا أقوى الأوجاقات وأكثرها عدداً وعرفوا بأوجاق السلطان . ومهمتهم مساعدة الباشا فى تنفيذ أوامر السلطان كما كانت لهم رقابة عليه . ومنهم طائفة من كبار أصحاب المناصب مثل كتخدا الباشا فى بعض الأحيان . وأغا الانكشارية الذى كانت له الرياسة العليا على ضبط مدينة القاهرة . وكذلك سردار الحج (أى قائد القوة العسكرية المرافقة للحجاج) وسردار الخزينة وهو قائد القوة المرافقة للخزينة المرسلة للسلطان .

٥ - أوجاق عزبان (رجال البحرية من حملة البنادق) : كان لرجال هذا الأوجاق عدة اختصاصات . فمنهم بحارة ترسانة الإسكندرية والسويس . وكان من رجاله أمير البحرين وهو المشرف على ساحلى بولاق ومصر القديمة . فيما يتعلق بالسفن وبالضرائب المفروضة على الغلال الواردة على هذين الساحلين وكذلك كانت لهم اختصاصات بوليسية فتتألف منهم مراكب البوليس بالقاهرة . ويشرفون أيضاً على الملاهى والبهلوانات والحواة والبغايا ولم تتعرض مصر طوال العهد العثمانى حتى قدوم الحملة الفرنسية لخط الاعتداء من الخارج وليس معنى ذلك أن قوات الحامية العثمانية ظلت راكدة . ولم تشترك فى أية حروب فى أثناء هذه القرون . فالجيش العثمانى المملوكى اشترك فى حروب السلطان فى أوقات وفى ميادين مختلفة . فمثلا عند ما هاجم الصدر الأعظم أحمد كوبرللى

---

(١) الجوربجى أى الحائز لرتبة عسكرية تعادل اليوزباشى وتأتى بمعنى الكبير من رجال الحفظ فى الأرياف أو عين من أعيان النصارى فى الأرياف . والمتولية أى الذين يتولون الإشراف على الأمن فى الأقاليم .

(٢) مستحفظان أى رجال الحفظ ويسمون دكيجريان أى العسكر الجديد .

جزيرة كريت اشتركت الحامية العثمانية المصرية فى هذه الحرب . وأرسلت قوة من ٢٠٠٠ جندى وانتهى ذلك الهجوم بانتصار العثمانيين وبانتزاع كريت من أيدى البنادقة فى سنة ١٦٦٩ . وفى أثناء الحروب الطويلة بين الدولة العثمانية والنمسا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر اشترك الجندى العثمانى المصرى فى هذه الحروب فى أكثر من ميدان . فأرسلت على دفعات قوات إلى رودس وأدرناه والقسطنطينية وسالونيكا وبلغراد . وفى الحرب الروسية الأوربية التى وقعت فى عهد كترين الثانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اشتركت فرق من الجند العثمانى المملوكى فى هذه الحرب ووصلت حتى رومانيا .

كان جنود هذا الوجاق من الشبان غير المتزوجين . وكانوا يلحقون فى بادئ الأمر بالانكشارية إلى أن ألفوا وجاقاً « فرقة » مستقلا . وقد كانوا دائماً منافسين للانكشارية فى مصر وكثيراً ما تفوقوا عليهم فى المعارك كما حدث فى عام ١٧١٥ إلى أن انتقلت السلطة للانكشارية وأصبحت لهم اليد الطولى . ومع أنه كان لبعض رجال العزب مطلق النفوذ وكان تنظيمهم العسكرى يشابه تنظيم الانكشارية غير أنه بعد رتبة الأودباتية كان الواحد منهم يمنح وظيفة « سرباجية » ثم « كخيا » وهذه الأخيرة تمهد له عضوية الديوان .

والانكشارية والعزب هم حماة الأهالى والمدافعون عن مطالبهم ومعظم الأهالى ينتسبون إلى أحدهما خوفاً من بطش المماليك ومعاركهم التى كانت بمجرد انتهائها تستأنف ثانية . وفى كثير من الأحيان استقلت الفرقتان عن نفوذ الباشا . وناب عنهم فى ديوانه « الباش قواص » وإذا لزم الحال كان يقاوم « الباش كخيا » المطالب التى قد تلحق الضرر بأفراد الفرقتين . وكثيراً ما قاوموا أوامر الباشا وعملوا على إبطالها وإيقاف الباشا عند حده بل وإرغامه على التنازل عن منصبه ومغادرة البلاد بمجرد وصول خلفه من الأستانة .

وكان من الشروط التى فرضها السلطان على ولاته فى مصر إرسال ثلاثة آلاف محارب كل ثلاثة أعوام حسب طلبه ١٢٠٠ من الانكشارية و ٩٠٠ من

الباب العالى ومثلهم من السباهية وإذا أعادهم الخليفة لمصر استبدلوا بغيرهم من الجنود الجدد .

وكانت القوة الثالثة هى المماليك وهم بقايا البحرية والشراكسة وكان واجبهم حفظ الاتزان بين الباشا والوجاقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف ليمنعوا الأقوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها أربعة وعشرون يحكمها البكوات المنتخبون من أمراء المماليك .

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أصحاب القوة الفعلية فى البلاد وإن كان السلطان هو الذى يعين الباشا فقد كان ميسوراً لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه من المؤامرات .

قوات المماليك البكوات

انتقلت السلطة تدريجيا من أيدى الولاة العثمانيين إلى مماليكهم بينما كانت الجنود العثمانية بمصر دائبة على جمع السلطة فى قبضتهم . وصارت كل طائفة من الجند تحتمى بها جماعة من التجار وأصحاب الحرف أو المزارعين أو الملاحين فيقاسمونهم أرباحهم ويحمونهم من مطالب رجال الحكومة وكان يقوم الشغب بين الهيئتين حتى عظمت قوة البكوات المماليك وتحوّل النفوذ إليهم وكان من أشهر حكام المماليك « على بك الكبير » الذى كان على جانب عظيم من المقدرة والبأس فوصل بهما إلى منصب شياخة البلد عام ١٧٦٣ ثم طمحت نفسه إلى الاستقلال بالبلاد فامتنع عن دفع الجزية للباب العالى عام ١٧٦٩ .

فى ذلك الحين كانت سمعة تركيا الحربية قد انحطت أمام قوات النمسا وبروسيا وبولونيا . فجهّز على بك حملة احتلت اليمن . وأخرى احتلت جدة ومكة . ولم تمض ستة أشهر حتى خضعت شبه الجزيرة العربية . وامتدت سلطة « على بك » حتى شملت سواحل البحر الأحمر وتجارته وصارت جدة مركزاً تجارياً هاماً . واستحق على بك لقب « سلطان مصر خاقان البحرين » .

وفى سنة ١٧٦٩ أعد « على بك » لفتح سوريا حملة تبلغ ٣٥٠٠٠ رجلا ؛ من هؤلاء ٥٠٠٠ من فرسان المماليك و ١٥٠٠٠ من البدو وعيّن لقيادتها أحب أتباعه إليه محمد بك المعروف « بأبى الذهب » .

دخلت جنود على بك سوريا وسرعان ما استولت على غزة ونابلس والقدس ويافا وصيداء . ثم حوصرت دمشق بضعة أيام إلى أن سلمت . وكان هذا النصر أكمل ما وصلت إليه قوة على بك إذ استطاع الأتراك أن يعوّضوا من خسارتهم فى الحرب تفوقهم فى السياسة والدسيسة فاستمالوا إلى جانبهم محمد بك أكبر قواد على بك ومنوه بتولية حكومة القاهرة . فعمل على كسب رضاء بعض المماليك . وغادر الجميع الشام فجأة ودخلوا مصر قاصدين الصعيد وهناك استعدوا لملاقاة على بك .

وكان أكثر رجاله قد انضموا إلى أبى الذهب . فلم يجد بدأ من مغادرة البلاد إلى عكا ثانية — وهناك بدأ يجهز جيشاً لاسترداد أملاكه . فنجح فى الشام ثم قصد مصر — ولكنّ أبا الذهب انتصر على قوات على بك الذى جرح فى المعركة الأخيرة وأخذ أسيراً .

تولى أبو الذهب حكم مصر عام ١٧٧٢ مكافأة له على خدماته للدولة العلية لكنه لم يتمتع بذلك طويلا ومات بعد عامين .

وقد قابل الرحالة الفرنسى[١] فولنى (Volney) فى سياحته بالشام جيوش على بك الكبير وهى ذاهبة لفتح سورية . فقال : إن الجيش المشار إليه كان مؤلفاً من نحو ٤٠,٠٠٠ مقاتل . ولكن لم يكن فيه من المماليك الخيالة غير خمسة آلاف ونحو ألف وخمسمائة من المشاة وهم من المغاربة والباقى خدم وأتباع . وبعدأن وصف هذا الجيش بالفوضى والاضطراب والسلب والنهب أخذ يصف ملابس المماليك وصفاً بديعاً فقال إن ملابسهم لم تكن تصلح لامتطاء صهوات الجياد . وإنها تتكوّن من أربعة أوخمسة أردية وطيلسانات تتدلى إلى

(١) Volney (C.F.) Voyage en Syrie et en Egypte, Les années 1793 et 1785 Paris 1788

أرجلهم وكان قميص الفارس منهم من القطن الناعم الأبيض والثوب المتدلى فوق القميص من القماش الهندى الخفيف . وفوق ذلك قفطان من حرير مزركش تمتد أكمامه حتى أطراف الأصابع ثم « الكرك » بأكمام قصيرة . ويلف حول الرقبة فراء من السمور . ولكل واحد منهم طيلسان يلبسه فى الحفلات يلف به جسمه جميعه ! ! وهذا يحتاج إلى المال الوفير[1] . . .

ثم قبض على أزمة الأمور اثنان من المماليك هما إبراهيم بك ومراد بك اتفقا على أن يتوليا مشيخة البلد وإمارة الحج بالتناوب حتى وقع الخلاف بينهما ثم أصلح الأمر وبقيا قابضين على مقاليد البلاد إلى أن أغار الفرنسيون على البلاد سنة ١٧٩٨ ما عدا فترة امتدت بين عامى ١٧٨٦ و ١٧٩٠ عاد النفوذ فيها إلى العثمانيين فولوا مشيخة البلد إلى أحد بكوات المماليك واسمه إسماعيل ما لبث أن مات بوباء شديد اكتسح مصر فعاد إبراهيم بك ومراد بك واستردا منصبيهما لكنهما اشتطا فى ابتزاز أموال الناس مما لفت نظر أوربا إلى مصر وجعل الفرنسيين يخلقون أعذاراً لحملتهم على مصر عام ١٧٩٨ .

وصول نابليون

وفى أول يوليو ١٧٩٨ وصلت السفن الفرنسية إلى الإسكندرية وأنزلت رجالها فى نقطة العجمى بدون أن يعترضهم أحد ثم شرع الجيش الفرنسى فى الزحف على القاهرة عن طريق دمنهور واستعد المماليك لمقابلة الفرنسيين وخندق مراد بك ببلدة إمبابة وأقام مدافعه القديمة وانتهى الأمر بانتصار نابليون وقضائه على المماليك وفاه بكلمته المأثورة :

« إن أربعين قرناً تنظر إليكم من قمة هذا الهرم » .

كانت نتيجة المعركة استئصال شأفة المماليك وتفرقهم فى مناحى الوجه القبلى. لم تطل إقامة الفرنسيين فى مصر . فقد اتفقت الدولتان العثمانية والإنجليزية

(١) فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر للاستاذ أحمد بك حافظ عوض ص ٣٤ .

على إرسال قواتهما إلى مصر بصحبة الأمراء المماليك إبراهيم الكبير والبرديسى والألفى والزعيم المصرى السيد عمر مكرم وبعد جهاد طويل اضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن مصر فى يوم ١٨ ديسمبر عام ١٨٠١ وعادت السلطة إلى الباب العالى .

القوات العسكرية فى مصر

ونتحدث الآن عن القوات العسكرية التى قابلت الجيش الفرنسى فى حملته على مصر فقد كان تقديرها موضوع جدل طويل . وكانت العناصر الرئيسية تؤلفها المماليك وفرق المليشيا (الوجاقات) الخاصة بالوالى العثمانى (الباشا) .

ونحن ننقل الإحصائيات التى سنذكرها عن كتاب الحملة المصرية لمؤلفه جونكير بالجزء الثانى [١] .

قدر عدد المماليك فى مصر وسورية بما لا يقل عن ٥٠,٠٠٠ رجالا ونساء وأطفالاً وذلك فى عام ١٧٧٨ ومن هذا العدد كان يمكن الانتفاع باثنى عشر ألف مقاتل جاهزى العدة .

قد يكون فى هذا العدد بعض المبالغة ولاسيما عند ما نبحث فى تعداد المماليك الذين اشتركوا فعلا فى ميادين القتال المختلفة بمصر . ولذلك نعتمد على تقدير قومندان أورطة المهندسين (ساى) الذى ذكر فى مذكراته عن الحملة الفرنسية وقد نشره فى عام ١٧٩٩ الأديب بواسى « Boissy » قال إن عدد فرق قوات المماليك عند وصول الفرنسيين – وهى التى تؤلف العنصر المحارب – لم يزد على ٨٥٠٠ رجل من البكوات والكشافين والمعتوقين والمماليك العبيد ويدخل فى هذا العدد كثير من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثانية والعشرين . وكان أهم بيوت الأمراء البكوات بيت إبراهيم بك وكان يمتلك حوالى ستمائة مملوك ويليه مراد بك بمماليكه الأربعمائة . أما بقية البكوات وعددهم

---

(١) تاريخ مصر السياسى للاستاذ محمد رفعت ص ٦ .

ثمانية عشر أو عشرين فكان تعداد مماليكهم يتفاوت بين الخمسين والمائتين . وفيما عدا هؤلاء كان هناك عدد كبير من المماليك المستقلين الذين لا تعرف تبعيتهم لأحد البكوات بالضبط .

يُضاف إلى ذلك عدد لا بأس به من « السراجية » (Serradjes) وهم الخدم أو المراسلات الخيالة الذين يحملون أوامر رؤسائهم وينقلونها من بك إلى بك ويقومون بوظائف الحجاب وبالاختصار بلغ مجموع عدد هؤلاء ما لا يزيد على ١٠,٠٠٠ خيال وكان المماليك يعتمدون على أنفسهم وأتباعهم فى الدفاع عن البلاد . وكانوا جميعاً من الفرسان . أما نظام المشاة فلم يعرفه المماليك وكان منحطاً فى نظرهم غير أنهم كانوا يأخذون معهم إلى الحرب عدداً كبيرا من الخدم يقوم بحاجاتهم وحاجات خيولهم . وإذا خرجوا للحرب لم يتبعوا قوانين خاصة . بل اعتمدوا على الكر والفر السريع وعلى النزال الفردى . وكانوا كفرسان أوربا فى العصور الوسطى إذا أعوزتهم الحروب الحقيقية فى الداخل أو فى الخارج لجأوا إلى الحفلات يقيمونها فى الموالد والمواسم للمسابقات الرياضية والنزال الفردى مستعملين العصى الطويلة بدلا من الأسلحة والمزاريق .

وفى أوائل القرن الثامن عشر قدر مسيو « ديماييه » قنصل فرنسا الجنرال فى القاهرة(٢) القوات المصرية كالآتى بعد :

١ — فرقة المتفرقة وعددها ألفان من الخيالة وهى التى تؤلف حرس الباشا .

٢ — فرقة العزب وعددها يتراوح بين الثلاثة آلاف والأربعة آلاف مشاة .

٣ — فرقة السباهية وعددها ثلاثة آلاف خيال .

٤ — الباشجاويشية وعددها خمسمائة مشاة .

٥ — الانكشارية وعددها من ستة آلاف إلى ثمانية آلاف مشاة وقد كان تنظيم هذه القوات خاضعاً للانقلابات السياسية التى أملتها الثورات فى الولايات العثمانية والمعارك والاختلافات التى ألفتها حياة المماليك أثناء القرن الثامن عشر .

(١) L'expedition d'Egypte par C. Jonquière Tome II

(٢) Maillet (B. de) Description de l'Egypte. Paris, 1735.

ويضاف إلى تلك القوات جماعات الأعراب التى بلغ عدد رجالها عشرين ألفاً وكانوا يهددون الأمن كثيراً فى بعض الأقاليم كما أنهم كانوا عوناً كبيراً لقوات المماليك أثناء الحملة الفرنسية ولا سيما فى معارك الوجه القبلى . وقدر عددهم المسيو « جوبرت » المؤرخ الفرنسى بنحو ٢٧,٠٠٠ من البدو .

ظلت مصر حوالى مائتى سنة ونيف تحت حكم المماليك وإن كانت اسماً واقعة فى دائرة نفوذ الإمبراطورية العثمانية[١] فهم الذين حافظوا على استقلال البلاد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى أن وفد على البلاد بونابرت فأخضع مصر عامين وبضعة أشهر ثم تأتى خلاصها على يد منقذها العبقرى محمد على .

---

(١) لم يدرك رجال الإمبراطورية العثمانية أهمية موقع مصر من الناحية الاستراتيجية — ولم يعيروا تملكها شيئاً يذكر من الاهتمام فألفينا فى أواخر القرن الثامن عشر بعض الأمراء من المماليك المصريين يسعون فى التخلص من السيادة العثمانية ويعلنون استقلالهم . ولذلك ضعفت هيبة جيوش الخليفة . ولا سيما قواته الدفاعية فى مصر — فانتهز هذه الفرصة رجال فرنسا ورأينا بونابرت يضع مصر فى طليعة برنامجه الحربى لتأسيس امبراطورية فرنسية عظيمة فيما وراء البحار . وقد تناول بحث هذا الموضوع كثير من المؤلفين الحربيين أثناء القرنين الثامن والتاسع عشر .

الفصل الثالث

الحملة المصرية

فى شبه الجزيرة العربية

١٨١١ — ١٨١٩

الوهابية :

نشأت فكرة الإصلاح الدينى عند المسلمين منذ منتصف القرن السابع الهجرى ونادى بها منهم دعاة على جانب عظيم من الإخلاص والإيمان . وقد بدأ هذه الدعوة الإصلاحية عالم من علماء حران هو ابن تيمية ، الذى قام ينبه المسلمين إلى ما وقعوا فيه من الفساد بسبب الانحراف عن جادة الإيمان الصحيح ، فهاجم الحكام واتهمهم بمخالفة الدين وهاجم علماء عصره وانتقد طرقهم فى التعليم والتفكير ، وانتقد بقلمه ولسانه كل الفرق الإسلامية وهاجم الغزالى ومحيى الدين بن العربى وعمر بن الفارض والصوفية بوجه عام . وهكذا أثار ابن تيمية وتلاميذه على نظام الدولة الإسلامية الدينى ، ودعا الناس فى كثير من الجرأة والقوة إلى إصلاح شأنها وتقويم أمرها[١] .

ولكن دعوته لم تلق من النجاح والتوفيق ما هى جديرة به ، لأن الناس فى زمانه كانوا مشغولين بحرب الفرنج والتتار . ولهذا ظلت دعوته راكدة زماناً طويلا حتى تأذن الله لها بأن تصل إلى آذان بدو العرب فى جزيرتهم بعد ذلك بنحو أربعة قرون ونصف حملها إليهم محمد بن عبد الوهاب الذى عاش فى أوائل القرن الثامن عشر .

حوّل محمد بن عبد الوهاب مبادئ ابن تيمية إلى برنامج سياسى ورأى أن

---

(١) حافظ وهبه — جزيرة العرب فى القرن العشرين . ص ٣٣٤ — ٣٣٥

البيئة الصحراوية التى تميل إلى الزهد والتقشف بطبيعتها أنسب البيئات لنشر آرائه ودعوته . واستطاع أن يكسب ود أمير الدرعية محمد بن سعود الذى استعان بقوته وسلاحه على أن ينشر مبادئه بين قبائل العرب بحد السيف حتى استطاع قبل موته سنة ١٧٩١ أن يجمع جزيرة العرب كلها إلى لواء آل سعود وانقطعت الصلة بينها وبين بلاد الدولة العثمانية وأصبحت خارجة عن طاعة خليفة المسلمين .

ولم يقف الوهابيون عند هذا الحد بل أخذوا يصارحون الخليفة بالعداء والتحدى واستطاع سعود الثانى الذى خلف أباه عام ١٨٠٢ أن يفتح المدينة عام ١٨٠٣ ثم جرى فى مخاوف الدولة أن ذلك الزعيم يعد حملات لا تلبث أن تغير على العراق والشام[١] .

لم تكن بلاد العرب غنية يحرص الخليفة على الاستيلاء عليها . ولم يكن فى موقعها ما يغرى بالمحافظة عليها قبل اكتشاف الزيت . ولكن بقاءها فى يد السلطان كان أمراً لا مناص منه له باعتباره خليفة المسلمين وحامى البلاد المقدسة.

وأحس السلطان بضرورة الإسراع بالقضاء على هذه الحركة الثورية فى مهدها . ولما لم يجد فى يده الجند الكافين للقضاء عليها فى هذه اللحظة لجأ إلى أحد أتباعه بل وأقواهم وهو محمد على باشا ليكبح جماح هذه الثورة فأذعن الباشا لأوامر السلطان بعد استعداده لها .

وفى الواقع ينبغى أن ننظر إلى أن الحرب بين محمد على والوهابيين . كانت صراعاً بين قوتين ترميان إلى غاية واحدة وهى إحياء الدولة الإسلامية . كان الوهابيون يريدون إعادة مجد الدولة الإسلامية من الناحية الدينية . وأراد محمد على إعادة مجد الدولة الإسلامية من الناحية السياسية . وكان من خير الإسلام لو تعاونا وتصالحا . ولكن صروف السياسة قضت أن تكون إحداهما حتف الأخرى[٢]

وسنتناول وصف الصراع الذى اشتعل بين والى مصر محمد على باشا وبين الزعيم الوهابى من الناحية العسكرية الفنية .

---

(١) الدكتور حسين مؤنس — الشرق الإسلامى فى العصر الحديث . ص ١٩١

(٢) حسين مؤنس — الشرق الإسلامى فى العصر الحديث . ص ١٩٣

١ – إعداد الحملة

بقيادة الأمير طوسون

الحملة الأولى :

بدأ محمد على يتخذ التدابير والعدة للحملة الوهابية وكان أول ما قرّ رأيه عايه إنشاء أسطول فى السويس لنقل الجنود والعتاد والذخيرة . كما أوصى بمشترى ما يلزم لهذا الأسطول من مواد حصل على معظمها من البلاد العثمانية . وهكذا نشط رجاله فى السويس والقاهرة فى صنع السفن حتى تمّ منها حوالى ثمانى عشرة سفينة فى مدة شهرين . تختلف حمولة كل منها بينماية طن ومايتين وخمسين طنا . ساهم فى إنشائها نحو ألف عامل مصرى وأجنبى .

وأقام المستودعات والمخازن فى القصير والسويس والقاهرة وشحنها بالحبوب ولوازم الحرب . كما نيط بالسيد محمد المحروقى سر تجار القاهرة بعض أعمال الحملة والاتفاق مع العربان النازلين على شواطئ البحر الأحمر فى عمليات النقل والشحن .

هذا من ناحية الاستعداد الحربى . أما من الناحية السياسية فقد أمر محمد على السيد أحمد الملا من تجار القاهرة – بالسفر إلى شريف مكة الأمير غالب – ليسبر خباياه وليقف منه على مقدار العون الذى سيقدمه للحملة عند وصولها إلى جدة ، وليستعلم منه عن مدى قوة الوهابيين واستعدادهم .

وشاءت ظروف أول مارس سنة ١٨١١ التى حدثت بالقاهرة (مذبحة المماليك) أن تكون سبباً فى تأخير سفر الحملة بضعة أشهر . وكان الباب العالى يستبطئ محمد على منذ أمره بإعداد الحملة فى عام ١٨٠٨ – بيما كان هذا فى الواقع – يعد العدة .

قوة الوهابيين :

وكان زعيم الوهابيين (سعود الثانى) الجندى الباسل والسياسى القادر قد

استطاع جمع خمسة عشر ألفاً من المقاتلين بقيادة ابنه عبدالله وعثمان المضايفى وعهد إلى الشريف غالب بالدفاع عن جدة وينبع . ولقد كان بين هذا الشريف ووالى مصر اتفاقات سرية بموجبها ينضم إليه بمجرد وصول طلائع الحملة المصرية .

قيام الحملة

تقلد الأمير أحمد طوسون نجل محمد على باشا قيادة الحملة فى يوم ٢ أبريل ١٨١١ فى احتفال باهر أقيم فى القلعة . وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة

وفى ٣ سبتمبر ١٨١١ نزل ستة آلاف مشاة أغلبهم من الألبانيين السفن فى ثغر السويس بعد أن تجمعوا فى بركة الحج فى أواخر يوليه .

أما المدفعية وفرسان الترك والعربان وعددهم ألفان[1] . فقد تحركوا عن طريق البر بعد تحرك الفوج الأول بقيادة طوسون نفسه وكانت تتبعه قافلة عظيمة تحمل الماء والمؤن والخيام والأمتعة وهدفهم الوصول إلى ينبع .

وكان قد ضم إليه أحمد أغا الخازندار كقائد ثان للحملة وأخذ معه بعض مشايخ المذاهب الأربعة لوعظ الناس وحضهم على الدفاع عن حومة الحرمين الشريفين بل واستخلاصهما من أيدى الوهابيين .

وبعد أيام خرج السيد المحروقى فى موكب جليل يقصد الحجاز . وأوصى محمد على أبنه طوسون أن لايفعل شيئا من الأشياء إلا بمشورته وإطلاعه ولا ينفذ أمرا من الأمور إلا بعد مراجعته .

وصول مقدمة الحملة

لم تجد طلائع الحملة المصرية أدنى صعوبة فى النزول إلى ثغر ينبع والاستيلاء عليه بعد أن أسرع الشريف فى الارتداد نحو جدة . وأجهز طوسون

(١) ذكر أمين سامى باشا أن عدد هؤلاء كان ثلاثة آلاف . ص ٢٣٣

على قوة الوهابيين بها وكانت لا تتجاوز الثلاثمائة فوقعوا قتلى وأسرى . ونشط رجاله فى إعداد الثغر ليكون ملجأ أميناً للسفن وقاعدة متينة للذخائر والمؤن وليتخذ منها رأس حربة للزحف إلى قلب الجزيرة العربية .

معركة بدر

وما استقر به الأمر حتى بدأ فى السير فى يناير سنة ١٨١٢ وهدفه الاستيلاء على المدينة وبعد مسيرة عشرة فراسخ وصل إلى بدر التى تبعد ٤٠ كيلومتراً عن ينبع وفيها التقى الأمير بالوهابيين ودارت بينهما معركة دامت ساعتين اضطر الأعداء فى عقبها إلى التقهقر تاركين نحو ٦٠ قتيلا .

معركة الصفراء

دخل السرور قلب الأمير فلم يلبث أن اتجه نحو الصفراء التى تحصّن بها العدو . وكان بين الصخور القاسية التى تتشعب منها مضيق لا يزيد عرضه على أربعين متراً ويبلغ طوله مسيرة ساعة ونصف الساعة . وكان الوهابيون فى عشرين ألف مقاتل بقيادة عبدالله وفيصل ابنى سعود فسدوا حلق المضيق . فما كان من الأمير الا أن أمر جنوده بمهاجمة الأعداء وتمكن من ضغطهم إلى وسط الحلق . ولكن قوة كبيرة من الوهابيين وصلت من نجد . فانتشرت بأعالى الروابى الصخرية بجانبى المضيق فاضطر الأمير إلى التقهقر فى صعوبة وكان يحض رجال مؤخرته على الثبات ، ويشجعهم ويدفعهم إلى القتال ، قائلا : « أمَا منكم من يقتدى بقائده ؟ » ولكن العدو كان شديداً فى ضرباته التى اكتسحت أمامه رجال الأمير الذين تركوا جمالهم ومهماتهم وتفككت أوصال الجيش شذر مذر ولم يبق من القوات الأصلية وعددها ثمانية آلاف سوى ثلاثة آلاف فقط . ولم يكن أمام الأمير إلا العودة بهذه الفلول المهزومة إلى ينبع وأسرع بالاهتمام

بتحصينها وإخضاع من حولها من مشايخ القبائل بالسيف أو بالمال (١).

أما الوهابيون فقد ظنوا أنه لن تقوم للحملة المصرية قائمة فانصرفوا إلى بيوتهم بعد أن تركوا فى قلعة المدينة حامية منهم وبالمضايق جماعات قابلة لحراستها .

لم يستغل الوهابيون انتصارهم وكانوا يستطيعون القضاء على المصريين لو أنهم واصلوا تقدمهم نحو ينبع ولكنهم لم يفعلوا كما قلنا . وقفلوا عائدين نحو المدينة يحصّنونها ويشحنونها بالرجال والعتاد . كما حصّنوا أيضا موقع الصفراء لأهميته وعادوا إلى قلب نجد فرحين بالنصر .

مصر تمد الأمير طوسون بقوات جديدة

ولما بلغ نبأ الهزيمة «محمد على» بادر بإرسال حملة جديدة . فلما كان أكتوبر سنة ١٨١٢ أحسّ الأمير أنه أصبح قادراً على التقدم نحو المدينة . وكان فى خلال وجوده بينبع قد ظفر بإرضاء بعض القبائل والعربان الذين وعدوه بالانحياز إليه ومحاربة أعدائه .

نقل طوسون معسكره إلى بدر واجتاز مضايق الصفراء وواصل سيره حتى بلغ أسوار المدينة . وكان يحميها الوهابيون وقد استعدوا لمقاومة الحصار الطويل .

وفى صباح الغد أمر الأمير رجال مدفعيته بتسليط النيران نحو الأسوار وإلى موضع الألغام المبثوثة ولما نجحوا فى فتح ثغرات بها بعث الأمير إلى السكان ينذرهم بوجوب ملازمتهم المساكن ثم انقضّ برجاله فى الثغرات وانتشروا بأنحائها وقاتلوا فريقا من الحامية بينما لجأ فريق آخر إلى القلعة واضطروا إلى التسليم بعد انقطاع الأمداد عنهم وانتشار المجاعة فيهم . فأذن الأمير لهم بأخذ مالهم وسلاحهم

(١) كانت خسارة المصريين فادحة . فقد بلغت على أرض المعركة حوالى ١٥٠٠ بين قتلى وأسرى وخسروا سبعه مدافع ومعظم الخيام والعتاد والمؤن

ولم يبق من رجال الحملة وكان عددهم حوالى ثمانيه آلاف سوى ثلاثة آلاف وصلوا مبعثرين إلى ثغر ينبع بعد أيام قاسية ومن تبق ضل الطريق أو مات جوعا أو سلك طريق العودة إلى الشمال نحو مصر .

ومتاعهم عند مبارحتهم المدينة ، كما أعطاهم عدداً من الجمال لنقل مرضاهم وجرحاهم وبذلك استرد الأمير النصر من جديد وبدأ يهتم بأحوال البلاد التى تم له فتحها وأعاد الأمن إلى نصابه ونظم أمور جنده واختار لحكومته والياً حازماً ، ورتب فصائل للاستطلاع ليتجنب مفاجأة العدو له ، ووضع حامية فى الحناكية ثم سار إلى البركة بقوة من المشاة ، وأخيراً قصد جدة حيث استقبل فيها بالإجلال . وقد اشترك شريف مكة فى الاحتفال به وجعل الأمير مكة مقاماً مؤقتاً له .

وصلت أنباء فتح المدينة ومكة واحتلال جدة إلى محمد على ، فبادر بإرسال مفتاح قلعة المدينة إلى الخليفة يحمله وفد مصرى يزف هذه البشرى ، وأطلقت المدافع وأقيمت الحفلات فى مصر وتركيا فرحاً بخلاص الحرمين على أيدى رجال مصر .

عام ١٨١٣

شجع هذا النجاح الأمير فنشط فى تدريب قواته لإعدادهم للمعركة القادمة. وفى خلال ذلك الوقت وصل إليه نحو ألف من خيالة الدلاة بقيادة مصطفى بك (زوج أخت محمد على) وألفان من المشاة بقيادة عابدى بك .

فتح الطائف

وفى يناير ١٨١٣ ، عزم الأمير طوسون على فتح الطائف وكان عليها رجل اسمه « المضايفى » ، فلما اقترب منها فر هذا تاركا وراءه كميات كبيرة من الذخيرة والمؤن واعتصم بمكان على مسيرة نحو خمس ساعات منها حيث أنشأ حصنا . فلما اقترب طوسون منها بادر المضايفى بالحرب ولكن أصابته رصاصة جعلته فريسة سهلة للقبض عليه وجىء به إلى الأمير فأرسله إلى القاهرة ثم بعث به إلى الأستانة حيث قطعت رأسه .

واستطاع طوسون فتح الطائف وكان لوقوعها في أيدى المصريين أهمية كبرى لأنها تعتبر سوق مكة .

وفى أثناء هذه العملية الصغيرة كان الوهابيون يعدون العدة لعرقلة أى تقدم يصيبه الأمير . فعولوا على احتلال قمم الجبال وتحصين طربة وهى على مسافة ٨٠ ميلا من الطائف وتعتبر مفتاح نجد إلى الشرق واليمن إلى الجنوب .

ولما كشف طوسون خطط العدو عمد على إفسادها فأرسل قوة بقيادة مصطفى بك لاحتلال موقع طربة وكانت تحميها قوة من العدو لم تلق صعوبة فى صد القوة التى أنهكها التعب فكانت تحمس العدو امرأة اسمها غالية .

وفى اليوم التالى قرر مصطفى بك استئناف الهجوم وحاول كبار ضباطه أن يثنوه عن عزمه لقلة ذخيرتهم- وتعب الجنود فلم يفلحوا وآثر الجنود عدم القتال .

شعر الوهابيون بضعف روح قتال أعدائهم . فألحّوا فى مطاردة المصريين والتضييق عليهم . ونجحوا فى غنم الأمتعة والمدافع والخيام وقتلوا من بينهم ستمائة جندى . وبالرغم من الجهود التى بذلها الفرسان لصد المهاجمين فقد استمر الوهابيون فى ملاحقة الجيش مسافة طويلة حتى أصبح مصطفى بك على رأس فلول قواته على مقربة من مكة . ووصلها وهو فى أسوأ حال وكان سوء الطالع قد لحق بهذه الحملة — فإن الجانب الآخر من القوات المصرية قد ناله الهزيمة أيضا — وذلك أن حامية الحناكية لما آنست ضعفها سلمت إلى سعود الذى زحف فى الحال على المدينة فى جيش مؤلف من عشرين ألف رجل وخسر المصريون حوالى ٨٠٠٠ جندى و ٢٥٠٠٠ دابة و ٥٠٠٠٠ كيس من المال[١] .

تألم محمد على عند وصول أنباء الهزيمة . فأدرك أن دفع الأخطار المقبلة يتطلب الاستعانة بوسائل للقتال أشد تأثيراً. وفعلا من سابقتها . فأرسل من القاهرة ٥٠٠ جندى ومالا ومهمات وذخائر إلى السويس ومنها انتقلت بحراً إلى جدة . وأمر ابنه أن يجمع كل قواته فى هذا الميناء .

---

(١) مصر فى القرن التاسع عشر ص ٤٥٦ — إدوار جوان

لقد كانت حملة مصر فى الميزان تتأرجح بين النصر والهزيمة وقد منى المصريون بخسارة حوالى ٨٠٠٠ رجل و ٢٥٠٠٠ جمل !

وآثر الأمير جمع قواته المشتتة فى البلاد العربية الفسيحة . واكتفى بإقامة حامياته فى الطائف ومكة وينبع وجدة فحسب .

وفى أغسطس ١٨١٣ كتب محمد على باشا للباب العالى يقول إنه قاسى الشدائد والصعوبات حتى تمكن من طرد العدو من الحرمين الشريفين ولكن لمناسبة استشهاد أغلب الجيش فى الحروب ومن الأمراض واختلاف الأهواء لم تتم هذه الحملة طبق المرغوب . وإن العدو دائب على مهاجمة المدينة بقوة جسيمة فضلا عن أنه يحشد القوات فى الدرعية ، لذلك يرى أنه محتاج للمساعدة وانضمام ولاية الشام إليه . وكان القصد من هذا الطلب تجهيز قوة منها وتوجهها نحو قوات العدو لقرب المسافة ووجود المرعى والمياه فى الطريق بسهولة وتسلط قوتى مصر والشام دفعة واحدة على العدو حتى يتمم أغراض الحملة وذكر فى الرسالة أنه سيتوجه بنفسه للأقطار الحجازية لمحو آثار العدو [١] .

محمد على فى ميدان القتال

الحملة الثانية :

قرر محمد على الذهاب بنفسه إلى شبه الجزيرة ليقود الحملة بنفسه . وسلّم مقاليد الحكم فى الوجه القبلى لابنه إبراهيم ، وفى الوجه البحرى إلى حسين بك . وقصد السويس فى ستين من أتباعه وألفين من مشاته . وتقدّم بطريق البر ألفا فارس وثمانية آلاف جمل محملة بالعتاد .

غادر محمد على السويس فى ٢٥ أغسطس ١٨١٣ ثم وصل جدة فى ٢٨ وكان فى استقباله الأمير طوسون والشريف غالب فدوت المدافع تحية له .

وفى ٦ أكتوبر قصد إلى مكة وزار الحرم الشريف واستقبل فى قصر أعده

(١) تقويم النيل وعصر محمد على باشا . ص ٢٤٤

له الشريف وفود الأعيان . وكان فى مكة حامية تتألف من ٨٠٠ ثمانماية من أهل اليمن والعبيد المسلحين المخلصين للشريف . وكان أول ما بيّت عليه محمد على التخلص من الشريف لعدم ثقته فيه ولكراهية أهل الحجاز له . وبحيلة بارعة أمكن ترحيله مع حاشيته إلى جدة ثم سافر منها فى سفينة إلى القصير فوصلها فى ديسمبر سنة ١٨١٣ ثم غادرها إلى القاهرة .

شرع محمد على يرتب أمور الحملة ويناصر العرب ويخفف عنهم الضرائب فقلت أسباب تذمرهم . وأهم من ذلك أنه جعل ثغر جدة المستودع الأكبر لعتاد الجيش ورتّب الوسائل الكفيلة بنقلها إلى داخل البلاد على أحسن حال . واستأجر من شيخ مسقط عشرين سفينة لمدة عام،ورتّب للعربان الموكول إليهم حفظ الأمن فى الطرق الرواتب الشهرية ، وأقام الحاميات العسكرية فى النقط الهامة لاجتناب خطر المفاجأة .

خطة الباشا

جهّز حملة لابنه طوسون قوامها خمسة آلاف مشاة وألف فارس وستة مدافع للسير بها إلى طربة التى كانت قد أصبحت قاعدة لعمليات الوهابيين .

أما محمد على فقد قام من مكة يقصد العميلة ليضع فيها قوة احتياطية من الفرسان .

قام طوسون إلى الطائف وأنشأ فيها المستودعات العسكرية ثم اتجه إلى كلاخ فطربة فوصل إليها بعد عناء بسبب مكر شيخ العربان المسمى الشريف راجح . فقد خرج هذا الرجل على المصريين وعاد لقتالهم فى سهل بسل منضما إلى الوهابيين .

ما كاد يصل طوسون إلى طربة حتى كانت المؤن على وشك النفاد فعقد مجلساً من قادة الجند تقرر فيه الامتناع عن الهجوم والعودة إلى الطائف . وهكذا اضطر طوسون إلى رفع الحصار ليلا عنها .

انتهز العدو هذا الارتداد وطارد الجيش وغنم منه مدفعين لكنه استردهما . وبادر بإرسال تقرير إلى والده يبين فيه أسباب ارتداده ، فرأى الباشا أن يخاطب قواد الجيش بقوله :

« تحققت أن الخذلان الأخير لا ينبغى أن يُعزى إليكم بل إلى العربان الذين ستلاقيهم عقوبتى . وليس عندى ما يحملنى على الشك فى بسالتكم وحسن سلوككم الذى استحق منى جزيل الثناء . والواجب عليكم ألا تتركوا لليأس سبيلا إلى أفئدتكم فإن الحرب أدوار فيوماً تجيء بالنصر ويوماً بنقيضه . وأعلمُ أن نفاد المؤن اضطركم إلى العودة إلى الطائف وسيلقى الخائن جزاء خيانته » .

خطة جديدة

ولما رأى محمد على أن اليمنيين يناوشون مراكزه العسكرية فى الجنوب عهد إلى والى جدة بقيادة ألفى رجل وألف ومائة فارس وأعدّ أسطولا خفيفاً لحمل الذخائر . وبعد مناوشات قليلة وصلت الجنود إلى القرب من قنفذة واستولت عليها فى ١٤ مارس ١٨١٤ .

وحينما وصل نبأ هذا الغزو إلى محمد على كتب إلى والى جدة يأمره بتحصين قنفذة ووضع حامية فيها واستئناف الزحف . ولكن نسى هذا الوالى أن يقيم حصونه بالقرب من آبار المياه التى تبعد عن قنفذة بمسيرة ثلاث ساعات ، ولم يعين عدداً من النقط العسكرية بين موقع تلك الآبار والثغر ، فلما هاجم الوهابيون فيما بعد بقيادة طامى شيخ عرب العسير حراس الآبار قاومهم هؤلاء ببسالة ثم اضطروا إلى الانسحاب إلى داخل الأسوار . فوجدوا أن قائدهم نجا بنفسه وفرّ على سفينة تاركاً جنده وشأنهم . فقاوم منهم من قاوم وحاول الهرب من استطاع . وعلى كل حال فقد فتك بهم الأعداء وأفنوهم عن آخرهم وغنم العدو جيادهم ومعداتهم .

وزاد الموقف حرجا فتك الأوبئة بالجنود مما أثر على معنوياتهم وأفضى الأمر

بالوهابيين إلى حصر الجنود المصرية بمكة وما يلى ضاحيتها إلى مسافة بضعة فراسخ منها .

لم يفقد محمد على الرجاء فإنه بعث إلى كخياه بالقاهرة بأن يرسل إليه أمداداً من الرجال قوامها ٧٠٠٠ رجل ومالا يبلغ ٧٠٠٠ كيس . وأطلق سراح أسراه على شريطة أن يجتنبوا الانضمام إلى العدو ثانية . وعقد تحالفاً مع عربان هذيل وثقيف وبنى سعد وعتيبة التى تقطن بين مكة والطائف وقصد بنفسه إلى الطائف لتوكيد الروابط مع أهلها .

وفاة سعود

ويشاء الجد الحسن أن يموت سعود زعيم الوهابيين بمدينة الدرعية وهو فى الثانية والستين من عمره ، وخلفه عبدالله ابنه الأكبر على الزعامة ، وكان لهذا الحادث أهميته وخطورته وترتب عليه تغير محسوس فى خطة القتال .

فى ذلك الحين كانت الحملة المصرية موزعة على الوجه الآتى :

٤٠٠ مشاة فى الطائف بقيادة محمد على
٣٥٠ مشاة بين المدينة وينبع بقيادة طوسون
٢٠٠ ألبانى فى مكة بقيادة إبراهيم أغا
١٥٠ عربى بقيادة يحيى
٤٠٠ فى المدينة بقيادة ديوان أفندى
١٠٠ فى ينبع
٢٠٠ فى جدة
١٠٠٠ فى كلاخ بقيادة حسن باشا
٤٠٠ من الدلاة
١٢٠ من الألبان بقيادة عابدى بك

وبهذا أصبح الجيش المصرى المؤلف من ٣٥٠٠ جندى موزعاً فى جميع الأراضى .

وكان الغرض الذى يرمى إليه محمد على بهذا التوزيع الواسع المدى إيهام الأعداء بكثرة عددالجنود المصريين .

موقف الحملة المصرية

كانت الصعاب تكتنف الموقف العسكرى : أولها قلة الجمال اللازمة للنقل فقد نفق منها منذ ابتداء معارك الحملة حوالى ثلاثة الآف . وكان ينتظر أن يصل إليه منها عدد كبير من دمشق وسنار .

ولم يكن لدى حامية الطائف المؤن التى تكفيها ، ومرجعه أن الحبوب التى ترد كانت توزع أولا بأول على الجنود بدون أن يخزن منها شىء .

وفى الوقت نفسه شرع عربان اليمن فى مهاجمة المصريين . فسيّر محمد على إليهم جيشا بقيادة عابدى بك . فهزمهم فى منطقة ظهران بعد قتال دام يومين واضطر هذا القائد إلى الدخول مع العدو فى عدة معارك متوالية خرج منها مخذولا حتى تقهقر ثانية إلى الطائف بعد افتقاده مئات من مشاته وفرسانه .

ولم تكتف الأعداء بقيادة «بخروج وطامى» باقتفاء أثر عابدى بك فقد حاصراه فى الطائف وضيّقا عليه وخيف على طوسون باشا أن يصيبه من جراء الحصار أذى فسيرت قوة لإنقاذه وعجّل محمد على بنفسه وبارح جدة وانطلق فى طريق الطائف لا يصحبه غير عشرين جنديا[١] .

فلما وصل إلى قمة جبل خراع استكشف معسكر العدو ووقف على تدابيره من أسير وقع فى قبضته . وبحيلة سهلة خرج الأمير طوسون من الطائف على رأس جنده بعد أن أطلق عدة طلقات من مدافعه . فخشى العدو النتيجة وعجل بالانسحاب . بينما اتجه محمد على وقوته الصغيرة إلى مكة فجدة . ليهتم بتموين الحاميات العسكرية فى الحجاز قبل ولوج أية مناوشة أو عملية قتال .

---

(١) إدوار جوان . مصر فى القرن التاسع عشر ، ص ٤٧٦ .

وتسنى لمحمد على فى مروره ببدر ثم ينبع أن يستميل إليه شيوخ العربان ويمنحهم العطايا والهدايا . وأكد فى تصريحاته لهم أنه يعتبر نفسه ضيفاً عندهم لا خصما لهم.

وتشاء الصدف الطيبة أن تفد على الحجاز قافلة حجاج مصر مؤلف بعضها من رجال الجيش فطلب الوالى منهم مصادرة جميع الجمال والخيول التى تقع فى أيديهم فبلغ مجموعها ١٢٠٠٠ رأس عبأها للحملة التى سيشنها على العدو .

حشد القوات

وانتهى الحجيج وقضى محمد على هذه الفريضة العزيزة واشترك معه فيها رجاله المقربون . وبدأ يحشد جميع قواته بين مكة والطائف ويتفقد مخازن الذخيرة والمؤونة . وعين النقط لإقامة الجند . ووزع مدفعيته المؤلفة من ١٢ مدفعاً . وأعلن بين الملأ أنه سوف يقود الجيش إلى الظفر المحقق . وكان هدفه الأول الاستيلاء على طربة .

تمّ الحشد ، وجهزت المعدات ، وأصدر أوامر القتال كالآتى :

فى ١٥ ديسمبر عام ١٨١٤ يسير الجنود الألبان بقيادة حسن باشا للانقضاض على جناحى العدو ومؤخرته .

بعد تسعة أيام تنضم إليه قوات محمد على (١٢٠٠ فارس)

وفى أثناء هذه الاستعدادات تصل إليه الأنباء بأن الإمدادات تتوارد بكثرة على العدو فى طزابة .

فلما كان يوم ١٠ يناير ١٨١٥ برح محمد على مكة قاصداً كلاخ وكان ينتظره فيها حسن باشا وعابدى بك وطبوزأوغلى ومحوبك والخازندار والشريف راجح ومعهم ما يكفيهم من المؤونة والعتاد مدى شهرين . فأمر الشريف بالتوجه إلى عتيبة لإمدادها . وكان الوهابيون يضيقون عليها الحصار وسار بنفسه فى جيش من الفرسان إلى بسل وكان العدو قد استولى عليها[١] .

---

(١) إدوار جوان . مصر فى القرن التاسع عشر . ص ٤٨٤ .

معركة بسل

اتخذ الوهابيون معسكرهم بسفوح الجبال المؤدية إلى السهول المقابلة للطائف وكانت عندهم حيث عسكروا آبار ذات مياه غزيرة جيّدة بخلاف المصريين فقد كانوا يجلبون المياه من كلاخ محملة على الدواب .

وكان العدو لا يتجاوز عدده ٢٥٠٠ من المشاة المسلحين بالقربينات . وخمسة آلاف هجان . أما فرسانهم فكانوا قليلى العدد لم يستطيعوا القيام بأية مناورة تذكر وعرقل طوسون حركاتهم . ولم تكن لدى العدو مدفعية .

وقد حاول العدو أن ينهض بهجوم كاذب ضد قنفذة ليشغل المصريين عن حركاته الأصلية بيد أنه فشل فى خطته . وإن تمكنوا بهذه الخدعة من اكتساب الوقت بمفاجأة بسل واختيار المكان والوقت المناسبين للقتال كما يريدون .

وقصدت قوة منهم واعتصمت بقمم الجبال فى صمت وهدوء ليمنعوا المصريين من وضع مدافعهم فى السهل .

وبدأت مناوشات بين الطرفين إلا أن «محمدعلى» رأى ألّا أمل فى نجاحه إلا إذا أخرج العدو من مكانه فى أعلى الجبال .

فأرسل ليلا فى طلب الإمداد من كلاخ ونصب مدافعه فى المواقع الملائمة لها وأمر ألفين من الألبان بالتحرك إلى جناحيه .

فلما كان اليوم التالى أمر بالقتال .

فتقدّم القواد ، كل منهم بقواته ، حتى اقتربوا من العدو ، وأطلقت المدافع قذائفها بشدة ، ثم انثنوا فجأة على الأعقاب متظاهرين بالفشل ووقع الخلل فى صفوفهم . فداخل الوهابيون أنهم ولّوا مهزومين ورأوا الفرصة سانحة لمطاردتهم والقضاء عليهم . وكانوا قد نسوا وصية سعود الكبير حينما حضرته الوفاة بأن يعاهدوه على اجتناب القتال فى بسيط الأرض لتفوق أعدائهم عليهم فيه وقلة خبرتهم بأصوله . فغادروا مكامنهم المنيعة البعيدة عن مرمى النيران وانتشروا

فى السهل المكشوف يقتفون أثر المصريين .

فلما رأى الباشا نجاح حيلته وأن العدو ابتعد عن معتصمهم أمر فرسانه بعد أن رتّبهم ترتيباً محكماً بتحويل وجوههم إلى الجهة التى انصرفوا منها وأن يقابلوا الأعداء وجهاً لوجه .

وما شرعوا بتنفيذ تلك الحركة حتى لاحت لهم بشائر النصر . وقد اشترك محمد على فى المعركة وقاتل بنفسه كأحد جنوده .

وكان المشاة المصريون فى الوقت نفسه يقومون بحركة التفاف حول الوهابيين للتضييق عليهم ومنعهم من التسرب والتجمع ثانية فى الجبال . وكان الشريف راجح قد عاد من قبيلة عتيبة بعد أن أمدها بالرجال والذخيرة وانتشر رجاله فى الوادى الذى كان لابد للعدو من اجتيازه أثناء انسحابه . فأوقع الخلل فى صفوفهم . وظل يحارب إلى أن أدركه محمد على فعاونه برجاله حتى تمّ لهم محاصرة ١٥٠٠ وهابى ضربت أعناقهم جميعا .

وبلغ عدد الأسرى من الأعداء نحو ٣٠٠ . كما بلغ عدد القتلى ٥٠٠٠ . وتضمنت الغنائم مقداراً كبيراً من المهمات والخيام .

قضى محمد على مع قواته الليلة فى كلاخ . وبعد أربعة أيام أمضت فى إعادة تنظيم قواته وصل بهم إلى أسوار طرابة . فانسحب منها فيصل بلا مقاومة . وقدّم أهلها فروض الطاعة للباشا واتخذها محمد على معسكراً عاماً له .

ثم وجّه محمد على عنايته إلى تعزيز قوات الشريف يحيى بقوة من الجند بقيادة محو بك وكان على الشريف أن يزحف براً على قنفذة على رأس عربانه . بينما كانت تصل إليه الذخائر والمؤن بحراً من ثغر جدة . وأرسل محمد على إلى المدينة ينبئهم بخبر نصره على العدو كما أخبر به أهالى القاهرة والآستانة . وكانت الرسالة التى احتوت هذا الخبر بتاريخ ٧ صفر عام ١٨٣٠ . وقد قرئت فى المساجد الكبرى بالمدينة وتتضمن شرح الوقائع وطلب الدعاء له فى الحرم أمام الضريح الشريف بتحقيق آماله وتطهير الحجاز من آثار الخوارج .

مطاردة الأعداء

ثم اخترق محمد على بجيشه أراضى عربان (أكلب) قاصداً نحو رنية فى الجنوب. وكان شيخهم قد شيّد حصنا كبيراً . فانفتحت أبوابه أمام شجعان الباشا . ثم واصل السير حتى وصلوا إلى بيته فأقبل عليه الزعماء يقدمون فروض الطاعة .

ووردت إلى المعسكر المصرى أخبار بأن الزعيم «طامى» يجدّ فى تعبئة الرجال للقتال . فأسرع الباشا بالتوجه نحو الغرب لقتاله . وكان من نتائج هذا السير أن أصاب الجند بالضعف والتعب . وبالرغم من هذا وصلوا إلى نهاية المرحلة الشاقة بعد أن استنفدوا تعييناتهم وقاسم «محمد على» رجاله بالضنك وشاركهم غذاءهم . ولم ينس أن يكافئهم فرفع مرتباتهم وقام يخاطبهم قائلا بأن تراجعهم إلى الخلف خطوة واحدة سيفضى إلى الهلاك . ولكى يجعل فى شخصه قدوة لهم نزل عن دابته ، هو وقواده ، وساروا فى مقدمة الحملة راجلين . فكان ذلك مشجعاً للمشاة على مواصلة السير .

وتعذر على الجنود سحب مدافعهم خلال الشعاب الصخرية التى تحمى العسير — فلما ساروا كثيراً وقدعانوا صنوف المشاق فى خلال خمسة عشر يوما وصلوا إلى قصر الطور المشيّد على رابية عالية برز الزعيم «طامى» على رأس عشرة آلاف من رجاله الأشداء وهو يحثهم على القتال العنيف .

وفى اليوم الثانى وضع المصريون مدافعهم فى النقط الملائمة وفتحوا نيرانهم . فاضطر الوهابيون إلى الفرار واحتل المصريون القصر الحصين بعد إجلائهم . حيث عثروا فيه على أكوام الذخيرة والمؤنة ومن بينها المدافع التى فقدها المصريون فى معارك سابقة .

نظم محمد على أحواله فى تلك المنطقة وأسرع متجها نحو قنفذة التى كانت الأقوات قد وصلتها عن طريق جدة ووقع فى قبضة المصريين الزعيمان بخروج

وطامى فأعدم أولهما وأرسل رأسه إلى القاهرة ومنها إلى الاستانة ، أما طامى فقد أرسل إلى العاصمتين وفى الأخيرة منهما أعدم .

ويتسنى لنا أن نعطى فكرة عن قوة الحملة المصرية فى ربيع عام ١٨١٤ بعد وصول الإمدادات إلى محمد على وقوامها ما يلى :

٤٠٠ جندى فى الطائف تحت إمرة محمد على نفسه .

٣٥٠ جندى بين المدينة وينبع تحت إمرة طوسون .

٢٠٠ ألبانى فى مكة تحت إمرة إبراهيم أغا .

١٥٠ اعرابى فى مكة تحت إمرة يحى .

٤٠٠ جندى فى المدينة تحت إمرة ديوان أفندى .

١٠٠ جندى فى ينبع .

٢٠٠٠ جندى فى جدة

١٠٠٠ جندى ألبانى فى كولاخ تحت إمرة حسن باشا .

٤٠٠ جندى من الدلاة } تحت إمرة عابدى بك — نقط خارجية جنوبى
١٢٠٠ جندى من الألبان } الطائف فى بلاد بنى نصيرة فى اتجاه طهران

وفى ٢١ مارس سنة ١٨١٥ عاد الباشا إلى مكة فقضى بها أياماً قلد أثناءها حسن بك (باشا فيما بعد) ولاية هذه المدينة ، وحسين بك قيادة الفرسان ، والشريف راجح حامية طرابة وبيشه ، ثم قصد إلى المدينة فوصلها فى الرابع عشر من ابريل .

وفى تلك المعارك الأخيرة لم تزد خسارة المصريين على ١٨٠ قتيلا ، و ٣٠٠ جريح . أما المرضى فكانوا جدّ كثيرين وقد ارتد معظمهم إلى مصر للعلاج والراحة .

طوسون واستئناف القتال

جثم عبدالله بن سعود فى القسيم للحيلولة بين طوسون باشا والمدينة . فلما وصلت إليه الأنباء بفوز الباشا عاد إلى الدرعية واهتم بالدفاع عنها . وبذلك عزم طوسون على الذهاب إليه لمقاتلته فيها .

وبعد عودة الوالى من معاركه تحرك طوسون على رأس فرسانه ورجاله من العرب الموالين مصطحباً معه ثلاثة مدافع وقد قام بالأعمال التالية :

أولا : هجم على عربان حطين وانتصر عليهم وغنم حوالى خمسمائة جمل .

ثانياً : حاصر قرية شنانة وبعد يومين ألقى أهلها السلاح .

رأى ابن سعود أن يقترب من شنارة التى تبعد خمس ساعات من معسكر طوسون . وكان يرمى إلى الاستيلاء على بلدة الرس وهى هدف طوسون أيضاً — وللاستيلاء عليها أهمية لوقوعها بين المدينة والدرعية ، فحث كلاهما السير إليها ، وأحرز طوسون قصب السبق قبل وصول خصمه واستولى عليها فى الظلام .

ونشبت المعارك ، صغيرها وكبيرها ، بين القائدين حوالى عشرين يوماً وكادت آخر مناوشة منها تفضى إلى معركة عامة يحتل المنتصر فيها الأرض المتنازع عليها .

وارتفعت حرارة الجو وتعذر على طوسون القيام بعمليات ، وأخذ العدو يضيق الحصار حول معسكر الأمير بينما تقل أقوات الجند ، فاضطر لذلك إلى أن ينقل مخيمه إلى بلدة الرس ثانية . وتراكم عليه الضيق ، وقلت لديه الذخائر والأقوات والأموال التى يدفع منها مرتبات الجند فضلا عن انقطاع الأخبار عنه . وبعدت خطوط مواصلاته مائة فرسخ عن المدينة كما أحاطت به الأعداء من كل جانب . ومن حسن الحظ أن استطاع القائد أحمد أغا الخازندار مبارحة المدينة فى مدد مؤلف من ٦٠٠ مقاتل و ٢٠٠ جمل محملة بالأقوات والذخيرة وأدوات المدافع .

ابن سعود يطلب الصلح

وأخيراً رأى ابن سعود أنه إذا كتب له الفوز على محمد على ، فلن تمر الأعوام حتى يسترد هذا النصر ويبلغ مراميه والانتقام منه . فقرر أن يطلب الصلح بوساطة وفد من رجاله . وأرسل وفداً إلى طوسون يطلب الصفح عنه . فأكرم الأمير رجال الوفد وعرض عليهم شروطه فقبل الوهابيون تلك الشروط على شدتها . ونيط بضابط من الجيش المصرى الذهاب إلى معسكر الوهابيين لتلاوتها على ابن سعود . وقد قوبل فيه بمظاهر التكريم وقدم إليه سيفاً .

ولكن ما ابتعدت الجنود المصرية عن البلاد الداخلية حتى أنزل نقمته بكل مشايع للسلطان ، وحرض القبائل الموالية للباشا ، وحصن المدائن الكبرى فى نجد ؛ فعزم طوسون على العودة إلى المدينة ونبهه كتابة إلى ما فى هذا المسلك من نقض العهد والخفر بالذمة . فتوسل إلى الأمير بأنه لن يعود إلى مخالفة الشروط فاكتفى هذا بانذاره .

عودة محمد على

ولما عاد طوسون إلى المدينة للراحة لم يلق بها والده — وكان قد زايلها إلى جدة ونزل فى سفينة أعدت للعودة إلى القصير ، واخترق الصحراء مع رجاله إلى قنا على ظهر الحمير ، ومنها استأنف المسير إلى القاهرة فوصلها وأقبل عليه العظماء وقناصل الدول يهنئونه بسلامة الوصول وبانتصاره على الأعداء .

اطمأن طوسون إلى هدوء الأحوال فى الحجاز . وقصد جدة ليبحر منها إلى السويس ثم وصل مصر فى ٧ نوفمبر عام ١٨١٥ وكان فى استقباله بالقاهرة الأعيان والقادة . ثم برحها إلى اسكندرية لزيارة والده .

وكان بمصر الوفد الوهابى الذى أتى ليقابل الباشا ليحظى بموافقة على الاتفاق

المبرم بين الأمير وابن سعود . وانتهز الباشا هذه الفرصة ولمحّ إلى رجال الوفد بأن زعيمهم يلعب بالنار ولا يرعى عهد الاتفاق وطلب منهم أن يحسن معاملته للزعماء والمشايخ اجتناباً لاندلاع الحرب بينهما .

ولما ضاق محمد على ذرعاً بابن سعود كتب إليه إنذاراً قال له فيه :

« سيصل إلى قطركم ولدنا العزيز ابراهيم فينزل به الهلاك والخراب ويرمى أعناقكم بسيفه ولا يدع فى حاضرتكم حجراً على حجراً ويوجه بكم إلى أعتاب جلالة السلطان . »

وصل الأنذار إلى ابن سعود فقرأه وأخذ يتأمل فى العواقب فعوّل على أن يجمع إليه شيوخ القبائل وكبار الزعماء . فلما وقف منهم على موافقتهم على محاربة المصريين خاطبهم قائلا :

« إنا نحارب للدفاع عن مذهبنا والذود عن حياض وطننا وعن الأمم والشعوب الكبيرة المقرة بوحدانية الله . نحارب الكفرة والمشركين . وانما النصر بيد الله يؤتيه من يشاء »

وقام القوم يحملون السلاح وينادون بالدعوة إلى الكفاح . ونصب ابن سعود المدافع حول الدرعية والمدن التى على طريق المدينة ، وتخلص من الرجال الذين اشتبه فى إخلاصهم . وحشد ثلاثين ألف مقاتل جعل بعضهم للدفاع عن عاصمته والآخرين للقتال معه . ولقطع خطوط المواصلات على المصريين .

ومع هذا الاستعداد للقتال ، رأى ابن السعود أن يرسل إلى محمد على وفداً آخر يحمل رسالة إليه ، قال فيها إن قصارى أمله أن يكون هو وآله وأتباعه من رعاياه المخلصين الذين لا يعوقهم مانع عن الانقضاض على الخوارج وأنه فى النهاية يلتمس العفو عما سلف ...

لم يغب عن محمد على أن الغرض الأساسى من حضور هذا الوفد كان للوقوف على مدى استعداد مصر للقتال . فاستقبلهم واحتفى بهم وسهل عليهم المهمة الحقيقية التى وفدوا من أجلها وبعث بهم يتفقدون المعسكرات ويشاهدون معدات الحرب . وقضوا وقت الزيارة معززين مكرمين حتى إذا حان ميعاد

سفرهم قال لهم محمد على :

« ها أنتم قد حصّنتم المدن وحشدتم الجند وتأهبتم للقتال . وهو ما أنا موقن به . فأخبروا مولاكم بأنى أحذره كل الحذر وأدعو إلى اتخاذ الحيطة لنفسه لأنى سأرسل إليه الأمير إبراهيم الذى سينزل به ويجزيه العقاب الصارم . وسيكون حظ عاصمتكم التلاشى والفناء وخاتمة سكانها أن يؤتى بهم إلى هنا إما أسرى وإما قتلى . على أنه إذا حاسب عبدالله نفسه وحثها على الطاعة وحفظ العهود واحترام الأيمان فإن هذا أولى به والا أخضعته ليسترد شرفه المنيع ويصون بلاده من الخراب وأعراض الحريم من التهتك والفضح والنفوس البريئة من الهلاك ، وأنى لأمهله ما يريد من الوقت للتروى . فلا تضيعوا الوقت فيم لا يفيد . واعلموا أنى طويل الصبر والأناة فى الانتقام ولكن ذلك ليس بدافع له ولا بمانع من أن يكون شديداً » .

وكتب محمد على رسالة إلى ابن سعود تتضمن هذا المعنى وأخرى إلى العربان يدعوهم إلى الطاعة لابراهيم . فلما وصل الرسولان إلى نجد أمرهما عبدالله ألّا يبوحا بسر ما انتهت إليه مهمتهما ثم أخذ الرسالتين ثم مزقهما وافترى رسالة من عنده .

واستأنف عبد الله إقامة المعاقل وتخزين الذخيرة والعتاد . وتدريب القوات وتوزيع الأعمال العسكرية عليها . ولم ينس فى أثناء ذلك بث روح القتال فى صدور رجاله وحثهم على قتال المعتدين والعمل بكل ما أوتى من قوة على ايذاء الحاميات المصرية .

وفى ٦ يولية سنة ١٨١٦ ، تفشى الطاعون فى برنبال حيث كان يقيم الأمير طوسون سعياً للراحة . فيخطفه المنون وهو فى ريعان شبابه ويفقد الجيش قائده ...

٢ - الحملة تحت قيادة إبراهيم باشا

١٨١٦ - ١٨١٨

الحملة الثالثة :

طال أمد القتال ولم تظهر بعد نتائجه الحاسمة . وقد عاد محمد على إلى مصر وضاعف همته فى العمل وزيادة الأهتمام بمطالب الحملة . فأقبل رجاله المختصون بنقل الدقيق والغلال والمهمات من القاهرة خاصة ومن أنحاء القطر عامة وتخزينها فى السويس القاعدة الأولى. بينما اتجهت السفن المحملة بالمدافع والبقسماط والذخيرة إلى قنا ومنها حملت على ظهور الجمال. إلى القصير . واستمر تدريب الجنود على القتال العنيف فى معسكرات أقيمت لهم بين مصر القديمة وطرى وفى غيرها .

وعين محمد على ابنه الأكبر « إبراهيم » قائداً للحملة ثم أصدر أوامره بأن تتحرك للمسير قوة مؤلفة من ألفين من المشاة بقيادة البكباشية قاسم وبابا مصطفى ومصطفى أغا . بينما اتجهت قوة من الفرسان تعدادها خمسمائة بقيادة حسن كاشف إلى ينبع لتنتظر وصول القائد إبراهيم إليها .

وفى ١٠ شوال سنة ١٢٣١ هجرية (٥ سبتمبر سنة ١٨١٦) ودّع إبراهيم باشا أسرته وكبار رجال الحكومة ولم تنس والدته أن أودعت قبلة طبعتها على جبينه وعقداً من الجواهر سألت ابنها إبراهيم ألا ينزعه إلا فى الحجرة النبوية هدية إلى الضريح الشريف . فوعدها إبراهيم بالوفاء بهذا النذر . ثم امتطى سفنه بساحل مصر القديمة فأقلعت به نحو قنا ومنها إلى القصير . وتحركت سفن الحملة من هذا الثغر فى ٢٣ سبتمبر وكان فى معيته بعض الضباط الأجانب نذكر من بينهم

الضابط فيسيير وانطون سكوتو طبيبه واندرى جنتيلى وتود سكينى وسوشيو الجراحين الصيدليين .

وفى أول أكتوبر ألقت السفن مراسيها فى ينبع فنزل مع كبار ضباطه فى سراى الحاكم وجعل معسكره مؤقتاً خارج أسوارها .

كان أول عمل لابراهيم عقب وصوله إلى ينبع أن عرض الجيش ليشاهد تدريبه. مما كان له أثر فى نفوس الأهالى . فلم تمض أيام عليه حتى أقبلت على الثغر وفود القرى المجاورة والقبائل المتحاربة يقدمون إليه الطاعة ويحملون إليه الدواب .

خطة إبراهيم

وما أن وثق إبراهيم بقوته حتى دبر هدف الخطة وهو الوصول إلى الدرعية (٨٠٠ كيلو متر من البحر الأحمر) والقضاء على الوهابيين . ورأى أن يتبع خط سير أخيه طوسون عن طريق الحناكية والمهوية والشنية والرس وعنيزة والشقراء (حوالى ألف كيلومتر) وهى مسافة تعادل ما قطعه نابليون من قبل بين نيمين وموسكو .

كانت الحملة فى ذلك الوقت لا يتجاوز عددها ستة آلاف يضاف إليهم آلاف من العرب المتحابين .

أراد إبراهيم بالتعجيل بالذهاب إلى المدينة فى حرس ضئيل العدد ماراً ببريكة (جنوبى ينبع) ثم وقف بعض الوقت عند سهل بدر وبرحها إلى قرية جديد ثم صعد فى صخور « ثنية واسط » متقدما نحو العيون التى تروى مياهها بساتين الواسط ، واتجه نحو الصفراء فالجديدة والكيف فوادى مدك حيث زار قبور الشهداء من الصحابة . وصعد بعد ذلك فى منحدر القريش والسلسلة . ثم هبط إلى ضفاف وادى العقيق . وأخيراً وصل ابراهيم المدينة وكان فى استقباله آغا الحرم وحراسه (٦ أكتوبر) .

اجتاز إبراهيم باب القاهرة ثم سوق العنبرية فالمناخ وكان يهتف باسمه الأهالى

وهم وقوف على المنازل وفى الطرقات حتى وصل إلى الحرم النبوى . فاتجه إلى الروضة حيث ركع أربع ركعات وقرأ سورتين ثم وقف أمام قبر المصطفى عليه السلام خاشع الطرف . ووضع عليه العقد الذى أهدته إليه أمه ولشد ما سر بهذه الهدية الثمينة شيخ الحرم وبسط كفيه إلى السماء ودعا الله جهرة قائلا :

« أيها النبى الكريم — ها هو إبراهيم بن محمد على قد خر ساجداً أمامك وقد قدم إلى ديارنا . فأمده . اللهم بنصرك وهبه القدرة على تأييد شرعك ونصرة كتابك المقدس وتمزيق شمل العصاة » . ومن ثم أخذ إبراهيم يتضرع إلى الله قائلاً : أيها النبى الكريم لقد أعانى الله أنا ابراهيم بن محمد على باشا على استرجاع البلدين المقدسين وجئت ضريحك الشريف ضارعاً متوسلاً أطلب المعونة فيما أنا مقدم عليه من الحرب والكفاح . فأجعل اللهم النصر حليفى ووفقنى إلى معرفة مقاصد العصاة . فإن أعدائى هم أعداءك وأعنى على تمزيق شملهم وتشتيت جموعهم . فإنى لن أذخل سيفى فى غمده حتى أمزق جمعهم » .

وبعد أن انتهى إبراهيم من تأدية الفروض زار البقيع فى ضاحية المدينة ودعا وصلى أمام قبور آل البيت النبوى وقَصَدَ قباء .

أما الأوربيون الذين انخرطوا فى سلك أركان حرب الحملة فقد اضطروا بناء على أوامر القائد العام إلى البقاء فى ينبع وكان بينهم أربعة من الأطباء الايطاليين أحدهم صيدلى .

تحرك الجيش

وأمر ابراهيم أن ينشىء معسكر فى قرية السويدرة بين ينبع وجدة . أقام فيها مستودعاً دفينا للمؤن والذخائر ثم سير منها إلى الحناكية القوات التى لم تكن هناك حاجة لبقائها بها وأمر بإقامة الاستحكامات حولها .

وعلى مسيرة يومين من المعسكر تجمع بعض العربان وحاولوا اقتحام مواقع المصريين فحدثت مناوشات خفيفة انتهت بانتصار رجال إبراهيم . ولما يجرأ العربان

بعد هذه المعركة على استئناف القتال ولا على النهب والسلب فجاؤا يسترحمون القائد المصرى ويخضعون لأوامره .

مضى على إبراهيم خمسة عشرة يوما فى السويدرة ثم قرر السير فى طريق المؤدى إلى القسيم (بالقرب من يثرب) فوصلها وأقام بها أسبوع ثم أمر أربعمائة من فرسانه بالسير نحو الحناكية .

وفى الوادى الذى اختاره لأعداد مشروعاته القادمة شرع فى إنشاء بعض الحصون حول أشجار النخيل وعيون الماء . وبقى ينتظر وصول الامدادات من الفرسان والمدافع التى كانت تصل إليه تباعاً لتحل محل القوات التى قضى الموقف بجعلها على حراسة النقط الخلفية احتفاظاً بخط الاتصال . وفى أثناء ذلك كان تدريب القوات مستمراً استعداداً للخطة الكبرى . وفى هذا المكان لجأ لابراهيم « غانم » شيخ قبيلة حرب يقدم فروض الولاء ويعرض عليه رجاله . فقبل القائد بحذر هذا الرجاء . وعلى أثره وفد كثيرون من العربان أصحاب النفوذ .

وفى يوم ٢٧ ديسمبر تحرك القائد فى جيش مؤلف من ١٨٠٠ فارس مزودين بالمؤن لمدة عشرة أيام وانضم إليهم غانم فى ٥٠٠ من رجاله وسار فى الطليعة جماعة من غرب نجد كأدلاء وجواسيس . فدخلت هذه القوة نجداً فى ١٧ يناير ١٨١٧ ولم تفقد سوى عشرين رجلا .

ولما رأى الموالون للوهابيين تقدم المصريين السريع لم يلبث مشايخهم أن سارعوا إلى قيادة الجيش للمفاوضة فاشترط ابراهيم عليهم التعهد بتوريد دواب النقل كلما مست الحاجة إليها . وانتهز القائد فرصة وجود الزعماء لديه وعرض أمامهم أعمال جنود الفرسان والمدفعية التى أذهلتهم حركاتهم العسكرية وكانوا لم يشاهدوا مثلها من قبل .

وفى ١٩ يناير ١٨١٣ تلقى ابراهيم باشا من القاهرة نبأ إنعام السلطان عليه بالبشوية ذات الثلاثة أذناب (أى الرتبة التى تخول له حمل ثلاث خصلات من شعر الخيل لا خصلتين) فاحتفل بهذا الإنعام الجليل احتفالا كبيراً ووزع بهذه المناسبة مرتبات الجند .



القائد إبراهيم يتقدم جنوده فى حملة الحجاز

انتشار الأمراض فى الجيش

وفى تلك الآونة سرى فى الجنود روح التذمر لتفشى الحميات بينهم بشكل وبائى خطير . فأمر بنقل المصابين إلى الحناكية خلف خطوطه . وبالرغم من احتياطات الأطباء كثر عدد الوفيات . ومع هذا لم يتأثر ابراهيم من هذه الكوارث لأنه كان يقدر أن تقع له مثلها .

وخلال ذلك وصلت إليه ثلاثة مدافع ومعها ٢٠٠ من المدفعيين بينما كان إبراهيم فى أشد الحاجة إلى الرجال المدربين ليملأ بهم ثغرات الصفوف . الشىء الذى دعاه أن يسأل والده أن يوافيه بألفى مقاتل . وباشر عقد معاهدات جديدة مع العربان . وألزم الأصحاء بحمل السلاح ليمنع سريان العدوى فى معسكره بتلك الأمراض ، وضم العرب إلى المصريين فى وحدات واحدة وكان عدد الجميع حوالى ٢٧٠٠ فقط .

معركة الرس

وفى ٢٢ فبراير ١٨١٧ تقدّم إبراهيم نحو الرس وقد عقد عزمه على الاستيلاء عليها فجأة . ولكن بدأت تقاومه الطبيعة : فهطلت الأمطار ، واشتدت عواصف الرمال ، ولم يصل إليها فى الوقت الذى قدره . وكادت المؤن تنفد فاضطر إلى العودة إلى الحناكية ابتغاء الراحة . وفيها عمل كل وسيلة لوقاية جنوده من شر الأمراض وتوفير الراحة لهم بإنشاء بيوت من الخشب ليتقوا بها الاختلافات الجوية كاشارة الطبيب حنتيلى . واشترك الأمير مع رجاله فى إنشاء هذه البيوت التى استغرق تهيئتها حوالى الشهرين .

وصلت إلى إبراهيم أنباء تفيد أن العدو يستعد للهجوم المفاجىء . فرأى أن يهبّ للقتال ليحرم العدو عنصر المفاجأة وليفسد عليه خطته وليمنع انضمام بعض القبائل إلى الأعداء وكانت تتربص لتميل إلى الكفة الراجحة .

وحدثت مناوشات بين الطرفين انتهت بقتل أكثر من ٨٠٠ مقاتل من العدو وغنم ٢٠٠٠ جمل .

أسرع إبراهيم إلى المدينة ليحمد الله فيها على ما أولاه وجيوشه من التوفيق والظفر ثم عاد منها فى ٢٠ ابريل .

° ° °

لم ييأس الوهابيون مما ألمّ بهم من الهزائم . فقد استمروا على حشد رجالهم وتدريبهم وتسليحهم . بل واستأنفوا تقدمهم فى حوالى عشرة الآف بعد أن علموا أن الباشا أرسل فى ٢٦ ابريل جيشاً بقيادة « أزون على » مؤلفاً من ألف مشاة وأربعمائة فارس ومدفع واحد لاحتلال « المهوية » فى اتجاه الرس . وقد نجحوا فى الاستيلاء عليها فقرر الباشا طرد العدو منها .

خطة العدو فى الحناكية

ومن ناحية أخرى رأى العدو أن يعمل على محاصرة إبراهيم فى الحناكية . وفى نفس الوقت يزحف «فيصل» شقيق عبدالله بن سعود على مكة وجدة وينبع لقطع خطوط المواصلات المصرية والاعتداء على القوافل المارة فى الطريق التى تمتد بينها . وتفصيل هذه الخطة التى لو أتيح لها النجاح لكانت قاضية على جهود مصر الحربية . نتناول وصفها كالآتى :

قول قوته عشرة الآف رجل بقيادة عبدالله نفسه يتجه نحو القوات المصرية لمناوشتها والعمل على جذبها إلى قلب الصحراء عن طريق عمليات صغيرة إلى أن يقذف بها فى الهاوية فى منطقة القاسم .

قول ثان قوته ثلاثون ألف يتجه نحو المدينة للاستيلاء عليها ثم يقصد الحناكية لضرب مؤخرة قوات إبراهيم .

قول ثالث يغزو الحجاز ويقطع كل مواصلات المصريين ، وذلك باتحاد اليمنيين معهم من الجنوب ، وهدف هذا القول الاستيلاء على مكة وجدة وينبع .

وكان على عبدالله أن يبدأ العمل وفعلا رأيناه فى يوم ٢ مايو ١٨١٧ يقف

أمام المهوية حيث كان « أوزون على » التركى يستعد لأى طارىء .

ومن المهم ونحن على أهبة نشوب القتال العنيف بين الطرفين أن نلم سريعاً بحالة الجيشين . فقد اعتمد الوهابيون على تفوقهم العددى فى القوات ومعرفتهم بطبيعة الصحراء التى تدور عليها المعارك فضلا عن تحملهم لأعباء القتال أكثر مما يتحمله المصريون وكان جل اعتمادهم يتوقف على سرعة خيالتهم ومهارتهم فى الكر والفر . لكن ابراهيم كان يتفوق من الناحية الفنية على خصمه وعلى قوة مدفعيته .

وفى فجر ٢ مايو بدت طلائع الوهابيون وهى تتقدم نحو المصريين . وكانت جموعهم تتدفق بينما يترنمون بأناشيد القتال . هكذا باغتوا المصريين ولكن على ما يبدو لم يوحّد المهاجمون خطتهم كما رسموها وقد أخذوا يلتمسون الجهة التى ينبغى لهم أن يحتشدوا فيها بدون أن يهتدوا إليها حتى كوّنوا دائرة ثم حاولوا الحملة على المصريين . فأمر « أوزون على » بأطلاق البنادق بشدة . ففروا وارتبكت صفوفهم وشعر عبد الله بحرج موقفه . ثم تقدّم بفريق من فرسانه نحو المعسكر المصرى الذى ظل رجاله يصوبون مدافعهم نحوهم مما اضطروا إلى الرقود .

اغتنم الفرسان المصريون فرصة اضطراب العدو وتردده ، وعملوا السيف فى رقاب المرتدين ، فقتلوا وأسروا منهم عدداً وفيراً .

وبينما كان إبراهيم محافظاً على خط الحناكية طبقاً لأوامر والده إلى أن يوافيه بالأمداد ، أرسل فيصل الدويش شيخ قبيلة مطير يخبر الباشا بأنه إذا وصل المصريون إلى المهوية لانضم إليهم وحالفهم على إبادة الوهابيين .

فأسرع إبراهيم فى ٣٠ ابريل إلى المكان المتفق عليه للاجتماع بفيصل هذا على رأس أربعمائة من شجعانه الفرسان والمشاة الراكبين على الهجن وثلاثة آلاف جمل تحمل الذخائر .

وصل إلى المكان المبتغى ونزل فى خيمة « أوزون على » وهناه هو وغانما شيخ عربان حرب ببسالتهما . واتفق مع فيصل الدويش للعمل سويا .

ولما ارتأى الوهابيون ما حلّ بقواتهم ، كما أسلفنا القول ، أحجموا عن

الزحف على الحجاز وجمعوا فلولهم فى ضاحية عنيزة ثم أرسلوا إلى الرس مائتى رجل مدداً وذخائر كثيرة . وبذلوا همتهم فى إعداد وسائل الدفاع عن الدرعية . وعن الولايات الوسطى فى مملكتهم .

تعديل خطة إبراهيم

أما إبراهيم باشا فقد فكر فى الاستفادة بالمزايا التى نجمت عن انتصاره ، فاستقدم حامية الحناكية ما عدا أربعين رجلا منها ، وكتب إلى المدينة فى طلب المؤن والذخيرة ، وإلى مكة يستقدم الفرسان الذين وصلوا إليها من مصر لإمداده . وما لبث أن وصلت إليه حامية الحناكية وفرسان مكة .

وفى أوائل يوليو غادر إبراهيم باشا المهوية فى خمسة آلاف جندى غير العربان ، ولما كان يشعر بالمرض فقد أمر « أوزون على » بالتقدم فى جيش مؤلف من ألفى جندى وثلاثة مدافع ، ثم قام بعد أربعة أيام فى إثره .

كان تقدم ابراهيم بطيئاً بالنسبة إلى وعورة الطريق وخوفه من مفاجأة العدو له . وبعد أيام التقى ابراهيم بفيصل الدويش الذى وافاه بمؤنة وافرة ودواب للنقل وانضم برجاله إلى الحملة المصرية وكان عددهم مع من انضم إليه من القبائل الأخرى لا يقل عن ثلاثة آلاف .

الهجوم على الرس

فى اليوم التالى بدأ حصار الرس الذى استطال ستة أيام ، استمر فى خلالها ضرب المدينة ضرباً غير دقيق ومؤثر . ولذلك رأى ابراهيم أن يتسلق رجاله الأسوار ليلا ، بينما تعزز المشاة هذا الهجوم وتمنع السكان من مبارحة المدينة . واستطاع « أوزون على » ورجاله الدلاة والمغاربة خدع العدو بأن لفت نظره نحو جهة غير التى كان ينبغى أن تنصرف إليها ونهض بهجوم خادع عليها إلا أن الأهالى استرشدوا بدوى المدافع المصرية فوقفوا على الأسوار واستمروا أربع ساعات

يصدون المهاجمين برماحهم وبنادقهم وبمعاونة المدفعين اللذين كانا عندهم . بينما عاونهم النساء والشيوخ على الثبات فى المدافعة فضلا عن معاونتهم للجرحى . ويضيئون ميدان القتال بسعف النخل الجاف المطلى بالصمغ .

وموجز القول إن الفريقين أبديا من ضروب البسالة ما قضى بالعجب وانتهى بالمصريين الأمر إلى الرضى بإيقاف القتال لما أصابهم فيه من الخسائر التى أوفت على ٨٠٠ قتيل وجريح ، ولم تكن خسائر العدو تنقص عن هذا القدر

وفى الفجر عزز إبراهيم جيشه بتسعمائة جندى بقيادة البكباشى ياور واستأنف الهجوم . وكان قد أمر رجاله بقطع النخل الكبير ليقيم به حصوناً متفرقة بارتفاع بضعة أمتار إذ قد بدا له أن فشل الهجوم السابق يعود إلى قلة المتاريس التى تمكن الجنود من ضبط مرمى المدافع . ولكن لم يدرك القائد المهندس قصد إبراهيم فلم يأت إقامة هذه الحصون الصغيرة بفائدة وهجم العدو عليها ، وفى أثناء العراك أصيب القائد « ياور على » بجرح بالغ .

وذهبت حيل المصريين للاستيلاء على الموقع هباء . ولم يبق لهم من وسيلة يعتمدون عليها سوى الهجوم عنوة . فقاموا به ولكنه لم يثمر غير الخيبة والفشل .

أصبح موقف إبراهيم حرجاً للغاية لأن ثلاثة آلاف من رجاله هلكوا أمام الرس ، ونفذت الذخيرة ، وهددت المجاعة بقية الجيش . ولم يتبق له أمل فى جلب إمداد يعاونه وقد أصبح فى الصحراء على بعد فسيح من قواعد النجدة . بينما تفد الإمدادات بسهولة إلى العدو .

يصف إدوار جوان فى كتابه هذا الموقف الشاذ فى السطور التالية :

ولو أن قائداً أقل من إبراهيم رصانة وتريثاً فى عمله وأكثر تروعاً منه وجزعاً قبالة الحوادث إذا قلبت له ظهر المجن لترك ميدان القتال يائسا وانقلب عائداً إلى الحجاز . ولكن الكارثة التى نزلت به وبجيشه زادته إصراراً على إرادته وتمسكاً بتنفيذ مشيئته ومضياً فى عزيمته . على أن الكارثة لم تقف عند هذا الحد . فقد ثارت عليه أيضا عناصر الطبيعة واتحدت ضده مع العدو . وهبت الرياح شديدة تسفى التراب والرمل وتنتزع المضارب والخيام وتسلب الإنسان والحيوان التنفس

والحركة ، وسقط الجرحى على الأرض بلاحراك ، وحل اليأس من نفوس الجند محل الأمل ، وبدأت الأمراض تسرى بينهم .

أما الوهابيون فقد اشتدت عزيمتهم وتفرقوا فى البلاد يسلبون الأهالى ويأسرونهم.

فى وسط تلك المحنة . كان إبراهيم ثابتاً كالصخرة . لا يفكر فى غير الفتح والنصر ، ولقد امتطى جواده فى يوم من هذه الأيام العصيبة وسار فى ألف فارس وانقض على شيع العدو فمزق شملها كل ممزق بعد قتل وجرح ثلاثمائة منهم . واستطاع أن يجر جنود العدو من وراء أسوار المدينة ويخرجهم إلى السهل للقتال .

ووصل إلى إبراهيم مندوبون من لدن الزعيم الوهابى للتحدث فى شأن الصلح ولكن كان جواب إبراهيم أن أنذر محمداً بن مزران حاكم الرس بوجوب تسليم المدينة إليه . فرد عليه هذا بقوله :

« تعال فخذها » . فاستؤنف القتال بين الفريقين .

وتابع عبدالله مخابرات الصلح التى بدأ بها . وكان بغيته كسب الوقت لإعطاء رجاله فسحة من الوقت للاحتشاد . ولكن لم تنته المفاوضات بأية نتيجة ولم يصل الطرفان إلى تقرير السلام .

مضت ثلاثة أشهر وعدة من أيام على حصار الرس . وسئم أهلها انتظار وصول الإمداد إليهم بعد أن نفد المخزون بها . وتولاهم اليأس وسعوا يطلبون من إبراهيم هدنة شريفة (أكتوبر ١٨١٧) . فتم الاتفاق بين الطرفين على أن يرفع الحصار عن بلدتهم وقبلوا وضع حامية مصرية بها إذا وقعت عنيزة فى يد المصريين .

المرحلة الثانية لخطة إبراهيم

بلغت خسارة المصريين حول الرس ٣٥٠٠ مقابل مائتين من أهلها . ومع هذه الخسارة الفادحة وتأثيرها على قوة رجاله ، فقد بدأ إبراهيم مرحلته الثانية بالزحف

بمن بقى صوب الخبراء التى وقعت فى يده .وبعد أن استراح فيها مع شجعانه بضعة أيام اتثنى نحو عنيزة التى نجم عن الاستيلاء عليها لتوسطها الطريق بين البحرين أن اضطر الزعيم الوهابى إلى الانسحاب إلى الشقراء .والاهتمام بتحصين الدرعية.

ولما شهد أهل القسيم ما حل بعنيزة أقروا الطاعة لإبراهيم . وأكثر من ذلك كان من نتيجة استيلائه على هذه المناطق أن أصبح الطريق الموصل إلى معقل الوهابيين مفتوحاً أمامه . ولكن الطريق لم يكن سهلا ميسوراً . فماذا هو صانع قبل إقدامه على المعركة الفاصلة .

رأى قائدنا ، قبل الإيغال فى نجد ، الاحتفاظ بموقع حصين يعتصم فيه عند الحاجة . ولذلك أمر بترميم قلعة عنيزة وقطع نحو ستة آلاف نخلة لتثبيت بطاريات مدفعيته خلفها. وإنشاء سياج لمعسكر منيع وعول على الانتظار بضعة أيام لتصل إليه فى خلالها الامدادات والمؤن ثم استئناف العمليات الحربية .

ولكى يشغل رجاله فى بعض الأعمال ، رأى أن يزحف على بريدة وبدأ يطلق المدافع عليها ، فهدم أسوارها واستولى على إحدى قلاعها . وأباد حاميتها . وبعد أيام سقطت بوريدة بعد تدمير أبراجها . وتفرغ إبراهيم لتدبير المؤن وتعزيز قواته العسكرية فى البلاد التى احتلها .

أقام فى بوريدة شهرين وصلت خلالها قوة قوامها ٨٠٠ رجل ومعهم مدفعا حصار وعدة جمال وكميات من المؤن . فأصبح تعداد الجيش حوالى أربعة آلاف ألبانى ومصرى و ٥٠٠ مغربى تحت قيادة حسن كاشف إلى جانب العربان الذين انضموا للحملة . وإلى جانب المدفعين المذكورين كان لدى إبراهيم ١٢ مدفعاً وعشرة آلاف دابة للنقل .

معركة الشقراء

لم ييأس العدو وظل يستعد لليوم المنتظر . وكان نشيطاً فى إقامة الحصون حول بلدة الشقراء . لذلك ارتأى إبراهيم الإسراع نحوها فقصدها بنفسه بعد

أن استطلعها الفرسان فى ٢٨ ديسمبر ١٨١٧ . فغادر بوريدة وبلغ المذنب واستولى عليها. وأصبحت قواته على بعد مائتى كيلو متراً. كلها جبال وصحارى. تندر فيها المياه وتنعدم بها السكان. بعد أن أمرهم زعيمهم بتدمير كل ما يمتلكونه وكانت خطته كالآتى :

تتقدم الفرسان فى الطليعة . وتسير المشاة والمدفعية والحيوانات فى الوسط . وعلى مسافة تتأتى المغاربة فى المؤخرة . وكان معدل السير ست ساعات فى كل ٢٤ ساعة . وقد ضرب إبراهيم لرجاله المثل . فكان يسير فى مقدمتهم ليكون لهم قدوة فى الصبر والجلد والاقدام .

وأخيراً لاحت الشقراء . فنصب مخيمه على مسافة ١٦ كيلومتراً منها بين قريتين خضع له أهاليهما .

وفى ١٢ يناير عام ١٨١٨ تقدم إبراهيم على رأس ثمانمائة من فرسانه يستطلع ما حول الشقراء لاختيار المواقع المناسبة لإقامة معسكره فتبادل إطلاق النار بين أهلها والمصريين . ثم عاد فى المساء إلى معسكره وأنذر قادته بالاستعداد للزحف فى فجر الغد .

وكانت حامية الشقراء تتألف من ١٤٠٠ وهابى تحت إمرة اثنين من أقارب عبدالله ومعهما خمسة مدافع يعمل عليها تركى فر من جيش إبراهيم .

وقبل شروق الشمس استأنف الجيش المسير فى ٤٥٠٠ من المشاة والفرسان و ٦٠٠ جمل . وتحملت المدفعية متاعب التقدم فى الرمال لكنهم وصلوا إلى الأماكن التى تخيرها إبراهيم . فنصبوا المدافع وبدأوا إطلاق النيران تساعدهم المشاة من جنوب المدينة وشرقها . واستمر القتال إلى ليل ١٦ يناير سنة ١٨١٨ . واستطاع المدفعيون إحداث ثلمة فى أسوار الحدائق المحيطة بالشقراء . فحمل المصريون على المنازل الواقعة خارج السور فصدهم الوهابيون بعنف وبسالة لكنهم انسحبوا إلى داخل المدينة بعد ما رأوا ما أحدثته القنابل فى الأسوار . واستمروا على المقاومة الشديدة . فما كان من إبراهيم إلا أن عهد إلى الضابط فسيير وكان قد استدعاه لتشييد عدة معاقل لإطلاق المدافع منها بشدة . ليذعن الأهالى

على التسليم . وفعلا أرسلوا رجلا من بينهم للمفاوضة (١٩ يناير) وسكن القتال بيد أنه عاد ثانية لعدم الوصول إلى نتيجة واستمر إلى ٢٢ يناير عندما ألقى رجال الحامية وعددهم ١٤٠٠ سلاحهم عملا بشروط الاتفاق ورحلوا إلى بلادهم بعد ما تعهدوا بأن لا يحملوا السلاح ضد المصريين . ثم تسلم رجال إبراهيم معدات الدفاع ومنها خمسة مدافع وجميع الأسلحة والذخائر فضلا عن القمح والشعير .

وبدأ الجنود يستجمون . بينما كان إبراهيم يفكر فى الهدف الختامى وهو الاستيلاء على الدرعية التى أصبحت على مدى مائة كيلومتر منه .

وقد بلغت خسائر المحصورين من القتلى فى الأيام الستة التى قاوموا فيها ١٧٠ ومن الجرحى ٢٤٠ منهم ١٣٥ امرأة و ١٢ طفلا . أما خسائر المصريين فلم تتجاوز ١٣٠ قتيلا وجريحاً .

ولا يخفى أنه كان لسقوط الشقراء أهمية كبرى . فهى مفتاح الدرعية وعاصمة إقليم الوشم . تقوم فى وسط سهل من الأرض لا يبعد عن المدينة بأكثر من ١١٢ كيلومتراً وتقع على خط المواصلات بين الرس والدرعية . تحيط بها جبال الطويق من جميع الجهات . ولها أهمية اقتصادية كبيرة لتجارتها فى الماشية والصوف والسجاد مع دمشق وبغداد والبصرة . وتقوم فيها عدة من مساجد .

وفى هذا المكان أنشأ إبراهيم مستشفى بإدارة الطبيب « جنتيلى » لعلاج المرضى والجرحى العديدين .

استراح القائد قليلا ثم غادر الشقراء قاصداً الحسا حيث حشد الجنود حتى إذا وصل إلى ضرمة (١) أصبحت الدرعية منه قاب قوسين أو أدنى . ثم أتم تطويقها فى الأيام الأخيرة من مارس عام ١٨١٨ . وبعد قتال عنيف وقعت فى يده .

معركة الدرعية

كانت الدرعية معقل الوهابيين وعاصمة ملكهم ومركز حشدهم ، وهى قاعدة العارض ، تقع على مسافة ٨٠٠ ميلا من ينبع (القاعدة المصرية) وفى

(١) هى من بلاد العارض أحد أقسام نجد وتبعد عن الدرعية حوالى مائة كيلومتر

نهاية واد مشهور بالخصب بين جبلين يحتويان عيوناً للماء تتناثر حولها البساتين والحقول والمروج التى ترعاها قطعان الماشية . وللدرعية موقع عسكرى منيع لا يوصل إليها من الغرب سوى حلق ضيق من حلوق الجبال لا يجرؤ على اجتيازه مهاجم . أما من الجهات الجنوبية فتحميها على مسافات بعيدة منها صحراء النفوذ وهى فيافى رملية لا ماء فيها .

وكانت تتألف الدرعية من خمس مدن صغيرة لكل منها أبواب وأسوار تتخللها الحصون والأبراج فضلا عن قلعة كبيرة تحميها — وإلى جانب القلعة أكمة منيعة تحميها أيضا . ويبلغ محيط الأحياء التى تشملها المدينة حوالى اثنى عشر كيلومتراً وهى دائرة كان من الصعب حصرها بأقل من ٢٥٠٠٠ مقاتل أى بأربعة أضعاف جيش إبراهيم . ولذلك كان أول ما اتجه إليه همه حشد قواه كلها فى نقطة واحدة والهجوم بها على حصن هناك يستند إلى أكمة مرتفعة .

قام القائد بنفسه فى الأسبوع الأول من أبريل على رأس ثمانمائة فارس ومدفع لاستطلاع استحكامات الدرعية . وحدثت مناوشات بين الجانبين ثم عاد الأمير إلى معسكره وقد وقف على استعداد خصمه .

وفى ٦ أبريل أقام أمام موقع الدرعية بعيداً عن مرمى المدافع منه حصونه الأمامية . واقتدى الوهابيون بالمصريين فاختاروا مواقعهم ووضعوا فيها حوالى ألفين من مقاتليهم .

وارتأى إبراهيم أن أول همه هو الإسراع بإخراج العدو من استحكاماته قبل تقويتهم فى معاقلهم .

وفى ١٢ ابريل ١٨١٨ تحت جنح الظلام ركب إبراهيم مدافعه وجمع خلفها ذخيرته وعتاده .

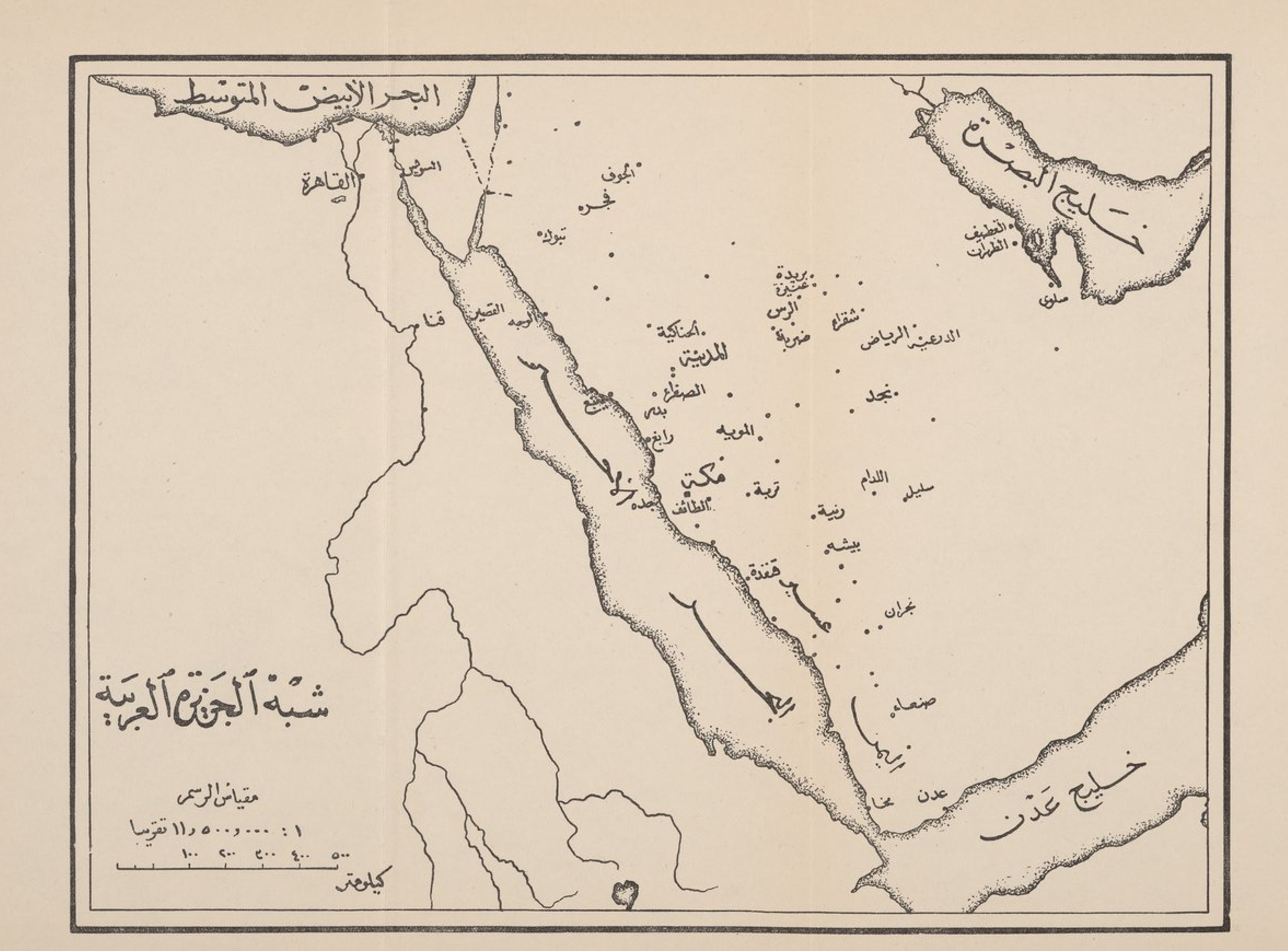
وفى ١٤ أبريل بدأت المدافع تقذف حممها . وأمر بعض قادته بحراسة المضيق المسمى بـ « المسيل » وأخذ الفرسان مواقعهم على خط الصحراء لمنع تسرب العدو . وأحدثت القنابل ثغرة فى قلعة المدينة . فتقوض برج من أبراجها وفر حراسه فى حالة هرج ورعب تاركين عتادهم وجرحاهم . فطاردتهم فرسان

إبراهيم وأسروا منهم كثيرين . ولبث إبراهيم بعد ذلك ينتظر وصول الإمدادات إليه ليستأنف الهجوم .

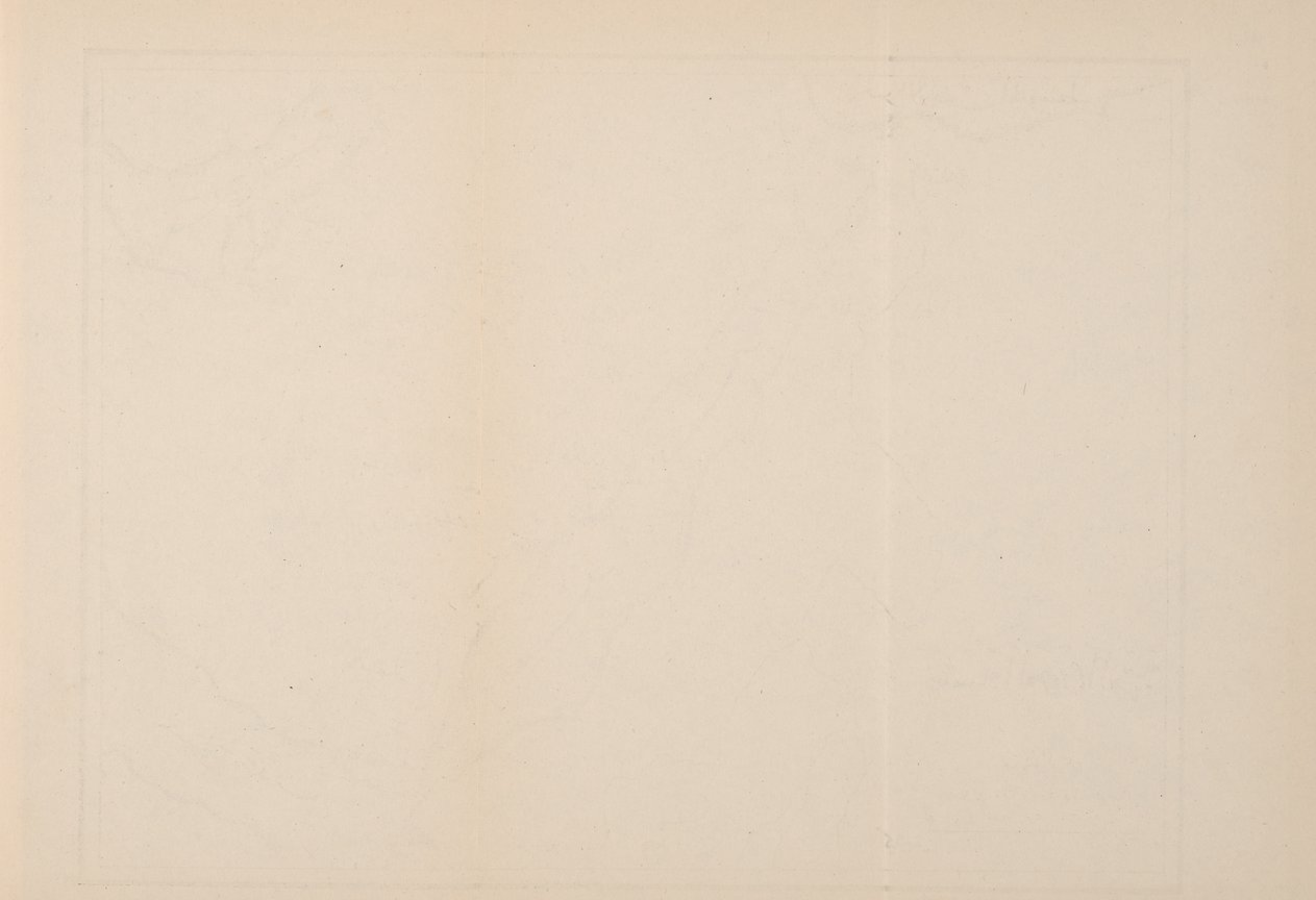
ولم تقف المناوشات بين الجانبين . وحاول إبراهيم حبك حصاره ليمنع وصول أية إمدادات للعدو داخل المدينة . وفى الوقت نفسه وصلت إليه حملة كبيرة محملة بالدقيق والشعير والأرز . فضلا عن أن المرضى والجرحى الذين تركهم بمستشفى الشقراء كانوا قد أبلوا من أمراضهم فعادوا إلى صفوفهم . ووصلت بعد هذا وذاك قوافل من المدينة وعنيزة ومعهما خمسمائة رأس من الضأن وشىء كثير من البقسماط والقمح والشعير والسمن والبارود والقنابل . فارتفعت معنوية الجنود .

وكان يحاول العدو فى كل يوم مناوشة المصريين . فكان يرد هؤلاء هجوهم بنيران البنادق بينما يوجهون نيران مدفعيتهم إلى الأبراج والأغراض الهامة فيدمرونها ولكن كانوا يقتصدون فى إطلاق مدافعهم للاقتصاد فى الذخيرة .

وفى الأسبوع الأخير من يونيه هبت ريح جنوبية ويشاء الحظ العاثر أن حملت معها جذوة نار من موقد كان عسكرى يهيئ عليها طعامه . فألقتها على خيمة كبيرة بين ربوتين وفيها مستودع للقذائف و٣٠٠ برميل بارود و ٢٨٠ صندوق خرطوش وقنابل مستديرة ومستطيلة . فلما احترقت الخيمة اتصل اللهب بالذخيرة فانفجرت كلها واحترقت بسببها أكوام الشعير والقمح وتتابع الانفجار باتصاله من برميل إلى برميل مدة عشر دقائق ومن خيمة إلى أخرى حتى أتت عل معالم ما كان فى المعسكر . وتناثرت الأجسام وروع الباقون . وأصبح إبراهيم وسط الصحراء بعيداً عن قواعده ومستودعاته الأساسية بنحو ٢٠٠ كيلو متراً . وعاجزاً عن الوقوف أمام عدو متفوق عليه فى العدد أضعافاً مضاعفة . وكل ما لديه لا يزيد عن ٣٠٠ قذيفة . فكان المصاب شديداً والنكبة فادحة — غير أن إبراهيم تلقى تلك الصدمات بالثبات والصبر وسرعة البديهة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة ؛ وأصدق دليل على ذلك حين سأله أحد قادته — هل استطاع إنقاذ شيء من الذخيرة ؟ فأجاب « فقدنا كل شيء إلا البسالة وسيوفنا فبالبسالة والسيوف نستطيع الهجوم والانتصار » .



البحر الأبيض المتوسط
القاهرة
السويس
الجوف
تبوك
قنا
القصير
الوجه
الحناكية
المدينة
ينبع
الصفراء
بدر
رابغ
المويه
مكة
جده
الطائف
تربة
رنية
بيشه
قنفذة
عسير
نجران
صنعاء
اليمن
عدن
مخا
خليج عدن
بريدة
عنيزة
الرس
ضرية
شقراء
الدرعية
الرياض
نجد
اللدام
سليل
القطيف
الظهران
سلوى
شبه الجزيرة العربية
مقياس الرسم
١ : ١١و٥٠٠و٠٠٠ تقريبا
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠
كيلومتر



وقف عبدالله على ما أصاب الجيش المصرى . فاستقر رأيه وزعماءه على الخروج فى اليوم التالى على رأس ١٥٠٠ من جنوده للهجوم . وأيقن إبراهيم بحرج موقفه . فجمع فى الحال جنوده ووقف فى وسطهم يأمرهم بأن يضنوا بما معهم من الذخائر وأن لا يطلق أحدهم رصاصة إلا إذا تأكد من إصابة خصمه . وأنذر كل متقهقر بالاعدام

وفى الصباح اتخذت الجند مواقعها وأمرهم ضباطهم أن لا يطلقوا النار إلا إذا اقتربت صفوف العدو منهم . وفعلا لما دنوا الأعداء مسرعين تلقتهم نيران المدافع بمقذوفاتها . فحصدتهم حصداً ذريعاً واضطرتهم إلى التقهقر .

لم يفلح هجوم العدو فارتد ليلتزم خطة الدفاع . بينا اهتم إبراهيم بحالة جرحاه . وقد انتشرت الدوسنطاريا والرمد . وأصيبت عيناه بالمرض الأخير أياماً . على أنه ما زالت روح جنوده عالية لم تتأثر . وكان إبراهيم قد طلب الإمدادات من نقطة العديدة فوصلت إليه بعد أيام . وتمكن القائد بمن وصلوا إليه من إخضاع القرى التى تمد الدرعية بالمؤن .

وفى ١٥ أغسطس خرج القائد على رأس ألفى جندى ومدفعين فاستطلع الطريق مستتراً بالظلام وخبر حالته . ولكن جلبة المدافع والحيوان كشفت تقدمه من صفوف العدو . فقام رجاله إلى مدافعهم يطلقونها . وألحقوا بالمصريين خسائر جسيمة . وخرج عبدالله فى اليوم التالى لمحاربة خط المحاصرين فاستمر القتال أربع ساعات تحت شمس محرقة . أبدى الفريقان فيه من البسالة ما يحمدان عليها . وانتهى بصد الوهابيين وفى اليوم التالى عاد إبراهيم بعد استيلائه على بلدة خرقة وقصد خيمة الطبيب جنتيلى الذى أصيب بشظية فى رجله. فشجعه بكلمات طيبة .

وتتابع وصول الامدادات . منها ٤٠٠ من المشاة وقوة من الفرسان وكميات الذخيرة . كما وصلت إليه رسالة من أبيه تفيده بقيام ٣٠٠٠ مشاة وفرسان بقيادة خليل باشا حاكم الإسكندرية .

لم ينتظر إبراهيم وصول الإمداد. وعول هذا على قتال الوهابيين فى معقلهم الأخير

قبل ورود الجند إليه من مصر .

بدأت المدفعية بإطلاق القنابل وتبعها المشاة من مواقعهم الأمامية ، وفى تلك المناوشات أصيب « فيصل » شقيق « عبدالله » برصاصة فاتكة .

وهنا استنفر إبراهيم جنده إلى الهجوم وألقى عليهم أوامره ولم يترك فى مواقعه إلا من يكفى منهم لحفظها وأمر سلحداره وفريق من فرسانه بالاستتار وراء مرتفع فى الجهة اليمنى . ليتمكن عند الحاجة من التقدم نحو مسيل الباتن والهجوم عليه وعهد إلى « أوزون على » بمراقبة حركات العدو وأعماله . وكانت القنابل والقذائف تخترق الفضاء .

استعد الوهابيون لصد هذ التقدم الليلى إلا أن «إبراهيم» عمد إلى جسر خال من جنود العدو وتمكن من إيصال ٨٠٠ فارس إلى داخل البساتين وأدركوا أنهم مفاجأون . واضطروا إلى مزايلة حصن لهم كان يحتوى على ثلاثة مدافع .

وإذ ذاك استطاع المصريون من حصار غسيبة والإحاطة بالقلعة التى امتنع بها الوهابيون مدة يومين ثم اضطروا إلى التسليم مع قائدهم .

وواصلت المدفعية ضرب الدرعية. ففتكت بالأهالى فى سهل وغسيبة وضربت بيوت هذين الحيين ضرباً مبرحاً . وحاول سعود بن عبدالله والى صرامة الخروج منها واقتحام خط الحصار . فتلقفته فصيلة الفرسان التى تحرس الممرات القريبة ثم جىء به أمام إبراهيم باشا فوبخه ثم أمر بإعدامه لأنه حنث باليمين الذى تعهد فيه بعدم محاربة المصريين .

ساء موقف بن سعود وأخذت مبانى طريف تسقط تحت تأثير المدافع . وما زال يحض قومه على المقاومة ويستنفر هممهم ويستثير حميتهم . ولكن بدون جدوى . وأخيراً لبى نداءهم تحت ضغطهم ورفع راية التسليم وطلب الكف عن القتال .

وفى ٩ سبتمبر قصد رسول من العدو معسكر إبراهيم باشا . فصدر أمر بإيقاف ضرب النار . ولما وصل تعين موعد للقاء الزعيم الوهابى للمفاوضة على التسليم .



الضابط فيسير الفرنسى يحمل إلى محمد على نبأ انتصار الجيش المصرى

مرت ساعتان جاء على أثرهما عبدالله يحف به مائتان من رجاله . وكان قائدنا يجلس على أريكة فى خيمته . فتلقاه بمظاهر الرعاية والود . وأراد عبدالله أن يلثم يده فأبى وسحبها منه تلطفاً . ثم أجلسه إلى جنبه ودار بين القائدين حديث قصير . قال ابن سعود فى نهايته :

« إنى أسألك الصلح ياسيدى أفتمنحه ؟

فأجاب إبراهيم :

نعم وإنى لجاعلك الحكم فى شروطه . وإنما هناك أمر لا تصرف لى فيه الا وهو بقاؤك فى الدرعية فإن الأوامر الواردة إلى من الوالى تقضى بذهابك إلى مصر» فأطرق عبدالله هنيهة وطلب إرجاء إجابته الختامية إلى الغد . ثم تناول القهوة وانصرف بعد أن رد إليه إبراهيم ابنه سعد الذى كان أسيراً .

وفى اليوم التالى عاد الزعيم . فتلقاه إبراهيم بمثل ما تلقاه به يوم أمس ثم سأله : بم نويت عليه . فأجاب « أسافر إلى مصر إذا ضمنت لى النجاة . فقال إبراهيم : إذا كنت لا أستطيع التصرف فى إرادة الوالى فإنى لعاجز من باب أولى عنه فى إرادة السلطان . ولكنى أعتقد عن ثقة أنهما من كرم النفس وسعة الصدر بحيث يأبيان التنكيل بمن سلم بنفسه إليهما . فقال عبدالله : إنى واثق بكرمك ياإبراهيم وأوصيك بأولادى وأخوتى وأبناء وطنى خيراً وأطلب لهم السلام جميعا قبلى » .

وانتهت إجراءات الصلح .

* * *

وفى ١٥ سبتمبر ودع ابن سعود أسرته الحزينة وأصدقاءه ورجاله ثم أوغل فى الصحراء يحف به أربعمائة جندى بقيادة رشوان أغا .

وفى ١٧ نوفمبر وصل إلى القاهرة فجىء به إلى شبرا وقدم الباشا فقبل يده وشرب القهوة . ثم سأله محمد على عن رأيه فى الحوادث والحروب فأجاب : إن تلك الحوادث كانت مقدرة « فسأله : وما رأيك فى إبراهيم باشا . فأجاب : إن إبراهيم قد قام بالواجب عليه كما قمنا بالواجب علينا . وقد أراد الله ذلك

وقضى به ولا راد لقضائه .

وبعد انتهاء المحاورة بين الرجلين ألبسه محمد على خلعة من السمور ثم أسكنه ببولاق . إلى أن ركب متن سفينة قصدت به الاستانة فى ١٩ نوفمبر ولم تتجاوز إقامته فى مصر ثلاثة أيام .

وفى ١٦ ديسمبر وصل إلى البسفور . ولم تنفع شفاعة محمد على لدى السلطان للعفو عنه .. وأمر بإعدامه .

بعد المعارك

لم يكن سقوط الدرعية خاتمة الحوادث الحربية فى شبه الجزيرة . بل استمرت مناوشات قليلة انتهت بأن خيم الهدوء على البلاد فترة ليست قصيرة .

اتخذ إبراهيم مسكنه فى طريف وبدأ ينظم الحاميات وخطوط المواصلات . ثم أرسل قوة إلى عنيزة لحمايتها ثم قصد إبراهيم إلى إقليم العارض فى طلب الأغذية والمؤن . واشتغل فى ترتيب وسائل النقل ليتقى بها وقوع المجاعة بين الجند . ثم أجلى مدفعيته عن الدرعية . ومالبث أن توجه فى ألف من مشاته وفرسانه إلى ضرامة . وعهد إلى مهرداره بزمام الحكم على إقليم نجد . كما أمر قواده فى بقية الأقليم بتدمير الحصون والأسوار وتشتيت المقاتلين وإعادتهم إلى بلدانهم . وأصدر تعليماته بتنظيف الآبار وتيسير وسائل الرى وتوزيع المياه وبعد أن انتهى من تنظيم الأمور عاد كرغبة أبيه إلى المدينة .

عودة إبراهيم إلى مصر

وعلى أثر أن نظم إبراهيم الحاميات العسكرية فى جميع المدن والمواقع الهامة فى البلاد الخاضعة ، اتخذ التدابير السريعة لإعادة قوات كثيرة إلى مصر وكان القائد الكبير على رأسها . وفى ٩ ديسمبر ١٨١٩ وصل إلى الجيزة حيث أجتمع بأسرته بعد غيبة دامت ثلاث سنوات .

عاد إبراهيم إلى مصر وقد سجل اسمه بين الفاتحين الذين عرفهم الإسلام منذ أيام خالد وسعد وعمرو والمثنى .

وقد وصف المؤرخ « ايميه فنترينيه » الاحتفالات التى أقيمت فى القاهرة لتكريم إبراهيم باشا حين رجع ظافراً من بلاد العرب فى ديسمبر عام ١٨١٩ قال :

« كان من أهم ما يلفت النظر فى هذه الاحتفالات أن الوالى لم يشترك بنفسه فيها وذلك لكى لا يكون لأحد غير إبراهيم شىء من عظمتها وجلالها . ولهذا بقى فى خلالها بعيداً عن الأنظار تدفعه إلى ذلك عاطفة الأب الحنون . فوقف فى مسجد السلطان الغورى فى موضع لا يراه منه أحد . يشاهد من أحدى نوافذه موكب الأغوات والأعيان وعامة الشعب والجند يسيرون فى الطريق وكلهم يرفعون أكفهم ضارعين إلى الله أن يحفظ لهم مصدر سعادتهم وهناءتهم بطل ذلك اليوم المجيد . واستقبله والده يوم ١١ ديسمبر فى قصر شبرا . وأقيمت معالم الأفراح سبعة أيام وسبع ليالى متواليات .

الخاتمة

كانت الشجاعة والبطولة أظهر ما اتسم به القتال الذى دار بين قوات محمد على والوهابيين . وكما شاهدنا كان التفوق العددى للنجديين ولكن إبراهيم تفوق بالمزايا العسكرية . وفى طليعتها الحب المتبادل بين الجنود وبينه على عكس ابن سعود الذى لم يكن قريبا إلى افئدة رجاله الذين اتصفوا بالطاعة بقدر ما اتصفوا بالبسالة والقناعة والتحمس لمذهبهم .

كان الجيش النجدى تنقصه القيادة الحكيمة التى تسير به إلى مواطن القتال . فلم يكن له قائد ملم بأساليب حرب الجيوش بعيد النظر حاضر الذهن ، ولم تكن لديه خطة موضوعة يعالج تنفيذها ؛ وإذا كان قد حظى بالنجاح يوماً فمرجعه طبيعة الأرض وما احتوت عليه من الفيافى والوديان والجبال . وكان بوسعه أن ينتفع بخبرته بحرب العصابات الصحراوية فيهدد دائما خطوط المواصلات

الطويلة بشراذم من الفرسان يدربها تدريباً خاصاً على مهاجمة المؤخرات ومناوشتها بيد أنه لم يفعل شيئاً من هذا كله وترك الفرص كلها تفلت من يديه فلم يستفد منها بشيء .

لم ينتفع القائد الوهابى بأية فرصة ، ولم يستدرك الأخطاء التى مرت به فى معركة الرس أو الشقراء ، وكانت لديه فرصة ذهبية للقضاء على المصريين لما فنيت ذخائرهم عن آخرها . لكنه لم يتمكن وولت الفرصة وفشل فشلا ذريعاً . وفضلا عن ذلك فإنه كان قليل المعرفة بأساليب التصرف فى مصالح القبائل التى خضعت له . فنفرت منه القبائل الشمالية الذين اشتهروا بالبطولة فضلا عما أوقعه بينهم من البغضاء .

فاغتنم القائد المصرى فرصة الاختلاف المستحكم بين القبائل والجشع المتسلط على نفوسهم وفرق بينهم باتحاد بعضهم معه .

لقد كانت هذه الحرب أشنع حرب صحراوية شاهدها القرن التاسع عشر وقد أثبتت أن الصحراء لاتعد مانعاً قبالة الجيوش الغازية .

نتائج الحرب

كان من نتائج الحرب أن أعيدت العلاقات التجارية التى كانت تمر بثغور البحر الأحمر إلى سابق مكانتها .

وتأيدت مكانة محمد على فى داخل الامبراطورية العثمانية وأمام العالم المعاصر ، كما تخلص من فئات كثيرة من الباشبوزق الألبان الذين ألفوا عناصر الفساد والفوضى فى مصر .

لقد أخطأ الوهابيون حسابهم الذى بنوه على أنهم سيقومون بإنشاء دولة بدوية فى الصحراء على تقاليدهم وطقوسهم . ونسوا التطور العظيم الذى شمل الدنيا . وغابت عنهم قوة الحضارة الجديدة التى استحدثها الأوربيون ونقلها عنهم محمد على — ولو أنهم أطلعوا على مظاهر هذه الحضارة الجديدة وعرفوا قوتها

لأخافهم ذلك وألقى الروع فى نفوسهم . ولو أنهم عرفوا سبيل الافادة منها لاستفادوا . لأن الأساليب الأوربية لا تنهض بأعبائها غير الدول المنظمة ذات المال الوفير والصناعة المتقدمة ولم يكونوا على مال أو صناعة . لهذا سهل على محمد على أن ينتصر عليهم لأنه كان يحاربهم بقوة الحضارة الجديدة . ولو لم يقض عليهم هو لقضت عليهم الحضارة الأوربية عن سبيل أخرى . كما قضت فيما بعد على الحركتين المشابهتين لها بعد حين وهما السنوسية والمهدية[١] .

ذلك لأن نهضة الوهابية كانت غنية بالروح والايمان ، أما نهضة محمد على فكانت غنية بالرأى والمادة .

واستتبع فتح بلاد العرب نتائج سياسية هامة : فقد أعاد لخلافة آل عثمان هيبتها وجمع إلى لوائها البلدان المقدسة التى كان ينبغى دائما أن تكون فى حوزة خليفة المسلمين . وكان انقطاع الحج قد روّع المسلمين وقطع سبباً من أسباب التواصل والتفاهم بينهم . وكان انتصار مصر على آل عبد الوهاب أول حجر فى زعامة مصر على العالم الإسلامى فى ذلك العصر الحديث .

كذلك فَتَح الغزو المصرى أعين الأوربيين إلى بلاد العرب وأيقظ الخوف فى قلوب الإنجليز من هذه القوة الجديدة التى أصبحت تشرف على طريق الهند — طريق البحر الأحمر وطريق الخليج الفارسى . وكان من نتيجة هذا الفتح أن أصبح البحر الأحمر بحيرة مصرية وكاد الخليج الفارسى أن يكون كذلك لولا تدخل السياسة الامبراطورية البريطانية . فقضت على كثير من آمال محمد على فى تلك البلاد .

قضى « محمد على » على قوة الوهابيين الأولى ، وأعاد البلاد إلى طاعة السلطان ، ونشر فى نواحيها ألوية الأمن ثم سلمها للدولة أكثر انتظاما ، فاستطاعت هذه أن تحكمها بيد أقوى مما كان لها قبل فتح محمد على . ودام تحكمهم هذا إلى أن انتهى عام ١٩١٤ .

---

(١) حسين مؤنس — الشرق الإسلامى فى العصر الحديث — ص ١٩٤ .

الجيش النظامى

فى معارك شبة الجزيرة

كانت الدرعية خاتمة المعارك الكبيرة التى قضت على الوهابيين . وعاد معظم رجال الحملة المصرية إلى بلادهم . وبقيت وحدات قلائل للقيام بحمل الحراسة والمحافظة على الأمن . معظمها فى الجزء الشمالى من شبه الجزيرة . وكانت تحت إمرة الميرميران (الفريق) أحمد شكرى يكن باشا ابن أخت محمد على .

بعد أعوام أصبحت تلك القوات قليلة العدد لا تكاد تفى بحراسة ميادين الحجاز فضلا عن صد الغارات والثورات التى كان يشنها قبائل نجد والعسير واليمن . وكانت فصائل تلك القبائل لا تقف عند حد شن الغارات والسعى بالفساد فى جميع طرق الحجاز بل كانت تتمادى كشافاتها فى التوغل فى السير إلى أن تصل إلى أسوار المعاقل التى يحتلها الجنود وتزعج أهالى مكة والمدينة . وتهدد سكانها مرة أخرى بقطع طرق قوافل الحجاج لتحول دون بلوغها إلى بيت الله الحرام[١] .

رأى محمد على وكان مشغولا فى حرب المورة أن يبعث إلى بلاد العرب الآلاى المشاة الثانى بقيادة أمير الآلاى محمد بك الدويدار (أكتوبر ١٨٢٣) فسافر عن طريق القصير ولدى وصوله إلى جدة انضم إليه أربعمائة خيال من الأتراك وزودت ببعض المدافع والأطباء الأجانب .

وكانت الخطة التى استقر الرأى عليها أن تتوغل الحملة المصرية فى جبال الوهابيين متجهة من مكة إلى سلسلة جبال الطائف لإعادة الأمن وفرض

---

(١) المغفور له الأمير عمر طوسون (حرب جزيرة العرب) مجلة الجيش — المجلد ٣ العدد ٤ — ص ٤٥٢/٤٦١ .

الضرائب والإقامة على بعد بعض مسافات من المدينة المنورة لبث الأمن فى نواحيها.
وكانت الحملة تحت إمرة الفريق أحمد يكن باشا تتألف من القوات الآتية :

الآلاى الثانى المشاة بقيادة الأميرالاى محمد بك الدويدار.

وهو مؤلف من خمس أورط قوام الأورطة ٨٠٠ جندى	٤٠٠٠ عسكرى
أورطة بقيادة البكباشى إبراهيم أغا	٠٨٠٠
٢ جى بلوك بلطجية	٠٠٩٠
خيالة من الأتراك	٠٤٠٠
مدفعية	٠٠٦٠
المجموع	٥٣٥٠

يضاف إليهم بعض الأطباء الأجانب ومهندسان جغرافيان ، هما أمين أفندى ورضوان أفندى . وقد رسما طرق الحملة ومكة وضواحيها بالبلنشيطة .

وفى أواخر عام ١٨٢٣ قامت الحملة من جدة قاصدة مكة حيث أقامت ١٥ يوماً ثم ولت شطر الطائف . وعلى مرحلة يوم ونصف يوم من مكة قابلت جبل كرا فاجتازته بصعوبة بسبب ما كانت تحمله من العتاد والذخيرة . ثم وصلت الطائف فعوضت فيها الكثير مما صادفته من المتاعب .

ثم استأنفت المسير فمرت بكلاخ وطرابة وحمدان وعقيق وشينة . ثم أخذ الطريق من هذه الناحية الأخيرة يتجه صوب الجنوب ومرت الحملة فى هذا الطريق الأخير بهذه النواحى :—

خيفة ووادى ونان والدبابة وسليلا حيث وصلت فى اليوم الرابع والعشرين من تاريخ قيامها من مكة .

المعارك الأولى

بعد أن كابدت الحملة آلام المتاعب . عثرت فى ٢ نوفبر ١٨٢٤ على العدو رابضا فوق مرتفعات جبل مشيط قرب سيل زبران وقدرت قواته بحوالى ٢٥ ألف مقاتل .

ولأول مرة يشاهد الوهابيون فى حياتهم جنوداً منظمين سوف يلتقون بهم فى ميادين الوغى . فسخروا بهم ولكنهم ما لبثوا أن تغيرت أفكارهم وتبدلت عندما تخلوا عن مواقعهم وقابلهم الجنود النظاميون بنيرانهم الحامية ، فنكصوا على أعقابهم مسرعين والتجأوا إلى جبل مشيط حيث طاردهم الجنود الخفيفة مطاردة عنيفة واستمروا فى مطاردتهم من موقع إلى آخر إلى أن أقصوهم عن ميدان القتال وأختفوا وراء الجبال . فى مكامن يعرفونها وأصبحت الشقة بين الطرفين عبارة عن مرحلة يومين . ولم يقم الخيالة بعمل يذكر فى المطاردة أو الالتفاف حول الأجناب كما كان منتظراً . على أنهم لو استطاعوا استدراج الوهابيين وجرهم إلى النزول فى السهل لكان من المحقق سحقهم .

كانت هذه الموقعة الأولى التى دارت رحاها . وقد كتب القائد العام ووكيله تقريراً عنها أرسلاه لمحمد على باشا[1] فانشرح صدره وأقيمت فى البلاد زينات النصر .

وقد استمر الآلاى الثانى فى شبه الجزيرة يجاهد ويناضل فى سبيل توطيد الأمن لمدة عامين إلى أن حل محله الآلاى التاسع بقيادة أمير الالاى محمود بك وقد سافر هذا الآلاى فى شهر يولية ١٨٢٦ .

وبعودة الآلاى الثانى إلى مصر (أكتوبر ١٨٢٦) منحه محمد على وساماً فضياً وأمر بأن يقيم فى القاهرة ليكون حامية لها . ورخص لجنوده أن يضعوا على رؤسهم منديلا حريرياً مخططاً بأقلام خضراء وصفراء ترخى أطرافه على أكتافهم كـ « الكوفية » . وذلك لتمييزه عن الآلايات الأخرى . كما أنعم على قائد الآلاى بمبلغ وفير من المال مكافأة له ورقى القائمقام عابدين بك وكيله إلى رتبة الأميرالاى وعينه قائداً للآلاى الثانى عشر .

---

(١) من محمد على إلى ناظر الجهادية — وثيقة رقم ٢٠٤ من الدفتر رقم ١٦معية تركى ورقة ٣٢ بتاريخ ٤ جمادى الثانية ١٢٣٩ (٥ فبراير ١٨٢٤). أنظر أيضاً : المكاتبه الصادرة من الفريق أحمد يكن إلى المعيه السنيه بتاريخ ٢١ رجب سنه ١٢٣٩ و (٢٢ مارس ١٨٢٤) رقم ١١ محفظه بحربرا .

مراجع الفصل

أمين سامى باشا

تقويم النيل وعصر محمد على باشا

اسماعيل سرهنك باشا

حقائق الأخبار عن دول البحار

عبد الرحمن الجبرتى

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار – الجزء الرابع

عبد الرحمن الرافعى

تاريخ الحركة القومية فى مصر – الجزء الثانى

حسين مؤنس

الشرق الإسلامى فى العصر الوسيط

ادوار ف. جوان وترجمه محمد مسعود

مصر فى القرن التاسع عشر

كرابيتس وترجمه محمد بدران

إبراهيم باشا

مراجع الفصل الأجنبية

Dodwell

The Founder of Modern Egypt

Guemard. G.

Les Reformes en Egypte 1760-1848

Mouriez P.

Histoire de Mehmet Ali. 1857

Sabry. M.

L'Empire égyptien sous Mohammed Ali

Félix Mengin.

Histoire de L'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Ali. 1823

Hogarth. D. G.

The Penetration of Arabia. 1904

General Weygand

Histoire Militaire de Mohammed Ali et de ses Fils. 1936.

الفصل الرابع

فتح السودان

١٨٢٠ – ١٨٢٢

السودان فى تفكير محمد على

قبيل أن نسوق شتى الأسباب التى حدت بمحمد على إلى تنفيذ مشروع توحيد وادى النيل ، يجدر بنا أن نجلو مكانة السودان فى تفكير هذا العاهل الكبير ..

تُلقى بعض الكتب والمؤلفات ، حتى أخريات القرن الثامن عشر ، بصيصاً من الضوء عن القيم والإمكانيات الاقتصادية للسودان . نذكر من هذه المطبوعات ما كتبه رحالة القرن السابع عشر من الأوربيين وفى طليعتهم الرحالة الفرنسى « شارل بونسيه » (١٦٩٨ – ٩٩) – فقد صعد النيل إلى سنار للوصول إلى الحبشة[١] ووصف فى كتابه أحوال البلاد التى مر بها .

وكذلك ما دونه الرحالة كروب البافارى (مايو ١٧٠١ – يونية ١٧٠٢) عن رحلته الشائقة إلى سنار .

والرحالة الاسكتلندى جيمس بروس (١٧٧٢) الذى وتبع طريق بونسيه السابق الذكر – وكتابه معروف –[٢] وكذلك الرحالة براون (١٧٩٦) الذى وصل إلى دارفور .

والرحالة السويسرى بورخاردت (١٨١٤) الذى بلغ شندى ثم قصد سواكن مخترقاً الصحراء .

هذا إلى جانب التقارير الهامة التى كان يعنى بكتابتها وجمع معلوماتها

---

(١) Relation abrégée du voyage que M. Charles Poncet, médecin français fit en Ethiopie en 1698-1700.
Lettres édifiantes et curieuses écrites des missions étrangères Edit. de 1780, p. 260-387.

(٢) Voyage to Nubia and Abyssinia- a project to discover the sources of the Nile

القناصل الأربعون الذين أقاموا فى مصر ، أمثال بنوادى ماييه (١٦٩٢–١٧٠٨)

وفى طليعة المصادر السودانية تقارير بعثة لينوا دودول ، الذى حدث أن أوفده لويس الرابع عشر إلى الحبشة ، لعقد الصلات التجارية مع النجاشى ، وقد نُشرت فى كتاب وصف مصر .

وقد عالج الكونت ستيف ، المدير العام لإيرادات مصر فى زمن الاحتلال الفرنسى ، حاصلات السودان فى مذكراته الهامة التى ضمت إلى كتاب وصف مصر البادى الذكر (١)

هذه كانت أظهر المؤلفات التى أفصحت عن قيمة السودان الاقتصادية وعالجت أهميته الحيوية إلى أن استقر حكم محمد على فى مصر .

ولكن هل ياترى كان قد اطلع عليها أو تصفحها !؟ ..

من المحقق أن « محمد على » لم يتعلم القراءة والكتابة إلا فى سن متأخرة ، وبعبارة أوضح حين جاوز الأربعين . ولكن هذا لم يحل دون إدراكه أهمية هذا الاقليم ؛ من اتصالاته بالرواد والرحالة الذين أقبلوا على مصر فى أيامه الأولى ، وفى خلال أحاديثهم له ، وعلى الأخص ما كان يدور بينه وبين القناصل الأجانب وسواهم أمثال رجال القوافل التجارية التى كانت تفد دواماً من السودان إلى مصر محملة بخيراته الوفيرة . من النوبة وسنار وكوردفان ودارفور — وكفى ما شاهده بعينيه من موارد تلك البلاد وفى صدرها « الرقيق » تلك المادة البشرية التى كانت متصلة بحاجيات المجتمع فى ذياك الحين . فضلا عن الصمغ والعاج والجمال وريش الطيور وجلود الحيوان . غير ذلك من الحكايات الإقتصادية التى تكمل امكانيات مصر فى تلك الأيام علاوة عن ضم البلدين وتوحيد الإقليمين وربطهما تحت إدارة واحدة .. لأن الطبيعة هى التى أملت ذلك . .

---

(١) Memoir sur les finances de l'Egypte depuis sa conquête par le Sultan Selim 1er jusqu'à cette...du général en chef Bonaparte. Descrip. V. P. 291-399.

أسباب فتح السودان

الوطن الموحد :

اتسم القرن التاسع عشر بظاهرة بناء الوطن الموحد : فقامت الوحدة الألمانية ، وتحققت زميلتها الإيطالية ، وانبثقت الحركات القومية الصقلبية .

وفى مصر قيض الله لها الرجل الموهوب « محمد على » ليرفع ذكرها فى الخافقين ، ويخلد اسمها على مر الزمن . فارتأى أول ما ارتأى ـ بعد أعمال الفكر وتمحيص الأمر ـ إنه لكى يؤمن سلامة مصر التى ألقت زمامها إليه ويؤلف وحدتها السياسية ، لا مندوحة له عن الاستيلاء على مجرى النيل الذى يروى إقليمه ، ويربط بين شطريه ، منذ فجر الماضى البعيد .

وفى سبيل إقامة البناء الموحد ، كان لا معدى له من الاستعانة بجيش قوى يشد أزره وينفذ أمره ، كما كان لا معدى له من تقويض العصبيات الخاصة والامارات الصغيرة سواء كان ذلك فى مصر أو فى السودان .. فزال سلطان المماليك فى مصر ، وعجل على إزالة سلطان الفونج وما شابهه فى السودان .

كل ذلك لكى يحل سلطة عامة واحدة فى الوطن الواحد .

ومما لا جدال فيه أن بناء هذا الوطن الواحد (فتح السودان) هى فكرة أصيلة لمحمد على لم يوعز بها إليه أحد ولم يدفعه إليها دافع . ولم يكن هذا التفكير ابن الساعه . بل أنه فكر فى مشروعه الكبير قبل إيفاد حملته ببضع سنوات . ولم يكد يتم استعداده الحربى حتى أرسل يستأذن السلطان محمود الثانى فى فتح السودان . فوافق السلطان على أن يضم محمد على ما يشاء من أراضى السودان على شريطة أن يكون ذلك باسم « السلطان » .

ويحاول المؤرخون فى خلال المائة عام الأخيرة ونيف تحليل السبب الرئيسى لفتح السودان . وكان لهم أن وصلوا إلى الأسباب المفصلة التى نلخصها فى السطور التالية :

إن الحاجة الاقتصادية هى الدافعة أو المسببة لمعظم التطورات العالمية والإقليمية.

فلما لا تكون كذلك هى التى أملت على محمد على تحقيق هذا المشروع الخطير .

لقد كان محمد على بطبيعته رجلا متواضعاً فى حياته الخاصة — يميل إلى البساطة والبعد عن التكلف — يظهر ذلك فى ملبسه ومعيشته وفى مسكنه . وقد لاحظ عليه ذلك معظم الرحالة الذين قابلوه — ومنهم الأمير الألمانى بوكلرموسكو.

وكانت ميزانية مصر ، فى الحقبة الأولى من عهد محمد على ، متواضعة للغاية (راجع كروشلى) أما ميزانيته الخاصة فى عام ١٨٢١ فلم تزد على مبلغ عشرين ألف جنيه وذلك على حد تعبير بورنج ولعل أحسن وصف ينطبق على الباشا هو الذى أورده عنه أحد المؤرخين الفرنسيين فى السطور الآتية :

L'homme privé était donc économe, l'homme public bon administrateur, mais son ambition,ses hautes visées politiques, son enthousiasme l'entraînaient à de grandes dépenses.

وكانت حروب محمد على فى بلاد شبه الجزيرة العربية قد كبدته المال الباهظ. الشىء الذى أثقل كاهله بالرغم من فقر البلاد الذى توارثه عن العثمانيين الذين استمرئوا استنزاف ثرواتها .

وما كان بوسع محمد على أن يقف فى وجه أطماعهم أو يتحلل من ألوان رغائبهم . فقد كان مكرها على أن يفعل كل ما يرضى السلطان ورجال السلطان . وفى هذا المضمار أغدق عليهم الأموال الطائلة ليكسب الحظوة لديهم ويجتنب آثامهم ولؤمهم . والمال عندهم هو الأداة أو الوسيلة التى تحقق مبتغاهم .

ومحمد على محتاج هو الآخر إلى المال أيضاً . يروم أن يستقدم الخبراء الأجانب لمسيس حاجة البلاد إلى معونتهم العلمية وخبرتهم العملية ، ويروم أن يبعث هو أيضاً إلى الخارج بالنبهاء من أبناء مصر ليعودوا إليه وقد اكتسبوا خبرة الغرب وتجاربه .

وأمام محمد على عدة مشروعات تستلزم المال : مشروعات زراعية وأخرى صناعية ، ومثيلتها للنهوض بالتعليم وأخرى لرفع مستوى العمران ؛ وهو فوق كل ذلك مؤمن بأنه لا نهضة لأمة من الأمم بدون جيش قوى يحميها غوائل الطمع ويقيها عواقب التوسع .

لذلك دأب محمد على ، بدون انقطاع ، للتنقيب عن موارد مستحدثة لتنمية ثروة البلاد والنهوض بخيراتها ، باحثا ــ ما تهيأ له البحث ــ عن أهم عمد الثروة التى تيسر له تحقيق سير خططه ومشروعاته .

فامتد بصره كما حام فكره فى ربوع السودان ، وهو من أهم الموارد بطبيعة الحال ، فعلى صدره تلوح ثروة من الرجال ، وبين جوانحه ترقد ثروة من الخيرات. ولعل رجل الإصلاح والإنشاء لم يكن مغالياً حين خيل إليه أن السودان ينبوع القوة والنهوض والثروة .

ولكن كيف يتأتى له ذلك قبل أن يتخلص من العناصر العسكرية غير المنظمة التى لا تكف عن الشغب والعدوان وتأبى إلا أن تستمرىء مرعى الفوضى . كيف يتأتى له أن يدع هؤلاء القوم الذين يحاولون ــ ما وسعتهم الحيلة ــ أن يعيثوا فى مصر فساداً بدون نظر إلى مغبة عملهم أو تقدير مسئوليتهم ...

أن فتنهم فى القاهرة وثوراتهم واعتداءاتهم على المتاجر ، ومقاومتهم لكل جديد يضاف إلى ذلك عدم ثقة محمد على برؤسائهم وزعمائهم ، حض محمد على على التخلص منهم فى مصر فظفر . بيد أنه راغب فى القضاء على الحثالة الباقية منهم ممن لاذوا ببلاد النوبة ودنقله قبل أن يلموا شملهم ويجمعوا أمرهم فيما بينهم للهجوم على مصر .

إذن لا بد له أن يتخلص منهم ويهاجمهم فى عقر دارهم قبل أن يستشرى خطرهم فيؤمن البلاد شرهم .

فكان التخلص من بقية المماليك من أسباب الفتح .

ومحمد على راغب فى المعادن لأنها تضاعف ثروة البلاد : فأمر بايفاد مسيو كايو (١٨١٦) للبحث عن الزمرد فى جبل زبارة الذى عرفه قدماء المصريين واستغلوه استغلالا طيباً ، كما ذهب برتون لكشف ينابيع الزيت فى جبل الزيت ، وطاف بروشى فى الصحراء الشرقية باحثاً منقباً ، وذهب ادوار روبل ومشيل هاى إلى أنحاء شبه جزيرة سيناء متفقدين مناجم الذهب القديمة ، كما أرسل سيف للبحث عن الفحم وأوفد غيره لاستجلاء الحديد .

كل هذا لجأ إليه محمد على ليوسع موارد البلاد الاقتصادية والانتفاع بخيرات السودان ، سواء أكانت زراعية أم صناعية أم بشرية ..

وإلى ذلك الحين لم يكن محمد على قد انتفع بابناء مصر لكى يشكل منهم قوة مصر الناهضة ، وجيشها الفتى ، فخامره الاعتقاد فى مستهل الأمر بأن أبناء السودان سيكونون عوناً له على إقامة القوة المسلحة التى تبتغيها مصلحة البلاد العليا. فهدف الى جمعهم وتجنيدهم . فتم له ما أراد ولكنه لجأ أخيراً إلى أبناء البلاد فأنشأ منهم أداة قتال وطنية . حققت له الأفكار التى جاشت برأسه ، وسعت به إلى الأمانى التى احتشدت فى أفقه .

هذه الأسباب بعضها أو كلها مجتمعة ألفت منها الغرض الذى تكالب عليه محمد على لفتح السودان .

وهى ، كما يتضح ، أسباب طبيعية ، نزع إليها كل من حكم مصر . فى كل عصر .

حملة الفتح

حشد الرجال والعتاد

على أثر أن أذن السلطان محمود الثانى لمحمد على ، والى مصر ، بفتح السودان وبضم ما شاء من أرضه باسمه ، بدأت أعمال الحملة .

فنى يونيو عام ١٨٢٠ ، تجمعت ثلاث آلاف سفينة فى بولاق ، للاضطلاع بنقل الذخيرة والمؤن والعتاد والرجال إلى الجنوب

وفى إسنا ، جمعت آلاف الجمال بوساطة قبيلتى العبابدة وأولاد على ، وحشد جيش قوامه آلاى بقيادة الأمير إسماعيل ، وبصحبته عابدى بك بصفته رئيس هيئة أركان حرب ، والبكباشى الحاج أحمد ، والبكباشى عمر أغا .

وكان الآلاى بادى الذكر مؤلفاً من ثلاث أورط بقيادة « بك » وكل أورطة يقودها « بكباشى »

أما الحملة فقد تألفت على الوجه التالى :

٣٤٠٠ مشاة تركى وألبانى

١٥٠٠ فارس تركى ومن الدلاة

١٥٠٠ بدوى غير منظم



ومثل هذا الإحصاء يتباين عن إحصاء كايو الذى رأى بعينيه القوات عقب دخولها دنقلة ، وقد ذكر أنها كانت تتألف من :

٤٠٠ فارس تركى بقيادة عابدى بك ــ قائد ثانى الحملة

٤٠٠ قائد تركى بقيادة يكباشى محمد أحمد

٤٠٠ فارس تركى بقيادة عمر كاشف الحبشى

٦٠٠ مشاة تركى بقيادة بكباشى محمد أغا

٤٠٠ خيالة من البدو والمغاربة

٨٠٠ مشاة من البدو

٧٠٠ من العبابدة بقيادة الشيخ خليفة من داراو وداود كاشف الدر

٣٠٠ مدفعى بقيادة أميركى وانجليزى اسمهما « انجليش » و « براديش » وقد نقش الثانى اسمه (وتاريخ عام ١٨٢١) على جدران هيكل معبد أبوسنبل

الأمير إسماعيل قائد الحملة

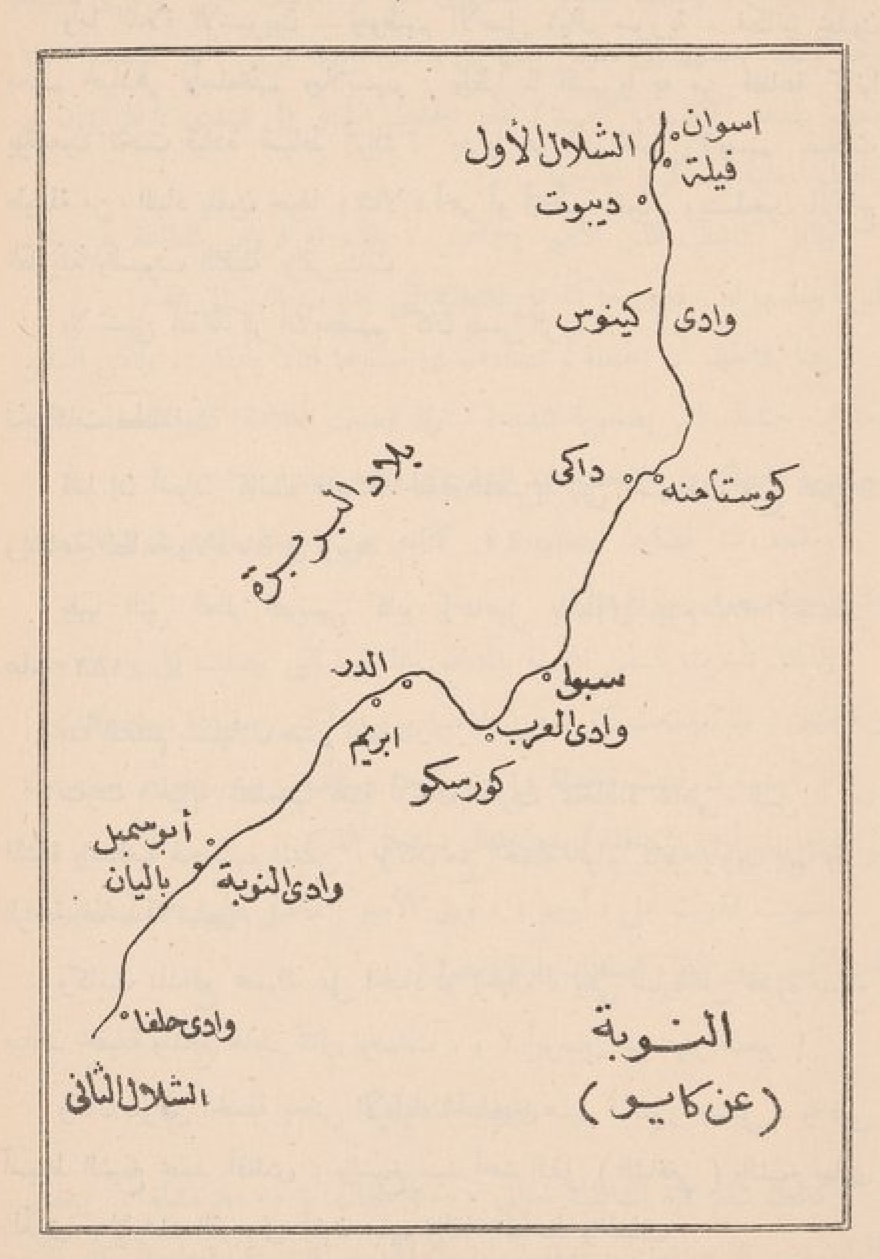
لما ولى الأمير إسماعيل بن محمد على قيادة حملة السودان كان فى الخامسة والعشرين من عمره يجرى دم الشباب فى عروقه ، جريئاً مقداما يتمتع بقدر موفور من الذكاء وقد ألم بالاحوال الأوربية من جغرافية وسياسية . مستبد برأيه أحياناً لا يستمع بنصائح قادته أحياناً أخرى ، جندى الطباع يفهم أبجديات مهنته .

عرف أن مهمته الرئيسية إخضاع بلاد السودان لتدين بالطاعة. ولذلك لم يلجأ إلا إلى الأصول الحربية ولم ينظر إلى الأساليب السياسية أو النفسية التى عرفها بعض قادته المحنكين . بالرغم من أن أباه طالما لفت نظره ليتبع الحكمة مع زعماء البلدان المحتلة . ويتبدى ذلك من خلال عدة رسائل بعث بها الأب لولده القائد.

هذا هو القائد الذى نيط به أمر الجيش حين وصل إلى أسوان ، فقسم الجند إلى قسمين ، كلف القسم الأول بالتقدم تحت قيادة (الأمير إسماعيل) ووضع القسم الثانى تحت قيادة الدفتردار صهر محمد على لفتح كوردفان .

ومما لوحظ بصفة عامة على الشئون الإدارية فى هذه الحملة أن الضباط كانوا مسئولين عن ملابسهم وعتادهم الحربى التى تفاوتت أشكالها وأنواعها بتفاوت جنسيات رجالها .... فمثلا كان الألبانى يلبس حلة زرقاء وسروالا

أحمر وينتعل مركوباً أحمر من الجلد اللين ويحمل (بندقية) من طراز الشطف الطويلة ، كما كان فى خدمة كل فرد عبد يهتم بحماره أو يعنى بشبكه حينما يستعمل



بندقيته . وعلى الجملة كانت ملابس الألبان تماثل إلى حد كبير ملابس أهل الجبال فى اليونان . وكان باب التطوع مفتوحاً لهم فى المورة بوساطة عملاء مفوضين.

أما الخيالة الأتراك فكانوا أفضل فرسان العالم المعروفين ، سلاحهم السيف المقوس والقربينة القصيرة ، وملابسهم كملابس جيرانهم الألبان .

وأما الدلاة الاسيويون — وموطنهم الأصلى شمال سورية — فكانوا يجلبون معهم جيادهم وأسلحتهم وملابسهم . ونظراً لما اشتهروا به من فظاعة كانوا يوضعون تحت قيادة ضباط أتراك . جروا على أن يحلوا رؤوسهم بقبعات طويلة من اللباد يلفون حولها « شالا » أحمر أو أخضر اللون . ويتسلحون بالرماح الطويلة والسيوف الثقيلة والقربينات .

ولا ننسى أن نذكر أن بعضهم كان يلبس الزرد ...

تحركات الحملة :

قلنا إن أسوان كانت قاعدة الحملة المصرية التى استهدفت فتح السودان وإشاعة الطاعة والاذعان فى ربوعه .

وفيها التقى العالم الفرنسى كايو بإسماعيل باشا فى يوم ٢٨ أغسطس عام ١٨٢٠ .

بدأ التقدم باستهلال موسم الفيضان . .

سارت الخيالة تصحبها هيئة أركان الحرب بمحاذاة شاطىء النيل ، أما المشاة والمدفعية فحملتهم السفن ، وكان مع الحملة خيام كافية يأوون إليها وقت الراحة التماساً للاستجمام .

وكانت المدافع محمولة على الجياد أو الجمال ، وهى عبارة عن عشرة مدافع ميدان خفيفة ومدفع هاون ثمانى بوصات ، و ٢ أبوسين من عيار صغير !

وكان يرافق الحملة بعض الأطباء الجراحين منهم دكتور جنتيلى ، وقاضى أسيوط الشيخ محمد أفندى ، والشيخ سيد أحمد البقلى (الشافعى) والشيخ ساوى المغربى ، لإرشاد القوم فى شئون دينهم وإلقاء المواعظ والخطب .

وحين حل اليوم الرابع والعشرون من سبتمبر عام ١٨٢٠ بلغت الخيالة وادى حلفا بعد مسيرة ١٢ يوم من أسوان . وما لبث أن أنشئت فيها قاعدة ،

وعين الضابط محمد أغا قائداً لها ليشرف على أعمال النقليات .

وبمجرد أن وصلت مقدمة الحملة إلى الدر فر المماليك الذين كانوا فى مدينة ارجو واتجه بعضهم إلى دارفور ومنها إلى واداى واتجه فريق آخر قوامه (٢٥٠ ومعهم بضعة آلاف من العبيد) نحو الجنوب الشرقى إلى شندى ، فلم يؤذن لهم بدخول المدينة وعسكروا خارجها .

وقابل كاشف الدر الأمير إسماعيل ، وقدم له فروض الطاعة عن بلاد النوبة وسلمها له . فعين حاكما على المنطقة التى تمتد من الدر إلى المحس .

وهنا يلاحظ أن الحملة لم تصادف فى مسيرها قتالا يذكر ، ولكن السفن اجتازت جنادل النهر بصعوبة شديدة — وقد وصف العلامة كايو الصعاب التى تجشمتها الحملة وعلى الأخص شد السفن فى مواجهة التيار .

ويصف لنا الضابط English فى كتابه عن الحملة المصرية فى السودان هذه المصاعب فى صورة مؤثرة .

ولذلك تأخرت السفن المحملة بالمدافع والذخيرة التى وصلت إلى وادى حلفا فى قافلتين . ولما تجمعت كل السفن بارحتها يوم ١١ أكتوبر بقيادة ديوان أفندى .

ثم أجتمعت قوات الحملة فى « سوكوت » وقضت ستة أيام ثم استرسلت فى سيرها إلى أرجو (دنقلة) بدون قتال يستحق الذكر .

استولت القوات على « أرجو » ، وولى الأمير إسماعيل عليها « ملك طمبول » الذى أقسم يمين الولاء للسلطان ولوالى مصر

معارك الشايقية

كانت تبلغ قوة الشايقية حوالى ٢٠٠٠ خيال و ٨٠٠٠ مشاة ، يرتدى الأولون منهم الزرد المصنوع بدقة ومهارة ويحملون سيوفاً مستقيمة طويلة كأسياف الصليبيين القدامى ويتدرعون بطراز معروف من الدروع ويضعون على رؤوسهم خوذات من الصلب لها حامية للأنف على نمط خوذات المماليك وتحمى رقابهم

قطعة من الزرد الرفيع . وجيادهم مدربة على القتال تكسوها ستائر مبطنة .

أما مشاة الشايقية فكانت مسلحة بالرماح والمدى وكلهم من العبيد والفلاحين .

ومرت الأيام دون أن تصل لا المدفعية ولا قوات المشاة كلها . ولذلك حرص الأمير إسماعيل على أن لا يجازف بالدخول فى معركة ضد الشايقية حتى تتجمع لديه قوة ضاربة كافية .

وفى خلال فترة الركود هذه ، ظل محمد على يراسل ابنه ليقف منه على أسبابه . وفى أواخر أكتوبر وصل إلى الأمير — الحاج حسين أغا يحمل رسالة شفوية من محمد على يحثه فيها على الإسراع فى الزحف بدون أن يبدد لحظة واحدة وأمره أن يصاحب الحاج حسين هذا إلى أن يبلغ سنار ، ثم يأمره بالعودة بعد مزايلة الأمير سنار والتقدم صوب الجنوب .

وتبادل الأب والابن طائفة من الرسائل التى نصحه فيها ، مبيناً أحسن الوسائل للعمل وتبادل المعاونة مع الدفتردار .

وفى ذات الوقت تبادل الأمير الرسائل من زعماء الشايقية طالباً منهم الاستسلام وعدم المقاومة . بيد أنهم أبوا تسليم السلاح والخيول لأن فى هذا عاراً عليهم وأى عار . فلم يكن هناك مفر من القتال وتحكيم السيف .

° ° °

جمع الأمير الزعماء المحليين وأصدر إليهم تعليماته لكى يأمن جانبهم فى أثناء تغيبه . وما لبث أن بارح معسكره فى دنقلة فى أخريات أكتوبر على رأس قوة شكلت على الوجه المبين بعد :

١٢٠ خيالا تحت قيادته الشخصية

١٢٠ خيالا تحت قيادة أحمد أغا

١١٠ خيالا تحت قيادة عبدى كاشف

٢٥٠ خيالا مغربياً

٣٥٠ خيالا من عرب العبابدة

وبدأ سيره بمحاذاة الشاطىء الأيسر للنيل حتى أصبح مواجهاً دنقلة العجوز ثم أوفد الحاج عمر قاضى المحس ليتصل بزعماء الشايقية ليستسلموا بدون إراقة دماء . فقبلوا التسليم على أن يحتفظوا بسلاحهم وخيلهم ثم ارتد الرسول وبصحبته بعض علماء الشايقية . ولم تجد المحادثات الطويلة بين الطرفين رغم ما بذل فيها من جهود وما استنزف خلالها من وقت . واضطر هؤلاء إلى العودة إلى مواطنهم كما جاءوا إلا أنهم توسلوا إلى الأمير بأن لا يلجأ إلى القتال قبل انقضاء اثنى عشر يوما لإتمام الاتصال والتفاهم بين زعماء الشايقية الآخرين .

ولكن هذا التوسل لم يمنع الأمير من أن يصدر أمره إلى الحاج عمر والحاج محمد أغا بالبقاء فى دنقلة مع أربعين قواساً وعدداً من الخيالة العربان لحماية المدينة ضد أى هجوم يهددها من الشرق .

وفى الليلة التالية قامت جماعة من الخيالة العرب والترك تقصد كورتى الواقعة على الحدود الفاصلة بين دنقلة وبلاد الشايقية لمناوشة هؤلاء . ونجحت القوة المصرية فى مفاجأة قوى العدو بعد معركة قصيرة الأجل خسر العدو فى غمارها نحواً من خمسين قتيلاوكثيراً من الجرحى مقابل ١٢ قتيلا و ١٠ من الجرحى المصريين وغنم المصريون من وراء هذا الهجوم جموعاً وفيرة من الماشية والبقر .

ومثل هذا النصر حفز الأمير إسماعيل ليتحين الفرصة المواتية ويعجل بهجوم عام بدون أن ينتظر مشاته أو كافة مدفعيته . فقر رأيه على الالتحام بالعدو بما توفر لديه من الخيالة معتمداً على الله وعلى شجاعة فرسانه .

معركة كورتى

فى ٢٧ محرم ١٢٣٦ الموافق ٤ نوفمبر ١٨٢٠ ، ظهر أربعون شايقياً ، قبيل الساعة الثالثة بعد الظهر ، وتحيلوا لاستدراج المصريين إليهم .

فهب إسماعيل واقفاً وسط جنده وانطلق يحضهم على القتال ويبث فيهم من قوته قوة وينفث بين جوانحهم من حرارته وقدة . بعد أن أمر باتخاذ التدابير المقتضى إجراءها ، ورسم الخطط الواجب انتهاجها .

فلم تمر على ذلك برهة حتى شوهد من ناحية الشرق كأن سحابة تزحف نحوهم وتعظم كلما دنت منهم . وبعد هنيهة انجلت هذه السحابة عن جيش ضخم من المشاة والخيالة والهجانة المسلحين بالسيوف والرماح . ثم اصطفت مشاتهم صفاً والفرسان من ورائهم .

ولاحت فى الميدان فتاة من بينهم على هجينة مطهمة ، سرعان ما أعطت الجيش شارة القتال وسرعان ما تدفق الهجانة على ميمنة المصريين بينما كانت الفرسان تحمل بعنف على الميسرة . وحمى وطيس المعارك التى استمرت سجالا بين الفريقين .

ومما يستأهل الذكر أن هذه الفتاة تدعى مهيرة بنت عبود من إحدى قبائل السوارب[1] .

وكان القائد عابدى كاشف يقود وحدة احتياطية مؤلفة من مائتين من العربان فحمل على الأعداء ثلاث حملات متتابعة غير مألوفة الشدة استطا بها إحداث ثغرة فى صفوف العدو فوافاه إسماعيل باشا بمدده وضم جده إليه وتعرض هو وعابدى بك فى مقدمة رجالهما لصد صدمات العدو . وعززهما البكباشى عمر أغا فلم يمض على القتال ثلاث ساعات حتى تشتت العدو . وكان فرسان الشايقية يبلغون الألف عدا فلم يفقد منهم سوى خمسين فارساً — وإذا كان المصريون لم يتمكنوا من إعمال السيف فى بقيتهم فما ذلك إلا لأن الليل كان قد أرخى سدوله فاستتروا به للنجاة من الموت . وحملت مشاة العدو الشطر الأكبر من عبء الصدمة وكانت مؤلفة من خليط الفلاحين الذين لا يحملون سلاحاً .

وفى مساء ذلك اليوم نقل الأمير إسماعيل معسكره إلى ضفة النهر

حرق كورتى عاصمة الشايقية

وفى اليوم التالى (٥ نوفبر) جىء بعشرين أسيراً أمام إسماعيل ، فسألهم كم كان عددهم فى هجومهم يوم أمس . فلم يقصر أحدهم فى المبالغة جوابا

(١) ترجع هذه العادة إلى أيام العرب الأولى عند ما كانت تقاتل النسوة مع الرجال.

على هذا السؤال إذ قالوا : « كنا خمسة آلاف وكان الله معنا » . فقال لهم الأمير « عودوا إلى زعمائكم ومشايخكم وقولوا لهم بأنى بقليل من الجند استطعت محاربة الكثير منكم وأنكم إذا ضاعفتم عدد جنودكم إلى عشرة أمثالها فى بداية هجومكم فإنه لا يكون من حظكم غير ما لقيتموه أمس من الفشل والتقهقر . وأخبروهم بالنيابة عنى إذا كانوا يجهلون ما هى قوة جيشى . أنها أربعة أمثال من رأوهم فى الأمس . هذا فيما عدا الإثنى عشر مدفعا التى لو أطلقت عليهم مرة واحدة لأفنتهم عن آخرهم . ثم أخبروهم أيضا بأننى إذا أطلقت لجنودى العنان ليقتلوا ويستبيحوا منهم ما أرادوا فليس فى قدرتى أن أحول بينهم وما يقصدونه فتحترق منازلكم وتقطع رقاب نسائكم وأطفالكم . فعليكم إذن أن تنصحوا إلى زعمائكم بالحضور لتقديم فروض الطاعة حيث أكفى مؤنة الأسف على إهراق دمائكم من غير جدوى ولقد أمرت خازندارى بأن يسلم كلا منكم محبوبين فانطلقوا الآن من حضرتى أحرارا غير مقيدين » .

وسلمت صورة هذا الخطاب إلى الأسرى الذين صحبهم بعض الحراس إلى خارج المعسكر فاتجهوا إلى زعمائهم بدون أن ينالهم أذى .

تلك الخلال الإنسانية التى تميز بها إسماعيل جديرة بالمديح والإطراء ، ولكنها لم تقنع أحداً من المغلوبين بوجوب التسليم كما لم تقنعهم نصائح العلماء الذين صحبوا الحملة ليكونوا لدى الاعداء كرسل مفوضين لحثهم على الإقرار بالطاعة لحكومة مصر . فإن الشايقية عبروا النهر سباحة على مسافة اثنى عشر كيلومتراً من معسكر الجيش المصرى ، أو ركوبا على الجياد ، أو تعلقا بقطع الأخشاب ، ثم جمعوا شتاتهم بالقرب من جبل داجر الذى يعلوه قصر حصين .

حارب الشايقية بشجاعة وجرأة نادرين أذهلت بطولة الخيالة الأتراك ، حتى بلغت الحيرة بقادة هؤلاء مبلغا بالغا نظرا لتفوق رجال العدو على رجالهم فى استخدام سيوفهم وجيادهم . وأخيراً استخدم الأتراك طبنجاتهم بدلا عن سيوفهم . فهاجت جياد الشايقية وانتشر الذعر فى صفوف مشاة عبيد الشايقية

(٢) كايو — جـ ٢ ص ٦١ — ٦٦ .

وولوا هاربين أمام النيران الفاتكة واختلط الحابل بالنابل وسرعان ما انتفع رجالنا بهذا الاضطراب فاقتفوا أثر الهاربين بنيرانهم .

ومن حسن حظ الضابط « انجليش » أنه كان حاضراً هذه المعركة فوصف أعمال النزال بالسلاح الأبيض التى دارت بين المقاتلين .[1]

وبعد المعركة . أعاد إسماعيل باشا تنظيم وسائل الهجوم رغم رغبة ضباطه وأصر على أنه فى حالة عدم وجود المدفعية يستعان بطلقات متتابعة ومجمعة بنيران الأسلحة — بينما يقوم مشاته بتصويب نيرانهم على أجناب العدو وعلى الأخص خيالته (العدو) .

وفى كثير من الأحوال كانت تختلف الآراء بين إسماعيل وعابدى بك الذى عرض على الأمير أن يقفل راجعا إلى مصر وعرض الأمر على الباشا فأمر عابدى بك بالبقاء مع ابنه حتى يستغنى عن معاونته أو مشاورته .

وكانت خسائر الشايقية فى المعركة جسيمة للغاية . فقد تركوا فى ميدان القتال حوالى ٨٠٠ من القتلى المشاة . وبلغ من أمر عبيد الشايقية أنهم كانوا يلقون بأنفسهم بعدم اكتراث فى السعير المشبوب ، حتى لقد قال عنهم الضباط الترك إنهم ثملوا بشرب الماريسة .

وفى هذه المعركة جرح الدكتور جنتيلى جرحاً أليما أفضى إلى موته فى الثامن من شهر ديسمبر .

أما خسائر إسماعيل فبلغت حوالى خمسين ماعدا الجرحى .

واستطاعت مهيرة الهرب وحولها حرسها الفرسان دون أن يقفوا أثرها الجنود المصريون بل وبغير أن يدركوا الحيلة التى تسللت بها .

وفى مناوشة تالية قتلت امرأة من الشايقية بإصابة مميتة . ولما جلبت القتيلة إلى إسماعيل باشا أمر جنوده بألا يطلقوا نيرانهم عل النساء مهما كان الأمر ، ومهما كانت الظروف الداعية إلى ذلك .

احتلت كورتى ونهبت ثم حرقت وأعدم بعض الرؤساء ، ثم اجتمع زعماء

---

(١) Waddington p. 139.

الشايقية وقرروا جميعا مقاومة الحملة ، وتخيروا اثنين من بينهم للقيادة وهما : بيك شاويش من العدلناب وملك سابلى من الحنكاب .

ثم جمع الشايقية قواتهم فى جبل داجر وانتظروا قدوم إسماعيل الذى عمل على راحة جنوده بقية شهر نوفمبر . وفى خلال ذلك وصلت المدفعية والتحقت بالجيش.

وبدأ التقدم صوب الجنوب . وفى الثانى من ديسمبر ظهرت الشايقية وهم يستعدون للقتال فى جبل داجر بعد أن اتحدت كلمة كافة زعمائهم على قتال الأمير.

معركة جبل داجر

وكان قد وصل ٢٠٠ فارس و ٣٠٠ راجل فانضموا إلى جيش الأمير بمدفعين ، وعبر هو النيل فى ٤٠٠ فارس . فهجم الشايقية عليهم بجميع قواتهم يقذفون بالأحجار أولا ثم يطعنون بالرماح فتلقى المصريون صدمتهم العنيفة كى يمكنوا بقية الجيش من عبور النهر فلما عبرته تقدم المشاة . فأمرهم إسماعيل بستر المدفعين اللذين معهم فقاموا بحركة أفضت إلى قطع الصف الأول من صفوف الأعداء فبدأ المدفعان عندئذ يصبان مقذوفاتهما فأحدثا ثغرة واسعة بينهما . ثم أطلقت المقذوفات منهما على بعد يعدل نصف المرمى . فتشتت شمل الشايقية عند الطلقة الثانية وذهبت جموعهم الكثيفة بدداً . واحتمى ثمانون منهم فى أنقاض قصر قديم . ولزموا فيه خطة الدفاع غير أن قذيفة سقطت بينهم فكسرت شوكتهم وثبطت همتهم . ففتحوا أبواب القصر للظافرين . ولم يبق بميدان القتال أحد . وأحرقت قرية داجر بالنار (٢٠ ديسمبر ١٨٢٠) .

ولقد كان الفضل فى انتصار الأمير على أعدائه يعود إلى مدفعية المصريين فقد صبت عليهم النيران بكل شدة حتى خيل لرجال الشايقية أن أبواب جهنم قد فتحت عليهم . وأدخلت على قلوبهم الرعب ، وأشاعت الهرج والمرج فى صفوف رجالهم وحيواناتهم .

وسرعان ما أوفد الأمير رسوله محرمجى باشا إلى أبيه ليحمل له أنباء النصر المبين مزودا بالبراهين التى تؤيد أقواله . ولكن لما سمع الأب قصة الفوز تحركت

عاطفته وأملى رسالة لابنه يذكره فيها بانتهاج الرحمة ويلفت نظره إلى اتباع الحكمة مع زعماء البلدان المحتلة .

وقد قال فى هذه الرسالة[١] .

« ياولدى الأعز إن من المعلوم عن أرباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم أن استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة وأن تسخير البوادى والبلاد موقوف على حسن الاستمالة . ومن الظاهر لا يمكن لأى حاكم أن يقوم بعمل بدون تحرى وجه العدالة . كما أن من البديهى الباهر أنه لا يمكن الوصول إلى منزلة المقصود وإلى غايته من غير استمالة — فبناء على ذلك كان الواجب عليكم أن تمتلكوا أهالى الشايقية بحسن استمالتهم . وتملكوهم وبلادهم بتأمينهم وتأليفهم . فمن العجيب جدا تبعيدكم إياهم عنكم وتنفيرهم من إطاعتكم بتكليفكم أياهم تسليم خيولهم وأسلحتهم . فإن كنتم غير مطلعين على أحوال أرباب السيف الذين نجحوا فى أعمالهم فى الأزمان السالفة أفلم تسمعوا ولم تعلموا أن الفرنسيين الذين أتوا مصر فى زمن قريب إلى درجة كانت عدالتهم فى مجيئهم لأجل تسخير البلاد — وإلى أى درجة أظهروا العدل حينما أرادوا الذهاب والانسحاب لأجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجىء الإنجليز وذهابهم مقرونين بالعدل . »

° ° °

وفى هذا القتال ، قبض الجنود على بنت « ملك زبير » بينما كانت تقود عشيرتها فى غضون المعمعة . وهى فتاة فى السادسة عشر جميلة الطلعة رشيقة القوام يستر عورتها رهط من الجلد تتدلى منه خيوط محلاة فى وسطها بصدفة واحدة رمزا للبكورة . وفى قدميها « صندل » طويل يدل حسن صناعته على أنها من بنات الأعيان .

فلما جىء بها إلى الأمير إسماعيل سألها عن حقيقة أمرها فأجابت بأن اسمها صفية وأن والدها من الأمراء . فسألها عن اسمه فأجابت الملك زبير . ثم

(١) دفتر ٧ معية تركى ترجمة مكاتبة تركية رقم ١١٧ بتاريخ ٩ ربيع الآخر سنة ١٢٣٦هـ .

انهملت الدموع من عينيها ، فأشفق إسماعيل عليها . وبعد أن ألبسها رداء جميلا وأهداها عقداً من الدنانير الذهبية ومقداراً من المصوغات والجواهر لم تعبأ صفية بهذه الهدية إذا كان همها العودة إلى أبيها من غير حلى ولا زينة . فهدأ الأمير جأشها ثم أمر لها بناقة فركبتها وكلف بعض ضباطه بإيصالها سالمة إلى أبيها — وكان قد اتصل بأبيها خبر سبيها . فنهض فى جمع من رجاله لاستنقاذها أو حتفه وحث السير — وفيما هو فى الطريق إذ التقت صفية به فرمت بنفسها على صدره واحمرت عيناه وبدى عليه اضطراب وأخذ يحملق فى ابنته بعينيه حملقة الحانق الساخط لما رابه من أمرها بسبب ما رأى عليها من الحلل والحلى .

وبعد سكوت طويل بدت فى خلاله على وجهه آيات الألم النفسى قال لها بصوت متهدج « ألا تزال بكر الملك زبير أهلا لأن تعيش بين أهلها » فصاحت صفية « أبى إن ابنتك ما برحت طاهرة الذيل — وما ابن محمد على باشا إلا يافعا شريف النفس » .

فأخذت الدهشة والإعجاب من الزبير كل مأخذ وانطلق لسانه بالشكر لعدوه على ما عامل ابنته من الكرم وشرف النفس ، ثم أمر رجاله أن يقتدوا به فيما هو صانع ، وقصد من فوره نحو الأمير المصرى ، وألقى سلاحه بين يديه ، واقتدى الملك عمر بالملك زبير إذ قدم هو طاعته أيضا .

ثم اتفق الطرفان على وقف القتال وأمر إسماعيل باشا بالتعجيل فى دفن القتلى ، وأقسم الملك يمينا على نفسه ورجال الحنكاب بالولاء للباشا ورجاله ، وسرعان ما سلم مك مدنى ومك حامد العمرى .

وقد حدث فى أثناء المعارك التى انتهت بإخضاع الشايقية ، أن الأمير إسماعيل لم ينسجم وكبار قادته واختلف معهم ولم يستمع إلى نصائحهم — وهم المجربون المحنكون الذين وقع عليهم اختيار والده ليكونوا عضداً له على أعدائه . ومثل هذه الحالة لم يستطع محمد على السكوت عليها ، نظراً لما يترتب عليها من نتائج سيئة ، فحرر لابنه رسالة نقتبس منها بعض فقراتها التى يحذره فيها من الاستبداد بالرأى :

« كيف يليق بك أن تجعل مثل سلحدارك الغر الغشيم قائداً على قوجة أحمد أغا وعابدى كاشف اللذين بمعيتك من الرجال المدربين فى أمور الحرب . فأحدهما لم يزل يخدم منذ خمس أو ست وعشرين سنة والآخر منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة فهما وأن كانا يطيعانكم لكنهما على ثقل هذه الإطاعة على أنفسهما ينسيان بأنهما إنما يتابعان نجل مولاهما لكنهما كيف يدخلان تحت حكم سلحدارك الذى نشأ من غير أن يحضر المعارك — ولا أن يحادث أرباب الحروب وكيف يتسليان تحت حكم مثله وهما ليسا من الرجال الذين أتوا من ممالك الحرب حديثا ولم يشاهدوا العساكر ولا القوات حتى تجوز معاملتهما كالمعاملة مع قطائع الغنم ... فيدل عملكم المذكور وحركتكم المستورة على أنكم ما صرفتم الذهن والذكاء إلى هذه الدقائق .

« ولم تدخل فى أذنكم أصلا تلك الوصايا والنصائح التى كنت أسديها إليكم بمصر — فيا ياولدى ونور عينى أن من الواضح الجلى إن الأنانى فى هذا العالم يبقى بعيداً عن رضاء الحق سبحانه والمغرور يكون مهجوراً فى نظر الكبار فأنصحك نصح الوالد أن لا تكون من هؤلاء الأنانيين والمغرورين لأن المصلحة التى انتدبتم لها مصلحة عظيمة والممالك التى تقصدها ممالك جسيمة ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة إلا بالعدالة ولا يملك مثل تلك الممالك إلا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذين قاموا بأعمال وأنتجوا أموراً — وبالاستشارة والمذاكرة معهم فى كل الشؤون — فلذلك ياولدى إن كنت تحبنى وتطلب رضاى فاجتنب أن تكون أنانيا أو مغرورا وبادر إلى تنظيم الأمور وتمشيتها بالاستشارة فى المصالح المتعلقة بالأمور الحربية والمواد النظامية مع قوجه أحمد أغا وعبدى كاشف — وفى الشؤون الأخرى مع كاتب ديوانكم وأحمد أفندى الترجمان والمعلم حنا الطويل — فأقصى مطلوبنا أن تسعوا بكل غيرة فى تحصيل وسائل توحيد الكلمة واتفاق القلوب فى شتى الأحوال ، وأن تهتموا بمطالعة نصيحتى المبينة لهذه المفاهيم المرسلة سابقا . وهذه النصيحة مطالعة جيدة وأن تبادروا إلى العمل بموجبها ومقتضاها وأن تتيقنوا أنى أستاء منكم جداً إذا لم تقوموا بالعمل بنصائحى هذه » .

وقبل أن يصل هذا التكدير الأبوى إلى الأمير إسماعيل ، كان قد أصدر أوامره فى يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٢٠ إلى معجون أغا (كبير صيادلته) للتقدم على رأس ثلاثمائة فارس إلى بربر (شندى) لإخضاع ماك نصر الدين للاستيلاء على الجياد والجمال اللازمة للحملة . وفى ٨ يناير ١٨٢١ وصل معجون بك إلى بربر يصحبه زعماء الرباطاب أبو حجل والأمين ومحمد . ولما وقف على أحوال البلاد أرسل يعلم الأمير بأن الشايقية الذين لجأوا إلى بربر هجروا بيوتهم بعد أن دمروها وأتلفوا السواقى وولوا هاربين نحو غرب المدينة ولاذوا بمسعدملك المتمة (النص التركى شندى) وأن شيخ قبيلة الحسينية جاء إليه يطلب الأمان . وأفاده أيضا بالتجاء بعض البكوات المماليك وعودتهم إلى المدينة كلاجئين وعلم منهم أن البعض الآخر ولوا شطر كوردفان [١].

ولما علم محمد على بالمهمة التى كلف بها معجون بك من قبل الأمير . دهش من تصرف ابنه وأرسل إليه خطابا يؤنبه فيه ويشير إليه كيف أنه اختار هذا « المعجون » للاضطلاع بمثل هذه المهمة الدقيقة على أهميتها ولفت نظره إلى أن الواجب عليه أن يختار لكل عمل خير من يقوم به [٢].

ولقد كان الوالد على حق . فإن معجون بك لم يوفق فى مهمته وظل قابعا فى مكانه . ولما لم يطق الأمير صبرا بادر فى أواخر يناير بإيفاد « ديوان أفندى » إلى بربر مع أربعمائة خيال ليساعف مفاوضات معجون . وكانت تصل إلى الأمير السفن المحملة بالعتاد يوما بعد يوم وتجمعت لديه حملة الحيوان اللازمة لاستئناف الزحف .

وفى الثامن عشر من شهر فبراير كان الجيش على قدم الاستعداد للمسير — وأمر الأمير بأن تتقدم المدفعية بحراسة أربعمائة فارس . وقسم قواته إلى ثلاث قولات : أحدها يظل باستمرار مع الحملة النيلية (السفن) . بينما يتقدم الآخران

(١) معية تركى سجل رقم ٧ — خطاب رقم ١٦٧ من محمد على إلى إسماعيل بتاريخ ٢ أبريل ١٨٢١.

(٢) معية تركى سجل رقم ٧ — خطاب رقم ١٦٧ من محمد على إلى إسماعيل بتاريخ ٢ أبريل ١٨٢١.

فى اتجاه بربر . على أن يتخذ حرس الأمير وقول عابدى كاشف طريق الصحراء بينما يتبع القول الآخر بقيادة أحمد أغا وعمر كاشف الحبشى مجرى النيل (١) .

وفى يوم ٢١ فبراير صدرت الأوامر بإزالة المعسكر وبدء المسير عقب دوى طلقة مدفع . ويصف كايو تحرك الجيش فى الجزء الثانى من كتابه ص ٧٦ .

وفى اليوم التالى (٢٢ فبراير) تجاوزت القوات جزيرة كندى عند الطرف الشمالى منها حيث عجزت السفن عن السير لقلة المياه وكثرة الصخور .

وفى يوم ٢٣ استمر الجيش فى سيره بمحاذاة النيل ثم صدر أمر الوقوف والراحة فى كيربيكان حيث يبدأ طريق العقبة – وهنا كان من الصعب للغاية التقدم بالمدافع – فرؤى فك أجزائها وجرها على مزالق فوق الرمل . ووضعت المدافع الخفيفة على ظهور الجمال أثنين أثنين أو أربعة أربعة والعجلات أيضا وامتطى المدفعيون ظهور الإبل والخيل .

وقامت قوة من الخيالة تعدادها ٤٠٠ بقيادة الحاج حامد لقطع المسافة بين جورا ووادى دام إلى بوجير على النيل .

وصل الجيش إلى جورا فى السادس والعشرين من شهر فبراير فسقيت الجياد . وفى اليوم التالى وصلت الطليعة إلى بوجير حيث التحقت بهم المدفعية وقول التعيينات فى ٢ مارس .

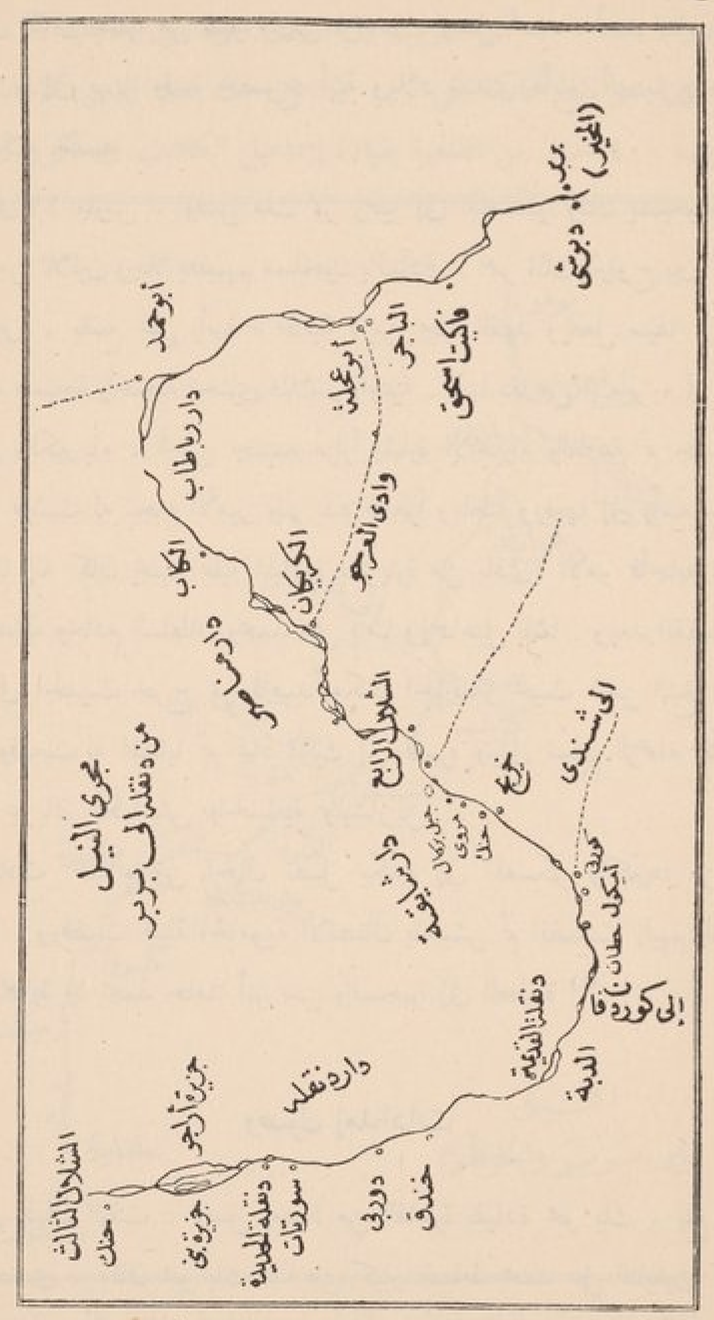
بربر

دخل إسماعيل باشا بربر فى الخامس من شهر مارس فقام له ملك نصر الدين زعيمها وكان جريحا على فراش المرض ، وقد نصره إسماعيل إزاء ذلك على ابن عمته « على ود تمساح »

وهنا أخلد المصريون إلى الراحة فى تلك البلدة التى وجدوا فيها العلف لدوابهم والكفاية من الطعام لجنودهم .

(٣) معية تركى سجل رقم ٧ — خطاب رقم ١٦٧ من محمد على إلى إسماعيل بتاريخ ٢ أبريل ١٨٢١.

وقد وقع اختيار الأمير على مكير «مكارف» لتكون مقرا له ، وأقام معسكره فى كو بوش



المقابلة لمكير ، ثم أرسل قوة لاحتلال جزيرة مفرات ، ثم سلم أبوحجل ملك ر و بوتاب [1]

(١) معية تركى — دفتر رقم ١٩ بحر بره — وثيقة رقم ١٩ — من إسماعيل الى محمد على بتاريخ ٩ مارس ١٨٢١.

وفى ذلك الحين استؤنفت المواصلات مع مصر عن طريق الصحراء .

وفى الثانى عشر من شهر مارس ١٨٢١ . وصل محمد . أحد ابناء نمر ملك شندى ، إلى بربر وقدم خضوع أبيه وبلاد شندى فأبلغ أنه يلزم حضوره للاستسلام بنفسه .

وفى ٢٢ مارس ، وصل ملك نمر رسميا إلى المعسكر وكان بصحبته حرس مؤلف من ثلاثين رجلا بعضهم مسلحون بالبنادق . عمر الملك يتراوح بين الثلاثين والأربعين ، يضع على رأسه « طاقية » من جلد الفهد ويحمل سيفا ، ويضع فى رقبته مسبحة وأحجبة تحتوى طلاسم وأوعية . فلما دنا من الأمير ، فى مظاهر الشيوخ والكبرياء ، أحنى جسمه مراراً إشارة الاحترام والطاعة ثم جلس على سجادة فرشت له تجاه الأمير ولثم يده ظاهراً وباطناً ورفعها إلى رأسه — فقال له الباشا إنه كان يجب عليه المبادرة بالزيارة من بادىء الأمر فأجابه الملك . ابن عبدالله وخادم السلطان ومحمد على باشا وإسماعيل باشا . وبعد انقضاء عشر دقائق فى الحديث خرج نمر قاصداً مكان الخازندار حيث دخن التبغ وتعاطى القهوة وقدمت له الهدايا ثم عاد الملك إلى قصره وتوالى تسليم الزعماء الآخرين وقبائل عربان الكبابيش والحسانية والبشارين .

وكانت الغنائم من الجمال تصل بكثرة إلى المعسكر وأكثرها من قبيلة الحسنية . ورفضت قبيلة الجاموية الاتصال بالجيش ثم انضمت إليهم الشكرية بزعامة عمارة ود محمد حامد أبو سن وانسحبوا إلى العطبرة [1] .

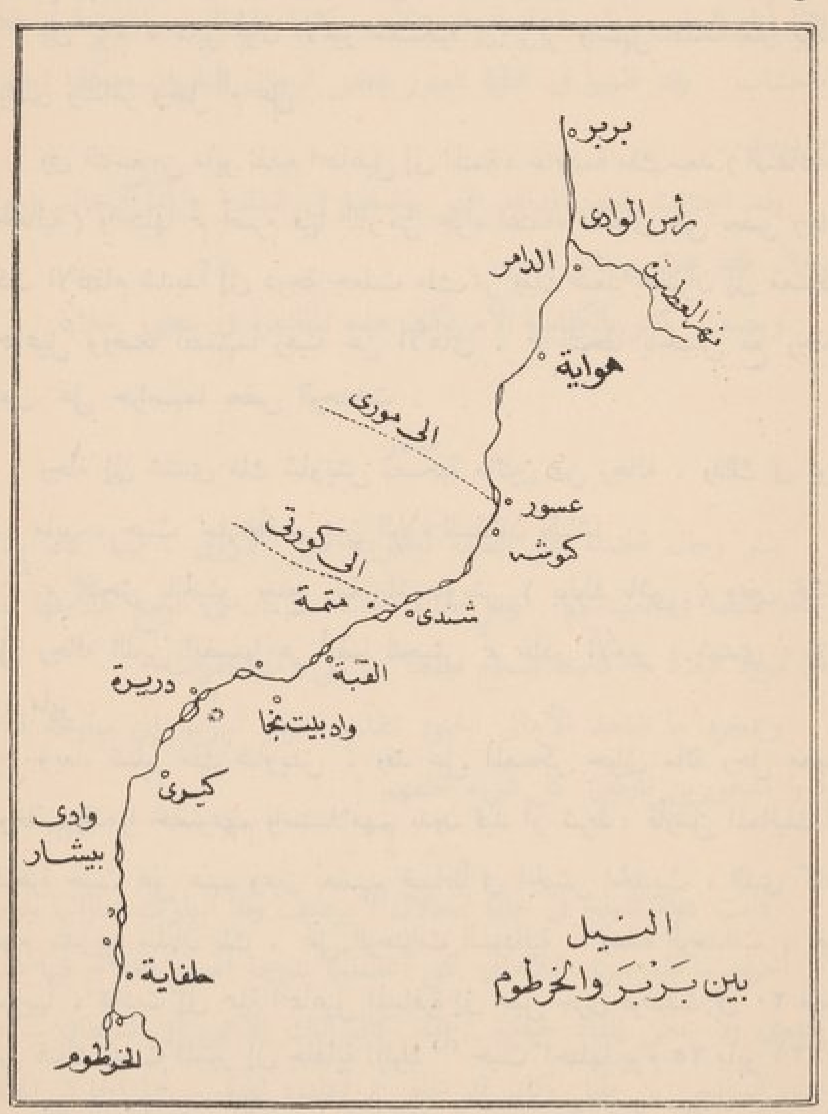
وصول إمدادات

وفى ذياك الوقت ، وصل إمداد من القاهرة بقيادة محو بك ، بلغ عدده ٨٠٠ جندى ، وكان محو بك هذا من كبار ضباط محمد على النابغين . فتسلم

(١) كان يقيم الشايقية فى ذلك الحين على الضفة اليسرى من النهر مقابل شندى وهم فى انتظار أوامر الباشا بالجلاء والاتفاق على شروط التسليم النهائية وأهمها تسليم السلاح والخيول (معية تركى سجل رقم ٧ وثيقة ١٧٢ من محمد على إلى إسماعيل بتاريخ ٢٢ أبريل ١٨٢٢)

القيادة من عابدى بك الذى عين حاكما على دنقلة ــ فسار عابدى إلى المعسكر (الأوردى) ومعه ٤٠٠ أسرة هربت إلى شندى خوفا من الشايقية .

ثم عين محو بك حاكما على بربر. كما عين ملك نصر الدين كاشفا . وقد وصل أيضا ٤٠٠ خيال من القاهرة بقيادة إسماعيل الكاشف وعسكروا فى بربر



وبدأت تفد على هذه البلد قولات الذخيرة والمدفعية والمؤن التى تأخرت فى الخلف وكذلك وصل إليها فيما بين (١٤ و ١٧ أبريل) كما ذكر كايو وحدات البدو والمغاربة وبقية المدفعية .

ولم يكن الأمير يثق بتسليم ملك نمر ، وفعلا ظهرت نيته عندما أرسل الأمير رسالة يخبره فيها بأن رجاله لم يقبلوا التسليم والخضوع للباشا . ثم اكتشفت مؤامرة تهدف إلى أفناء الجيش المصرى فى كمين — اكتشفها الشيخ الفقيه القصير العمر .

وفى يوم ٥ مايو أزال الأمير معسكره فى بربر واستهل تقدمه مارا برأس الوادى والدامر وجبل أم على .

وفى التاسع من مايو تقدم اسماعيل إلى المتمة ، عاصمة ملك سعد (السعاداب الجعالية) واحتلها ثم أضرم فيها النار من جراء اعتداء الأهالى على بعض رجاله وكان الانتقام شديداً إلى درجة جعلت ملك نمر وملك سعد يحضران إلى معسكر اسماعيل ووضعا أنفسهما رهينة عن الأهالى ، ثم التحقا بالجيش مع رجالهم وعين على حراستهما بعض الوحدات .

وجاء إلى شندى ملك شاويش بصحبة مائتين من رجاله ، وذلك فى يوم ١٥ مايو ، حيث سلم وأقسم يمين الولاء للسلطان والباشا .

ثم التحق بالجيش ومنح رتبة باشجاويش (بولوك باشى) وعين قائداً على رجاله الذين انضموا هم أيضا للجيش ثم غادر الأمير « شندى » يوم ١٥ مايو .

وبعد تسليم ملك شاويش ، وفد على المعسكر حوالى مائة رجل معهم زوجاتهم وقدموا خضوعهم واستسلامهم بدون قيد أو شرط ، فأرسل المماليك إلى القاهرة حيث عفى عنهم وعين بعضهم ضباطاً فى الجيش الحديث ، الذى كان يقوم بتدريبه سليمان بك ، على الوحدات السودانية — وهذه الوحدات ، بعد تدريبها ، عادت إلى حملة اسماعيل المسافرة إلى جبل جرى فوصلت فى ٢٠ مايو ومن هناك تابعت المسير إلى حلفاية الملوك [١] حيث احتلها يوم ٢٥ مايو ١٨٢١

خضع ملك نصر الأمين (العبدلاب) شيخ جبل جرى والتحق ابنه ابن ود عجيب مع بعض رجاله بالجيش .

---

(١) كانت مدينة مشيدة بالحجر تقع أمام جزيرة ماناقى

أم درمان

وفى صباح يوم ٢٨ مايو ١٨٢١ عبر النهر الأبيض من مخاضة ، وقضى جيش الحملة المؤلف من ٥٥٠٠ مصرى وعربى معهم ٣٠٠٠ جمل وحصان ثلاثة أيام البعض منها سباحة والبعض الآخر ركوبا على القرب المنفوخة أو قطع الأخشاب . وقد فقدوا فى عملية العبور بعض الرجال والحيوان وهكذا احتلت أم درمان .

وقد اجتازت قطع المدافع النهر بوضعها فى السفن ، أما الرجال والجياد والجمال فقد عبرته بوسائل أخرى

ويصف كايو والكتاب الأمريكان هذه المظاهرة فى سطور خلابة .

سنار

سار رجال الحملة على الضفة الجنوبية للنيل الأزرق ، بينما كان يعانى رجالها نقصا فى تعييناتهم . ومثل هذه الحالة ما كان فى الوسع علاجها نظراً لأن موارد البلاد ما كانت تسمح مطلقا بمد شىء منها للقوات .

وبمجرد ما شاهد الأهالى الجنود تتقدم نحوهم أسرعوا إلى مبارحة قراهم وفروا مذعورين تاركين كل شىء خلفهم ! .

• • •

كانت دولة الفونج فى حالة انحلال لا يوصف وقد انهارت إماراتها واحدة أثر أخرى — فقد سرى البلاء فى كل أعضائها بدرجة أصبح العلاج فيها عديم الجدوى ولا يمكن إنقاذ حياتها . فقد كان البك الأسمى أو السلطان — هو بادى السادس بن طبل وكان قد خلع ثم أعادوه ثانية — أما الحاكم المطلق فقد كان محمود عدلان (الهمجى) وكان فى خلاف مع حسن ود رجب ابن عمه الذى قتل معظم أشقائه ، وهكذا انقسمت السلطة واستطاع حسن رجب أن يجمع حوله بعض رجال الهمج والفرنج والعرب . ووقع الاختيار على بلدة « مونا »

لتجمع القوات استعداداً لمقاومة حملة اسماعيل . وعلى ذلك اجتمع حسن رجب والشيخ أحمد الرياح وعبدالله تكتيت وادريس ود الجندى وتآمروا على قتل ملك أعدلان . ولما تم قتله ثار رجال ملك عدلان ضد حسن رجب الذى انتصر عليهم . ولكن أصيب رجاله بضعف فى قواتهم فلم يستطيعوا رد تقدم المصريين الذين كان قد عبروا النيل الأزرق . ففر حسن رجب على رأس ٦٠٠٠ من جنوده وقصدوا الرهد على حدود الحبشة .



وانضم أتباع الملك المقتول إلى جماعة الفونج تحت قيادة ملك بادى السادس الذى رأى من الصواب التسليم والذهاب إلى واد مدنى على رأس الشيوخ والأعيان وقابلوا الأمير اسماعيل وسلموا إليه مقاليد دولة الفونج باسم الخليفة العثمانى وأقسموا اليمين .

ومكافأة للملك عين شيخا لبلاد السودان وعاد إلى سنار مع اسماعيل باشا

الذى احتل العاصمة وأعلن ضم السودان فى ١٢ يونيو ١٨٢١ .

وفى ١٤ يوليو دخل الأمير رسميا مدينة سنار .

وصدر الفرمان بتنصيبه « حكمدار السودان » منذ ذلك اليوم .

وفى يوم ١٥ يونيو ، غداة الاحتفال ، أمر اسماعيل باشا حسين أغا بالسفر إلى مصر مزوداً بكل المعلومات والنتائج التى وصلت إليها الحملة ثم رجا أباه أن يرسل إليه ضابطاً قادراً ليحكم بلاد حلفاية .

وعقب ذلك قدم ملك بادى للأمير حوالى ١٦٠٠٠ رأس من الغنم ومن العبيد ٧٧٦٤ عبدا ، فأرسلوا إلى القاهرة وقد مات أغلب الماشية بين أبى حمد لقلة المياه .

وفى ١٨ يونيو ، أرسل الأمير حملة بقيادة خوجة أحمد لإخضاع بلاد بورون .

ولجأ أولاد ملك عدلان إلى الأمير لكى ينتقم لهم من حسن رجب الذى قتل أباهم — فأعلن هذا أنه خارج عن القانون وبدأ رجاله يغادرونه ويتركونه وحيداً فى الميدان .

وفى ٢٣ يونيو ١٨٢١ ، أسر أحد قتلة محمد عدلان وشنق علناً بأمر إسماعيل وفى ٢٤ يونيو أرسلت حملة بقيادة ديوان أفندى (السكرتير الخاص) محمد أغا ، تتألف من ٤٠٠ من العرب غير النظاميين لمهاجمة حسن رجب فى عقر داره وكان يرشد القوة رجب وإدريس ولدا محمد عدلان . وتعقبا القاتل إلى أكاسى ، إحدى قبيلة الكواحلة ، وتقيم على نهير وندر . وفى سبيلهم قابلوا جماعة من قبيلة أبو روف وكانوا امتنعوا منذ سنوات عن دفع الضرائب لحكام سنار . فهاجمتهم القوة وغنمت جمالهم وماشيتهم . وأخيراً عثرت احدى الأطواف على حسن رجب وعبدالله تكتيت وادريس ود جندى فقبضوا عليهم وعادوا بهم إلى سنار . وهناك حكم على أولهم بالسجن وقتل الآخران بأمر اسماعيل باشا على مرأى من الأهالى .

ونشبت الحمى فى جنود اسماعيل وفتكت بعدد منهم فوصل إليه أربعمائة جندى من المشاة من القاهرة .

---

(١) معية تركى سجل ٦ — وثيقة ٥٥٧ من محمد على إلى البك كتخدا بتاريخ ١٤ يوليو ١٨٢١ وفيها يأمره بأن يجتمع معه سلحداره وخازنداره لاختيار أحدهما .

وفى ١٣ يوليو عاد الحاج حامد من بلاد برتات ومعه عدد كبير من العبيد .
وفى ذلك الحين كان الملك نمر وملك مسعد فى سنار وقد رآهما الرحالة كايو .
وأمر اسماعيل بإحضار على ود تمساح من بربر إلى سنار ، فوصل يوم ٢٢ يوليو وثبتت عليه تهمة الخيانة فحكم عليه بالشنق . وهكذا تخلص عمه نصر الدين من منافس قوى . كما أن الحمى التى نشبت بجيش اسماعيل جعلت ثمانماية من جنوده غير صالحين للخدمة

حملة ثانية بقيادة « ديوان افندى »

كان نجاح ديوان أفندى فى المهمة التى عهد إليه بها الأمير باعثا على تجريد حملة ثانية . فخرج يوم ٢٢ أغسطس ١٨٢١ فى ٣٠٠ جندى متجها صوب الشمال الشرقى حيث إقليم المعايزة . فلما اقترب من النهر الأبيض التقى بجماعة من عربان الجمالية فقاتلهم فى معركة انجلت عن مصرع زعيمهم وغنم ٣٠٠ جمل وكثيراً من الأبقار والأغنام .

وصول إبراهيم باشا

وفى ١٩ سبتمبر ، وصلت الأنباء إلى سنار تفيد بوصول إبراهيم باشا دنقله على رأس أمداد من الجنود — وأنه يستعد للقيام إلى سنار .
وفى ٢٢ أكتوبر وصل إلى سنار يحف به مماليكه الذين يؤلف منهم حرسه الخاص. وكان القائد يحمل أمراً من أبيه ينص على تأليف جيش من القوات الموجودة.
وفى صباح اليوم التالى أطلق ٢١ مدفعا تحية للأمير .
وكان يهدف الأمير إلى الاستيلاء على أربعين ألف سودانى ليضمهم إلى قواته ثم التقدم لاحتلال مناجم الذهب فى فازوغلى .
فى ذلك الحين كان يعمل محمد على على تلبية أمر السلطان لإيفاد حملة

(١) ذكر المؤلف الفرنسي منجن أن وصوله للأمير كان في يوم ٣٠ أغسطس (ص ٦٥٣)

بقيادة أمير البحر أسماعيل جبل طارق إلى اليونان . ثم لم يكتف السلطان بالنجدة التى أرسلها فطلب المزيد من الرجال والمال أيضا .

تتابع وصول السود إلى المعسكر الذى أنشىء لأجل تدريبهم فى أسوان بقيادة الضابط الفرنسي « سيف » كما سبق القول وقد اشترك معه بعض المماليك كمعاونين له ممن قدموا من دنقلة بعد أعلان ولأئهم – كما أنشىء معسكراً آخر للمجندين المصريين فى فرشوط والتحق به لفيف من المدربين الأوربيين .

حملة العيس

وحوالى أغسطس ، قاد محمد أفندى سعيد الذى يطلقون عليه « ديوان افندى » حملة لإخضاع العيس ، عاصمة الشلوك آنذاك (على النيل الأبيض) وألقى القبض على عدد موفور من العبيد ، ما لبث أن أرسلهم إلى أسوان .

الخطة المشتركة

تقرر أن يلتقى إبراهيم بإسماعيل ، ويسير الشقيقان على خطين متوازيين ، بطول مجرى النيل الأزرق ...

وقد بارح إبراهيم ، بجيشه المؤلف من حوالى ١٢٠٠ جندى ، بلدة سنار فى الخامس من شهر ديسمبر عام ١٨٢١ ، ميمماً صوب الجنوب . وتبعه بعد أيام الأمير إسماعيل بجيشه الذى أشرف على ١٥٠٠ جندى . وسار الجيشان – طبقاً للخطة الموضوعة – موازيين لبعضهما على شاطىء النيل الأزرق .

وفى مساء اليوم الخامس للسفر وقف إسماعيل على رأس جيشه فى « عد لديبا » ، ولكن ما عتم أن علم أن أخاه يسبقه بمسيرة بضع ساعات فخرج للقائه ، بعد أن أمر رجاله بأن يتأهبوا للرحيل قبل الصباح ، حتى لا يتلاقى الجيشان .

وفى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر الحادى عشر من شهر ديسمبر ، وبينما كان الجيش الإسماعيلى يجتاز فيما يلى قرية « لوتى » ، اندلع لسان اللهب

إلى الجو ، وشبت حريق هائل فى حشائش المنطقة ، الشيء الذى عطل التقدم بعض الوقت .

وحين خمدت النيران ، وصفا الجو ، استأنف المسير وئيداً ، دون أن يخطر بأفقه أنه مقبل على حادث مماثل

وقدم سليمان شيخ الرصيرص ولاءه وأقسم ايمين لسلطان العثمانيين . كما أبدى من مظاهر الخضوع والإذعان مالا سبيل إلى الإحاطة بها . كما استسلم حسين بك فازوغلى ، فى التاسع عشر من ديسمبر ، وخضعت بلاده خضوعاً انتهت به دولة الفونج .

وفى نفس اليوم ، اتخذ إسماعيل معسكره بين الصخور تجاه « الكربين » ثم أرسل لزعيم المنطقة يطلب إليه التسليم . فلما رفض سير الباشا إليهم ثلاثمائة جندى أسروا منهم ١٧٠ رجلا .

وفى ٢٢ ديسمبر ، بالقرب من قرية (كاجو) ، نشبت معركة بين المصريين وأهاليها دافع فيها دفاع المستميتين عن أوطانهم ، وأخيراً تغلبوا عليهم ، وفقد الأمير ١٢ قتيلا وعدداً من الجرحى — وكان بين القتلى خازنداره وقائممقام الارناؤد — وبلغت خسارة العدو ١٨٠ قتيلا و ١٧٥ أسيراً . اقتيدوا على التوالى الى عاصمة سنار .

وفى ٢٣ ديسمبر ، بدأ توغل العساكر فى أرض العدو بغية الاستطلاع ، فجاهد العدو فى مقاومة المصريين وتعطيل زحفهم وقد أعياهم التعب ، ولكنهم مع ذلك واصلوا التقدم حتى صاروا على بعد خمسة فراسخ من فازوغلى ، وخرج ملكها حسن لاستقبال الأمير وإعلان الولاء والطاعة .

وفى ذلك الحين لفظ الدكتور سلوتو « الجنوى » أنفاسه الأخيرة ، واستشعر إبراهيم باشا حرارة الحمى ، التى تثاقلت عليه فى العاشر من يناير عام ١٨٢٢ ، وخشى على حياته منها .

وحيال ذلك ، اضطر إبراهيم أن يسلم قيادة الجيش إلى طوسون بك يكن ، وأكره القائد على العودة يصحبه دكتور ريتشى Dr. Ricci الذى يقال

إنه وعد بمنحه جائزة مالية باهظة إذا ارتد الأمير معافى إلى القاهرة

وقد أستغرقت عودة الأمير ، من فازوغلى إلى القاهرة ، نحو ٣٦ يوماً . ونال الدكتور المرافق جزاء ما بذل المنحة المالية الموعود بها .



وصدر الأمر إلى طوسون بك يكن لتسلم مقاليد القيادة العسكرية تحت إمرة الحكمدار الأمير إسماعيل باشا فى الثانى من شهر فبراير عام ١٨٢٢

وفى ٥ يناير ١٨٢٢ ، وقعت أداسى Adassi عاصمة بلاد تيوا Tiwa ولكن هوجمت الحملة ووقع رجالها فى أسر الأهالى

ثم فرضت الجزية على بلاد فازوغلى وقدرها ألف أوقية من الذهب وألفين عبد ، وأرسل حوالى عشرة آلاف عبد إلى القاهرة من سنار وجنوبها

وفى ١٥ يناير ، سقطت أكاروا وأصابها من التدمير والتخريب ما لم يسبق لمدينة نظيرتها أن أصيبت به . ثم عبر الجند خورتومات فى اليوم التالى ونهبت ضواحى البلدة . ورغم ما عرضه المصريون من إغراء للتسليم تارة وألوان التهديد طوراً ، لم يرض الأهالى بالخضوع مهما كانت النتيجة ومهما كانت الظروف ، وفضلوا الموت مع أطفالهم ونسائهم على أن يقعوا فى قبضة المهاجمين ..

واسترسل الجند فى زحفهم نحو « ابكوبلجوى » (خط عرض ١٠ وخط طول ٣٢) فى ١٩ يناير ، يستحثهم إلى أهدافهم خمر النصر وروعة الانتصار .

وهنا وصل إلى مسمع القائد أن قافلة محملة ذخائر و ١٢٠ جندياً وقعوا فى الأسر بالقرب من فازوغلى ، فلم يبعث بين جوانبه أى داع من دواعى اليأس ، بل على النقيض بث فيه هذا الخبر دفعة إلى التقدم والاستحواذ على الغرض .

وسقطت مدينة « سنجة » فى السادس من فبراير بعد أن دافع عنها شيخ موسى دفاع الأبطال ، وبذل فى سبيلها عشرات الرجال . وأكره على الفرار حسن ود رجب — وكان لاجئاً إليها — ورافق الجيش المتقهقر نحو الجنوب ، وطفق يهاجم قواتنا بخيالته « الهمج »

وفى ليل ٩ فبراير ، نهض الأهالى بهجوم ليلى عنيف كبد المدافعون من الخسائر فى الأرواح والجياد ما لا يتسنى نكرانه . وقد حاول القائد أن يصنع المعجزة ولكن عبثا ما حاول ، فقد لاح له أن الموقف يتحرج من لحظة إلى أخرى ، وأن الصمود قبالة المهاجمين معناها الخذلان ، فاضطر إسماعيل إلى العودة إلى سنار ، قبيل أن تتمزق شرايين مواصلاته وينعزل عن قاعدته

وبدأت العودة إلى سنار ....

وفى ٢٦ فبراير وصل الرحالة كايو إلى البلدة الآنفة ، وفى أوائل مارس

كان الجيش بأسره قد عاد إليها .

وسمح لملك نمر وملك سعد واد عجيب بالعودة إلى ديارهم مع رجالهم وأشياعهم ..

وفى ذياك الوقت ، حدث قحط شديد بالأراضى الماثلة شمالى سنار ، الشىء الذى لم يستطع معه المشايخ تلبية طلبات الجيش من حنطة وماشية ، مما أفضى إلى أن يقاسى الجند من المكارة والمشاق ما احتملوها بجلد وصبر

وياليت الأمر اقتصر لدى هذا الحد ، فى العاشر من شهر مارس أخبر محمد أغا كاشف حلفاية الملوك ، مسيو كايو ، بأن العرب قد ثاروا ورفضوا دفع الجزية . كما ذكر جوفانى فينانى أن محو بك هاجم قبيلة الجميلات وذبح أثنين من مشايخها أسرهما فى شندى .

وفى يوليو ١٨٢٢ ، غرق الكابتن البحرى جوردون الرحالة فى النيل بالقرب من واد مدنى ودفن فيها ، وسلمت مخلفاته وأوراقه إلى دكتور بوزارى وقد كان ينتوى العودة باذن من إسماعيل إلى القاهرة

وحدث أن وصل إلى مروى حوالى خمسة آلاف جندى من السودانيين الذين تم تدريبهم على القتال فى معسكرات مصر لكى يساهموا فى المعارك الدائرة ؛ يعاونهم على تأدية واجبهم على الوجه الأكمل احتمالهم لجو بلادهم ، ومعرفتهم لمسالك أرضهم .

ولا ننسى فى هذا المجال أن نذكر أن الأمير إسماعيل كان قد كتب لأبيه يسأله العودة إلى مصر ، فرفض الباشا فى مستهل الأمر ، بيد أنه عاد فسمح له بالعودة فيما بعد

رحلة الأمير

وفى أوائل نوفبر ، قام الأمير إسماعيل برحلة تفتيشية فى النيل ، طاف فى خلالها بالمديريات ، ثم ترك حرسه وصحب معه عشرة من مماليكه

إلى شندى ، حيث استقبله مك نمر .

فى هذه الآونة كان الأمير معتل الصحة بادى الهزال ، وكان طبيبه الدكتور بوزارى يستعد للذهاب إلى مصر كيما يهىء السبيل لاستدعاء الأمير

وعلى ما يلوح ، لم يرض الباشا كل الرضا بنتائج الحملة السودانية التى علق عليها الآمال الكبار ، فلم يوفق إلى العثور على المناجم الزاخرة بالذهب ، كما لم يصله سوى بضعة آلاف من السودانيين .

استقبل الأمير إسماعيل مك نمر ومسعد فى منزل الملك فى شندى ولاح للجعليين أن الأمير لم يعاملهم على قدم المساواة لأهالى سنار وود مدنى حيث خفض الجزية والضرائب — وعلاوة على ذلك فقد وضع رؤساء الجند والشايقية أيديهم على كل ما صادفوه من الخيرات — واشتدت حالة الضيق فيما بينهم واستدعى الموقف عناية بهم . أضف إلى ذلك فقد فرض الأمير على الجعليين غرامات فادحة من المال والماشية والخيول والجمال والحبوب وما إليها بما يقدر قيمته بنحو ٢٠,٠٠٠ جنيه . وأوضح مك نمر أنه من المستحيل إجابة هذه الطلبات ويقال إن الأمير رفض سماع هذه الشكوى وقابلها بالامتعاض ، وحدثت مشادة بين الرجلين ، لولا تدخل مسعد لتحرج الموقف

ثم دعا نمر الأمير وضباطه إلى وليمة تتخللها « الدلوكة » ، وبينما كان يسود السرور جميع الحاضرين شبت النار حول سرادق الوليمة وبدا الهرج والمرج ، وبعد لحظات سمعت طلقات الرصاص . وأحاط رجال نمر بالسرادق وعمت النار فعلها تحصد كل ما تقابله .

احترق المدعون ومن بينهم الأمير الشاب الذى مات مختنقاً بالنار وفى سرعة البرق انتشر خبر هذه المأساة فى جميع أنحاء السودان وهب كثير من الزعماء للثورة ورفعوا علم العصيان .

وبلغ الدفتردار فى كوردفان هذا النبأ الحزين . فخرج بأمر محمد على فى طليعة قواته للأنتقام . وأرسل والقضاء على كافة الضعالين فى مقتل الأمير ، وأقسم الدفتردار أن يكون فى انتقامه عبرة لاينساها أحد على مر الأيام .

ثم أرسل محمد على أربعمائة جندى يعزز بهم قوات الدفتردار — وكان لديه فى السودان حوالى ٣,٠٢٠ من المشاة و ٢٨١٠ من الفرسان و ١١ مدفعاً — وكتدبير فى الحيطة نقل السودانيين من معسكر أسوان إلى مدن الدلتا .

عمت السودان الثورة ضد الحملات التأديبية التى كان قد شنها ابراهيم ، وتحرج الموقف فى مناحى القطر الفسيح ، وعانت الحاميات المصرية اعتداءات مستمرة فى كل مكان ، أفضت إلى افتقاد عدد كبير من جنودها

وفى أخريات يناير ١٨٢٣ ، غادر الدفتردار الأبيض متجهاً بسرعة إلى كابوشية ، وانفصلت حملة من قواته واتجهت إلى واد مدنى واتصلت بقوات ديوان افندى محمد أغا ، الذى أوفد رسله إلى الشمال للتحقق من إشاعات الاعتداءات ، فلما بلغته الحقيقة استعد للدفاع

ونجح الزعيمان أرباب ونفع الله فى الفرار من واد مدنى إلى عبود واتحدا مع الهمج بزعامة حسن رجب . ولكن بادر المصريون فى الهجوم عليهم وهزموهم فى معركة حامية قتل فيها حسن رجب فى « أبوشوكة » وفر دفع الله إلى المتمة (جلابات) حيث التجأ إليها بعض الدارفوريين .

حامية سنار

وكانت قوة سنار إذ ذاك تتألف من :

٤٠٠ فارس تركى بقيادة سرجشمة زكى أغا وحرسه المؤلف من أربعين

٤٠٠ فارس تركى بقيادة الحاج أحمد

٤٠٠ فارس تركى بقيادة عثمان أغا

٤٠٠ مدفعى تركى

٢٥٠ أعرابى حملة الرماح بزعامة الشيخ كيشر

١٠٠ من الشايقية بقيادة ملك شاويش

قامت هذه القوة تقصد واد مدنى ، حيث كان يربض بها ٣٠٠ خيال من المغاربة ، بقيادة الشيخ لقمة و ١٥٠ رماح بقيادة الحاج عبده ، و ٨٠ شايقية

مشاة بقيادة ود ملك زبير من سوارب ، و ٣٠٠ خيال تركى

وفى بربر كان تحت قيادة محو بك ١٠٠٠ من العبابدة الفرسان والهجانة ومعهم مائتا فارس مغربى ومائتا فارس تركى . ثم انضمت إليهم حامية حلفاية الملوك بعد الجلاء عنها

وصل الدفتردار إلى المتمة حيث قابله ملك مسعد وزعماء البلدة ، ولما تنصلوا جميعاً من حادث شندى واعترفوا له ببراءتهم منه ، فرض على الأهالى غرامة كبيرة دون أن ينتقم منهم

وبينما كانت الاستعدادات تعد لإقامة وليمة للضباط أصيب الدفتردار بسهم صوبه نحوه أحد الأهالى فجرح جرحاً بسيطاً . وفى الحال رد مرافقوه بفتح النيران على المجتمعين منهم فأصابوا خلقاً كثيراً . ثم اتجهوا نحو البلدة ونشبت مذبحة مريعة اشترك فيها الجنود وأحرقت البلدة بعد نهبها جزاءا على المؤامرة الدنيئة

ثم هاجمت قوة من الجند بلدة الدامر فأسرع سكانها فى إخلائها ثم أبيدت عن بكرة أبيها وفر مشايخ الطريقة المجذوبية إلى سواكن وقصد بعضهم مكة — ولما صدر العفو عنهم عادوا إلى بلدتهم ثانية

الانتقام

ثم اتجه الدفتردار إلى شندى واجتمع بمك نمر وأمره بالتسليم بيد أنه امتنع وتحصن الأهالى داخل أسوار بلدتهم واستعدوا للمقاومة والدفاع ، فدمرت المدفعية مبانيها وشبت الحرائق فى بيوتها وهرب الأهالى ومعهم ملك نمر وأسرته تحت ستر الظلام ووصلوا إلى « أبو ديليج »

وقام الخيالة بتفتيش البلدة وقبضوا على النسوة والأطفال كرهائن واعتقلوهم فى معسكرهم ، ثم أرسلوهم فيما بعد إلى مصر — وأخيراً قبض على الرجل الذى أصاب الدفتردار وأمر بقتله

وعين الدفتردار بشيرود عقيد شيخاً لبلاد الجعالين فى مكان المكين نمر ومسعد — وكان بشير هذا متزوجاً من ابنة نمر (برة) واحتلت ثانية حلفاية

الملوك كما دمرت جزيرة تونى ، ثم تقدمت القوات نحو« إيلافون » فواد مدنى ومنها إلى سنار .

وبدأت معارك العصابات فى شكل جدى ، وكان أمين ود عجيب قد خلف أباه فى منصب ملك العبد لاب – ثم غادر هذا كيترانج وسار إلى أم درمان على رأس قوة من العرب ، فهجم عليه القائد على أغا البوصيلى بقوته المؤلفة من الترك والمغاربة والشايقية ، بيد أن العصاة نجحوا فى الهروب إلى أبوديليج » وانضموا مع ملك نمر الشجاع

ثم قامت قوة بقيادة حسن أغا الجوقدار وهاجمت الشكرية وأسروا الشيخ عمارة . ثم اتجهت نحو النيل الأبيض وعادوا إلى واد مدنى حيث مات الشيخ عمارة فى السجن

وهاجم الضابط محمد سعيد الهمج وعرب النيل الأزرق فى الهلالية وفرق شملهم وبدد جموعهم أيدى سبأ

لم ييأس ملك نمر بل حشد قوة كبيرة فى « أبوديليج » ، فسار إليه الدفتردار من الأبيض ، وشبت معارك دامية بين الرجلين فى ينسوب وهزم العرب هزيمة شنعاء وانتقم المصريون أيما انتقام ، واجتمع الذين فروا من رجال العدو فى دندر فتبعهم الفرسان ودارت معركة بين الجانبين فى مقدور (بين دندر ونهر الرهد) وفيها قتل مسعد ، وأفلح أمين ود عجيب فى الفرار إلى الحبشة لينجو بنفسه ، كما هرب ملك نمر إلى صوفى (على نهير ستيت) وعينه النجاشى (الراس أوبى زعيم تيجره) حاكما على الحدود وتزوج ابنه الاكبر من ابنته

الدفتردار فى كسلا

وأسرع الدفتردار إلى التاكا (كسلا) وهاجم الحالنجة الذين كانوا تحت حكم مقيم من الفونج اسمه عوض وزعيمهم أبو عيلة

وفى ذلك الحين غادر محمد افندى سعيد (ديوان افندى) السودان إلى القاهرة وعين حاكماً فى الحجاز وخلفه على حكمدارية واد مدنى الحاج أحمد القوللى

وجعل الدفتردار مقر حكمه فى أم درمان ، ودان إليه الشكرية فأقطعهم الأراضى الفسيحة ليرعوا فيها مواشيهم . وبعد مدة انتقل الجند من سنار إلى أم درمان حيث شيدوا فيها قلعة . وتم إنشاء نقطة للجمارك فى دوكة وعين عليها كاشف ومعه ٤٠ جندياً فى الطريق من سنار إلى كوندار ، ونقطة أخرى فى خور رجب على نهر العطبرة . وعين عيلة شيخاً لبلاد التاكة وأقام فى طولوز (جبل كسلا) .

الجيش النظامى المصرى

فى حاميات السودان

إذا تطلعنا إلى محمد على ، فى ذياك الوقت ، ألفيناه منهمكاً فى إعداد الجيش النظامى الحديث . وقد ارتأى من الأوفق أن يبعث إلى السودان ببعض آلايات هذا الجيش بدلا من استخدام الجنود السودانيين الذين يستبقون فى للخدمة فى حاميات مصر أو إرسالهم إلى المورة وكانت تلك الحملة فى أهم أدوارها .

وتحقيقاً لهذه الغاية ، وصل عثمان بك الكريتلى فى ٢٦ فبراير ١٨٢٤ إلى أسوان ليتسلم قيادة الجيش المصرى الموفد إلى السودان ، وصدر أمر تعيينه فى الثانى عشر من شهر إبريل على رأس الالآى الخامس الجديد .

وقد استبق تقدم هذا الجيش ، إيفاد بعثة فرنسية علمية برئاسة دكتور كونيج ، الذى وصل إلى حلفا فى ٢ فبراير ، فى طريقه إلى الأبيض عن طريق الدبة [١]

وفى شهر مارس ، سافر الآلاى المصرى عن طريق النيل ، من أسوان إلى الجنوب ، لكى يضطلع بالأعباء التى عهدت إليه .

ولكن حدث فى تلك الآونة ، أن شبت ثورة دينية فى أقاصى الصعيد

---

(١) هذا العالم صار رائدا لسعيد باشا والى مصر فيما بعد

أشعل نارها الشيخ أحمد الإدريسى (الإسناوى) ، وبلغ من خطورتها أن انضوى لواؤها على أربعين ألفا من السكان ، الشىء الذى أحاط مركز الدفتردار بقساوة الحرج ، وهدد قاعدة الجيش فى أسوان بانقطاع المواصلات .

وكان الدكتور روبيل (Dr. Ruppell) يعالج رسم خريطة فى جنوب أمبيجول ، فأمره الدفتردار ، فى الثالث من مايو ، بالعودة إلى الشمال ، حرصاً على حياته من أن تتعرض للخطر .

وخيل للثوار أن يصنعوا شيئا ، يرفع من قدرهم قبالة أنصارهم ، ويبسط من سلطانهم تحت أنظار أهليهم : فألفوا حلقة الحصار حول مدير جرجا ، الذى أرسل يستنجد بعثمان بك الكريتلى فى أسوان — ولم يغادرها حتى تخلى عن قيادته ٧٠٠ جندى . ومن حسن الحظ أن لحقه بسرعة أحمد باشا طاهر على رأس قوة من الخيالة الأتراك وقوة من رجال المدفعية وحوصرت منطقة الثوار وقامت المدفعية بنصيب وافر من النجاح .

وتمرد بقية أفراد الآلاى الخامس (٢٠ مارس) المعسكرين فى أسوان ، بيد أن الضباط استطاعوا أن يكبحوا حماهم ، ويقضوا على ثورتهم فى مهدها . وقادوهم صوب الشمال (قنا وجرجا) لمحاصرة الإدريسى وأتباعه . وشبت معركة دموية بين هؤلاء الجنود والثائرين ، انتهت بتغلب الأولين على الآخرين .

وفى الثانى من أبريل وصلت أورطتان جديدتان من بنى عدى (منقباد) لتعزيز القوات الماثلة هناك للضرب على أيدى العابثين بالأمن والخارجين على القانون . وبانضمامهما إلى عثمان بك هزموا الثائرين فى عدة معارك ، انفضت على تحملهم سبعة آلاف قتيل ، وخمود أوار الفتنة .

وفى هذا المجال ، يتعين ألا ينسينا القضاء على الثورة الناشبة ، أن نذكر أنه لما تمرد جنود عثمان بك كتب إليه محمد على ناصحا بأن يسوس رجاله قدر استطاعته ولا يتعجرف فى معاملتهم قائلا له .

« ألا فليكن فى علمك أن الرجل المتغطرس الأنانى والمعجب بنفسه لا يسود فى الدنيا ولا ينجح » .

وفى ١٠ يونيه غادر عثمان بك أسوان على رأس قوات المشاة المصريين ، وساروا بمحاذاة شاطىء النيل الشرقى وبلغوا دنقلة فى ١٢ أغسطس ، حيث توقفوا بعض الشىء لالتحامهم بقوة من الأعراب إلى جنوبيها ، ومن ثم واصلوا المسير حتى بلغوا الخرطوم فى ١٦ سبتمبر ١٨٢٤ .

وبسبب الثورة الآنفة ، تأخر رحيل إبراهيم باشا إلى المورة إلى الثانى والعشرين من شهر يوليه ، وكان بين قواته وحدات سودانية عاد معظمها من جراء شدة البرد عليهم وقد هلك منهم أفراد عديدون فى اليونان .

عودة الدفتردار إلى مصر

وفى أوائل أكتوبر ١٨٢٤ ، سلم الدفتردار الجيش وحكمدارية السودان إلى عثمان بك ، وعاد إلى مصر يصحبه الشيخ سيد أحمد السلاوى وكذلك الألبانيون والأرانطة . وتسلم أعمال منصبه كحاكم على الصعيد وكان مقره فى أسيوط . ثم أرسل معظم الجنود الألبان إلى كريت واستقرت البقية ضمن حامية القلعة .

وبقى فى السودان حوالى الألف فارس تركى ، كما ستبقيت عدة حاميات فى طائفة من بلاد السودان .

وفى ١٥ ديسمبر عام ١٨٢٤ ، صدر الأمر العسكرى بتعيين عثمان بك سر عسكر وحكمداراً لعموم السودان .

وبذا تنتهى القصة العسكرية لفتح جنوب الوادى .

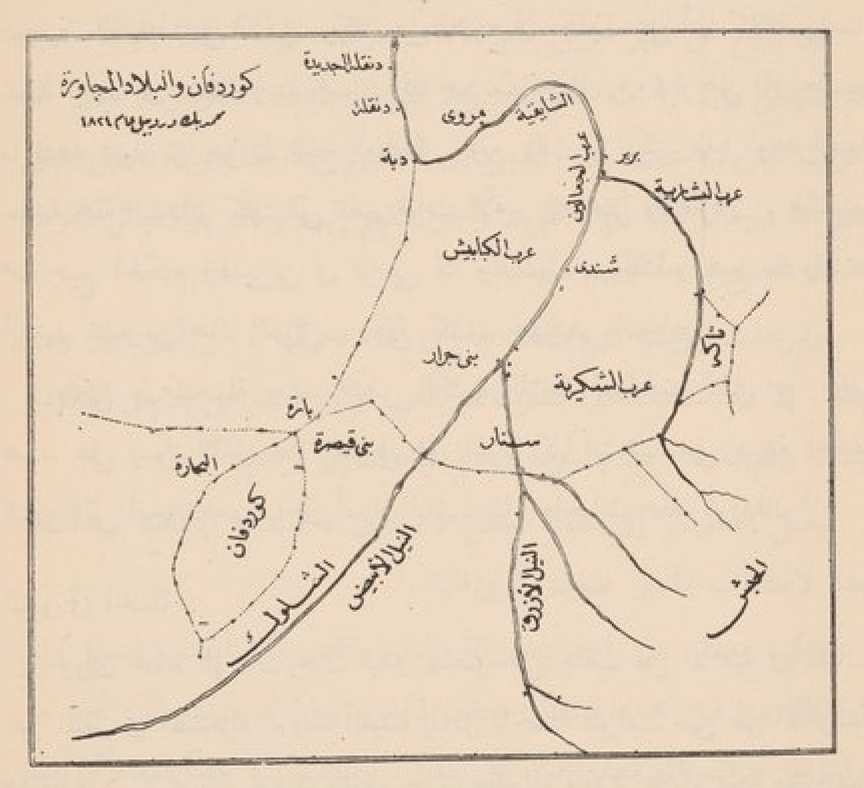
العودة الى حملة كوردفان

ترتيبات الحملة :

ذكرنا فيما سبق كيف شمل تفكير « محمد على » فتح السودان بأسره وضم أقاليمه الفسيحة إلى الوطن الكبير ، ويلوح لنا مما كتبه هذا الرجل الوسيع الأفق إلى كتخداه فى التاسع عشر من أغسطس عام ١٨٢٠ عظيم أهتمامه ووافر

عنايته بالترتيبات التى تلزم لنجاح هذا المشروع العسكرى الذى لا يتسنى الإقدام عليه إلا بعد دراسة واستعداد [١] . الشىء الذى يدل على أن خطته كانت وليدة تمحيص وتفكير عميقين ...

أما برنامج الخطة فقد كان يقضى بإن لا تبدأ عمليات كوردفان إلا بعد الفراغ من فتح سنار ، ليستطيع الأمير إسماعيل معاونة الدفتردار ، صهر



محمد على ، برجاله وعتاده . كما كان اهتمام رجال القاهرة منصرفا قبل كل شىء إلى تخزين المؤن والتعيينات التى تحتاج إليها الخيول والجمال فضلا عما يتطلبها الجنود ، والوثائق التى تزيح الستار عن تلك الترتيبات كثيرة تفيض بها دار المحفوظات التاريخية بقصر عابدين [٢] .

---

(١) معية تركى سجل رقم ٥ وثيقة ٣٣١ من محمد على إلى البك كتخدا بتاريخ ١٩ أغسطس عام ١٨٢٠ ووثيقة رقم ٩٦ من محمد إلى إسماعيل باشا بتاريخ ٢ نوفبر ١٨٢٠

(٢) معية تركى سجل رقم ٦ أمر عال لإبراهيم باشا بتاريخ ٦ و٨ نوفبر ١٨٢٠ ووثيقة رقم ٥٢ بالسجل المذكور بتاريخ ١٨ نوفبر ١٨٢٠

وكان مما عنى به الوالى بناء اسطول نهرى لنقل الجند والعتاد فضلا عن حشد جميع السفن التى يمكن استخدامها للحملة . سواء ما كان منها فى ترعة المحمودية بالقرب من العطف أو ساحل بولاق . وكانت مهمة هذا الأسطول النهرى غير عادية إذ عليها تتوقف عمليات التموين من أسوان إلى وادى حلفا ومنها إلى كورتى

كما أنه لجأ إلى استخدام الطريق البرى من وادى حلفا بمحاذاة النيل لتخفيف الضغط على السفن . وكان من اللازم أن يكلف على أغا كاشف إسنا بحشد الجمال فى منطقة إسنا وأسوان وقد جمع منها حوالى ١٤٠٠ جمل إلى جانب ما قدمه عبيد بن جوران شيخ العبابدة . ومع ذلك فلم يكن هذا العدد ليسد حاجة حملة السودان كلها التى تضم قوات الأمير إسماعيل والدفتردار ، فبذلت همة جميع الحكام والمديرين فى نواحى قنا والقصير ، وحشدوا جميع ما وقعت أيديهم عليه من جمال القبائل ، حتى كللت جهودهم بالنجاح .

ولكى يتم للحملة حشد السفن الكثيرة اللازمة لعمليات النقل ، أوفد محمد على رسوله المعلم حنا الطويل إلى النوبة كيما يشرف على سرعة إعادة السفن التى انجزت مهمتها إلى أسوان لمباشرة نقل حاجيات حملة كوردفان [١].

البدو فى الحملة :

ورأى محمد على أن رجال البدو عنصر على جانب من الأهمية فى القتال غير المنظم فى الصحراء ، ولذا ألفيناه يلحق بالحملة طوائف شتى من الأعراب فى طليعتهم : عربان غيدان وعرب حربى وخيرالله وأولاد على بزعمامة مشايخهم وثلاثمائة من العبابدة المعروفين فى قنا .

ومن الرجال الذين انضموا إلى الحملة بأمر محمد على : عبد الحليم أغا دليل باشى ، وأحمد أغا الأزميرلى والشيخ بدر الدين من أعيان بندر إسنا [٢].

أعمال التموين :

ومع أن الدفتردار لحق بمعسكر الحملة فى ٢٠ يناير ١٨٢٣ ، فإنه لم يصل

---

(١) معية تركى سجل رقم ٧ وثيقة ١٦٨ من محمد على إلى البك الدفتردار بتاريخ ٤ أبريل ١٨٢١

(٢) معية تركى سجل رقم ٦ وثيقة ١٤٦ من الباشا إلى كاشف إسنا بتاريخ ٢٠ يناير ١٨٢١

إلى إسنا إلا فى يوم ٢٨ مارس [١] وكان أحمد باشا متصرف جرجا قد عزم على شحن السفن بالحبوب اللازمة بالجنود لنقلها إلى دنقلة . وبعودتها إلى أسوان بحملتها حوالى الألف جمل وعتاد الجنود — وقد عمل « حنا الطويل » على إعادة السفن الفارغة من دنقلة . وبدأ يشون الحبوب والمؤن الضرورية للحملة فى تلك المدينة كما فعل أيضا عابدى كاشف بك حاكم دنقلة .

وفى الرابع من شهر أبريل عام ١٨٢١ تحركت طليعة الحملة بقيادة حسين أغا الدرمللى وفى ٢٦ منه تحركت بقية القوات بقيادة الدفتردار . وعلى أثره تحركت العربان متجهة نحو الغرب وفى أعقابهم المغاربة فخيالة الدليل باشى حليم أغا ورجال قبيلة أولاد على . وأخيرا انضم إليهم رجال بقية قبائل العربان بعد أن دفعت لهم مكافآتهم سلفا .

ولم يحدث للحملة أى حادث هام فى أثناء تحركها ، من أسوان إلى وادى حلفا ، إلا فقد سفينة ذخيرة بالقرب من الدر . وكان محمد على يلاحق الدفتردار برسائله وتعليماته يحثه فيها بالسرعة وعدم الإخلاد إلى الراحة [٢] .

وصل الدفتردار إلى دنقلة وجعل « خندق » قاعدته الأمامية وبدأ يعد العدة لاستئناف المسير صوب كوردفان .

ولكى يعمل على اجتناب إراقة الدماء كتب إلى المقدوم مسلم وإلى كوردفان من قبل محمد الفضل سلطان دارفور يبين له مهمته التى أوفد من جرائها من طرف والى مصر محمد على باشا ، ويطلب إليه حقناً للدماء أن يسلم له البلاد ، فرد عليه المقدوم برسالة طويلة أبى فيها التسليم ، وذلك بعد مشاورته لزعماء البلاد .

---

(١) معية تركى سجل رقم ٧ وثيقة ١٢١ من محمد على إلى إسماعيل فى ٢٥ يناير ١٨٢١
معية تركى سجل رقم ٦ وثيقة ٣٢٥ من محمد على إلى متصرف جرجا فى ٨ أبريل ١٨٢١

(٢) معية تركي سجل رقم ٧ وثيقة ٢٠٦ من محمد على إلى سر عسكر كوردفان بتاريخ ٢٨ مايو ١٨٢١

جيش الدفتردار

اعتزم الدفتردار مبارحة « خندق » إلى « الدبة » بعد أن هيأ كل قواته للمعارك المنتظرة عقب تجمعها وتنظيمها وإعادة تشكيلها للقتال .

وقد ذكر « بروشى »[١] أن جيش الدفتردار كان يضم حوالى ثلاثة آلاف جندى من المشاة والخيالة وثلاثة عشر مدفعاً مختلفا توزيعها كالآتى :

٨٠٠ خيال من العربان

٢٥٠ مشاة مغربى

٤٠٠ مشاة البانى

٤٠٠ خيال دلاة

٢٥٠ مدفعى أكبرها عيار ١٨ سنتى وهاون[١] .

٢٠٠ خيالة عربان العبايدة

٧٠٠ خيالة متنوعة

وكان يتبع هذا الجيش عدد وفير من الخدم والعبيد أكثرهم يعملون فى خدمة الضباط .

أما قائد الحملة « محمد بك الدفتردار » فقد كان فى حوالى الخمسين من عمره . مهيب الطلعة ، قوى الجسم ، متزن التكفير ، حكيم الرأى ، خبيرا بالرجال ، واسع الأفق . يميل إلى مطالعة أسفار الجغرافيا والبحث فى الخرائط أضف إلى ذلك أنه كان يستحوذ على ثقة محمد على إلى مدى بعيد .

وصحبه فى السفر الدكتور ماروشى البدمونتى الذى سبق له أن عاش طويلا فى مدينة أسيوط حيث أدار الدفتردار دفة الصعيد .

وصل الدفتردار إلى الدبة وأقام بها بعض الوقت ريثما يعود دليله الذى أوفده

---

(١) ذكر بلانا أن عدد قوات المدفعية ١٥٠ فقط. وذكر نعوم شقير أن عدد المدافع كان عشرة فحسب .

لاستكشاف طريق الصحراء المؤدى إلى جبل حراز . ولكن حدث أن اكتشف الأهالى مهمة هذا الرسول وحاولوا إلقاء القبض عليه ولكن عبثا ما حاولوا فقد أستطاع أن يعود مسرعا إلى سمرية . وإزاء ذلك اتصل شيخ البلاد بالمقدوم ونبأه بأن الدفتردار قادم على غزو البلاد .

فى ذينك الوقت . كان قد وصل عابدى بك إلى دنقلة وعين حاكما عليها لما عرف فيه من كفاية وقوة شكيمة .

وصدر أمر الباشا بتعيين « إبراهيم باشا » قائداً لجيش السودان فى ١٣ أغسطس ١٨٢١ وما وصلت تلك الأنباء إلى الدفتردار حتى تقدم إلى كوردفان فى حوالى الخامس من شهر أغسطس .

معركة بارة (أغسطس ١٨٢١)

فى أواخر يوليو ، غادر الدفتردار قاعدته فى « الدبة » ، ولم تمض عدة أيام من أوائل أغسطس حتى كان قد أوغل فى الصحراء الفسيحة ، واتجه الجيش فى مستهل الأمر صوب الجنوب ، وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصل إلى سمرية ، حيث عسكر بجوار نبع من الماء العذب ، ثم مرت الحملة بناسبوسان فجبل حرازة . حيث قاسى الجنود والحيوان عذاب الحر ولهيب العطش ، مما كان له أشد الأثر على صحة الدفتردار . فحمل على محفة يحملها جملان بحراسة رجاله الأشداء .

وكانت المفاجأة تامة لشيخ حرازة ، عبد الهادى ، فقد وصلت طلائع الدفتردار إلى بلاده ولم يتأهب بعد لملاقاتها ، لكنه أسرع فى إيفاد رسول يحمل نبأ وصول المصريين إلى الحرازة لكى يعد نفسه ويصد تقدمهم وهم فى أشد حالات الإعياء والتعب والمرض ، بيد أنه لم يفعل معتمدا على قوته ، وضاعت منه الفرصة بعد اجتياز المصريين الحرازة .

وبعد ساعات ، وصل الجيش كاجحر ، وإلى جانب نبع مالحة استراح

الجيش الهوينى من وعثاء الطريق ثم أسترسل فى المسير نحو بارة .

وأخيرا اجتمع فى الأبيض مجلس من زعماء كوردفان وفقهائها برئاسة السلطان وقرروا مقاومة الحملة بكل ما فى وسعهم من قوة وعتاد .

وخرج السلطان فى مساء يوم ١٥ أغسطس للصراع والقتال . وكان جيشه مؤلفا على النسق التالى :

٨٠٠٠ مشاة .

١٢٠٠ فارس .

٢٠٠ مدرعون بالزرد .

وفى الغد كان المقدوم قد بلغ قرية بارة وعسكر بقواته تحت سفح القرية ، بينما تجمعت حملة الدفتردار على مسافة ربع ساعة شمال بارة .

ومن ثم تلاقى الجيشان فى باره فى نفس الوقت . فقابل المصريون قوة من الدرفوريين تبلغ أربعمائة فارس تصحبهم قوة كبيرة من المشاة والعبيد مصطفين فى تشكيل قتال رائع ! ... كان الفرسان يرتدون قمصان الزرد وعلى رءوسهم خوذات الصلب ، واحتموا بالدروع الحديدية لوقاية الصدر والرقبة والذراعين . أما الجياد فقد كست ظهورها بالزرد المبطن بالقطن ولاحت أعنتهم تلتمع من السلاسل الدقيقة . وكان سلاح الفرسان السيف الثقيل المستقيم طراز سيوف الصلبين والبلط . وأما أسلحة المشاة فكانت الحراب والدروع والمدى والقسى والسهام .

المعركة :

استهل الجنود الترك المعركة بإطلاق نيران المدفعية وهم على مدى قصير من العدو ، فهجم عليهم الخط الأول للدارفوريين فقتل بعض المدفعيين فى الحال ، واهتزت صفوف المشاة، واستهدف أحد المدافع للعطب على أثر أن دمره العدو تماما .

أما قائد الحملة ، محمد بك الدفتردار ، فبالرغم من مرضه المبرح فقد

كان ممتطيا ظهر جواده يتنقل فى خلال أرض المعركة ، يشجع جنده على التقدم والالتحام بالعدو والفتك به ، بينما كانت نيران مدفعيته تدك صفوف الدارفوريين . ولم يحدث التحام بطعنات السونكى نظرا لخلو البنادق منها .

الفرسان الأتراك :

وتأتى دور الفرسان فاستدعوا للمعركة . وكان حسن بك القبرصلى على رأس جناح المشاة بينما كان الدفتردار فى طليعة الجناح الآخر . فاندفعوا بقوة فى صف واحد على العدو . فالتحم الحشدان يدا بيد وكان خيالة الأتراك يقذفون نيران طبنجاتهم بدون حساب . وقتل حسن بك بسيف إبراهيم ود عايا .

قاوم العدو مقاومة عنيفة لرد قواتنا ، وظل النضال حاميا بين الفريقين ، ولم تقرر نتيجة المعركة الختامية ، إلى أن قتل المقدوم بطلقة أصابها شيخ الجهيماب ، حيث انطلق الذعر يدب دبيبه فى صفوف الدارفوريين ثم كان فرارهم ...

إلا أن نسوة المقاتلين وحشد من الأتباع كانوا ينهرون الهاربين بينما مسكوا بأسلحة القتلى أو الجرحى واندفعوا إلى ميدان المعركة . فصوبت المدفعية نيرانها المتأججة نحوهم وكذلك نيران الأسلحة الصغيرة فاكتسحت الميدان وهكذا اكتسب النصر ولم يفقد سوى مائتى قتيل .

ولم يعثر على جثة المقدوم فقد هرستها أرجل الخيل ؛ واحتلت بارة ثم نهبت وذبح جمع من الأهالى وفر مليك طايما ود سلطان مع اثنين وعشرين من الأمراء إلى دارفور وأودعوا السجون .

ولما وصلت أنباء سقوط بارة إلى الأبيض ، نهبت المدينة الدناجلية والجوديات ودمروا معظم الدور وأشاعوا فيها الخراب .

ثم تقدم الدفتردار واحتل الأبيض فى ١٩ سبتمبر عام ١٨٢١ وعين الحاج عنبر المكى شيخا للبلاد — فلما وجد الدفتردار ما حل بالبلاد من جراء عبث الدناجلة وأعوانهم ، أمر بأن يدفعوا غرامه مقدارها ٢٥٠٠ جنيه . وأسر الشيخ

عبد الهادى وحكم عليه الدفتردار بالتعذيب ثم خفف الحكم عليه .

وبدأ الزعماء يصلون جماعات جماعات ويقدمون فروض الخضوع والولاء للفاتح محمد الدفتردار ومن هؤلاء :

منوفل محمد ، اسماعيل بن الحاج متايم (دارقمر) عبد الحميد أكوى ، فضل الله محمد من الكبابيش .

واستطاع تايمه بن محمد الفرار من دارفور والقدوم إلى الدفتردار الذى عينه شيخا للكونجرة .

ومن ثم أعيد النظام إلى نصابه ، وانطلق الضباط يبسطون الأمن ، وأنذر الجنود والأهالى بأن لا يعتدوا أو ينهبوا ما حرم الله الاعتداء عليه أو نهبه ، وأجريت عقوبات شديدة على المفسدين ، وبدئ فى تجنيد الصالحين من الرجال فى صفوف الجيش الفاتح .

وصدر أمر بتعيين محمد الدفتردار حاكما على كوردفان فى الثامن عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٢١ وأصبح مسئولا شخصيا مباشرة قبالة الباشا .

وفى ٣٠ أكتوبر وصلت أنباء فتح كوردفان إلى القاهرة ، فسر محمد على أيما سرور ، وبادر بإرسال التهنئة إلى الدفتردار [١] .



(١) معية تركى سجل رقم ١٠ وثيقة ٢٢ من محمد على إلى الدفتردار بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٢١ وأيضا
معية تركى سجل رقم ٠ وثيقة ٢٣ من محمد على إلى الدفتردار بتاريخ ٣٠ أكتوبر ١٨٢١

ملاحق الفصل

١ – طبيعة السودان

فى شمال شرقى القارة الإفريقية يقع وادى النيل : مصر فى جزئه الشمالى ، والسودان فى جزئه الجنوبى . فهما إقليم واحد يتم أحدهما الآخر منذ القدم .

ويغطى السودان مساحة كبيرة من أحواض نهر النيجر فى الغرب ، وشاد فى الوسط ، والنيل فى الشرق . أوكما يعرفه بعض الجغرافيين بالسودان الغربى والأوسط والشرقى .

والسودان الشرقى هو الذى عرف بأسم السودان المصرى لأنه امتداد مصر . تبلغ مساحته ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع بما فى ذلك جزء من الحبشة الغربية ومنطقة المنابع النيلية جنوبى فاشودة .

ويحتضن السودان الذى عرف فى أيام محمد على مملكة سنار الوسيعة بمشيخاتها وممالكها العديدة – وكانت يطلق عليها قديما جزيرة مروى – ثم كوردفان ، ودارفور .

وكان شعب السودان كما هو اليوم يعيش على الزراعة البدائية بالقرب من الأنهر ويعتمد أيضا فى معيشته على صيد الأسماك أو قنص الحيوان أو غزو القبائل المجاورة ليسلب العبيد . وقد ازدهرت فى السودان تجارة الرقيق منذ عهد بعيد ، فقد كان مصدرا للعبيد الذين تقذف بهم إلى أوربا وآسيا إلى القارة الجديدة ، لخدمة الحقول أو الدور أو السفن .

النوبة

تمتد النوبة من الشلال الأول جنوبى أسوان إلى بربر عند الشلال الخامس تقريبا ، وهى مسافة طولها ١٠٠٠ كيلومتر .

وكانت تنقسم النوبة ، من حيث طبوغرافيتها بل من الوجهة السياسية ، إلى ثلاثة أقسام : النوبة السفلى ، ومملكة دنقلة ، ومملكة الشايقية . أما الأولى فكانت تشغل البلاد التى تقع فى جنوبى أسوان إلى جزيرة سارى وكانت تدخل فى نفوذ والى مصر الذى يقرر الجزية على أهلها . وقد تقدمت الحملة فى هذا الجزء بدون أن تقابلها أية مقاومة كما رأينا .

دنقلة

وكان يسكن دنقلة قوم فقراء ضعاف يعيشون حياة بدائية . لجأ إليها المماليك عام ١٨١١ عقب المذبحة المعروفة فاضطهدوا الأهالى وأشبعوهم فقرا وبؤسا .

أما الجزء الأخير من النوبة ، والذى يسكنه عرب الشايقية ، فكان عبارة عن اتحادات قبلية من العشائر والبطون (Confederation) نقول اتحادات بيد أنها فى الواقع كثيرة التطاحن فيما بينها ، لا تقف المعارك الناشبة بين جوانحها إلا فيما ندر . وكان الشايقية هم العنصر الحاكم والرئيسى فى هذه الاتحادات ، وهم قوم محاربون شجعان ألفاهم الأمير إسماعيل عدوا صلبا عنيدا لا تلين قناته بسهولة . خضعوا فيما سلف لملوك سنار ولكنهم كسبوا استقلالهم بحق .

ولقد امتد نفوذ الشايقية فيما بين كورتى والشلال الخامس إلا أنهم استطاعوا أن يتوسعوا نحو الشمال ووصلوا إلى وادى حلفا ، ولكن باستيطان المماليك دنقلة رأوا الأفضل أن ينسحبوا إلى كورتى .

كان عرب الشايقية شجعان أقوياء وفرسان مهرة . استطاعوا أن يحشدوا خمسة آلاف مقاتل على ظهور الجياد والهجن وبضعة آلاف أخرى من المشاة . أما أسلحتهم فكانت بدائية ، من السلاح الأبيض والقسى وإن كنت ترى فى أيدى قلة منهم بعض البنادق القديمة ذات الشطف ، واستخدمت قلة أخرى الزرد يقيهم من شر الطعنات أو الطلقات الباردة .

ولا ننسى أن نذكر أن قوة المماليك المحاربة فى دنقلة كانت لا تتجاوز الثلاثمائة .

٢ – مملكة سنار

كانت مملكة سنار تقع بين النيلين الأبيض والأزرق . اعتنق أهلها الديانة المسيحية إلى أن اتحد ملوك الفونج [١] مع العرب وأسسوا مملكة سنار حوالى عام ١٥٠٥ . وقد امتدت هذه المملكة من الشلال الثالث إلى أقصى جبل فازوغلى فى الجنوب . ومن ثغر سواكن إلى النيل الإبيض غربا .

وكانت سنار منقسمة إلى عدة ممالك ومشيخات من سود ونوبة وعرب حضر وبادية ، وكان كل ملك أو شيخ يدفع الجزية لملك سنار إلا أن له نوعا من الاستقلال .

وأما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الأول فقد كانت واقعة فى حوزة الكشاف الأتراك .

بدأ تاريخ الفونج فى سنار كما قلنا فى عام ١٥٠٥ واستمروا إلى عام ١٨٢١ لما فتح الأمير إسماعيل بلادهم وادمجها فى ولاية مصر ، ومن ملوكها القدامى :

الملك عمارة دنقس (١٥٠٥ – ١٥٣٤) العربى المسلم – ثم تبعه ملوك كثيرون بلغ عددهم ٢٨ ملكا . وفى قول آخر ٢٧ [٢].

---

(١) هناك آراء فى أصل الفونج ، يقول الرأي الأول أنهم فرع من الشلوك ويقول الثانى أنهم من سكان دارفور أما الرأي الثالث فيذهب إلى أنهم من بنى أمية

(٢) نعوم شقير — تاريخ السودان — جـ ٢ ص ٩٦

ولما جاء سنار الفتح المصرى كان الملك قد فقد عزه ومجده وانقسمت سنار إلى عدة ممالك ومشيخات . نذكر منها :

مشيخة العابدلاب وكان نفوذها يمتد من أربجى إلى الشلال الثالث . وكان آخر مشايخها ناصر ود عجيب الذى عزله الأمير إسماعيل فى مايو ١٨٢١ .

ومشيخة خشم البحر ورقعتها بين شرق النيل الأزرق بين رنقة والرصيرص ومركزها رنقة .

ومملكة فازوغلى وامتدت من الرصيرص إلى فداسى وعاصمتها فازوغلى وقد أخضعت فى يناير ١٨٢٢ وكان ملكها حسن بن مطر الذى عزله الأمير إسماعيل .

ومشيخة الحمدة ومركزها دبركى وامتدت شرق مشيخة الكماتير .

ومملكة بنى عامر التى قامت فى الصحراء الشرقية من البحر الأحمر وخور بركة شرقا وغربا ، وبين عتيق على البحر الأحمر وبلاد الحبشة شمالا وجنوبا .

ومملكة الحلانقاه ومركزها جبل كسلا وكانت تتبع التاكا إلى عام ١٨٤٠ عندما ضمت إلى ولاية مصر .

وكانت تربط مصر وسنار علاقات تجارية ، وكان يحمل التجار المصريون أخبار هذه البلاد فنقل إلى أسماع الوالى وبذلك وقف على أحوالها ، ولكى يستوثق من حقيقة ما يصل إليه أرسل فى عام ١٨١٢ وفدا إلى ملك سنار لاستطلاع أحوال بلاده وإن كان الغرض فى الظاهر تحريض هذا الملك على طرد المماليك الذين لجأوا إليه وقد تبادل الباشا والملك الهدايا النفيسة ، ثم عاد الوفد بتقرير قوىّ عزمه على فتح سنار [١] . وجاء أيضا الملك نصر الدين ملك الميرناب ببربر إلى مصر وشرح للباشا حال سنار وما آلت إليه من الضعف والانحلال كما وصل إليه أيضا زعيم من عائلة الزبيرة المالكة فى أرقو وأخبره بحال دنقلة وعبث المماليك فيها .

وهكذا نرى أن محمدا عليا عندما أقدم على فتح سنار مهد له بالاتصالات وكشف الأحوال عنها .

---

(١) نعوم شقير — ج ٣ ص ٣

٣ ـ سكان السودان

ويجمل بنا أن نلم باختصار بالأجناس المختلفة لسكان السودان . فإن هؤلاء تضمهم شعوب متباينة تجمعهم خمسة أصول هامة وهى : السود وشبه السود والبجة والنوبة والعرب وقليل من المولدين والأجانب .

والسود أو الزنج هم سكان أفريقيا الأصليون ويسكنون فى أعالى النيلين الأبيض والأزرق من بلاد السودان وينقسمون إلى قبائل شتى وكلهم ما زالوا على الفطرة الأصلية .

وشبه السود (Ne g·oids) معظمهم سكان دارفور ووداى وكانم وباجرمى وبرنو وسكوتو وملى (السودان الغربى) وهم أرقى حضارة من السود — وهؤلاء ينقسمون أيضا إلى قبائل متنوعة .

أما البجة أو البجاة فهم سكان بادية الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ومن بقايا الشعوب التى تألفت منها مملكة أثوبيا القديمة وينقسمون إلى عدة قبائل أظهرها : العبابدة والمليكاب والعبودين والبشارين أو البشارية والأمرار والهدندوه أقوى قبائل البجة وأوفرهم عدداً ويسكنون الصحراء الواقعة بين خور بركة والعطبرة وطريق بربر وسواكن والحلانقاه ومركزهم كسلا — وبنو عامر ويسكنون شرق خور بركة والحبلى وهم فى شرق بنى عامر .

وسكان النوبة ينحصرون فى وادى النيل بين الشلال الأول والرابع وهم خليط من ثلاثة أجناس : النوبة الأصليون والعرب والأتراك . فالنوبة كالبجة من بقايا شعوب أثيوبيا القديمة ، والعرب استوطنوا البلاد بعد الإسلام وهم القسم الأكبر ، أما الاتراك فقد استوطنوا النوبة بعد فتح السلطان سليم الأول سنة ١٥٢٠ .

ويعرف النوبيون أيضا بأسماء بلادهم التى يقطنونها : كالدناقلة سكان النيل بين الشلالين الثالث والرابع ، والمحس وبلادهم بين الشلال الثالث وجبل دوشه ،

وأهل سكوت ويسكنون بين جبل دوشه والشلال الثانى عند حلفا ، وأهل حلفا والدر والكنوز .

أما العرب فهم معظم سكان السودان وأكرمهم أصلا وأرقاهم حضارة وهم إما حضر أو بادية وأشهر قبائل العرب على النيل .

الشايقية وينقسمون إلى عدة بطون أهمها العادلاناب والسواراب والحينكاب والعماراب وهؤلاء دافعوا عن بلادهم دفاعا حارا . والمناصير الذين يقطنون بين الشلال الرابع وأبى حمد وينقسمون إلى خمس بطون كبيرة . والرباطاب ويعيشون فى جنوبى المناصير . والميرفاب ومركزهم بربر والجعليون إلى جنوبيهم والجميعاب ويسكنون النيل بين عقبة قرى والشيخ الطيب ومنهم الزبير باشا المعروف . والسروراب إلى جنوبى الجميعاب . والعابدلاب ومركزهم الحلفاية تجاه الخرطوم وقد سموا بالعابدلاب نسبة إلى كبيرهم عبدالله جماع الذى أسس مملكة سنار مع الفونج .

وأشهر قبائل العرب على النيلين الأبيض والأزرق والجزيرة : الحموعية والحسنات ودغيم وكنانة والرفاعيون والمسلمية والقواسمة والعلاطيون والزبالعة والفونج الذين أسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب .

وأشهر قبائل العرب البادية : الشكرية وهم قبيلة كبيرة قوية ولهم مراكز شتى ، والبطاحين ويقطنون شمال الشكرية والضباينة والحمران . ولقبائل العرب فى صحراء البيوضة قبائل شتى كما لهم فى كوردفان .

هذا ويراد بالأجانب : هؤلاء الذين هاجروا إلى السودان من مصر وغيرها ولم يفقدوا جنسياتهم ولغاتهم .

والمولدون هم الذين تولدوا من اختلاط تلك الأجناس المختلفة ببعضها البعض ولا سيما اختلاط العرب والسود .

٤ — الممالك والمشيخات التى خضعت للفونج

بوساطة العابدلاب

مشيخة الشنابلة : قامت على النيل الأزرق شمالى سنار ومركزها المسلمية

الحموعية : امتدت فى غرب النيل الكبير والنيل الأبيض من عقبة قرى إلى الترعة الخضراء وكان مركزها القيزان وأقوى فروعها الجميعاب .

مملكة الجعليين : قامت فى شمال مشيخة العابدلاب على أنقاض مملكة مروى القديمة بين حجر العسل والدامر ومركزها شندى . وكانت مملكة قوية تولاها فرع من الجعليين يعرف بالسعدلاب — وقد اشتهر الجعليون بالفروسية ولهم وقائع كثيرة مع الفونج والشايقية والشكرية .

مملكة الميرفاب : فى شمالى الجعليين بين المقرن ووادى السنقير ومركزهم بربر — وقد اشتهر الميرفاب بالكرم والنباهة والشجاعة — وقد اتصل ملكهم بمحمد على باشا وحرضه على فتح سنار .

مملكة الرباطاب : أمتدت من وادى السنقير إلى الشامخية فيما وراء أبوحمد وكانوا فى حرب مستمرة مع الميرفاب .

مشيخة المناصير : امتدت من الشامخية إلى الشلال الرابع ومركزها السلامات

مملكة الشايقية : قامت على أطلال مملكة نبتة القديمة وامتدت من الشلال الرابع إلى أبى دوم ومركزها مروى .
وقام فى شماليها ممالك الدفار ودنقلة والخندق وارقو .
وقد اشتهر الشايقية بالشجاعة وحب الغزو وكانوا فى حروب دائمة مع ملوك النوبة .

مملكة الدفار : خربها الشايقية قبيل الفتح المصرى . ومركزها الدفار .

مملكة دنقلة العجوز : قامت على أنقاض مملكة نصارى النوبة واستمرت إلى أن خربها الشايقية قبيل الفتح المصرى .

مملكة الخندق : قامت فى حلة الخندق .

مملكة الخناق : مركزها حلة الخناق وكان ملوكها من ذرية الفونج .

مملكة أرقو : قامت فى جزيرة أرقو وهى أقصى الممالك التى خضعت للفونج من جهة الشمال . أما البلاد التى بينها وبين الشلال الأول فقد تولاها الكشاف الأتراك .

٥ ــ أحوال دارفور عند الفتح

تكاد تتفق أكثر أقوال المؤرخين على أن سلطة الفور من أصل عربى ــ هاجر إليها العرب المسلمون من مصر والحجاز وتونس واتخذوا وديانها سكنا لهم . وكان السلطان سليمان الأول (١٤٤٥ ــ ١٤٧٦) رأس سلاطين الفور أول من بنى مسجدا فى جبل مرة وأول من حاول جمع كلمة المسلمين فى مناحى دارفور حتى أصبحت السلطنة موحدة وظلت كذلك إلى يوم زوالها .

وقد كان السلطان محمد الفضل الملقب بقمر السلاطين (١٧٨٧ ــ ١٨٣٩) آخر من تولى حكم هذه البلاد .

وكانت كوردفان تدين إليه بالطاعة يحكمه من قبل السلطان ــ أمير اسمه المقدوم مسلم وهو الذى قاوم غزو الدفتردار فتغلب عليه وامتلك البلاد منه . وكان السلطان الفضل واجدا على المقدوم مسلم فلم ينصره . فلما علم بمقتله أرسل جيشا بقيادة أبى اللكيلك فهزم أيضا وعادت فلول القوات الفاشر .

عند ذلك خشى السلطان على دارفور وأخذ يحشد الرجال ويستكمل العدة محافظة على سلطنته ــ وكان له أخ يكرهه ويزاحمه على الملك يسمى أبا مدين ففر إلى مصر وأخذ يهون على محمد على فتح دارفور فأرسله محمد على إلى كوردفان للسعى مع مديرها فى ذلك . فبقى فى الأبيض إلى أن مات .

٦ـ حكمدارو السودان

من عام ١٨٢١ إلى عام ١٨٥٢

تقلب على حكم السودان بين عامى ١٨٢١و١٨٨٣ طائفة من الحكام ، كان يطلق على الواحد منهم لفظة « حكمدار » . وقد جرت على إيفادهم الواحد تلو الآخر لينهضوا بأسباب الحياة والتطور والمعرفة فى بقاع هذا الجزء الجنوبى من الوادى . بل ويبثوا فى مناحيه ما يعوزه من وسائل . وما يرتجيه من مطالب .

ومثل هؤلاء الرجال الذين كانوا يوما رسل الإنشاء والتعمير وحملة المشاعل ، يرتد إليهم – إلى مدى بعيد – ما بلغه السودان فى حاضره من مستوى ، وما يرتقب له فى غده من أمان .

ولعل أقل الوفاء لذكراهم التى حجبتها الأحداث ، أن نتناولهم بالحديث الذى لا يهدف من ورائه سوى الأذكار .

١ – إسماعيل باشا (١٣ يونيو ١٨٢١ إلى ٢٠ فبراير ١٨٢٣)

النجل الثالث لمحمد على الكبير من زوجته التركية كريمة حاكم قولة . وفد إلى مصر عقب أن استتب الأمر لأبيه ، الذى ولاه قيادة الحملة المصرية السودانية فى يونيو ١٨٢٠ . ولما وصل بفتوحه إلى سنار أصدر والده الأمر بأن يتولى حكم السودان . وبعد أن تابع السير إلى كوردفان عاد إلى شندى حيث لقى حتفه ، إثر مكيدة قيل إن مك نمر قد دبرها – وكان ذلك فى أكتوبر ١٨٢٢ .

٢ – محمد بك الإستانلى (٢٠ فبراير ١٨٢٣ إلى ١٤ يونيو ١٨٢٣)

المعروف بالدفتردار . نشأ فى الإستانة . كان من الموظفين الذين عينهم سلطان تركيا فى مصر . وقد أسند إليه محمد على الإشراف على أعمال الخزينة وجمع الضرائب . فلفت أنظار محمد على إليه لمهمته وكفاءته . وزوجه من ابنته الأميرة نازلى هانم – ثم صيّره حاكما للسودان إثر مقتل الأمير إسماعيل . فانتقم

من قتلته . وكاد الدفتردار يفقد حياته فى المتمة إثر تدبير لاغتياله . ثم ارتد إلى مصر ليستأنف عمله الأول فى المالية .

٣ — الأميرالاى عثمان بك جركس (١٥ ديسمبر ١٨٢٤ إلى ١١ مايو ١٨٢٥)

أضطلع فى البداية بقيادة الآلاى المصرى الأول الذى أرسل إلى السودان بعد تدريبه على النظام الحديث . ولكن تأخر سفر الآلاى لنشوب فتنة فى الصعيد انضم إليها بعض فئات الجند . ثم رحل على رأس خمس كتائب مشاة قوام الواحدة ثمانمائة جندى وتسلم أمر السودان من الدفتردار وجعل إقامته فى مدينة الخرطوم الجديدة وما لبث أن عاجلته المنية فى الخرطوم بداء الجدرى ودفن فيها — وتعرف مقبرته فى المكان الذى أطلق عليه « شجرة جوردون » وقد ترك خلفه ولدا اسمه أحمد وبنتا اسمها خديجة(١) .

ثم قسمت وظيفة حاكم السودان (الحكمدارية) بين محو بك حاكم بربر والزميل القديم لمحمد على باشا — وبين سليمان بك قائد الجنود فى السودان . وقد أطلق على وظيفة محو بك ناظر بلاد السودان . وكان يعتبر هذا الرجل أقدم من زميله — وقد بنى محو بك فى الخرطوم ديوانا للحكومة — وكان فى جنوبى العاصمة شجرة كبيرة عرفت باسمه .

٤ — اللواء على أغا خورشيد (٣١ أغسطس ١٨٢٦ — ٢ ديسمبر ١٨٣٨)

ابن شقيقة محمد على باشا — وقد تقلد زمام الحكم من محو بك على إثر استدعائه لمصر . نال رتبة البكوية ثم الباشوية . ومما يذكر أن مديرية كوردفان لم تكن خاضعة لإدارته . وكان يتولاها فى ذياك الوقت رستم بك خلفا لسليمان بك قائد الجند الآنف الذكر (الآلاى الأول) وكان اتصاله بالقاهرة مباشرة .

وقد نقل إلى مصر على إثر احتجاج الدول على غارات الجند فى السودان داخل الحبشة — وفى إحدى تلك الإغارات ، أضرمت النار فى مدينة جوندار .

---

(١) سجل ١٦ معية تركى — وقد ذكر نعوم شقير فى كتابه تاريخ السودان أن وفاته حدثت في منتصف شهر رمضان عام ١٢٤١ هـ

وفى أيامه ، عم الأمن بقاع السودان ، واحتلت القلابات واتسعت سوقها التجارية — وبنى مسجدا فى الخرطوم ، وشجع الأهالى على البناء بالطوب . وقد أنعم عليه برتبة اللواء فى سنة ١٨٣٤ . وفى العام التالى بنى جامعا فى سنار بأمر محمد على باشا — ثم سافر إلى مصر ولما عاد منها كان قد أنعم عليه برتبة الفريق .

٥ — الفريق أحمد باشا جركس (أبو ودان) من (١٣ ديسمبر ١٨٣٨ إلى ٢٥ أكتوبر ١٨٤٣) .

من أقدر حكمدارى السودان — كان من مماليك مصطفى بك شقيق زوج محمد على . ومقترن بإحدى بناته . ومما يذكر أنه رافق القائد إبراهيم فى الحملة الشامية واشتهر بشجاعته .

اشترك فى حروب الحجاز . ثم سافر على رأس آلاى من الجند لمعاونة الحاكم خورشيد باشا فى فتح الحبشة . وفى منتصف عام ١٨٣٨ ، حل محل خورشيد باشا لمرضه وظل إلى عام ١٨٤٣ . وفى عهده زار محمد على السودان . كما وافق سلطان تركيا على إعداد حملة لغزو دارفور ولكن لم ينفذ المشروع من جراء نشوب الحرب بين محمد على والباب العالى . وقيل إن أبا ودان كان على اتفاق مع الأتراك على مهاجمة حميه فى مصر ليفوز بولاية السودان نائبا عن السلطان

وفى أيام أبو ودان فتحت مديرية التاكا (كسلا) . وعرف حكمه فى السودان بحسن السياسة وبعد النظر . كما نظم العمل فى الدواوين ، وحسن حال الموظفين ، وعنى بأسباب الأمن ، ونبه على الجند بالترفق فى معاملة الأهالى .

ولما أمر أبو ودان بالعودة إلى مصر رفض مبارحة الخرطوم . وكان من جراء ذلك أن أرسل حرس للقبض عليه . بيد أنه توفى بالحمى وقيل مات بالسم الذى دسته إليه زوجه . وكانت وفاته فى رمضان عام ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣) وقد شيدت له زوجه مقبرة رائعة البناء فى الخرطوم .

٦ — أحمد باشا قوللى المنكلى (١٨ مارس ١٨٤٤ — ١٤ ديسمبر ١٨٤٥)

من قادة الجيش المصرى فى حروبه العديدة فى الشام وبلاد العرب فى أيام محمد على . وقد عين حاكما لإدنة . وحدث أن عاد على رأس بعض وحدات الجيش فى تقهقرها من الشام إثر تألب الدول على مصر عقب انتصارها على الترك فى معركة نزيب (١٨٣٩) .

ومما هو قمين بالذكر أنه شغل منصب ناظر الجهادية فى ذاك العهد .

ولاندرى على وجه التحقيق متى عين على رأس قوة من الجيش للاشتراك فى حملة الأستاذ « روسيجر » لكشف مناجم السودان وللقيام بمسح الأراضى . ولما عين حكمدارا على السودان قام بحملة تأديبية ضد قبائل الهدندوة وبعض عشائر كسلا . وعقب استدعائه لمصر شغل عدة وظائف ثم عين قائدا للحملة البرية الثانية التى أرسلها الوالى عباس باشا لمعاونة تركيا ضد روسيا فى حرب القرم . وارتد إلى مصر بعد فترة وجيزة بيد أنه عاد ثانية ليتقلد قيادة الجيش المصرى بعد وفاة الفريق سليم فتحى باشا .

وإذ تنقضى بضعة أشهر يصاب المنكلى بمرض شديد (روماتزم) ويضطر أن يطلب الإذن له بالارتداد إلى مصر — فأجابه سعيد باشا إلى رغبته فى ٢٧ سبتمبر عام ١٨٥٥ . وحل محله اللواء إسماعيل أبو جبل باشا . وقد أغمض الموت عينيه فى مارس ١٨٦٢ ودفن بمقبرته بالإمام الشافعى .

٧ — خالد باشا الإستانلى (١٤ دبسمبر ١٨٤٤ إلى ١٢ نوفمبر ١٨٤٩ م)

لم نقف على شئ من أعماله لكنه استدعى إلى مصر بسبب الشكاوى الكثيرة التى قدمت فى حقه .

٨ — عبد اللطيف باشا (١٣ نوفبر ١٨٤٩ إلى ١٤ يناير ١٨٥٢) .

جركسى الأصل . ومن أمراء الأسطول المصرى . حكم عليه بالإعدام بينما كان قبطان إحدى السفن وعفى عنه فى آخر لحظة إثر تدخل بعض الضباط الفرنسيين الذين تدرب على أيديهم . عين حاكما على الصعيد — وقد جدد ديوان الحكمدارية ، وأنشأ مدرسة أميرية كان يتولى نظارتها العالم المعروف رفاعة بك رافع الطهطاوى .

٧ – مراجع الفصل

ا – المراجع العربية

أمين سامى باشا .

تقويم النيل وعصر محمد على باشا .

إسماعيل سرهنك باشا .

حقائق الأخبار عن دول البحار .

عبد الرحمن الجبرتى .

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار – الجزء الرابع .

عبد الرحمن الرافعى .

تاريخ الحركة القومية فى مصر – الجزء الثانى .

فردريك بنولابك .

مصر والجغرافيا .

محمد فؤاد شكرى .

الحكم المصرى فى السودان (١٨٢٠ – ١٨٨٥) .

مكى شبيكة .

السودان فى قرن (١٨١٩ – ١٩١٩) .

نعوم شقير .

تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته .

ب ـ المراجع الأجنبية

M. FREDERIC CAILLAUD,
Voyage à Merwé au Fleuve Blanc, 1826;

DOUIN: Histoire du Soudan Egyptien, 1er Vol;

DEHEREIN
Le Soudan Egyptien, Paris 1898;

DODWEL
The Founder of Modern Egypt.

GEORGE B. ENGLISH
A Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar.

RICHARD HILL
Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan, 1937.

A. ROBINSON
The Conquest of the Sudan by the Wali of Egypt.

AFRICAN SOCIETY
Vol 25, 1925-26

G. WADDINGTON & B. HANBURY: Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London, 1823.

MOHAMED SABRY
L'Empire Egyptien sous Moh. Ali.

MARECHAL WEYGAND
Histoire Militaire de Mohamed Ali et ses fils.

الفصل الخامس

ميلاد الجيش الحديث

لم يرث محمد على ملكا موطد الدعائم منظم الأركان . ولم يهبه الله دولة كاملة الموارد مستحوذة للسيادة . بل تأتى إلى مصر — كما لا يجهل أحد — ضابطا برتبة البكباشى ضمن أفراد حملة تركية ، ابتغاء طرد الأعداء من أرض الوطن ...

وما زال يدرج به الحال ، حتى استقرت له الأمور ، وأسلس إليه القياد ، بما أحرز من فطنة بادية ، وبما تحلى من شخصية ظاهرة . وصار على رأس وادى النيل . الربان الأمين ، يوجه السفين بعين بصيرة ، رغم ما تحوطه من أنواء عصافة ، وأمواج هدارة ...

وأحس بشىء فى أعماقه يربط مصر بحياته ، ويستحثه لأن يخلص لها الحب ويوفى إليها بالجهاد . فنذر لها العمر بما فيه من بذل وجهد وتضحية ...

فانطلق يقطع الشوط تلو الشوط — منافحا ومجاهدا — سنين طويلة ليجعلها أمة خليقة بالاستقلال ، جديرة بالحياة . وقد واتاه التوفيق بل ما هو أكثر من التوفيق ، وظفر بتحقيق ما ساور رأسه من أمان ... رغم ألوان الصعاب التى واجهته ، وأشتات المتاعب التى بثت فى طريقه .

وغنى عن القول أن إنشاء الجيش المصرى كان الدعامة الأولى التى حقق بها معظم أمنياته ، بعد إصلاحه إدارة الحكم فى مصر ، واكتسابه عطف العالم الإسلامى ، ثم عنايته برفع مستوى البلاد الاقتصادى .

فكيف تهيأ لهذا العاهل الكبير إعداد مثل هذا الجيش الذى تشيد صفحات التاريخ بمفاخره ، وتكاد تنحنى هامة الزمن قبالة فتوحاته . كيف عالج هذا القائد الأسباب والمسببات التى أفضت به إلى الحصول على « أداة عسكرية »

كانت لها صولة وجولة ، فى عهدها المنصرم !؟.

ينبغى أن نعود إلى الماضى ، ونقفو آثار الخطوات التى انتهجت ، والممهدات التى اختطت ، ففيها الضوء ، وعليها الإبانة .

من البداهة بمكان ، أنه لم يك فى مصر جيش منظم يستند عليه محمد على ، لتأسيس ملكه الجديد . فبذل همه ، مذ تبوأ الولاية ، فى تهيئة جيش وطنى من أشبال البلاد .

ولكن مثل هذه الفكرة الصائبة بيتها فى نفسه متحينا الفرصة الملائمة لتنفيذها ، ورأى من الحكمة — مهما استطال الوقت — ألا يتعجل فى إيقاظها . وظل يستخدم جنوده من أخلاط الأجناس العثمانية فى حروبه لمعاونة سلطان العثمانيين ، فى بلاد العرب واليونان ، وفى حملته السودانية . وكانت هذه الجيوش تنهج الأساليب الحربية العتيقة ، سواء فى مطالب التسليح أو طرائق القتال . حتى إذا خرج ابنه القائد إبراهيم ظافرا ، أقدم الوالد بما أوتى من الشجاعة الأدبية ، والسعة الفكرية ، على تحطيم آلته الحربية القديمة ، ليستبدل بها آلة أخرى من نوع مستحدث .

وشرع محمد على بالفعل — وقد اختمرت الفكرة — فى تنفيذ الخطة . وبمعنى أوضح لكى يهىء فى وادى النيل جيشا جديدا مدربا على أحدث القواعد والنظم العسكرية .

واستهل محمد على سبيله الشائك بأن راح يقنع قواد الجندية بأفضلية النظام المبتغى وما زال بهم حتى أفضى الأمر أن يتقبله بعضهم . فلم يأت أغسطس عام ١٨١٥ حتى أشاع رغبته الملحة على رؤوس الأشهاد ، وصحبها بما يتسمى بـ « التنفيذ » .

وقد وصف الجبرتى مؤرخ ذلك العصر ما حدث من الجند عقب المحاولة الأولى التى أرداها الفشل ، وتراه يسجله بين أحداث (٢٥ شعبان عام ١٢٣١ هـ — ٣ أغسطس عام ١٨١٥ م (فيقول .

« أمر الباشا جميع العساكر بالخروج إلى الميدان قبيل الفجر للتعليم على

طريقة الأفرنج إلى الضحوة فأخذوا فى الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة مثل الرعود ورجعوا داخلين فى المدينة فى كبكبة عظيمة وداسوا أشخاصا بخيولهم بل وحميرا أيضا » .

وقد دبر الجنود النظاميين مؤامرة وسيعة النطاق بين جوانح القاهرة فى وجه هذا المشروع الجرىء . فنشهدهم ينسابون أو يتوزعون فى طريق المدينة ينهبون ويهشمون بل ويقتلون كل ما صادفهم فى طريقهم . ولولا الذين تصدوا لهم من الأهالى بالبنادق وغلق أبواب الأحياء والمتاجر لكانت الحال أفظع ...

ولكن قابل محمد على هذه الحركة اللافحة بسمات الحلم والأناة . وتسنى له أن يستغل تلك الحوادث المنكرة لخدمة مشروعه العظيم . وبادر إلى إبداء مظاهر استيائه وعوامل استنكاره بما اقترفه المتمردون — وأكثرهم من شبان المماليك والألبان — وقرر تعويض جميع التجار الذين نهبت حوانيتهم ، مما جعل الشعب يلهج بالثناء عليه ، ويسخط على الجند المتمردين . بل وكان فى هذا العمل دعاية طيبة « للنظام الحديث » .

وطفق الباشا يهيىء الوسائل لإدخال ذلك النظام ، بالتدريج بينما كان يتحين الفرص تدريجا للتخلص من أدران الجنود غير النظاميين ، وإبعادهم عن القاهرة ، حتى لا يكون احتشادهم فيها عونا على تمردهم لتجديد الفتن ، فوزعهم على الثغور المختلفة .

وفى هذا السياق نأتى على ما سطره الجبرتى فى حوادث عاشر محرم سنة ١٢٣١ — ١٢ ديسمبر ١٨١٥ .

« رجع الباشا من الإسكندرية وأول ما بدأ به إخراج الجنود مع ضباطهم إلى شمال الدلتا وجهة البحيرة والثغور فنصبوا خيامهم بالبر الغربى والشرقى تجاه الرحمانية وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودا وآلات الحرب واستمر خروجهم على دفعات كل يوم وذلك لإبعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة واستهل ربيع الأول عام ١٢٣١ وفيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا إلى ناحية رشيد ونصبوا خيامهما (عرضيهما) عند الحماد وناحية أبى مندور (من أعمال مركز

دسوق) وذلك لكى يدخل على الجند أنه أخرج معهم أنجاله للمحافظة ومعهم الكثيرون من كبراء البلاد إلى جهة البحر الشرقى ودمياط .

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد على بالأقاليم : « إن الباشا أمر ببناء مساكن للجند الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلاقات بكل جهة من الأقاليم لسكن الجند المقيمين بالنواحى لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام فى الصيف والشتاء واحتياج الخيام فى كل حين إلى المحافظة والعناية بها » .

واضطلع محمد على بمحاولة ثانية — وهو الصبور الذى لا ييأس — عقب حملته فى السودان ، فأمر بجلب عدد من السودانيين ليجندهم ، غير أن المرض أنشب أظفاره فى جسومهم ، حتى كاد يستأصل شأفتهم . فأخفقت تجربته الثانية .

فلم يتبق قبالة محمد على — والحالة هذه — إلا أن يرجع إلى الأمر الطبيعى ، وأن يعهد بالدفاع عن مصر إلى سواعد بنيها البررة .

وقد عرفنا أنه بعد أن انتهت حروب نابليون (١٨١٥) وسرحت جيوشه التى دوخ بها أوربا . وجد كثيرون من ضباط الإمبراطورية الفرنسية أنفسهم بلا عمل . فلجأوا إلى الدول الجديدة التى قامت فى أوائل القرن التاسع عشر يطلبون العمل فى قواتها العسكرية وكان من هؤلاء الضابط الفرنسى فرانسيه فيسيير الذى صحب القائد إبراهيم باشا بصفة خبير فى حملة الحجاز . وكان قد حاز ثقة الباشا الكبير فانتخب نفرا من الضباط الفرنسيين والأسبان والبرتغاليين والإيطاليين ولكن اتضح أخيرا أن من بينهم عدد لا يستحق تلك الثقة وليسوا على علم بالشئون العسكرية فى ذلك الحين . أمثال التعلميجية دومرج وشايتس وكايسو ويوسا وسيفا وداراجو وجوبرناتيس إذا استثنينا مارى (بكير أغا) الكورسيكى الصغير والكابتن فى المشاة الفرنسية .

وكان أن أنشىء المعسكر الأول لتدريب النواة الأولى للجيش فى ربوع أسوان . وتشاء الظروف المواتية أن يصل الكابتن سيف إلى مصر ، فيطلب

إليه أن يكون رئيس المدربين العسكريين فى المعسكر الجديد . ثم بعث بابنه إبراهيم ليشرف على تدريب الغلمان الذين يعهد إليهم فى قابل حياتهم مهمة تدريب الجند (يوليو عام ١٨٢٠) .

وفى الثالث من أكتوبر عام ١٨٢١ (٦ محرم ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من لدن محمد على باشا إلى محمد بك لاظ أوغلى ناظر الجهادية ، أشار به إلى تعيين أمين أفندى المعمارى للقيام ببناء ثكنات أسوان . تسع كل ثكنة ألفى جندى ، على أن تبعد الواحدة عن الأخرى مدى ربع ساعة . وأمره بأن يتعاون مع أحمد باشا طاهر متصرف جرجا ، لكى يستكمل العمل سريعا .

وفى التاسع عشر من أكتوبر من العام الآنف (١٢ المحرم) صدر أمره إلى مدير دنقلة لتشييد ثكن بالصعيد الأعلى بمعرفة محمد بك لاظ أغلى ، ليكون مأوى السودانيين المجندين من السودان ، وأوصاه ببذل ما يستطاع من الجهد والهمة . ولم ينس أن يكتب إلى محو بك مدير بربر وشندى يشير له باستعمال الوسائط الضرورية للعناية برفاهية السودانيين ومأكلهم ومشربهم وسفرهم برا وبحرا ، لأنه وصل إلى مسامعه نزول تلف جسيم بهم فى خلال الطريق — كما أشار — فى خطاب بنفس المعنى — إلى نجله إبراهيم باشا والى جدة وأمره بوضع النظم والتسهيلات التى تكفل تسيير أحوالهم فى متباين الظروف .

وفى نفس الوقت (١٣ المحرم ١٢٣٨ هـ) صدر أمر من محمد على وإلى محمد بك لاظ أوغلى ذكر فيه أنه انتخبه دون سواه لوثوقه به ناظرا على الجهادية — مؤسسته الجديدة — ومن معه من الضباط المعينين وأغلبهم من غلمانه الذين رباهم ، وأن له أملا أن يسلكوا السلوك الحميد .

وفى أسوان عنى « سيف » بالمجندين السودانيين . وهيأ لهم خدمة صحية تحت إشراف « دوساب » (Dussap) أحد الأطباء وصاروا يطعمون بالمصل الواقى من الأمراض الوبائية عند وصولهم . كما أعد مستشفى للعناية بمرضاهم . ولكن جميع هذه الجهود وكل تلك العناية لم تستطع الإبقاء على حياتهم فأنتابتهم الأمراض وتلقفهم الموت بكثرة أزعجت الباشا وحملته فى النهاية على تجنيد

الفلاحين من أهل مصر فى جيشه الجديد [١] .

وكان محمد على لا يتأخر عن تيسير مهمة سيف – وقد لقى هذا سندا قويا من رجال حاشية الباشا وعلى رأسهم محمد بك لاظ أوغلى ناظر الجهادية وعثمان نور الدين بك ناظر مدرسة بولاق ورئيس النظام الجديد الذى قام بترجمة الأوامر والمنشورات العسكرية من الفرنسية ونقل الكتب الحربية إلى التركية. ليس هذا فحسب إذ دب النشاط إلى تدبير شئون الأسلحة والذخيرة إلى العناية ببث روح النظام فى الضباط الجدد والجند إلى أختيار التشكيلات المناسبة لأحوال القتال الحديث الذى سيضطلع به جيش مصر الحديث .

جرى كل هذا فى معسكرات أسوان ، تدرب فيها حوالى ثلاثمائة شاب سوف يلقى على عاتقهم قيادة قوات مصر الظافرة فى ميادين القتال .

وفى ١٧ فبراير عام ١٨٢٢ (٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٧ هـ) صدر أمر من محمد على إلى أحمد باشا طاهر ذكر له فيه أن لضرورة إعادة الجنود الترك من السودان لعدم تحملهم حر البلاد استصوب جمع أربعة الآف مصرى من الوجه القبلى لينضموا إلى محمد بك لاظاوغلى ناظر النظام العسكرى ، ومن يجمع يرسل إلى سليمان بك أغا (الفرنسى) معلم الجنود بأسوان ، لتعليمهم حسب مقتضيات النظام الجديد . وبعد خدمتهم ثلاث سنوات يعودون لبلادهم ويعافون من جميع التكليفات . وإنما يعدون من الجنود ما داموا على قيد الحياة . وكان هذا أول تأسيس للنظام العسكرى بمصر .

ومثل هذا النظام الحديث ، كان بحاجة ماسة إلى أقناع القائمين به قبل سواهم بقيمته ، وتوجيه نظرهم إلى أهميته ، وما يعقد من الآمال على نتائجه ، لكى يعنوا به عناية وفيرة ويؤتى ثماره . ولذا لم يك بدعا حين نرى محمدا عليا يبعث برسائله فى هذا المعنى إلى المختصين .

فمن رسالة وجهها إلى ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط يقول :

---

(١) من تقرير البارون دى بوالكمت بعث به إلى حكومته فى ٢ يوليو ١٨٣٣ وقام بنشره الدكتور محمد فؤا شكرى فى كتابه بناء دولة — ص ١٤٨ — ١٨٢

« لقد اقتضت التجليات الإلهية التى أظهر الله فينا آياتها أن يخرج هذا الأثر الجليل ـ أى النظام الجهادى الجديد ـ من حيزة القول إلى حيز الفعل فى زمان شيخوختنا فماذا عسانا صانعون ؟... اللهم إلا أن نكون قد أدينا على قدر كبرنا خدمة للدين المبين وأن نكون قد ضاعفنا ما اكتسبنا من مجد وشهرة » .

وجاء فى رسالة أخرى كتبها لابنه إبراهيم بمناسبة تجنيد الفلاحين ما يلى :

إلى مولانا صاحب الدولة إبراهيم باشا [1] .

لما كتبنا إلى أحمد باشا متصرف جرجا وإلى محمد بك ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط أمر جلب وجمع الأفراد المعلمين المراد ترتيبهم من الأقاليم الصعيدية أدرجنا لهم وسطرنا أن يفهموا من تقتضى الحال أنه مهم أن يكون كل واحد من هؤلاء الأفراد متوطنا فى القرية التى يجلب منها وذا أهل أوسكن فيها وليس من أولئك الدخلاء الشاردين الذين لا يضبطهم ولا يقفهم زمام وأن يحرر هؤلاء الأفراد بمعرفة حكام أقاليمهم وبكفالة شيوخ قراهم بحيث يكونون مستقرين فى أماكنهم مهيئين للطلب وأن يثبت فى الدفتر أسماء قراهم وأسماؤهم وأسماء آبائهم وأنهم سيستخدمون ثلاث سنين ويعطون فى أثناء خدمتهم لحما وأرزا مفلفلا مرتين فى الأسبوع ومرتبا قدره ثمانية قروش كل شهر والكسى اللازمة لهم فى كل عام ثم يطلقون ويسرحون بعد السنين الثلاث وتسلم إليهم وثائق مختومة تتيح لهم الإقامة فى قراهم معافين من التكاليف .

وقد جاءنا والحالة هذه عثمان أغا أمين ملابسنا فقال لنا إن الفلاحين المتوطنين لا يحررون بل سيفرون وأن متصرف جرجا وناظر مصلحتى أسوان وفرشوط يشاهدان هذه الحالة فيميلان إلى تغرير الفلاحين الدخلاء . وأنه اتخذ طريقا يمر بكم فعرج عليكم وأخبركم بما هو واقع ومع أن هذه المصلحة الخيرية ظاهر أنها من الأمور الدينية وبديهى وظاهر أنها على كل حال ستكون موجبة للسعادة إلا أنه لما لم يكن من عادة الفلاح ولا من طبعه أن يقبل على

---

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦٨ دفتر ١٠ معية تركى بتاريخ ٦ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (٢١ مارس ١٨٢٢)

هذا الأمر فلم يكن ثمة ما يوجب إرغامه عليه ولا معاملته بالعنف فيه بل كان يلزم تحرير الفلاحين وتجنيدهم باستدراج عقولهم إليه وذلك بتفهيمهم تدريجيا أنه أمر منطو على الخير ويملأ آذانهم بالأقوال التى تستوجب حسن قبولهم إياه وقد يكون ذلك بوساطة الواعظين والفقهاء الذين يمرنونهم على الانعطاف إليه وتولية وجوههم شطره فالذى يلوح لى هو أنه لم يشرع فى إنشاء أساس هذه المصلحة على هذا الوجه الذى تتطلبه طبيعة العمل فيها بل اعتبرت كمسائل السخرة وعولجت كيفما اتفق فكان هذا داعيا إلى إباء الفلاح وامتناعه . وعلى هذا التقدير فلو كتبتم سعادتكم إلى متصرف جرجا وإلى ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط بمراعاة قاعدة التدرج وعدم اتخاذ سبيل الجبر فى التجنيد بل تلقين الفلاحين وملء آذانهم واستدراك أذهانهم بواسطة الوعاظ والفقهاء ولو أن الطرق التى من شأنها جلب الفلاحين أرشد إليها ودل عليها لكان من البديهى أن يقترن هذا العمل بالتنفيذ على وجه السهولة . كما أن من البديهى أنه لو ذكر للفلاحين مثلا بأن الفرنساويين لما أرادوا أخذ عسكر من القبط لم يخالف القبط فى ذلك ولم يتخلفوا عنه نظرا لما هو معلوم من غيرتهم على الكفر فإذا كان هذا شأن القبط فلا بد من أن الفلاحين الذين شرفوا بنور الإيمان تأخذهم الغيرة على ذلك فلا يمتنعون عن قبول هذه المصلحة الخيرية لما خلا تذكيرهم بمثل هذه الأقوال من الفائدة . فإذا سارت الحال على هذا النهج فحينئذ لا يحرر الجنود من الدخلاء الشاردين بل يقيدون كما نفضل ونستصوب من المتوطنين المستقرين وعلى هذا فإن مما يوافق المصلحة أن تتذاكروا وتبحثوا مع أهل المجلس ثم تكتبوا إلى كل من المومأ إليهما رسالة على الوجه المحرر بعاليه » .

سير العمل فى المعسكر

وحين أقبل الثامن من رجب عام ١٢٣٧ هـ (١٠ أبريل ١٨٢٢) صدر أمر من محمد على إلى إبراهيم أبان فيه عن وصول تقرير من سليمان أغا ومن

أحمد أفندى المهندس ومن عثمان نور الدين ،من أساتذة العلوم العسكرية ، عن تشكيل وتهيئة النظام الجديد – وعلم منه أن مشروعه ينطوى على تأليف أورطتين مكونتين من ١٩٤٣ جنديا بقيادة لواء . وهذا الترتيب اتبعه نابليون على مقياس كبير وهو لا يوافق عليه ، ويرى أن يجتمع لديه الضباط لوضع ترتيب التشكيلات العسكرية . وفى خطاب آخر نرى محمدا عليا يبدى الموافقة على شريطة أن يؤلف الآلاى من ألف إلى ألف ومائتى جندى على غرار ترتيب السلطان سليم العثمانى.

ولاشك أن النظام الجديد لم يعجب الضباط الذين صحبوا إبراهيم وطوسون إلى بلاد العرب . لاعتقادهم أنه يؤدى إلى إهمالهم وضعف شأنهم . ولذلك لم يألوا جهدا فى العمل لإحباط هذه النظم الجديدة . فلما رأى إبراهيم ذلك منهم عزم على أن ينكس من أبصارهم بانضمامه إلى الفرقة الجديدة التى يدربها سيف . ويصير فيها فردا من عامة الجند . فلما عرض هذا الاقتراح على سيف لم يرحب به ولكنه أجاب بقوله « أما وهذه رغبتك فلن أقف فى سبيلك بطبيعة الحال . ولكن لتعلم أنك إذا لم تخضع لأوامرى كل الخضوع طوال مدة خدمتك فإن ذلك يسيء إلى نظام الجندية كل الإساءة » . فرضى بذلك إبراهيم بطل الدرعية[1]

وكان برنامج التعليم الموضوع يستغرق ثلاث سنوات تقريبا ولكن قامت عدة اعتراضات ضد رغبة سيف ما لبثت أن أزيلت .

ومن تلك العقبات ما فطر عليه أهل البلاد من الشمم والصفات النفسية التى تحول دون رضوخهم للمعلمين الأجانب فى ذلك العصر . وكان النظام والصمت اللذان لابد منهما أثناء المناورات مما لا يروق لتلك الجماعة من شبان اعتادوا منذ نعومة أظفارهم الألعاب والتمرينات التى تتخللها الضوضاء والحركة بدون نظام – فدبروا المؤامرات مرارا لاغتيال سيف وبلغ من أمرهم معه أنه كان ذات يوم يدير تمرينات ضرب النار فإذا بأحدهم يطلق عليه رصاصة مرت بجوار أذنه وسمع صفيرها . فلم يفقد شيئا من الثبات بل استأنف التمرين النارى وأمر التلاميذ باطلاق النار من جديد .

(١) إبراهيم باشا – ترجمة محمد بدران ص ٤٨

ولقد فاتنا ذكر أن هذا المعسكر لم يدم طويلا فى أسوان فقد انتقل إلى إسنا ومن هذه إلى أخميم وأبوتيج ثم إلى بنى عدى بالقرب من منفلوط .

وتولى إبراهيم الإشراف على الوحدات الجديدة من قبل أبيه ، وبدأ يدرس مع مرءوسيه ويمارس استعمال الأسلحة ويتعلم الحركات العسكرية كواحد من الطلبة . ومما اتفق له أن « سيف » كان يمر ذات يوم هو ومن معه من الضباط فاتخذ إبراهيم موقفه فى أول الصف مع أنه كان أقصرهم قامة . فأمسك « سيف » يده وأرجعه إلى آخر الصف الذى يتفق مع قامته فامتثل إبراهيم ولم ينبس ببنت شفة فضرب لغيره مثلا فى الطاعة والنظام .

التجنيد

تكونت المجموعة الأولى من الضباط وشرع أولو الأمر فى تعبئة الجنود وتعليمهم . وقد رأينا الألبان والأتراك غير صالحين لهذا النظام الجديد . كما فشلت تجربة التجنيد من السودانيين بعد أن بدىء فى تدريب عدد عظيم منهم لا يقل عن ٣٠٠٠٠ فلجأ محمد على كما ذكرنا إلى تجنيد أبناء وادى النيل لأنهم أحق الناس فى الدفاع عن وطنهم ... ومن هم غير الفلاح ... فليحمل الفلاح السلاح . وليتعلم أن الجندية عنوان القوة .

تذمر المصريون فى بادىء الأمر ونزعوا إلى الهياج فى جهات متعددة فى البلاد ـ فأخمدت الحكومة كل حركة من هذا القبيل بسرعة ولكن لما رأى المجندون الذين انتظموا فى سلك الجيش حسن الرعاية والعناية بهم وما يقدم اليهم من مأكل وملبس مما لم يأخذوا به ويتعودوه من قبل اقتنعوا بحالتهم الجديدة فأقبلوا عليها متطوعين .

فلما رأى « محمد على » نجاح الخطوة الأولى استدعى من فرنسا القائد بوابيه Boyer والكولونيل « جودان » ونخبة من الضباط الأجانب فوفدوا إلى مصر ، وكان لهم أثر واضح فى تدريب الجيش الحديث .

وفى شهر يناير عام ١٨٢٣ تألفت نواة الجيش الأولى .

الجيش النظامى الجديد

رؤى تقسيم الجيش النظامى الجديد إلى ستة آلايات يشتمل كل منها على خمس أورط واحدة منها للأساس — ولما كانت الأورطة تتألف من ٨٠٠ جندى فقد تكونت قوة مؤلفة من ٢٤٠٠٠ جندى وتسلم كل آلاى علمه الخاص ورقمه الذى يتميز به .

واحتذى فى تنظيم هذه الأورط مثال الجيش الفرنسى ولم يشذ عنه إلا فى وجود ضابط يسار أى « صول قول أغاسى » رتبته فوق رتبة اليوزباشى . وفى كون ضابط اليمين (صاغ قول أغاسى) أرقى من ضابط اليسار فى الرتبة وأن الذى فوق رتبته مباشرة هو البكباشى أى رئيس الأورطة .



وكان ضباط الآلاى هم :

١ ــ أميرالاى (قائد)

١ ــ قائمقام (قائد ثان)

١ ــ جراح (حكيمباشى)

٥ ــ مساعدوه (حكماء) .

٤ ــ بكباشى (قواد أورط)

٥ ــ ضابط يمين (صاغ قول أغاسى)

٥ ــ ضابط يسار (صول قول أغاسى)

٥ ــ كتاب

١ ــ إمام

وكان عدد قواد الأورط بالآلاى الواحد أربعة لأن أورط الأساس الخامسة كان قائدها برتبة ضابط يمين (صاغ قول أغاسى) وكانت كل أورطة مؤلفة من ثمانية بلوكات على الوجه الآتى :

١ ــ بلوك الجرينادير (Grenadiers) وهؤلاء صفوة الأورط وأطول رجالها قامة .

١ ــ بلوك الرماه(Volitgeurs) وهم أقصر رجال الأورطة قامة ويستخدمون للاستكشاف .

٦ ــ بلوكات (Fusiliers) والبلوك يتألف من مائة كالآتى بعد الضباط : يوزباشى وملازم أول وملازم ثان .

ضباط الصف والجنود :

باشجاويش ــ ٤ جاويشية ــ ٨ أومباشية ــ ٢ أمين بلوك ــ ٣ ترومبتجية ابروجى ــ ٨٠ جندى .

وكان تعليم الجنود قبل نهاية عام ١٨٢٣ قد تقدم تقدما كافياً جعل محمد على يرغب فى رؤيتهم وتفقد حالهم واستعراض صفوفهم فدعا فى ديسمبر مسيو دروفتى Drovetti قنصل فرنسا العام ومستر سولت (Salt) قنصل

انجلترا العام لمرافقته إلى الوجه القبلى لزيارة معسكر بنى عدى واستعراض الجنود المصرية النظامية الجديدة . وهناك عملت مناورات واسعة النطاق أمامهم وضع خططها سيف وقام بتنفيذها إبراهيم باشا فسر الجميع وهنأ القنصلان محمد على . فأنعم على « سليمان بك » الفرنسى برتبة الأميرالاى .

وبعد العودة من هذه الرحلة كتب قنصل فرنسا العام إلى وزير الخارجية الفرنسية بباريس بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٢٤ ما يأتى :

إن هذا الجيش التام النظام والترتيب على الطريقة الفرنسية يتألف من سودانيين وفلاحين مصريين قوادهم وضباطهم من العثمانيين والمماليك . وقد بلغوا فى دقة المناورات درجة تستوجب الفخار للضباط الفرنسيين الذين علموهم .

سر محمد على من نتائج هذه المحاولة . ورأى أن يختبر تلك القوات فى الميدان فأمر بأرسال آلاى إلى سنار وكوردفان وآخر إلى الحجاز . وفى ٥ يناير ١٨٢٤ كان جنود الآلاى الأول فى طريقهم إلى أسوان . بينما اتجه الآلاى الثانى نحو القصير ومنها إلى جدة .

وهكذا أرسل الآلاى الأول بقيادة الأميرالاى عثمان بك إلى سنار وكوردفان . وقد اضطلع بأعمال قتال قاسية .

وأرسل الآلاى الثانى بقيادة الأميرالاى محمد بك لامداد القوات المصرية فى الحجاز . وسافر بصحبة الآلاى المدربون الفرنسيون دومرج وفيجورو وجيلينى وجوبرناتس والدكتور جانت [١] .

وأرسلت الآلايات الباقية إلى بلاد اليونان وهى :

الآلاى الثالث بقيادة الأمير الاى خورشيد بك

الآلاى الرابع « « حسين بك

الآلاى الخامس « « سليم بك

الآلاى السادس « « سليمان بك (الفرنساوى)

ثم تشكل فى بنى عدى بعد سفر هذه الآلايات الستة ثلاثة من المشاة وهى

---

(١) تراجع تفاصيل أعمال هذا الآلاى فى صفحتى ١٦٨ و ١٦٩ من كتاب الماريشال فيجان جـ١

السابع والثامن والتاسع وكان تشكيلها من جنود الأساس للآلايات الثالث والرابع والخامس والسادس من المجندين الجدد . وكان يشرف على تدريبها مهندس قديم من نابولى يدعى شياندى ويعرف باسم قاسم أغا .

وهكذا وجد فى معسكر بنى عدى ثلاثون أورطة كل واحدة منها بها ٨٠٠ جندى أى ٢٤٫٠٠٠ جندى وفى جميع المعارك الأولى التى اشترك فيها الجنود المصريون أثبتوا شهرتهم كمقاتلين أكفاء من الطراز الأول وأظهروا ضروب البسالة والإقدام والصبر والهدوء بينما برهن الضباط غير المصريين على نقص محسوس فى القيادة . ولما عاد الآلاى الثانى فى أكتوبر سنة ١٨٢٦ من بلاد الحجاز أنعم محمد على باشا على كثير من الجنود بمداليات ذهبية وفضية إثباتاً لبسالتهم وحسن سلوكهم فى ميدان القتال كما أمر أن يقيم هذا الآلاى فى القاهرة ليكون حامية لها . ورخص لجنوده أن يضعوا على رؤوسهم منديلا حريريا مخططاً بخطوط خضراء وصفراء ترخى أطرافه على أكتافهم (كوفية) وكان هذا غطاء رأس الشعب الذى قهره هذا الآلاى وذلك لتمييزه عن الآلايات الأخرى ؛ وأنعم الوالى على « محمد بك » قائد الآلاى بمبلغ من المال مكافأة له ورقى القائمقام عابدين بك وكيله إلى رتبة الأميرآلاى وعينه قائدا للآلاى الثانى عشر . وكان عدد هذا الآلاى عند سفره من مصر إلى ربوع الحجاز أربعة آلاف جندى عاد منه ٢٨٣٠ رجلا وفتكت الأمراض ونيران الأعداء بمن تبقى .

الوحدات العسكرية الجديدة

وكان ناظر الجهادية على اتصال مستمر بالباشا ــ يبلغه نتيجة أوامره أولا بأول ، ويفيده بما يتم إنشاؤه من الوحدات الجديدة . كما يتبين لنا من الوثيقة الآتية .

« من الجناب العالى إلى ناظر مصالح أسوان وفرشوط »

قد علمنا من مكاتبتكم الواردة أنه صار تنظيم الأمور اللازمة للأورط

المنشأة فى أسوان وفرشوط بحسب الحاجة وانضمام رأى حضرة صاحب العطوفة نجلنا الباشا والى جدة وأن نجلنا الباشا المذكور قد عاد إلى مصر وأنكم قصدتم إلى أسوان ولما وصلتم إليها أنشأتم ثلاثة أورط أخرى فبلغ مجموع الأورط أربع عشرة أورطة وأن الأغوات الموجودين لدى خورشيد أغا والقائمين بتعلم فن الهندسة صار قيدهم فى الأورط وأن الذين يقومون منهم بالواجب تبذل لهم الرعاية والاحترام والذين لا يقومون بالواجب يسرحون . وأنه ورد من لدن نجلنا الباشا سر عسكر السودان ٩٥٠ نفرا من العبيد على دفعتين فوزع منهم نحو ٧٥٠ على الأورط.

معنويات الجند

وكان من جملة التدابير التى اتخذها محمد على لإقناع الجمهور بشرعية النظام الجهادى الجديد أنه أمر بوجوب قراءة الفاتحة قبل الشروع بأعمال التدريب « لأنها جامعة للفيوضات الأزلية » . فقد ورد فى خطاب صادر عنه إلى محمد بك ناظر مصلحتى أسوان وفرشوط[١] ما يلى :

« إن فاتحة الكتاب » سورة الفاتحة « لاريب فى أنها جامعة للفيوضات الأزلية . فإذا ما قرأها جنود الجهادية فى أيام التدريب قبل الشروع فيه ثم باشروا التمرينات عقب القراءة لكان ذلك مستوجبا للفيض والبركات — فالمأمول منكم أن تبلغوا حضرات البكباشية سلامنا وتفهموهم أن إرادتنا تقضى بقراءة الفاتحة قبل التمرينات النارية والتمرينات الأخرى » .

وقام من طبقة العلماء من ناصر « العزيز » فى مشروعه الجديد وأكد للشعب المصرى أن النظام الجديد يتفق وأصول الشرع الشريف وقواعد الدين الحنيف . ومثال ذلك أن شيخ الإسلام آنئذ الشيخ محمد العروسى أوعز إلى الشيخ خليل الرجبى أن يؤلف كتابا فى تاريخ محمد على باشا يظهر فيه مآثر

---

(١) وثيقة تركية رقم ٣٧١ دفتر رقم ١٠ معية تركى ورقة ٧٢ بتاريخ ٢٤ ذى الحجة ١٢٣٧ هـ (١١ سبتمبر ١٨٢٢)

العزيز وخدماته[١] وأن الشيخ الرجبى خصص المقالة السابعة من كتابه هذا « بالنظام الجهادى الجديد » مبينا فيها شرعية هذا النظام مؤيدا ذلك بأدلة كثيرة .

لقد كان محمد على مخلصا لدينه شديد الحرص عليه فسعى جهده فى أن تكون معنويات الجيش قائمة على أساس هذا الدين تستمد منه قوة ومناعة . وبهذا استطاع أن يحظى بتأييد جميع عناصر الأمة . ولعل من الخطأ أن نقلل من أهمية هذه الظاهرة أو أن نزعم مع بعض المؤرخين أن جيش العزيز كانت تنقصه الروابط المعنوية . فإن فى هذه الظاهرة وحدها ، فى مثل ذلك العصر ، ما يكسب الجيش قوة معنوية تؤلف بين أفراده وتحضهم للدفاع عن حياض الوطن والدين .

التجنيد ومصلحة الشعب

ولم تنقص محمد على ، على شدته ، تلك المرونة التى يتحلى بها عظماء الرجال وكبار قادة الأمم — لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف . فقد ارتأى بثاقب بصره حين كان إبراهيم باشا يتولى أمر جميع الجنود فى الأرياف ، إن هناك شيئا من الأشياء عند فريق من الأهالى فى بعض المناطق . فدرس الأمر ووجد أن حالتهم الزراعية لا تسمح لهم فى ذلك الوقت بتلبية مثل هذا الطلب . فبعث إلى ابنه إبراهيم بكتاب ملؤه الحكمة يذكر له فيه الاختلاف بين الشعب المصرى والشعوب الأوربية التى عرفت مثل هذا النظام والفرق بين الحكومات الأوربية وحكومة مصر ويسأله أن يجند العساكر حسبما يتيسر وأن يستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن يوفق بين المصلحة والحالة[٢] .

« من الجناب العالى إلى والى جدة » .

---

(١) كتاب تاريخ الوزير محمد على باشا للشيخ خليل الرجبى — مخطوطة جامعة بيروت الأميركية رقم ٢٨٣٢٩ ص ٣ ومخطوطة دار الكتب الملكية

(٢) سجل ١٦ معية تركى — وثيقة ٢٠ ص ١٩ بتاريخ ٨ شوال ١٢٣٨هـ

فى أوائل رمضان جند عدد وافر من الفلاحين من الوجه البحرى توطئة لإلحاقهم بالعساكر الجهادية . فأحضروا إلى مصر وأرسلوا بواسطة المأمورين إلى الجهات المطلوب إرسالهم إليها بيد أن الأعمال الحربية دقيقة والقيام باعبائها يتطلب وجود الشبان الأقوياء على حين أن أكثر الذين جندوا كانوا عليلين كبار السن لا يصلحون لشىء وقد اتصل بنا العساكر الذين من هذا القبيل يعادون إلى قراهم وعليه فقد لزم أن يعنى بأمر تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد بحيث لا يجندون كيفما اتفق وهذا ما حملنا على أن نكتب بتاريخ ٢ شوال و ١٢ يونيو إلى الأفندى ناظر الأقاليم البحرية نخطره بوجوب اجتماعه والأغوات النظار لتداول الرأى فى هذا الصدد أو أن يحضر معهم إلى مصر لبيان رأيهم فى هذا الشأن لإقرار الخطة التى يجب السير عليها وأن لا يطيل هذه المسألة وينظر فى أحسن الطرق المؤدية إلى تنفيذها . وفى يوم الثلاثاء ٨ شوال و ١٨ يونيو وهو اليوم الذى سيجتمع فيه المجلس حضر الأفندى المومأ إليه والأغوات النظار إلى شبرا حيث بسط الموضوع وأفهموا أن عددا وافرا من الفلاحين الذين أرسلوهم فى أوائل رمضان قد أعيد بعضهم من مصر والبعض الآخر من الجهات الأخرى وأن الذين أبقوا منهم فدون المأمول فاستأذنوا . بمناسبة قرب أوان الزراعة أن يرجأ تجنيد العساكر المطلوب تجنيدهم بعد العيد إلى ما بعد الانتهاء من التحضير وبما أن التماسهم يتنافى والمصلحة فقد أجيبوا بما يتفق والموقف وأكد عليهم بوجوب جمع وتجنيد العساكر المطلوبة على أن أهالى مصر لا يفهمون الجندية كما يفهمها أهالى أوربا كما أن هيئة الحكومة عندنا ليست بقدر هيئة الحكومة فى أوربا ومن البديهى أن لا يستطاع والحالة هذه تجنيد العساكر وفقا لأصول الجهادية المقررة وعليه فإن من الجلى الواضح أن الواجب يقضى علينا أن نجند العساكر حسبما يتيسر لنا وأن نستخدمهم على نحو ما يستوجبه الموقف وأن نوفق بين مصالحنا وحالتنا وأن نرى أعمالنا على قدر قدرتنا فإذا ما وافقتم على ذلك أنتم أيضا أوفدوا من قبلكم من يفحص هؤلاء العساكر عند إحضارهم إلى مصر ونبهوا عليه بإن يفرز منهم من يصلح نوعا ما للعمل ويرسلهم إلى الأورط ويعيد

الذين لا يصلحون إلى قراهم ولما كان من اللازم أن توزع العساكر التى يتم إرسالها على الأورط وأن لا يعاد منهم أى نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك وجامع القول فكروا فى هذا الموضوع من ناحية العسكرية والفلاحية مع مراعاة الحالة والموقف وانهوه بطريقة مناسبة .

حاشية :

والحاصل أن العقلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون فى بادئ الأمر إلى تنظيمها كيفما اتفق أى على بركة الله ومن ثم يأخذون فى وضعها فى نصابها . كلما ثبتت أقدامهم حتى تتاح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لما يرغبون فيجب علينا أن نتشبه بهم نحن أيضا فنسير بأمورنا حسبما يقتضيه الموقف وكلما اتسع لنا الوقت وسنحت الظروف عمدنا إلى إتمام ما ينقصنا فابذلوا الهمة فى اتخاذ هذا الأسلوب ولئن نوهنا بوجوب إرسال من يتولى فرز العساكر الذين يصلحون للخدمة . من العساكر الذين سيأتون إلى القصر العينى بمصر إلا أننا نترك لرأيكم أمر حالة هذا الفرز إلى القواص باشى المأمور فى القصر كما كانت الحالة قبلا أو إرسال آخر لهذه الغاية من قبلكم فافعلوا ما ترونه مناسبا فى هذا الشأن وأعنوا بإجراء ما يتفق ومصالحنا .

تعيين القادة

كان يجرى محمد على باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائدا لأحد الآلايات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع حتى يبث فيه قوة على قوته ويحضه على العمل بما يفضى إلى تحقيق نظرته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ليكونوا على بينة من قائدهم الجديد الذى عهد إليه أمر زمامهم وتوجيههم فى قيادتهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالذكر . إن دل على شىء فعلى أن محمدا عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة التى تعود على الجيش بالخير والبركة .

والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

« مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاى ٥ جى بيادة [١] .

اليكم ياافتخار الأماجد والأكارم سليم بك المعين ميرالاى خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

وياقدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام ٥ جى بيادة .

ويامفاخر الأماثل والأقران عثمان أغا بكباشى ٢٠ جى أورطة وحسين أغا بكباشى ٢٢ جى أورطة وسليمان أغا بكبكاشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم أغا بكباشى ٢٤ جى أورطة .

وياصاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوزباشيتها وملازميها الأول والثناةوحاملى أعلامها وحاسبيها و باشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاى . إنك لما أظهرته من الإخلاص والصداقة فى وظيفتك كسلحدار للمرحوم نجلنا الباشا سر عسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاى الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكباشية الأورط وضباطها الآخرين بحسب مواد القانون ووفقا للنظام المعمول به فى الآلايات ١ جى و ٢ جى و٣ جى و ٤ جى بيادة وبإيفاء لوازم الحملة والغيرة المأمولين منك

وأنت أيها القائمقام وبكباشية الأورط والقول أغاسية وجميع الضباط ، اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه فى المسائل التى تكون موافقة للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد فى التعليمات العسكرية والخدمات الجهادية واسعوا فى إبراز ما شاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى »

(١) وثيقة رقم٩٦دفتر١٦ معية تركى بتاريخ ١٨ربيع الثانى١٢٣٩هـ(٢٢ ديسمبر١٨٢٣)

الذين لا يصلحون إلى قراهم ولما كان من اللازم أن توزع العساكر التى يتم إرسالها على الأورط وأن لا يعاد منهم أى نفر فأخطروا رؤساءهم بذلك وجامع القول فكروا فى هذا الموضوع من ناحية العسكرية والفلاحية مع مراعاة الحالة والموقف وانهوه بطريقة مناسبة .

حاشية :

والحاصل أن العقلاء من الحكام السالفين كانوا عندما يريدون تنظيم بعض الأمور يعمدون فى بادئ الأمر إلى تنظيمها كيفما اتفق أى على بركة الله ومن ثم يأخذون فى وضعها فى نصابها . كلما ثبتت أقدامهم حتى تتاح لهم مع الأيام تسيير أمورهم وفقا لما يرغبون فيجب علينا أن نتشبه بهم نحن أيضا فنسير بأمورنا حسبما يقتضيه الموقف وكلما اتسع لنا الوقت وسنحت الظروف عمدنا إلى إتمام ما ينقصنا فابذلوا الهمة فى اتخاذ هذا الأسلوب ولئن نوهنا بوجوب إرسال من يتولى فرز العساكر الذين يصلحون للخدمة . من العساكر الذين سيأتون إلى القصر العينى بمصر إلا أننا نترك لرأيكم أمر حالة هذا الفرز إلى القواص باشى المأمور فى القصر كما كانت الحالة قبلا أو إرسال آخر لهذه الغاية من قبلكم فافعلوا ما ترونه مناسبا فى هذا الشأن وأعنوا بإجراء ما يتفق ومصالحنا .

تعيين القادة

كان يجرى محمد على باشا على نمط كريم حينما يصدر أمره بتعيين أحد كبار ضباط الجيش قائدا لأحد الآلايات . فقد سار على أن يكتب إليه مرسوم التعيين يتضمن عبارات التكريم ودوافع التشجيع حتى يبث فيه قوة على قوته ويحضه على العمل بما يفضى إلى تحقيق نظرته . وأكثر من ذلك يقدم القائد لضباط وحدته ليكونوا على بينة من قائدهم الجديد الذى عهد إليه أمر زمامهم وتوجيههم فى قيادتهم .

وهو تقليد عسكرى جدير بالذكر . إن دل على شىء فعلى أن محمدا عليا كان لا يفتأ يستن السنن الحسنة التى تعود على الجيش بالخير والبركة .

والمرسوم التالى خير مثال يبسط فى هذا النطاق :

« مرسوم خديوى إلى سليم بك ميرالاى ٥ جى بيادة [1] .

اليكم ياافتخار الأماجد والأكارم سليم بك المعين ميرالاى خامسا لعساكرنا الجهادية دام مجده ...

وياقدوة الأماجد والأعيان سليم أفندى قائمقام ٥ جى بيادة .

ويامفاخر الأماثل والأقران عثمان أغا بكباشى ٢٠ جى أورطة وحسين أغا بكباشى ٢٢ جى أورطة وسليمان أغا بكبكاشى ٢٣ جى أورطة والحاج سليم أغا بكباشى ٢٤ جى أورطة .

وياصاغ وصول أغاسية هذه الأورط ويوز باشيتها وملازميها الأول والثناةوحاملى أعلامها وحاسبيها وباشجاويشيتها وأمناء البلوك فيها وجاويشيتها وأونباشيتها زاد قدرهم .

فيا أيها الميرالاى . إنك لما أظهرته من الإخلاص والصداقة فى وظيفتك كسلحدار للمرحوم نجلنا الباشا سر عسكر السودان فقد أحلنا على عهدتك رتبة الميرالاى الخامس لعساكرنا الجهادية ووضعنا تحت إمرتك ٢٠ جى و ٢٢ جى و ٢٣ جى و ٢٤ جى أورطة فعليك أن تقوم بأداء الخدمات اللازمة لوظيفتك المحالة عليك بالاتحاد مع قائم مقام الآلاى وبكباشية الأورط وضباطها الآخرين بحسب مواد القانون ووفقا للنظام المعمول به فى الآلايات ١ جى و ٢ جى و٣ جى و٤ جى بيادة وبإيفاء لوازم الحملة والغيرة المأمولين منك

وأنت أيها القائمقام وبكباشية الأورط والقول أغاسية وجميع الضباط ، اعلموا أن البك المذكور هو ميرالايكم واتبعوا رأيه فى المسائل التى تكون موافقة للنظام ومطابقة للقانون وراعوا مراسم الاتحاد فى التعليمات العسكرية والخدمات الجهادية واسعوا فى إبراز ما شاهدناه من حسن درايتكم مضاعفا وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر ومن معسكر بنى عدى »

---

(١) وثيقة رقم٩٦دفتر١٦ معية تركى بتاريخ ١٨ربيع الثانى١٢٣٩هـ(٢٢ ديسمبر١٨٢٣)

مراجع الفصل

المحفوظات التاريخية فى قصر عابدين العامر

أمين سامى باشا

تقويم النيل وعصر محمد على باشا

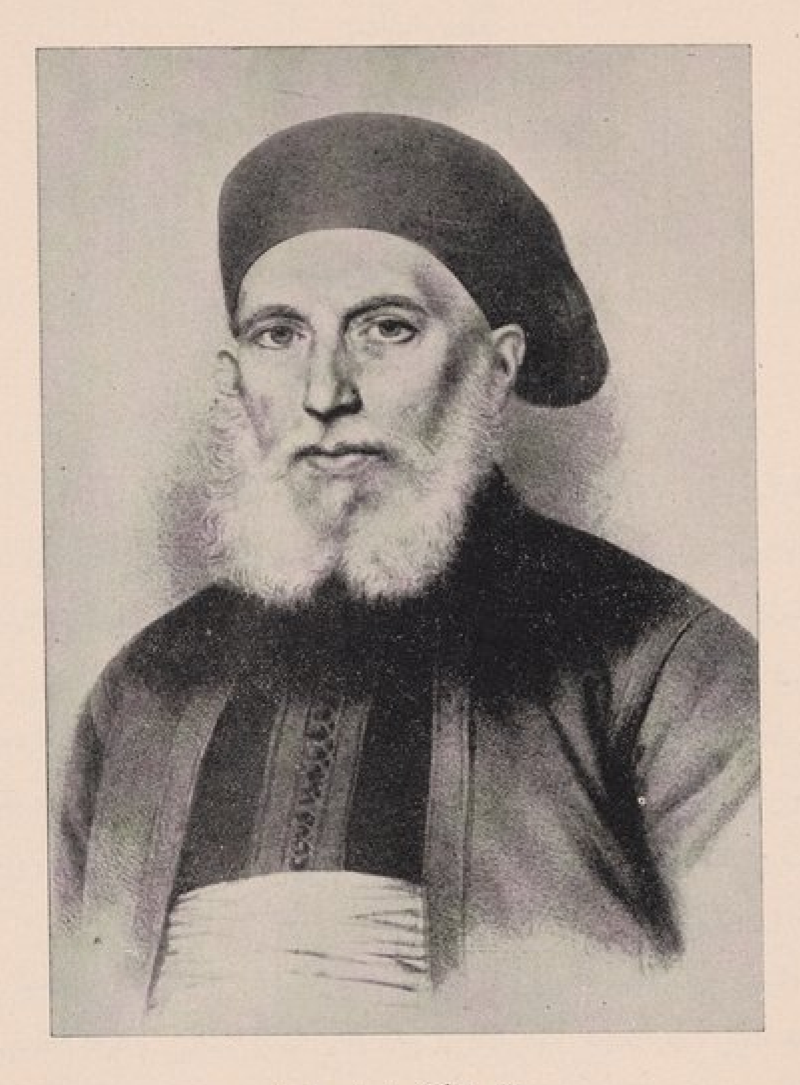
عبد الرحمن الجبرتى

عجائب الآثار فى التراجم والأخبار — الجزء الرابع

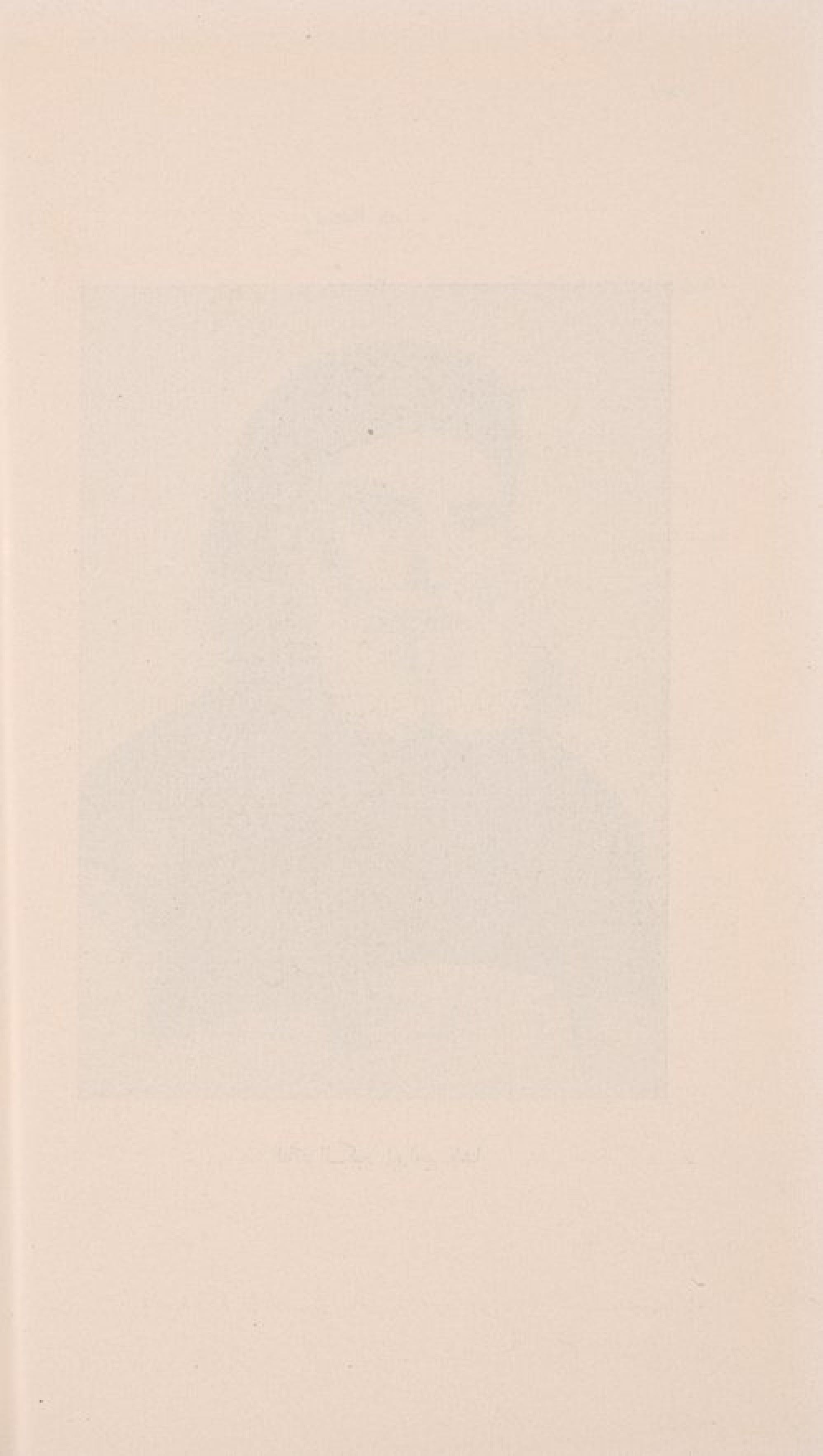
عبد الرحمن زكى

الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير





القائد الكبير إبراهيم باشا



الفصل السادس

حملة شبه جزيرة المورة

١٨٢٢ — ١٨٢٨

القسم الأول

المعارك الأولى فى اليونان

١٨٢٢

الثورة اليونانية (١٨٢١)

لاتتسع صفحات هذا المقال لبحث أسباب ومقدمات الثورة اليونانية — فقد حكم الأتراك بلاد الإغريق قرون عديدة ، إلى أن عملت مبادئ الثورة الفرنسية إثرها فى نفوس اليونانيين ، وشجعهم فى العصيان والفتن أئمة الروس ، الذين لقنوا صبيتهم وصية بطرس الأكبر وكترينا ، بتمزيق شمل الترك وطردهم من أوربا . فكونت فى اليونان وجزرها الجمعيات السرية وأهمها « هيتريا » وقد هدفت إلى تحرير وطنهم ذى المدنية الخالدة من الحكم التركى وبث روح الثورة فى مواطنيهم .

وشبت نيران الثورة الأولى فى رومانيا (مارس ١٨٢١) لقربها من روسيا ، ليستمد الثوار منها المعاونة . ولما انكرتها وجد زعيم الثوار ابسلنتى وأعوانه أنفسهم وجها لوجه قبالة سادتهم ، فجردت عليهم جيشا هزمهم ، وفشلت الحركة الأولى .

وامتدت جذور الثورة فى شمالى المورة . ففى ٢٥ مارس ١٨٢١ نادى القس جرمانوس بالثورة ولبى أبناء قومه دعوته فى البحر والبر — وإذ كانت جزر الأرخبيل اليونانى متقاربة لا يفصلها بعضها عن بعض إلا ممرات ضيقة فقد استطاع سكانها أن يشتركوا مع القرصان ، واستحال الأرخبيل الإغريقى كله

مرتعا لأعمال القرصنة ، وأمعنوا فى الاعتداء على سفن الأتراك – بينما استحوذ الثوار على أظهر مدن المورة ، واحتلوا تريبوليتزا عاصمتها ، وذبحوا الاتراك المقيمين فيها . كما اعتدوا على الحاميات الموزعة فى المدن وقتلوا جندها . وكان لنجاحهم السريع أن تألفت جمعية وطنية انعقد أعضاؤها فى يناير ١٨٢٢ وأعلنوا استقلال اليونان ، واسترسل نضالهم ضد الأتراك فى جميع جزائر البحر والبر اليونانى ، وكانوا ظافرين عليهم على الدوام .

ومنذ نشوب هذه الثورة ، طفق محمد على يتتبع أخبارها وتحولها ، أملا منه أن يدعوه الباب العالى إلى مساعدته على إخضاع العصاة . فقد ارتأى فى هذه الحرب فرصة ليظهر للعالم مدى قواته الفتية . وتفوقه على الباب العالى . وليحاول فى مقابل نجدته التى يسديها إليه التخلص من سلطته ، وليفوز فى الوقت عينه بتنظيم المورة . وليبسط حكمه على جنوب أوربا فيحول شرق البحر المتوسط إلى بحيرة مصرية . ومما قوى هذا الأمل فيه ما صادفه من نجاح لما دعاه السلطان إلى إخماد الثورة فى كريت وقبرص[١] .

الحملات العثمانية :

أرسل السلطان محمود ثلاثة جيوش وثلاث عمارات لإخماد الثوار ، ولكنها هزمت وهلكت جميعا . ولما أدرك أنه ليس فى وسع جنوده إطفاء النيران ، كبح قليلا من شامخ كبريائه وطلب النجدة من محمد على ليقضى على ثورة اليونانيين فى الجزر وسواها ، بعد أن ولاه على إدارة هذه الجزيرة . وكان ذلك فى ١٢ مايو سنة ١٨٢١ .

النجدة المصرية :

وعملا بطلب السلطان ، أعد محمد على أسطولا فى الإسكندرية بقيادة

---

(١) الوثيقة رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٣ رمضان ١٢٣٦هـ - دفتر ٧ معية تركى (٢٥ يونيو ١٨٢١)
» ٢٣٨ » » » » » »
» ٥٠٨ » ٢٥ » » » ٦ »
» ٢٤٥ » ٢٩ » » » ٧ »

أمير البحر إسماعيل جبل طارق أقلع منها فى يوم ١١ يوليو ١٨٢١ — وكان مؤلفا من ١٦ سفينة تنطوى جوانحها على ٨٠٠ مقاتل بقيادة طبوزاده اوغلى . فطارد الاثنان القراصنة ووصلا إلى رودس .

ثم واصل إسماعيل سيره حتى التقى فى يوم ١٦ يوليو بالقرب من إيفيسوس (Ephése) بالاسطول التركى المكون من عشرين قطعة ونيفا خرجت من الدردنيل تحت إمرة القبودان باشا قره على . وفى يوم ٦ أغسطس خرج الأسطولان معا وطاردوا سفن القراصنة فى بحر إيجه ، إلى أن ألقت الوحدات العثمانية والمصرية مرساها فى أوائل أكتوبر ، على مقربة من زانت (Zante) ثم لدى مدخل خليج بريفيزا حيث أغرقت ٣٦ سفينة يونانية ، فى حين وقعت ٣٠ أخرى فى الأسر . وقد قضى الأسطول المصرى أشهر الشتاء فى مياه الدردنيل

وفى أوائل مارس ١٨٢٣ ، عادت السفن المصرية إلى الإسكندرية مضطرة ، وقد هبط عدد وحداتها إلى ١١ سفينة ، منها أربع كانت فى حاجة إلى ترميمات ، فى حين وقعت خمس سفن من الست عشرة بعضها أسيرة وبعضها غرق فى اليم أو شبت بها النيران .



(١) اعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر — للبكباشى عبد الرحمن زكي راجع الملحق رقم ١ فى نهاية الموضوع .

القسم الثانى

حملة كريت

١٨٢٢ — ١٨٢٣

نجدة بحرية مصرية :

وفى الثامن من مارس عام ١٨٢٢ ، كان أسطول مصرى جديد مؤلف من ٢٩ سفينة قد التأم باسكندرية . وقد أعد محمد على كل ما يبتغى لحملة كريت من : عتاد ، وأسلحة ، وجياد ، ومقاتلين بلغ عددهم ٥٥٠٠ جندى ، بقيادة حسن باشا ، زوج ابنة محمد على . وأقلعت العمارة بأمرة إسماعيل جبل طارق ونزل الجنود إلى أرض كريت فى مايو ١٨٢٢ وحاربوا الثوار بدون نتيجة تذكر حتى عام ١٨٢٣ . وأخيرا تم لهم النصر عليهم بعد قتال شاق ، وأنقذوا الحاميات العثمانية المحصورة فى القلاع — وفى خلال أحدى المعارك قتل حسين باشا فخلفه حسن بك (باشا فيما بعد) الذى تسنى له الظفر على الثوار وحصرهم فى ملازهم الأخير فى منطقة سفاكيا ، وتبع الثوار الذين فروا إلى جزيرتى كاسوس وسكاريتو (شمال شرقى كريت) . وعقب مقاومة ملحة من أهالى الأولى سلموا إليه ورضى الآخرون بالخضوع إلى جسين بك . وبذا استتبت الطمأنينة فى كريت وما حواليها . ثم احتل المصريون قبرص . وفى يناير ١٨٢٣ سقطت نوبلى فى قبضة الثوار ، وفى يوليو توالت الهزائم العثمانية وبلغت خسائرهم ٢٠٫٠٠٠ وكاد اليونانيون يقذفون العثمانيين فى البحر ، لولا أن احتدمت المنافسة والعراك بين زعمائهم فلم يجنوا ثمار انتصارهم .

ثم ذهب إسماعيل جبل طارق على رأس وحداته ، إلى رودس حيث التقى بالأسطول العثمانى المؤلف من ٤٦ قطعة — منها ١١ فرقاطة بقيادة القبطان باشا قره على الذى أصيب فى ليلة ١٧ يونيو (١٨٢٢) فى أثناء هجوم شنه

عليه القائد اليونانى كاناريس وتوفى متأثرا بجروحه وخلفه قره محمد والى باتراس ثم حل محله بعد بضعة أشهر خسروا باشا ، أحد ولاة الأرخبيل وعدو محمد على باشا .

وفى عام ١٨٢٣ ، استشهد حسن باشا ، قائد القوات المصرية فى كريت ، وخلفه حسن بك فى قيادة الجنود . أما إسماعيل جبل طارق فتلقى تعليمات من محمد على (٢٨ ابريل ١٨٢٣) ليؤمن المواصلات البحرية بين مصر وجزائر الأرخبيل ، والعمل فيما بين كريت وقبرص ، وقد أدى إسماعيل هذه المهمة على خير وجه .

فى ذلك الحين ، ارتأى قائد القوات المصرية فى كريت أن الوقت مناسب لشن هجوم على كاكسوس واسكربانتو ، حيث امتنع الثوار فى معاقلهم ، فأنفذ إليها فى أواخر شهر مايو ١٨٢٤ ست عشرة سفينة مصرية وثمانى نقالات وألفين من الجنود والفرقاطة ثريا وديانا معقودة اللواء لإسماعيل جبل طارق .

وفى السادس والعشرين من مايو ، وصلت السفن المصرية أمام ثغر كاكسوس وتبادلت النيران مع الثوار ، ولكن حدث أن ارتطمت سفينة إسماعيل بصخرة وأصيبت بخلل اضطرت من أجله أن تقلع إلى رودس للتصليح . وما انتهى الترميم حتى عاد الاميرال إلى كاكسوس وبدأ القتال عنيفا إذ فاجأ الثوار الذين القوا أسلحتهم وسلموا مع ١٥ سفينة و ٧١ مدفعا و ٨٠٠ من الأسرى . وبهذا النصر استتب الأمن فى كريت بفضل بحرية مصر .

القسم الثالث

الحملة المصرية فى شبه جزيرة المورة

١٨٢٤ – ١٨٢٥

تركيا تستنجد بمصر :

وفى المورة لما اشتد الحرج على جيوش السلطان رأى هذا أن يستنجد بمحمد على – فأرسل إليه بتاريخ ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ (١٦ يناير سنة ١٨٢٤) فرمانا شاهانيا استهله بعبارات الاطراء واختتمه بتكليفه بالذهاب إلى المورة لبيبد العصاة ، على أن تكون بعد أخمـــاد ثورتهم داخلة فى ولايته .

رأى محمد على أن يستجيب دعوة السلطان . فلم يمض يومان على وصول هذا الفرمان حتى أبلغ محمد على إلى الديوان ما تفضلت به الأنعم الشاهانية عليه من توجيه عبارات الثناء ، وتكليفه بإخضاع المورة [١] .

وقد رأى السلطان أن يخدم نفسه عن طريق هذا التكليف – فالظاهر منه مطالبة الوالى بإخماد الثورة اليونانية ولكن المستور هو تحقيق غرض آخر : هو صرف محمد على عن المضى فى تنظيم الجيش وزيادة عدده والقضاء على الآلايات الجديدة وتدمير الأسطول المستحدث الذى أنشأه فى دار صنعة اسكندرية .

وكان فى هذا التكليف بعض الحيرة لمحمد على . ففى الأسبوع الذى وصل إليه الفرمان لم تك ثمرة النظام الحديث فى الجيش قد ازدهرت . وكان الآلاى الأول من الجيش الجديد فى طريقه إلى سنار والثانى وشيك السفر إلى شبه

(١) وثيقة رقم ٢٩٢ ص ٧١ دفتر معية تركي بتاريخ ٢٩ رمضان ١٢٣٦هـ

الجزيرة العربية — فهل يضحى بالآلايات الجديدة الأخرى موضع إعجابه وزهوه — وهو طامع إلى استقلال بلده !

فكر فى الأمر مليا ، فرأى أنه باشتراكه فى الميدان الأوربى سيعلى شأن مصر ، وسيجعل لها مقاما فى السياسة الدولية ، وسيجد جيشه مجالا للتدريب على القتال .

الحملة المصرية إلى المورة

تولى إبراهيم [١] إعداد الحملة التى تسلم قيادتها فى منتصف شهر يوليو وتألفت من الوحدات الآتية :

٥١ بارجة حربية مصرية
١٤٦ نقالة معظمها مأجور
١٧٫٠٠٠ من مشاة الآلايات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ بقيادة أمراء الآلايات خورشيد بك وحسين بك وسليم بك وسليمان بك بالتوالى .
٤ بلوكات مدفعية قديمة ومثلها من المهندسين جديدة
٧٥٠ فرسان غير نظاميين بقيادة حسن بك

ومجموع الحملة حوالى ١٨٫٠٠٠

أقلعت الحملة من الإسكندرية فى ١٩ يوليو ١٨٢٤ ، وكان الأسطول يقتاده أمير البحر إسماعيل جبل طارق [٢] على سفينته ديانا بينما ركب إبراهيم فرقاطة الإحسانية واتجها صوب رودس .

---

(١) وثيقة رقم ٢٢١ (دفتر ١٣ معية تركي) بتاريخ غرة رجب ١٢٣٩ ص ١٠٤
« « ١٩٠ (دفتر ١٤ صادر المعية) بتاريخ ٣ رجب ١٢٣٩ بخصوص الترتيبات والمعدات
وثيقة رقم ١٥ (محفظة ٩ بحر برا) بتاريخ غرة شعبان ١٢٣٩

(٢) الوثيقة رقم ٢٧٢ ورقة ٧٣ بتاريخ غرة المحرم عام ١٢٣٨ (دفتر ١٠ معية تركى) أمر كريم .

الخطة العامة :

وكانت الخطة من وضع محمد على . فقد أشار على ابنه أن يعمل أولا على السيادة على مياه بحر الأرخبيل وتطهيرها من القرصان والقضاء على أثرهم فيها ، لكى يتفرغ لأعمال القتال فى البر ، وهذا يبين لنا دوافع اهتمام محمد على بالعمليات المشتركة بحرا وبرا .

وكان خسرو باشا ، عدو الباشا القديم ، قائد الحملة العثمانية ، كسب طائفة من الانتصارات على القرصان فى الجزر ، واستولى فى الثالث من يوليو على جزيرة بسارا غرب كيوس وكانت وكرا منيعا للاغريق — وكانت « سلموس » هدفه الثانى . وقضى خسرو باشا شهرا يحتفى بنصره فضيع الفرصة السانحة .

وصل إبراهيم إلى رودس (١٣ أغسطس) والتقى بخسرو على مقربة من بودرون [١] وحدثت عدة مناوشات كان البادئون فيها بالهجوم العنيف القرصان الذين أظهروا من أضراب الشجاعة وصنوف الإقدام ما ألجأ السفن التركية إلى انتهاج خطة الدفاع .

فلما كان ١٥ أغسطس، أحرق الأميرال اليونانى « بيوليس » فى قتال جزيرة ساموس سفينة عثمانية من طراز الكورفيت تحمل ٢٤ مدفعا وسفينتين أخريين من طراز الفرقاطة تحمل إحداهما ٣٢ مدفعا والأخرى ٥٤ واستولى على عشرين سفينة نقالة .

وعلى إثر هذه الهزيمة ، لاذ خسرو بخليج هاليكرناس ، فأدركه إبراهيم فى ميناء ستانكو فى التاسع والعشرين من أغسطس بالأسطول المصرى . ولم يخش ميدليس بأس الأسطولين فسير فى الخامس من سبتمبر خمس حراقات ممتلئة بمواد قابلة للالتهاب . فلما وقع نظر البحارة العثمانيين عليها أعتورهم الهلع وفروا مسرعين صوب الشاطىء ، بينما كان اليونانيون يصوبون نيرانهم عليهم . فلم يسع قائد بقية السفن التركية إلا الهرب نحو الدردنيل ، تاركاً إبراهيم وحده

(١) على شاطىء الأناضول الغربى

وسط النيران يتلقى عبء الهجوم اليونانى . وقد صمد ببحارته فى مناضلة العدو ، حتى أكره على الارتداد القهقرى ، بعد أن فقد سفينتين مصريتين .

فلما اتصل خبر هذه الخسارة بمحمد على لم تبث فى نفسه أى أسى ، رغم أنها تعد شديدة على أسطول ناشىء ، وقال من فوره :

« أعرف جيدا أننى لا أستطيع انشاء بحرية على رمال الأهرام ، ولا أستطيع تحاشى الخسائر ، ولكن سوف تكون لدى بحرية قوية ، أتغلب بها على اليونانيين ، عند الالتقاء بهم » .

بل تستطيع أن تردد بأن الخسارة استحثته للعمل بجد على التوسع فى إنشاء القوات الحربية : فوصلت إليه أربع سفن كان أوصى بعملها فى دور الصنعة بإيطاليا ، وحصل بطريق غير مباشر — كما سنرى بعد — على خمس سفن للثوار ، ثم أوفد ضابطا فرنسيا إلى فرنسا ليوصى على مشترى فرقاطتين وابريق فى مارسيليا ، وابتاع سفنا أخرى من اليونانيين ومن البنادقة والجهورن .

وحدث أن اتصل فيما بعد الأسطولان : العثمانى والتركى ، وسارا إلى مياه جزيرة مدللى . وهنا لم تتوقف السفن التركية ، بل استرسلت فى مسيرها إلى الدردنيل ؛ ولما ألفى إبراهيم أنه لا يستطيع وحده مناهضة العدو آثر الانسحاب جنوبا إلى كريت . فاعترضت طريقه السفن اليونانية واشتبكت به فى ٧ أكتوبر ١٨٢٤ فى معركة شاقة أفضت إلى وقوع خمس حراقات يونانية فى قبضة المصريين ثم عاد إبراهيم باشا بأسطوله إلى ميناء ستنكو .

وفى هذا الميناء ، اجتمع إبراهيم (أوائل نوفمبر) بالقائد الفرنسى دروهو ، بحضور إسماعيل جبل طارق والكولونيل سيف وقنصل أزمير ، وفى هذه المقابلة أسر دروهو لإبراهيم ببعض الخطط الحربية لإخضاع اليونان ، ومنها التمهيد بالهجوم على المورة ، عقر دار الثورة الإغريقية .

معركة ستمبالية البحرية (٣ نوفمبر ١٨٢٤)

وفى ١٠ نوفمبر لاحت فى الأفق سفن القراصنة ، جنوبى جزيرة ستمباليا على مقربة من رودس فأسرعت السفن المصرية إلى الاستعداد وكان عدد

سفن الخصم ٦٩ قطعة .

ووقعت المعركة بين الفريقين فى يوم ١٣ ، وتبادل الخصمان إطلاق النيران ، وغرقت ثلاث حراقات يونانية . واستمرت المناوشات حامية ساعات ، وفقد كل من الجانبين عدة سفن .

ثم تابعت السفن المصرية عقب المعركة سيرها إلى ميناء مرمريس وألقت مرساها على مقربة من خليج ماكرى .

معركة سيريجو البحرية (٢٩ أبريل ١٨٢٥) :

وفى شهر ديسمبر أبحر إبراهيم برفقة إسماعيل إلى كريت ورسا بسفنه فى خليج سودا ، حيث أخذ يتحين الفرصة للانقضاض على العدو .

وفى يوم ٢٩ أبريل ، لمح الأسطول المصرى السفن اليونانية فتبادل الجانبان ضرب النيران ، من الصباح إلى الغروب ، وقد حاول الثوار أن يقذفوا حراقتين على السفن المصرية ، بيد أن البحارة المصريين دمروها قبل أن تصل إليهم وأسروا السفينتين بمن فيهما .

ثم واصل الأسطول المصرى مسيره نحو المورة ، فوصلها بعد معركة طاحنة بالقرب من جزيرة سيريجو ، انجلت عن انتصار الأسطول المصرى دون أن يفقد سفينة واحدة بينما خسر الثوار سبع سفن .

وخلص إبراهيم من انتصاراته وهزائمه البحرية بدرس مؤداه أن هزيمة اليونان لا تكون على صدر البحر ، حيث يحرزون التفوق والسفن المسلحة المنتشرة على المياه ، وارتأى أن خير وسيلة للانتصار عليهم هى القضاء عليهم براً ، فى شبه جزيرة المورة .

ومما يلفت النظر ما أبداه إبراهيم باشا من ظواهر الشجاعة ، ومآثر الكفاءة ، فى اقتياد الأسطول ، وكنا نحسبه قائداً بارعاً فى فنون القتال على البر فحسب . ولولا عزيمة إبراهيم التى لا تفل ، ورباطة جأشه فى مجابهة الأخطار ، لتدمر الأسطول المصرى ، وتبدد قبالة السفن اليونانية .

وفى هذا الصدد كتب المؤرخ الفرنسى دوان يقول (١) :

« إن إبراهيم باشا فى قيادة أسطول مؤلف من مائتى سفينة تقل نحو ٢٠،٠٠٠ رجل من جنود وبحارة ، قد اضطلع بمثل المهمة التى نهض بها بونابرت من قبل — وإذا تذكرنا أن مصر لم يك لها إلى ذلك الحين أسطول نظامى ولا تقاليد بحرية ولا هيئة من الضباط البحريين الأكفاء ولا العدد الكافى من البحارة المدربين — وكان على إبراهيم باشا أن يبتكر وينظم على الفور كل ما يلزم الحملة البحرية من سفن حربية وسفن للنقل ورجال وعتاد — وأن يروض نفسه على امتطاء البحر والقتال بين أمواجه وأهواله — إذا تذكرنا جل ذلك — فإنه يحق لنا أن نعجب كيف أن العمارة التى حشدها محمد على أمكنها أن تبقى خمسة أشهر تجوب البحار دون أن تتفكك أوصالها ، وكيف استطاعت أن تثبت حيال الوثبات والهجمات الشديدة التى استهدفت لها وإصابتها من عدوله صولة ومهارة من غير أن تخسر سوى سفينتين حربيتين وبضعة نقالات. لا مرية فى أن هذه الحقائق تدلنا على مضاء عزيمة الباشا وعلو همته وبما تحتويه نفسه من صفات العظمة ومزايا الرياسة والقيادة فضلا عن شجاعته التى تنتزع الإعجاب » .



(١) G· Douin-Les Fregates de Moh. Ali page 12

القسم الرابع

المعارك المصرية فى المورة

١٨٢٥ – ١٨٢٧

لما كان إبراهيم فى كريت يتحين الفرص للانقضاض على المورة ، تنازع بحارة الاميرال ميوليس وأعلنوا العصيان ما لم تدفع لهم متأخرات أجورهم ، فاضطر أمير البحر أن يرضيهم !! . وفى خلال هذا التراضى ودفع الأجور قصد إبراهيم باسطوله إلى ثغر مودون (جنوبى غرب المورة) وأنزل جنوده فى أخريات شهر فبراير عام ١٨٢٥ بينما كان العثمانيون يعانون الهزيمة والانكسار فى كل مكان ولم يتبق لهم سوى مودون وميناء كورون التى كان يحاصرها اليونانيون – وكانت مودون رأس جسر لقوات إبراهيم فى المورة .

توحيد القيادة العليا :

وقبل قيام إبراهيم من كريت ، كان أبوه يسعى لدى الباب العالى لاستصدار فرمان بتوحيد القيادة وخلعها على ابنه ، عملا بالمبدأ « رئيسان فى المركب تغرق » . وليس بخاف أن النصر فى الحروب الهامة لا ينال إذا عهد بالقيادة العليا إلى أكثر من رجل واحد . وقد كانت الحوادث الأخيرة أكبر دليل على صدق هذه العقيدة (١) .

وعلى ذلك ولى إبراهيم باشا وحده قيادة الحملة التركية المصرية ، ووصل إليه الفرمان إبان وجوده فى كريت . وما كاد يطمئن على مواصلاته من خطر القرصان ويدفأ الطقس قليلا ، حتى قصد المورة كما أورينا ونزل فى مودون

(١) وثيقة ٢٦٥ ص دفتر ١٦ المعية بتاريخ ٥ رمضان ١٢٣٩ من الجناب العالى الى الكتخدا .
وثيقة رقم ٣٧٥ سجل ١٤ معية بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٩ .
« « ١٧٠ دفتر ١٦ « تركى بتاريخ ٩ رمضان ١٢٣٩ .

بجنوده ، فى قوة وعزم ، بينما كان الشقاق قد دبّ بين صفوف الثوار فخف من حدتهم وجرأتهم وحيلتهم ! .

مسرح العمليات فى المورة :

يقسم خليج كورنث بلاد اليونان إلى قسمين : أحدهما يقع فى شماله والآخر فى جنوبه ويسمى الجزء الجنوبى بيلوبونيسوس وعلى أرضه جرت معظم المعارك البرية بين الجيوش المصرية العثمانية والثوار اليونانيين التى استرسلت حوالى خمسة أعوام .

والبيلوبونيس شبه جزيرة جبلية تقطعها من الشرق إلى الغرب سلاسل متوازية من الجبال الوعرة تمتد من خليج أجينا إلى خليج باتراس وتتشعب منها عدة جبال تجرى من الشمال إلى الجنوب إلى أن تمس البحر الأبيض المتوسط . ويمتاز قلب شبه الجزيرة بانخفاض شديد تقع فيه تريبوليتزا العاصمة القديمة فى أيام السيادة التركية .

وهذه الأراضى جد فقيرة ، يجرى خلالها نهران صغيران هما : أوراتوس وآلفى ، تسد الرمال مصبيهما . وجوها حار فى الصيف بالقرب من السواحل ، وبارد فى داخليتها شتاء ، ولا سيما فى تريبوليتزا . وأكثر الجبال لا تكسوها الأشجار فيما عدا بعض مناطق شحيحة تتبدى فيها غابات صغيرة كما هو الحال فى اركادية وميسينة . وتغلب الطبيعة الصحراوية على البيلوبونيس وتتناثر بين جوانحها بعض الأراضى الزراعية .

وهذه البلاد فقيرة للغاية فى طرق مواصلاتها ، لا يشاهد فيها سوى مسالك ودروب جبلية أو وديان ضيقة صالحة لمرور الحيوانات أو الجماعات .

ويستطيع القارئ أن يتصور أراضى العمليات الحربية التى تطاحنت عليها قوات الجانبين ، ويدرك الصعوبة التى تكبدها المشاة المصريون .

عندما نزلت القوات المصرية بقيادة إبراهيم شبه الجزيرة كانت نفارين التى تقع شمال مودون قد وقعت فى أيدى الثوار ، ولم يك فى قبضة الترك سوى

باتراس على الخليج المسمى باسمها وثغرى مودون وكورون فى شبه جزيرة بيليا . وكان من الضرورى تخليص نفارين لأهميتها كمنفذ أو كمفتاح للبلاد فضلا عن أنها كانت مستودعاً للثوار يستوردون منه الأسلحة .

الشئون الأدارية والخطة :

وفى غد اليوم الذى وصل فيه إبراهيم إلى مودون عهد إلى قواده العناية بالشئون الإدارية كترتيب المعسكرات ، وإقامة المخازن ومستودعات المؤنة ، ورعاية مسائل الجند المتباينة ، بينما كان يدبر خطته للهجوم على نفارين . ورأى أن ينهض بنفسه باستكشاف مناطق التقدم مع قوة من المشاة والخيالة . ثم ارتأى أولا أن يعاون الجنود المحصورين فى كورون ليفك الحصار عنهم وطرد اليونانيين من حولها (٥ مارس ١٨٢٥) — وتحت أسوارها صد المصريون جل الهجمات المضادة التى وجهها العدو ثم عزز حامية كورون وزودها بالمؤن والماشية التى غنمها وعاد إلى مركز قيادته ، حيث قضى فيه ساعات لينسل منها ثانية إلى رحلة استكشافية نحو نفارين .

عناصر النصر :

وفى هذه المعاك وضحت قدرة آلايات المشاة المصرية المستحدثة على القتال ، وعززت مركز إبراهيم فى رأس الجسر . وكان لنظامهم ومهارتهم فى المناورة وحسن أسلحتهم أن تغلبوا على العصاة الأشداء المطبوعين على القتال — وكذلك أظهر الخيالة أنهم عنصر يتفوّق على العدو فى المطاردة والاقتحام والمفاجأة وقد أذهلوه بهجماتهم المتكررة ضد خطوط مواصلاته التى صارت مهددة فى كل وقت . وكانت معنويات الفرسان لا حد لها لثقتهم بمقدرتهم وبقوادهم الأجانب والمصريين والأتراك .

ولما استطال أمد حصار نفارين ، عوّل إبراهيم باشا على القيام بنفسه بمهاجمتها . واقتاد ما تبقى من وحداته . وفى غضون سيره هاجمه ٣٥٠٠ يونانى أتوا لنجدة حامية نفارين فهزمهم إبراهيم وأسر قائدهم نيكولاوس وبدد شملهم ،

وشدد الحصار على المدينة براً وبحراً وكادت تسلم له لولا قدوم وحدات من متطوعى الأروام تبلغ عشرة آلاف مقاتل ، أقبلوا لرفع الحصار عن المدينة وقهر الجيش المصرى .

وهنا شبّت معركة كان عماد النجاح فيها شجاعة إبراهيم ونظام جنده . بدأ بتركيب المدافع كبيرة العيار حول المدينة وترك بعض وحداته تتولى حصارها — ولما علم بقرب الأعداء منه (عشرة أميال) قام برجاله والتقى باليونانيين على مقربة من المدينة وأمر بأن لا تفتح جنوده النيران إلا إذا صار العدو على مائة متر — فحصد الرصاص الصفوف المتقدمة ، وألقى الرعب فى قلوب المهاجمين . ولم يمض قليل حتى اختلت صفوفهم ، ووهنت معنوياتهم ، وتشتتوا شذر مذر ، فى الجبال والوديان واستسلم الباقون وضرب إبراهيم باشا حصونهم فدمرها ثم عاد إلى معسكره فى ٩ مايو .

كانت هذه المعركة نصراً مؤزراً وفوزاً مبيناً للمصريين وقد غنموا فيها أسلحة متكاثرة وأسروا عدداً كبيراً من الأسرى بينهم عدد وفير من الضباط المدربين — وكانت هذه المعركة فاتحة انتصاراته فى حروب المورة . وأظهر ما لاحظه كتاب الأوربيين المنصفين إنسانية الجندى المصرى واتصافه بالنظام ، والشجاعة ، والثبات ، وحسن معاملته للأسرى والجرحى .

أهمية اسفاختريا :

وكان من نتائج هذه المعركة تشديد الحصار على نفارين برا . ولوقوعها على البحر كان يأتيها المدد والمؤن — فقرر إبراهيم الاستيلاء على جزيرة اسفاختريا التى تستر المرفأ ليتمكن من تركيب المدافع بها وإقفال مدخل الميناء ومنع دخول المدد إليها . ولكن لم يغب على أذهان اليونانيين أهمية موقع هذه الجزيرة — فقد حصنوها بوضع عدة بطاريات من المدافع — فكان الاستيلاء عليها من أشق الأمور . على أن إبراهيم — بعد أن شاور أركان حربه — ارتأى أن فتح نفارين مستحيل بغير الاستيلاء على اسفاختريا فصمم على احتلالها

وعهد بهذه المهمة إلى سليمان باشا الفرنساوى وكان ذلك فى مايو ١٨٢٥ .

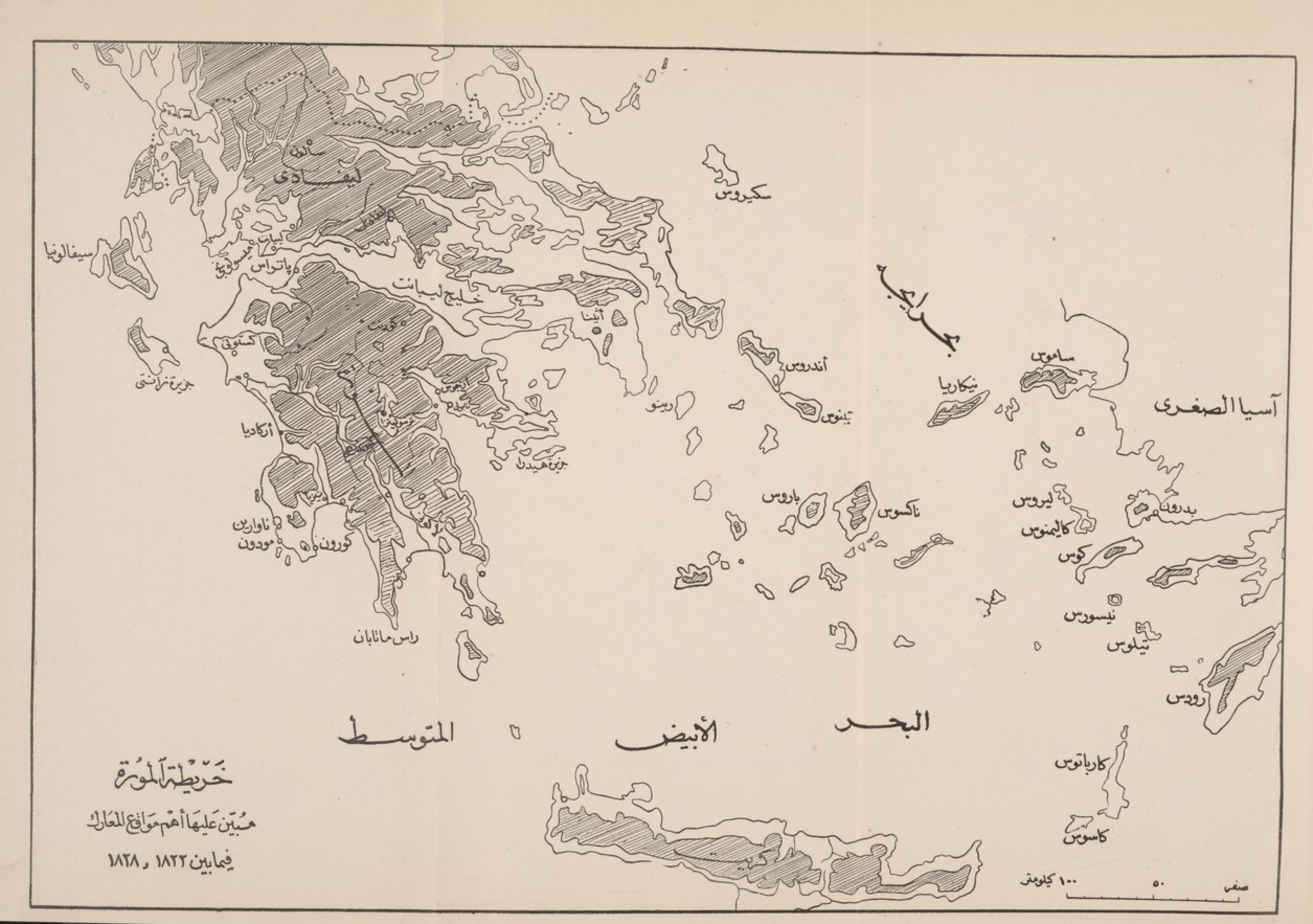
تخير سليمان نخبة من شجعان الجنود [1] واجتاز بهم المياه من مودون إلى نفارين . وبمجرد وصول هذه القوة عزز اليونانيون حاميتهم بمقاتلين وفدوا عليهم .

وتبادل اليونانيون والمصريون نيران المدفعية ، وبالرغم مما أصاب رجال سليمان ، فقد استطاع أن ينزل برجاله عنوة بينما كانت تنهال عليهم النيران من كل الأجناب ، ثم زحفوا ببسالة صوب مواقع المدافع فانتزعوها من رجالها بأسنة رماحهم . ولم تمض ساعات حتى اختفت مقاومة اليونانيين واحتلت الجزيرة بعد دفاع شديد ، ورفع العلم المصرى عليها . وفى المعركة أصيب سليمان بك بطعنة فى فخذه وقتل تسامادوس البطل الإغريقى بعد أن حاول عبثا الاستمرار على القتال— ولما وصل نبأ موته إلى « تسامادوس » من الزعماء أيضا أقسم أن يثأر له فنشر شراع سفنه قاصداً إلى نفارين فلما صار منها على مدى بضعة أميال علم فى مساء ١٢ مايو بوجود نصف الأسطول المصرى راسياً قبالة مودون فيمم صوبه وأحرق فرقاطة وسفينتين من نوع الكورفيت وثلاث سفن أخرى صغيرة ، ودفعت الريح السفن المحترقة صوب بقية الاسطول فاحترقت سفينة كبيرة وفرقاطه و١٣ سفينة من نوع البريك . ثم اتصلت الحريق بالمدينة فأحرقتها ثم بمستودعات البارود فنسفتها ، وانهار جزء من بناية الحصون على السواحل .

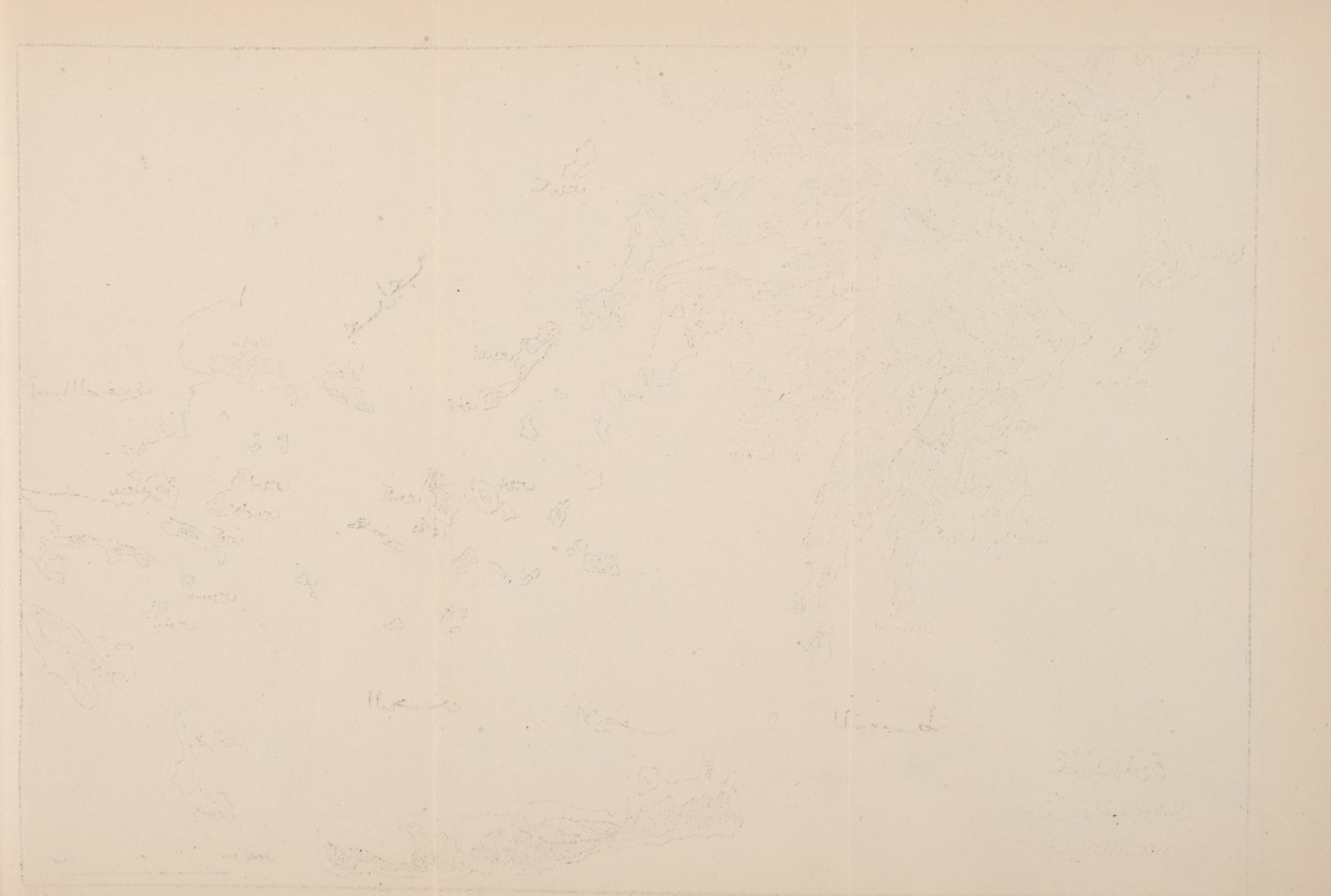
على أن هذا الغزو البحرى لم ينقذ مدينة نفارين من الحصار ، بل بالعكس شدد إبراهيم النطاق عليها ، بالرغم من محاولات اليونانيين فى إيفاد الرجال والعتاد . وحدثت بعد يومين من الحريق أن حاولت قوة كبيرة من العدو الانقضاض على الجنود المصريين ولكن هؤلاء كانوا متأهبين فأفقدوهم رشدهم ، وردوهم مدحورين ، وفر العصاة تحت جنح الظلام ، أو ألقوا بأنفسهم فى لجج المياه ، أو سلموا كأسرى .

---

(١) الآلاى السادس . بقياد سليمان بك الفرنساوى



خريطة المورة
مبين عليها أهم مواقع المعارك
فيما بين ١٨٢٢ و ١٨٢٨
البحر الأبيض المتوسط
بحر إيجه
آسيا الصغرى
ليفادي
سيفالونيا
پاتراس
خليج ليبانت
كورنث
أثينا
جزيرة زانتي
أركاديا
ناوارين
مودون
كورون
راس مانابان
جزيرة هيدرا
سكيروس
أندروس
تينوس
رينو
باروس
ناكسوس
نيكاريا
ساموس
ليروس
كاليمنوس
كوس
نيسوروس
تيلوس
رودس
كارباتوس
كاسوس
كريت
صفر
٥٠
١٠٠ كيلومتر



تسليم نفارين

وفى الثالث عشر من شهر مايو ، خيم اليأس على المحصورين فى نفارين القديمة ونفارين الجديدة فبعث الأولون ثم تبعهم الآخرون وفدا من وجوههم يلتمسون من إبراهيم باشا الأمان فأمنهم الأمير على حياتهم بالشروط التالية :

أولا — تسلم الحامية الموقع مع ما فيه من المدافع والأسلحة والذخائر إلى القائد المصرى الذى يعين لهذا الغرض ، وذلك فى اليوم الذى تكون السفن الأوربية فيه على تمام الأهبة لنقل اليونانيين .

ثانيا — تأخذ الحامية مهماتها وأمتعتها وتلقى أسلحتها .

ثالثا — تنزل فى سفن تجارية نمسوية وانجليزية تنقلها إلى كالاماتا .

رابعا — يرجى من ربابنة السفينة أمارانت والسفينة النمسوية الراسية فى الميناء بأن يحرسوا الحامية اليونانية إلى كالاماتا .

خامسا — يوقف القتال من الجانبين منذ الآن [١] .

كان تسليم نفارين أول مثال لمدينة انتزعها المصريون من اليونانيين ، منذ بداءة الثورة ، وكان وقوعها فى أيديهم مثبطاً لهمم العدو . ومنذ نفارين كان كلما رنّ صوت النفير المصرى تفرقت جموع الأعداء ، وامتلأوا رعبا وهلعا . وطفقوا يتحاشون الحروب المكشوفة واستبدلوها بحرب العصابات .

ويذكر جوان مع ذلك أن تلك الهزائم المتتالية لم تثبط همم الثوار ، فقد لموا شمل بعض رجالهم ، واحتشدوا فوق جبال كوندورونيا [٢] فزحف إبراهيم عليها (٢ يونيو ١٨٢٥) قبل وصول المدد إليه ، وتقدّم فى طليعة فرسانه متسلقا بهم الجبال ووزع على رجاله قنن المرتفعات منتفعين بهيئاتها الطبيعية . وشاءت الأحوال أن تصل وحدات من المشاة فوزعها إبراهيم بين قطاعاته كل منها حسب أهميته . وبدأ يضيق الخناق على اليونانيين — ولما ضاقت بهم الأحوال

---

(١) مصر فى القرن التاسع عشر — جوان — ص ٢٠٧

(٢) على مسيرة حوالى ١٢ ساعة من مودون

تسليم نفارين

وفى الثالث عشر من شهر مايو ، خيم اليأس على المحصورين فى نفارين القديمة ونفارين الجديدة فبعث الأولون ثم تبعهم الآخرون وفدا من وجوههم يلتمسون من إبراهيم باشا الأمان فأمنهم الأمير على حياتهم بالشروط التالية :

أولا — تسلم الحامية الموقع مع ما فيه من المدافع والأسلحة والذخائر إلى القائد المصرى الذى يعين لهذا الغرض ، وذلك فى اليوم الذى تكون السفن الأوربية فيه على تمام الأهبة لنقل اليونانيين .

ثانيا — تأخذ الحامية مهماتها وأمتعتها وتلقى أسلحتها .

ثالثا — تنزل فى سفن تجارية نمسوية وانجليزية تنقلها إلى كالاماتا .

رابعا — يرجى من ربابنة السفينة أمارانت والسفينة النمسوية الراسية فى الميناء بأن يحرسوا الحامية اليونانية إلى كالاماتا .

خامسا — يوقف القتال من الجانبين منذ الآن [1] .

كان تسليم نفارين أول مثال لمدينة انتزعها المصريون من اليونانيين ، منذ بداءة الثورة ، وكان وقوعها فى أيديهم مثبطاً لهمم العدو . ومنذ نفارين كان كلما رنّ صوت النفير المصرى تفرقت جموع الأعداء ، وامتلأوا رعبا وهلعا . وطفقوا يتحاشون الحروب المكشوفة واستبدلوها بحرب العصابات .

ويذكر جوان مع ذلك أن تلك الهزائم المتتالية لم تثبط همم الثوار ، فقد لموا شمل بعض رجالهم ، واحتشدوا فوق جبال كوندورونيا [2] فزحف إبراهيم عليها (٢ يونيو ١٨٢٥) قبل وصول المدد إليه ، وتقدّم فى طليعة فرسانه متسلقا بهم الجبال ووزع على رجاله قنن المرتفعات منتفعين بهيئاتها الطبيعية . وشاءت الأحوال أن تصل وحدات من المشاة فوزعها إبراهيم بين قطاعاته كل منها حسب أهميته . وبدأ يضيق الخناق على اليونانيين — ولما ضاقت بهم الأحوال

(١) مصر فى القرن التاسع عشر — جوان — ص ٧٠٧

(٢) على مسيرة حوالى ١٢ ساعة من مودون

أخذوا يتسربون ليلا للاعتصام بأكمة « سنياشى » فتبعهم المصريون وصعدوا إلى قمتها تحت وابل النيران الشديدة فضلاً عن وعورة الأرض . حتى إذا بلغوا الذروة حاصروا المعاقل والمخابىء ، وقتلوا منهم عددا كبيراً ، وتسلل من تبقى إلى البلدان المجاورة .

وظل إبراهيم يقفوا أثر العصابات فى أمكنة عدة — أليس إبراهيم إخصائيا فى هذا النوع من الحروب — مارسه فى بلاد العرب سنين طويلة ضد الوهابيين ، وفى السودان عند ما ذهب لفتحه . لذلك نراه لا يعنى كثيرا بحرفيات قوانين الحرب التقليدية ، فهو يهاجم خصمه أينما كان إذا وثق برجاله ، وفهم عدوه .

ودأب إبراهيم على النشاط والحركة : يوم يقضيه فى استطلاع مضيق كندورونيا ، وآخر فى الاعتداء على قرى اركاديا واندروتسبا ، ويعود من جولاته بالغنائم والأسرى . ومن أبرع قواده فى حرب العصابات على أغا ورشوان أغاوحسين بك الذين كانوا يفتكون بالعدو حيثما قابلوه . وكثيرة جدا تلك المناوشات التى أرهقت رجال إبراهيم لكنه مع ذلك رأى فيها خير تدريب لهم على ممارسة القتال ضد عدو عرف بالفتوة والشجاعة والبأس .

معركة كالاماتا (يونيو ١٨٢٥) :

وعلى اثر سقوط نفارين حشد بتروبك أمير (مانيا) خمسة الآف ثائر فى ثغر كالاماتا ، وشرع فى ترميم سورها — فلما انتهى إبراهيم من القضاء على تجمعات الثوار التى سبق الحديث عنها قصد كالاماتا وشبّ القتال عنيفا بين الفريقين وأفضى بفرار اليونانيين ودخول إبراهيم المدينة (يونيو ١٨٢٥) فأرسل قائدنا فصيلة لاقتفاء أثر الفارين . فأدركتهم وقتلوا منهم ٥٣٢ وانتقم المصريون خير انتقام من الزعماء بتخريب قراهم وغَنْمَ ماشيتهم ومحصولاتهم . وتم أيضا الاستيلاء على أركاديا [١] .

---

(١) تقع على البحر غربى شبه جزيرة المورة

معركة تريبوليتسزا
٢٣ يونيو ١٨٢٥

أمضى إبراهيم عاماً وبعض العام فى المورة وهو لا ينتهى من معركة حتى ينتقل إلى أخرى . وبالرغم من انتصاراته المتتالية لم ير أثراً لنجاحه . وأخيرا وصل إلى قرار حكيم وأخذ فى تنفيذه : ذلك أن تريبولتسا عاصمة المورة . طالما استمرت تؤيد الثوار وتمدهم بالمدد بل ويلهم قادتها الثوار فلن تتلاشى العمليات فضلا عن أن هذه المدينة تحظى بموقع ممتاز لتوسطها شبه الجزيرة ولمناعة وصعوبة الوصول إليه ، فقرر إبراهيم الزحف عليها مجتازا جبل تايجنت .

ومع صعوبة عبور هذا الجبل ومضيقه فقد هزم إبراهيم عصابات الثائرين بقيادة كولوكترونى وبتراكو اللذين وقفا لسد الطريق فى وجهه ، فى معركة عنيفة ، قتل فيها خمسمائة من الثوار . ثم دخل المصريون المدينة وقد هجرها أهلها وأشعلوا فيها النار وفروا إلى الجبال .

واسترسل إبراهيم فى زحفه لمطاردة الثوار لكى يجهدهم ولا يسمح لهم بالتجمع فيقووا عليه . فقام فى جيش مؤلف من خمسمائة فارس وكتيبة مشاة يعززها مدفعان ومدفع هاون فوصل فى يوم ١٨ يونيو إلى سهل ارجوس فأحرق ما فيه من أشجار الزيتون وهدم طواحين نابولى وبدأ النضال قويا بين الفريقين .

وتظاهر إبراهيم بالتقهقر أمام ضغط العدو ، ولكن لم يك ذلك منه إلا حيلة لاستدراج الثوار إلى أرض المعركة التى اختارها لهم ، وظل يجتذبهم إلى طريق تريبوليتزا ثم ينقض عليهم ويفاجئهم فى كل مناسبة ويقتل منهم عدداً موفوراً ويغنم كل ما تقع عليه يده . مما يحتاج إليه الجنود فى طعامهم . ومما يذكر أن الطريق الذى سلكه كان قليل موارد المياه ، وكان الطقس حاراً للغاية ، مما افضى إلى موت كثير من جنده عطشا . ثم احتل باتراس ، ودانت له شبه جزيرة المورة عدا مدينة نوبلى عاصمة حكومة الثوار وأخذ يعد العدة لحصارها .

وفى خلال عمله أرسل إليه القائد رشيد باشا يستنجد به وليعاونه فى حصار ميسولونجى فأجّل تنفيذ خطته وولى جهة شطر ميسولونجى .

وقبيل أن نولى وجهنا صوب هذه العملية الهامة ، نعرض أهم الأحداث التى وقعت فى مصر ، والتى تتصل بحملة المورة ، وهى بلا مراء أحداث جديرة بالذكر .

السفن اليونانية تهاجم سواحل مصر :

انتهزت قيادة بحرية الثوار اشتغال الأسطولين المصرى والتركى فى المياه اليونانية ، فقصد على غرة امانويل تومبازيس الرئيس البحرى قبالة الإسكندرية وبصحبته ٢٣ سفينة شراعية وفرقاطة اسمها (لاهيلاس) رافعة العلم النمسوى . ولما أرخى الليل سدوله نزل ثلاثة من ضباط السفن إلى حراقاتهم حتى إذا اقتربوا من السفينة المصرية تكران وكانت تحرس الميناء حتى أشعلوا النار فيها . وفى الحال لاحت المكيدة لحراس الميناء فى طابية صالح فبادروا إلى إطلاق المدافع على السفن اليونانية ، وقاومت السفن المصرية بإرسال بعض زوارقها المسلحة إلى إحدى السفن اليونانية فهاجمتها . فلما رأت السفينتان الأخريان ما حل بالأولى لاذتا بالفرار .

واتفق أن كان محمد على فى قصر رأس التين ساعتئذ وجالساً فى مكان يشرف على الميناء فشاهد ما حدث ، فامتطى مطيته وخفّ إلى الطابية مسرعاً ، أملا منه بأن يدرك اليونانيين قبيل فرارهم . فلما وصل إلى الطابية وتبين له أن مرمى مدافعها لا تدركهم أمر بعض السفن بمطاردتهم وكانت سفينة واحدة متأهبة للاقلاع فوراً فأقلعت وحدها وفى الغد أقلعت سفن أخرى . وبعد يومين تلقى محمد على نبأ بأن اليونانيين أحرقوا سفينة كانت قادمة إلى إسكندرية موسوقة خشبا فكبر الأمر عليه وللحال أسرع إلى أول سفينة حربية (جناح بحرى) وجدها فى الميناء وانطلق بها فى وسط البحر متعقباً اليونانيين فاستغرق غيابه أسبوعا من دون جدوى . والآراء متفقة على أنه لو التقى باليونانيين لكان من المحتمل جداً

أن يلقى حتفه ، لأن عددهم كان أكثر من عدد رجاله بمراحل وكذلك كان عدد سفنهم أكثر من عدد سفنه [١] .

ثم أصدر أمراً إلى محرم بك أميرال الأسطول باقتفاء أثر اليونانيين بمياه رودس والتحرش بهم لاستدراجهم إلى القتال ، ولكن الأسطول المصرى ظل يعبر البحر فى كل اتجاه عدة أيام بدون أن يعثر على الفارين [٢] .

فشل دسيسة خسرو :

ومن المدهش أنه فى اليوم التالى الذى غامر فيه محمد على بالخروج إلى البحر [٣] روعت الإسكندرية لمنظر أسطول يتألف من حوالى أربعين سفينة يدنو من ثغرها ، فظنه السكندريون أسطولا يونانيا فى بداءة الأمر ، ثم ما لبثوا أن تبينوا أنه الأسطول التركى الذى عقد لواءه لخسرو باشا . وكانت ذخيرته ومؤونته قد نفدت فى حصار ميسولونجى فقرر أن يدع إبراهيم باشا وحده ويجىء إلى إسكندرية . ولم يتبدد خوف مساعدى محمد على لما علموا أن الأسطول القادم هو أسطول خسرو باشا (ولا يخفى العداء المبيت بين خسرو ومحمد على) وتساءل الجميع هل انتهز الأول فرصة غياب الثانى عن إسكندرية فسعى للتخلص منه ؟ ...

وعلى كل حال اجتمع نظار محمد على وبحثوا الموقف وقرروا السماح للأسطول التركى بدخول الميناء على أن لا يسمحوا لخسرو باشا بالنزول إلى البر بحال ما . ووصلت أنباء إلى القاهرة بأن خسرو باشا أرسل سبعاً من سفنه لسد مدخلى رشيد ودمياط ، وأنه قد يقبض على محمد على .

بيد أنهم تنفسوا الصعداء حينما علموا فى ٢٠ أغسطس عام ١٨٢٥ أن محمداً علياً انسل إلى الميناء تحت جنح الظلام ووصل قصر رأس التين قبل أن يذاع نبأ عودته . ثم اجتمع بخسرو وأخفى كل منهما عواطفه الحقيقية عن

(١) محمد على — للأستاذ كريم ثابت ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) مصر فى القرن التاسع عشر — جوان ص ٧١٩

(٣) محمد على — كريم ثابت ص ١٢٩

الآخر ، وهنأ خسرو محمد على بعودته، ثم ارتجى منه بلطف وباسم الباب العالى أن يمده بالمال والذخيرة .

وفى شهر أكتوبر زايل خسرو إسكندرية بعد أن منحه مرتبات رجاله وثمانية آلاف جندى و١٥٠٠ جواد ليعزز بها قوات إبراهيم باشا قبالة ميسولونجى[١]

ابحار الأسطولين :

وفى يوم ١٧ اكتوبر ١٨٢٥ أبحر من إسكندرية الأسطول المصرى والتركى فى ٢٩ قطعة منها ٦٥ حربية وعلى ظهرها ١١ الف جندى بعد أن عقد محرم بك لواءه على الفرقاطة الاحسانية . وفى يوم ٢٧ اكتوبر ألقت السفن مرساها فى كريت ومنها تابعت سيرها إلى نفارين حيث خف إبراهيم باشا لاستقبالها عند وصولها فى ٥ نوفبر ١٨٢٥ . وبعد انتهاء مهمته عاد إلى إسكندرية ليخرج منها يوم ٢٢ نوفبر وتحت إمرته فرقاطتين وخمس قراويط و١٨ إبريقا وثمانى غوالت وانضمت إليه ٢٧ نقالة عثمانية و ٢٣ سفينة تجارية معظمها مستأجرة من النمسا وكانت مهمته فى هذه المرة نقل المؤن والذخائر إلى المورة — وعلى الرغم من الصعوبات التى صادفت طريقها فقد وصلت القافلة البحرية سالمة إلى نفارين فى اوائل ديسمبر ١٨٢٦ واستمر محرم بك يضطلع بمهمته نقل الإمدادات من مصر إلى قاعدة العمليات البحرية طوال مدة الحرب إلى جانب ما يكلفه به من الأعمال الأخرى .

---

(١) من سولت إلى وزارة الخارجية البريطانية في ١٥ سبتمبر ١٨٢٥

القسم الخامس

المعارك الختامية فى المورة

معركة ميسولونجى
١٨٢٦

أهمية الموقع :

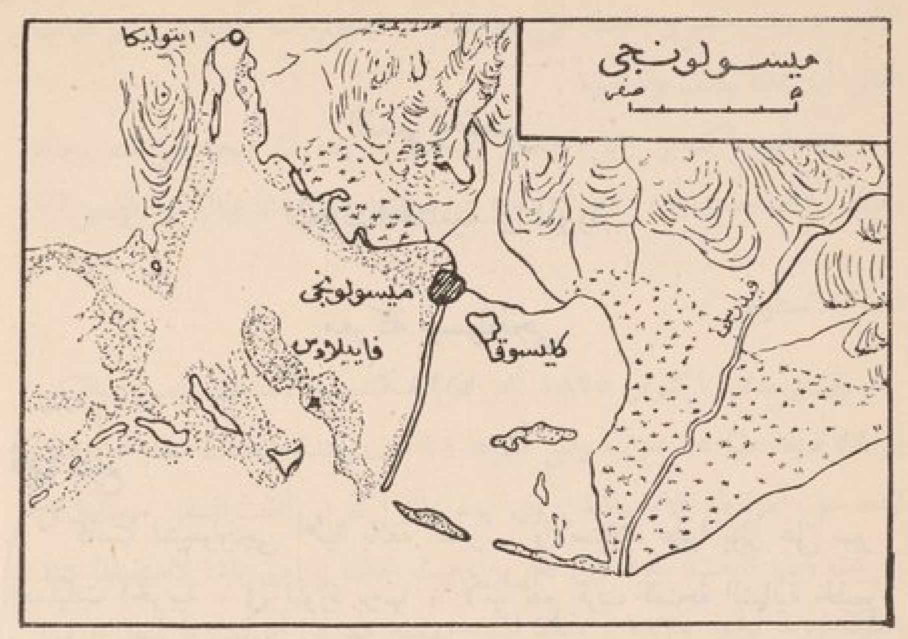
كانت لميسولونجى أهمية بالغة القدر ، والاستيلاء عليها يؤثر على سير العمليات الحربية ، فى المورة برمتها ؛ لأنها تقع قرب الفتحة الشمالية لخليج ليبانت ، وكانت تصل منه إلى أهالى سولى مهمات وعتاد الحرب وتسهل بوساطة الجزر اليونانية وسائل الاتصال بالهيئات الأوربية الصديقة للثوار — ولا يتسنى الوصول إليها إلا من الشرق أو الشمال — أما من جهتى البحر والغرب فكانت تحميها أكوام الرمال والمخاضات والجزر المتناثرة أوكار القرصان وأظهرها دولة واندا ليكوس وفاسيلادى . وكانت فى عام ١٨٢٤ محصنة بسور منيع — وكانت مياه ساحلها قليلة العمق ، الشىء الذى يجعل رسو السفن منها أمرا عسيرا ، إلا إذا وقفت على مسافة فرسخين من البر ، وكانت بطاريات الحصون تشتمل على ثمانين مدفعا ، فضلا عن الخنادق العريضة التى كانت تحيط بأهم أجزاء سور المدينة . وحتى فى حالة رسو السفن بعيداً كانت تقابل أمامها جزيرة فاسيلادى المحصنة بالرجال والمدافع .

وكانت حامية ميسولونجى من الثوار يبلغ عددها ٤٠٠ مقاتل [١] .

ولتلك الأهمية الكبرى كان الاستيلاء على ميسولونجى يساوى الاستيلاء على نصف بلاد اليونان .

لم يك إبراهيم بعد هذا الجهد قد سيطر على داخلية المورة . بل كان قد

(١) مصر فى القرن التاسع عشر — جو ن — ص ٧٢٢



استولى على معظم منافذها الجنوبية والشرقية والغربية ، ولكن فى الشمال كانت القوات التركية تغالب اليونانيين وينالون منها ولم تضرب بعد الضربة القاصمة .

وبالرغم من تغلب إبراهيم على الثوار فى أكثر المعارك عن طريق حروب العصابات لكن هذه كانت بالمرصاد للقوات المصرية تناوشها حيث تقابلها ثم ترتد نصف خاسرة إلى داخلية البلاد . لذلك قرر إبراهيم أنه لابد من محاربة اليونانيين فى جموع كثيرة منظمة بعد أن استولى على منافذ المورة حتى باتراس المواجهة ليسولونجى .

وبينما يضع خطته لتنفيذ عملياته الكبيرة كما يقتضى الموقف العسكرى كان قد تلقى المدد من أبيه ، فوصل إليه ٨٠٠٠ جندى من الآلايين السابع والثامن بقيادة حسن بك وحسين بك والمدفعية الميدانية ومدافع الحصار والذخيرة وما إليها .

ولما كان رشيد باشا قد عجز عن إخضاع ميسولونجى ، خلال ستة أشهر ، فقد أرسل إلى إبراهيم يطلب منه معاونته فى التنكيل بالثوار قائلا له :

« هل يرضيك أن تتركنى هكذا لعبة بأيدى أولئك الملاعين . إن امتلاك اليونان كلها يتوقف على أخذ أسوار مسيولونجى . فهلم إلى « من غير تأخير » [١]

---

(١) مصر فى القرن التاسع عشر — جوان ص ٢٢٧

خطة إبراهيم فى فتح ميسولونجى :

وكان رشيد باشا ، حينما عجز عن الاستيلاء على ميسولونجى ، أرسل إليه السلطان كتابا من أربع كلمات هى (إما ميسولونجى وإما رأسك) فعمل القائد كل ما فى وسعه فنراه يعمد إلى شن الهجوم مرة ، وإقامة الاستحكامات أخرى ، إلى أن بلغت به الحال حافة اليأس ، عندما استنجد بإبراهيم .

وصل إلى إبراهيم كتاب رشيد . فأرسل لوالده ينبئه بذلك . وعقب اتصالات بين محمد على والباب العالى جاء إلى إبراهيم كتاب من السلطان يسند إليه ولاية المورة وكتاب آخر يدعوه فيه إلى الزحف إلى ميسولونجى فابتهج إبراهيم بهذه الدعوة والمنصب وشرع فى العمل منتهجا الخطة التالية :

أولا — ولى قيادة القوات المصرية فى المورة للكولونيل سيف (سليمان الفرنساوى) وكان أهم مواقعها تمتد من تريبوليتسا إلى باتراس . وللاحتفاظ بخطط المواصلات بين الثغور والبلاد الداخلية لكى لا تقع مرة أخرى غنيمة فى قبضة الثوار فتقطع خطوط التقهقر .

ثانيا — وجه شطر باتراس الثلاث أورط الأول من كل الآى من آلالايات الستة المشاة المنظمة تنظيما حديثا وهى الآلايات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ وفى معاونتها ٦٠٠ فارس والعتاد والمؤنة وأصبحت باتراس القاعدة الأمامية لقواته الذاهبة إلى ميسولونجى .

ثالثا — عبر إبراهيم خليج ليبانت على سفن الأسطولين التركى والمصرى ونزل على مقربة من ميسولونجى بثغر كيريونيوس (آخر ديسمبر ١٨٢٥) بجيش مؤلف من ١٠٫٠٠٠ مشاة و ٥٠٠ فارس ومدفعية — وكانت قد وصلت إلى رشيد باشا إمدادات إلى جانب جيشه المؤلف من ١٥٫٠٠٠ .

التمهيد للمعركة والخطة الجديدة :

وحدث أثناء عبور ليبانت أن تدخلت السفن اليونانية فى معارك مع الأسطول المصرى والتركى وكانت الغلبة فيها للثوار ، ومع ذلك انتهت أعمال

النقليات بدون حوادث هامة ، ونزلت جنود الحملة المصرية فى أمان كما قلنا ، ثم انتقلت إلى المعسكر بالقرب من الجيش التركى خارج أسوار المدينة .

ومن سوء الحظ أن يقع سوء التفاهم بين القائدين ، ويتصل أمره بالسلطان ، فيرسل من يصلح ذات البين ، وإن كان إبراهيم قد أبدل خطة رشيد باشا بخطة مستحدثة من وضعه .

وكانت خطته صورة أصلية لخطة نفارين ، وهى تتلخص فى تشديد الحصار حول ميسولونجى براً وبحرا ، وتكليف محرم بك أمير الأسطول المصرى باحتلال الجزر الواقعة على مدخل الميناء ليحول دون ورود المدد بحرا إلى ميسولونجى .

معركة ميسولونجى

طالب إبراهيم أهالى ميسولونجى أن يصدعوا للتسليم ، ولما رفضوا بادر الجيش المصرى بفتح النار فوراً عليهم ، وظل يواصل إطلاقها ليل نهار ، فخربت المبانى ، وخرج أهلها منها مذعورين ، بينما استبسل حماة المدينة على الأسوار يدافعون عنها ، ولسان حالهم يقول :

« لايزال لدينا الخبز والخرطوش ، وسنقاوم الباشا المصرى حتى النهاية »

وفى مساء الثامن من فبراير قسم إبراهيم جنوده إلى قسمين ، ودفع بالقسم الأول على البرج الأثم تسليحا فأمسك الثوار عن اطلاق النيران ثم لما وصل المصريون فى منطقة القتال أصلوهم بطلقات شديدة وهجوم مفاجىء مريع اضطرهم إلى التقهقر ، وتقدم القسم الثانى فاستدرجوهم إلى أرض مبثوثة بالألغام ذهبت ضحيتها الصفوف الأولى وأكرهت الباقى على التراجع وبلغت خسارة إبراهيم فى هذه المعركة الأولى خمسمائة جندى ، ثم حدثت معركة تالية كان عدد ضحاياها ثلاثمائة .

لذلك عدل إبراهيم عن هذه الطريقة فى الهجوم ، وأخذ فى استكشاف

أرض المعركة بنفسه ومعه مهندسه العسكرى السنيور « رومينى » الايطالى فاتفقا على سد المسالك المؤدية إلى ميسولونجى برا وبحرا وكان الترك قد أهملوا سد بعض النقاط البحرية التى كانت تسهل توصيل المؤن للمحاصرين عن طريق أصدقائهم الأوربيين . كما أسرع فى إنشاء حوالى ١٥٠ سفينة خفيفة مفرطحة القاع ليسهل استخدامها فى المياه الضحلة (١) . ولما تم صنعها أنزل بها كتيبتين من الآلاى الخامس والثامن فتقدمت بها تحت حماية مدافع أسطوله حتى وصلت إلى مرمى القربينات من جزيرة انتوليكوس القائمة فى الناحية الغربية من حصن مسلنك .

الاستيلاء على جزيرتى دولماس وانتوليكوس :

وكان لهاتين الجزيرتين فائدة استراتيجية كبرى للمهاجمين والمدافعين . وكانت ثانيتهما تقع فوق صخرة معزولة تحمى الطريق الموصل إلى ميسولونجى ويمنع موقعها الدنو إلى المدينة المحاصرة — ويبعدان الاثنان عن بعضهما حوالى نصف ميل . وقد أقام فيها الثوار طابيات ركزوا فيها ٦ مدافع ووضعوا بها نحو ثلاثمائة من أشداء رجالهم . وقد رؤى الاستيلاء على دولماس تمهيدا للاستيلاء على انتوليكوس وقد عين لمهاجمة الجزيرة بحرا قوات أعد تدريبها على أساليب الفدائيين بقيادة حسين بك وإبراهيم أغا وسليم أغا (٨ جى آلاى) وغيرهم ثم انتقل معهم إبراهيم باشا وأخذ فى تشجيع العساكر بصوته الداوى ويحرضهم على مهاجمة الثوار فاندفعوا نحو الجزيرة يخوضون عباب الماء والطين — ولما أصبحوا على مقربة من الجزيرة راح الثوار يطلقون عليهم نيران المدافع والبنادق وكان الجند يتقدمون تحت وابل الطلقات واجتازوا ثلاث مستنقعات ثم توقفوا عند المستنقع الرابع القريب من أحد بطاريات الثوار على أن ثمة قوة أخرى من الجنود كانت تتقدم

(١) راجع الوثيقة التركية رقم ١٠٠ — محفظه رقم ١٠ بتاريخ ٣ شعبان سنة ١٢٤١ (١٣ مايو ١٨٢٦) فى محفوظات سراى عابدين وتتضمن [تعليمات محرم بك قائد الأسطول المصرى إلى قبطانات السفن لإنشاء هذه السفن بسرعة نظراً لأهمية المهمة التى هى من أجل الخدم التى تقدم للدين المبين والسلطة السنية .

إلى الأمام مستبسلين رغم الخسائر ويقاتلون بروح الشجاعة والبطولة وتضحى بنفوسها فى سبيل الدين والدولة[١] وسوف لا نهمل تدوين هذه الصورة الرائعة من الشجاعة لضباط وجنود هذه الكتيبة فننقلها بحذافيرها عن الأصل الوارد فى الوثيقة لأهميتها :

« وفى تلك الآونة كان حامل علم الكتيبة ١٠ (٥ جى آلاى مشاة) التى بقيادة سليم بك قد خاض المياه الموحلة حتى بلغ منتصف الطريق وهناك غاص فى الوحل وعجز عن الحركة وإذ ذاك أسرع إليه حمزه أغا احد بكباشية هذه الكتيبة وتناول منه العلم — وما أن سار به مسافة صغيرة حتى كان حامل العلم قد تخلص من الوحل ولحق به — ولما أراد أن يستعيد منه العلم رماه الثوار (الكفار فى الأصل) بطلقة وجرحوه حيث ظل العلم مع حمزه أغا . غير أن صول قول أغاسى الكتيبة المذكورة ألح على حمزة أغا بتسليمه العلم فسلمه إليه . ولكن الصول قول أغاسى بعد أن اجتاز والعلم بيده بعض الطريق تسرب الماء إلى ملابسه وامتلأت به وتعذر عليه أن يتقدم بسرعة فعاد البكباشى حمزه أغا وتناول منه العلم وتقدم به . ولما كان يهم بتركيز العلم على طابية الكفار رماه هؤلاء هو الآخر بطلقة فجرح فتناوله منه إذ ذاك أحد المصريين أبناء العرب وهو الملازم الأول لدى اليوزباشى الرابع ولكنه أصيب فى موضعين من جسمه بجروح فتقدم أحد جنود الأومباشى الرابع لدى اليوزباشى الخامس وتسلم منه العلم غير أنه أصيب بجرح — فتناوله منه الجاويش الثانى حسين . وما أن تقدم به قليلا حتى أصيب بجروح أربعة فى مواضع من جسمه . فأسرع أحد جنود الأنباشى الأول لدى اليوزباشى الخامس وتسلم العلم منه ولكنه سرعان ما أصيب هو الآخر بجرح فتقدم الأونباشى الثانى لدى اليوزباشى السادس وهو الأونباشى حسين وأخذ يحاول تثبيت العلم فى طابية الكفار على أن عساكر الروم الأناضوليين وعساكر كريت كانوا على وشك الهزيمة — وقد تخلفوا عن تتبع جنودنا النظاميين وحاولوا العودة إلى البر — وما أن لمح منهم ذلك إبراهيم باشا حتى

---

(١) الوثيقة السابقة .

امتشق حسامه وصاح بالقوم :

« لست أنا الذى يولى الأدبار يوم القتال ، إنما أنا من ترونه يخوض غمار الوغى ، بين الدم والوحل » .

ثم نزل عن صهوة جواده ، وتقدم نحو الماء الوحل حتى غاص فيه إلى عنقه ، وأخذ يضرب بسيفه بعض الجند الذين ابتغوا العودة إلى البر ، ويقوى قلوب أهل الإسلام ويحثهم على مقاتلة الكفار ، ويعلن أن الذين يتقاعدون عن مقاتلة الكفار لن ينجوا من سيفه — فثارت الحمية فى نفوس الجند ، واعتمدوا على الله وهتفوا جميعا : الله — الله. واقتحموا الماء فى طريقهم إلى الجزيرة — وبعد أن تخبط معظمهم فى الوحل ، واعتمد البعض الآخر على السباحة ، بلغوا شاطىء الجزيرة — وفى تلك الآونة كان حسين بك الذى عهد إليه بمهاجمة الجزيرة من ناحية البحر قد وصل بالسفن التى تقل جنوده إلى مسافة ٥٠ خطوة من طوابى الجزيرة وأخذ يصلى الكفار نيران المدافع والبنادق ، ويبث الرعب فى قلوبهم — وإذ ذاك أبدت الجنود القادمة من طريق البر روح البسالة وساعدتها القوة البحرية فى القتال — وتقدم الأغا الجوقدار من الجهة اليمنى بينما زحف البكباشى عثمان أغا من الجهة اليسرى وهاجموا متاريس العدو واستولوا عليها — وعلى إثر ذلك اتحدت جميع القوات الزاحفة برا وبحرا وأمعنت فى قتال العدو الذى منى بهزيمة تامة وكان عدده ثلاثمائة فلم ينج منهم سوى عشرين وحاول بعضهم الوصول إلى جزيرة أنتوليكوس .

وقد استشهد وجرح فى هذه المعركة عدد من الضباط والجند جاء ذكرها فى الوثيقة المذكورة .

ومع كل الصعاب التى جابهت إبراهيم ، فإنه بعد استراحة قصيرة استأنف الهجوم على الجزيرة الأخرى « انتوليكوس » وكلف رجال الآلاى الثامن بهذه المهمة بقيادة قائدها حسين بك . فطوقوها من جميع جهاتها ، وراحت تضيق الخناق على العدو ، وأخيرا وجدوا أن لا حيلة لهم سوى التسليم ، فأرسلوا من يطلب منحهم الأمان فأجيبوا إلى طلبهم على شرط أن يسلموا جل أسلحتهم .

وقد أشرف حسين بك على طرد العدو من الجزيرة ووضع يده على الغنائم الوفيرة . وبإخلائها أرسل الأسرى من المقاتلين إلى باتيه .

بعد بضعة أيام ، سقط حصن فاسيلادى بأيدى المصريين ، فكان آخر الحصون التى حمت ميسولونجى ، وبذلك حرمت من جميع السبل التى كانت تصلها بالبحر . وأحاطها إبراهيم برا بحصار شديد ، وصار يضيق خطوطه يوما بعد يوم ، بينما كانت الحال تسوء من سىء إلى أسوأ . وفقد العدو كل أمل فى فك الحصار ومع ذلك يفكر جنوده فى الإذعان ، رغما عما حل بزملائهم فى الحصون التى تهاوت ، وضرب الجوع على اهلها حتى أنهم لجأوا إلى أكل لحوم الخيل والحشائش البحرية ، ومات الضعفاء منهم ، وسقط الجنود مغشيا عليهم فى مواقعهم العسكرية —وكانت تقوم بين يوم وآخر مناوشات صغيرة مات فى إحداها القائد حسين بك أشجع ضباط إبراهيم ، عقب ما أصيب برصاصة فى جبهته .

وفى الخامس من أبريل ، تقدمت أعمال الحصار ، وضاق الخناق بالمحصورين ، الذين عرضوا ثلاث مرات على إبراهيم أن يخرجوا ومعهم أسلحتهم وعتادهم فأبى . وعندما فقدوا كل أمل فى وصول النجدة ، وخلت ميسولونجى حتى من العشب ، تأهبوا للخروج الذى تخيروه لأنفسهم .

وكتبوا — بعد المشاورة — إلى كاراسكاكس ، أحد رؤساء الثوار خارج المدينة ، إنهم اعتزموا مبارحة مدينتهم فى ١٢ أبريل ، وقت الغروب ، وكلفوه أن ينتقل فى ذلك اليوم إلى جبل أراسينت ، وأن ينبههم باقترابه بطلقات قوية من البنادق ، حتى يمكنهم بمعاونة هجوم من الجانبين ، فى وقت واحد ، من أن يشقوا لهم ممرا بين صفوف الأعداء . وبعد إرسال هذا الكتاب طفقوا يتأهبون للخروج [١].

وأظهر سكان المدينة — الضعفاء والشيوخ — من غير المقاتلين وطنية وحمية

---

(١) — الأمير عمر طوسون — حرب اليونان ١٨٢٣ — ١٨٢٨ — مجلة الجيش — المجلد ٤ — عدد ١ أكتوبر ١٩٤١

قلما يوجد لها نظير فى التاريخ . فقد اتفقوا على أن لا يبقوا أحياء ، وذلك بأن يلتجأوا إلى جل المبانى وعلى الأرض الملغومة ، وينتظروا إقبال المصريين ، وعندما يكونون على مرمى مقذوفاتهم يقدمون أنفسهم طعمة للنيران فداء عن ميسولونجى .

وكان لسان حالهم « الموت وبأيدينا السلاح »

ضربة إبراهيم القاصمة

وكان قد وردت لإبراهيم بعض المعلومات الخاصة بما عزم عليه العدو . وعن خطته فى الخروج بالقتال من ميسولونجى ، بمعاونة كاراسكاكيس . فأعد خطة مؤقتة إلى أن تتبدى له تماما نية العدو ، تتلخص فى وضع كتيبتين على جبل أراسينث لتحولا دون تقدم العدو .

وفى اليوم المتفق عليه انقسم العدو إلى قسمين :

أحدهما مؤلف من الجنود وواجبهم حرق معسكر رشيد باشا ، والثانى مؤلف من الأهالى المسلحين ، وفى وسطهم آباؤهم ونساؤهم وأطفالهم ، وعليهم المرور بين جنود إبراهيم باشا

وفى الساعة السابعة مساء ، استعد جنود العدو فى الهبوط من أبراجهم . وفى الثامنة دوت طلقات البنادق بشدة فى اتجاه جبل « أراسينث » ولدى هذه الإشارة تحركت صفوف العدو فى صمت عميق — فلما وصلت إلى أسفل بطاريات رشيد باشا كفت عن السير منتظرة سماع دوى طلقات أخرى أشد من الطلقات الأولى معلنة بدء الهجوم المتفق عليه مع جنود الزعيم كاراسكاكيس بيد أنه لم يحدث شىء مما كانوا فى ارتقابه ، فلما ملوا الانتظار قام رؤساؤهم وصاحوا بهم :

« أيها الأخوة إلى الأمام ؛ والهلاك للمتوحشين »

واجتازوا مسرعين ، متراصين ، جميع خطوط رشيد باشا .

وكان إبراهيم باشا حتى هذه اللحظة يجهل النقاط التى عقد الثوار النية على التسلل منها . ولم يك كذلك يعرف شيئا عن الطريق الذى اختاروا أن يسلكوه . ولهذا لم يتيسر له أن يعرف من أى جزء من الحصون خرجت جموع المحصورين ، إلا حينما لاحت طلائع القسم الثانى المؤلف من الأهالى .

قضى جيش إبراهيم الليل على قدم الاستعداد ، ومدافعه محشوة ومتأهبة ، وصدرت الأوامر إلى البطاريات بإطلاق النار فى الاتجاه الذى نفذ منه الثوار ، وقامت عدة كتائب بالتقدم فى الحال — وفى غضون الاضطراب الذى غالبا ما يحدث فى العمليات الليلية استطاع بعض الأهالى فى الخروج والابتعاد عن خطوط إبراهيم باشا ، غير أن الجانب الأكبر اكتسحته قنابل المدافع المصرية ، وأوقفته رصاص وسونكيات جنود المشاة ، فاضطروا إلى الارتداد إلى المدينة . وتحين المشاة هذه الفرصة السانحة فطاردتهم من الوراء بدون رحمة .

وفى مجالى الفوضى الفاشية كان المصريون يقاتلونهم بدون شفقة ، ودارت معارك طاحنة فى كافة أرجاء ميسولونجى . وتحول كل باب ونافذة ، بل وكل شق فى الجدران ، إلى متراس يتلقى هجوما عنيفا ويجاوب بدفاع حماسى ، واستمر القتال الليلى على هذا الغرار القاسى أربع ساعات . ولم يك هناك إغريقى واحد يطلب العفو ، بل أقدم الجمع على الانتحار بشكل يدعو إلى الاحترام ، ولم يفكر عجوز أو صغير ، أو رجل أو فتاة ، إلا فى قتال المهاجمين بأى ثمن .

وكان ينهض فى وسط الجدران المتهدمة مبنى مرتفع تتوسطه ساحة رحبة علاوة عن مستودع ذخيرة . وقد احتشد فى هذا المبنى الوف من النساء والأطفال والشيوخ بزعامة اسقفهم كابساليس . فلما وصل إليه المصريون تسابقوا مهرعين نحو جدرانه ، ومضوا فى تحطيم منافذه وأبوابه ، أو الصعود على سقفه ، حتى إذا ما بلغوا أقصى عدد منهم أمر كابساليس بفتح النوافذ والأبواب وأمسك بمشعلة متقدة ووضع النار فى البارود . فنسف المبنى بما فيه ومن فيه ، وهدمت الدور المجاورة برمتها ، وتشققت الأرض . وزال من فيه من عالم الأحياء وكان



أمير الأسطول إسماعيل جبل طارق



من بينهم نحو ألفين من الجنود المصرية ، ذهبوا ضحية بسالتهم . ونسف برج آخر على هذا النسق ، وراح كل من فيه ضحية وقربانا للوطن .

أما الأهالى الذين نجوا من هذا الهول فقد اجتمعوا عند سفح جبل أراسينث ، بأحد الأديرة ، وقد هلك منهم عدد باهظ ، وعليهم أن يعبروا طريقا طويلا إلى الجبل . ولم يفت إبراهيم أن يحرس ممراته فعين كتيبتين مصريتين للقضاء على أية قوات قد تصل لنجدة هؤلاء اللاجئين — وكانت قبالتهم مرحلة خطرة وبعيدة المدى ليصلوا إلى الجبل .

ولما حاولوا اجتياز الطريق استقبلتهم جنود إبراهيم من الجانبين بالنيران . ولكن لم يفت ذلك فى معنويتهم ، أو تنفيذ خطتهم ، فاستمروا فى معركتهم يقاتلون بشجاعة لا يتصورها البشر — وبينما كان القتال دائرا فى أبشع صورة قدمت قوة مؤلفة من حوالى ٣٠٠ إغريقى أرسلهم كاراسكاكيس الطريح الفراش فوقع المصريون بين نارين وأكرهوا على الارتداد . واستطاع الثوار الشجعان مواصلة السير . وهكذا تأخر نصر شجعاننا .

ومما يذكر أنه كان عدد الإغريق الذين نجحوا فى متابعة سيرهم الشاق حوالى ٢٤٠٠ — قضوا يومين هائمين فى الجبال والأغوار ، لا يلوون على شىء ، ليصلوا إلى درفكستا وهى قرية كان يخامرهم الأمل أن يجدوا فيها مأوى أو زادا فخاب ظنهم لأن الحرب لم تبق فيها شيئا — فاضطروا أن يسترسلوا فى السير شطر سالونة فوصلوها مرهقين عقب أربعة أيام ، ذاقوا فيها الأهوال ، وفقدوا منهم كثيرين من الأعزاء ، فأصبح عددهم ١٨٠٠ فحسب ، وفيها قابلهم الزعيم كوستا بوتزاريس .

سقطت ميسولونجى ، ودخلها إبراهيم باشا ، على رأس رجاله فى الثالث والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٢٦ . ولم يبق فيها أثر بعد ما تحملته من القذائف والحرائق والألغام ، وقد تصاعدت من خرائبها رائحة اللحوم البشرية والدماء — بعد ما فقدت معظم أهلها ولم ينج منهم إلا الـ ١٨٠٠ الذين وصلوا سالونة أو فلول الأسرى .

ولكن هل أثر سقوط ميسولونجى شيئا فى نفوس الأغريق ؟ كلا فقد زاد لهيب حماستهم ، وقام خطباؤهم يجمعون الجماهير حولهم ، واتخذوا من شهداء مدينتهم حافزا لهم على مقاومة الجيوش ، بجميع وسائلهم المتواضعة ، ولسان حالهم يقول :

« إن فى صدر كل منا صورة من ميسولونجى بل شبحا ماثلا منها »

وبدوا فى المورة يحشدون جموعهم .

لقد كلف الاستيلاء على ميسولونجى ٢٠٫٠٠٠ مقاتل تركى ، و ٦٠٠٠ مصرى ، الشىء الذى جعل إبراهيم لا يطالب رجاله بتضحيات أخر . لذلك رأيناه يحصن ميسولونجى ليؤمنها ضد أى هجوم فجائى ، ويترك فيها حامية مؤلفة من كتيبتين ، ثم يعبر مرة أخرى خليج ليبانت عائدا إلى المورة ، ولذلك فعل فريد باشا فقد فض معسكره وذهب إلى أثينا وضرب عليها الحصار . وغادر الأسطولان ثغر باتراس للاستعداد للمعركة المقبلة .

اعتداء الإنجليز على الإسكندرية :

وكأن بريطانيا لم تنس بعد هزيمتها فى رشيد والحماد (١٨٠٧) فأقدمت على غسل هذا العار ، بعد عشرين سنة ، تحت ستار معاونتها للثوار : ففى ربيع عام ١٨٢٧ قام الاميرال الإنجليزى كوشرين على ظهر اسطول عقد لواؤه على السفينة هيلاس وقرويت و ١٤ ابريقا يونانياً وثمانى حراقات ، ووصل إلى مياه إسكندرية فى ١٥ يونيو ١٨٢٧ وقد بيت نيته على إضرام النار فى الإسكندرية . ونجحت إحد حراقاته فى مهمتها واندلعت النيران فى إحدى السفن .

وكان محمد على فى ذلك اليوم غائبا عن المدينة . فلما علم بالأمر أتى فى الحال وطفق يدبر الدفاع عن الميناء ، واستدعى كبار ضباط البحرية وأصدر إليهم أوامره لكى ينفذوها ، ثم تفقد بطاريات مدفعيته واطمأن إلى ذخيرتها ، وهكذا قضى محمد على الليلة ساهرا متنقلا على جواده بين كل قسم وآخر

من ميناثه — ودفاعاته[١] .



وفى صبيحة يوم ١٧ ركب السفينة « تمساح » التى وصلت حديثا من مرسيليا ، وظل يتنقل بين سفائنه ، يصدر أوامره لكل قبطان بما يتعين عليه عمله— فلما شهد اللورد كوشرين هذه الاستعدادات ، ولمس روح المقاومة التى أثارها أمير الدولة فى رجال أسطوله ، أسرع هاربا فى الإقلاع موليا الأدبار .

وفى صباح يوم ١٨ ، اختفى اللورد فى أفق البحر وكان محمد على قد أمر محرم بك قائد أسطوله لاقتفاء أثر العدو . فخرج على رأس ٢٣ سفينة ، منها ست فرقاطات . ولكن اللورد لخفة سفائنه كان أسرع منه فلم يقف له على أثر ومن ثم عاد ثانية إلى قاعدته.

(١) Douin: Les Premières Frégates de Mohammed Ali, p. 87 - 89.

القسم السادس

معركة نفارين

١٨٢٧

أعمال إبراهيم فى المورة :

عاد إبراهيم فى نوفبر ١٨٢٦ إلى مودون حيث أنشأ فيها مستشفيتين ، وأسس أيضا مجلسا صحيا . ولم ينفق وقته سدى . فبعد أن استجم جنوده قسمها إلى قسمين ، وأقام لكل منها معسكرا ، لتمضية فصل الشتاء والتدريب العنيف . عسكر القسم الأول فى مودون وكان مؤلفاً من الآلايات ٥ ، ٧ ، ٨ ، وعسكر القسم الثانى فى كرون وكان مؤلفاً من الآلايات ٣ ، ٤ ، ٦ ، وبقيت حامية تريبوليتزا كما هى .

ثم انطلق إبراهيم إلى تريبوليتزا فى ديسمبر ، ووصل إلى ديتانبريا وترك فيها قسما كبيرا من قواته ، وانتقل فيما بعد مع قسم من فرسانه إلى أثينا وكانت سقطت فى أيدى الأتراك (يونيو ١٨٢٧) ، وضرب الثوار الذين تجمعوا فى القرى المجاورة ، واستولى على أسرى وغنائم كان من أهمها ١١٫٠٠٠ رأس من الغنم والثيران .. كان جنوده فى اشد الحاجة اليها ، بعد أن تحملوا الضنك عدة من أشهر .

قضى إبراهيم النصف الأول من عام ١٨٢٧ فى إعادة تنظيم قواته كما أورينا ، وظل بضعة شهور ينفذ خطته التى ترمى إلى تخريب البلاد تخريبا منظما . ولكى تحول الدول الأوربية التى هبت تدافع عن ربيبتها اليونان بينه وبين خطته . قررت التدخل فى الأمر كمألوف عادتها إذا ما رأت الشرق يغلب الغرب فتقوم أساطيلها بمظاهرة مشتركة لكى تقف سير القتال ، وترغم

إبراهيم على إخلاء المورة . وكان نتيجة هذا التدخل أن عجلت الدول بتوقيع معاهدة لندن فى السادس من يوليو عام ١٨٢٧ وبمقتضاها عرضت إنجلترة وروسيا وفرنسا وساطتها على تركيا لإنهاء الخلاف القائم بينها وبين اليونان ، وقد نصت إحدى مواد الاتفاق على أنه : إذا لم يقبل الباب العالى هذه الوساطة فى خلال شهر ، ويوافق على وقف القتال فإن الدول تتفاوض فيما بينها لتفرض الهدنة على الطرفين ولمنعهما من مواصلة القتال من غير أن تشترك هى فى الحرب .

فلما أعلن نص هذه المعاهدة إلى إبراهيم باشا قال : « ليس بوسعى الجزم بشىء مطلقا ما لم ترد إلى رسالة من سمو والى مصر وفرمان من جلالة السلطان فإنهما رئيساى اللذان بأمرهما ائتمر وأنى منذ اليوم باعث إليهما رسولا لإخبارهما بما حدث وما على إلا انتظار العمل — ومهما يكن الخطر الذى أنا مهدد به فإنى لن أحيد عن خطتى قيد شعرة » .

أما الباب العالى فقد رفض وساطة الدول الأجنبية فى شئون عصاة اليونان التابعة إليه وكان جوابه على رسالة إبراهيم دعوته إلى إستئناف القتال بأقصى شدة — واتصل بمحمد على قرار الباب العالى فى ذلك الصدد فقال لضابط فرنسى من ضباط بحريته :

« إن ولدى إبراهيم سيدأب على القتال بشدة حتى النهاية . إنى عارف بطبعه » .

تنافس الثوار وانقسامهم :

وبينما كان الحصار مضروبا على ميسولونجى ، عمت الفوضى صفوف الإغريق ، واستعرت نار المنافسة والقتال بين كل زعيم وآخر ، وأخذت الأحزاب المتنافسة تضرب بعضها بعضا بالمدافع من بطاريتى توبليا مستهزئة بالحكومة العاجزة ، فضلا عن أن معظم الساحل اليونانى كان مباءة للقرصان وأوكارا لأعمالهم الدنيئة ضد سفن الأوربيين والأتراك . وكان اليونانيون يطلقون

النار على اليونانيين ، وحتى هؤلاء مع بعضهم كانوا يخرقون كل قوانين الحروب

والآن ياترى كيف يقف محمد على وابنه قبالة عداء الإنجليز والفرنسيين والروس واليونانيين . أتجده يترك ابنه أمام أساطيل الدول العظمى بينما تحف به أشد الصعاب ؟ أم يأمر ابنه بالعودة فيتهم بعدم الوفاء للسلطان ؟

وبينما هو يفكر ويدقق فى بحث المشكلة كان قنصل النمسا فى مصر ينصح له بأن يرسل أسطوله فى الحال ليضرب الأعداء ضربة تقفل فى وجوه الحلفاء باب الوساطة أو التدخل . بيد أنه لم يعبأ بهذا النصح لشدة محبته لأسطوله ، وكان يوقن أن السيادة البحرية لا تكفى لنيلها هزيمة اليونانيين . وكان يعرف أنه لا يستطيع إعداد أسطوله قبل أن يحل شهر أغسطس .

وفى ٢٤ يوليو ١٨٢٧ ، كتب محمد على إلى ابنه ، بعد زيارته لأسطوله ، يقول :

« والآن ياولدى قد صار لنا بعون الله أسطول فخم لم يكن لدولة إسلامية من قبل . وهو واف بكل مطالبنا من حيث سرعته وسلاحه ونظامه . فليس هو الأسطول الذى عرفته من قبل — وإنما هو أسطول عظيم حديث فى كل شىء . لم يمتلكه حاكم مسلم قبل الآن . وإن شاء الله ستراه بنفسك فى القريب العاجل [1] .

الإمدادات المصرية البحرية والبرية :

قرن محمد على القول بالفعل : ففى المدة بين يوليو وأغسطس ١٨٢٧ أقلعت من إسكندرية العمارة المصرية إلى موانىء المورة بقيادة محرم بك على فرقاطة الجهادية . وكانت هذه العمارة مؤلفة من :

٢ سفينة كبيرة فيهما ٤٨ مدفعا .

١٢ فرقاطة كبيرة فى بعضها ٦٥ مدفعا .

(١) المحفوظات الملكية المصرية بقصر عابدين — القسم التركى

٣٧ سفينة من طراز الكورفيت والجوليت والحراقات .

٤١ سفينة نقالة .

وكان عدد جنود المشاة الذين سافروا ٤٠٠٠ من جنود الآلاى العاشر بقيادة أحمد بك .

وصلت الحملة إلى مياه كنديا ، ثم قصدت نفارين فوصلتها دون أن يشعر بها الحلفاء فى أواخر أغسطس[١] بعد أن انضمت إلى الأسطول العثمانى . وكان غرض الحملة القضاء على آخر معقل للثورة فى جزيرة هيدرا واسبتزيا وميناء نوبلى . وبعد أربعة أيام من سفر الحملة وصل إلى الإسكندرية الميجر ج . ه . كرادوك (Cradock) موفدا من قبل وزارة الخارجية البريطانية وقد انتدبه جورج كاننج ليعرض الأمر بصراحة على محمد على ، ويبين له أن إنجلترا جادة فى معارضتها لسفر العمارة المصرية ، وإنما مصممة على تنفيذ مواد اتفاقية لندن . وأصغى محمد على إلى أقوال كرادك ، واقتنع بأن قرار الحكومة البريطانية قرار لا مرد له ، وأن المدافع البريطانية على استعداد لتنفيذه[٢] .

وعقب مناقشات اشترك فيها مستر صولت ، القنصل البريطانى ، قال محمد على : هذا هو رأيى النهائى . ليتصل الميجر كرادك بأمير أسطولكم فى الحال ويبلغه أنه من رأيه أن يبعث قواد أساطيل الدول المتحالفة على الفور ضابطا يحمل خطابا إلى إبراهيم باشا . مضمونه أن الأمور قد تحرجت إلى درجة توجب عليه أن لا يفكر فى مهاجمة هيدرا لأن الحلفاء قد أجمعوا أمرهم على اصطناع القوة لمنعه من هذا الهجوم — ولينتظر الضابط رد إبراهيم — وعليه أن يقصر مهمته على تسليم هذا الخطاب إليه يدا بيد » .

فأجاب صولت « كل ذلك حسن — بيد أننى أخشى ألا يكون لهذا الخطاب فائدة قط إذا لم تؤيده تعليمات سرية من سموكم » . فنظر له الباشا نظرة لها معناها وقال : اترك هذا الأمر لى » .

---

(١) فى قول آخر ٩ سبتمبر .

(٢) كرابيتس — إبراهيم باشا ص ٩٩ .

وانتهت المباحثات دون أن يتعاقد الفريقان على شيء واضح . وكل ما حدث هو أن محمدا عليا أشار إلى أن جنوده لن تعمل عملا جديدا فى المورة .

ويقول المؤرخ دودويل [١] فى كتابه : إنه مما يؤسف له أشد الأسف أن الميجر كرادك لم يصل إلى الإسكندرية قبل إقلاع الأسطول المصرى منها ، ولو وصل لحال دون إقلاعه . لأن محمدا عليا كان مستعدا للمفاوضة . ولو لم يقلع الأسطول لما حدث حادث نفارين » .

ممهدات نفارين وتدخل الدول بالقوة

فى يوم ١١ سبتمبر ١٨٢٧ ، أقبل على نفارين الأميرال الإنجليزى وكان الأسطولان المصرى والعثمانى راسيين فيها ، وقدم مذكرة مؤرخة ١٩ سبتمبر لقائد القوات العثمانية المرابطة جاء فيها أنه سيمنعه بالقوة من مهاجمة أى جزء من اليونان .

وكاد يحدث احتكاك بين بعض قطع الأسطول العثمانى والإنجليزى لولا تدخل الفرنسيين .

وفى الحادى والعشرين من شهر سبتمبر ، أرسل الأميرال الإنجليزى إلى إبراهيم خطابا جافا يذكره فيه بأن قواد الأساطيل سوف لا يحيدون قط عن تنفيذ المعاهدة بحذافيرها ومعنى هذا الإنذار الكف عن إرسال الحملة البحرية إلى جزيرة هيدرا أو تحرك جنود البر داخل المورة .

كان إبراهيم واقفا على بواطن الأمور ، مقدرا الموقف الذى أصبحت جيوشه وأساطيله فيه ، أمام تعسف الأوربيين ، وقد عبر بمرارة لأمير البحر الفرنسى قائلا : إنه يسره أن يجد مخرجا من هذا المأزق الحرج ، وأنه يقبل مغتبطا كل أمر يصدره إليه محمد على ، ولكنه يصر على أن من واجب الحلفاء إذا أرادوا منه أن يقف الأعمال العدائية أن يلزموا بذلك اليونانيين أيضا . وأبى أن تغل يده ثم تطلق لأعدائه حرية العمل .

وعلى كل حال فقد تعهد إبراهيم ببقاء أسطوله فى نفارين ، وإيقاف

(١) دودويل — محمد على مؤسس مصر الحديثة — ص٨٧

العمليات الحربية ، إلى أن تصله أوامر من أبيه ومن الباب العالى . ولكنه لما رأى الأميرال كوشرين والجنرال شورش البريطانيين قد جمعا قواتهما للزحف بهما على باتراس ، اعتبر أن نصوص الهدنة قد نقضها الحلفاء ، وأنه أصبح فى حل من عهده . فأبحر فى يوم أول أكتوبر ١٨٢٧ على رأس ١٤ سفينة ومعه قائد الأسطول العثمانى ومحرم بك وولى وجهته فى تجاه باتراس التى أزمع الثوار على مهاجمتها [1] . غير أن الأميرال كودرنجتون اقتفى أثر هذا الأسطول وأرغمه على العودة إلى نفارين — فوصلها يوم ٧ أكتوبر .

وبعد أيام وصل إلى إبراهيم رد أبيه ، وقد أوصاه فيه بعدم التحرش بأساطيل الحلفاء ، لأنه كان متأكدا من قواتها ، وأوصاه بعدم الاصطدام بالدول ، وأخبره بأنه سيرسل إليه تعليماته النهائية إذا جاءه الرد من تركيا . فرأى إبراهيم أن ينفذ أوامر أبيه ، والتزم فى نفارين خطة الدفاع ، ولا سيما قبالة تفوق أساطيل الحلفاء ، فى مدافعها وتدريبها ومهارة رجالها .

ولكن الغرب يكره الشرق دواما . فلم ترضهم خطة دفاع إبراهيم ، ورأت إنجلترا القضاء على الأسطولين المصرى والعثمانى ، وأوعزت بذلك إلى الحلفاء ، لأن الإمبراطورية كانت تخشى زيادة قوة الأسطول المصرى . وهى كانت ترمى — دواما — إلى السيادة على البحر الأبيض المتوسط . فلتنتهز الفرصة الذهبية لإضعاف مصر ، ولتحول دون قوتها بحرا وبرا .

لم يستطع إبراهيم صبرا حيال اعتداءات الثوار المسترسلة ضد حامياته فى المورة ، وزحف على رأس قواته لنجدة رجاله ، بعد أن أوصى أمير البحار محرم بك وطاهر باشا بعدم التحرش بالحلفاء وبالتزامهما المودة . ولكن قادة الأساطيل أرسلوا إليه إنذارا بأن لا يبارح نفارين لأنه — فى زعمهم — نقض الهدنة ، وأنه وحده يتحمل عواقب عمله . وحمل رسولهم الإنذار إلى نفارين قبل يوم المعركة الفاصلة بيومين . ولما لم يجد إبراهيم عاد برسالة التهديد فاجتمع القواد واتفقوا على إدخال أساطيلهم إلى ميناء نفارين ، بقصد التهديد .

---

(١) لم تفد فى منع حركات الثوار البلاغات التى أرسلها إبراهيم إلى قادة الأساطيل المتحالفة.

القسم السابع

بين الغرب والشرق

يوم نفارين

أهجت يا يوم نفــارين أشجانى ففيك طاشت رجوم الحاسد الجانى
وفيك دالت أمانى النيل واندثرت عرائس النيل لم تظفر بميــدان
وفيك طاح الشباب الحر من وطن كانوا له فوق بأس الإنس والجان

أحمد زكى أبو شادى

ثلاث أيام قبل المعركة الفاصلة :

انتظمت سفن مصر وتركيا داخل ميناء نفارين فى ثلاث صفوف متوازية تقريبا كل صف فى شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من نفارين الجديدة الواقعة على يمين البوغاز إلى جزيرة اسفاختريا التى تحجب عن الميناء أمواج البحر — وكانت السفن الحربية الكبرى والفرقاطات فى الصف الأول ويليها سفن الكورفيت ثم سفن الإبريق وغيرها بعدها فى الصف الثالث .

وفى يوم ١٧ أكتوبر ، استدعى أميرال البحر الفرنسى الضباط الفرنسيين الذين كانوا فى خدمة الأسطول المصرى ، فلبوا الأمر ، وتخلوا عن خدمة مصر .

واتفق قواد الغرب على تنفيذ خطة القتال ، بيد أنهم أجلوها لليوم العشرين من جراء معاكسة الريح لهم ، وبدأ تحرك السفن الإنجليزية للاستعداد .

فلما لاحظ محرم بك هذه النية بادر إلى إنفاذ رسول إلى أمير البحر الإنجليزى يطلب منه أن يعدل عن الرسو بأساطيله فى نفارين ، فأجابه بأنه لم يأت ليتلقى منه أمرا ، بل حضر ليملى عليه أوامره !

وواصلت سفن الغربيين سيرها ، وتهيأت فى مكانها حسب الخطة المرسومة ، فاصطفت تقريبا على شكل نصف دائرة فى مواجهة السفن الشرقية ، واقتربت منها حتى صار بعضها على مرمى نيران الأسلحة الخفيفة ، وسدت السفينة دار تموث مدخل الثغر ، لتعطيل عمل الحراقات المصرية . كما دنت السفينة الفرنسية سيرين مقابل السفينة المصرية الإحسانية . وحذت سفن الدول الأخرى حذوها واصطفت أمام السفن المصرية العثمانية لتشل حركتها .

وكانت السفن المصرية فى وسط التشكيل ، على طرفيها سفن الأسطول العثمانى . وفيما يلى أسماء القطع المصرية التى ساهمت فى نفارين :

الجهادية سفينة اللواء محرم بك — والإحسانية وقائدها حسن الإسكندرانى — والفاتح وثريا وبرج الظفر ورشيد وجيلان وكوه رافان والتمساح ورهبر جهاد وشير جهاد ونفارينو وليون وواشنطون وما إليها . وعددها ٣١ سفينة . وكان عدد السفن التركية ٨٨ سفينة عقد لواؤها لأمير البحر طاهر باشا .

وكان المصريون فى مواقعهم محصورين لا يتيسر لهم التحرك ، وليست فى وسعهم ميزة الانتفاع بالريح أو حرية القيام بالمناورة ، فضلا عن تعرضهم لنيران الأعداء أكثر مما كان الأسطول العثمانى . وعند مقارنة القوتين الحربيتين لألفينا أن سفن الحلفاء على قلة عددها كانت أرجح ، فقد كان لديهم عشر بوارج كبيرة مقابل ثلاث عند المصريين والترك . وكانت سفن الحلفاء أقوى سلاحا ، وأكثر استعدادا ، وأرقى قيادة ، من سفن أعدائهم . لحداثة نشأة الأسطول المصرى ، وكثرة ما أصاب البحارة الأتراك فى نزالهم ضد الثوار .

وبدون سبب بين وفجأة ، قام ضابط إنجليزى أوفده قبطان البارجة دار تموث فى قارب مسلح إلى سفينة مصرية طالبا منها الابتعاد ، ثم أرسل كودرنجتون ضابطين : أحدهما إلى الترك والآخر إلى المصريين ليطلبا إليهم نقل سفنهم إلى مرسى آخر أو على الأقل تجريدها من أسلحتها ومن جنودها ! .

ولم يك متيسرا إجابة هذا الطلب أو ذاك .

وبينما كان الضابطان يتناقشان مع محرم بك انطلقت من إحدى السفن

رصاصة طائشة قتلت رئيس الزورق الذى أقل المفاوضين .

ولسنا نطيل وصف مقدمات الحادث – نعم نسميه حادث نفارين ، لأنه لم يك سوى مكيدة مدبرة ، وحماقة فظيعة ، وسوء نية ، تمثلت فيها خلق ساسة الغرب ومسلكهم حيال الشرق ، الذى علمهم امتطاء ظهر البحار ، وسادهم فى يوم من الأيام .

وعلى حين غرة ، استهل القتال فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر (٢٠ اكتوبر ١٨٢٧) بإطلاق النيران من أساطيل الدول المتحدة على الأسطولين المصرى والعثمانى . واسترسل القتال إلى الخامسة . وتجاوبت المدافع ، وعلا الدخان وتناثرت الصوارى واشلاء القتلى ، واندلعت الحرائق ، وتحول المكان إلى أتون رهيب .

ومما يذكر أن « دائرة المعارف البريطانية » تعد نفارين من المعارك البحرية الفاصلة فى التاريخ ، أتعرف لماذا ؟ لأن إنجلترا كانت على رأس المؤامرة التى دبرتها للتخلص نهائيا من قوة محمد على البحرية الناشئة ، والتى كانت ستنافسها فى سيادة البحرين المتوسط والأحمر ؟ .

لقد كانت مذبحة وأية مذبحة مريعة ! دارت رحاها بكل شدة . وستر الدخان الكثيف كل شىء . دخان يزهق الأرواح البريئة والشريرة ، ورائحة كريهة تنبعث من ملح البارود تسد الحلوق التى مزقها السعال وجفف الظمأ ريقها . وبين الفينة والفينة كانت تسمع آلام الجرحى وأناتهم وحشرجة المرتى مختلطة بقصف مئات المدافع تطلق دفعة واحدة ! .

ففى يوم نفارين – اليوم الذى ينبغى أن لا ينساه شرقى من طيطوان إلى يوكوهاما ، ومن إسكندرية إلى باتافيا – كان مكيال الشر كاملا . فمن الإنجليزى البارد إلى التركى الذى لا يقل عنه برودة ، ومن الفرنسى الحاد المزاج إلى الشركسى المتعاظم ، ومن المصرى المتحمس الصبور إلى الروسى القوى العزيمة ، ومن الألبانى الصاخب إلى العربى المنتقم إلى السودانى الملتهب حمية . كل هؤلاء كانت تهزهم رعشة واحدة ، هى رعشة القتال المدمر . وكان

يلوح فى كل لحظة أن أعصاب هؤلاء وعقولهم توشك أن تنفجر وتتداعى وتسقط فى هاوية الجنون ! ...

لم يكن هناك قتالا شريفا بين مقاتلين «جنتلمين» . بل كان انتقاما بدون رحمة ؛ وانظر إلى سفينتنا « إحسانية » . لقد اصطبغ ظهرها باللون الأحمر القانى . لا بالدم السكسونى بل من دم القتلى أبناء اسكندرية ودمياط ورشيد والسويس — فلذات الثغور المصرية . وفى كل ناحية منها كان يرى بحارة من شبابنا الذين اعتلوا ظهر أسطول محمد على — فى حشرجة الموت وجرحى يئنون أنينا تتقطع له نياط القلوب ونار المدافع تحول إحسانية إلى جحيم — عدا الجثث الهامدة الراقدة إلى جوار مدافعهم . أما الأحياء منهم فكانوا ماضين فى أطلاق أسلحتهم بلا ملل .

ثم أطلقت أحدى سفن العدو عدة طلقات مرة واحدة . فحصدت رجال مدفعية إحسانية ومساعديهم ، وطارت قطعة من الحديد فصلت رأس ضابط عن جسمه فصلا ، وتناثر دمه فلوث الجندى حامل العلم الواقف خلفه . وكان حامل العلم هذا واحداً من أولئك الشبان الذين كانوا من بضع ساعات متجملين بملابسهم استعدادا للخروج فى إجازتهم — فما عتم أن حل محل الضابط القتيل فى القيادة ، وانبرى يطلق المدفع بمساعدة الأحياء من الجنود ووجهه ملطخ بالدم وعيناه زائغتان ! .

نسفت معظم السفائن المصرية والتركية ، وجنح ما بقى منها إلى الشاطىء ، وخسر المصريون معركتهم . لكنهم لم يسلموا سفينة إلى الأعداء فأحرقوها ، ولم يأسر هؤلاء سفينة واحدة أو بحارا واحدا . وبلغ عدد قتلى المصريين والعثمانيين ثلاث آلاف ، وخسر الحلفاء ٢٥٤ قتيلا و ٤٠٠ جريح .

كل هذا حدث من دون سابقة إعلان حرب من جانب الحلفاء المتمدينين !

• • •

وكان إبراهيم حينما حدثت هذه المكيدة المدبرة بعيدا عن مواطن الدسيسة بعدة أميال ! وها قد دمر أسطوله وهو يطارد الثوار ويؤدى واجب المقاتل إلى آخر نقطة من دمائه . وكان آخر رسالة كتبها إبراهيم قبل المعركة قد وصلت

إلى أبيه فى ٢٦ أكوبر يقول فيها إن ستين قرية استسلمت له وإنه ينتظر أن ترسل إليه تعليمات عن الحصار الذى ضربه الحلفاء فى نفارين !

وأبت الإستانة أن تعترف بأن تدمير أسطولها معناه انهاء القتال ، بل بالغت فى مطالبتها الحلفاء بدفع تعويض .

ووصلت إلى مسامع محمد على أنباء الكارثة وضياع أسطوله الناشىء ، ثم جاءه فى ٢٥ نوفبر رسول من إبراهيم يؤيد النبأ المحزن .

فلما استوثق مما بلغه أظهر عظمة خلقه المتين بدلا من أن يساوره الغضب ، واتجه فكره إلى الأوربيين أفراد الجاليات فى المدن الكبرى فهدأ روعهم ، وأزال قلقهم من انتقام المصريين منهم[١] . هذا ما كان من خلق محمد على الشرقى ، أما كودرنجتون الإنجليزى فلم يقف عند حد هذا العمل الوضيع فقد اتصل بإسكندرية وأنذر الباشا بتخريب الميناء إذا لم يخل إبراهيم المورة .

إبراهيم يقاتل رغم المحنة

وأرسل إبراهيم إلى أبيه يخبره بأنه مستعد لمواصلة القتال وكانت ثقة محمد على فى إحراز النصر لا تتزعزع . وجاءه فى ١٦ يناير (١٨٢٨) خطاب من إبراهيم يطلب فيه إرسال المدد لا سيما السفن . وأتى فى خطابه الآنف أن جيشه فى ذياك الوقت يتألف من : ١٢٫٠٠٠ جندى نظامى و ٤٠٠٠ غير نظامى و ٢٠٠٠ فارس ، وأن لديه من المؤنة ما يكفيه أربعة أشهر .

وظل إبراهيم يؤدى واجبه — وكأنه لم يحدث حادث — يقاتل الثوار ويفوز عليهم ويرسل أسراهم إلى مصر ، ويداوى جرحاه وينفذ السفن التالف إلى إسكندرية لإعادة إصلاحها . ورأى أن يلزم خطة الدفاع — فأخلى مدن المورة ، وامتنع بمعظم رجاله فى ثغرى كورون ومودون ، ثم انتظر أوامر أبيه إلى أن جاءته بإنتهاج خطة الدفاع ووقف القتال فى الشمال[٢] — فشجع هذا الثوار وانبروا

(١) يراجع وصف القتال فى كتاب (Douin - Navarin - 20 Octobre 1827) للأستاذ دوان

(٢) وثيقة بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٢٤٣ من محمد على إلى إبراهيم

يستردون مراكزهم التى فقدوها .

وفى أخريات فبراير عام ١٨٢٨ ، كان إبراهيم قد انتهى من جميع آلاياته بالطرف الجنوبى الغربى من المورة حول كورون ومودون ونفارين . وقسم منطقته الدفاعية إلى معسكرات ، وأقام حولها الاستحكامات والحصون ، وكفل لها سلامة خطوط المواصلات .

وكان سليمان بك الفرنساوى لا يزال فى تريبوليتسا ، على رأس حاميتها ، فدمر حصونها وخرج مع قواته ليشترك مع قوات قائده التى اضحت محصورة برا باليونانيين وبحرا بالأساطيل المتحدة .

حالة الجيش المصرى :

أيس إبراهيم من وصول المدد إليه من مصر لقلة النقالات . فقضى فترة الحصار لا يجد لنفسه وجيشه من الزاد والمؤونة إلا ما ساقته له الصدف . وكان قد بذر الأراضى الصالحة للزراعة بوساطة ابناء وادى النيل وكان شديد التوفير فى صرف أصناف التعيين المخزونة حتى لا تحدث مجاعة تفنى رجاله . ولقد وصف المؤرخ جوان حالة هذا الجيش وصفا دقيقا فقال :

أصبح إبراهيم مهددا بالموت جوعا ، ومع هذا لم تزعزع هذه المحنة من ثباته وثقته بنفسه . وقد اقتدى رجاله به فى فضائله السامية وصفاته المحمودة . فإنهم مع تجردهم مما يكفى لسد رمقهم كانوا متشبثين بطاعته . ولم يلق بابا للخلاص من هذا الضنك إلا بالعودة إلى الوطن . بيد أنه لم يك ميسورا له بلوغ هذا الغرض إلا بمشيئة والده أو السلطان . فانتظر حتى يتأتاه من أحدهما الأمر بذلك . فجاءه من والده أمر العودة . وكان قد أمضى فى الإسكندرية فى ٦ أغسطس ١٨٢٨ مع الدول المتحدة ممثلة فى شخصية الأميرال كودرنجتون اتفاق الجلاء عن المورة فى أقرب وقت وتعهده برد الأسرى وما إليه .

وقد أجازت الاتفاقية أن يترك إبراهيم فى المورة ١٢٠٠ جندى لكى تتألف منهم حاميات مودون ونفارين وكورون وباتراس وكاستيل تورنيز .

وكان قد وصل إلى المورة جيش فرنسى لاستخلاصها من أيدى المصريين . فوصلها يوم ٣٠ أغسطس ١٨٢٨ وشرع قائده فى مفاوضة إبراهيم لتنفيذ الاتفاقية كرغبة والده .

الجلاء والعودة

شرع إبراهيم فى ترتيب جلاء قواته بهمة فائقة وجأش ثابت وقد زادته معرفة الأساليب السياسية تجاربا فوق تجارب القتال – فبدأ بالجلاء عن المواقع الحصينة يوم ٩ سبتمبر . وعقب مرور أسبوع كان قد زايل المورة ٣٥٠٠ جندى سارت بهم السفن إلى إسكندرية بحراسة الفرقاطة الفرنسية سيرين وسفينتين إنجليزيتين .

وفى الساعة التاسعة من صباح أول أكتوبر ١٨٢٨ كان الجنرال ميزون القائد الفرنسى العام قد أقام عرضا كبيرا إكراما لإبراهيم باشا . فوصل القائد المصرى إلى ساحة العرض فى زورق لا يصحبه فيه سوى مترجمه . ثم اخترق جموع اليونانيين الذين احتشدوا لمشاهدة الاحتفال بدون حراس حوله ، ثم برز وسط الجيش الفرنسى راجلا . فقدم الجنرال ميزون جوادا ليمتطيه وكان إبراهيم يرتدى صدرية (سلطة) قاتمة مشغولة بالحرير وحزاما من الحرير وسروالا وسيعا من لون الصدرية ويحمل قرابا لسيف مقوس .

ثم تفقد القوات وامتدح لقائد الفرسان حركات قواته وسرعتها ورشاقتها ، وأعرب له عن رغبته فى اقتناء نموذج من كسوة جنودها . فلم يك من القائد إلا أن قدم له كسوته الخاصة .

وفى اليوم التالى دعى الباشا لتناول طعام العشاء فى المعسكر الفرنسى العام فلبى الدعوة . وبعد انتهائها نزع القائد إبراهيم سيفه ورجا الجنرال ميزون أن يقدمه إلى قائد الفرسان ثم قال له بعد أن سلمه إلى الكولونيل « أرجو منك أن تحمله لحظة فإن ذلك يكسبه فى نظر الكولونيل قيمة لم تك له من قبل » .

وفى أوائل أكتوبر انتهى الجلاء عن اليونان [1] ووصل إبراهيم بجيشه إلى إسكندرية فى العاشر من أكتوبر وما وقع نظر الابن على والده وهو فى وسط عظماء رجال الدولة الذين اجتمعوا لديه لاستقباله حتى اندفع نحوه وقبل أطراف المقعد الذى كان جالسا عليه وكان سرور محمد على فى هذا اليوم لاحد له .

وعاد أسطولنا المبتور محتفظا بالذكر فاصغوا. فما ذكر لنقصان
تلك المآتم أحيت جذوة لبثت تحت السكون طويلا دون كتمان
فأشعلوا عزمكم منها ولا تقفوا فالقنع والعجز للتاريخ سيان

أسلوب إبراهيم فى حرب المورة

الآن وقد انتهينا من وصف جميع معارك حرب المورة ، تبقى أمامنا ملخص نسرد فى ثناياه ما تميز به أسلوب إبراهيم فى القتال . ترى لو أتيح لإبراهيم تسطير مذكرته مثلما فعل غيره من القادة ، وأبان فيها أسباب نجاحه على الثوار اليونانيين [1] — هل كان يقدر لها النجاح ؟ يقينا إنها كانت تلقى الرواج فى زمامنا — لأن فصوله كانت لا تخرج عما يتبدى اليوم فى كتب توم وتترنجهام وغيره ممن كتبوا عن حرب العصابات والكوماندوس ، علاوة عما تتضمنه المنشورات التعليمية التى تذيعها إدارات العمليات الحربية فى جيوش العالم .

إن نجاح معظم المعارك اليونانية قام على وضوح الخطة ، ودقة تنفيذها ، بناء على الاستطلاع الذى كان ينهض به إبراهيم فى غالبية الأحوال — وهذا كان يتطلب مراقبة العدو لعدة أيام ، ليتسنى الوصول إلى النتيجة المطلوبة ، فيتعرف إلى خصال أفراده ، وعاداتهم ، وموارده ، ونقط ضعفهم . فإذا وقف على كل ذلك ضرب عدوه ضربة قاصمة سريعة يعقبها بحرب إفناء لا هوادة فيها . وينبغى أن لا يعزب عن الفكر أنه كان يعتمد على المفاجأة ، التى تعتبر أساس النجاح فى حرب العصابات ، فيهز معنوية العدو ويجعله فى حيرة من أمره لا يدرى من أين تأتيه الصفحة التالية .

(١) اعترفت تركيا باستقلال اليونان فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٩

وكان إبراهيم يعتمد على خفة حركات قواته الراكبة للاستحواذ على المفاجأة . وقد تكون المسافة التى يقطعها طويلة لا يتصورها العدو . ولكن فرسان إبراهيم لم يعرفوا المستحيل . كذلك استعان بالعمليات الليلية لإحراز النصر المفاجىء . عملا بالآية الكريمة « وجعلنا الليل لباسا والنهار معاشا » — وبالرغم من محاربته الثوار فى بلادهم التى يعرفون جل مجاهلها ومضايقها كان إبراهيم يستعين بنظام جيد للكشف والمخابرات بوساطة أعوانه . ولا يخفى أن طبيعة الأرض التى غزاها كانت وعرة صعبة محرومة من الطرق — بيد أن قواته — مع ذلك — كانت لا تضل السبيل .

وفى عمليات الحصار (تريبوليتزا وميسولونجى) كان يتحكم فى عدوه ويضايقه ، ويقطع عنه وسائل المدد ويهز معنوياته ويحرمه الراحة وبذلك ينجح فى حجز قوات كبيرة من العدو لكى يستطيع أن يشغله فى أماكن أخرى يبتغى الاستيلاء عليها . فإذا استسلم المحصورون كان إبراهيم إنسانا فى معاملته لهم .

وكان يضرب لجنوده المثل ، ويلهمهم الجرأة والشجاعة ، ويبث فيهم الصبر قبالة الملمات . لقد قضى إبراهيم وجيشه ستة أشهر (أواخر ١٨٢٧) فى ضنك وضيق وفى شبه مجاعة لكنهم تحملوا بصبر قسوة الحياة وآلام الجندية من أجل قائدهم الشجاع الذى أحبوه وزاملوه فى الكفاح والنصر والكوارث . كان إبراهيم مجاهدا من طراز قادة الإسلام الأولين لا يعرف غير التسليم أو الموت ولا يتطرق اليأس إلى صدره . ومع ذلك فإننا ندهش من أين كان يجد الوقت للجهاد والاستطلاع ووضع الخطة وإصدار الأوامر ومراقبة تنفيذها والإشراف على جميع مراحل القتال . ثم تأدية واجب القتال بنفسه . كان إبراهيم يفعل كل هذا ولا ينسى جنديه وما يحتاجه من ملبس وطعام وعليق لجواده وذخيرة للمدافع وبارود للبنادق وأحجار شطف لها .

إن الوثائق التاريخية عامرة بالشىء الكثير مما يلقى الضوء على روح القيادة لإبراهيم . فهو ممتاز فى قيادته باسل فى جنديته ، رحيم فى إنسانيته ، عطوف فى أبوته ، تنطق بذلك رسائله إلى أبيه وغيره من رجال الدولة كما تشهد أفعاله

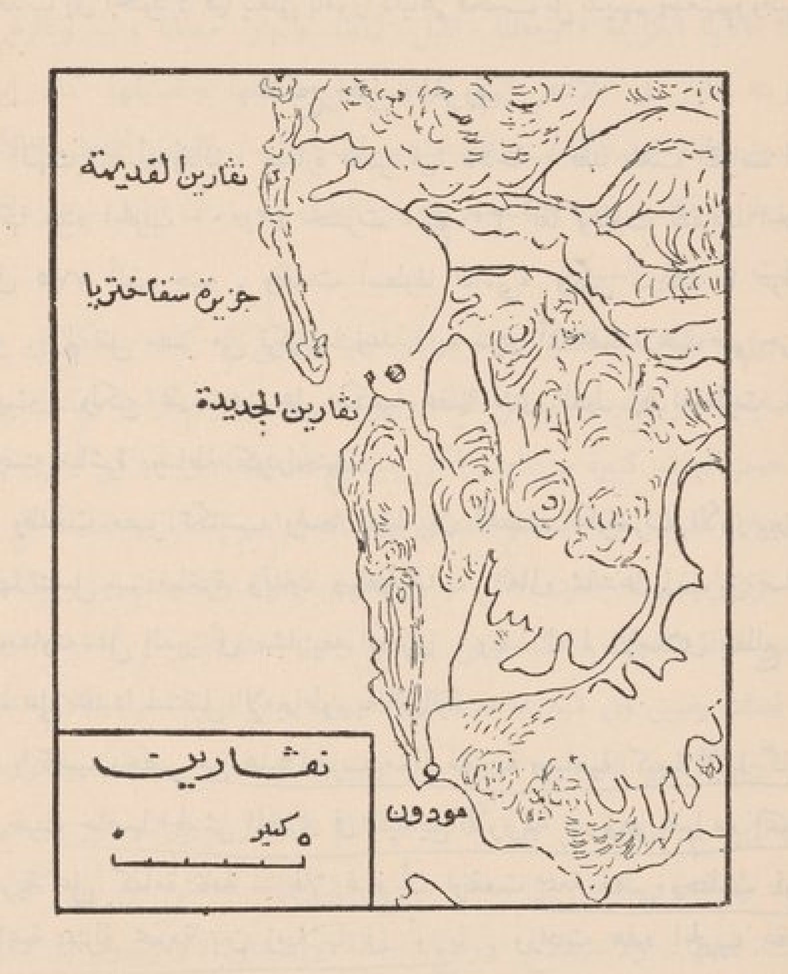
فى الميدان . وفضلا عن ذلك فهو يسيطر على إدارة الحرب فى أفقها العالى — يسأل أباه أن يرسل إليه المدد والعتاد والسفن ولا ينسى العناية بخطوط مواصلاته البحرية ، وحماية قواعده وتأمينها وتريب جند الحاميات وحراسة الطرق بل والتحدث إلى الجنود لا فيما يتعلق بأمور دنياهم فحسب بل بدينهم وشعبهم ووطنهم.

نتائج حرب المورة

انتهت المأساة وكانت خسارة مصر فيها فادحة . فقد بلغت القوات التى جردتها لهذه الحرب ٤٢٫٠٠٠ خسرت منهم ٣٠ ألفا وبلغت نفقات الحملة حوالى ٧٧٥ ألف جنيه . وفقدت أسطولها الناشىء ولكن سرعان ما عوضته بآخر . ولم تنل مصر من تركيا ما وعدتها به سوى أن محمدا عليا ضم جزيرة كريت . ولكن غنم محمد على مكسبا عظيما لدى الدول إذ اضطرت هذه لمفاوضته مباشرة بوساطة كودرنجتون .

وطفقت مصر تكتسب وضعا دوليا بين أعضاء الكونسرت الأوربيين . جعلها تتصل بهم مباشرة وبدون وساطة الباب العالى مما دعا إلى توثيق صلاته بها ومعاونته على السير فى مشاريعه الكبرى . وبدأ العالم الإسلامى يتطلع إلى محمد على مجددا لمستقبل الإمبراطورية العثمانية .

واكتسبت مصر من هذه الحرب منزلة معنوية وسياسية كبيرة لأنها كانت أول حرب خاضها الجيش المصرى فى الميادين الأوربية . وبرهن فيها مع القوات البحرية على كفاءة تامة — فلا غرو أن ارتفعت سمعة مصر وحظيت قواتها الدفاعية بمنزلة محترمة بين زميلاتها فى أوربا . وزادت هذه الحرب عقيدة محمد على فى أن القوة لا الحق هى التى تكفل الوصول إلى الهدف — ولذلك نراه عقب انتهاء نكبة المورة يقوم بنشاط وبدون كلل على توسيع الجيش وتسليحه بأحدث الأسلحة وتنظيمه وتوفير دور صنعة الأسلحة والذخيرة ، وتشييد أسطول جديد يعتمد على موارد الدولة من الرجال والمواد ، وإيفاد البعثات العسكرية ، واستقدام عسكريين من رجال الحرب المشهود لهم بالخبرة والكفاءة لكى يعاونوه على تحقيق آماله وأهدافه والاستقلال بوادى النيل .


نفارين القديمة
جزيرة سفاختريا
نفارين الجديدة
مودون
نفارين
٥ كيلو

ملاحق الفصل

١ – الأسطول المصرى إلى معركة نفارين

يكمل الأسطول وسائل الدفاع عن الدولة صاحبة البحار وقد كانت لمصر السيادة البحرية منذ أيامها القديمة . رغم أنها فى بعض العهود تنازلت عنها مضطرة للدول صاحبة السلطان فى وادى النيل كما حدث فى عهود اليونانيين والرومان .

وكان لمصر أسطول تعتز به فى أيام السلاطين المماليك قامت على ظهره جحافل الجيوش لصد الفرنج عن ممتلكاتها فى الشام ومصر ذاتها .

ولقد فطن محمد على باشا إلى هذه الحقيقة – وهى أن الدولة التى لا تحمى سواحلها بأسطولها تصبح مهددة – فعمل منذ استتب له الأمر فى مصر على إنشاء أسطول حربى يحمل لواء مصر خفاقا على المياه العالمية . فتم له ما أراد .

ويمكن تقسيم تاريخ الأسطول المصرى فى أيام هذا العاهل الكبير إلى قسمين .

أولهما منذ فكر محمد على يشيد أسطوله الصغير غير النظامى لما شرع فى نجدة تركيا فى محاربتها الوهابيين ١٨١٠ وتمتد هذه الحقبة إلى تدمير أسطوله فى معركة نفارين ١٨٢٧ .

وثانيهما – تجديد الأسطول المصرى عقب نفارين إلى وفاته عام ١٨٤٩ وهذه الفترة تعتبر العصر الذهبى للبحرية المصرية فى القرن التاسع عشر وهى خارجة عن نطاق هذا البحث .

أما الفترة الأولى (١٨١٠ – ١٨٢٨) ومدتها ١٨ سنة فهى تشهد بقوة عزيمة هذا العاهل الذى استطاع أن ينشىء شيئا لم يكن له وجود فقد أصدر

أمره بإنشاء ١٥ سفينة بدار صناعة بولاق وأمر بقطع أخشابها من أشجار التوت والنبق وغيرها من مصر ولما تم صنعها نقلت قطعا منفصلة على الجمال إلى السويس وهناك هيئوها — وفى السويس أنشأ دار صنعة أخرى لصنع السفن الصغيرة كما فعل فيما بعد فى الخرطوم وإسكندرية .

ولا يمكن القول بأن هذه النواة من السفن كانت تؤلف أسطولا حربيا بل كانت سفائن للنقل .

وبعد حرب الوهابيين ازداد تقدير محمد على للأسطول ولا سيما بعد ما شاهده من أفعال القراصنة اليونانيين فى البحر الأبيض فاهتم بإيجاد أسطول صغير يشترى قطعة من خارج البلاد علاوة على ما كانت تنشئه دور الصنعة فأستورد الفرقاطات والقرويتات وعين لها القواد البحريين من سفن التجار الأتراك والإسكندريين كما أحضر المعلمين الاوربيين لتعليمهم . فتمكن بهذه السفن من حماية السواحل المصرية — وساعد محمد على فى تنفيذ مشروعه الكبير مهندسون وأسطوات من المصريين نذكر منهم شاكر أفندى الإسكندرانى والحاج عمر المصرى الخبير بعمارة السفن ومحرم بك وفرنسيان أحدهما اسمه مسيو بيسون والآخر مسيو سيريزى .

ولما نشبت حرب المورة واستنجد السلطان محمود بمحمد على — أصدر هذا أمره إلى محرم بك بإعداد السفن وشحنها بالعتاد وقيادتها إلى مياه اليونان وكان إسماعيل جبل طارق هو قائد الأسطول المصرى وملخص القول أن عبء القتال البحرى وحفظ المواصلات ونقل الرجال والعتاد وقع ثقله على هذا الأسطول الناشىء الذى أدى رجاله واجبهم على أكمل وجه — ثم حدثت نكبة نفارين ولم تكن السفن المصرية والتركية مستعدة للقتال فقد فوجئت بهجوم أسطول الدول المتحدة فقضى على معظم الأسطول المصرى حرقا أو غرقا .

وسنورد أسماء بعض قادة الأسطول فى الفترة المذكورة .

أمير البحر إسماعيل جبل طارق :

من أوائل رجال البحر فى أيام محمد على وفى سنة ١٨١٦ سافر فى رحلة طويلة زار خلالها لندن وباريز وهمبورج واستكهولم واجتاز روسيا وعاد إلى مصر عن طريق البحر الأسود — سافر على رأس الحملة البحرية فى ١١ يوليو ١٨٢١ لمعاونة الأسطول التركى ضد ثوار اليونان واشترك فى معظم الأعمال البحرية فى حملة المورة إلى أن توفاه الله وهو فى عرض البحر فى طريق عودته إلى إسكندرية متأثرا بالمرض . وعلى أثر وفاته وقع اختيار محمد على باشا على صهره محرم بك .

أمير البحر محرم بك :

ولد فى قولة حوالى عام ١٧٩٥ وجاء إلى مصر وتقرب إلى محمد على الذى وثق به وزوجه من كريمته تفيدة هانم .

وفى سنة ١٨٢٠ أسندت إليه محافظة الإسكندرية ثم اشترك مع إسماعيل جبل طارق فى قيادة السفن المصرية فى حملة نجدة تركيا ضد ثوار الإغريق وبوفاته تقلد أمرة الأسطول . واشترك فى جميع معارك المورة إلى أن انتهت الحملة فعاد يتقلد أعباء محافظة الإسكندرية وقد توفاه الله فى إسكندرية فى ٢٠ ديسمبر ١٨٤٧ .

عثمان نور الدين باشا :

ولد بجزيرة مدلن حوالى عام ١٧٩٤ ثم رحل مع أسرته إلى مصر وسرعان ما اكتشف ذكاءه ودهاءه الوالى محمد على باشا — فأوفده فى بعثة علمية إلى إيطاليا ثم انتقل إلى باريس فأتم فى معاهدها العلوم الحربية والبحرية ولبث بها سنتين عاد على أثرها إلى مصر عام ١٨١٧ .

وانتدب للتدريس فى المدارس الجديدة فأظهر نشاطا وهمة — ولما كانت الحاجة شديدة فى البحرية إلى مؤلفات جديدة عهد إليه بترجمة كتابين

من الفرنسية إلى التركية وهما (القواعد البحرية وقانون نامه سفاين بحرية جهادية) .

وفى سنة ١٨٢٣ عين قائدا للجيش المصرى — وفى سنة ١٨٢٥ ترجمت تحت إشرافه نظم البحرية وقوانينها من الإنجليزية إلى التركية ثم عهد إليه محمد على بالاشتراك مع الجنرال ليتلييه مهمة تنظيم شئون البحرية وتعليم ضباطها .

وفى ٢٥ مايو ١٨٢٥ أنعم عليه برتبة ميرلواء وتولى رياسة هيئة أركان حرب الجيش إلى أن عهد إليه فى عام ١٨٢٨ القيادة العامة للأسطول .

وفى عام ١٨٣١ تولى أمير البحار عثمان نور الدين قيادة السفن البحرية فى حملة الشام الأولى .

أمير البحر مصطفى مطوش :

كان قبودانا فى السفن الشراعية التجارية ثم قدم إلى مصر واستقر بها واكتشف نبوغه محمد على فعينه وكيلا للأسطول المصرى الذى أعده فى حملة المورة عام ١٨٢١ ثم تقلد نظارة البحرية فأظهر فى إدارتها لها كفاءة ممتازة كان من نتائجها إنشاء وإصلاح مئات السفن المصرية ولا سيما أثناء الحرب اليونانية وبعد كارثة نفارين عهد إليه محمد على بإعادة تنظيم المدرسة البحرية — وكان قائدا للأسطول فى معركة عكا المشهورة .

وعين قائدا للأسطول المصرى فى مارس عام ١٨٣٤ .

أمير البحر حسن الإسكندرانى :

عاد من الخارج حيث تلقى تعليمه البحرى على ظهر أشهر السفن البحرية وكان عمره وقتئذ ٣٠ سنة فعين برتبة ملازم بحرى وأسندت إليه قيادة أحد الأباريق واشتبك مع سفن اليونانيين وأغرق منها حراقتين وأسر غولت واقتادها إلى إسكندرية وقد أهدى إليه محمد على بهذه المناسبة دارا فى حى رأس التين بجهة أبو وردة .

وفى أوائل ١٨٢٦ رقى إلى يوزباشى وتولى قيادة سفينة سريعة لتوصيل

المراسلات العاجلة بين مصر والمورة واشترك على ظهر سفينته ـ الإحسانية فى معركة نفارين — ونجى من الموت بأعجوبة وكان فى مقدمة ضباط البحرية المثقفين .

٢ ـ أنواع السفن الحربية ومسمياتها

مرت بنا مسميات عديدة للسفن الحربية ولما كانت تبدو غريبة عن آذاننا فى هذه الأيام نظرا لقدم العهد ولما أصاب البحرية من تطور كبير — رأينا أن نصف كل نوع منها .

القباق أو الغليون هو أكبر أنواع السفن الحربية القديمة حجما ويحمل إلى مائة وستة وثلاثين مدفعا كبيرا وصغيرا ومن الجنود حوالى الألف ـ وقد حلت محله البارجة الآن .

الفرقاطة أو الفرقطون تلى القباق وحل محلها الآن الطرادة وتحمل إلى ٦٤ مدفعا كبيرا وصغيرا ومن الجنود حوالى خمسمائة .

القرويت وهو مركب حربى أقل من الفرقاطة وأكبر من الإبريق ويحمل من ٢٢ مدفعا إلى خمسة وأربعين مدفعا صغيرا وكبيرا ومن الجنود حوالى ٢٠٠ .

الغولت مركب حربى ذو صاريين ضيق طويل سريع السير ويحمل ٢٢ مدفعا صغيرا ومن الجنود حوالى مائة .

الإبريق مركب حربى له صاريان مربعان ويحمل ١٨ أو ١٦ مدفعا صغيرا ومن الجنود حوالى مائة وحل محله الأنواع الثلاثة ـ الحراقة .

والكوتر زورق كبير سريع ومسلح ويحمل إلى ١٢ مدفعا صغيرا ومن الجنود من ٣٠ إلى ٥٠ .

٣ ـ أهم الوحدات الحربية التى اشتركت في حرب المورة

وحدات المشاة المنظمة

الآلايات ٣ و ٤ و ٥ و ٦

اشتركت فى الاستيلاء على نفارين من ٢٣ مارس إلى ١٣ مايو ١٨٢٥

الآلايات ٣ و ٤ و ٥

اشتركت فى واقعة كوند وروني (٢ يونيو ١٨٢٥)

الآلايات ٣ و ٤ و ٥

اشتركت فى واقعة كالاماتا (١٢ يونيو ١٨٢٥)

الآلايات ٣ و ٤ و ٥

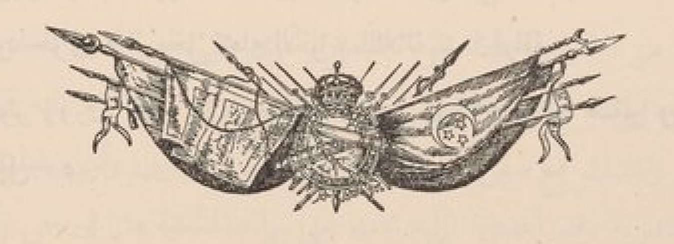
اشتركت فى واقعة دير فيلاندى (١٣ يونيو ١٨٢٥)

آلاى ٦ .

اشترك فى واقعة تريبوليتزا (٧ يوليو ١٨٢٥)

الآلايات ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨

اشتركت فى حصار ميسولونجي والاستيلاء عليها (٥ مارس إلى ٢٥ إبريل ١٨٢٦)



٤ – المراجع

أهم الوثائق التاريخية التى رجعنا إليها فى البحث

١٢٣٦ هـ – ١٨٢١ م

أمر رقم ٤٩٦ بتاريخ ١٩ رمضان من محمد على إلى كاشفة البحيرة دفتر ٦ معية تركى لتعبئة الصناع للعمل فى خدمة الأسطول بالإسكندرية .

وثيقة رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٣ رمضان دفتر ٧ معية تركى من محمد على إلى كتخدا الصدر العالى يفيده بإعداد ١٤ سفينة ومواصلة العمل لإنجاد الدولة .

أمر رقم ٥٠٨ بتاريخ ٢٥ رمضان ١٢٣٦ هـ دفتر ٦ معية تركى من محمد على إلى الكتخدا يأمره بجلب الصناع وجمعهم للعمل فى ترسانة الأسطول .

أمر رقم ٢٤٥ بتاريخ ٢٩ رمضان دفتر ٧ معية تركى من محمد على إلى القبوكتخدا يفيده بنشاط سير العمل فى الأسطول لايفاد ما ينتهى عمله من السفن .

وثيقة رقم ٢٨٨ بتاريخ ١٠ شوال دفتر ٤ معية تركى من محمد على إلى الصدارة العليا يفيده بما تم إعداده للحملة من سفن ورجال وزاد ... إلخ .

وثيقة رقم ٢٨٩ بتاريخ ١٠ شوال دفتر ٤ معية تركى من محمد على إلى كتخدا الصدارة يفيده بما يجرى عمله لإمداد الحملة بالسفن والعتاد ومثلها .

وثيقة رقم ٢٩١ بتاريخ ١٠ شوال (ص ٧٠) دفتر ٤ معية تركى

١٢٣٧ هـ – ١٨٢٢ م

أمر رقم ١٨ بتاريخ ٢٧ محرم دفتر ١٠ معية تركى – أمر كريم يفيد بما تم فى معركة كلاكسيدى والانتصار على الثوار .

أمر رقم ٣٧٢ ورقة ٧٣ بتاريخ أول محرم دفتر ١٠ معية تركى – أمر كريم للربان إسماعيل جبل طارق تعليمات خاصة بالأعمال .

١٢٣٧ هـ – ١٨٢٢ م

وثيقة رقم ٢٤٩ (ص ٧٣) دفتر معية تركى بتاريخ ١٢ شعبان تشير بإسناد ولاية المورة إلى إبراهيم باشا .

وثيقة رقم ٣٤٩ (ص ٤٧) دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٩ شعبان من محمد على إلى أحد كبار الموظفين بالإستانة بشأن تولية إبراهيم باشا المورة وقيادة الأسطولين .

وثيقة رقم ٣٧٣ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٩ رمضان تعليمات إلى محافظ خانية بشأن الأعمال العسكرية فى كريت .

وثيقة رقم ٣٤٠ (ص ١٠٠) دفتر رقم ١٦ معية تركى بتاريخ غاية شوال من محمد على لناظر المنوفية — لتعيين إمام لأداء الفروض الدينية مع الوحدات وكذلك وثيقة رقم ٣٣٨ (ص ١٠٠) دفتر رقم ١٦ بتاريخ ٢٨ شوال .

وثيقة رقم ١٩ محفظة رقم ٩ بحر برا بتاريخ ٢١ ذى القعدة بشأن حالة قذائف البنادق .

وثيقة رقم ٤٥٥ (ص ١٢٥) دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٢ ذى القعدة إعداد المشاة والفرسان والسفن اللازمة للسفر إلى المورة

١٢٤٠ هـ — ١٨٢٥ م

وثيقة رقم ٢٩ بتاريخ ١٧ محرم محفظة ٩ بحر برا من إبراهيم باشا إلى نجيب أفندى يشرح الأعمال البحرية التى قام بها بعد مغادرته رودس .

وثيقة رقم ٣٥ محفظة بحر برا بتاريخ ٢٥ محرم من إبراهيم باشا إلى الباب العالى يشرح أعماله العسكرية فى زانت ويطلب المدد والزاد .

ومثلها الوثيقة رقم ٣٦ محفظة ٩ بحر برا بتاريخ ٢٥ محرم .

ومثلها وثيقة رقم ٦٠ محفظة ٩ بحر برا بتاريخ ٢٦ صفر من إبراهيم إلى السلحدار .

ومثلها الوثيقة رقم ٩١ محظة ٩ بحر برا بتاريخ ٣ رمضان من إبراهيم إلى والده

ومثلها الوثيقة رقم ٤٩٥ (٧٤) دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ رمضان من محمد على إلى إبراهيم .

وثيقة رقم ٩٣ و ٩٤ بتاريخ ٣ شوال محفظة رقم ٩ بحر برا تقرير إبراهيم باشا عن الاستيلاء على نفارين .

الوثيقة رقم ٩٩ بتاريخ ١٥ شوال محفظة ٩ بحر برا من إبراهيم إلى والده بخصوص فتح نفارين .

وثيقة رقم ٥٢٢ ورقة ٧٨ دفتر رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٤ شوال مرسوم من محمد على إلى علماء مكة يفيدهم بنصر ابنه إبراهيم .

وثيقة رقم ٣٧ (ص ١٥) دفتر ٢٠ معية تركى فى غرة ذى القعدة ١٢٤٠ من محمد على لإبراهيم يهنئه بالنصر ومثلها الوثيقة ٤٢ (ص ١٧) دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢ ذى القعدة .

وثيقة رقم ٩٤ (ص ٣٥) دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٢ ذى الحجة أمر محمد على إلى ناظر الجهادية بإرسال الآلاى السابع إلى المورة بقيادة أميرالاى حسن بك .

١٢٤١ هـ – ١٨٢٥ ، ١٨٢٦ م

وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ٥ محرم (محفظة ١٠ بحر برا) من إبراهيم إلى أبيه عن سير الأعمال فى المورة .

وثيقة رقم ١٣٥ (ص ٥٠) دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٢ محرم أمر خديوى إلى ناظر الجهادية خاص بإعادة تنظيم الآلايات ٧ و ٨ و ٩ وترحيلها إلى المورة

وثيقة رقم ١٦٥ – ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢ صفر .

تعليمات من محمد على إلى إبراهيم .

وثيقة رقم ٢٠٦ سجل ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٩ صفر .

الأوامر التى ذود بها محمد على – محرم بك عند تعيينه قائدا للأسطول .

وثيقة رقم ٢٠٨ دفتر ٢٢ معية تركى بتاريخ ٣ ربيع الأول .

أمر محمد على لإرسال الآلاى الثامن .

وثيقة رقم ٢١٠ سجل ٢٠ معية تركى بتاريخ ٤ ربيع الأول .

من محمد على إلى إبراهيم باشا – تعليماته وإفادته بقيام الآلايين ٧ و ٨ .

تقرير رقم ٤٣ ـ محفظة رقم ١٠ بحر برا بتاريخ ٥ ربيع الأول .

من محرم بك إلى محمد على باشا ـ عن سفر الأسطول المصرى إلى المورة

وكذلك الوثيقة رقم ٧٠ بتاريخ ١٤ ربيع الثانى (محفظة ١٠ بحر برا) .

وثيقة رقم ٧٤ محفظة ١٠ بحر برا بتاريخ ٢١ ربيع الثانى .

من إبراهيم إلى محمد على عن سير الأعمال العسكرية .

وثيقة رقم ٢٦٩ دفتر ٢٠ معية تركى ـ بتاريخ ٢٥ جمادى الأولى .

من محمد على إلى إبراهيم بخصوص تفش الملاريا ومرض إبراهيم بها .

وثيقة رقم ٣٠٢ ـ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ١٦ جمادى الثانية .

من محمد على إلى إبراهيم بخصوص المحافظة على سرية المكاتبات .

وثيقة رقم ١٠٠ بتاريخ ٣ شعبان محفظة ١٠ بحر برا .

تقرير عن الأعمال العسكرية غرب مسلنك .

وثيقة رقم ٤١٢ دفتر ٢٢ معية تركى (١٦ ذى الحجة) .

من محمد على إلى القبوكتخدا بخصوص فتح مسلنك .

١٢٤٢ هـ ـ ١٨٢٦ ، ١٨٢٧ م

وثيقة ٢٨ دفتر ٢٤ صادر معية تركى ص ٧ بتاريخ ١١ ربيع الثانى

من محمد على إلى محرم بك بشأن انتخابه قائد عام للسفن القاصدة للمورة وكريت.

وثيقة رقم ٤٦ محفظة ١١ بحر برا بتاريخ ١٢ رجب .

العلاقات السياسية بين الباب العالى والنمسا بخصوص المورة .

وثيقة رقم ٤٨ محفظة ١١ بحر برا بتاريخ ١٥ رجب .

من الباب العالى لإبراهيم باشا .

للاطلاع على الخطة المزمع القيام بها .

وثيقة رقم ٥٤ محفظة ١١ بحر برا بتاريخ ١٩ رجب .

من إبراهيم إلى محمد على يطلب إمدادات فى الرجال والجياد ...الخ .

وثيقة رقم ٧٢ ورقة ١٤ دفتر ٢ عابدين بتاريخ ٢٩ رجب .

من محمد على إلى إبراهيم باشا يخبره بعزل خسرو باشا وتعيين طاهر باشا .

وثيقة رقم ١١٠ ورقة ٢٢ دفتر ٢ عابدين بتاريخ غرة رمضان .

من محمد على إلى إبراهيم بشأن التعيين المطلوب للحملة والمرتبات .

وثيقة رقم ١٢٦ ورقة ٢٦ دفتر ٢ عابدين بتاريخ ١٥ رمضان .

من محمد على إلى إبراهيم — بشأن شئون إدارية تتعلق بالحملة .

وثيقة رقم ١٣١ دفتر ٢ عابدين بتاريخ ١٥ رمضان .

من محمد على إلى إبراهيم بشأن إرسال ٨٠ ملازم ثان لسد النقص فى الحملة

وثيقة رقم ٢٢٨ دفتر ٢ عابدين بتاريخ ١٥ رمضان .

من محمد على إلى إبراهيم بشأن إرسال سفن سريعة .

وثيقة رقم ٢٠٠ ورقة ٣٨ دفتر ٢ عابدين بتاريخ ٢٩ ذى الحجة .

بشأن قيادة إبراهيم للأساطيل واستقلاله فى العمل .

وثيقة رقم ٢٠٢ ورقة ٣٩ دفتر ٢ عابدين فى سلخ ذى الحجة .

من محمد على إلى إبراهيم بخصوص حالة الأسطول المصرى وإعجابه به وتفائله بحسن العاقبة .

١٢٤٣ هـ — ١٨٢٧ ، ١٨٢٨

الوثيقة رقم ٢٢٩ (الورقة ٤٣) دفتر ٢ عابدين فى ٧ محرم .

من محمد على إلى الصدر الأعظم يفيده بانتهاء ترميم الأسطول المصرى بإسكندرية .

الوثيقة رقم ٧ محفظة ١٢ بحر برا بتاريخ ١٤ ربيع الأول .

من محمد على إلى الصدر الأعظم بشأن استقلال اليونان واستحالته .

الوثيقة رقم ٩ محفظة ١٢ بحر برا بتاريخ ٢١ ربيع الأول ١٢٤٣ .

من إبراهيم باشا إلى الباب العالى بشأن وصول نجدة الأسطول المصرى إلى نفارين .

وثيقة رقم ١٥ بتاريخ ٦ ربيع الثانى (محفظة ١٢ بحر برا) .

وثيقة رقم ١٦ بتاريخ ٨ ربيع الثانى (محفظة ١٢ بحر برا) .

وثيقة رقم ٢٩٤ (ورقة ٤٥) دفتر ٣٢ .

وثيقة رقم ١٣ دفتر ٣١ معية تركى بتاريخ ١٣ ربيع الآخر ١٢٤٣ .
وثيقة رقم ١٤ دفتر ٣١ معية تركى بتاريخ ١٣ ربيع الثانى .
من محمد على إلى القبوكتخدا بشأن معركة نفارين .
وثيقة رقم ١٥ دفتر ٣١ معية تركى بتاريخ ١٣ ربيع الثانى – إلى أمير الأسطول العثمانى بشأن معركة نفارين ومثلها .
وثيقة رقم ١٧ دفتر رقم ٣١ معية تركى بتاريخ ١٣ ربيع الآخر .
من محمد على إلى إبراهيم .

٢ – المراجع العربية والأجنبية

إسماعيل سرهنك باشا
حقائق الأخبار عن دول البحار .
أحمد زكى أبو شادى
نكبة نفارين – قصيدة تاريخية قومية جامعة .
إدوار جوان وترجمة محمد مسعود
مصر فى القرن التاسع عشر .
جميل خانكى
تاريخ البحرية المصرية .
عبد الرحمن الرافعى
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ج ٣ .
عمر طوسون (المغفور له الأمير)
صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على .
مقالات فى مجلة الجيش المصرى .
عبد الرحمن زكى
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير .

أعلام الجيش والبحرية فى مصر .
كريم ثابت
محمد على .
كرابيتش وترجمة محمد بدران
إبراهيم باشا .
محمد رفعت
تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة .
بنت بطوطة
صفحات من تاريخ البحرية المصرية فى عهد محمد على باشا .

Dodwell: The founder of modern Egypt.
Douin, G: Les Premieres Fregates de Mohammed Ali, 1824-1827.
Douin, G: Navarin (Juillet - 20 Octobre 1827).
Sabri, M: L'Empire Egyptien Sous Mohammed Ali
Encyclopedea Britanica, Navarin
General Weygand: Histoire Militaire de Mohammed Ali et ses fils.
Vice-Admiral Durand-Viel: Les Campagnes Navales de Mohammed Ali et d'Ibrahim.


الامبراطورية العثمانية
المورة
كريت
خريطة
شبه جزيرة المورة وكريت
في اوائل القرن التاسع عشر

الفصل السابع

الجيش بين حربى المورة والشام

تدعيم الجيش

كان جيش مصر الحديث فى عام ١٨٢٤ . . . يتكون من ستة آلايات مشاة وكان لكل آلاى بلوك من المهندسين (البلطجية) يبلغ عدده مائة جندى . وإلى جانب هذه القوة المنظمة كان هناك عشرة آلاف من المشاة غير النظاميين موزعين على شبه الجزيرة العربية والنوبة وسنار وكوردفان . فضلا عن الخيالة والمدفعية (غير النظامية) .

وبلغ عدد الخيالة غير النظامية ثمانية آلاف من الدلاة والتركمان . كل خمسمائة منهم يكونون زمرة تحت قيادة بك يعملون بشروط ومعينة لمدة محددة . وكان لكل من هؤلاء البكوات حاشية كبيرة من المماليك يتبعون سيدهم إلى حيث يذهب تربطهم رابطة حب الغنيمة ، أما رجال المدفعية فقد بلغ عددهم حوالى ١٢٠٠ عثمانى . مدافعهم من مدفعية الميدان أو الحصار اشتريت من تركيا أو فرنسا أو أسبانيا . وقوتها متواضعة تعمل بنجاح ضد القوات الهمجية وغير المنظمة إذا كانوا فى صفوف متلاصقة تكتسحهم نيرانها بشدة كما حدث فى حملتى الحجاز والسودان .

والمعروف أنه بعد عام ١٨١٥ حاول ضابط فرنسى اسمه جونتار دوفنيور تنظيم المدفعية المصرية وقد اخترع طريقة لجر المدافع على الرمال . لكنه مات وهو يؤدى واجبه قبل أن يحصد ثمار عمله . وبعد سبع سنوات تقدم بارون سويدى اسمه فيترشيت للعمل فى المدفعية المصرية لكن حان أجله وانتهى بذلك عمله .

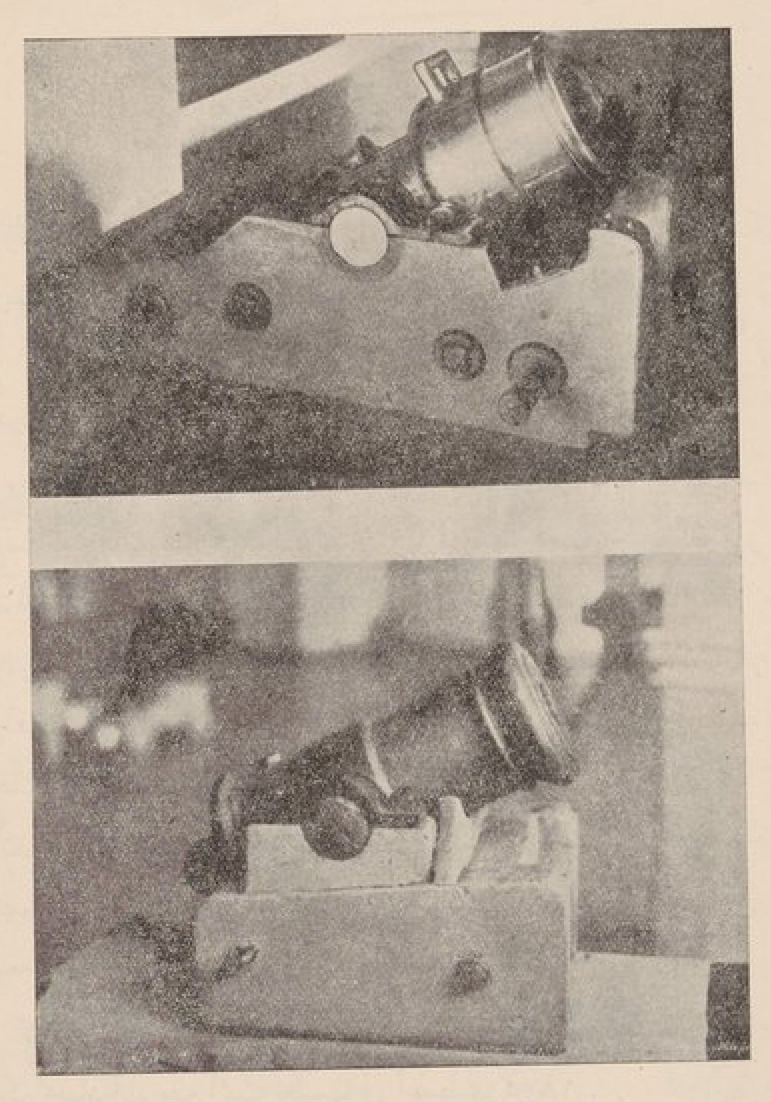
وفى عام ١٨٣١ عمل أتكنز الإنجليزى فى صناعة المدافع بمصر ووفق كثيراً لكنه أصيب أيضاً إصابة بالغة فى خلال حملة أحمد يكن باشا فى العسير

من جراء انفجار وفى تلك الفترة كانت دور الصناعة وسبك المدافع فى مصر تعمل بنشاط ونجاح وأنتجت عددا وفيرا من مدافع الهاون والميدان والحصار كما سيأتى ذكره فى الكلام عن المصانع العسكرية .

وقد استطاع الباشا أن يصنع مدافعه الأولى فى المصانع المصرية التى أنشأها وأحضر لها مهرة الصناع من أوربا وكان أهم هذه المصانع فى القلعة . وقد وصفها المؤرخ « مانجان » بقوله « إن أقسامها الواسعة كانت تشغل حيزاً عظيما من القلعة يمتد من قصر قلاون إلى باب الانكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة وكان يصنع فى معمل صب المدافع فى كل شهر ثلاثة إلى أربعة مدافع من عيار أربعة وثمانية أرطال وكانت تصب فيه أحياناً مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع من هذا النوع يبلغ قطر ها أربعا وعشرين بوصة . ومنذ عام ١٨٢٤ كان بالقلعة إلى جانب مصنع صب المدافع معمل آخر للبارود وثالث للأسلحة وكان مصنع صب المدافع تحت إشراف فرنسى اسمه جونون (Gonons) أما معمل البارود فكان يشرف عليه فرنسى آخر اسمه « قسطى » (Coste) رئيس مهندسى الباشا .

أما مصنع الأسلحة والبنادق فقد أسس فى عام ١٨٢٣ بفضل جهود فرنسى يدعى « جيلمان » لم يلبث أن خلفه إيطالى يدعى « فرانجينى » .

وكما سنذكر يعود فضل تنظيم سلاح المدفعية فى جيش محمد على إلى بعثة بوينه . فقد نيط بالكولونيل إدوار ويليم راى تنظيم مدرسة المدفعية فى عام ١٨٢٥ . وكان معلمها الأول جوتار دوفيند والقائمقام أدهم بك مدرس الرياضة . لكن لم يستقر راى فى عمله وعاد إلى فرنسا فى أوائل عام ١٨٢٧ بعد أن نظم الأعمال فى دار صناعة الأسلحة وحتى عام ١٨٣٢ كانت المدفعية المصرية خليطاً من مدفعيات الدول الأوربية . . منها ما هو تركى أو فرنسى أو أسبانى أو إنجليزى . إلى جانب المدافع التى كانت تصنع فى مصر . ومن أهم المدافع التى استخدمت فى الجيش



مدفعا هاون من صناعة المصانع المصرية
بالمتحف الحربى الملكى

مدفع عيار ٢٤ رطل قصير للقلاع	مدفع هاون ٢٤ رطل للميدان
« « « طويل للحصار	« « ٦ « «
« هاون ٢٤ « للحصار	

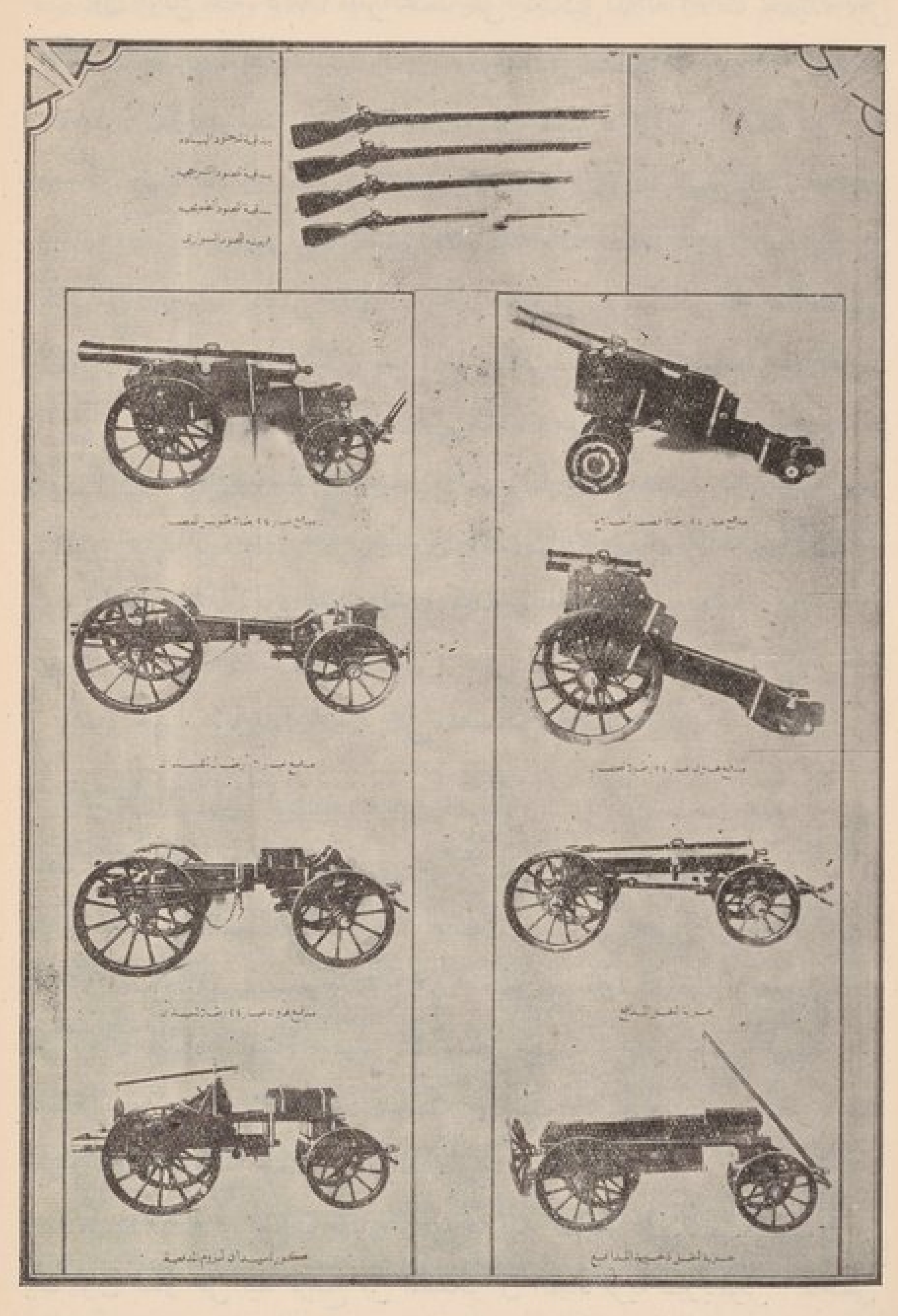
معسكرات أثر النبي والقبة وجهاد أباد

رأى محمد على أن حاجته المستمرة لمتابعة التجنيد تستوجب قرب معسكرات التدريب من القاهرة بعد أن زالت الموانع التى تبرر إبعادها فى أطراف البلاد وبعد أن ألف المصريون فى ذلك العصر مشاهد الجند وهم يخرجون من البلاد ويعودون حاملين لواء النصر .

وبعد زيارة محمد على باشا معسكر بنى عدى رأى أن هذه القرية أصبحت غير صالحة لإقامة هذا المعسكر الكبير فيها فما لبث عقب رجوعه أن قرر نقله إلى موضع مجاور للقاهرة . فنقل بادئ الأمر قبيل منتصف عام ١٨٢٤ م إلى أثر النبي جنوب مصر القديمة إلا أن هذا الموضع كان معرضاً لأن يغمره ماء النيل فنقل المعسكر مرة أخرى إلى القبة . وهنا قامت أيضاً عقبة جديدة وهى أن هذه الناحية قريبة كثيراً من العاصمة فلا تصح لأن تكون معسكراً للتعليم إذ أن ملاهى المدينة قد تصرف أذهان الضباط والجنود عن تأدية واجباتهم وتعوقهم عن القيام بأعمالهم فدعت الحالة إلى إبعاد المعسكر أكثر من ذلك ووضعه بين ناحيتى الخانقاه وأبى زعبل وسمى هذا المكان « جهاد آباد » .

كانت الآلايات السابع والثامن والتاسع أولى القوات المصرية التى احتلت معسكر جهاد آباد وفيه أتمت تعليمها فى أغسطس ١٨٢٥ .

وفى اكتوبر من العام المذكور سافر الآلاى السابع بقيادة الأميرالاى حسن بك والثامن بقيادة الأميرالاى حسين بك ومعها بطارية مدافع جبلية وأخرى من مدافع الهاون لإمداد الجيش الذى سافر لبلاد اليونان بقيادة إبراهيم باشا . أما الآلاى الثامن فقصد بلاد الحجاز كما ذكرنا .



بنادق ومدافع من أنواع عديدة استخدمت
فى الجيش المصرى

وفى أوائل عام ١٨٢٥ أمر محمد على بتشكيل ثلاثة آلات جديدة وهى الآلاى العاشر والحادى عشر والثانى عشر وهذه تسلمت أعلامها فى ديسمبر ١٨٢٥ [١] وبعد سفر الآلايات الثلاثة التى سبق ذكرها زار محمد على باشا معسكر جهاد آباد فى ديسمبر ١٨٢٦ وكانت فيه الآلايات التى تألفت حديثاً. وبعد هذه الزيارة بزمن يسير سافر الآلاى العاشر بقيادة آلاى أحمد بك إلى بلاد اليونان إمداداً للجيش الذى بها وكان سفره من الإسكندرية فى ٥ أغسطس ١٨٢٧ وقد كان هذا الآلاى من أكمل آلايات الجيش تعليما. أما الآلايان الآخران وهما الحادى عشر والثانى عشر فأولهما ظل فى جهاد آباد بقيادة سليم بك ليكون حرساً للمعسكر وليستقبل المجندين الجدد ويعلمهم — وثانيهما وهو الثانى عشر سافر بقيادة قائده عابدين بك إلى الحجاز فى النصف الأول من عام ١٨٢٧ مدداً للآلاى التاسع الذى كان مرابطاً بها.

زيارة محمد على لمعسكر جهاد آباد

وصف الكابتن «بلانا» الضابط الفرنسى الذى كان ملحقاً بخدمة الجيش المصرى فى وظيفة أركان حرب فى معسكر جهاد آباد فى مؤلف نفيس له[٢]. زيارة محمد على للمعسكر وترجم هذا الوصف سمو الأمير الجليل عمر طوسون قال:

فى مساء ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٢٦ قدم من قلعة القاهرة أربعة بلوكات من رجال المدفعية المشاة ومعهم ٢٤ مدفع ميدان ورابطوا خلف ميمنة جنود المشاة. وهذه البلوكات التى تدربت وتعلمت حديثاً هى التى فرض عليها القيام بالمناورات مع ميمنة المشاة المذكورة.

وفى ٢٤ منه فى الساعة السابعة صباحا قدم ضابط على ظهر هجين وأخبر بأن الوالى صار على قيد فرسخ من المعسكر فى اتجاه قرية سيرياقوس. فامتطى ناظر الحربية محمد بك لاظ أوغلى والقائد العام عثمان بك نور الدين من أركان

---

(١) Planat — La Régénération de l'Egypte. 1830

(٢) Histoire de la Régénération de l'Egypte. 1830

الحرب خيولهم وذهبوا للمثول بين يديه . وعند ماقابلوه ترجلوا وحيوه — ولدى دخوله المعسكر أطلقت المدفعية وهى مصطفة أمام جهاد آباد مدافعها ثلاث مرات متتاليات وكانت تشكلت أورطة تشريفة بقيادة أمير الآلاى العاشر أحمد بك ورابطت على يسار الدار التى أعدت لنزول الباشا .

وكانت الطبول تدق خلال ذلك والموسيقى الأوربية تشنف الأسماع بتوقيع النشيد الأهلى .

استمر محمد على يقابل ضباط الجيش على اختلاف وحداتهم حتى آخر الساعة الخامسة مساء وكان كل ضابط يمر أمام الباشا ينحنى ويقبل ذيل ثوبه .

ثم استعرض أورطة العمل أمام سرادق فخم أقيم خصيصاً له . وفى الساعة السادسة ظهر تلاميذ مدرسة الأركان حرب وهم يجرون مدفعى ميدان ووقفوا تجاه سرادق الباشا وأداروهما حسب القاعدة الفرنسية وقاموا بإطلاقها عدة مرات وبعد ذلك بنصف ساعة قدم عباس باشا حفيده وتناول العشاء معه فى سرادقه على مرآى من الجمهور وفى الساعة الحادية عشر دخل مسكنه فى جهاد آباد .

وفى صباح اليوم التالى عند الساعة السابعة صباحا رجع الباشا فى موكب حافل إلى سرادقه المنصوب فى موضع مرتفع عن مستوى السهل تجاه الصحراء . فراقه هذا المكان وأعجبه حيث كانت تمتد أمامه صفوف الجنود المشاة وعلى مقربة منه المكان المعد للمدفعية وخلفهما منظر جهاد آباد الجديد وانقضى النهار بأكمله فى استقبال ضباط الصف الذين أتوا للسلام عليه أسوة بالضباط. وصدر الأمر بالقيام بالمناورات فى اليوم التالى .

وفى ٢٦ منه انتقل الباشا مبكرا وحفيده عباس باشا وكافة أركان الحرب إلى ميدان المناورات فى الصحراء وترجل محمد على وصعد إلى حصن صغير أقامه رجال المدفعية وجلس على حائطه وعند ما قدمت المشاة متراصين على شكل مستطيل أسندت ميمنتها إلى الحصن ومدت خطا مؤلفا من ١٨ أورطة مجموعها ١٤٫٤٠٠ رجل وكانت المدفعية المؤلفة من ٢٤ قطعة مقسمة أربعة أقسام موزعة على الأجنحة .

وبعد تأدية السلام بإطلاق المدافع مرات متواليات بدأت المناورات وطلب الباشا أحد من ضباط أركان الحرب أن يرسم له خطة المناورات على الورق ولما لم يكن صدور مثل هذا الأمر منتظرا لم يجد الضابط آلات لهذه العملية . لكن الباشا استدرك الأمر وقدم له بنفسه قلما رصاصا وظهر رسالة سياسية كانت معه قائلا : اعمل شئ على باب الله Faites moi cela All-baballah

وتم القيام باجراء ست حركات متقنة بسرعة أكثر من المعتاد ولما تشكل مربع عند مرور خطوط القتال صفق الباشا ولاح عليه أنه سر سروراً حقيقاً .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر توجه الباشا إلى زيارة المستشفى العسكرى فى أبى زعبل ورافق مؤسسه الطبيب كلوت بك الباشا فى أقسامه فأمطره وابلا من الأسئلة وزار الصيدلية والحمامات والمعامل زيارة تفصيلية ولم يشأ أن يترك أمرا دون أن يسأل عنه — وحضر درسا من دروس التلاميذ ووجهت إلى هؤلاء أسئلة عن بعض المواد .

وأعرب محمد على لكلوت بك عن ارتياحه وشكره ثم انتهت الزيارة بعد أن قدم إليه الموظفين فردا فردا .

وعند مبارحة المستشفى نفخ فى الأبواق ودقت الطبول وعزفت الموسيقى .

وفى الساعة السابعة مساء استقبل ضباط أركان الحرب وقضى معهم خمس ساعات يفحص أشغالهم عملا بعد عمل . وقد وضع النظارة على عينيه لزيادة الإمعان وأمر حاشيته بالانصراف وصار مع الضباط أشبه برب أسرة يحيط به بنوه . وسأل إذا كان أحد الضباط يفهم الفرنسية فأجيب بأنه يوجد خمسة يتكلمونها بسهولة . وبعد ذلك انتقل إلى الخرائط والرسوم الطبوغرافية وإلى رسوم مبانى التحصينات .

وهذه ناطقة فى حد ذاتها وواضحة وضوحا لا تحتاج معه إلى شرح أو تفسير . فتأمل فيها وخصها بالتفاته الزائد وكان الكثير منها تام النظافة والإتقان .

وعرض عليه بعد ذلك رسم المعسكر الطبوغرافى ورسم ضواحى جهاد

آباد . ولم يكف عن الفحص إلا لتدخين شبكه وأكل تفاحتين .

وفى منتصف الليل جمع الموجودين حول ديوانه وأخذ فى مسامرتهم ومباسطة عثمان بك نور الدين وحث الضباط الشبان على مضاعفة غيرتهم وحماستهم بعد تغلبهم على الصعوبات الأولية قائلا :

« أنا منشرح الصدر منكم يا أبنائى ولو كنت مقبول الشفاعة فى السماء لأتيت فى سبيل خيركم وفلاحكم بالمعجزات وإنما أنا بشر وليس فى استطاعتى أن أقدم إليكم سوى الرتب والمرتبات »

وانصرف الحاضرون بعد منتصف الليل بنصف ساعة

وسافر محمد على باشا فى ٢٧ ديسمبر وفى اليوم الثانى بارح عباس باشا المعسكر .

العناية بالرماية

أما أن محمدا عليا كان يعنى بتدريب الجيش على شؤون الرماية ، فهذه حقيقة لا ينكرها الواقع . وكيف لا والرماية هى « الصناعة » التى يتعين أن أن يجيدها كل جندى شاء أم لم يشأ . فحسبك أن تعلم مدى أهميتها حين نعترف بأن الجندى الذى لا يجيد الرماية بالبندقية التى لا تصيب الهدف . لا يصلح للجيش .

وفى الأمر التالى يلوح لنا جليا كيف كان هذا المصلح يفحص مثل هذا الأمر بعين محدقة ، ويوجهه برأس مفكرة . . .

« من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية :

إنه لمن البداهة أنكم ستعنون كل العناية بتعليم الآلايات الماثلة بمعسكر بنى عدى وفى تفنن الضباط والعساكر كما ينبغى ، بيد أنه من المعروف أيضاً أن إصابة الهدف من الأمور التى لها أهميتها وخطورتها . فمن الواجب ــ والحالة هذه ــ أن تعنوا أيضاً بأمر الرماية وتعليم أصولها عنايتكم بالأمور الأخرى .

فنبهوا على الميرالاى الثالث خورشيد بك والميرالاى الرابع حسن بك والميرالاى الخامس سليم بك بأن يعنوا أيضاً بتعليم الرماية وأفهموا سليمان بك أيضاً بأنه يجب عليه بعد أن يفرغ من تعليم الفصول المطلوبة أن يشرع فى تمرين الجنود على الرماية أسوة بالتمرينات الأخرى وأن يوصلهم إلى درجة الكمال فيها وأن لا يتكاسل عن ذلك . فتى علمتم أن هذه إرادتنا فى هذا الصدد أرونى يا أخى همتكم واعلموا على تنفيذ إرادتنا ووافونا بالإجراءات التى اتخذتموها فى هذا الشأن . »

تعليمات محمد على إلى قادة الجيش

ولم يكف محمد على عن توجيه تعليماته لقادة الجيش الفينة بعد الفينة . فهو لا يفتأ يبعث بإرشاداته إلى رجالاته لكى يكونوا على بينة من خطواته ويقتفوا آثار توجيهاته فمثل هذه الإرشادات أو التوجيهات كانت مصابيح الهدايا فى الطريق المستحدث يمضون على ضوئها نحو الهدف المرموق .

ولسنا بصدد عرض جميع هذه التعليمات أو التنويه بمختلف الإرشادات وإنما نأتى عن أمثلة منها . . .

« مرسوم خديوى إلى ناظر الجهادية ورجال الجيش المصرى [1].

إلى افتخار الأمراء والأكابر محمد بك ناظر الجهادية دام إقباله وإلى افتخار الأماجد والأكارم عثمان بك رئيس رجال الجيش والميرلوا حسن بك دام مجداهما .

وإلى مفاخر الأماجد والأعيان حسين بك وسليم بك ميرالاى رجال الجيش ومحمود بك وأحمد بك وعلاء الدين بك وسليم بك ميرالايات الآلايات ٩ جى و ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة زاد مجدهم وإلى مفاخر الأماثل والأقران الأغوات القائمقامات والأغوات البكباشية والصاغ والصول قول أغاسى والحاسبين

---

(١) وثيقة تركية رقم ٢٣٦ ورقة ٤١ دفتر ٢٠ معية تركى بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٢٤١هـ (٥ ديسمبر ١٨٢٥) .

واليوزباشية وحاملى الأعلام والملازمى الأول والثناة والجاويشية والأنباشية وأمناء البلوكات زاد قدرهم وإلى جميع الجنود .

بعد السلام — نبلغكم أن طريق الجهاد والفداء الذى هو للفيض رفيق هو طريق الله القوى وسبيل سلطان الأنبياء وهذا شىء بديهى . والذين سلكوا هذا المسلك القويم من أصحاب الصدق والوفاء حصلوا على مرادهم ونالوا مبتغاهم وهذا أمر واضح . لذلك قد صرفنا ما فى مقدورنا لتقوية نظام هذا الطريق ولوينا عنان همتنا نحو استقرار هذا النظام ونحمد الله إذ كانت العناية الأزلية معينة لنا ولازمنا التوفيق فقمنا بتنظيم الآلايات والأورط ووضعنا لها النظم التدريبية وكانت نتيجة ذلك أن شوهدت الفضائل العديدة والخصائل الجميلة للجنود الجهادية وشاع أمرها فى الأقطار المعمورة وكان الواجب يقضى بتقدير هذا الفضل الإلهى وعرفان هذا الفيض اللانهائى وإبقاء الشكر والثناء على هذه النعم ولكنى يا حضرات الأمراء والضباط أسمع أن بينكم من لا يحترم هذا السلك العسكرى الذى هو مبدأ العز والسعادة ومنشأ المجد والمناقب ولا يراعى أصول القوانين المودعة فى يد أمانتكم وأجاز لنفسه الغفلة والتراخى واستباح لنفسه سلوك طريق ملتو غير موصل ولا ريب فى أننا لا نرضى إطلاقاً أن يصيب أصول نظام الجيوش الحسنة والجنود الغر الميامين الذين صرف فى سبيلهم أعظم الهمم حتى وجدت وأكبروا التوفيق حتى استقرت فنالوا بوضعهم الحديث استحسان الوكلاء . أى خلل إن تمثل بالشروط المقررة لهم أو أن يطرأ على قانونهم المحترم أى اعتلال .

كما أنه قبل كل شىء لا جدال فى وجوب وقاية هذا السلك من هذه العوارض فعليكم أنتم أيها الأمراء والضباط أن ترجعوا إلى القانون المسلم إليكم فى جميع حركاتكم وسكناتكم باتخاذكم جميعاً وأن تسعوا للعمل بمقتضاه وإذا وجد من بينكم من يتبع الهوى ويفعل أفعالا مخالفة ويسلك سبيلا منافيا للأصول مناهضاً للشروط فلا تراعوا خاطره . وإن كان قريباً أو صديقاً لكم حتى ولو كان أباً أو أخاً لكم وقوموا بتأديبه التأديب اللازم طبقاً لما توضح فى نص

القانون واعنوا العناية الصادقة فى تعليم الأنفار وتحكيم أصول التعليمات حتى يتسنى لكم بذل مقدوركم فى إيفاء واجبات الصدق والإخلاص والسداد من بعد الآن كما هو المرتقب منكم وكما شاهدناه فيكم إلى الآن وفى وقاية نفوسكم من أن تكون معيوبة معاتبة بتجويز أدنى إهمال أو تراخ .

وأنتم يا صغار الضباط ويا جميع الجنود عليكم أن تطيعوا كباركم اعتبارا من رتبة انباشى حتى البكباشى وأن تتبعوا أوامرهم وأن تبذلوا جهد المستطاع لتكونوا متخلقين بأفضل الأخلاق .

وأنت يا أيها الناظر عليك أن تفرغ قصارى جهدك وتبذل حميتك وغيرتك فى جل الشئون المتفرعة من نظارتك وأن تعمل على استكمال الوسائل الحسنة المؤدية إلى إزدهار الجيوش الجهادية وازدياد محاسنها النظامية واحذر أن تكون مسئولا بتجويز أقل ما يمكن من التهاون فى هذا الباب .

وعليه فقد أصدرنا مرسومنا هذا من ديوان مصر من باب التنبيه والتأكيد وأرسلناه إليكم فاعملوا بإذن الله بمقتضاه وتحاشوا الأوضاع المخالفة له والمنافية للرضا.

وهناك عامل آخر كان له الأثر الكبير فى معنويات الجيش هو عزم « العزيز » على تأييد هذه المؤسسة وتنشيطها وشعور رجالها بذلك . فإنا نلمس هذا الأمر لمس اليد فى خطاب أرسله العزيز إلى ناظر الجهادية فى خريف سنة ١٨٢٧ وإليك النص[١] .

« من الجناب العالى إلى محمود بك ناظر الجهادية

أن مؤسسة الجهادية عمرها الله لهى فى حد ذاتها نعمة جليلة وأمنية بلغ من شرف قدرها أنى مازالت منذ عشر سنين متعللا برجاء إدراكها قائلا « أيكون لى أنا الآخر سعادة نيلها » بل ما فتئت ألقى بنفسى وأولادى وعيالى وبعرضى ومالى وبذلك العدد الكبير من أصدقائى وأتباعى الذين هم غرس يدى وثمرة تعهدى . ألقى بكل أولئك فى المهالك وأعرضهم للمضار والأخطار أملا فى إحداث هذا السلك الجهادى الذى تذكره يامحمود بك كيف كان وقع لفظه

(١) دفتر ٢٦ معية تركى — مكاتبة تركية رقم ١٦١ بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢٤٣ هـ

عليك حين سمعته لأول مرة فإن تكن حينذاك على حق فيما أظهرت من آثار الاستكبار الناشئ عن توقعك مخاطر هذا المشروع الظاهرة وجرائره المنتظرة فإننى لم أحفل بأوضاع الحيرة التى تملكتك ولا أبهت لا حوال غيرك من سائر المقربين ولكنى وصلت ليلى بنهارى مضحيا بنومى وراحتى وماضيا فى عزمى وإقدامى حتى بلغت وله الحمد مرادى ووفقت وله الشكر الجزيل إلى نبيل مرامى كما أنك تذكر كم بذل بعد ذلك من جهد فى المحافظة على هذا السلك لئلا يحيد عن جادته السديدة جنوحا إلى الأودية المعهودة وكيف لم أحن فى سبيل ذلك حتى بعلى أغا كسكين زاده قائمقام ألاى ٥ جى بياده إذ أعدم رميا بالرصاص فى مواجهة الصفوف العسكرية وهو ذلك الذى نشأ فى رعايتى من الصغر وربيته حتى شب وكبر .

« فلهذا كنت أود أن نكون قد تخلصنا من الشعوذة والولاية والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة التى طالما ألفناها ومللناها فى الأيام الخالية . وأن يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدا يقوم على أساس الإنصاف والإنسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن أيضاً أن نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على أسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا فى مصاف البشرية الراقية . ولكن بينما نحن مطمئنون إلى هذا الأمل إذ صدمتنا جرائم محمود أفندى القائد السابق للآلاى ١ جى بيادة التى تبيناها سواء من العريضة التى كان قدمها إلينا أو من محرراته الواردة عليكم .

« وإذا كنا قد حولنا قضية (محمود أفندى هذا) عليكم لاستجوابه وفقا لقواعد النظام الجهادى المستحسنة ثم لعرض أمره علينا بعد ما يتخذ المجلس بشأنه قرارا موافقا لمقتضى العدالة والقانون . وكنتم بدوركم قد ألفتم بهذا القصد مجلساً جهاديا ثم حولتم القضية على سليم بك للفصل فيها . فإن المجلس المذكور ما كاد يتلقى رد محمود أفندى على سؤاله حتى قنع بهذا الجواب فلم يبد من أحد من أعضائه أى ميل إلى الاعتراض على معاودة الشعوذة والولاية . ولادحض جواب بالجواب الذى يستوجبه ويقتضيه . وإنما ضرب المجلس فى أودية المحاباة

فاعتبروا الجريمة ناشئة عن شكاية (أحمد باشا) ولم يحملوها فى قرارهم إلا هذا المحمل وهكذا صرفوا أنظارهم عن أداء الواجب بذمتهم وإبقاء حق مهمتهم ولم يراعوا أصول الوظيفة والمصلحة . بل لقد حاولوا استدراجنا معهم إلى طرائق ولايتهم . فكان هذا داعياً إلى تعجبنا باعثا على دهشتنا وتحيرنا حتى ليعلم الله أن كبدى كادت تنفطر من شدة الأسى وتقطر دما من فرط الأسف فهل ضاع الإنصاف أيضاً (يامحمود بك) ؟ أم تراهم اكتفوا برؤية الدعوى على ضوء القانون ظانين أنى نسيت مضمون عريضة (محمود أفندى) ومحرراته إن كانت الدعوى المذكورة قد نظرت حقاً بحسب القانون وكان كل ما يستحقه الرجل هو ذلك الجزاء الذى قرره المجلس فى مضبطته بإجماع الآراء بعد وزنه بجرائمه وتقديره لها بموجب مضمون عريضته ومحرراته فليبعث إلى بتلك العريضة والمحررات لأحقق أنا أيضاً المسألة . فقد أكون لها ناسيا . حتى إذا أسفر التحقيق عن صحة قرار المجلس فيها ونعمت . وإلا حق على « أن أقاضى أعضاء المجلس وأفصل بنفسى فى دعواى فأوفى كلا منهم جزاؤه .

وبناء على ذلك لقد أعدت إليكم فى طى كتابى هذا مضبطة المجلس ، كى تردوها إليهم وترسلوا معها العريضة والمحررات عسى أن ينعموا النظر فى المطابقة والموازنة . فإن هم اجترأوا بعد ذلك خطة إنتهاج خطة الخلاف فليعلموا علم اليقين أنى لا بد موردهم موارد التلف تبعاً للنصوص الواردة فى القانون .

« إذن فليراعوا ذلك ويحكموا فى هذه الدعوى بمقتضى الحق والنصفة مسترشدين بما فى النظم الجهادية من أصول صحيحة مستحسنة وبما تنص عليه القوانين القيمة ليختاروا لأنفسهم واحدة من هاتين الخطتين ثم ليجيبوا مخبرين بها مشيرين إليها .

« هذا ما لزم تسطيره فإذا أحطتم علما بفحواه فأخص مطلوبنا أن تبادروا إلى إيفاء مقتضاه »[1] .

---

(١) المكاتبة التركية رقم ١٦١ دفتر رقم ٦ معية تركى بتاريخ غرة ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٢٧ م) .

استقدام بعثة عسكرية

لتدريب الجيش

اتخذ محمد على — الجيش الفرنسى — مثالا ينسج على منواله فى إنشاء جيشه الحديث . ورأى قبل اختياره للمدربين الفنيين أن يدرس كفاءاتهم ودراياتهم العسكرية وأحوالهم الخاصة حتى إذا وقع اختياره على من راقه منهم أغراه بالمال وأطلق يده فى العمل . ومع أننا لم نوفق بعد للوقوف على الوثائق التى تبين علاقات العزيز مع الكابتن سيف الإفرنسى فى مستهل عهده فى خدمة الجيش فإننا نستطيع أن نقطع بوجود هذه الظاهرة التى ألمعنا إليها حين نقرأ رسالة العزيز إلى ابنه إبراهيم المؤرخة فى ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٣م) حيث يقول :

« لقد فكرنا فى استخدام رجل قدير يتولى تنظيم عساكرنا الجهادية وفقا للأصول العسكرية المقررة ويكمل النقص فى الأنظمة القائمة الآن ويرفع التعليم والشئون الأخرى على الوجه المطلوب وقد تحدثنا فى هذا الموضوع إلى صديقنا الخواجة دروفتى قنصل فرنسا عندما جاءت مناسبة . فكتب جنابه بدوره عن فكرتنا هذه إلى الجنرال الذائع الصيت المعروف باسم بوييه أحد جنرالات بونابرت الذى سيصبح بعد رتبة واحدة مرشالا والذى حضر مع بونابرت أكثر حروبه . وقد استوضحنا القنصل مقدار المكافأة التى تمنح للجنرال فيما إذا حضر . ثم جاء فى الخطاب الذى أرسله الجنرال المذكور أنه سيحضر وفى حالة حضوره سيقطع عنه الإيراد المقرر له من حكومته وأبان القنصل أن هذا الإيراد لو اشترى لبلغت قيمته مئة ألف ريال على الأقل وأنه يجب أن يخصص له ٢٥٠٠٠ غرش شهريا ولكل من معاونيه ثلاثة آلاف ريال سنوياً . إن هذه المبالغ ليست بالشىء المرهق إزاء رفع مستوى مصالحنا إلى الحد المطلوب ووصولنا إلى غايتنا . ولكن هل الجنرال المذكور هو فى الواقع كما قيل عنه . فإذا كانت

شهرته قد بلغت إلى هذا الحد فلا بد أن يعرفه الإفرنج الذين معكم وعليه استوضحوهم أمر هذا الجنرال بطريقة مناسبة[١].

ومن الغريب أنه بينما كان العزيز يبحث عن أشهر المدربين وأقدرهم فى أعلى الأوساط العسكرية فى فرنسا كان أولو الأمر فى الآستانة يسألونه أن يبعث إليهم بمدربين وطنيين من قواده لتدبير شئون الجيش فيها[٢].

تخير الجنرال بليار[٣] – أحد القادة الفرنسيين فى المعاش – من القادة الإفرنسيين الجنرال البارون بوييه[٤] General Boyer ليكون رئيسا لبعثة عسكرية تنظم جيش محمد على الجديد. ومعه كولونيل المشاة جودا Gaudin قائد الآلاى السابع والعشرين فى حرب البرتغال وكان من أكفأ المدربين العسكريين والشقيقان أدولف وبولان دى تارليه وكان أولهما قائد كتيبة وثانيهما يوزباشى فى الخيالة. وبعض ضباط آخرين وطبيب. وتطوع ليفرون Livron للعمل بصفة شبه رسمية وكان يلم بأشياء كثيرة. وأكتسب فيما بعد ثقة الباشا وعينه مندوبا عنه لدى الحكومة الفرنسية بدلا من ضابط آخر.

وصل بوييه إلى إسكندرية مع معاونيه فى ٢٤ نوفبر ١٨٢٤. وكان يستصحب هدايا ثمينة من أسلحة وذخيرة. فلما قدمها للباشا تأثر كثيراً من عطف الحكومة الفرنسية. وقال – بعدْ تجربة – إن البارود أحسن نوعا من الذى أستورده من انجلترة.

وحل الجنرال بوييه بالقاهرة حيث سكن فى قصر فخم بالروضة خصص

(١) من محمد على باشا إلى ابراهيم باشا — ٢٧ ذى القعدة سنة ١٢٣٨ — معية تركى دفتر١٦ رقم ٣٢.

(٢) الوثيقة التركية رقم ٤٣٧ بتاريخ ١٢ محرم ١٢٤٢ هـ (١٦ أغسطس ١٨٢٦) بدفتر ٢٢ معية تركى من محمد على باشا إلى الصدر الأعظم

(٣) ولد الجنرال بوييه (١٧٧٢ — ١٨٠١) فى بلفورت — وكان برتبة أدجوتانت جنرال فى الحملة الفرنسية على مصر. وصار قائد فرقة فى عام ١٨١٤. وعقب انتهاء مهمته فى مصر شغل قيادة كبرى فى الجزائر فى عام ١٨٣٠

(٤) الجنرال بليار أحد قواد الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ واشترك مع نابليون فى حروبه الأوربية. وكان من كبار معاونيه فى مصر — وقد اشترك فى إخماد ثورة الوجه البحرى التى نشبت فى أثناء تولية الجنرال كليبر.

لإقامته وليكون أيضاً مقراً للرئاسة العامة للبعثة . وفى هذا القصر استهلت الأعمال الأولى لمشروعات الجيش وطرائق تدريبه .

وقد جرى الاتفاق على أن يتصل بنفسه مع الباشا للتفاهم فى كل ما يراه من آراء وما ينتهجه من خطط . كما جعل لجودان الإشراف على تعليم المشاة[1].

ويتسنى لنا أن نقف على أعمال الجنرال بوييه من مخابراته مع بليار مدة ١٨ شهرا ومراسلات شهود العيان من أمثال بريس دافن الذى شغل بعض الوقت وظيفة أستاذ فى مدرسة المشاة بدمياط . ومدرسة أركان الحرب فى جهاد آباد . والملازم جولز بلانا المدير والمؤسس للكلية الآنفة . وفيلكس منجان قنصل فرنسا العام . والدكتور كلوت بك مؤسس الخدمة الطبية العسكرية فى مصر . والمالى كادلفين وزميله دى بروفرى اللذان اكتشفا إقليم النوبة .

ومما هو قمين بالتنويه فى هذا المجال أن « بليار » كان على اتصال بـ « بوييه » . يراسله باستمرار ويتبدى مما كتب له أنه لا يوافق مطلقاً على اشتراك محمد على فى حملة المورة خشية أن تفقد فيها مصر جيشها الفتى ! وكان يرى من الأصوب أن ينسحب محمد على من هذا المشروع ولايجابه الأمم المسيحية . ويجنى ثمار النصر بالوسائل السلمية لتحظى مصر بالتقدم وتستمتع بالمدنية الحديثة .

وقد ألح بليار مرة أخرى ليوجه نظر محمد على وجهة أخرى فيها فائدة كبرى لمستقبل مصر ، ويجعل لها قوة يدفعها صوب الشرق الأدنى وإفريقية ، مما يفتح لمصر أبواب التوسع والرفاهية ، بدون أية خسارة مرتقبة[2].

ومن المتفق عليه أن محمدا عليا كان مقتنعاً بهذا الرأى . بيد أنه لم يك بعد واثقاً من قوته ومن نتائج محاولته ليقطع العلائق مع أمير المؤمنين . وكان يأبى المغامرة خوفا من فقد ملكه الجديد .

والواقع أن حرب المورة وحرب الحجاز كلفتاه كثيراً . فقد خسر فيهما حوالى ثلاثين ألفا من خيرة جنوده . ثم إن التشكيلات العسكرية الجديدة التى

(١) جولز بلانا Histoire de la regeneration de l'Egypte —ص ٧٣

(٢) Belliard à Boyer. 10 Févr. 1826. p. 104.

نظمها سيف فيما بعد لم تك قد استكمل تعليمها وبعبارة أوضح كانت ناقصة إلى حد يذكر . ولم يك غير الضباط العظام ملمين بالقراءة والكتابة مما جعل محور أعمالهم يدور على محض الذاكرة . فلا كتب ولا قوانين مطبوعة ولا تعليمات محفوظة . ولم يك من بينهم أحد يعتمد على الدرس والكتابة سوى القائم مقام أدهم بك ، الذى درس المدفعية فى استانبول[١] وقام برحلات شتى فى إنجلترة .

وتجلو الوثائق الآتية أهم المراسلات الخاصة بالبعثة العسكرية فى عهدها الجديد ، حينما زاول أعضاؤها العمل فى الجيش . . .

« من الجناب العالى إلى محمد بك ناظر الجهادية

لقد أرسلنا إليكم جناب المحترم الجنرال بوييه وزميله الجنرال ليورون ومن فى معيتهما من الضباط وهم الهيئة العسكرية التى استحضرت من دولة فرنسا وحيث أن مرتبات الجنرال بوييه والضباط وتعييناتهم اليومية مدرجة فى عقودهم فعليكم أن تنظموها وفقا لما أدرج فى العقود .

أما الجنرال ليورون فليس له عقد بل خصص له مرتب سنوى قدره ستة آلاف ريال فقيدوه فى الدفاتر بهذا المرتب واصرفوه له لدى استحقاقه وعليكم أن تصرفوا له أيضاً تعييناته اليومية بحسب اللازم .

ولما كان هذا الجنرال بوييه من رجال الحرب وواقف على شئون الجند وخبير بفنون الحرب فقد استحضرناه إلينا بغرض الحصول منه على معلومات خاصة بالشئون العسكرية ولا يخفى عليكم أجمعين ذلك ولذلك لم تعد هناك حاجة إلى تغيير أسمائهم ورأينا الاكتفاء بتغيير زيهم وملابسهم فاعلموا ذلك وضعوا خطة لاستخدامهم بموجبها بحسب ذلك ولدى وصولهم إلى ذلك الجانب عليكم أن تسلموا كل واحد منهم حصانا كامل العدة كالمعتاد وأصرفوا لهم الملابس اللازمة على ألا يكتفى بإعطاء الجنرالين حصاناً واحدا لكل منهما بل يزاد فى عدد الخيول وأن تكون ملابسهما من النوع الجيد ويزاد لهما شالا كشميراً .

ولدى تشرف الجنرال المذكور بتقديم هدية ملكية رأينا فيه مخايل العلم

---

(١) جول بلانات — ص ٦٥

والعرفان لذلك يقتضى إيفاء واجب الرعاية لهم والعمل على اكتساب المعلومات التى تؤدى إلى ازدهار هذه المصلحة العسكرية من الجهة العملية مادمنا قد أنشأناها واضطرتنا كلنا إلى تنظيمها أحسن نظام »[1].

« من الجناب العالى إلى محمد بك ناظر الجهادية

جاءنى مكاتبتكم الواردة أخيراً ما نصه : وصل الجنرال بوييه فأنزل فى منزل الخواجه جوانى الكائن بمصر القديمة وأن الجنرال ليورون والضباط آثروا الإقامة فى المعسكر فأعد لهم ما يحتاجون إليه من الخيام وغيرها وأنه خصص للجنرال ليورون مرتبه والتعيينات اللازمة كما أنه ربطت مرتبات الجنرال بوييه والآخرين وتعييناتهم بموجب عقودهم وأعدت حاجاتهم وفقا لطبائعهم التى اعتادوا عليها ولما كان العقد الخاص بالجنرال بوييه ينص على إعطائه خمسة رؤوس من الخيل فصرف له حصانان روميان وحصان نجدى وسيعطى له الحصانان الآخران قريباً . أما الجنرال ليورون فقد أعطى له حصانان روميان وآخر نجدى بحسب رتبته وصرفت لهم الملابس اللائقة وأعطى لكل منهما سرجا مفضضا ولم نعلم إن كان الحصانان النجديان اللذان سيعطيان لهما داخلين ضمن هذه الخمسة والثلاثة أم لا ؟ اضطررنا إلى الاستعلام ولقد صرفنا إلى الضباط السروج اللائقة بهم والخيل اللازمة لهم والملابس . . . كما أننا أعطينا إلى هذين الجنرالين سيفين مذهبين وقد أخرنا إعطاء الجنرال بوييه سيف الافتخار وإلباسه الفراء (الكورك) إلى أجل .

فأحطت علما بما حررتموه فنبلغكم أن الحصانين النجديين المقرر إعطاؤهما إلى الجنرالين المذكورين داخلان ضمن الخيل الخمسة والثلاثة المقرر صرفها لهما وليس ثمة خيل أخرى عند صرف الحصانين للجنرال بهذه الصورة يكون عدد الخيل المقررة لهما قد تم فعلا ولا حاجة إلى إعطائهما أكثر من ذلك .

ولقد استحسنا ما فعلتموه من تأجيل إعطاء سيف افتخار إلى الجنرال

---

(١) وثيقة رقم ٤١٨ ورقة ٦٣ دفتر ١٦ معية تركى ١١ بتاريخ ربيع الثانى ١٢٤٠ هـ (ديسمبر ١٨٢٤ م)

بويه ومن السياسة الحقة لأننا عازمون على الحضور إلى ذاك الطرف فى هذه الأيام ولدى وصولنا بمشيئة الله سيعطى له السيف ويلبس الفراء »[1].

« من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية[2].

لقد أرسلنا إليكم الكولونيل رى من ضباط الطوبجية الذى جئ به من باريس بواسطة الجنرال ليورون وهو خبير فى فن الطوبجية وفيما يتعلق بالمدافع والمهمات المتنوعة الخاصة بها وفى نظم تعليماتها وتدريباتها وستقفون على درجة خبرته من العقد الخاص به فعليكم أن تأمروا بترجمة عقده حتى تتبينوا مأموريته ثم استخدموه فى خدمات المدفعية وكلفوه بفحص الآلات والمهمات الخاصة بالمدافع وليخبركم بما ينقصها وقد أنبأنا الأغا كتخدانا تحريرا بإعطائه تصريحاً للتفتيش على المدافع وعلى المهمات واللوازمات والأدوات الخاصة بها حينا بعد حين »

وكتبت صورة من هذا الأمر بعبارته إلى البك الكتخدا .

وألحق بهذا الأمر مادة أخرى إلى البك ناظر الجهادية :

« لقد أرسلنا إليكم المدعو برتيه الذى استقدم بواسطة الجنرال المذكور بصحبة الكولونيل المار ذكره وهذا أيضاً خبير فى الأسلحة والمهمات وله علم تام بكل الأدوات واللوازم فعليكم أن تقوموا بترجمة عقده ثم تبادروا إلى استخدامه فى الشئون الخبير بها »

وهذه المادة نسخت بعبارتها وزيد عليها بعض الوصايا وأرسلت إلى البك الكتخدا .

وقد تألفت البعثة فى بادئ الأمر من الضباط الآتية أسماؤهم :

الماريشال ليفرون وبيير جاستون هنرى (Livron)

الكولونيل جودا (Colonel Gaudin)

---

(١) وثيقة رقم ٤٣٠ ورقة ٦٥ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ٢٧ ربيع الثانى ١٢٤٠ ﻫ

(٢) دفتر ٢٠ معية تركى — الوثيقة رقم ١٧٠ ورقة ٣١ بتاريخ ٣ صفر ١٢٤١ﻫ (١٧ سبتمبر ١٨٢٥ م)

قائد الأورطة تارليه (Adolph de Tarle) وقد انتهت مهمته فى عام ١٨٢٧
الكابتن تارليه
الكابتن بوجول (Jean-Marie Pujol)
الكابتن لوديو (Charles A. Le Dieu)

وكان عقد توظفهم فى الجيش المصرى لمدة عشر سنوات ولو أن رئيس البعثة لم يبق فى خدمة محمد على بعد عام ١٨٢٦

وفى عام ١٨٢٥ انتدب ضباط آخرون من الجيش الفرنسى نذكر منهم : قائد الأورطة جان هاراجلى والكابتن بونا فنتور وبارون وقائد الأورطة بيير ماليه وقائد الأورطة انطوان بيكلا والأدجو تانت ماجور بيربيز والكابتن لويس جان سوى وقائد المدفعية إدوار راى (Rey) وفى عام ١٨٢٩ استدعى الضباط.

جول بلانا وقائد الأورطة الخيالة الفيكونت بونا فنتور والماجور ماى وشالز هوفوريه والكابتن جان بتيه امبرواز وقائد الأورطة الخيالة فاران (Varin)

وكانت مدة خدمة أفراد البعثة التى تعاقدت عليها الحكومة معهم عشر سنوات ويدفع لرئيس البعثة مرتب شهرى مقداره خمسين ألف فرنكا و ١٥٫٠٠٠ فرنكا للكولونيل و ١٢٫٠٠٠ لقومندان الأورطة و ٨٠٠٠ فرنكا لكل من الضباط الآخرين فى العام . وقد كانت هذه المرتبات معقولة ومحترمة فى ذلك الحين . إذا أضفنا إليها وسائل تسهيلات المعيشة وتقديم علف الجياد ودفع مصاريف السفر والملبوسات . وكانت للضباط الحرية المطلقة فى التمسك بدينهم أو اعتناق الإسلام على أن يتخذوا أسماء إسلامية يعرفون بها[١]

وكانت مهمة الجنرال أثناء المدة التى مكثها فى مصر من نوفبر ١٨٢٤ إلى أغسطس ١٨٢٦ قصيرة لم تزد على تنظيم وتدريب التشكيلات الفنية للواءات المشاة الجديدة وكذلك تنظيم القيادة العليا

وأصلح الجنرال بوايه نظام انتخاب ضباط أركان الحرب بتأسيس مدرسة خاصة لهم . وقدم مشروعا لإعادة تنظيم المدفعية وسلاح المهندسين العسكريين .

---

(١) لم يطبق البند الأخير مطلقا وظلوا بأسمائهم الأصلية

كان بوابيه عسكريا قحا فى أخلاقه وطباعه ولم يكن حسن السياسة . فخلق عدة مشاكل مع الذين اتصل بهم . ولم يعرف الوسائل التى تحقق له رغباته (١)

وعلى العكس وجدنا مساعدة الكولونيل « جودا » قد وفق فى عمله ككبير للمدربين العسكريين الأوربيين الذين كانوا بالجيش فى ذلك الوقت وقومندان لمعسكر جهاد آباد . وفى قليل من الزمن أحبه جميع الضباط ونال ثقتهم كما كسب صداقتهم .

وبعد أشهر قلائل وافق الباشا على اقتراح الجنرال بوابيه لاستدعاء سبعة ضباط مشاة آخرين من فرنسا وكان هؤلاء :

رؤساء الأورط : كانترلى — هاراجلى — دباروا — ماليه — وبيكو — والكابتن بيز وزميله سوى

ولقد كان قنصل فرنسا لدى محمد على « برناردن دروفتى » (Bernardin Drovetti) يعمل فى الخفاء لتشجيع محمد على لإرسال حملة حربية لبلاد الجزائر (٢) فى يوم من الأيام — لكن حبطت مشروعات دروفتى . وإليك رسائله الرسمية تفصح عن نواياه إذ يلوح أن دروفتى رأى من واجبه أن يبلغ رئيسه فى ٧ أغسطس سنة ١٨٢٦ ما يأتى :

« لقد كان من واجبى قبل الآن أن أشرح لسعادتكم الخطة التى يسير عليها القائدان بوييه (Boyer) ولفرون (Livron) ومن معهما من الضباط لقد تمكنت فى نفوسهم من يوم مجيئهم فكرة خاطئة عن طبيعة مهمتهم التى وافقت عليها حكومة جلالة الملك والتى ترمى إلى تمهيد السبيل للحوادث التى تمكننا فى يوم من الأيام من الاستيلاء على هذه البلاد . لكن رئيس البعثة ماعتم أن أظهر أنه لم يأت إلى هنا ليخدم مصالح فرنسا بل ليملأ خزائنه بالمال .

---

(١) راجع تاريخ حياة أعضاء البعثة العسكرية فى كتاب التاريخ الحربى لمحمد على للجنرال فيجان . ج ٢ ص ١٨١ — ٢٠٩

(٢) كتاب دوان Douin — محمد على وحملة الجزائر ص ١ من مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .

ولذلك ترك الأمر كله إلى الكولونيل جودان (Gaudin) النشط الطموح[1].

وقال القنصل بعد ذلك إن مرتبه الضخم وجشعه الشديد قد مكناه من بلوغ هذه الغاية . ثم دب دبيب البغضاء فى نفوس الضباط الفرنسيين . وأدى التنافر بينهم إلى استقالة الجنرال بوابيه وتسعة من زملائه الضباط من خدمة محمد على فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٢٦ وعودتهم إلى فرنسا .

أثر البعثة العسكرية على الجيش

١٨٢٤ — ١٨٢٨

لا جدال فى أن الظروف التى أحاطت بالبعثة العسكرية وما حدث بين أعضائها من تنافر حالت بينها وبين القيام بواجبها على الوجه الأكمل . إلا أنه رغم تلك الظروف أمكنها أن تتم تشكيل ستة آلايات جديدة من المشاة تتألف من خمسة وعشرين ألف رجل كما استطاعت إنشاء وحدات أخرى من المهندسين العسكريين ، وتنظيم المدفعية تحت إشراف الكولونيل « راى » (Rey) الذى قدم إلى مصر فى أغسطس سنة ١٨٢٥ ولعل فى استعراض حالة الجيش إذ ذاك ما يلقى شيئاً من الضوء على سائر أعمال البعثة ، فقد شاهد الجنرال « بوابيه » عند ما زار معسكر الخانقاه (جهاد أباد) فى ديسمبر سنة ١٨٢٤ اثنى عشر ألفا من المجندين يقوم على تدريبهم قاسم أغا . . « شياندى » ومساعده ، وقد تحدث عنهم « بوابيه » فى رسالة بعث بها إلى « بليار » فى ٢٨ ديسمبر ١٨٢٤ ، فذكر أن أولئك المجندين لا يصلحون إلا لمقاومة عدو داخلى ، وأن من بينهم نحو ألف فى المستشفى العسكرى بين أبى زعبل والخانقاه ، يموت منهم عشرة فى كل يوم ، وكان جميع هؤلاء المجندين — على حد قول « بوابيه » — عراة . . حفاة ، يعوزهم الملبس والعتاد ، ويستخدمون أسلحة قديمة للغاية ولدى كل آلاى نحو مائتى بندقية

(١) دربو — كريت والمورة ص١٨٩ و ١٩٣ من مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية

غير صالحة للاستعمال ، أما سائر البنادق فقد بلغ من سوء حالها أن جيشاً يحارب بها مالايزيد على ثلاثة أيام ، لا بد أن يستسلم عند أول هجوم . وكذلك تحدث « بوايبه » عن المدربين الذين ألفاهم بهذا المعسكر فقال إنهم جميعاً من اللاجئين الأسبان والبيدمونتيين وأهل مملكة نابلى ، وكلهم من أراذل القوم لاذمة عندهم ولا ضمير لهم . لا يعرفون القانون أو الشرف . أما شياندى . . أو قاسم أغا فقد وصمه « بوايبه » فى رسالة بالدناءة والنذالة والجهالة ، وقرر طرده منذ يناير ١٨٢٥ ، وأحل جودان محله فى الإشراف على تنظيم المشاة وقد كان لفصل قاسم أغا صدى بعيد ودوى شديد بين زملائه من قدامى المدربين فأخذوا يحيكون المكائد والمؤامرات لرئيس البعثة ، أما هو فكان يعتقد أن طرد شياندى أعاد إلى الباقى صوابهم فزاد اهتمامهم بعملهم . على أن الطريقة التى كانت متبعة فى تجنيد الفلاحين للنظام الجديد ظلت موضع تعليقات شتى من جانب المعاصرين ، ذلك بأن المديرين كانوا — عند مايكلفون إرسال عدد معين من الرجال — يوزعون العدد المطلوب على القرى ، فيتولى مشايخها جمع الفلاحين ، دون تمييز بين من تقدمت بهم السن ومن لم يشبوا عن الطوق ، أو بين أرباب الأسر الكبيرة ومن لا يعولون أحدا على الإطلاق ، أو بين الأصحاء المعافين وغيرهم من المرضى وذوى العاهات . ولما كان يحدث فى أثناء نقل هؤلاء المجندين إلى معسكرات التدريب أن يهرب كثيرون فى الطريق أو يموتوا من المرض والإعياء ، فقد رأى المشرفون عليهم أن يجمعوا عددا يزيد على العدد المطلوب ،حتى يمكن سد هذا النقص ، كما وجدوا من الحكمة أن يضعوا الأغلال فى أيديهم ويسوقوهم إلى المعسكرات سواقا ، وكثيرا ما كان يخرج أقارب المجندين من النساء والأطفال ، يتبعونهم فى سيرهم مرحلة بعد أخرى ، حتى إذا بلغ الحشد المعسكر المقصود قامت إلى جواره قرية صغيرة كقرية جهاد أباد تأوى إليها هذه الخلائق ، وكان أقارب المجند يشاركونه ما تخصصه له الحكومة من غذاء ، ولما كان الطعام لا يكفيهم جميعاً ، فكثيرا ما كان يتسول الأطفال وتنزلق النساء إلى مهاوى الفساد ، وتنتشر الأمراض

الخبيثة وغير الخبيثة بين تلك الجموع الحاشدة .

وربما كان من الأسباب التى أدت إلى هذه الحالة السيئة ، أن « فرز » الرجال كان يحدث بعد وصول المجندين إلى المعسكر ، بدلا من أن يتم فى قراهم ، أو فى أماكن لا تبعد عنها كثيرا ، لذلك جرت العادة بأن يكون عدد المرسلين إلى معسكر التدريب أكثر مما هو مطلوب فعلا ، وقد حدث فى عام ١٨٢٥ أن وصل إلى معسكر الخانقاه نحو سبعين ألف نسمة لم يقبل منهم غير اثنا عشر ألفا ورفض حوالى اثنين وعشرين ألفا ، أما الباقون وعددهم ستة وثلاثون ألفا فكانوا من النساء والأطفال والفتيات والكهول ، ولم يتم العدول عن هذه الطريقة – طريقة فرز المجندين فى المعسكرات – إلا فى عام ١٨٣٠ ، وذلك بعد أن نجح كلوت بك فى تنظيم الخدمة الطبية ، فصار الكشف الطبي يوقع عليهم حيث يجمعون ، ولما كان التجنيد موضع رهبة شديدة عند الفلاحين فكثيرا ما كانوا يعمدون إلى ابتكار الحيل والوسائل التى تساعدهم على الإفلات منه فصاروا يقطعون الأصابع السبابة أو يفقئون أعينهم ، إلى غير ذلك من ضروب التشويه ، وقد تمادى الشبان فى ذلك إلى حد حمل الباشا على أن يبادر بتوقيع عقوبات صارمة ، بلغت حد الإعدام ، على من يحدثون بأجسامهم هذه العاهات المفتعلة ، كما توعد النساء بأن ينلن نصيبهن من العقوبة إذا ثبت أن لهن يدا فى تلك التصرفات الحمقاء ، وفضلا عن ذلك فقد أمر الباشا جميع المعهود إليهم بالإشراف على مسائل التجنيد ، بأن يبذلوا قصاراهم لمنع حوادث التشويه ، وإلا عد ذلك إهمالا منهم فى تأدية واجبهم ، وحق عليهم مجازاتهم بأن تشوه أجسامهم .

هؤلاء هم المجندون الذين جئ بهم إلى معسكر التدريب ، وعهد إلى « بوابيه » وأعضاء بعثته بالقيام على تعليمهم وفق الأنظمة الفرنسية الحديثة وقد أمكن إعداد الآلايات الثلاثة المطلوبة فى أربعة أشهر ، مما أثار إعجاب الباشا عندما زار المعسكر فى مارس ١٨٢٥ ، فقد أقام به خمسة عشر يوما ، شاهد فى أثنائها عرضا عاماً ، وحضر مناورات قام بها جنود هذه الآلايات ،

وعلق « بوابيه » على هذه الزيارة فى رسالة بتاريخ ٥ مايو ١٨٢٥ فقال إن الوالى قد تملكته الدهشه لما رأه من انتظام الحركات ، ونتائج إطلاق النار ، عند التقدم والتقهقر ، وسير طوابير الهجوم وفى كلمة موجزة ، أعجب بكل ما استطاعت هذه الآلايات الخمسة عشر أن تقوم به أمامه ، من حركات عسكرية منوعة فى مهارة وبراعة ، وكان من أثر إعجاب الباشا ، أن دعا إلى المعسكر جميع عظماء القطر ووزرائه ، وبعبارة أوجز كل من يكرهون الجديد .

على أن « بوابيه » لم يغب عن باله قط أن يهتم بلباس الجند وأسلحتهم فقام قبل كل شيء باختيار الميدان ، ثم تقدم إلى الباشا يطلب الإسراع فى تنظيم المدفعية ، كما كتب إلى وزير الحربية الفرنسية المركيز دى كليرمون — تونير «Clearment-Tonner» يرجو الموافقة على إرسال بعض الضباط لتنظيم المصنع الذى يقوم بصنع مدافع الباشا وأسلحته ، وكذلك للقيام بتعليم رجال المدفعية المصرية ، وقد وافقت حكومة الملك شارل العاشر على هذا الطلب. وفى أغسطس سنة ١٨٢٥ هبط الإسكندرية ضابط المدفعية « راى » الذى مر ذكره ، وكان مما استرعى انتباهته رداءة الأسلحة المصنوعة فى مصر فطلب إلى الباشا أن يبتاع أسلحة جيشه من فرنسا سدا لهذا النقص ، غير أن الباشا أبى أجابة هذا الطلب ، معتمدا على أن فى الاستطاعة تحسين الإنتاج المحلى وترقية الصناعة المصرية ، وقد تحققت فكرة الباشا ونجحت صناعة الأسلحة فى مصر ويرجع الفضل فى ذلك إلى طرد « فرانجينى » الإيطالى الذى كان يشرف على تلك الصناعة ، كما يرجع إلى الرقابة الشديدة التى فرضها ديوان الجهادية على المعامل والمصانع العسكرية ، وإلى تعيين مديرين جدد لترسانة القلعة ، وقد أدخل « راى » عدة تحسينات على صناعة البارود لما عنى بتدريب رجال المدفعية ، أما المهندس الإيطالى « بوريانى » Boreani فقد حل محل « راى » على أثر عودته السريعة إلى فرنسا ، وحاول تحسين مخلوط المادة التى تصنع منها المدافع والأسلحة ، وفى هذه الأثناء تم تخريج ضباط الآلايات الستة الأولى وفى مدرسة المشاة وهى المدرسة التى

انتقلت من أسوان إلى اسنا ثم إلى أخميم ، وجعلها « سليمان الفرنساوى » أساس النظام الجديد . وفى مايو ١٨٢٣ أمر الباشا بإنشاء مدرسة وجاق النخيلة وإلى جانب ذلك صار الضباط الجدد يتخرجون فى القصر العينى ، وجعلت مدرسة النخيلة محل مدرسة « سيف » الحربية السابقة وكان موضعها قرب جهاد أباد ووسط معسكر الخانقاه نفسه ، وكان بها خمسمائة شاب تركى يدربهم « بلاسا » Plassa البيدمونتى ، أما مدرسة القصر العينى فقد أسسها عثمان نور الدين، ثم تسلمها أحمد أفندى خليل ، وكان بها من خمسمائة إلى ستمائة تلميذ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسادسة عشرة، تحت إشراف «دومرج» الفرنسى وقد رافق الآلاى الذى سافر إلى الحجاز ومعه بعض التعلمجية والآخرين أمثال « فيجوريه » و« جلينى » و« جيرناتس » .

مدرسة أركان الحرب

ولما كان من واجب « بوابيه » تنظيم القيادة العليا ، فقد اقترح على الباشا تأسيس مدرسة أركان حرب فى الخانقاه ، يختار طلبتها من بين الضباط الصالحين للقيادة وحصل « بوابيه » على موافقة الباشا فى ٢٥ مايو ١٨٢٥ ، وفتحت المدرسة أبوابها فى ١٥ أكتوبر من العام نفسه فى قرية جهاد أباد ، وكان مديرها الأول الضابط الفرنسى Planat (١٧٩٦ -١٨٢٩) ، وكان من ضباط المدفعية القدماء فى الجيش الإمبراطورى ، حضر فى أغسطس ١٨٢٣ ، وعندما جاءت بعثة « بوييه » طلب أن يعمل مع أعضائها ، وقد رفض الباشا أن يستخدمه فى بادئ الأمر ، ثم عدل عن رأيه بفضل تدخل « بوابيه » وقدم « بلانا » إلى معسكر الخانقاه فى أبريل ١٨٢٥ ، ولكن أصابه مرض شديد لم ينج منه إلا بعد جهود موفقة بذلها كلوت بك وعناية فائقة من جانب « بوابيه » وعندما تأسست مدرسة أركان الحرب تولى « بلانا » إدارتها ، وكان عدد تلاميذها فى بادئ الأمر

ثمانية عشر بلغوا سبعين فى العام التالى ، وقد اختيروا من بين تلاميذ قصر العينى المختارين ، وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات ، أما «بلانا» فمات منتحرا فى بداية عام ١٨٢٩ .

ولم ينتفع « بوابيه » بجهود « بلانا » وحده ، بل نال موافقة الباشا على تعيين عثمان نور الدين أفندى فى منصب قائد أركان حرب ، وقد رقى نور الدين منذ ذلك الحين إلى رتبة البكوية ، ولم يكن جاوز السادسة والعشرين من عمره ، ولكنه كان يتمتع بمواهب نادرة ، كما كان وثيق الصلة بسليمان الفرنساوى ، مع أنه لم يشغل قبل ذلك منصباً من مناصب الجيش ومع أنه كان يميل إلى الإيطاليين الذين أكثر الباشا من استخدامهم فى المدارس والإدارة ، إلا أنه استخدم الأخوين « أودلف » و « بولان دى تارليه » وكلاهما من أمهر ضباط أركان الحرب ، وعندما تخرج فى مدرسة أركان حرب الفوج الأول ، وعدده ثمانية عشر طالبا ، الحقوا بهيئة أركان الحرب فكانوا نواة هذه الهيئة التى شكلت فى جهاد أباد ، وكانت تتألف من مكاتب ثلاثة ، أحدها للمراسلات العامة والأوامر برياسة قائد أركان حرب نفسه والثانى لخدمة المعسكر والشرطه ، والثالث للمحفوظات تحت اشراف « أودلف دى تارليه » وظاهر أن عمل هذه الهيئة كان محدودا منذ البداية .

وكان آخر أعمال « بوبيه » اشتراكه مع « راى وجودان » والأخوين « دى تارليه » فى مجلس الجهادية ، برياسة عثمان نور الدين ، وكان هذا المجلس يضم إلى جانب « بوابيه » وصحبه الفرنسيين الضباط الترك الموجودين بالخانقاه من رتبة كولونيل ، وكان الغرض من تشكيل ذلك المجلس وهو عبارة عن لجنة عسكرية توحد نظم التعليم والتدريب فى الجيش ، ودراسة وسائل النهوض به ، غير أنه حدث خلال انعقاد الجلسة الثانية فى يناير سنة ١٨٢٦ ، أن اشتد الخلاف بين « بوابيه » و«جودان» فانفض المجلس على غير طائل[١] .

---

(١) محمد فؤاد شكرى — بناء دولة

الفرسان والنظام الجديد

ولعل أهم ماحدث بعد سفر « بوايبه » إدخال النظام الجديد فى سلاح الفرسان المصرى وكان السر فى الإصلاح ، أن إبرهيم باشا أعجب أيما إعجاب بوحدات الفرسان الفرنسية وتنظيمها فى جيش الجنرال « ميزون » Maison أبان حرب الموره ، ولم يكن القائد المصرى يعود إلى أرض الوطن ، حتى وصف لوالده العظيم ما شاهده من نظام تلك القوة وبراعتها فقرر الباشا على الأثر تنظيم قوة الفرسان المصرية ، ولما كان سليمان الفرنساوى من الفرسان القدماء فقد كان من المنتظر أن يعهد إليه بهذا العمل ، ولكن إبرهيم باشا كان غير راض عنه منذ معركة تربيولتزا فى يونيو ١٨٢٥ لذلك وكل الأمر إلى الضابط « بولان دى تارليه » وهو أحد الفرسان القدماء فى الجيش الفرنسى ، وقد طلب إليه الباشا فى بداية عام ١٨٢٩ تشكيل سبعة ألايات دفعة واحدة فاعتبر « تارليه » ذلك مجازفة لاداعى لها إذ كان يرى إعداد ألاى واحد إعدادا كاملا ثم الانتفاع بما يكتسب من الخبرة خلال هذا الإعداد فى تشكيل الآلايات الأخرى شيئاً فشيئا ، غير أن الباشا كان شديد الرغبة فى التأهب على عمل استعداد للحرب السورية الأولى ، فلم يسع أحدا مخالفته . على أن إعداد قوة الفرسان الجديدة لم يكن بالأمر الهين اليسير ، نظرا لما يتطلبه من الرجال الصالحين لهذا النوع من الخدمة العسكرية وما تمس إليه الحاجة من الأسلحة والخيول وما إليها وقد عمل الباشا على تذليل هذه المصاعب ، فابتاع الخيول من الشام ودنقلة ، كما حصل من كبار الدولة والموظفين على خمسمائة وألفى حصان ، أما العتاد والأسلحة فقد ابتاع « ليفرون » بعضها من فرنسا ، وقامت مصانع مصر بإعداد الباقى وأما جنود هذا السلاح فاختارهم الباشا من بين عربان الصحراء ، وأقطعهم لقاء ذلك أرضا فى مختلف المديريات .

ولما اكتملت الاستعدادات أسرع الباشا فى إرسال الرجال والخيول إلى

طره ، وأقبل « دى تارليه » على عمله الجديد فى همة ونشاط ، ولكن لم يلبث أن اعترضته عقبات كثيرة منها وجود محمود بك عزت فى منصب ناظر الجهادية بعد وفاة محمد بك لاظ أوغلو . وكان الناظر الجديد ناقص التجربة قليل الإلمام بالفنون العسكرية . وقد اشتهر بالمطل والتسويف فى جميع ما يعرض عليه من شئون حتى بات قوله المشهور « سوف ننظر » علما عليه ، فعرف بين معاصريه باسم « بقاليم » أو «محمود بك سوف ننظر » وهو البانى لم يفسح مجال الترق أمامه سوى عطف الباشا عليه بعد أن مضى شبابه يشتغل بالتجارة وكان من العقبات التى صادفت « تارليه » كذلك عدم تعود العربان النظام الأوربى فى إعداد الخيل واعتلاء صهواتها والتدريب على ركوبها ، هذا إلى عدم وجود العدد الكافى من المدربين فلم يكن هناك سوى اثنين من الطليان لتعليم ستمائة فارس ، وقد ظل « دى تارليه » لايجد حاجته من المدربين حتى قدم فرنسا فى نهاية عام ١٨٢٩ ثلاثة من ضباط السوارى هم « توشبيف » De Touchebeouf و « مارى دى شال » Mey de Chales و« بيتر » ثم لحق بهم بعد قليل القومندان « نويل فاران » Noel Varin وكان من بين ضباط أركان حرب الماريشال « چوفيون سان سير » ، وقد أمكن بفضل معاونة هؤلاء جميعاً تنظيم الآلايات السبعة المطلوبة ، على النظام الفرنسى فى عام ١٨٣٠ .

على أن إبرهيم باشا لم يلبث أن أوحت إليه الخبرة التى كسبها خلال حرب الموره ادخال تعديل جديد فقد عمد إلى تقسيم الفرسان لواءات ثلاثة ، وضع على رأس كل منها « أمير لواء » وعين على اللواء الأول سليمان الفرنساوى ، بعد أن رضى عنه بفضل وساطة الباشا نفسه وعهد برياسة اللواء الثانى إلى أحمد المنيكلى بك ، أما الثالث فقد أسندت رياسته إلى سليم بك ثم وزع المعلمون أو المدربون « دى تارليه » و « دى توشبيف » و « مارى شال » على اللواءات الثلاثة .

ولما كانت قوة الفرسان الجديدة فى حاجة إلى ضباط ، فقد أسس الباشا فى أوائل عام ١٨٣١ . عملا برأى سليمان الفرنساوى فيما يظهر — مدرسة للفرسان فى الجيزة

بسراى مراد بك القديمة ، وكان موقع المدرسة جد ملائم ، إذ أن قرب المكان من النيل يجعل العناية بالخيل أمرا ميسورا ، كما أن وجود سهل فسيح بجواره يساعد كثيراً على القيام بالمناورات والتمرينات وما إليها . وقد عهد الباشا بإدارة المدرسة إلى « ڤاران » فأشرف على تعليم عشرين ومائة من المماليك وكان حظه من النجاح موفورا ، ولعل هذا هو السر فى أن الباشا رأى فى عام ١٨٣٣ أن يمد هذه المدرسة بحوالى خمسين وثلاثمائة من الشبان الأتراك والمصريين ، على أن عمل « ڤاران » كان فى الواقع مقصورا على الإشراف الفنى بينما قام بالأعمال الإدارية مدير مصرى كان حلقة الاتصال بين المدرسة والحكومة وقد استدعى تنظيم قوة الفرسان تنظيم الخدمة الطبية للعناية بالخيول ، أى تنظيم الطب الحيوانى أو البيطرى ، ولم تكن عناية الباشا بهذا النوع من الطب أمرا جديدا فعندما فتك الوباء بالماشية فى الوجه البحرى ، وبخاصة ما كان يستخدم منها فى مصانع ضرب الأرز برشيد رأى الباشا استقدام إخصائيين . لمكافحة هذا الوباء ، فحضر من فرنسا فى عام ١٨٢٨ الطبيبان البطريان « هامون » Hamon « وبريتو » Pretot وقد تخرج أولهما وهو « ببير نيقولا هامون » فى مدرسة « الفور » Alfort البيطرية الملكية ، والتحق بخدمة الجيش الفرنسى وفى أغسطس سنة ١٨٢٧ حصل من وزارة الحربية الملكية ، بمساعدة ليفرون على إجازة لمدة عام واحد للذهاب إلى مصر والالتحاق بخدمة الباشا غير أنه استطاع البقاء فى مصر أربعة عشر عاما ، درس خلالها أحوال مصر عن كثب ، مما هيأ له الفرصة ليكون أحد كبار المؤرخين المعاصرين لعهد محمد على . وقد صادف « هامون » و « بريتو » منذ البداية صعوبات شتى ، منشؤها فى الغالب تعصب « الفلاحين » وموظفى الحكومة حتى حيل بينهما وبين الفحص عن أنواع الحيوان التى أصيبت بأمراض « من عند الله » واقتصر عملهما على علاج تلك التى أصيبت بسبب حادث من الحوادث ، غير أن هذه العوائق لم تحل دون تأسيس مدرسة للطب البيطرى فى رشيد ، كان عدد تلاميذها عشرة ، وقد طلب « هامون » نقلها إلى القاهرة واستقرت أخيراً فى أبى زعبل قرب مدرسة

الطب البشرى ، التى كان يشرف عليها كلوت بك مما أدى إلى قيام المنافسة والنزاع بين الرجلين نحو أربعة عشر عاماً ، إذا احتدم الجدل بينهما فى أى فرعى الطب يفضل الآخر ، ومهما يكن من الأمور فقد أفلح « هامون » فى أن يحصل تلاميذه المتخرجين فى مدرسة الطب البيطرى يتمتعون بنفس المزايا التى كان يتمتع بها زملاؤهم من الأطباء البشريين . وكان لما صادفه « هامون » من نجاح أثره ، أنه عندما انتقلت المدرسة فى أوائل عام ١٨٣٧ إلى اصطبلات شبرا ، بلغ عدد تلاميذها فى العام التالى عشرين ومائة ، وبعد وفاة « بريتو » كان يعاون « هامون » أربعة من الأساتذة الأوربيين ، وظلت المدرسة فى شبرا إلى آخر عهد محمد على .

هذا ما كان من أمر قوة الفرسان الجديدة ، أما القوة القديمة التى كانت تتألف من غير النظاميين فقد أبقاها محمد على على حالها ، وظل يدفع مرتبات أفرادها حتى استطاع الخلاص منهم فى هدوء وسلام .

ديوان الجهادية

كان محمد على ببصيرته النافذة وفكره الثاقب يدرك الأمر قبل وقوعه . فيقتله بحثا وتفكيرا ويقلبه على كل وجوهه ثم يصدر أمره لتنفيذه على الوجه الذى يراه محققا لغرضه . فلم يكن لديه مجلس للنظار أو الوزراء كما هو الحال فى الدول الحديثة ، بل كان لكل فرع من فروع الادارة الحكومية ديوان أو هيئة وعلى رأس كل ديوان ناظر ينفذ الأوامر التى يصدرها الباشا إليه بدون تحوير أو تعديل .

وكان عدد هذه الدواوين سبعة وهى :

الديوان العالى . ديوان الإيرادات . ديوان الجهادية . ديوان البحرية . ديوان المدارس . ديوان الأمور الأجنبية . ديوان الفابريقات

وجعل محمد على لكل من هذه الدواوين مجلسا فنيا مؤلفا من الإخصائيين

فكان ديوان الجهادية يرجع إليه فى دارة شئون الجنود البرية وتعليمهم وضبط حركاتهم وبناء الثكنات والمستشفيات والمهمات وخدمة الصحة والأسلحة ومخازن تعيينات الجنود وبالجملة كافة المصالح العسكرية ولم يكن على ناظر الجهادية سوى إصدار الأوامر التى يتلقاها من محمد على باشا وملاحظة تنفيذها بكل دقة وسرعة ، وبدون الرجوع إلى نظام المكاتبات وسيرها البطىء المعروف . ولم يكن لهذا الناظر سوى اثنين من الكتبة الأقباط يقومون بتحرير الخطابات الضرورية لفروع إدارة الجيش — ولقد أنشىء هذا الديوان فى عام ١٢٣٧ هـ (٢٢/١٨٢١)

وكان أول من تقلد هذه الوظيفة (ناظر ديوان الجهادية) محمد بك لازوغلو — الذى وجد منه الضابط سيف وزملاؤه الضباط الأجانب ورجال البعثة العسكرية برئاسة الجنرال بوايبه كل معاونة حقيقية فى تأدية أعمالهم العسكرية رغما عن مشيئة الضباط الأتراك . وكان محمد بك محترما من جميع مرءوسيه مرهوب الجانب . شغل منصبه بجدارة كاملة . وكان يدرك دائما أهمية منصبه لتحقيق مآرب مولاه . وكان سليم الحكم قوى الإرادة — أطلق عليه بحق رجل الباشا الأوحد الذى كان يعتمد عليه دائماً من بين رجاله المخلصين . وقد اشتهر بالصراحة التامة وبإدراكه بواطن الأمور . وقد مات مبكرا — فأسف على وفاته محمد على والأتراك والمصريون والأجانب

وقد ذكر أنه لما وصل خبر وفاته إلى محمد على خشى ثورة الجند فى معسكر جهاد آباد عند معرفتهم الخبر فأرسل أحد قواده على رأس قوة من الخيالة لاتخاذ القيادة والاستعداد لأى طارىء ء فجائى

وقد خلفه فى نظارة الجهادية محمود بك عزت . لكنه لم يبق مدة طويلة فى منصبه فقد خلع بعد عام واستبدل بحاكم الحجاز أحمد باشا المنكلى الذى ذاع اسمه بعد الحرب الوهابية . ثم عرف فيما بعد فى معارك سوريا والأناضول . وقد جرح عدة مرات أثناء مكافحته الثوار فى حوران . وكان مشهوراً بما أبداه من الشجاعة أثناء قيادته قوات الخيالة المصرية فى معركة قونية (٢١ ديسمبر ١٨٣٢)

ولقد نسق الجيش المصرى بمختلف أسلحته على نمط الجيش الفرنسى فى أداء الحركات والسير والمناورات فيما عدا النداء بالأوامر فكان يصدر باللغة التركية . وطبقت على الجيش المصرى القوانين والأوامر التى يدار بمقتضاها الجيش الفرنسى تطبيقاً دقيقاً محكما . وكانت إدارة الفيالق بسيطة خالية من التعقيد . وقد ترجم القانون العسكرى الفرنسى إلى اللغة التركية للمل بمواده.



الترقية

لم تكن هناك أقدمية عامة لضباط الجيش فى أوائل عهد محمد على . وكانت المحسوبية العامل الوحيد للترقية . إذ كان أبناء الوالى والمماليك هم الذين يمنحون الرتب العالية دون نظر إلى أهليتهم أو كفايتهم . وقد تقلد عثمان نور الدين باشا القيادة العامة ونال أعلا الرتب العسكرية دون أن يمر على جميع الرتب المعروفة .

كما كان معظم الضباط لا يتعدون رتبة اليوزباشى . فيقضون أعمارهم فى هذه الرتبة وكان صغار الضباط يقومون بأعمال لا تتفق مطلقاً مع وظائفهم العسكرية كتقديم القهوة والشبك لقومنداناتهم .ولكن بعد انتهاء الحرب السورية الأولى عزم الوالى محمد على باشا على توزيع النياشين على جميع الممتازين فى أعمال الميدان بعدالة تامة . وبذلك كان المرشح

لرتبة عليا يطالب بأن يكون قد قضى عدة سنين فى الرتبة السابقة

كان ضباط الأسلحة المختلفة من الترك والألبان والشراكسة المسلمين . وكان هؤلاء يتعجرفون على مرءوسيهم من المصريين ويعاملونهم بقسوة . ولكن فى حرب المورة وسوريا أراد إبراهيم باشا مكافأة الشاويشية المصريين بترقية أشجعهم إلى رتبة الملازم الثانى . وقد امتاز بعض هؤلاء ولكنهم كانوا يسيئون إلى الجنود باستعمالهم العنف والشدة . ولكن تدريجياً زالت هذه المعاملة .

الرتب العسكرية ومعناها ومرتبات ذويها الشهرية

الرتب	المعنى	المرتب
		ص
أومباشى	رئيس عشرة	٢٥
جاويش	—	٣٠
باشجاويش	—	٤٠
صول قول أغاسى	معاون اليسار	٦٠
ملازم ثان	المعاون الثانى للرئيس	٢٥٠
« أول	« الأول «	٣٥٠
يوزباشى	رئيس مائة	٥٠٠
صاغقول أغاسى	معاون اليمين	١٢٠٠
بمباشى	رئيس ألف	٢٥٠٠
قائمقام	الذى ينوب عن الميرالاى	٣٠٠٠
ميرآلاى	أمير الآلاى	٨٠٠٠
ميرلواء	« اللواء	١١٠٠٠
ميرميران	« لأمراء	١٢٥٠٠
سر عسكر*	الرئيس العام للجيش وقائد القواد	

أما مرتب الجندى فخمسة عشر قرشا

* لم يذكر مرتب السر عسكر لأن هذا المنصب كان يتولاه ابراهيم باشا . وكان أمراء الآلايات وأمراء الألوية يحملون لقب البكوية . أما الميرميرانات فيحملون لقب الباشوية ذات الذنبين



تعيين الجنود

ولم يكن هناك قبل عام ١٨٢٧ تعيين ثابت يصرف للجنود بانتظام . كما يتبع اليوم ولكن كانت المقادير التى توزع على الجندى فى اليوم الواحد كالآتى

١٠٥٠ جرام من الخبز

٢٦٠ « « اللحوم .

١٧٥ جرام من الزيت

٢١٠ « « الملح

١٤٠ « « العدس أو ٢١٠ من الفول أو ٧٠ من الأرز

وكان يصرف للضابط تعيين يتناسب مع رتبته . ويمنح الضابط العظيم مقدارا من البن

البعثة العسكرية البولونية [١]

بلغت قوة النظام الجديد ، أى جيوش الباشا النظامية قبل الحرب السورية الأولى فى مايو ١٨٣١ ، على حسب تقرير « فافييه de Faviers » أحد ضباط الهوسار الفرنسيين ، ٤٢٩٨٤ جنديا منهم ثلاثة وثلاثون ألفا من المشاة ، ٦٣٨٤ من الفرسان ، ٢٤٠٠ من المدفعية خرج منهم مع إبرهيم فى غزو بلاد الشام ستة ألايات من المشاة وأربعة من الفرسان عدا المدفعية ، وأبلى النظام الجديد فى هذه الحرب بلاء حسنا إذ أحرز إبرهيم انتصارات باهرة ، سرعان ماتطايرت أنباؤها إلى أوربا فكان نجاح النظام الجديد منشأ الإجراءات التى اتخذت فى باريس لإرسال البعثة العسكرية البولونية إلى مصر ، برياسة الجنرال البولونى هنرى دمبنكسى Henri Dembinski وتاريخ هذه البعثة فى الحقيقة جزء من تاريخ الجهود التى بذلها المهاجرون البولنديون بعد فشل ثورتهم الوطنية ضد روسيا ، وذلك بمحاولة تأليب الدول عليها أو الانضمام إلى جيوش أعدائها ، أو تحريك الفتن الداخلية وبخاصة فى بولونيا ، أو تأييد الدولة العثمانية فى كفاحها مادامت فى حرب مع الروس ، أو مؤازرة محمد على فى حربه ضد السلطان إذا ما ارتمى فى أحضان الروسيا أو تأليف جبهة متحدة من الباشا والسلطان لمقاومة الروس وإلحاق الهزيمة بهم فى حرب ضروس ، إذا منعت الدول محمد على من إحياء « الإمبراطورية العثمانية » وتعذر على السلطان وحده أن يرد المطامع الروسية عن القسطنطينية .

وكانت الأمة البولندية التى قسمت بلادها فى القرن الثامن عشر بين روسيا والنمسا وبروسيا واختفت من عالم الوجود دولتها الوطنية القديمة ، تتوق دائما إلى استعادة حياتها المستقلة السابقة ، عاقدة آمالها على نابليون فى إحياء بولنده وبعثها من جديد ، ولكن نابليون اكتفى بإنشاء غراندوقيه وارسو ، وبعد سقوطه

---

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى وآخران — بناء دولة — ص ١٦٨ — ١٧٦

أصبح مصير بولنده مرتبطا بالموقف الذى يتخذه ممثلو الدول فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ ، وقد قرر المؤتمر أن تستولى روسيا على بولنده ، عدا أجزاء منها ضمت إلى كل من بروسيا والنمسا . وكان القيصر إسكندر الأول فى ذلك الحين ما يزال صاحب ميول حرة ، فأنشأ من البقية الباقية منها مملكة أضحى هو ملكها ومنح البلاد دستورا ، وظهر كأنما قد انطوت صفحة هذه المسألة نهائياً ، لولا أن القيصر نفسه بدأ ينزع الحقوق التى منحها البولونيين ويقضى على حرياتهم ، ثم اشتدت محنتهم عندما تولى القيصر نيقولا الأول وأراد أن يجعل من بولانده بلادا روسية لحما ودما ، فاشتط فى غلوائه وأغرق فى رجعيته ، وقابل البولنديون هذا العمل بتأليف الجمعيات السرية حتى إذا اندلع فى باريس لهيب ثورة يوليه ١٨٣٠ التى جاطت بعرش ملك فرنسا شارل العاشر . كان لها فى نفوس البولونيين أثر عميق ، وكان اعتزام القيصر استخدام الجيش البولونى فى حرب ضد فرنسا ، السبب المباشر فى اشتغال نار ثورة وارسو فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٣٠ وتشكيل حكومة مؤقتة برياسة الجنرال « شلوبيكى » Chlopicki ولكن لم يلبث الخلاف أن دب بين زعماء الروس فى العاصمة فى سبتمبر من العام التالى ، فاضطر بعض الوطنيين إلى مغادرة بلادهم وفى باريس اجتمع عدد كبير منهم تحت زعامة أحد أمرائهم ، وهو البرنس « ادام جورج تزار توريسكى » واختاروه رئيسا لحكومة بولنده الحرة فى « المهجر » وتألفت للإشراف على نشاط المهاجرين البولونيين هيئة وطنية كان على رأسها الجنرال « دفرينكى» Dwernicki وفى الوقت الذى استقر فيه المهاجرون البولونيون بباريس ، كانت جيوش إبرهيم الظافرة قد غزت بلاد الشام ، وذاعت أنباء انتصاراته فى أوربا وظهر ضعف الدولة العثمانية ، وترددت الشائعات بين هؤلاء المهاجرين بأن باشا مصر إنما أقدم على غزو الشام بناء على تفاهم واتفاق سرى بينه وبين روسيا ، لإذلال السلطان محمود الثانى وإضعاف الدولة العثمانية ، وخشى المهاجرون وقوعها فريسة فى يد روسيا فشرع زعيمهم البرنس « تزار توريسكى » يفاوض نامق باشا السفير

العثمانى فى باريس بشأن التحاق المهاجرين العسكريين بالجيش العثمانى ضباطا ومعلمين ، ولكن السلطان ، عندما علم بانتصار إبرهيم باشا فى قونيه فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ وزحفه صوب القسطنطينية لم يجد مناصا من طلب نجدة روسيا فدخل الأسطول الروسى المياه العثمانية ووقف تجاه القسطنطينية فى فبراير ١٨٣٣ ، فكان هذا التصرف من جانب السلطان كافيا لهدم مشروع البولونيين المهاجرين من أساسه .

ورغم ذلك لم يفقدوا الأمل فى نجاة الدول العثمانية ، فتقدموا برأى له أهمية تاريخية فريت ظهر فى وثائق هذا العهد ، وتمسك به باشا مصر بعد ذلك فى أكثر مفاوضاته مع الدول ، كما تعقدت الأمور بينه وبين السلطان ، هذا الرأى هو إحياء الأمبراطورية العثمانية ذاتها على يد محمد على نفسه ، إذ أن الدبلوماسية البولونية ، فى ذلك الوقت العصيب من حياة الدولة العثمانية ، كانت تهدف إلى عقد الصلح بين محمد على ومحمود الثانى ، على أساس أن يعين السلطان باشا مصر صدرا أعظم ، فإذا تعذر تحقيق هذا الأمر ، نصح البولونيون الشعب التركى بأن يعزل السلطان ، وينادى بمحمد على خليفة للمسلمين ، فكان غرضهم من هذا كله أن يتحد « المسلمون » أو الأتراك جميعاً فى وجه روسيا وهى العدو المشترك وقد تمسك البولنديون المهاجرون بفكرة وجود محمد على فى القسطنطينية على رأس الإمبراطورية العثمانية بأجمعها ، ورغبة فى إنعاش الإمبراطورية ومنع الروس من الاستيلاء على البواغيز وبلغ من شدة هذا أن صار رجالهم يرددون هذه الفكرة فى أحاديثهم وكتاباتهم ، فذكر الجنرال « بم » أحد قادتهم فى رسالة له إلى الوزير الإنجليزى « بلمرستون » بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٣٤ ، تعليقاً على ذهاب البعثة البولونية إلى مصر ، أن رئيس البعثة سافر إلى هذه البلاد ، لاعتقاده أن باشا مصر يجب أن يسيطر على الإمبراطورية العثمانية برمتها عاجلا أو آجلا ، إذا كانت هناك رغبة حقيقية فى منع الروسيا من الاستيلاء على القسطنطينية . وعندما وجد البولونيون أن السلطان قد ألقى بنفسه فى أحضان روسيا ولوا وجوههم شطر مصر ، ورغبوا فى خدمة محمد على بدلا

من السلطان ، وصاروا يفكرون فى اتخاذ مصر ذاتها قاعدة يدبرون منها الهجوم على الروسيا ، أو على مناوأتها ، لأن مصر المستقلة تستطيع وحدها مقاومة النفوذ الروسى فى القسطنطينية ، لذلك نصح البرنس « تزار تورسكى » مواطنيه بأن يتصلوا بتلاميذ البعثة المصرية فى باريس ، الذين قدموا إلى فرنسا فى نوفبر ١٨٣٢ ومعهم الطبيب المعروف كلوت بك .

وعملا بهذه النصيحة حاول المهاجرون الاتصال بكلوت بك فى شهر فبراير سنة ١٨٣٣ وقابله أحدهم فى منزل السيدة زوجه « بيسون »

وصرح كلوت بك فى أثناء الحديث بأن الصلح الذى تسعى الدول لإبرامه بين الباشا والسلطان سوف يكون فى مصلحة محمد على لأنه سيجمع كلمة العرب بحيث لا يبعد أن يشهد العالم عودة الخلافة القديمة إلى الوجود خلال سنتين أو ثلاث سنوات فكان لهذا التصريح أثر كبير فى تشجيع المهاجرين على الذهاب إلى مصر ، ووقع اختيارهم على هنرى دمبنسكى لهذه الغاية فسارع إلى مقابلة وكيل محمد على فى باريس وهو محمد أفندى أمين ناظر البعثة المصرية بعد « عبدى أفندى » واستطاع الجنرال البولونى أن يستميل إلى جانبه محمد أمين فكتب إلى الباشا يبلغه رغبة «دمبنسكى» فى الشخوص إلى مصر ، على أن «دمبنسكى» نفسه لم يلبث أن كتب إلى محمد على فى ٩ مايو سنة ١٨٣٣ ذاكرا « أن الشدائد التى قاستها بلاده جعلته يذهب إلى فرنسا وأنه انتظر طويلا عساه يرى أوربا تنفض عن نفسها غبار الخمول وتنشط لوضع حد لمطامع الروسيا ولكن انتظاره كان على غير طائل لذلك عرض خدماته على السلطان مادام لا يرتمى على أحضان الروس غير أن الباشا وحده فيما يبدو هو الذى اختاره الله سبحانه وتعالى للاقتصاص من الحكومة الروسية وهو من أجل ذلك يعرض خدماته على الباشا عاقدا العزم على أن يذهب إليه ، وعندما استقر الرأى على أن يسافر الجنرال إلى مصر أرسل إليه البرنس « تزار توريسكى » كتاب توصية باسم محمد على كما أوصت به الحكومة الفرنسية خيرا وقد صحبه فى رحلته الدكتور «هاج» Haage كما صحبه القومندان « زميوت » بصفته ياورا له وقبيل سفره أصدر إلى مواطنيه

المهاجرين فى عشرين مايو سنة ١٨٣٣ م منشورا يشرح فيه الظروف التى دعته إلى الإلتحاق بخدمة الباشا وكان مما جاء فى هذا المنشور قوله إنه : « رغبة فى أن يهيئ لمواطنيه فرصة الكفاح فى سبيل وطنهم قد قرر رأيه على أن يشخص إلى كرجل الذى لم يكتف بأن يحرر نفسه ويحرر رعاياه من المزاعم والأوهام القديمة ، بل يبد و أنه اعتزم السير فى طريق الحق والصدق والعمل على إحياء وطنه الذى تمزق شمله » ولم يكن هذا الوطن الذى أشار إليه « دمبنسكى » غير تركيا»

وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٣٣ ، غادر « دمبنسكى » « باريس » ، ولم يكد يبلغ « مارسيليا » فى ٢ يونيو حتى علم بعقد الصلح بين الباشا والسلطان فى اتفاق «كوتاهيه» ، ولكن هذه الأخبار لم تبعث إلى قلة اليأس لأن روسيا على حد قوله سوف تحاول استغلال هذا الصلح على نحو ينجم عنه تعقد الأمور ، ومهما يكن من شىء ، فإن مجال العمل فى مصرجد فسيح ، وفى ٧ يونيو برح « دمبنسكى » وصحبه مارسيليا على ظهر السفينة : «Vincitor» فبلغ مالطة بعد ثمانية أيام ، ثم غادرها إلى مصر وهبط الإسكندرية فى ١٥ يوليو فاستضافه القنصل الفرنسى « ميمو » Mimaut ، وفى اليوم الثانى قابل « بوغوص يوسف » وكتب على الأثر إلى البرنس « تزاتوريسكى » يصف تلك المقابلة وما دار فيها من حديث ، فذكر أن بوغوص أخبره بوصول خطابه إلى الباشا ، وكذلك مؤلفه عن حملة لتوانيا التى اشترك فيها ، هذا فضلا عن « ترجمة حياته » التى كتبها أحد البولونيين ، كما أخبره أن الباشا معجب به وآية ذلك أنه أمر بترجمة مؤلفه عن الحملة إلى التركية وإذا كان الباشا يرحب بمقدمه فإن مرد هذا الترحيب إلى خطاب الجنرال نفسه ، لا إلى توصيات القنصل « ميمو » أو رسائل أمين أفندى .

وفى ٢٠ يوليه تشرف « دمبنسكى » بمقابلة « محمد على » بسرايه بالإسكندرية وحضر المقابلة « زاميوت » والدكتور « هاج » والقنصل « ميمو » ، وكان مدار الحديث روسيا وبولنده ، وقد اصطنع الباشا الشيء الكثير من التحرز والاحتراس فى كلامه ، حتى أن « دمبنسكى » عندما تحدث إليه عن افتقار الروسيا إلى

جيش قوي وعن شديد أسفه لقدومه إلى مصر بعد عقد الصلح وضياع الفرصة ، أجاب الباشا بأنه لا يستطيع الدخول فى حرب مع الروسيا ، لأنه لاغنى عن توافر المدافع والعتاد قبل التفكير فى مثل هذه الخطوة التى لا يتسنى اتخاذها إلا بأمور ثلاثة هى المال أولا والمال ثانياً والمال دائماً ، ثم أضاف الباشا إلى ذلك قوله ـ : والآن ، وقد انتهينا من الحرب ، يجب علينا أن نفكر فى السلم » وعند انتهاء المقابلة أظهر الباشا أنه يعتمد على الجنرال وصحبه فى تنظيم جيشه .

وفى ٢٥ يوليو كتب « دمبنسكى » إلى « تزاوتوريسكى » أن باغوس يوسف أبلغه أن الباشا وولده إبراهيم كان يشعران منذ مدة بضرورة استدعاء أحد الجنرالات من الخارج ليقوم بتنظيم الجيش على أساس التنسيق الكامل بين وحداته وقواته المختلفة وأن الباشا يريد أن يعهد إليه « أى دمبنسكى » بهذا العمل ويريد منه أن يذهب لمقابلة إبراهيم باشا فى سوريا حيث يوجد معظم الجيش العامل .

وفى ٢٧ يوليو أقلع الباشا على ظهر السفينة « المحلة الكبرى » فى رحلته إلى كريت غير أنه قبل مغادرة الإسكندرية كان قد أرسل فى ٢٠ يوليو إلى إبراهيم يخبره بوصول « دمبنسكى » وبعزمه على إرساله إليه « إذا رغب فى ذلك » وأجاب إبراهيم بما يفيد الموافقة وفى اليوم التالى لسفر الباشا أبلغ باغوص الجنرال البولونى أن الجناب العالى قد وافق على اقتراحه الخاص بتشكيل هيئة أركان حرب للجيش وأن عليه أن يستقدم من يريدهم من الضباط لتشكيل هذه الهيئة وكان من رأى الجنرال استخدام عشرين أو أربعة وعشرين ضابطا بولنديا لهذا الغرض وفى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٣٣ غادر « دمبنسكى » ومعه « زميوت » و « هاج » الإسكندرية فى طريقهم إلى الشام على ظهر السفينة « كولومبيا » بقيادة القبودان « مراد » فبلغوا « كسنلى » Casanli وهو ميناء صغير شرقى « مرسين » فى اليوم نفسه ومن ثم سافروا برا إلى طرسوس ثم إلى أطنه فبلغوها فى ٢٩ أغسطس ومكثوا بها إلى يوم ٢٢ سبتمبر وهناك قابل « دمبنسكى » إبراهيم باشا وبحث معه مسألة تنظيم الجيش فوافق إبراهيم على قبول الضباط

العشرين الذين يراد استخدامهم ولكنه لم يلبث أن اقترح على الجنرال استدعاء أربعمائة من الضباط البولونيين لتوزيعهم على فرق الجيش المختلفة كما أظهر له أنه ليس ثمة ما يدعو لاستقدام ضباط الهيئة أركان حرب إذ أن ضابطا أو اثنين يكفيان كل آلاى عند ذلك أبدى « دمبنسكى » خشيته من أن يثير وجود مثل هذا العدد الكبير من البولونيين المسيحيين الشعور الدينى فى الجيش المصرى فكان جواب إبراهيم أن التعصب الدينى ليس له أثر فى الجيش أو البحرية ومع هذا فقد رأى إبراهيم أن يرسل مقترحاته فى هذا الشأن إلى والده قبل البت فى الموضوع بصفة نهائية .

وإلى أن يصل جواب محمد على صحب « دمبنسكى » إبراهيم باشا فى حملة تأديبية ضد أحد الأمراء العصاة فى جبال الطوروس ، وتوطدت خلال هذه الرحلة أواصر الصداقة بين الرجلين ، ولما بلغا الإسكندرونة استأنفا السير إلى إلى أنطاكيا ، ومنها إلى نهر الفرات عن طريق كلس وعينتاب ، ثم سافر إلى حلب ولبثا فيها نحو شهر ، وأخيراً جاء رد الباشا بعدم الموافقة على الاقتراح ، وإن كان قد قبل أن يستدعى ضباط بولنديون ليكونوا معلمين ومدربين ليس غير ، على أن إبراهيم من جانبه رفض أن يمنح العدد القليل من الضباط الذى اقترحه « دمبنسكى » لتشكيل هيئة أركان حرب ، نفس المرتبات التى تمنح للضباط الترك ، أو أن تهيأ لهم فرص الترقية كزملائهم ، مما حمل الجنرال البولونى على الاعتقاد بأن السر فى تشدد إبراهيم ، أنه لا يريد تأليف هيئة يترتب على وجودها ضياع سلطته وسيطرته على ضباط الآلايات وسائر القواد ، وزاد الموقف دقة وحرجا إصرار الجنرال على ألا يقبل أحد من البولونيين فى الخدمة إلا بناء على اختياره هو وبموافقته ، وقد أدى تشبث كل من الرجلين بموقفه ووجهة نظره إلى توتر العلاقات بينهما .

ويعزو « دمبنسكى » هذا التوتر كذلك إلى سعايات بعض مواطنيه ، وبخاصة « زولك » Szulc و « بنيوسكى » لدى إبرهيم باشا ، مما جعل الأمور تتحرج ، إلى حد أن الجنرال رفض الذهاب إلى غزة ، لتدريب بعض

فرق الفرسان هناك ، طوعا لإرادة إبرهيم وقرر العودة إلى مصر ليعرض بنفسه الأمر على الباشا وكان هذا الخلاف المعول الذى هدم مشروعات البعثة العسكرية البولونية وفى مقدمتها تشكيل هيئة أركان حرب وهو أهم ما اقترحه « دمبنسكى » لإصلاح النظام الجديد » إذ قال أن الجيش كانت تسوده الفوضى لأنه لم تكن هناك هيئة أركان حرب أو ضباط كبار بل لم يكن هناك غير ألايات متفرقة ، ولم يكن ثمة وحدات أو فرق . . . . تحت إمرة قائد « جنرال » ولا أوامر يومية وهكذا انعدم كل اهتمام بالرجال الذين يحصدهم الموت حصدا فى غير رحمة أو شفقة .

وعند ما رجع « دمبنسكى » إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٣٣ ، كتب إلى محمدعلى رسالة طويلة عن مقابلته لإبراهيم باشا ، ثم أعد قائمة بعدد الأعضاء الذين تتألف منهم هيئة أركان الحرب ، وكذلك عدد الضباط والمعلمين فى قوات المشاة والفرسان وما يتكلفون جميعاً من نفقات قدرها بمبلغ ٣٠٩٫٦٠٠ فرنك ، واقترح على الباشا أن يستخدم ضابطين من الجنرالات البولونيين ، ثم قدم مشروعاً مطولا لتنظيم الجيش فى مصر والشام بتاريخ ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٣٣ وكان أهم ما احتواه المشروع إنشاء هيئة أركان حرب ، وإدخال إصلاحات فنية فى تشكيل ألايات المشاة والفرسان والمدفعية ، وكذلك تقسيم الجيش ستة لواءات يشمل كل منها أربعة آلايات من المشاة والفرسان وعدداً من البطاريات (المدفعية) وزيادة عدد الجيش النظامى إلى ١٢٠٫٠٠٠ فى وقت الحرب ، و ٨٤٫٠٠٠ فى وقت السلم ، وذلك عدا البدو والجنود غير النظاميين غير أن المشروع لم يوضع موضع التنفيذ ، بل تضافرت عدة عوامل على تعطيله وإخفاقه ولعل أهم تلك العوامل سوء التفاهم بين « دمبنسكى » وإبرهيم باشا ، واعتقاد إبراهيم أن الجنرال البولونى تعوزه الخبرة العسكرية الكافية ، لأنه لم يبلغ المراتب العليا فى قيادة الجيوش كما أنه قضى فى لتوانيا وقتا طويلا بعيدا عن الحروب العنيفة والأعمال العسكرية ذات الخطر ، أضف إلى ذلك أن أحد مواطنى « دمبنسكى » البولونيين ، وهو موزوينسكى الذى التحق فى ديسمبر ١٨٣٢ بخدمة إبراهيم

باشا فى سوريا تحت اسم « ناديربك » كان قد اقترح على إبرهيم تعيين الجنرال « شلويبكى » الذى تقدم ذكره بدلا من « دمبنسكى » وليس من شك فى أنه كان للاعتبارات السياسية كذلك أثر واضح فى إخفاق البعثة البولونية ، ذلك بأن الدول التى ألحت على محمد على فى قبول الصلح مع السلطان ، وعلى محمود الثانى ليتفق مع الباشا منعا للروسيا من بسط سيطرتها على تركيا ، كانت شديدة الحرص على ألا يعكر شىء صفو السلام الذى تم عقده فى كوتاهية ، والا يحاول الباشا إزعاج الباب العالى أو استثارة روسيا حليفته الجديدة ، ولما كان الباشا يعرف ما بين روسيا وبولنده فقد أدرك تمام الإدراك — كما صرح بذلك القنصل الفرنسى ميمو — أن وجود « دمبنسكى » فى خدمته سوف يلفت النظر إليه ، ويثير الشكوك من ناحية نواياه السلميه ، ولاسيما بعد أن بات منتظرا أن يصل إلى مصر فى بداية عام ١٨٣٤ القنصل الروسى الجديد « دوهاميل » .

وكان يهم الباشا بطبيعة الحال أن تظل علاقاته ودية مع روسيا ، ولا يريد بسبب وجود البولنديين فى مصر ، وبسبب « القضية البولندية » أن تحدث مشاكل جديدة قد تزيد الموقف حرجا وتعقيدا وزاد الطين بله أن « دمبنسكى » نفسه لم يدع أية فرصة تمر بدون أن يبدى عداءه السافر للروسيا ، وعزمه الأكيد على أن يتخذ من مصر — كما كتب القنصل الإنجليزى كامبل Cambell إلى حكومته فى ٢١ يوليو ١٨٣٣ « نقطة ارتكاز لتأليف جيش بولندى يستخدم ضد روسيا » هذا إلى أن دمبنسكى منذ هبط الإسكندرية فى يوليو ١٨٣٣ وعلم بقرب حضور « دوهاميل » لم يتردد فى الإلحاح على بوغوص حتى يحول الباشا دون حضور القنصل الروسى ، لما يترتب على ذلك من آثار بالغة فى نفوس المسلمين قاطبة ، كما قال « إن الأنظار جميعها تتجه صوب محمد على باعتباره ، رجل المستقبل الذى سوف يتم على يديه انقاذ تركيا . » لذلك كان كل ما أمكن الباشا الموافقة عليه فى هذه الظروف ، السماح باستقدام عدد محدود من البولونيين ، يستخدمون « تعلمجية » فى الجيش ، شأنهم فى ذلك شأن

سائر الضباط من الأمم الأخرى غير أن سوء الطالع لم يشأ أن يفارق البعثة ، فتطايرت الشائعات بأن فى مرسيليا نحو أربعمائه جندى على وشك الحضور إلى مصر ، وقد روجها بعض البولونيين الخارجين على « دمبنسكى » من ناحية وبعض اليونانيين الذين كانوا فى خدمة الروسيا من ناحية أخرى ثم قويت تلك الشائعات حتى تناقلتها قناصل الدول أمثال « ميمو » و « كامبل » بل أن « دمبنسكى» نفسه صار يعتقد صحتها وكان من أثر ذلك أن أصدر الباشا أوامره المشددة لمنع هؤلاء البولونيين عند حضورهم من النزول إلى الشواطئ المصرية ، كما أمر بإعداد سفن لنقلهم والعودة بهم إلى الموانئ التى أبحروا منها .

وساء «دمبنسكى » إصدار تلك الأوامر واعتبرها إهانة لمواطنيه فعقد النية على مبارحة الديار المصرية ، وعبثا حاول بوغوص إقناعه بأن عدم قبول هؤلاء الجنود . مجاملة للروسيا والحكومتين الفرنسية والإنجليزية لا يستدعى هذا الموقف من جانبه ، ولكن « دمبنسكى » أصر على رأيه ، وقد كان رأى كامبل أن صدور أوامر الباشا القاطعة فى هذه المسألة قبيل وصول « دوهاميل » كان إجراء موفقا لأن « دوهاميل » على ما اتصل به كان يحمل تعليمات من حكومته بالضغط على محمد على ليطرد « دمبنسكى» وجميع البولونيين من خدمته ، وكان من المحتمل أن يرفض الباشا تحقيق رغبات الروس ، محافظة على مركزه فى الدولة العثمانية ، على أن الجنرال البولونى رغم إصراره على ترك الخدمة ، سارع فى ٢ مارس ١٨٣٤ إلى تسطير خطاب إلى الباشا قال فيه : « إن جيش جنابك العالى فى حاجة إلى رجل ماهر يستطيع تنفيذ المشروع الذى وضعته لتنظيمه ، ومن الواجب أن يتم ذلك بأقصى سرعة ممكنة ، فقد عملتم الشىء الكثير حتى جمعتم الجنود ، ولكنكم لم تفعلوا سوى الشىء اليسير فى سبيل تشكيل الجيش وتنظيمه والمحافظة عليه ، وضمان وحدته والتأكد من الوسائل التى يستطاع بها تغذيته بالرجال ، دون أن يحيق بالبلاد الأذى والخراب كما أن جنابكم العالى لم تعملوا غير القليل لإعداد القواد الذين يتركون زمامه . وظاهر أن دمبنسكى كان يشير فى خطابه إلى أن الجيش المصرى كان مفتقرا إلى هيئة أركان حرب منظمة

قبل كل شيء ، على أن « دمبنسكى » لم يطل به المقام فى مصر فقد بارح الإسكندرية إلى مرسيليا فى ١٧ أبريل ١٨٣٤ ، وانطوت بذلك صفحة البعثة البولونية(١) .

على أنه مهما اختلفت الآراء فى شأن ما احتواه خطاب « دمبنسكى » إلى الباشا فلا جدال فى أن الجيش المصرى كان فى حالة تأخر ظاهر منذ انتهت الحرب الشامية الأولى ، حتى أن سليمان الفرنساوى نفسه كان يعتقد أن استمرار الحال على هذا المنوال لابد أن يؤدى إلى انهيار الجيش فى ثلاث سنوات أو أربع وكانت أبرز نواحى الضعف فى جيش مصر حاجته الملحة إلى الضباط الأكفاء الممتازين ، هذا إلى أن قوة الجيش العامل لم تكن متناسبة مع عدد سكان البلاد حتى أن الأخصائيين العسكريين كانوا يعتقدون أنه مهما اشتدت أساليب المشرفين على التجنيد ، فلن يتيسر على الدوام ملء الفراغ الذى يحدث فى صفوف الجيش ذلك الفراغ الذى كان « دمبنسكى » يعزوه إلى انعدام التنسيق بين الفرق والآلايات المختلفة لافتقار الجيش إلى هيئة أركان حرب منظمة ، وهو أمر يتحمل الجيش من جرائه خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد ، وليس أدل على حاجة الجيش إلى الإصلاح فى ذلك الحين ، من رسالة « دوهاميل » بتاريخ ٩ مايو ١٨٣٤ حيث قال « إن الجميع فى القاهرة معنيون بالتنظيم الجديد للجيش ، ذلك التنظيم الذى أظهر « دمبنسكى » أن الحالة تستدعى إجراءه على الفور » .

(١) Benis, Adam Georges; Une mission militaire polonaise en Égypte
مطبوعات الجمعية الجغرافية الملكية .



ضباط إحدى الكتائب المشاة يحلفون اليمين

الفصل الثامن

التعليم العسكرى

إذا أراد رب دولة أن يكون لها جيشاً منظماً على الأساليب الحديثة فلا بد له من مدارس لتعليم الفنون العسكرية يتخرج فيها الضباط الذين يقومون بتعليم الجنود فى الأسلحة المختلفة . ومن مشافى تعنى بمرضى الجند . ولا بد أن تكون له إدارة مؤلفة من الرجال الفنيين يشرفون على العمل .

اقتنع محمد على بهذه الحقيقة فأحضر من مختلف بلدان أوربا أساتذة وأطباء وصيادلة ومدربين . وسرعان ما أصدر أوامره لتشييد المدارس العسكرية المتنوعة والمشافى الفسيحة وسنرى كيف أثمرت هذه المنشئات الجليلة فى أعوام قلائل . وأخرجت للجيش المصرى مجموعة من القواد العسكريين الذين ظهرت أعمالهم جلية فى ميادين القتال سواء فى عصر محمد على أم فى عصر خلفائه .

وكانت الهيئة العسكرية التى تهيمن على تعليم الجيش وتشرف على تدريبه الفنى تسمى ديوان (قوميسيون) المدارس العسكرية والخدمة .

وقد تألفت هذه الهيئة من ناظر الجهادية رئيساً للديوان وعثمان نور الدين بك وقواد الآلايات فى مصر وقائمقام من هيئة أركان الحرب والكولونيل جودا (Gaudin) مدير تعليم المشاة . واللفتننت كولونيل (M.Wogt) وزميله ديفلورت وكان يقوم بأعمال سكرتارية الديوان القومندان بلانا « J. Planat » وبعض المدربين الأجانب فى الأورط .

وكانت أهم أعمال هذا الديوان البحث فى شئون تعليم الجيش ووضع القوانين والتعليمات وتعديلها من حين لآخر . وقد أسندت رئاسة هذا الديوان لأمير اللواء مصطفى مختار بك فى ٩ مارس سنة ١٨٣٧ .

مدرسة القلعة

بعد مذبحة المماليك فى سنة ١٨١١ جمع محمد على غلمانهم وصغارهم فى القلعة بمدرسة على غرار المدارس التى كان أمراء المماليك يقيمونها فى قصورهم . وأحضر لهم المعلمين يعلمونهم القراءة والكتابة واللغة التركية والفنون الحربية ثم زيد عليها الرسم والرياضيات واللغة الإيطالية ثم أرسل فيما بعد كبار تلاميذ هذه المدرسة وبعض غلمانه وغلمان كبار موظفيه إلى أسوان حيث أنشئت لهم مدرسة حربية يتعلمون فيها على أيدى المدربين الأوربيين وعلى رأسهم الكابتن « سيف » الذى تسمى بعد باسم « سليمان الفرنساوى » .

مدرسة المشاة بأسوان

فى اليوم الثامن من أغسطس ١٨٢١ صدر أمر محمد على بإنشاء المدرسة الحربية بأسوان وتنظيمها والاهتمام بأمرها وتدريس العلوم بها . وفى اليوم السابع والعشرين وافق على ترتيب دروس المدرسة الحربية .

وفى ٢٥ يناير ١٨٢٢ صدر أمر بتعيين محمد بك « لاظأوغلى » ناظراً على مدرسة أسوان المذكورة ولتنظيمها ولإدارة شئونها . وفى الأمر المذكور نصح تلامذة المدرسة بصفته والدهم على الانقياد للناظر . وبالاجتهاد فى تحصيل العلوم والفنون لأجل ترقيتهم .

وفى ١٦ فبراير ١٨٢٢ صدر أمر من محمد على باشا لهذا الناظر بالاتحاد مع سليمان أغا « الفرنساوى » لعمل ترتيب للمدرسة حسب التعليمات التى أعطيت للمذكور وانتخاب من يلزم من المدرسين وترقية المجتهدين من التلامذة إلى جاويش أغاسيه أو « بلوك باشية » لتشويق الباقين منهم على التقدم أسوة بغيرهم .

ولكن أسوان لم تكن ملائمة للدراسة العسكرية — ولذلك نقلت المدرسة الحربية إلى « اسنا » — فانتقل سليمان أغا ومعه أحمد أفندى وهو من الرجال

الفنيين . وكان يسافر إليهم بين كل حين وآخر إبراهيم باشا ليقف بنفسه على نجاح تدريب النواة الأولى للجيش المصرى .

واستمرت مدرسة اسنا الحربية قائمة على تخريج الضباط لفرق الجيش الجديدة . إلى أن نقلت إلى أخميم ثم النخيلة « بقرب أسيوط » . وأخيراً استقر معسكر التدريب أو المدرسة الحربية بالخانقاه . وقد سميت فيما بعد بمدرسة الجهادية [١] .

مدرسة أركان الحرب

أنشئت مدرسة أركان الحرب بقرية « جهاد أباد » بقرب الخانقاه بمشورة « عثمان نور الدين أفندى » . وقام على تأسيسها الكابتن الفرنسى « بلانا »[٢] وبدأت الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر ١٨٢٥.

وأقيم للمدرسة بناء جميل وبنيت بالقرب منها منازل على النسق الحديث وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطاً وكان « بلانا » يقوم بقسط كبير من التعليم ويعاونه بعض المدرسين الأوربيين والشرقيين .

وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات . وكان فى نية منشئها زيادة مدة الدراسة سنة رابعة يدرس فيها التلاميذ الطبيعة والكيمياء والحساب والجغرافيا والتاريخ .

وكان الضباط الذين يتخرجون فى هذه المدرسة يعينون « أركان حرب » فى الوحدات الفنية فى الجيش أو فى المدفعية أو فى المناجم أو فى الإدارة الحربية أو المدنية أيضاً .

(١) ذكر مسيو جومار فى كتابه Le Reforme en Egypte أن قائد هذه المدرسة كان ضابطاً سردينياً اسمه « بلاسو » وكانت تسع خمسمائة طالب — ولم يقدر لهذه المدرسة البقاء سوى بضع سنوات

(٢) خدم چول بلانا مصر من عام ١٨٢٤ الى ١٨٢٨ ومات فى فرنسا العام التالى وقد مر الكلام عنه

مدرسة المشاة بالخانقاه

أنشئت عام ١٨٣٢ وانتقلت إلى دمياط عام ١٨٣٤ وكان من نظارها محمد أفندى صاغقول أغاسى وخليل أغا وقد أعدت هذه المدرسة على نظام حديث لتعليم أربعمائة شاب مصرى قسموا إلى ثلاثة بلوكات وكانت العلوم التى تعلم فيها هى التمرينات والإدارة الحربية واللغات العربية والتركية والفارسية وكان ملحقاً بها ضابط جراح للعناية بطلبتها .

ونقلت المدرسة من دمياط إلى أبى زعبل عام ١٨٤١ بعد أن مكثت بها نحو سبع سنوات وظلت بها إلى نهاية عصر محمد على .

وكان من نظارها القائمقام خليل أغا ويوسف أغا واستمرت هذه المدرسة حتى يناير ١٨٤٩ وأنشئ بجرجا بجهة أبار مكتب للبيادة عام ١٨٣٢ وكان من نظاره اليوزباشية عمر أغا ومحمد أغا ثم الصاغين محمود أفندى وخليل أغا وقد ألغى عام ١٨٣٤ .

خطة الدراسة[١]

نصت لوائح التعليم فى عام ١٨٣٦ على أن تكون مدة الدراسة بمدرسة « البيادة » بدمياط ثلاث سنوات . ويدرس تلاميذها المواد الآتية :

١ ــ مبادئ التحصين الأولية ــ مهاجمة الحصون والدفاع عنها .

٢ ــ الطبوغرافيا ورسم الخطط .

٣ ــ نظريات وحركات البيادة على استخدام السلاح .

٤ ــ واجبات الخدمة الداخلية والبوليس ونظام الحاميات والأورط والبلوكات .

وكان موظفوها الفنيون هم مديرها يوسف أغا بعد أن كان الضابط البيندومنتى « Bolognino » من ضباط جيش نابليون . ووكيله وأستاذ للطبوغرافيا والخطط .

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على للأستاذ أحمد عزت عبد الكريم ص ٢٣٩ ــ ٢٩٨

وآخر للتحصين والهجوم والدفاع وأربعة ضباط من المشاة وأربعة ملازمين . ومدرب للسلاح وآخر للرياضة البدنية . وكان يرأس لجنة امتحان تلاميذها قائد من الجيش . ووضع نظامها الداخلى على مثال المدارس الأخرى (١) .

وبالرغم مما جاء فى هذا البرنامج المقرر كان يقرأ التلاميذ فى عام ١٨٣٧ كتباً فى الصرف والنحو واللغتين الفارسية والتركية ويدرسون الحساب ويتعلمون فى كتب عسكرية تدريب النفر والبلوك والأورطة والآلاى ويمضون شطراً طويلا من وقتهم فى التمرينات العسكرية .

وفى سنة ١٨٣٩ — والمدرسة لما تزل بدمياط — كان تلاميذها يقضون وقتهم طبقاً للجدول الآتى الذى وضعه مجلس إدارة المدرسة (٢) .

الوقت: من ق	من ت	إلى ق	إلى ت	الوقت
—	١٢	—	—	نوبة صحيان
—	١	٣٠	٢	درس فى اللغة العربية
٣٠	٢	٣٠	٣	درس فى اللغة الفارسية
٣٠	٣	٠٠	٥	خط
—	٥	—	٦	حساب
—	٦	—	٨	طعام وتغيير الحرس وتمام الظهر وراحة
—	٨	٣٠	٩	تعليم الآلاى
٣٠	٩	—	١١	ميدان التعليم
—	١١	—	١٢	طعام المغرب ونوبة المساء
٣٠	١٢			تمام المساء
٣٠	١٢	—	١	داخلية
٣٠	١	—	٣	تعليم البلوك
٣٠	٣	—	—	نوبة النوم

(١) Bowring — ص ١٢٣

(٢) دفتر ٢٠٥٩ (مدرس تركى) ص ٦٤ فى غرة ذى الحجة ١٠٥٥

وقد ظل هذا الجدول متبعاً سنين طويلة حتى وضع غيره . وكانت المدرسة قد نقلت إلى أبى زعبل . إذ لاحظ ديوان المدارس أن الأوقات المخصصة لدروس الهندسة والحساب واللغة التركية والفارسية والرسم والخط قليلة . والأوقات المخصصة لباقى الدروس كثيرة . فعدلها طبقاً للبيان الآتى (مع تعديل طفيف فى المواعيد) [1]

الوقت		العمل
من الساعة	إلى الساعة	
١١		نوبة الفجر
١١	١٢	الوضوء والصلاة
١٢	١	هندسة وحساب للفرق الأولى من البلوكات ولغة تركية وفارسية للفرق الثانية
١	٣	بالعكس (كذا فى الأصل) ولعله يقصد (هندسة وحساب للفرق الثانية وتركية وفارسية للفرق الأولى)
٣	٥	رسم وخط
٥	٦	طعام وتمام وتغيير الحرس واستراحة
٦	٧	محاضرة للضباط فى القيادة عند القائمقام بينما يكون التلاميذ فى غرف المذاكرة
٧	٨	درس الضباط للتلاميذ (القيادة)
٨	٩	دروس اللغة الفرنسية للضباط ومذاكرة للتلاميذ
٩	١١	تعليم الميدان
١١	١٢	طعام وتمام واستراحة
١٢	٢	داخلية
٢		نوبة النوم

وهنا لا نلاحظ اللغة العربية فى منهج المدرسة . الا أنه من المحتمل أن تكون مندمجة فى دروس اللغتين التركية والفارسية .

(١) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) ص ٣٢ رقم ١٢٩٨ من الديوان الى مدرسة المشاة فى ١٤ ربيع أول ١٢٦٢

وقد رفع تلامذة المدرسة مراراً أصواتهم بالشكوى من هذا المنهاج المرهق فى نظرهم . ولم تثمر شيئاً على ما يظن .

عدد التلاميذ[١]

نص القانون على اعتبار تلاميذ مدرسة « المشاة » أورطة فى الجيش . وكانوا فى سنة ١٨٣٧ خمسة وستين وثلاثمائة : منهم الأنفار وضباط الصف . ثم أربى العدد بعد ثلاث سنين على الأربعمائة . حتى إذا كانت سنة ١٨٤١ وأعيد النظر فى تنظيم المدارس رأت الحكومة أن الحاجة إلى مدرسة « المشاة » ما تزال ماسة حتى بعد انقاص الجيش . لإلغاء معسكر النخيلة الذى كان يمد الجيش بالضباط . ولم يبق ثمة مدرسة تخرج ضباطاً للمشاة سوى مدرسة البيادة . لهذا أبقيت المدرسة على حالتها الأولى مؤلفة من أربعة بلوكات . فى كل بلوك مائة وعشرة من التلاميذ ما عدا ضباط الصف . وقد أصبحت من امتلاء البلوكات بحيث تزيد بلوكاتها الأربعة مائة وعشرين تلميذاً عن عددها الأصلى وبذلك كانت مدرسة المشاة المدرسة الوحيدة بمصر التى زاد عدد تلامذتها بعد سنة ١٨٥١ عما كانت عليه من قبل . وقد ظلت المدرسة إلى أواخر عصر محمد على زاخرة بعدد كبير من التلاميذ يزيد على عدد تلاميذ أى مدرسة أخرى بمصر (٣٣٠ تلميذاً) .

وفى بداية حكم عباس الأول نقلت مدرسة البيادة من أبى زعبل إلى الجيزة[٢] ثم ألغيت وسرح تلاميذها[٣]

مدرسة الفرسان بالجيزة

أنشئت مدرسة الفرسان فى أبريل ١٨٣١ فى القصر الذى كان لزعيم المماليك « مراد بك » وفيه قضى بونابرت الليلة الثالثة لمعركة الأهرام .

(١) تاريخ التعليم في عصر محمد علي — الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — ص ٣٩٨
(٢) دفتر ٢١٣٣ (مدارس تركى) ص ٣٧ فى ١٩ ذى الحجة ١٢٦٥
(٣) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٦٧ فى ٢١ المحرم ١٢٦٦

وكان لهذا القصر ذكريات قديمة إلى أن تحول أخيراً إلى حديقة للحيوانات بعد إلغاء المدرسة فى أوائل عصر عباس الأول ، ففى أيام محمد على تحول القصر إلى ثكنة جميلة للفرسان ومدرسة لتعليم الفروسية نظمها « مسيو فاران » (Varin) الذى كان من ضباط أركان حرب الماريشال « جوفيون سان سير » وفى هذه المدرسة كان يتعلم مائتا طالب مصرى وتركى حديثى السن يرتدون ملابس مشابهة لملابس الفرسان الفرنسيين فيما عدا القلنسوة —وكانت الصديرية خضراء اللون ذات قيطانات صفراء . أما البنطلون فكان قرمزى اللون . وللطلبة أساتذة لتعليم اللغات التركية والعربية والفرنسية وضباط لتعليم الفنون العسكرية والموسيقى وفنون الفروسية . وكان نظام المدرسة منقولا عن نظام مدرسة « سومور » مع تغيير طفيف . وكان ضباط المدرسة يشاركون الطلبة فى تعلم الفرنسية [١] .

وقد نصت لوائح سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ على أن يلحق بالمدرسة[٢] :

١ — ضباط يعدون ليكونوا معلمين بالجيش .

٢ — تلاميذ من المدرسة التجهيزية .

٣ — جنود من الشبان ليكونوا « بروجية » و « ترومبتجية » .

أما الضباط فكانوا ينتخبون من فرق الجيش ويرسلون للمدرسة على ألا يقل عمر كل منهم عن ثلاثين سنة وممن يشهد لهم بحسن السير والسلوك .

وكانت تختبر مهارتهم فى الثلاثة الأشهر الأولى من بدء التحاقهم بالمدرسة . حتى إذا قبلوا فيها نهائياً ظلوا بها عامين أو ثلاثة أعوام يدرسون العلوم التى تعدهم ليصبحوا معلمين فى وحدات الجيش .

أما التلاميذ وكانوا الأغلبية فكانوا يؤخذون من المدرسة التجهيزية وغيرها من المدارس التى تستمد منها المدارس الحربية والخصوصية تلاميذها فيمكثون بمدرسة السوارى ثلاث أو أربع سنوات يعينون بعدها ضباطاً فى وحدات الفرسان بالجيش .

أما الجنود فكانوا من أولاد الجند العاملين ويلحقون بالمدرسة ويقرءون بها

(١) كلوت بك — لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ٣٢٥ و Mengin ص ١٢٧ ـ الجزء الثالث

(٢) راجع ما كتب عن هذه المدرسة بكتاب تاريخ التعليم فى عصر محمد على للاستاذ أحمد عزت عبد الكريم ص ٣٩٩ —٤٠٧ وعن هذا الكتاب نقلنا معظم ما كتبناه عن مدرسة السوارى

القرآن الكريم ويتعلمون القراءة والخط .

أما النافخون فى الأبواق « البروجية » فكان مقرراً للمدرسة منهم أربعة وأربعون . وكانوا ينتخبون من بين تلاميذ المدارس الأخرى الحاصلين فى الامتحانات على درجة « دون الدون » حتى إذا حلت أيام الامتحان امتحن جميع من بمدرسة السوارى من التلاميذ والجند و « البروجية » كل فيما درسه [١] .

كان تلاميذ المدرسة فى عهدها الأول من الترك أو المماليك وكانوا نحو المائتين أما المصريون فكانوا يقصرون على تعلم العزف فى البورى .

ثم أخذ العنصر المصري ينمو بها ويزداد . حتى إذا مضت سنوات قليلة أصبح جل تلاميذ المدرسة — كغيرها من المدارس — من المصريين وزال منها العنصر الأجنبى أو كاد .

وأخذت المدرسة تنمو حتى أصبح تلاميذها وجنودها يؤلفون أربع أورط اثنتان منها للتلاميذ ومثلهما للجنود . فلما كانت سنة ١٨٤١ رؤى أن تظل المدرسة مؤلفة من أربع أورط . على أن تكون الأورطة الأولى وحدها من التلاميذ — ويمكنها أن تخرج أربعين ضابطاً أو خمسين فى كل عام — والثلاث الباقية من الجنود — وبذلك اقتصر التخفيض على عدد التلاميذ دون الجنود . ومع ذلك ظل عدد العاملين فى المدرسة من ضباط وتلاميذ وجنود ، مساوياً لعدد آلاى من الفرسان [٢] .

وعلى الرغم من هذا التخفيض الذى أصاب تلاميذ المدرسة فقد كان بها من التلاميذ والجند والبروجية — بعد عام من التخفيض — نحو ٧٥٠ تلميذاً وجندياً [٣] . وهو فيما نعلم أكبر عدد بلغته مدرسة فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٨٣٦ كان مجموع من بها ٦٣٩ : منهم ثلاثون ضابطاً و ٣٢٨ تلميذاً و ٢٨١ جندياً وبروجياً وترومبتجياً [٤] وعادت المدرسة فرأت أن تجعل أورطتين

---

(١) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٤٧ رقم ١٣١١

(٢) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥

(٣) دفتر ٢٠٨١ (مدارس تركى) س ٤٧ رقم ١٣١١

(٤) دفتر ٢١١١ (مدارس تركى) س ١٠٣ رقم ٢٠٠٦

منها للتلاميذ ومثلهما للجنود . ولكن ناظر المدرسة ما لبث أن رأى أن هذه الزيادة أكبر مما تستلزمه حاجة الجيش . فطلب إلى الحكومة أن يقتصر على أورطة من التلاميذ [١] .

وبعد عام تقريباً وكان ذلك فى بدء حكم عباس باشا الأول قدر لهذه المدرسة أن توصد أبوابها [٢] .

وكان بين مدرسى المدرسة المسيو « لامبير » المهندس بديوان شورى المدارس وأصبح فيما بعد مديراً للمهندسخانة يدرس الرسم لتلاميذ فرقة الرسم بالمدرسة فيخرج بالمتقدمين منهم إلى الصحراء ويعلمهم رسم تخطيط المدن مرتين فى كل أسبوع .

نظام المدرسة :

وقد وضع لتوزيع الأعمال بمدرسة السوارى نظام دقيق على النحو الآتى[٣]

الوقت		العمل
ق	ت	
—	١٠	نوبة الفجر (صحيان)
١٥	١٠	نوبة عليق الخيل
٣٠	١٠	تمام الصباح
٤٥	١٠	نوبة وضع السروج (للتدريب ساعتين ونصف فى الصباح الباكر)
١٥	١	تطمير الخيل بعد العودة من التمرين
٤٥	١	طعام الصباح
١٥	١٢	الاجتماع اليومى
٣٠	٢	تبديل الحرس
٤٥	٤	عليق الخيل ورفع السرج عنها

(١) دفتر ٢١٢٧ (مدارس تركى) ص ٣٨٧ رقم ٢٣٥
(٢) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٥٦ فى ١٤ المحرم ١٦٦
(٣) دفتر ٢٠٢٢ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس فى ١٨ ذى الحجة ١٢٥٢

الوقت		العمل
ق	ت	
٣٠	٦	تفتيش الغرف
٣٠	٨	التمام والسقية
١٥	٩	طعام العشاء
	١٢	عليق الخيل
	١٢	اجتماع البروجية
٣٠	١٢	تمام المساء
—	٢	طفى الأنوار (النوم)

وفيما يلى نذكر منهج الدراسة بمدرسة السوارى فى عام ١٨٤٥ (١٢٦١ هـ) (١)

دروس تعليم تشكيلات الميدان

الفرقة الأولى : القسم الثامن عشر من تعليم الآلاى والقسم الخاص بوظائف اليوزباشى والملازمين الثناة والأول فى القانون الداخلى .

الفرقة الثانية : القسم الرابع من تعليم الآلاى والقسم الخاص بأعمال الباشجاويش الصول من القانون الداخلى .

الفرقة الثالثة : أربعة دروس فى ركوب الخيل ومثلها فى تعليم البلوك والقسم الخاص بوظائف الجاويش وأمين البلوك من القانون الداخلى .

الفرقة الرابعة : قواعد التدريب وأربعة دروس فى تعليم المشاة والقسم الخاص بأعمال الأمباشى فى القانون الداخلى .

دروس الهندسة والحساب

الفرقة الأولى : مؤلفة من قسمين — تلاميذ القسم الأول يتعلمون الفصلين الثالث والرابع من أصول الهندسة .

وتلاميذ القسم الثانى التعريفات والفصلين الأول والثانى من أصول الهندسة .

الفرقة الثانية : مؤلفة من قسمين : ويتعلم تلاميذ القسم الأول الجزء الثامن

(١) دفتر ٢٠٩٨ « مدارس تركى » ص ١٤٩ رقم ٦٣

من علم الحساب وتلاميذ القسم الثانى الجزء الأول من العلم ذاته .

الرسم

الفرقة الأول : رسم الخرائط الخاصة بوصف الأشياء
الفرقة الثانية : رسم الخرائط التى فى مدارس الهندسة الأوروبية .
الفرقة الثالثة : رسم الخطوط فقط

الفروسية

إعادة تعليم التلاميذ الذين كانوا من درجة « دون » فى الامتحان أما التلاميذ الآخرون المنتخبون فلا يمكن تعليمهم بسبب قلة الخيل .

اللغة العربية

الفرقة الأولى : كتاب فى النحو والتحفة (كتاب بالتركية)
الفرقة الثانية : يدرس تلاميذها (الاظهار فقط)
الفرقة الثالثة : الفصل الأول يدرس طلبته البناء (كتاب فى النحو) والفصل الثامن (من كتاب الدرة الفريدة)

ويتعلم جميع التلاميذ خط الرقعة وبعض الجنود خط الثلث .

وقد زار الماريشال مارمون هذه المدرسة سنة ١٨٣٤ وكان بها إذ ذاك ٣٦٠ طالباً فأعجب بها وكتب عنها فى رحلته ما يلى[١] :

« عند ما شاهدت هؤلاء الطلبة فى الميدان يقومون بالمناورات خيل إلى أنى أمام طابور من أرقى آلايات الخيالة عندنا . ولئن كان ينقص المدرسة لتصل إلى درجة الكمال بعض دروس فى اللغة الفرنسية والرسم وغير ذلك . لكن مما لا نزاع فيه أنها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شىء . فالطلبة يجيدون ركوب الخيل . والمناورات التى يقومون بها تجرى بخفة ودقة وإحكام . ونظامهم وهندامهم

(١) كتاب رحلة الماريشال مارمون ج ٣ ص ٢٨٨ ونقل الوصف الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى فى كتابه تاريخ الحركة القومية ج ٣ ص ٣٦٩

على أحسن ما يكون . والروح المعنوية فيهم على ما يرام . فهم جنود بكل معانى الكلمة وحملة الأبواق يؤدون عملهم باتقان » .

وفى أثناء زيارة الأمير بوكلر موسكو الألمانى لمصر عام ١٨٤٢ دعاه محمد على لمشاهدة مناورات المدرسة وقد وصفها فى كتابه[١] بما لا يخرج عن وصف الماريشال مارمون . وقد قص محاورة لطيفة دارت بين محمد على ودلسبس عن الأطناب فى فروسيه الأول ومهارتهم فى الركوب .

وقد امتدح الأمير الألمانى تفوق الطلبة فى عدو الحلقة والإصابة بالطبنجة والمبارزة والقفز على الموانع . . . إلخ وأطنب فى كفاءة مدربهم الألمانى الهر (م . بير) « M. Bier » والجهود التى بذلها ناظر المدرسة الأول الكولونيل « فاران » أو كما عرف فيما بعد « فاران بك » .

ولا يعلم كيف ومتى انتهت خدمات « فاران بك » فى مصر . ولكن الذى نعرفه أن الذى خلفه على إدارة المدرسة ضابط فرنسى يدعى « واسيل بك » . وقد ظل مديراً للمدرسة ١٢ عاماً حتى قرب عصر محمد على من النهاية[٢] .

بعض الوثائق المتعلقة بمدرسة السوارى

١ ــ الوثيقة الصادرة من ديوان الجهادية إلى مأمور ديوان الخديوى بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٢٤٧ ــ ١٩ يناير سنة ١٨٣٢ رقم ١٠٠ ص ٤٦ ومقيدة بالدفتر رقم ٧٧٦ معية تركى

سيدى وأخى الرفيع الشأن حضرة صاحب العطوفة مأمور الديوان الخديوى . فالمأمول من همتكم تنفيذ هذا القرار الصادر من ديوان الجهادية .

(١) كتابه عن الرحلة ص ٢٠٢ (الطبعة الانجليزية)

(٢) أصابه حادث ذهب ضحيته ــ الوقائع المصرية ــ العدد ١٢٠ فى ٢٤ رجب ١٢٦٤

وهاك القرار

جاء فى تقرير كانى بك ميرالاى الرجال أنه امتثالا للقرار الوارد إليه من شورى الجهادية ذهب إلى قصر العينى ليأخذ ١٠ أفندية استكمالا للنقص الموجود فى مدرسة السوارى وانتخب الأفندية الآتية أسماؤهم . حسن الموره لى ، وحسن الايح اللى ، الحاج حسن أباظة ، شكرى الجركسى ، عثمان الجورملى . حسن الطرنوه لى . محمد أمين المصرى ، حسن المناسترلى ، حسين القبرصلى ، محمد الموره لى . فأراد أخذهم لكن ناظرهم أيوب أفندى أفاد بأنه إنما يسمح له بأخذ الأفندية الثلاثة فقط وهم حسن المناسترلى . وحسن القبرصلى ، ومحمد الموره لى وأما السبعة الباقية فإنهم قدموا إلى الأعتاب السنية فكتب أسماؤهم وصدرت الإرادة السنية بإرسالهم إلى الإسكندرية بعد العيد وعليه يؤخذ من مدرسة الجهادية ثلاثة أفندية وأما السبعة الباقية فلهم عذرهم السابق البيان ولذلك استفهم كانى بك فى تقريره أخذ هذه السبعة من مدرسة الملكية إن كانوا فيها وتوفوت فيهم الشروط أو من محل آخر مناسب . ولما ذاكر شورى الجهادية هذا التقرير قررت أن يكتب حضرة البك ناظر الجهادية إلى أيوب أفندى ناظر القصر العينى بأن يسلم الأفندية الثلاثة وأما السبعة الباقية فإن كان يقترح كانى بك انتخابهم من الدرسخانة إلا أن طلبة الدرسخانة لا توافق أصول مهاياهم شروط مدرسة الجيزة ولكن أحياناً يقدم بعض الشبان عرائض إلى الديوان الخديوى بالتماس قبولهم فى المدارس فيكتب البك ناظر الجهادية إلى حضرة الأفندى مأمور الديوان الخديوى ليرسل من مقدمى العرائض من تتوفر فيهم شروط الالتحاق بمدرسة الجيزة من حيث السن وغيره ويكتب أيضاً إلى كانى بك بأن يقبل من المرسلين إلى مدرسة الجيزة من تتوفر فيه شروط المدرسة ويعرض على الديوان الخديوى أو من لا توجد فيهم شروطاً .

مجلس فى ١٢ شعبان سنة ١٢٤٧ — ١٦ يناير سنة ١٨٣٢

٢ – الوثيقة الصادرة من المعية السنية إلى محمود بك ، بتاريخ ٢٨ شعبان سنة ١٢٤٨ – ٢٠ يناير سنة ١٨٣٣ رقم ١١٩ ص ٢٤ ومقيدة بالدفتر رقم ١٨ معية تركى .

لقد حضر إلى هنا عبدكم واسل أغا معلم مدرسة الجيزة فى أكثر من ٨٠ خيال من تلامذته حيث أعجب الجناب العالى بتدريبهم وتعليمهم . وقد التمس المعلم ألموما إليه ترقية بعض الضباط حسب الحاجة فأحيل الموضوع إلى حضرة صاحب الدولة عثمان باشا فاستصوب ترقية ١٠ منهم وقد قدمت عرائض ترقيتهم من قبل المعلم إلى أعتاب ولى النعم فازدانت هذه العرائض بخاتم الجناب العالى وأرسلت إلى دولتكم لقيدها فى ديوان الجهادية حسب الأصول فعند ما تطلعون على ذلك إنشاء الله تعالى قيدوها عملا بأصول الجهادية وفقاً لإرادة الجناب العالى .

٣ – الوثيقة الصادرة من الجناب العالى إلى مديرى قبلى وبحرى والوسطانية بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٤٩ – ٢٦ يونية سنة ١٨٣٣ رقم ١٠٨ ص ٢٤ ومقيدة بالدفتر رقم ٥٨ معية تركى .

نطلب منكم أن تجمعوا ١٢ طالباً من مكاتب البنادر التابعة لإدارتكم بموجب المذكرة المرسلة لكم مطوية على أمرنا هذا على أن يكونوا من الطلبة الملمين بالقراءة والكتابة حسنى المنظر من جهة القامة ومن جهة الشكل وبشرط أن تكون أعمارهم تتراوح بين ١٣ و ٢٠ وأن يكونوا أقوياء أشداء . ثم تسلموهم إلى المندوب المرسل لكم وترسلوهم إلى حبيب أفندى مأمور ديواننا وعليكم أن تهتموا جد الاهتمام بأن يكونوا حسنى المنظر أصحاء الجسم أقوياء لأنهم سيستخدمون كضباط .

وكتبت صورته	إلى	حسين أغا	وطلب منه	١٨	تلميذ
«	«	مدير البحيرة	« «	١٥	«
«	«	مدير المنوفية	« «	٥	«
«	«	محرم أغا	« «	٩	«

وكتبت صورة إلى مدير الوسطانية وطلب منه ٩ تلاميذ
« « « مدير المنصورة « « ١١ «
« « « مدير الشرقية « « ٥ «

٤ – الوثيقة الصادرة من الجناب العالى إلى حبيب أفندى بتاريخ ٧ صفر سنة ١٢٤٩ – ٢٦ يونية سنة ١٨٣٣ رقم ٥٣٨ ص ٩٤ ومقيدة بالدفتر رقم ٥٠ معية تركى .

«إنه حسب ترتيبكم قد كتب إلى المديريات بشأن جمع ٨٠ فتى من فتيان مدارس البنادر الذين يعرفون القراءة والكتابة على أن تتراوح أعمارهم بين ١٣ – ٢٠ سنة ويكونوا أقوياء أصحاء متناسبي الأعضاء . وأن يوافوكم بهم توطئة لترتيبهم وتعليمهم بمدرسة الجيزة (الفرسان) وبما أنه تقرر جمع ٣٠ فتى من المحروسة فاعملوا على جمعهم وإرسلوهم إلى المدرسة المذكورة .

مدرسة المدفعية بطرة

أسس هذا المعهد الكولونيل الأسبانى « دون أنطونيو سيجويرا [١] » الذى اقترح إنشاءه وقدم مشروعه لإبراهيم باشا . فأسست المدرسة وانتخب لها ثلاثمائة طالب من مدرسة قصر العينى التجهيزية (١٨٣١ – ١٢٤٧ هـ) [٢] لتعلم مبادئ اللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية . وكان الكولونيل دى سيجويرا يعلم دروس الرياضة والرسم وآخرون يعلمون مبادئ فن المدفعية ، فتقدم طلبتها بسرعة فى العلوم النظرية والعملية .

وبرهن ضباط المدفعية المصرية الذين اشتركوا فى حملة سوريا على تفوقهم وحسن تدريبهم ومهارتهم كما أظهر رجال المدفعيتين الثقيلة والخفيفة النشاط والكفاءة .

---

(١) (Don Antonio Sequerra) اشترك فى الحرب الأسبانية الفرنسية ضد بونابرت . ووصل إلى رتبة كولونيل فى المدفعية الأسبانية

(٢) الوقائع المصرية — العدد ٣١٠ فى ٢١ جمادى الاول عام ١٢٤٧

وكان بالقرب من المدرسة حظيرة بها أربعة وعشرون بطارية وميدان لضرب النار وألحق بالمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب عسكرى يساعده صيدلى

أنشئت هذه المدرسة بطره عام ١٨٣١ كما أسلفنا وألحقت بها مدرسة المهندسين أيضاً وأغلقت أثناء الحملة السورية فى إبريل ١٨٤٧ وكان من نظارها القائمقام خليل أفندى وشمس الدين أغا وفرج أفندى وخورشيد أفندى وغيرهم .

وقد انحط مستوى مدرسة المدفعية عندما تولى أمر ديوان المدارس « مصطفى مختار بك » وغادرها « سيجويرا » وحل محله الناظر البكباشى مصطفى أفندى بهجت الذى أصبح فيما بعد ناظراً لمدرسة قصر العينى التجهيزية ومن كبار المهندسين فى تاريخ مصر الحديثة .

وقد وصف البرنس الألمانى بوكلر موسكو[1] مبانى هذه المدرسة وكانت لم تكتمل بعد أثناء زيارته قال :

« كانت مبانى المدرسة بسيطة على شكل مربع بنيت منه أضلاع ثلاثة. فكانت بذلك وافية بالغرض المطلوب . رأيت العمل جاريا فى اسطبلاتها . وكانت الأشجار الكبيرة تظلل أفنية المدرسة وتمتد ميادين المدرسة إلى مسافة شاسعة نحو سفح تلال المقطم . وبعد أن شاهدت الطلبة يقومون بتمريناتهم على الأقدام خير قيام . قصدت الميادين المذكورة لأشهد التمرين على مدافع المورتر (الهاون) . وقد رأيت مستوى التفوق العالى الذى غرسه الكولونيل سيجويرا فى تلامذته .

ولا أذكر مطلقاً أنى رأيت قبل ذلك اليوم تمرينا يقوم به طلبة بهذا المستوى النادر . فقد حدث أنه من بين ٤٨ مدفعيا أصاب المرمى ٢٨ على بعد سبعمائة متر منها وأكثر الطلقات الأخرى وقعت بجانب الأهداف التى

---

(١) زار الأمير الألمانى (Puckler Muskau) المغفور له محمد على باشا عام ١٨٤٢ وكتب عن رحلته فى مصر سفرا فى مجلدين اسمه بالانجليزية (Egypt under Moh, Ali) وصف فيه مشاهداته ودون محادثاته مع محمد على ومن هذا الكتاب نقتطف وصفه لمدرسة المدفعية ص ١٧٦

كانت على مسافة ١٢٠٠ متر .

وقد شيدت مدرسة المدفعية لكى تتسع لثلاثمائة وثلاثين طالبا ، لكن لم توفق المدرسة للحصول على أكثر من ١٨٠ طالبا موزعين على ثلاث فرق وقد أمر ناظر الجهادية بترقية عدد كبير من الطلبة قبل الانتهاء من دراستهم المقررة وعينهم فى عدة مناصب مختلفة غير أعمال المدفعية — وكان بالمدرسة من الأساتذة والمعلمين . وأهم العلوم التى كانت تدرس فيها الرسم العسكرى . وقد رأيت منه نماذج فائقة من عمل الطلبة — كذلك درس الجبر البسيط والهندسة والحساب والميكانيكا والاستحكامات واللغات الشرقية .

ويعامل طلبة هذه المدرسة بسخاء وعناية أكثر مما هو معروف فى مدرسة قصر العينى . وتعطى لهم كسوات جميلة أنيقة كملابس جنود القتال (Troops of thc line) وقد أمر محمد على باشا أن يصرف لهم مرتب شهرى يتراوح بين مائةومائة وخمسين قرشاً .

وكان « سيجويرا » الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لفن المدفعية فى الجيش المصرى الحديث على دراية تامة بعمله مع خشونة فى الأخلاق وحدة فى الطبع . لم يعرف ولم يتصل إلا بمحمد على شخصيا . وقد كان الأخير يقدر معارفه ويحقق له برامجه . وقد منحه مرة فى إحدى تفاتيشه رتبة اللواء . ولولا الدسائس التى كان يحيكها حوله بعض الرؤساء الأتراك والفرنسيين أيضا لما اضطر إلى التخلى عن مركزه فى أكتوبر عام ١٨٣٥ [١] والسفر إلى أسبانيا . وقد ذكرنا أن مصطفى بهجت أفندى خلفه فى إدارة المدرسة يعاونه الكابتن الفرنسى برونو (Brunhaut) ثم خلفه خليل أفندى مديراً للمدرسة وبعدها استقل الكابتن برونو بإدارتها وظل بها إلى أواخر عصر محمد على [٢] وقد كان أغلب تلاميذ المدرسة عند إنشائها من المصريين والترك . وكان منهم يونانيون من كنديا وبعض أفراد الأسرة الحاكمة . وكانت

---

(١) كتاب الأمير الألمانى المذكور ص (٢٩٣ — ٢٩٧)

(٢) دفتر ٥٧ (مدارس عربى ص ١٤٧٣ رقم ٢١٠ فى ١١ المحرم ١٢٦٣ .

تتراوح أعمار الطلبة بين الحادية عشرة والخامسة عشرة ومنهم من يزيد على ذلك . ولم يكن يشترط عند التحاقهم بالمدرسة إلا معرفة القراءة والكتابة — ثم يتعلمون الحساب والهندسة والجبر والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية . الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية . أما اللغة التركية فكان يتعلمها جميع التلاميذ على السواء [١] .

وكان الطلبة يقضون عشر ساعات فى دراسة المواد التى ذكرناها وساعة ونصف ساعة فى التدريب خارج المدرسة .

وكانت بالمدرسة مطبعة لطبع الكتب المدرسية المؤلفة أو المعربة . وكان يقوم بتعريبها « رفاعة بك الطهطاوى » . الذى عين مترجما بمدرسة المدفعية بعد نقله من مدرسة الطب بدلا من المستشرق الشاب كوينج (Koenig) وقد ظل بها سنتين (١٢٤٩ — ١٢٥١)[٢] .

تنظيم المدرسة وبرنامج الدراسة

وفى سنة ١٨٣٦ ندب ديوان شورى المدارس لتنظيم مدرسة المدفعية لجنة مكونة من « مختار بك » مدير الشورى — و « حكاكيان أفندى » مدير مدرسة المهندسخانة و « المسيو لامبير » وكان إذ ذاك مهندساً بشورى المدارس وانضم إليهم مظهر أفندى المهندس « وبهجت أفندى » مدير مدرسة المدفعية والمسيو « برونو » مدرب التلاميذ فيها ودرست اللجنة نظام المدرسة ووضعت لائحتين : إحداهما خاصة بنظام الدراسة وبتوزيع ساعات اليوم لتلامذتها نوردها فيما يلى [٣] :

---

(١) الجزء الثانى ص ٢٣١ — ٢٣٣ R. Scott : Rambles in Egypt and Candia

(٢) حلية الزمن فى مناقب خادم الوطن — (صالح بك مجدى) — ص ١٥

(٣) الوقت محدد طبقاً للتوقيت العربى فالساعة العاشرة (وقت النهوض من النوم)

الساعة من	الساعة إلى	عمل التلاميذ
١٠	—	النهوض من النوم
١٠	١١	الصلاة وتناول الإفطار
١١	١٢	مطالعة الدروس المنوعة
١٢	٢	التدريب العسكرى
٢	٣	يشتغل المعلمون بتعليم نائبيهم (المعيدين) ويشتغل التلاميذ بالكتابة (الخط)
٣	٥	يدرس نائبو المدرسين علم الهندسة للتلاميذ بحضور المدرسين
٥	٦	طعام واستراحة
٦	٧	يدرس نائبو المدرسين علم الجغرافيا للتلاميذ بحضور المدرسين
٧	٨	يدرس نائبو المدرسين التركية والعربية للتلاميذ بحضور المدرسين
٨	١٠	يشتغل التلاميذ بالرسم ونواب المدرسين بالخط
١٠	١٢	التدريب العسكرى
١٢	١	طعام وصلاة واستراحة
١	٢	تعليمات المعلمين للتلاميذ
٢	٣	صلاة واستعداد للنوم
٣	—	النوم

وكان التلاميذ يتلقون يوماً دروساً فى الاستحكامات ويتلقون فى اليوم التالى درساً فى الجغرافيا . ويتلقون كل خميس دروساً فى المساحة . ويصحبهم معلما الهندسة والرسم وذلك من الساعة الثانية صباحا إلى السادسة (أى من بعد شروق الشمس بساعتين إلى الظهر) . ويعملون بقية النهار فى تنظيف أسلحتهم وملابسهم [١] .

وبذلك كان اليوم المدرسى فى مدرسة المدفعية سبع عشرة ساعة يقضى منها التلاميذ أربع ساعات فى طعام وصلاة واستراحة وتسعا فى دروس واستذكار للدروس وأربعا أخرى فى تدريب عسكرى وللنوم سبع ساعات .

ولقد اتضح فيما بعد ضعف برنامج المدرسة فأضيفت المواد الآتية :

(١) دفتر ٢٠١٥ (مدارس تركى) جلسة شورى المدارس ١٦ جمادى الثانى سنة ١٢٥٢ هـ

الحساب والجبر والتاريخ ودروس نظرية فى جر الأثقال فى الجيش وأعمال الحصار والخدمة فى القلاع والقانون الداخلى العسكرى ثم الكيمياء . وكان التلاميذ الذين يدرسونها يذهبون فى يوم الخميس من كل أسبوع إلى « معمل البارود » لرؤية عملية البارود [١] . وقد نظم دروس الرياضيات بها المهندس والعالم الرياضى المصرى « محمد بيومى أفندى [٢] »

وقد حرصت المدرسة على أن تفيد من العطلة السنوية فى رمضان . فوضعت نظاما للدراسة ست ساعات فى كل يوم حتى لا ينسى التلاميذ ماتعلموه أثناء العام الدراسى المنصرم : ساعتان منها لاستذكار العلوم الرياضية وحل مسائل فى الهندسة العادية والوصفية والجبر وحساب المثلثات . ومثلها فى كتابة « مراسلات وتذاكر وعرضحالات مع حسن الخط ومثلهما كذلك فى قراءة كتاب فى الدين اسمه (بركوى شريف) [٣]

وبذلك أصبح برنامج الدراسة فى مدرسة المدفعية فى أواخر عصر محمد على حافلا بالدروس المنوعة كفيلا بتخرج ضباط أكفاء للمهنة التى أعدوا لها [٤] . وقد حذفت الجغرافيا والتاريخ وغيرهما من المواد التى كان يتعلمها التلاميذ قبل ذلك بعد تنظيم المدرسة التجهيزية .

وفى أول الأمر لم يتيسر لآلايات المدفعية أن تأخذ من المدرسة مرتبها (نصيبها) الكامل من الضباط . لأنها ما كادت تؤسس حتى أعطت مكتب المحاسبة فريقاً كبيراً من خريجيها . ولم يلبث بعد ذلك إلا قليلا حتى انتزع منها خيار تلاميذها . فأرسلوا ليعملوا فى الأسطول . ثم أرسل منها (١٨٤٠ م) ٦٥ تلميذا إلى الاسكندرية ليتدربوا فيها على رماية مدافع الهاون وقذف القنابل ولذلك لم تستطع مدرسة المدفعية بطره أن تخرج النصاب المقرر من الضباط فى كل عام

---

(١) دفتر ١٣ (مدارس عربى) ص ٢٧٣٤ رقم ٦٣٨ إلى ناظر البارودخانات
(٢) دفتر ٥٥ (مدارس عربى) ص ٦٨٦ رقم ٥٥ إلى مدرسة الطوبجية
(٣) دفتر ٦٤ (مدارس عربى) ص ١٤٠٠ رقم ٤٠٩ إلى مدرسة الطوبجية
(٤) أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم فى مصر ص ٤١٢ — ٤١٣

وفى سنة ١٨٤١ رأت اللجنة التى وكل إليها تنظيم التعليم أن تحتفظ بالمدرسة على أن يكون قوامها عدداً من التلاميذ كافيا لإدارة بطاريتين اثنتين[١] ومضت المدرسة على هذا النحو ولكن حظها بعد سنة ١٨٤١ لم يكن خيراً من قبل تلك السنة . فقبل سنة ١٨٤١ كانت الحاجة ملحة إلى إلى ضباط لفرق الجيش التى تزداد يوما بعد يوم . فكانت الحكومة تأخذ منها تلاميذا قبل إتمام دراستهم . ولكن بعد سنة ١٨٤١ أنقص الجيش فأصبح كثيرون من خريجيها الذين أتموا علومهم — على قلتهم — لا يكادون يجدون عملا فكانوا يظلون بالمدرسة يعيدون دروسهم حتى تحتاج إليهم أو إلى بعضهم وحدات الجيش[٢] وحين نهض إبراهيم باشا بالحكم فى مصر فى أواخر عصر محمد على — تداركت عنايته مدرسة المدفعية — ولا غرو فقد كان له الفضل الأول فى انشائها . وكان دائم العطف عليها . فتقرر إبلاغ عدد تلاميذها إلى ثلاثمائة بإكمالهم من تلاميذ المكتب العالى بعد امتحانهم[٣] . على أنها أقفلت أبوابها بعد عام فى أوائل حكم عباس الأول[٤].

مدرسة المهندسين العسكريين

ألحقت هذه المدرسة أولا بمدرسة المدفعية بطره . وفى عام ١٨٤٤ أنشئت مدرسة خاصة بالمهندسين العسكريين فى بولاق[٥] وقد أطلق عليها خطأ اسم مدرسة المهندسخانة وكان يتخصص طلبتها فى أعمال هندسة الترع والألغام والكبارى والطرق والاستحكامات . . الخ

(١) دفتر ٢٠٧٣ (مدارس تركى) رقم ٥٦٥ الى شورى المعاونة فى ٢٠ ذى القعدة سنة ١٢٥٧

(٢) دفتر ٢٠٨٢ (مدارس تركى) ورقة ٤٨ رقم ١٨١٣ إلى شورى المعاونة فى ٧ شوال سنة ١٢٥٩

(٣) دفتر ٩٠ (مدارس عربى) ص ٢٩٠٨ رقم ١٨٦ الى الديوان الخديو فى ١٦ رجب سنة ١٢٦٤

(٤) دفتر ٢١٣٢ (مدارس تركى) ص ٤٨ فى ١٨ المحرم سنة ١٢٦٦

(٥) كتاب Rochefort Scott الجزء الثانى — ص ٣٤

ولم يكن للجيش فى بادئ الأمر قوات مستقلة للمهندسين . فقد كانت فى كل آلاى من المشاة بضعة بلوكات من حاملى البلط . وفى عام ١٨٣١ كانت هناك كما ذكر الملازم «Faviers» الذى زار مصر أورطتان من اللغامين المهندسين إحداهما فى الإسكندرية والأخرى بأثر النبى تعدادهما ١٢٠٠ جندى وكانوا يقومون أيضا بأعمال الجندية .

مدرسة الموسيقى بالخانقاة

أمر محمد على باشا بأن يكون لكل آلاى فرقة للموسيقى وأمر مندوبيه بفرنسا أن يجلبوا الآلات الموسيقية وينتخبوا معلميها [١] فقام هؤلاء بتعليم الشبان المصريين وأسس فى قرية جهاد آباد معهدا لتعليم الموسيقى يسع مائة وثلاثين تلميذا تحت إشراف المسيو « كاريه » — قام بتدريس هذا الفن أربعة معلمين دفعتين يوميا . ثم نقلت المدرسة إلى الخانقاه . وكانت تابعة منذ إنشائها لديوان الجهادية ثم أصبحت منذ أوائل سنة ١٨٣٧ تابعة لديوان المدارس.

وقال المسيو « مانجان » عن تلاميذ هذا المعهد إن أولئك الشبان الفلاحين قد أبدوا من المهارة فى توقيع الألحان الصعبة من النوتات ما أدهش العارفين بالفن وخاصة الإفرنج الذين جذبتهم إلى مصر شهرة محمد على .

وقد ذكر الدكتور كلوت بك فى كتابه [٢] أن برنامج المدرسة قام على قاعدة خاطئة . ذلك أنه تضمن نقل الموسيقى الأوربية بنغماتها وأناشيدها الأوربية إلى بيئة شرقية لم تتعود الألحان الأوربية فلم تؤثر فى نفوس التلاميذ التاثير الفنى المطلوب ولم تتحرك لها قلوبهم . وكان الواجب يقضى بإحضار فنانين عارفين بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الألحان الأوربية موسيقى خاصة تتأثر لها نفوس المصريين . وقال إن الحكومة فى عهد محمد على ذاته

---

(١) طبعت لهذه المدرسة مقامات فى فن الموسيقى على مطبعة الحجر — الوقائع المصرية بالعدد ٣٤٩ فى ٦ رمضان سنة ١٢٤٧

(٢) لمحة عامة الى مصر ج ٢ ص ١٢١

قد ألغت مدرسة الموسيقى بالخانقاة مع أنه خرج عدداً لابأس به من الموسيقيين القادرين واستعاضوا عنه بأن جعلوا لكل آلاى من الجيش معلماً أوربياً ، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد أن يضطلع بهذه المهمة ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية فى مصر إلى مجاراة الموسيقى الأوربية » .

وفى ترتيب عام ١٨٤١ ألغيت مدرسة الموسيقى ووزع تلامذتها على المدارس الحربية [١] وكانت هناك مدارس أخرى لتعليم الموسيقى . منها مدرسة بأثر النبى طغت عليها مياه الفيضان فنقلت إلى سوق السلاح فى البناء الذى كان مصنعاً للصوف [٢] ومدرسة أخرى بالقلعة . وقد زارها بعض كبار الأجانب وأعجبوا ببراعة تلاميذها المصريين فى تفهم الموسيقى الغربية وأدق القطع لأمهر الموسيقيين الإيطاليين والفرنسيين[٣].

مدارس الوحدات

ولم تهمل حكومة محمد على تعليم جنود جيشها . فالحقت مدارس بفرق الجيش ووحدات الأسطول يتعلم فيها الجنود (جنود البر والبحر) القراءة والكتابة والحساب . وكانت الحكومة تشجع المتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم .

بعض الوثائق المتعلقة بمدرسة المدفعية

١ — الوثيقة الصادرة من ديوان الجهادية إلى مأمور ديوان الخديوى
بتاريخ ٤ محرم سنة ١٢٤٧ — ١٥ يونيه سنة ١٨٣١
رقم ١٩ ص ٨ ومقيدة بالدفتر رقم ٧٧٦ خديوى تركى

(١) دفتر ٢٠٧٠ (مدارس تركى) ص ٦٠ رقم ٢٥ أمر عال فى ٢٤ شعبان ١٢٥٧
(٢) دفتر ٢٠٦٥ (مدارس تركى) ص ١٣٢ فى ١٧ رجب ١٢٥٦
(٣) Saint John — vol. II. p. 400

حضرة صاحب السعادة والمروءة الأفندى المحترم . المأمول من همتكم تنفيذ هذا القرار الصادر من ديوان الجهادية .

أشار القائمقام خليل أفندى ناظر مدرسة الطوبجية المقرر إنشاؤها فى « معصرة طره » فى كتابه إلى شورى الجهادية إلى الإرادة السنية الصادرة بإنشاء المدرسة المذكورة وإلى المهمات المبينة فى القائمة المرافقة التى رأى لزومها الآن المعلم يوسف وأشعر فيه أيضاً بأن هناك حاجة إلى ناظرين للإشراف على عملية البناء وجلب الأدوات اللازمة فى آوانها مما يوجب سرعة انتهاء العمل وإلى معلم ومهندس ماهرين فى الصنعة وإلى ١٠ بنائين لهم إلمام بالصنعة و ١٠ أنفار من النجارين الروم ومثلهم من النجارين المصريين وإلى رئيس قزامين و ٥ أنفار من القزامين وإلى مقدم فعله يفهم فى صنعة البناء و ٢٥٠ عامل للبناء والساقية ثم طلب إرسال المهمات المذكورة والناظرين وسائر الأنفار . وقد ذاكر ديوان شورى الجهادية هذه المسألة ورأى أن الإرادة السنية قد تعلقت بإنشاء المدرسة المذكورة كما ذكره الناظر المذكور وأن المجلس كان انتدب المعلم يوسف لأجل الكشف فقام بمهمته ووضع قائمة ضمنها نتيجة كشفه ثم قرر الديوان أن يصدر مولانا ولى النعم عالى الهمم إبراهيم باشا أوامر إلى كل من أمين أفندى ناظر الأبنية بإرسال المهندس والمعلم الماهرين فى الصنعة والبنائيين والنجارين الروم والمصريين واوسطة القزام والقزامين والمقدم الملم بفن البناء والعمال نظرا لأن ذلك من اختصاص ديوان الأبنية وحسين بك ناظر المهمات الحربية بصرف القزمات الافرنجية والفؤس البلدية والمعاول والمسمار الافرنجى والمسمار الخالدى والمسمار البلدى على نحو ما ذكر فى القائمة ومحمد أغا ناظر الجير والجبس ليرسل على جناح السرعة الجير البلدى والبلاط والجبس وحجر الدبش وعلى أفندى مأمور المهمات بأن يأخذ من ديوان المبيعات خشب البندق من الصنف الجيد والخشب المسمى « جُبق التى » وخشب المورينة وخشب الحور للبلطة وخنزيرة قطرى فى طول ٦ أذراع اللازمة للساقية ويقيد هذه المهمات واللوازم فى ديوان

الجهادية وحضرة البك الدفتردار مدير الجيزة ليكلف مأمورها بصنع الطوب الأحمر بسرعة إذا كان غير موجود وإرساله وحضرة مأمور الديوان الخديوى لانتخاب شخصين من أغوات البيرون للجناب الداورى ومساعد للاشراف على عملية البناء والإشعار بما تقدم إلى خليل أفندى مع التنبيه عليه بالاعتناء التام بأمر البناء

٢٩ ذى الحجة سنة ١٢٤٦ — ١٠ يونيه سنة ١٨٣١

امتثالا للقرار قد جىء من أغوات البيرون . إبراهيم أغا ألبوسنه لى وعمر أغا القيصريلى بمعرفة ضباطهما وأرسلا بإفادة إلى القائمقام خليل أفندى ناظر المدرسة .

٧ محرم سنة ١٢٤٧ — ١٨ يونيه سنة ١٨٣١

بيان المهمات اللازمة لمدرسة الطوبجية المقرر إنشاؤها
فى طرة المعصرة

عدد		برميل عدد	
٦	قزمه افرنجية	٢	مسمار افرنجى
٢٠	فأس البلدى	١	مسمار خالدى
٦	قزمه من نوع المعمول	قنطار عدد	
٥٠٠٠	بلاط فراسنى	١٠٠٠	جير بلدى
٥٠٠	خشب البندق من الصنف الجيد	١٠٠٠٠	حجر دبش
٤٠٠	الخشب المسمى جبق التى	٢	مسمار بلدى
٤٠٠	خشب مورينه		
١٠٠	خشب الحور للبلطة	٥٠٠	زنبيل
١٠٠٠٠٠	طوب أحمر	١	جنزير ٥ قطرى فى طول ٦ أذرع

٢ — الوثيقة الصادرة من ديوان الجهادية إلى مأمور الديوان الخديوى
بتاريخ ٥ محرم سنة ١٢٤٧ — ١٦ يونيه سنة ١٨٣١

رقم ١٨ ص ٨ ومقيده بالدفتر رقم ٧٧٦ خديوى تركى

حضرة صاحب السعادة والمروءة الأفندى مأمور الديوان الخديوى .
أرجو أن تبذلوا همتكم فى تنفيذ مقتضى هذه الخلاصة التى صدرت من ديوان الجهادية .

٥ محرم سنة ١٢٤٧ — ١٦ يونيه سنة ١٨٣١

صورة القرار

طلب القائمقام خليل أفندى ناظر مدرسة الطوبجية فى كتابه الوارد إلى شورى الجهادية اتخاذ قرار فى الأنفار المعروفين المراد إلحاقهم بمدرسة الطوبجية وفى تخصيص تعييناتهم وقد بحث الموضوع ولوحظ أن إدخال أولئك الأنفار كان مذكورا فى التقرير الذى سبق تقديمه من لدن كولونيل الطوبجية عن تنظيم مدرسة الطوبجية ووافقت الرغبة السامية على تنظيمها على ذلك الوجه وبدئ افتتاح تلك المدرسة على ذلك المنوال ولقد قرر ديوان شورى الجهادية أن يحرر إلى حضرة الأفندى شيخ الأزهر بأن يعين إماما ومؤذنا ويرسلهما (إلى المدرسة) وإلى عثمان أغا ناظر قصر العينى بأن يعلم شورى الجهاد إذا لم يجد لديه رجلا يحسن الخط الثلث حتى يبحث الشورى عن مثله ويرسله وإلى أحمد بك ميرالاى الطوبجية بأن يرسل (إليها) يوزباشيا وملازمين أولين ويعين خفيرا برتبة الملازم الثانى ليقوم بحفظ المهمات التى ستصرف للمدرسة وليشرف على الخدم ويراقب أعمالهم وأن ينتخب من ألاى الطوبجية ، ضباط أكفاء للمدرسة ويرسلهم ثم يعلم الشورى الجهادية بصورة اختيارهم وإلى ميرآلاى الألايين ٨ جى و ١٣ جى بياده بوجوب إرسال أنفار (ترانبيته جى) وزمارين على أن يبدل الشورى بهم أنفار أعجمين (غشماء) وإلى حضرة الأفندى مأمور الديوان الخديوى بأن يوصى الجهات المختصة بانتداب أحد أغوات البيرون الأكفاء وتعيينه وكيل صرف للكيلار وتعيين طاه ماهر ومساعدين له من المطبخ الخديوى وتعيين ٦ فراشين أمناء بواسطة المهتر باشى (القائم بتأثيث الدواوين) وقرر أيضا أن يكتب إلى القائمقام ناظر المدرسة المشار

إليه يعلمه بما تم كما قرر أن يكتب من قبل ولى النعم صاحب الدولة إبراهيم باشا إلى على أفندى مأمور صرف التعيينات بأن يجعل تعيينات تلك المدرسة بموجب الترتيب الجديد إذا أنها تماثل مدرسة السوارى الواقعة بالجيزة .

٣ – ترجمة الوثيقة الصادرة من المعية السنية إلى ناظر مدرسة طرة

بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٢٤٩ – ١١ مارس سنة ١٨٣٤

رقم ٥٥ ص ١٠١ ومقيدة بالدفتر رقم ٤٩ معية تركى

إن صاحب الدولة مطش باشا وجناب بسيون بك توجها إلى طرفكم للتفتيش على مدرسة طرة التى تحت نظارتكم واختبار أحوال تلاميذها ومرتبة تقدمهم فى القراءة والكتابة وعرض نتيجة اختبارهم على الأعتاب فعند اطلاعكم على هذا يلزم أن تبادروا إلى تنفيذ إرادة الجناب العالى .

٤ – ترجمة الوثيقة الصادرة من الجناب العالى إلى خورشيد بك

بتاريخ ٥ ذى القعدة سنة ١٢٤٩ – ١٦ مارس سنة ١٨٣٤

رقم ٤١٢ ص ٨٥ ومقيد ة بالدفتر رقم ٤٨ معية تركى

كنتم قد عرضتم علينا قبل الآن أنه يعنى على الوجه اللائق بأمر تلامذة مدرسة الطوبجية الكائنة بمعصرة طره وقد التمس ناظرها زيادة راتبة أيضاً ولما كنا نجهل مبلغ ما يبذله الناظر من الهمة فقد أوفدنا إلى المدرسة مطوش باشا سر عسكر أسطولنا المنصور وبسيون بك ليتفقدا أمر نظارته ويقفا على مبلغ طهارة المدرسة ويشاهدا الحالة الدراسية وجميع أحوال التلامذة وقد عرضا علينا نتيجة زيارتهما للمدرسة فكانت كما ذكرتم حقيقة فالناظر يعنى بأمر المدرسة كما ينبغى ويبذل الجهد فى تدريس التلامذة حيث وجب إكرام الناظر ألموما إليه ولذا فقد منح رتبة الميرالاى فمتى اطلعتم على ذلك بمنه تعالى أعطوه نيشان الميرألاى وكسوة التشريفة حسب الأصول وقيدوه بديوان الجهادية ميرألايا .

٥ – ترجمة الوثيقة الصادرة من المعية السنية إلى خورشيد بك

بتاريخ ١٨ ذى القعده سنة ١٢٤٩ – ٢٩ مارس سنة ١٨٣٤

رقم ٤٣٢ ص ٩١ ومقيدة بالدفتر رقم ٤٨ معية تركى

بما أن الأمر الكريم يقضى بدرج كافة الموضوعات فى الرسالة الجارى وضعها بإرادة الحضرة الخديوية فقد كنا كتبنا لكم بوضع جدول عن كل مدرسة من المدارس التابعة للجهادية وإرساله ولكن هذه الجداول لم تصلنا للآن . فإذا علمتم أن الأمر الكريم يقضى بالاستعجال فى إكمال الرسالة فإننا نرجو منكم التفضل بإرسال الجداول المطلوبة عاجلا .

٦ — ترجمة الوثيقة الصادرة من المعية السنية إلى خورشيد بك

بتاريخ ١٨ ذى العقدة سنة ١٢٤٩ — ٢٩ مارس سنة ١٨٣٤

رقم ٤٣٤ ص ٩١ ومقيدة بالدفتر رقم معية تركى

قد صدر الأمر الكريم بتكليفكم بإرسال جدول يشمل أوقات الدروس التى تدرس لتلاميذ مكتب الطوبجية وكيفية تعليمهم وجميع الترتيبات الخاصة بهم إلى طرف المخلص لكم لعرضه على الأنظار العلية .

المدارس المفروزة الحربية

كان من جراء اللوائح التى وضعت للتعليم فى شعبان ١٢٦٥ (يونيو ١٨٤٩) أن ألغيت المدارس الحربية وسرح أكثر تلامذتها . ولكن لم يهمل عباس أمر التعليم العسكرى فى البلاد . بل أنه ألغى هذه المدارس ليقيم على أنقاضها مدرسة جديدة يختار لها التلاميذ من أفضل العناصر التى احتوتها المدارس المدنية والعسكرية على السواء . وهكذا أنشئت « الأورطة المفروزة » التى سميت بعد ذلك « المدارس الحربية المفروزة » .

طاف رجال الحكومة من كبار الضباط وغيرهم بالمدارس يجمعون صفوة تلاميذها للأورطة الجديدة[1] فكان من ذلك مزيج من متقدمى طلبة الطب والألسن والمكتب العالى والهندسة والمدارس الحربية بل كان منهم

(١) على باشا مبارك — الخطط التوفيقية — م ٣ ج ٩ ص ٤٣ — واسماعيل سرهنك (حقائق الأخبار) ج ٢ ص ٢٦٢ .

نفر لم يبق على تخرجهم بمدرسة الطب سوى أشهر معدودات . فألحق تلميذا عسكرياً لتحصيل العلوم العسكرية بالمدرسة الحربية الجديدة .

ويظهر أن عناية الوالى بالمفروزة أضفت عليها لوناً براقاً فى أعين تلامذة المدارس الأخرى وجعل لها فى نفوسهم مكانة خاصة . فأخذ لفيف منهم يتسللون من مدارسهم ويقصدون إلى المفروزة ملتمسين قبولهم بها . وضاقت المدرسة المهندسخانة بهذا وكتبت للديوان أنه :

« لا يصح توجيههم من تلقاء أنفسهم . وأن سلم لهم فإن باقى التلاميذ تنظر لهم » — وكذلك فعلت مدرسة الطب [١] ولكن ديوان الجهادية لم يعبأ باحتجاج المدارس[٢] .

ونظم التلاميذ نظاماً عسكرياً فدعوا « عساكر[٣] بالأورطة المفروزة » ووضع على رأسهم قائد [٤] . ولكن عباس لم يرتح إلى مقام المفروزة بالخانقاه مقر بعض المدارس البائدة . وكان قد شرع يقيم فى الصحراء « الحصوة » مدينة جديدة دعاها « العباسية » فأمر بأن ينشأ بها بناء خاص لأورطة المفروزة . ونقلت إليه فى المحرم سنة ١٢٦٦ (نوفمبر ١٨٤٩) [٥] . بعد إقامة قصيرة بالمكتب العالى بالخانقاه وجعلت تابعة لديوان الجهادية[٦] .

وقد بلغ من حرص عباس على سرعة نقل التلاميذ من المفروزة إلى العباسية أنه نقلهم ولما يتم البناء بعد فاضطروا إلى الإقامة فى الخيام . وثارت عواصف شديدة اقتلعت الخيام وأثارت الرمال والغبار فأصيب أكثر التلامذة

---

(١) دفتر ١٦٠ (مدارس عربى) ص٥٦٠ رقم١٢٨ من المهندسخانة فى١٦ المحرم١٢٦٦ ودفتر ١٩٨ مدارس عربى ص ٢٦٧ رقم ١٧٢ إلى الجهادية فى ٨ المحرم ١٢٦٧ .

(٢) دفتر ١٦٤ (مدارس عربى) ص١٣٤٩ رقم ٧٧٩ من الجهادية فى١٤ رجب١٢٦٦

(٣) دفتر ١٤١ (مدارس عربى) ص ٢٠٤ رقم ٢٠ إلى المهمات فى ١٧ ذى القعدة سنة ١٢٦٥ .

(٤) دفتر ١٢٩ (مدارس عربى) ص ٢١٧٨ رقم ١٣٢١ إلى بكباشى الأورطة المفروزة بالخانقاه فى ٢ شعبان سنة ١٢٦٥ .

(٥) دفتر ٤٣ ، (مدارس عربى) ص ٦٨١ رقم ١٩٦ إلى المالية فى ٤ المحرم سنة١٢٦٦ ودفتر ١٤٥ (مدارش عربى) ص ١٠٢٢ رقم ٤٣٠ إلى الحسابات فى ١٦ صفر سنة١٢٦٦

(٦) دفتر ١٠٣ (مدارس عربى) ص٢٧٤ رقم١٤٣ إلى المعية ٨ شعبان سنة ١٢٦٦

بالرمد وأمراض أخرى وغضب عباس وأمر بسرعة إتمام بناء الثكنة[1] وكان لها مستشفى خاص[2] .

وقد عاون ديوان المدارس على تنظيمها وإمدادها بما تحتاج إليه فى أول حياتها فقد عهد إلى ناظر المهندسخانة (على بك مبارك) بأن يختار لها الكتب والمعلمين [3] ويرقب دروسها . وكان قائد الأورطة يتجه إلى ديوان المدارس فى كل ما يخص المعلمين وأدوات الدراسة والكتب والمهمات اللازمة للطلبه .

كما أن مدرسى المدرسة كانوا يتجهون إلى ديوان المدارس رافعين شكواهم إليه مما يلقون بالأورطة من قلة المرتبات أو إعراض التلاميذ عن الدرس أو عدم توفر الأدوات والكتب اللازمة .

وكان ديوان المدارس يكتب دائما إلى قائد المدرسة للتشديد على الطلبة والمدرسين بالانتظام فى الدروس ابتغاء الحصول على الفائدة واكتساب رضى ولى النعم .

وكان الديوان يقوم على طبع ما تحتاج إليه المفروزة من الكتب سواء بمطبعة المهندسخانة أو بالمطبعة الكبرى .

ثم حوّل اسم المدرسة إلى « المدارس المفروزة الحربية » حتى ألغيت فى أول حكم سعيد باشا ويظهر أنها قسمت أسوة بالمهندسخانة إلى ثلاثة أقسام : قسم ابتدائى وقسم تجهيزى وقسم خصوصى أو عال ويُعد كل قسم

---

(١) أمين سامى — تقويم النيل فى عهد عباس وسعيد ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) دفتر ١٤٦ (مدارس عربى) ص ١٢٤٤ رقم ١١١ إلى عمارات المحروسة فى ١٢

(٣) أختير لها المعلمون الآتية أسماؤهم :

أساتذة الهندسة — على فرحات — محمد الحكيم — محمد اسماعيل — رجب عبد الفتاح— محمد ابراهيم البقلى — حسنين القاضى — (العاصى) .

أساتذة الرسم — حسين ابراهيم — عبد الرحمن على — مصطفى الجركسى — ابراهيم الخولى — حسن طابش — أحمد رزق .

بعض خريجى مدرسة الألسن :

سليم الحجازى — أحمد افندى — حسن افندي نجل حسن اغا كتخدا أحمد باشا يكن — محمد أفندى نجل حسن أغا الارزنجاتى (دفتر ٢١٣٣ ومدارس تركى) ص ٣٤ رقم ٤٤ من الجهادية إلى مدير المدارس فى ٢ المحرم ١٢٦٦ .

لما يليه . ويتخصص طلبة القسم العالى فى الفنون العسكرية إما مشاة أو فرسانا أو مدفعيين .

وكان يلحق بها أحيانا تلاميذ من المهندسخانة – وأرسل من تلاميذها فى سنة ١٢٦٨ هـ – ١٨٥١ بعثة كبيرة مؤلفة من ١٨ عضواً إلى النمسا وبروسيا خصص تسعة منهم لدراسة الطب[١] .

وذكر أمين سامى باشا أن أول ناظر عين لإدارتها هو الأميرالاى إسماعيل الكريدلى بك – حتى نقلت إلى الإسكندرية فى آخر سنة ١٨٥٠ فخلفه الأميرالاى إسماعيل بك سليم . ثم تعاقب عليها آخرون حتى ألغيت فى سبتمبر سنة ١٨٦١ .

أما الوثائق فلا تذكر سوى إسماعيل بك سليم أميرالاى المفروزة – وقد نقل فى المحرم ١٢٧٠ (سبتمبر سنة ١٨٥٣) وكيلاً لديوان الجهادية . وكان يديره إذ ذاك الأمير إلهامى باشا نجل عباس الأول .

ثم أصبح سليم بك بعد أشهر محافظاً للإسكندرية وهو إسماعيل سليم باشا أحد الرجال العسكريين الذين اعتمد عليهم سعيد باشا فى تشكيلات العسكرية إذ عيّنه فريق العساكر السعيدية [٢] وهم جند سعيد المفضلون .

أما المدارس المفروزة الحربية فقد عيّن أحمد كمال باشا مديرا لها . وظل على رأسها حتى أوائل حكم سعيد [٣].

المدرسة الحربية فى الحوض المرصود

عهد سعيد باشا إلى سليمان باشا الفرنساوى رئيس أركان حرب الجيش

(١) دفتر ٢٣٨ (مدارس عربى) – ص ٢٣٣ رقم ٢ إلى التجارة فى غرة ذى الحجة ١٢٦٨ وراجع حقائق الأخبار ص ٢٦٢ جـ ٢

(٢) محفظة ١٢ (معية تركى) رقم ١١٧ من اسماعيل سليم فريق العساكر السعيدية . خازن الخديو ٢٧ رمضان سنة ١٢٧٢ .

(٣) محفظة ٤ (معيه تركى) رقم ٢٤ من أحمد كمال مدير المدارس الحربية إلى كاتب الديوان العالى فى ٦ المحرم سنة ١٢٧١ .

بأن ينشئ مدرسة لتكوين ضباط لأركان حرب الجيش . فأنشأها بالحوض المرصود فى أوائل سنة ١٢٧٢ هـ – ١٨٥٥ م . وألحق بها بعض أبناء كبار الموظفين والضباط . كما كان من بينهم تلاميذ بعض المدارس الملغاة كالمهندسخانة وكانوا يميزون بمرتب كبير وهو مائة قرش فى الشهر لكل طالب وقد ذكر على بك مبارك أن رفاعة بك رافع عيّن ناظراً ثانياً للمدرسة الحربية المذكورة تحت نظارة سليمان الفرنساوى .

ثم اتجه الرأى إلى أن يجعل من مدرسة سليمان باشا الفرنساوى بالحوض المرصود نواة لمدرسة جديدة تحتفظ من المدرسة الأولى بصفتها العسكرية على أن يتجه التعليم فيها وجهة مدنية بالإكثار من دراسة اللغات والأدبيات والرياضة إلى جانب التعليم العسكرى العام .

وقام سليمان باشا بالخطوات الأولى لإنشاء المدرسة فاختار لها تلامذتها المائتين وتتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والثانية عشرة . ومنهم تلامذة مدرسته القديمة وبعض المدارس الأخرى . حتى إذا أتم عمله التمس إحالته إلى المعاش وسلّم العمل إلى رفاعة بك فصدر الأمر الكريم بتعيينه ناظراً للمدرسة الحربية بالقلعة وبالموافقة على الترتيب الذى وضع لها .

المدرسة الحربية بالقلعة

وهكذا أنشئت المدرسة الحربية بالقلعة فى ذى القعدة ١٢٧٢ هـ – يوليو ١٨٥٦م . وجعلت تابعة لمحافظة القاهرة – والمحافظ إذ ذاك إبراهيم أدهم باشا . ووضع لإدارتها « ترتيب » من سبعة عشر مادة [1] .

---

(١) محفظة ١٠ (معية تركى) رقم ٧٠ من سليمان باشا رئيس رجال الجهادية إلى خازن الخديو فى ٩ جماد الأول ١٢٧٢ هـ .

ودفتر ١٨٨٥ (أوامر) ص ٩ رقم ١٥٣ . ودفتر ترتيبات ووظائف ص ٤٣٤ أمر كريم إلى محافظة مصر فى ١٣ ذى القعدة ١٢٧٢ .

فالمادتان الأولى والثانية تحددان تلاميذ المدرسة بمائتين وتتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . ويشترط فيهم معرفة القراءة والكتابة . ويدرسون فى السنتين الأولى والثانية العلوم المشتركة العسكرية والمدنية . ثم يختير الطلبة فى مبدأ السنة الثالثة تبعاً لميولهم فنهم من يختص بدراسة المواد العسكرية . ومنهم من يفضل أو يفضل له — الدراسة المدنية .

وذكرت المادة الثالثة مواد الدراسة ونصت المادة الرابعة على أن توزع هذه المواد على سنوات أربع قد تزاد سنة خامسة . ثم يلى ذلك المواد الخاصة بامتحان النقل من فرقة إلى آخرى وتوزيع الجوائز على الطلبة الممتازين . ومرتبات الطلبة . والملابس والكتب وأدوات الدراسة . وكلها على نفقة الحكومة وتنص المادة ١٤ على العقوبات التى توقع على الطلبة وتحرم قطعياً العقوبات المدنية .

وفى المادة السادسة عشرة أن يشكل مجلس للدراسة من ناظر المدرسة ووكيلها وأستاذ من كل من أساتذة اللغة العربية والتركية واللغات الأجنبية والرياضيات وأحد الضباط الذين يقومون على التعليم العسكرى على أن يتناوب أساتذة المدرسة عضوية المجلس كل ثلاثة أشهر حتى يتاح لهم جميعاً أن يأخذوا فى مداولاته بنصيب . أما اختصاص هذا المجلس فتداول الرأى فى كل ما يعود على المدرسة بالتقدم . وترفع قراراته إلى الوالى .

اختار رفاعة بك مدرسى مدرسته من بين مدرسى مدرستى الحوض المرصود « والمهندسخانة القديمة » . وكان رفاعة دائم الحدب عليهم والتوصية بهم .

أما تلامذته فقد نظمهم أنفاراً وضباط صف ورتبهم ثمانية فصول طبقاً لقدرتهم العقلية . يدرسون فى العام الأول من التحاقهم بها[1] ونظم مجلس المدرسة الدراسة على الفصول الثمانية فى العام الثانى من حياة المدرسة بما لايخرج عما تقدم . وبقيت اللغات الأجنبية تدرس بالفصول السبع الأخرى . وكان

(١) أمين باشا سامى — التعليم فى مصر — القسم الخامس ملحقات ص ٥١ ودفتر ١٨٩٨ (أوامر) ص ١٨٦ رقم ٥٥ أمر كريم إلى محافظة مصر فى ٢٠ جمادي الآخرة ١٢٧٨ وأيضا على مبارك — الخطط التوفيقية م ٤ ج ١٣ ص ٥٥ .

للغة الفرنسية النصيب الأوفى . فقد كانت تدرس فى خمسة فصول . والإنجليزية فى فصل . والألمانية فى آخر .

وكانت تستمر الدراسة عشرة أشهر كاملة لا يتخللها سوى عطلات قصيرة فى عيد الأضحى والمواسم الأخرى . وكان يعهد بامتحان التلاميذ إلى لجان تتكوّن من بعض النابهين المتصلين بالمدارس كعلى مبارك وعلى إبراهيم وغيرهما . ورأس لجنة الامتحان أحد الأعوام محمد شريف باشا ناظر ديوان الخارجية .

وأفلحت المدرسة فى (جذب خواطر الأهلين) فلبّت الحكومة حاجة الأهلين . ورفعت عدد التلامذة إلى ٣٠٠ وبَنَت لهم بعض حجرات جديدة بعد أن عدلت عما ارتآه رفاعة بك من نقل المدرسة من القلعة إلى مكان المهندسخانة القديمة ببولاق . ثم ألحقت بها عشرين من أبناء الأوربيين المقيمين بمصر . على أنه فى العام السابق لإلغائها ، أى فى سنة ١٨٦٠ ، صدر الأمر بعدم زيادة تلامذتها والاكتفاء بال ٢٤٣ تلميذاً الموجودين بها .

ويبدو أن سعيد باشا ارتاح لتقدم المدرسة وقدّر جهود ناظرها فأنعم عليه برتبة « المتمايز » بعد إنشاء المدرسة بثلاثة أعوام .

ظلت المدرسة تابعة لمحافظة مصر (لاتصال أدهم بالتعليم فى عهد محمد على وأوائل حكم عباس) . إلى أن وضع نظام جديد لاختصاصات الدواوين (فبراير ١٨٥٧) . ورؤى فيه أن تتبع مدرسة القلعة لديوان الجهادية .

ويبدو أنه كان لديوان الجهادية رأى جديد فى تنظيم المدرسة . فطلب إليه أن يضع ترتيباً جديداً للمدرسة وافق عليه الوالى فى يناير ١٨٥٨ ولم يمض على ذلك شهور أربعة حتى صدر الأمر بإلغاء ديوان الجهادية وإحالة المدرسة الحربية إلى ديوان الداخلية . وبعد عام وبعض عام أعيد ديوان الجهادية وعاد الوالى يتجه إليه فى الشئون الخاصة بالمدرسة حيناً وإلى محافظة مصر حيناً آخر .

ولم تكن ميزانية المدرسة ثابتة أو تتطور حسب الأحوال بل كانت

تختلف اختلافاً بيِّناً من عام لآخر .

وأخيراً ألغيت المدرسة فى أغسطس عام ١٨٦١ بعد أن عمّرت خمسة أعوام وشهرين .

البعثات العسكرية

أحيا محمد على باشا الجندية المصرية وأنشأها على أحدث النظم العسكرية التى اتبعتها الدول الأوربية الكبرى فى ذلك الوقت . وكان « سيف » يده اليمنى فى تحقيق مشروعاته العسكرية فأوجد للجيش مدارسه العالية والفنية والأولية وأسس مصانع الأسلحة والذخيرة وأقام المستشفيات العسكرية والمؤسسات التى لا غنى عنها لجيش ناهض . لكنه بعد ذلك أحس بأن كل هذا لا يفى بالغرض الذى يسعى إليه — وأن حاجة البلاد إلى الأجانب من مدرسين ومدربين لاتزال حيث كانت . ولما كانت نفسه العظيمة لا تريد أن تحتاج بلاده إلى شىء ما من الخارج . رأى أن يبعث البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم بمصر إلى أوربا ليتموا دراستهم بها فيمصر تعليم الجيش . وأخذ يرسل التلاميذ تباعا إلى مختلف الدول الأوربية لتكون منهم نواة لإحياء المجد العلمى لمصر الحديثة . وانتخب المسيو « جومار » Jomard رئيساً للبعثات المصرية بفرنسا وغيرها للاشراف على البعوث العلمية[1].

بعثة الجيش الأولى

كانت أولى البعثات التى أوفدها الوالى محمد على عام ١٨١٣ للتخصص فى الشئون الحربية . وسنذكر أسماء أعضائها والعلوم التى تخصصوا فيها ملخصاً لأعمالهم عقب عودتهم إلى مصر

(١) لخصنا هذا الفصل عن كتاب « البعثات العلمية » لسمو الأمير الجليل عمر طوسون

دويدار مصطفى مختار

أرسل لتعلم الإدراة الحربية وعاد إلى مصر فى أول اغسطس سنة ١٨٣٢ (؟) وعين مديراً لديوان الجهادية سنة ١٨٣٥ ثم مديراً لديوان المدارس سنة ١٨٣٦ وقد كان أول ناظر للمعارف فى مصر

محمد مظهر

أقام بباريس عشر سنوات وتخصص فى دراسة الرياضيات والهندسة فنبغ فيهما وبعودته إلى مصر عين ناظراً لمدرسة المدفعية بطره ونال « رتبة بكباشى » ومن أهم أعماله فنار الإسكندرية برأس التين (١).

أحمد يكن مصطفى القللى

أرسل لتعلم الإدارة الحربية وتعلم صناعة الذخيرة وقد عاد إلى مصر عام ١٨٢٢ ومعه مجموعة من الكتب العسكرية .

بعثة الجيش الثانية

كان عدد أعضاء البعثة العسكرية الثانية التى أوفدها محمد على باشا عام ١٨١٨ قليلا وأهم أفرادها عثمان نور الدين الذى تخصص فى إتقان الفنون الحربية وعاد إلى مصر عام ١٨٢٠ وترقى إلى أكبر المناصب العسكرية وهى « سر عسكر » ثم رئيساً للعمارة البحرية المصرية سنة ١٨٢٨ . وقد غضب عليه محمد على باشا بعد ما انتدبه لإخضاع ثورة كريت فهرب منها إلى الآستانة سنة ١٨٣٣ حيث توفى

بعثة الجيش الثالثة

كانت تغلب على تلك البعثة التى أوفدت إلى أوربا عام ١٨٢٦ الصبغة الصناعية العلمية ، وقد تخصص بعض طلبتها فى الإدارة الحربية وهم رشيد أباظة وسليمان الجركسى ، وأرسل لتعلم صب المدافع وصناعة الأسلحة طالبان هما أمين أفندى وأحمد حسن حنفى ، ولدراسة الهندسة الحربية أوفد ثلاثة من

(١) هناك رأى آخر يرى أن الأول والثانى كانا من أعضاء البعثه الثالثة

الطلبة الذين لم تكن تزيد أعمارهم عن الثامنة عشر وهم : محمد مظهر (الذى سبق ذكره) وسليمان الجبرى وعلى أفندى .

وأرسل طالبين لدراسة المدفعية وهما : عمر أفندى وسليمان لاز الطرابزونى .

بعثة الجيش الرابعة

كانت هذه أعظم بعثات الجيش وقد أوفدها محمد على باشا عام ١٨٤٤ إلى فرنسا . وبلغ عدد تلاميذها سبعين تلميذا انتخبوا من تلاميذ المدارس المصرية ومن بينهم بعض أنجاله وأحفاده . وقد انتخب من بين أفراد البعثة نفر من المعلمين فضلوا العودة إلى الدرس . كما اختار القائد سليمان باشا الفرنساوى تلاميذها من نوابغ الطلبة بالمدارس المصرية العالية .وأنشئت مدرسة خاصة عرفت باسم المدرسة المصرية الحربية بباريز لطلبة هذه البعثة الذين انتخبوا لتعلم الفنون الحربية وكانت تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسية وعين ناظراً لها الأميرالاى بوانسو « Poincot » فوضع لائحتها الداخلية وبرنامجها واشترك معه فيها المسيو جومار واسطفان أفندى مدير البعثة (١).

أما الغرض الرئيسى من إيفاد البعثة الرابعة فكان تخصص أعضائها فى العلوم الحربية وكان عددهم بادىء الأمر ٧٠ تلميذا ثم لحق بهم غيرهم .

وفى يناير سنة ١٨٤٦ صدر أمر من وزير الحربية الفرنسية بمنح عشرة من تلاميذها بعض الرتب العسكرية لتفوقهم على أقرانهم فى دراستهم وحسن سلوكهم ونذكر من هؤلاء الطلبة حماد عبد العاطى (باشجاويش) . الأمير أحمد بك (جاويش) على مبارك. على ابراهيم . محمد إسماعيل . كوجك حسين . مراد حلمى . حسين سليمان . محمد عارف . أحمد راسخ (أو مباشية) وسنذكر أسماء أعضاء تلك البعثة الذين تخصصوا فى العلوم العسكرية (٢).

---

(١) أنظر برنامج هذه المدرسة فى كتاب « البعثات العلمية » لسمو الأمير العالم عمر طوسون ص ١٧٥ — ٢٢٦

(٢) أعضاء هذه البعثة فى كتاب « البعثات العلمية » لسمو الأمير الجليل عمر طوسون ص ١٧٢ — ٣٧٤

أحمد حلمى بك

كان موظفا فى الحكومة والتحق بالبعثة وعاد إلى مصر فى نوفمبر سنة ١٨٤٩ وكان مترجماً عسكرياً ممتازاً وأهم الوظائف العسكرية التى شغلها وظيفة ناظر المدرسة الحربية بالقلعة السعيدية وذلك من ديسمبر سنة ١٨٥٨ إلى أغسطس سنة ١٨٦١

أحمد خيرالله بك

عاد إلى مصر فى عهد عباس باشا الأول وتولى عدة مناصب مدنية حتى وافاه الأجل

أحمد راسخ بك

تخصص فى أعمال القسم المدنى الذى افتتح فى المدرسة الحربية المصرية وعاد إلى مصر فى أواخر سنة ١٨٤٩ وعين فى الوظائف المدنية .

الأمير أحمد رفعت

أرسل مع أفراد هذه البعثة بعد تعلمه بالمكتب العالى بالخانقاه (أركان الحرب) وعاد إلى مصر فى ولاية عباس الأول ولما تولى سعيد باشا كان المترجم له ولى عهده لكنه توفى غرقاً فى حادثة كفر الزيات المشهورة وأصبح أخوه الأمير إسماعيل ولياً للعهد .

أحمد عجيلة البسكى (بك)

انتخب من بين تلاميذ مدرسة المهندسخانة للسفر إلى فرنسا . ومنح رتبة الملازم الثانى عقب تخرجه فى المدرسة الحربية المصرية والتحق بمدرسة سامور "Saumur" ثم انخرط فى سلك الجيش الفرنسى للتمرن على أعماله . وعاد إلى مصر فى ولاية إبراهيم باشا وخدم برتبة الملازم الأول فى الآلاى الأول للخيالة . ثم ألحق فى أوائل عهد سعيد وهو برتبة اليوزباشى بفرقة المهندسين الذين ندبوا لرسم قناة السويس . ونهض فيما بعد بأعمال فنية هامة.

وفى أوائل عهد إسماعيل أنعم عليه برتبة بكباشى وانضم إلى رجال الهندسة بديوان الأشغال العمومية واشترك معهم فى عدة أعمال تتعلق بالرى المصرى .

أحمد عبيد (بك)

سافر إلى فرنسا بعد إتمامه العلوم العسكرية فى المدارس الحربية المصرية وترقى إلى رتبة الأميرالاى وقد أرسله سمو الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٣ بين خمسة عشر ضابطاً من جميع الأسلحة إلى فرنسا لمشاهدة حصونها وحضور المناورات العسكرية بها فسافروا على السفينة المصرية «شير جهاد» بقيادة مصطفى بك العرب . وقد احتفل بهم ضباط فرنسا وأطلعوهم على كثير من الأعمال العسكرية ثم عادوا ومعهم جملة مؤلفات حربية ومجموعة من أنواع الأسلحة والملابس . وقد أمر سمو الخديوى بترجمة القوانين العسكرية وكان للمترجم له اليد الطولى فى هذا العمل ومن مؤلفاته :

كتاب تعليم البيادة ومناوراتها . كتاب تعليم الخيالة ومناوراتها وكتاب سيرة بطرس الأكبر وغيرها .

أحمد نجيب (باشا)

التحق بالمدرسة المصرية الحربية وقد بقى بفرنسا يتلقى العلم مدة طويلة بعد إلغاء المدرسة المصرية وأتم علومه فى عصر إسماعيل باشا وعينه فى وظيفة سامية وتوفى بعد مدة قصيرة

أسطفان وأرتين خشادور

أرمانيان أختيرا للسفر إلى فرنسا فى بعثة عام ١٨٤٤ فالتحقا بالمدرسة الحربية بباريز إلى عام ١٨٥٦ . ويرجح أنهما التحقا بوظائف مدنية عقب عودتهما .

(الخديوى) إسماعيل

تعلم فى المكتب العالى بالخانقاه ثم أرسل إلى النمسا ففرنسا فى بعثة ١٨٤٥ . وفى عام ١٨٤٦ التحق بالقسم المدنى وعاد إلى مصر فى عهد حكومة والده إبراهيم باشا وآل إليه الحكم فى ١٨ يناير عام ١٨٦٣ .

حسن أفلاطون (باشا)

تلقى علومه الأولى فى المكتب العالى بالخانقاه ودخل مدرسة المدفعية

بطره ثم انتخب للبعثة عام ١٨٤٤ وبعد تخرجه التحق بمدرسة متز للمدفعية ثم تدرّب فى الجيش الفرنسى وعاد إلى مصر فى عهد عباس الأول وعيّن بالمدفعية المصرية . وفى عهد سعيد باشا ارتقى إلى رتبة الأميرآلاى ، وعين رئيساً للمعامل الحربية بالحوض المرصود .

وفى أيام إسماعيل انتدب لفحص المهمات الحربية التى ابتاعتها مصر من إنجلترا وسافر إليها بوظيفة مفتش للمهمات الحربية وأنعم عليه برتبة اللواء (١٨٦٩) وعين وكيلاً لنظارة الحربية فى أيام الخديوى توفيق . وكان رئيساً للجنة التى ألفت عام ١٨٨١ لتعديل أنظمة وقوانين الجيش إرضاء للحزب العسكرى .

وعين المترجم له ناظراً للحربية عقب الحركة العرابية إلى أن أحيل إلى المعاش فى ٩ يناير ١٨٨٤ . وتوفى عام ١٩٠٥ .

حسين سليمان أفندى

تلقى علومه العسكرية فى مدرسة السوارى المصرية لما انتخب للبعثة وبعد تخرجه التحق بمدرسة التطبيقات الحربية وعاد إلى مصر فى عهد عباس باشا ثم وظف فى ديوان الجهادية فى ١٢ يناير سنة ١٨٥٢ .

الأمير حسين

تعلم فى المكتب العالى بالخانقاه ودخل مدرسة الفرسان المصرية ثم سافر مع أفراد البعثة إلى فرنسا وقد عاجلته المنية فى باريس فى أوائل سنة ١٨٤٧ .

الأمير محمد عبد الحليم (باشا)

تربّى فى المكتب العالى بالخانقاه قبل إرساله إلى فرنسا فى بعثة سنة ١٨٤٤ والتحق بالقسم المدنى بالمدرسة الحربية إلى أن التحق بمدرسة العلوم والفنون المختلفة ثم عاد إلى مصر فى آخر عهد حكومة أخيه الأكبر إبراهيم باشا وفى أيام حكم سعيد باشا عُيّن ناظراً للجهادية ثم حكمداراً عاما للسودان وقد أدركته الوفاة سنة ١٨٩٤ بالآستانة

حماد عبد المعطى باشا

كان يتلقى دروسه فى مدرسة المهندسخانة ببولاق عندما اختير للسفر إلى فرنسا . وفى أوائل عام ١٨٤٦ منح رتبة الباشجاويش لتفوقه على أقرانه . وفى السنة التالية دخل مدرسة متز الحربية للمدفعية والهندسة الحربية ثم عاد إلى مصر مع زملائه عام ١٨٤٩ فعيّن بفرقة المدفعية بطره وأنعم عليه برتبة اليوزباشى ثم رتبة الصاغ . وفى سنة ١٨٥٣ أنعم عليه برتبة الأميرالاى . وفى السنة التالية عين مديراً لمصنع المدفعية بالحوض المرصود . وكان يشرف على إعداد الحملة المصرية المرسلة إلى حرب القرم .

لكنه لم يلبث حتى وشى به بعضهم عند سعيد باشا فعزل من منصبه وجرد من رتبته إلى أن توسط له بعض الأمراء فعفى عنه وعين أركان حرب الوالىسعيد باشا وسافر معه إلى المدينة المنورة فالآستانة لتهنئةالسلطانعبدالعزيز بجلوسه على العرش . ورافقه فى زيارة الإمبراطور نابليون الثالث وأسندت إليه فيما بعد وظيفة مدرس بالمهندسخانة فالمدارس الحربية فى عهد إسماعيل

وفى أثناء الثورة العرابية ألفت لجنة للتحقيق فى مذبحة الإسكندرية وكان من بين أعضائها إلا أنه استعفى منها . وأدركته الوفاة فى شهر مارس سنة ١٩٠٤ . وقد نشرت له عدة مقالات فى جريدة أركان الحرب .

حنفى هند (بك)

اختير من مدرسة المدفعية المصرية للبعثة وانتخب لمدرسة أركان الحرب الفرنسية واستمر بها عامين ثم تخرج فيها للالتحاق بالجيش الفرنسى للتدرب فيه . وعاد إلى مصر فى أول حكم إسماعيل وقد عين فى هيئة أركان الحرب سليمان باشا سردار الجيس وظل فى خدمة الجيش إلى رتبة الأميرالاى .

خورشيد برتو (بك)

التحق بالمدرسة الحربية المصرية فى باريس وبعودته عين فى الجيش ثم نهض بمنصب وكيل محافظة مصوّع .

سعيد نصر باشا

هو نجل إمام البعثة الشيخ نصر أبو الوفا الهوريني . سافر إلى فرنسا ولم يتجاوز الثمانية سنوات والتحق بمدرسة سان لويس ثم سان سير الحربية إلى أن تخرج فيها ضابطاً والتحق بالجيش الفرنسي ونال فيه رتبة اليوزباشي ثم عاد إلى مصر فى نوفمبر سنة ١٨٦١ فعين فى وظيفة باشمعاون المدرسة الحربية بديوان الجهادية ثم شغل وظيفة التدريس بالمدرسة الحربية إلى عام ١٨٧٩ ثم ناظراً لقلم الترجمة بنظارة المالية برتبة القائمقام فسكرتيراً افرنجياً لمحافظة سواحل البحر الأحمر إلى سبتمبرسنة ١٨٨١ ثم عين بالمدارس الحربية مدرساً للفرنسية سنة ١٨٨١ فقاضياً بمحكمة مصر الابتدائية المختلطة ثم عين رئيس شرف المحاكم المختلطة فى ١٧ يناير سنة ١٩٠٣ ونال رتبة الباشوية .
وقد أدركته الوفاة وهو فى ذلك المنصب .

سليمان نجاتى (بك)

انتخب للبعثة من مدرسة الفرسان المصرية والتحق بمدرسة أركان الحرب الفرنسية برتبة الملازم الثانى ولما تخرج فيها دخل فى سلك الجيش الفرنسي وتمرن فيه عاما ثم عاد إلى مصر فى أوائل حكم عباس الأول وقد كان ناظراً للمدرسة الحربية بالإسكندرية فى عهد سعيد باشا . وفى عهد الخديو إسماعيل كان مأموراً لإدارة المدارس الحربية بالعباسية بعد نقلها من قصر النيل عام ١٨٦٧ .

وقد ألقى القبض عليه بعد إخماد الثورة العرابية إلى أن ظهرت براءته فعين قاضياً بالمحاكم المختلطة .

شافعى يعقوب رحمى (بك)

قضى أربع سنوات بمدرسة الهندسة قبل التحاقه بالبعثة . وانتخب لمدرسة الفرسان حيث قضى فيها عامين ثم تدرب بالجيش الفرنسى مدة . وقد منحه ملك فرنسا رتبة « كابتن » مع وسام جوق الشرف على أثر فوزه فى مناورة حربية . ولما عاد إلى مصر فى ولاية إبراهيم باشا التحق بالآلاى

الأول للخيالة الحرس . ثم أقصى عن عمله العسكرى وكلف بعمل اكتشافات فى الصحراء الشرقية من أسوان إلى السويس . وقدم تقريراً نفيساً بعد ذلك عين بعده معلماً للرياضة لضباط الآلاى الخامس للخيالة .

وفى عهد سعيد عين مهندساً لمساحة مديريتى بنى سويف والفيوم فى آخر ديسمبر عام ١٨٥٤ . وقد اشترك مع بعض المهندسين العسكريين فى عمل أبحاث شق قنال السويس برئاسة لينان بك الفرنسى .

وقام بعد ذلك بتصميم وتنفيذ عدة مشروعات للرى فى أنحاء القطر . ورسم شواطىء دمياط فى خريطة شاملة فلما بلغ خبرها الخديو إسماعيل أنعم عليه برتبة صاغ ومنحته شركة قنال السويس مكافأة طيبة لحاجتها الشديدة إلى عمله هذا .

وفى عام ١٨٦٨ عين مهندساً بديوان الأشغال وظل يتقلب فى المناصب الهندسية الكبيرة إلى أن عيّن محافظاً لرشيد فى أغسطس ١٨٧٩ وأدركته الوفاة فى ٢٦ ديسمبر عام ١٩٠٢ .

شحاته عيسى (بك)

كان بمدرسة الخيالة المصرية لما انتخب للسفر إلى فرنسا والتحق بمدرسة أركان الحرب الفرنسية ولما تخرج منها خدم فى الجيش الفرنسى للتمرن فيه . وبعودته إلى مصر التحق بخدمة الجيش وأخذ يترقى إلى رتبة الأميرالاى وفى أيام الخديوى إسماعيل لما طلب من الحكومة الفرنسية إرسال بعثة عسكرية لتنظيم التعليم الحربى أرسل إليه بعض الضباط الأكفاء . فعدلوا كثيراً من النظم المدرسية . وعين المترجم له ناظراً لمدرسة أركان الحرب .

صادق سليم شنن (بك)

عاد فى أيام سعيد باشا سنة ١٨٥٧ وتقلب فى مناصب الحكومة المصرية وكان آخرها نظارة مدرسة المهندسخانة (١٨٨٨)

عبد الرحمن محمد (بك)

هو ابن المرحوم محمد (بك) الذى كان حكمداراً للسودان فى سنة

١٨٢٤ ولم يتمم تعليمه فى المدرسة الحربية المصرية لمرضه وعودته إلى مصر حيث عاجلته المنية .

عبد الفتاح (بك)

لم يوفق فى التعليم فعاد إلى مصر فى ٨ أكتوبر ١٨٤٦

عثمان شريف (بك)

أحد أنجال الفريق السيد محمد الشريف باشا الكبير حاكم سوريا بعد الفتح المصرى وسافر ضمن أفراد البعثة ثم اتجهت رغبته للالتحاق بمدرسة الزراعة فى « جرينيون » وقد أصيب فى قواه العقلية

عثمان صبرى (باشا)

التحق بالمدرسة الحربية المصرية ودخل مدرسة أركان الحرب الفرنسية وبعد أن التحق بالجيش الفرنسى سنة للتمرن فيه عاد إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٨٤٩ وقد ترك الخدمة العسكرية والتحق فى الوظائف المدنية على أثر سقطة من جواد جامح .

عثمان نورى (بك)

كان موظفاً فى الحكومة المصرية قبل التحاقه بالبعثة . ولما انتهى تعليمه قصد الآستانة للالتحاق بأخيه الذى ترك خدمة مصر وآثر عليها الحكومة العثمانية وعين بالجيش التركى وكان من رجال أركان حربه وترقى إلى رتبة فريق . وفى يوليو ١٨٦٣ عين رئيساً لمجلس الدولة العسكرى .

على إبراهيم (باشا)

بعد انتهاء مدة تعليمه فى المدرسة الحربية المصرية التحق بمدرسة « متز » للمدفعية والهندسية الحربية . ومنح رتبة الملازم الثانى فأقام بها سنتين ثم تخرج منها وانتظم فى سلك الجيش الفرنسى لمدة عام . وعين بمعية الوالى عباس الأول برتبة اليوزباشى وظل يترقى حتى وصل إلى رتبة البكباشى فعينه الوالى أستاذاً لنجله الأمير الهامى وكوفىء بعد ذلك برتبة القائمقام ثم الأميرالاى . وعين

معاونا أولا بنظارة الجهادية ثم استقال منها وعاد إلى الخدمة بعد ذلك فى ولاية سعيد باشا .

ولما تولى الحكم الخديو إسماعيل عين المترجم له ناظراً للمدرسة التجهيزية وظل يتنقل بين المناصب فكان مأموراً لمصلحة تنظيم (أورناتو) القاهرة ونفذ مشروعاته العمرانية الكثيرة .

وفى عهد توفيق باشا عين ناظراً للمعارف وله اليد الطولى فى نشر التعليم المصرى فى أنحاء البلا د . ثم عين فى سنة ١٨٨٢ ناظراً للحقانية ولما اشتعلت نيران الثورة العرابية استعفى من منصبه وانصرف إلى الدرس إلى أن أدركته الوفاة فى أواخر سنة ١٨٩٩ .

على شريف (باشا)

تعلم فى المكتب العالى بمصر ثم أدخله والديه مع أخوه فى مدرسة خصوصية بباريس ثم خرج منها للالتحاق بالمدرسة الحربية المصرية هناك ولما عاد إلى مصر عين ضابطاً بأركان حرب السردار سليمان الفرنساوى . وبعد وفاته عين المترجم له قائداً فى الجيش فى أيام حكم سعيد باشا ثم اعتزل الخدمة للاشتغال فى الأعمال الخاصة . وقد اختير عام ١٨٨٤ رئيساً لمجلس شورى القوانين والجمعية العمومية .

على فهمى (باشا)

بعد إتمام دراسته عاد إلى مصر ملتحقا بخدمة الحكومة .

على مبارك (باشا)

كان بمدرسة المهندسخانة لما انتخب للسفر فى بعثة عام ١٨٤٤ إلى فرنسا فالتحق بالمدرسة الحربية المصرية . ثم دخل مدرسة متز للمدفعية والهندسة الحربية برتبة الملازم الثانى فمكث بها عامين ثم تخرج منها للتمرين فى الجيش الفرنسى .

وعاد إلى مصر عام ١٨٤٩ فعين أستاذاً بمدرسة طرة للمدفعية وهو برتبة اليوزباشى . وفى عهد عباس الأول أحيلت إليه أعمال المدارس فأدخل

عليها جملة إصلاحات رشيدة . ولما تولى سعيد باشا عام ١٨٥٤ فصل عن وظيفته لكنه أعيد إليها عام ١٨٥٥ لما اشترك فى حملة الجيش المصرى التى سافرت لمحاربة روسيا مع الجيوش العثمانية فى حرب القرم . ولما عاد فصل ثانية من الخدمة وعين معاونا بديوان الجهادية . واستمر بين الفصل والتعيين إلى أن تولى إسماعيل باشا الحكم (١٨٦٣) فألحقه بمعيته زمناً ثم عين لنظارة القناطر الخيرية ، وظل يتنقل بين المناصب الفنية الكبيرة والتعليم والسكك الحديدية إلى أن انتخب عام ١٨٧٧ لإدارة الأوقاف والمعارف فى نظارة نوبار باشا . وفى نظارة رياض باشا عام ١٨٧٩ أسندت إليه نظارة الأشغال العمومية فأحدث عدة نظم جديدة بمدن القطر ، أهمها القاهرة والاسكندرية وقد جدد مستشفى قصر العينى ومدرسة الطب . وفى أيامه وصلت المياه إلى حلوان .

وفى سنة ١٨٨٢ كان ضمن نظارة شريف باشا . وفى عام ١٨٨٨ انضم لنظارة رياض باشا ، وظل بها حتى استعفى فى مايو ١٨٩١ وبقى معتزلا الخدمة حتى أدركته الوفاة فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٣

وكانت وفاة على مبارك باشا خسارة لا تعوّض فقد كان من الرجال العاملين الذين يندر وجود أمثالهم — وقد قال عنه سمو الأمير عمر طوسون : « إنه يكاد يكون فى نظرنا أعظم رجال هذه البعثة علماً وعملا وآثاراً بل يكاد يكون أعظم رجال عصره فى مصر »

محمد إسماعيل الطوبجى

بعد إتمام تعليمه فى المدرسة الحربية خدم فى الجيش الفرنسى ثم عاد إلى مصر وعين أستاذاً بمدرسة المدفعية من ٧ يوليو عام ١٨٤٧

محمد خفاجة (بك)

كان بمدرسة المهندسخانة لما انتخب للبعثة والتحق بمدارس التطبيقات الحربية وذلك فى عام ١٨٧٥ وقد أحيل إلى المعاش عقب الثورة العرابية .

محمد راشد (باشا)

اختير لابعثة عام ١٨٤٤ ليكون برفقة الأمير حليم . ولم يعمل فى مناصب

الحكومة المصرية لكنه تقلّب فى عدة وظائف لحكومة الدولة العثمانية فكان وزيراً للأشغال ثم سفيراً فى فيّنا ثم وزيراً للخارجية مرتين ثانيتهما فى عام ١٨٧٥

محمد شريف (باشا)

كان يتعلّم فى المكتب العالى بالخانقاه عندما انتخب للبعثة المصرية ثم التحق بمدرسة أركان الحرب الفرنسية فظل بها عامين ثم انتظم فى سلك الجيش الفرنسى للتمرن فيه وعاد فى عهد عباس الأول فعيّن أركان حرب سليمان باشا الفرنساوى وتزوج من ابنته

وفى عهد سعيد باشا عيّن قائداً بفرقة الحرس وما زال يترقى فى السلك العسكرى حتى وصل فيه إلى رتبة اللواء ثم عيّن مديراً لديوان الخارجية فى يناير عام ١٨٥٨ وبقى فى هذا المنصب إلى ٩ يناير سنة ١٨٦١ وفى عهد إسماعيل باشا عيّن رئيساً لمجلس الأحكام ثم عيّن فى ديوانى الداخلية والخارجية وظل فيهما إلى عام ١٨٦٦ . وفى العام التالى كان نائباً عن الخديو أثناء تغيبه فى أوربا واستمر يتلقّد أعظم مناصب الدولة إلى ديسمبر ١٨٨٣ لما قدّم استقالته من رئاسة النظارة احتجاجاً على إشارة الحكومة الإنجليزية على مصر بالتخلى عن السودان .

وقد كان من أعظم رجالات مصر علما وإدارة وسياسة .

محمد صادق (باشا)

بعد إتمام دراسته والتحاقه بمدارس التطبيقات الحربية عاد إلى مصر فى عهد سعيد باشا . وقد رافقه فى زيارة المدينة المنورة وألّف كتابا عن هذه الرحلة طبع بمطبعة عموم أركان الحرب . ثم عيّن ضمن ضباط هيئة أركان الحرب فى عهد حكومة الخديو إسماعيل وفى عهد الخديو توفيق عيّن أمينا لصرة المحمل فوضع كتابا اسمه « مشغل المحمل » ثم أتبعه بكتاب آخر فى نفس الموضوع . وفى هذه الرحلات أخذ كثيراً من صور المشاهد والبلاد بآلة للتصوير الشمسى وعيّن عضواً فى الجمعية الجغرافية . وقد توفى عام ١٩٠٢

محمد عارف (باشا)

كان موظفاً قبل سفره للبعثة . ولما أتمّ علومه عاد إلى مصر فى ١٨ مارس ١٨٥٥ وتقلّب فى عدة وظائف ثم اختير عضواً بمجلس الأحكام فى عهد الخديو اسماعيل

وكان شغوفاً بالأدب ذا ميل خاص للبحث عن الكتب واقتنائها ونشرها . وقد أنشأ فى مصر جمعية أسماها جمعية المعارف لنشر الكتب النافعة وأنشأ لهذه الغاية مطبعة سنة ١٨٦٨ أسماها مطبعة المعارف . وكانت الجمعية فى وقت من الأوقات تحت رعاية ولى العهد توفيق باشا . وما زالت تلك الجمعية جادة حتى اتهم رئيسها المترجم له بترويج الدعاية فى مصر لإحلال الأمير حليم محل الخديو اسماعيل فخاف عاقبة اتهامه وفر إلى الآستانة حيث توفى

مراد حلمى (باشا)

كان بمدرسة المدفعية المصرية عندما انتخب للبعثة . التحق بمدرسة متز المذكورة سابقا وتخرج فيها ثم تدرب فى الجيش الفرنسى وعاد إلى مصر فى عهد عباس الأول فعيّن ضابطا بأركان حرب سليمان باشا الفرنساوى.

وفى عهد سعيد باشا عيّن قائداً لإحدى وحدات الجيش وما زال يترقى حتى أحرز رتبة اللواء ثم خرج من السلك العسكرى وعين مديرا للفيوم فى عهد الخديو اسماعيل

وفى عام ١٨٧٩ عيّن ناظراً . وتوفى عام ١٨٨٥ وكان رئيساً لمحكمة الاستئناف المختلطة .

ولى حلمى (بك)

بعد تخرجه فى المدرسة الحربية التحق بمدرسة جرانوى ثم عاد إلى مصر وتوظف فى الوظائف المدنية [١] .

وإلى غير هؤلاء كثيرون لم يبرزوا فى خدمة الجيش

---

(١) المترجم له هو والد صاحب المعالى المرحوم جعفر ولى باشا من وزراء الحربية السابقين

مراجع الفصل

المحفوظات التاريخية بقصر عابدين العامر

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على

الدكتور الطبيب كلوت بك
لمحة عامة إلى مصر

حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون
البعثات العلمية فى عهد محمد على

القائمقام عبد الرحمن زكى
الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير

الدكتور محمد فؤاد شكرى وزميلاه
بناء دولة

Guemard
Le Reforme en Egypte

الفصل التاسع

الجيش بعد عام ١٨٣١

ليس ثمة أمة مهما يكن استعدادها لمواجهة الحرب عند نشوبها لا تجد نفسها مضطرة إلى تعديل أنظمتها العسكرية واستكمالها إذا طال أمد القتال . ولعل مصر محمد على من أكبر الشواهد على صدق هذا القول [1] فقد كان على الباشا أن يخوض غمار الحرب تلو الأخرى قبل أن تتكوّن لديه آلة قتال كاملة الأهبة . إذ أن ذلك لم يتيسر له قبل عام ١٨٢٨ . ولم يكد محمد على يستكمل استعداده العسكرى ، حتى اشتعلت حرب الشام الأولى والثانية ، مع ما تخللهما من عمليات عسكرية لإخماد الثورات فى بلاد العرب وكريت والسودان بل وفى أرض الشام نفسها ولهذا لم يكن ثم مناص من أن يحدث فى تلك الأثناء ، بين عامى ١٨٢٨ و ١٨٤٠ ، تعديل فى النظام الجديد .

وكان استقدام الباشا طائفة إثر طائفة من الضباط والمدربين الأوربيين خطوة فى سبيل هذا التعديل ، غير أنه سار خطوة أخرى فعنى بديوان الجهادية . إذ كان الناظر الثانى لهذا الديوان بعد محمد بك لاظ أوغلى ، هو محمود بك عزت الأرنؤطى ، المعروف باسم محمود بك . « بقاليم » أو سوف ننظر . وظل الديوان فى عهده يغط فى نوم عميق حتى رأى الباشا إيقاظه أيام بعثة « بوابيه » فشكّل فى عام ١٨٢٥ مجلس الجهادية برياسة عثمان نور الدين ، وكان من أعضائه « بوابيه » نفسه، ثم انتهى الأمر بعزل عزت بك وقرّ رأى الباشا على تعيين أحمد يكن باشا حاكم الحجاز ، فأظهر كفاية إدارية فائقة ، ولكن الباشا لم يكن ليستغنى عن خدمات ابن أخته فى الأقطار الحجازية فعيّن مكانه

---

(١) General Weygand. Vol 1. page 214
ونقله إلى العربية الدكتور محمد فؤاد شكري ــ بناء دولة

خورشيد باشا ، وظل الرجلان (أحمد باشا — وخورشيد باشا) يتناوبان نظارة الديوان طوال الأعوام التالية ولكن الديوان على الرغم من كفاية هذين الناظرين ظل كما كان فى أول عهده ، بمثابة « سكرتارية » تعج بالكتبة ، أكثر منه أى شىء آخر . ولم يفت الباشا أن يعنى بهيئة أركان حرب الجيش فإنه عهد فى عام ١٨٣١ إلى عثمان نور الدين ، فاستبدل به فى رياسة هيئة أركان الحرب ، سليمان بك الفرنساوى ، الذى رقى فى عام ١٨٣٣ إلى رتبة « ميرمران » ثم أنعم عليه بالباشوية بعد انتصار قونية وفى السنوات التالية زاد عدد المشاة زيادة عظيمة ، بسبب الحاجة إليهم فى سنار وكردفان وبلاد العرب والشام ، وبسبب ما كان بين الباشا والسلطان من نضال شديد وعداء مستحكم الحلقات فبينما كان عدد الآلايات فى عام ١٨٢٨ إثنى عشر ، ارتفع إلى ثمانية عشر (منها آلاى للحرس) فى عام ١٨٣١ وإلى اثنين وعشرين آلايا (منها اثنان للحرس) فى عام ١٨٣٣ وإلى واحد وثلاثين آلايا (منها ثلاثة للحرس) ثم إلى أربعين آلايا (منها أربعة للحرس) فى عام ١٨٤٠ ، وكان عدد الاورط يختلف فى هذه الآلايات وكان الآلاى الواحد يتألف من ثلاث « أورط » على الأقل (وتتألف « الأورطة » الواحدة من ثمانمائة جندى) وفى مايو ١٨٢٥ أنشأ الباشا فى معسكر الخانقاه فرقة موسيقية من فرنسيين وأسبانيين وألمان يعزفون على آلات أوربية ، وقد أثار وجود هذه الفرقة من السخط فى أول الأمر ما أثاره استخدام الأطباء البشريين والبيطريين من جرّاء الميل إلى معارضة كل ما هو جديد وعدم استساغة الأنغام الأوربية ، ومع ذلك فقد أخذت وطأة هذه المعارضة تخف رويدا رويدا ، وبدأ كبار رجال الجيش يألفون الموسيقى ، وأصبح لأكثر الآلايات فرق موسيقية خاصة بها وأسست فى الخانقاه مدرسة للموسيقى تضم ثلاثين ومائة تلميذ ، وكان يشرف على إدارة هذه المدرسة فى عام ١٨٣٨ الفرنسى « كاريه » Carré يعاونه أربعة من المعلمين .

وفى هذه المدة نفسها لم تنقطع عناية الباشا بالمدفعية التى بدأ تنظيمها أيام البعثة الفرنسية العسكرية على أيدى الضابط « راى » Rey الذى أصر

على اخراج الإيطالى « فرانجينى » Frangini من ترسانة القلعة فى عام ١٨٢٥ ، وقد تقدم كيف أن « راى » اضطر إلى العودة بعد قليل إلى فرنسا ، فخلفه فى الإشراف على صنع المدافع والأسلحة بالقلعة المهندس الإيطالى « بوريانى » Boreani وعيَّن الباشا لإدارة ترسانة القلعة حسين بك وكان تعيين هذا الشاب مثار الدهشة والسخط لدى كبار السن من الترك ثم عهد بالإشراف على تلك المصانع إلى أدهم بك ، أحد المتخرجين فى مدرسة الهندسة بالآستانة ، وقد أثنى عليه « مارمون » عند زيارته هذه البلاد فى عام ١٨٣٤ ثناء عظيما ، إذ تقدّمت الأعمال تحت إشرافه تقدماً ملحوظا فقد بلغ عدد العمال المشتغلين فى صب المدافع خمسمائة وألف عامل ، وفى صنع الأسلحة تسعمائة وكان الأولون ينتجون فى الشهر الواحد ثلاثة مدافع أو أربعة هذا عدا مدافع « الهاون » وغيرها ، أما الآخرون فكان انتاجهم من البنادق فى الشهر الواحد بين ٦٠٠ و ٦٥٠ ، عدا الأزناد والسيوف والحراب والسرج واللجم . وفى عام ١٨٣١ أنشىء مصنع فى الحوض المرصود « تحت اشراف ايطالى » من جنوه يدعى « مارنجو » Marengo اشتهر باسم على أفندى وكان يشتغل بهذا المصنع حوالى مائتين وألف من العمال ، يصنعون البنادق ويصلحون الأسلحة القديمة المستعملة فى التدريب ، وحوالى عام ١٨٢٧ أنشىء مصنع للدباغة ، تحت إشراف « روسى » Rossi اليونانى وبعض الصناع الفرنسيين ليمد الترسانة بما يلزمها من الجلود ، ولكن هذا المصنع لم يعش طويلا فلم يلبث أن صدر الأمر بإغلاقه وصارت الجلود المطلوبة تستورد من مرسيليا وقد أعيد إنشاء معمل البارود القديم فى الروضة وكان به من الصناع تسعون ، يشرف عليهم الفرنسى « مارتل » كما كان به عشرون طاحونة تديرها البغال ، أما انتاجه فبلغ خمسة وثلاثين قنطاراً من البارود فى اليوم الواحد .

على أن جهود الباشا فى تنظيم المدفعية لم تقف عند هذا الحد فقد استخدم ضابطاً أسبانياً قديماً هو الكولونيل « سيجويرا » seguera ليكون مستشاراً له فى هذه . وقد أقنع « سيجويرا » إبراهيم بضرورة إعداد الضباط قبل

تعليم الجنود ، فأسست مدرسة للمدفعية (بطرة) فى أواسط ١٨٣١ ، وكان بها عند تأسيسها ثلاثمائة تلميذ ، وقع عليهم الاختيار من بين تلاميذ مدرسة القصر العينى التجهيزية التى أنشأها الباشا فى عام ١٨٢٥ غير أن الانقسام لم يلبث أن أخذ يدب بين « سيجويرا » ومساعديه من الضباط الفرنسيين إذ كان يسوءهم أن يحل أسبانى محل مواطنهم « راى » فوجهوا إليه مختلف المطاعن ، وحاولوا النيل من كفايته ورأى « سيجويرا » أن يرد تحيتهم بأحسن منها فصار يظهر إعجابه بالإنجليز ويؤثر استعمال لغتهم وأتباع أساليبهم . ولما طال الأخذ والرد ، وكَثُر الجذب والشد ، لم يكن غريبا أن تتصرم حبال الود ، بين الضابط الأسبانى وسليمان الفرنساوى ، ولكن على الرغم من تفاقم هذا الخلاف تقدمت المدفعية تقدما ظاهرا ، حتى أصبحت من أقوى أسلحة « النظام الجديد » التى استعان بها إبراهيم فى حروب الشام ، وقد أعجب محمد على بما شاهده فى مدرسة المدفعية فرقى « سيجويرا » إلى رتبة البكوية ، ولكن «سيجويرا بك » لم يلبث أن اختلف مع الباشا نفسه إذ رفض التعاون مع المجلس العام الذى شكّله محمد على فى يناير ١٨٣٦ للنظر فى تنظيم المدارس ، فعزله الباشا وعيّن مكانه « مصطفى بهجت » ومن بعده « خليل أفندى» ثم الضابط الفرنسى « برونو » Brunhaut وقد ظل رئيساً للمدرسة حتى أواخر عهد محمد على ، ولكن لا شك فى أن المدرسة تدهورت بعد « سيجويرا » .

وإلى جانب تنظيم المدفعية ظهرت الحاجة إلى إعداد مهندسين عسكريين فنيين بدلاً من فرق « البلطه جية » الذين تعتمد عليهم آلايات المشاة فى إقامة الجسور وبث الألغام وما إلى ذلك ، وقد ذكر « فاڤييه » Faviers أنه شاهد فى الإسكندرية وأثر النبى ، عندما زار مصر فى عام ١٨٣١ « أورطتين » من المهندسين العسكريين وعددهم مائتان وألف ، ولكنهم كانو يقومون بأعمال الشرطة والحراس ومع أنه كانت هناك مدرسة للهندسة منذ عام ١٨١٦ ، فقد أسست « المهندسخانة » فى بولاق فى مايو ١٨٣٤ ، غير أن الخريجين لم يكونوا فى البداية على درجة كافية من المهارة ، حتى أن فريقاً كبيراً من الذين

أرسلهم الباشا إلى الأقاليم فى عام ١٨٣٦ للإشراف على حفر الترع وغير ذلك لم يظهروا كفاية تذكر ، مما دعا الباشا إلى الاستغناء عنهم ، أما الجيش فقد ظل من غير ضباط مهندسين أو جنود مختصين فى بناء الاستحكامات وإنشاء الجسور وما إليها مدة طويلة .

الخدمة الطبية

وكذلك استمرت العناية بالخدمة الصحية المدنية والعسكرية تحت إشراف « أنطوان كلوت » [Clot Bey] وقد حدد عدد التلاميذ الذين يدرسون الطب والصيدلة بنسبة طبيب لكل ثلاثة آلاف من السكان وصيدلى لكل عشرة آلاف واستطاع كلوت بك أن يعد خمسمائة وألف طبيب ، كما انجز ترجمة ١٥٢ مؤلفاً من مختلف اللغات الاوروبية الى التركية وقد انعم عليه الباشا فى عام ١٨٣٣ برتبة البيكوية تقديرا لخدماته ورقاه بعد ثلاثة أعوام إلى رتبة « ميرلوا » ، لما بذله من جهود فى مكافحة وباء الطاعون . وفى إبريل ١٨٣٧ انقلبت مدرسة الطب ومدرسة الصيدلة إلى القصر العينى وظل كلوت بك حتى وفاة الباشا يشرف على مدرسة الطب رغم اضطلاعه بأعمال أخرى .

وكان من أثر العناية بالجيش فى شتى النواحى ، أن ارتفع عدده من ٢٤٫٠٠٠ فى عام ١٨٢٤ إلى ٤١٫٠٠٠ فى عام ١٨٢٥ و ٨٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٣٣ و ١٥٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٣٩ هذا عدا القوة غير النظامية التى زاد عددها من ١٢٫٠٠٠ فى عام ١٨٢٨ ، إلى ٢٢٫٠٠٠ فى عام ١٨٣٩ ومما قاله الجنرال « فيجان » فى وصف حالة الجيش المصرى : كانت الفرق فى حالة جيدة ، ولو أن مظهرها لم يكن ليروق أولئك الأوربيين الذين ألفوا رؤية الجندى الفرنسى أو الألمانى بمظهره الفخم وهو متقلد سلاحه ، غير أن أهم شىء فى الواقع هو أن الجيش كان يجيد القتال ، ولهذا أحرز كثيرا من الانتصارات وصمد فى وجه الهزائم دون أن تفتر همته أو تلين له قناة . ويجب إلا يغيب عن بالنا أنه مما يشرف هذا الجيش ؛ أن حكومة شارل العاشر فكرت فى الاستعانة به

حين أعدت حملتها على بلاد الجزائر ، غير أن جنود ذلك الجيش لم يعملوا على بلوغ ذلك المستوى الذى كان فى استطاعتهم أن يبلغوه ، فقد كتب الملازم « فافييه » Faviers فى عام ١٨٣١ ، أن الضابط التركى قد وقر فى نفسه ، أنه إذا جاشت فى صدره أقل رغبة فى الاستزادة من المعرفة ، فكأنه خالف شريعة أو نقض عهدا . وكثيرا ما شوهد بعض ضباط المشاة ، وهم يأبون فى تشبث وعناد أن يسيروا فى خطوات منتظمة ، بل يسيرون على هواهم كأنهم فى نزهة على رأس الكتائب والصفوف ، وقال الكابتن « دى بورفوردوتبول » فى عام ١٨٣٥ «أن عناصر هذا الجيش طيبة جدا ولكن يعوزها القواد وكبار الضباط المثقفين أما صغار الضباط فلايكادون يعرفون شيئا وصفوة القول ـ على ما يراه الجنرال « فيجان » أن الرئيس لم يقدر الجندى » المرءوس ولم يشعر بحب نحوه أو يحفل بأمره وكان الرئيس يتبع المرءوس بدلا من أن يتقدمه ويكون له فى كل زمان ومكان قدوة حسنة ومثالا يحتذى وهذه إحدى نواحى الضعف التى يجب الكشف عنها ، لأن من المتوقع — إذا ما انتهى أمر أولئك الذين بعثوا الجيش وأقاموه — أن تصبح من العوامل التى تعرض جهودهم الجبارة للضياع فى النهاية .

ومهما يكن من أمر هذا القول ، ومبلغه من الصحة ، واتفاقه فى بعض نواحيه مع ما ذهب إليه الجنرال « دمبنسكى » عندما انتقد الجيش المنتصر فى الشام ، ذلك الجيش الذى كان يسير حثيثا فى طريق المجد والشهرة ، فقد أبلى « النظام الجديد » بلاء حسنا فى جميع المعارك التى اشترك فيها ، شهد بذلك جميع المعاصرين ، ومنهم أولئك النقاد الذين كانت تحدوهم الرغبة فى أن يصل جيش مصر إلى درجة الكمال التى ينشدها الباشا نفسه .

مصانع السلاح

لا ينبغى أن يغرب على البال أن الجيش لا يعتمد بأى حال من الأحوال على قوة الضباط والجند وحسب . بل هناك الأسلحة التى لا تستورد وإنما

تصنع فى قلب البلاد . بل إن أية أمة تعتمد على معونة الخارج لا تستطيع — مهما استطال الزمن — أن تقف على قدمين ثابتتين فى ساحة الأمم القوية المستقلة — ومثل هذه الحقيقة كانت ماثلة قبالة عينى محمد على منذ الساعة الأولى التى ولى فيها حكم وادى النيل . ففى قلعة القاهرة استهل تنظيم دار الصناعة — وأخذ محمد أفندى الودنلى الطبال[1] المهندس التركى وناظر مهمات الباشا على عاتقه تنفيذ مآرب الباشا . بهمة لا تعرف الكلل . كان ذلك فى الأعوام الأولى من ولاية محمد على . وكانت منزلته عند الباشا تسمح له بمقابلته بدون استئذان فحمل ذلك على سعى الكتخدا عند الباشا بفصله من جميع وظائفه . فرغب فى السفر إلى بلاد الروم فأذن له . وهنالك سعى الكتخدا فى الوشاية عليه عند محمد على وأبلغه أن سفره لم يكن لبلده وإنما قَصْده السفر إلى استامبول ليجتمع برئيس الدونما . فكتب الباشا إلى خليل بك حاكم إسكندرية بقتله عند وصوله إليها ووصل الأمر إلى خليل بك فدعاه لتناول الغذاء معه فى رأس التين . ولما خرج الودنلى من السفينة التف به رجال الحاكم وضربوا عليه الرصاص حتى قتلوه . وكان قتله فى عام ١٨١٢ .

وفى عام ١٨١٧ أهدى جونو المهندس الميكانيكى الفرنسى إلى دار الصناعة مثقبا وأفرانا لصهر الحديد . استخدمها صناع السلاح الألبانيين الذين مهروا فى عمل الصلب الجيد لمواسير البنادق . وقد قام جويلمان الفرنسى بإدارة دار الصناعة الآنفة الذكر .

وقد اتسعت أرجاءها هذه الدار وشغلت أقسامها جزءا عظيما من القلعة امتد من قصر قلاون الى باب الانكشارية المطل على ميدان الرميلة . وقد ازدهرت عندما اضطلع بإدارتها فيما بعد أدهم بك قائد المدفعية وبلغ عدد عمالها ألف وخمسمائة عامل .

(١) قدم مصر مع الصدر الأعظم يوسف باشا وولاه خسرو باشا كشوفية أسيوط . وفى ولاية محمد على باشا جعله ناظراً على المهمات . فتقيد بعمل الخيام والسروج ولوازم الحرب وإنشاء الصنائع والمهمات الحربية كسبك المدافع والجلل والقنابر والمكاحل والعربات . وقد عمر مسجدا بجوار تلك المصانع التى أنشأها على نفقته ومكتبا لتعليم الأطفال . وكان كريماً جواداً يرسل فى كل ليلة من ليالى رمضان عدة قصاع مملوءة بالثريد واللحم إلى الفقراء بالجامع الأزهر . وعمر المجراة التى توصل مياه النيل من السواقى للقلعة بعد ما خربت .

مصنع البنادق فى الحوض المرصود

تأسس هذا المصنع عقب تأسيس مصانع القلعة . وفى حوالى آخر عام ١٨٣١ شرع فى جمع العمال له . وأعد للعمل . وقد كان قبل هذا التاريخ فيه أنوال للنسيج .

معمل البنادق

تأسس هذا المعمل عقب تأسيس معامل القلعة . وفى حوالى آخر سنة ١٨٣١ م شرع فى جمع العمال له وأعد للعمل وقد كان قبل هذا التاريخ فيه أنوال للنسيج .

وألقيت عهدة النظام فيه على عاتق مسيو مارنجو المولود فى مدينة جنوا والمعروف منذ بضع سنين باسم «على أفندى» والذى اكتسب معلومات وتجارب قيمة فى أثناء خدمته بمعامل القلعة تحت إمرة القائد أدهم بك . فاشتغل بهمة وثبات وتخرج على يديه صناع ماهرون فى أنواع صنعة البنادق من جميع الأحجام . وبلغت طوائف العمال فى هذا المعمل ألفا ومائتى شخص ما بين عامل ورئيس عمال وصبي . وهم يصنعون فى الشهر نحو التسعمائة بندقية منها ثلثمائة إنجليزية دون مواسيرها . والبنادق المصنوعة فى هذا المعمل للمشاة النظاميين والفرسان ورجال المدفعية على نفس النموذج المستعمل فى الجيش الفرنسى . ومتوسط ما تتكلفه البندقية مائة وأربعون قرشا . وكان يزيد هذا الثمن بضعة قروش عما تتكلفه البندقية المصنوعة فى دار صناعة القلعة .

وقد جرى العمل على إجراء تجربة للمدافع فى كل أسبوع عند ما يكون الحديد المصنوعة منه من نوع غير جيّد شبيه بما يستعمل الآن فتكون

(١) لقد سأل الماريشال مارمون لماذا هذه البنادق تساوى من الثمن ٢٨ قرشا زيادة عن مثلها التى تصنع فى القلعة . فأجيب على ذلك بأن نوع الحديد والفحم والعمال الأكثر عددا فى المصنع الأول عن عددهم فى الثانى كان كل ذلك السبب فى إيجاد هذا الفرق

النتيجة أن يلقى خمس عدد هذه المدافع ويترك فى زوايا الإهمال لأنه لم يحتمل التجربة . وإذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله فى هذا العمل الخطير لا تتجاوز الكمية الملقاة منه السدس .

أما البنادق فكانت تصنع صنعا جيدا على العموم . ولأجل معرفة عيوبها بدقة يجب أن يكون الإنسان ذا دراية تامة بكل ما يتعلق بصناعة هذه الأسلحة . والعيوب تأتى من نوع الحديد وليست من عدم مهارة العامل على الأرجح .

دار الصناعة بالقاهرة

قال الكابتن رتشفورت سكوت « Rochfort Scott » فى كتابه « جولات فى مصر وكندية » ج ١ من ص ١٦٤ إلى ص ١٦٩ ما ترجمته :

تقع دار الصناعة بأسفل أسوار القلعة رأسا فى الطريق الهابط منها إلى المدينة . وتوجد فيها مسابك المدافع المصنوعة من النحاس والمصنوعة من الحديد كما توجد فيها مصانع الأسلحة الصغيرة وورش المعدات الحربية على أنواعها . والدار وإن كانت تنقصها عدة تحسينات فهى فى الجملة أحسن منشئات مصر .

ولعل أقل الفروع عيوبا هو مسبك المدافع الحديدية . ولا تختلف عملية السبك فيه عن العملية المتبعة فى المسابك الإنجليزية إلا فى قليل . ومما يسترعى النظر جودة ما صنع فيه من المدافع الصغيرة وإن كانت لم تبلغ من الصقل ما بلغته المدافع المصنوعة فى أكثر المسابك الأوربية . وهذا النقص مشاهد فى جميع ما يصنع فى مصر تقريبا . على أن الآلة المستعملة للثقب هى بالأخص من النوع الجيد وهذا من ألزم الأمور فى هذه الصناعة .

وأنواع المدافع المصنوعة من النحاس هى مدفع الميدان وعياره أربعة أو ثمانية أرطال . ومدفع دك الحصون وعياره ١٢ رطلا . والهويتزر وعياره ٢٤ رطلا . ومدفع الهاون وقطر فوهته ثلاث بوصات ونصف بوصة . ولقد صنعت مركبات

المدافع طبقا للنماذج الفرنسية فجاءت ضخمة ثقيلة وهذا العيب يرى مثله فيما يصنع من لوازم الجنود والخيل غالبا .

ويجرى العمل مجرى حسنا كذلك فى فرع صنع الأسلحة الصغيرة ومع ما مضى من الوقت القصير على وجوده فإن مصنوعاته مما تعود بالفخر العظيم على الصناع الوطنيين المشتغلين فيه . وإنى أقول إنها لو كانت أقل جودة من ذلك فلا جناح عليهم إذا اعتذروا برداءة الآلات والنماذج على السواء .

وتكاد آلات الثقب تكون فى حكم الشىء التالف فلا يمكن التعويل عليها فى القيام بعملها بدقة وإحكام لاسيما إذا راعينا أنها تتحرك بقوة الثيران .

ومسورة البنادق المصرية أطول من ماسورة البنادق فى الجيش البريطانى وكرنافتها أخف فى الوقت نفسه فلا مندوحة عن رجحان طرف الفوهة على الكرنافة فينشأ عن هذا الاختلال فى التوازن عدم تسديد المرمى بإحكام . وكذلك كانت السنكات أطول قليلا عما هى عليه فى الجيش الإنكليزى وقد صنعت لتركيبها على الطريقة الفرنسية التى استعيض عنها بطريقة التركيب الإنكليزية وقد أنقص أيضا طولها وأخذ يسود الاعتقاد بصلاحية طول السنكيات الإنجليزية للأغراض التى يحتمل أن تستعملها الجنود المصرية لها .

وللبيادة الخفيفة بنادق أقصر قليلا وأخف من البنادق المتسلحة بها البيادة الأخرى ولعل أحسن قطعة فيها هى عدة الزناد . أما الخشب المصنوعة منه الكرنافة فغير مصقول ولم يترك ليجف الجفاف المطلوب . والخشونة بادية فى الصنعة وعلى الرغم من هذه العيوب كلها فقد كان من الممكن صنع سلاح مقبول جداً لولا رداءة النموذج الفرنسى المتبع فى صناعة هذه الأسلحة رداءة تامة .

وسيوف السوارى غاية فى الرداءة والعلة فى وجود النقص راجعة أيضا إلى النماذج الفرنسية وهذه السيوف رديئة الشكل مختلفة التوازن وليس لها قوة البتر التى للسيف الأحدب ولا المتانة والاستواء المطلوب وجودهما فى سيف الطعان . أما سيف البيادة القصير فهو أكثر شرا من أى سلاح ، لا يصلح للغرض

المستعمل له . وإن كان الصناع يغدقون على صنعه الجهود العظيمة دون سائر السيوف بينما تصنع الرماح بدون عناية فتخرج أردأ ما يمكن أن تكون .

وتتفاوت أجور الصناع المختلفين من قرش فى اليوم إلى ثلاثة قروش بتفاوت الكفايات ولكن الصانع فى مصنع الأسلحة الصغيرة يتناول أجرته عن القطعة ومما يتجاوز حد التصديق تفاهة نفقات صنع البندقية فأجرة صنع الكرنافة تبلغ سبعين بارة أى أربعة بنسات ونصف أما الخشب فيقدمه المصنع للصانع .

ومع هذا الرخص فى أجور الأيدى العاملة فقد تكون دار الصناعة الحربية أكثر منشئات الوالى استنفادا للنفقات إذ ليس من المواد المستهلكة فيها ما هو من حاصلات البلاد إلا ما ندر ولا لوم على الوالى فى إحياء هذه الصناعة لأنه وإن كان من الميسور شراء الأسلحة بثمن أقل من نفقات صنعها إلا أنه ينبغى على كل أمة لا سيما التى فى مركز خاص كالذى فيه مصر اليوم أن تملك فى داخل بلادها الوسائل لتسليح أهلها عند حدوث الطوارىء بدلا من اعتمادها على غيرها من الأمم أعتمادا غير مضمون فى الحصول على حاجتها من السلاح .

ولنضرب لك مثلا مصانع شيفلد وبرمنجهام فإنها تكون لبعدها الشاسع مما لا تركن إليه مصر فى استيراد السلاح فى حالة قطع العلائق فجأة بينها وبين تركيا وإذا لم يكن هناك اعتبار للرياح المعاكسة أو الحاجة إلى النقد أو الاستدانة مما يستدعى الاحتياط له قبل حدوثه فإن وقوف إنكلترا موقف الحياد التام قد يكون سببا بالفعل لحرمان مصر من الحصول على السلاح فيترتب على ذلك اشأم العواقب لا سيما أن الاختبار قد علمنا فى السنوات الأخيرة أن الحياد معناه معاونة دولة دون الأخرى وفى هذه الحالة يجوز أن تكون تركيا هى التى تسدى إليها إنكلترا المعونة .

وفى استطاعة كل من مصنعى الأسلحة الصغيرة فى القاهرة أن يصنع ١٠٠٠ بندقية فى الشهر وفى استطاعة مصنع ثالث فى بولاق أن يصنع ٦٠٠ فتكون جملة ذلك ٣١٢٠٠ بندقية فى السنة . وهذا العدد فوق حاجة مصر ولذلك ينتظر

تصدير هذا النوع من السلاح قريبا إلى فارس وغيرها من البلاد . ولا شك عندى أن أصحاب المصانع الإنجليزية يعلمون حق العلم أن نوع الأشياء ليس هو المطلوب فى الشرق وإنما رخص أثمانها »

وفى أواخر عام ١٨٣٤ م شرع المارشال مارمون دوق دى راجوز الذى كان أحد قواد جيش الأمبراطور نابليون الأول والذى اشترك فى جميع حروب فرنسا التى وقعت فى عهد هذا الأمبراطور بما فيها حملة مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ م فى رحلة الشرق وبعد أن زار سوريا وتقابل فيها مع إبراهيم باشا ، جاء إلى مصر .

فقابله محمد على بحفاوة طيبة نظـرا لمقامه الرفيع وخبرته العالية فى الأمور العسكرية وطلب منه بعد تفقده حالة الجيش المصرى أن يقدم تقريرا ويوضح له فيه النظام الذى سيتخذه لأجل حسن إدارة هذا الجيش . وبناء على أمر محمد على نزل المارشال ضيفا على سليمان باشا الفرنساوى الذى كلفه بعمل التفاتيش اللازمة وإن يمده بالاستعلامات التى يتطلبها .

وبعد أن مده بما كان يريد الاستعلام عنه ورأى ما كان يريده أخطر الوالى باقتراحه . .

وهاك معرب ما جاء للمؤلف المذكور عند زيارته لدار الصناعة فى رحلته بمصر نقلا عن « سياحة المارشال دوق دى راجوز (مارمون) ... » من ص ٢٨٢ إلى ص ٢٨٥ :

دار الصناعة

فى الفضاء الذى بين سورى القلعة كثير من المبانى المهمة مثل مصنع عمل الأسلحة البالغ غاية الكمال . والمسبك الذى يؤدى جميع ما يلزم المدفعية ويقدم للبحرية جميع الأدوات المصنوعة من النحاس .

ومصنع ألواح النحاس التى تدرع بها السفن البحرية . وهذا المصنع

مشيد فى بناء قائم بنفسه وهو فى غاية النظام وتدار حركته بواسطة آلة بخارية قوتها عشرون حصانا .

« وتبعد عن ذلك مخازن الجيش ومصانعها التى تصنع فيها السروج واللجم والجلال « الطقوم » وكنائن الذخيرة « الجربنديات » والجلود المدبوغة وحقائب العساكر الخ ...

مصنع الأسلحة

ومما يستحق الثناء مصنع الأسلحة الخفيفة وهو يصنع أسلحة فى غاية الإتقان . ويوجد فى القطر ثلاثة مصانع من هذا النوع . وقد زرت مصنع القلعة وتأملت ما يصنع فيه بعناية فوجدته يحاكى ما يصنع فى معاملنا من حيث الإتقان والطراز الفرنسى وتتخذ فيه جميع الاحتياطات التى نتخذها للتحقق من نوع الأسلحة وجودتها . وقد أدخلت فيه نفس تقسيمات العمل ونفس المراقبة وكل ما يصنع فيه أجرته على القطعة . فهو بالاختصار مصنع محكم جيّد المصنوعات مدار بطريقة اقتصادية كأحسن المصانع فى فرنسا .

« وأدهم بك قائد المدفعية رئيس كل هذه المصانع والمؤسس لها وهو تركى مولود فى تركية أوربا اتصل بخدمة الباشا منذ عدة سنين وبقوة إرادته تعلّم اللغة الفرنسية بغير معلم وأصبح يتكلم بها جيّدا وله معرفة تامة بالرياضيات وعلم المدفعية وهو فى نظرى يعادل أقدر ضباط هذا الفن وأعظم رؤساء إدارات المهمات فهو من أعظم رجال الإدارة الذين رأيتهم وانتخاب محمد على لهذا الرجل مساعدا له مما يدل على ذكائه وحسن حظه معا .

« ويوجد مصنع آخر للأسلحة مشيد على بضع خطوات من القلعة يدار برئاسة ضابط إيطالى ويشرف عليه أدهم بك وأما المصنع الثالث للأسلحة فخارج القاهرة وتصنع هذه المصانع الثلاثة سنويا ستا وثلاثين ألف بندقية وما يحتاج إليه من السلاح الأبيض والطبنجات .

« وقد حفرت مغائر فى جبل المقطم جعلت مخازن للبارود والمفرقعات والاحتياطات التى اتخذت لتأمين الأهالى من شر الأخطار الجسيمة التى ربما تحدثها هذه المواد الملتهبة كافية » اه .

وإليك صورة التقرير الذى قدمه الكولونيل روس دوهامل المنتدب الخاص لجلالة أمبراطور الروسيا إلى الكونت تسلرود وزير خارجية روسيا بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٣٧ عن حالة مصر فى عهد محمد على نشر فى كتاب « حكم محمد على نقلا عن المحفوظات الروسية فى مصر »[١]

« وكانت المعامل الآتية تحت إدارة وزير الحربية :

فى القلعة بالقاهرة

١ — مسبك للنحاس والصفيح يدار بآلة بخارية
٢ — مسبك للمدافع ويصنع فيه أيضا سيوف وأسلحة أخرى
٣ — مصنع للبنادق والطبنجات إلخ ...
٤ — مصنع للسروج وأحزمة للخرطوش إلخ ...
٥ — مصنع للمسامير والمهماز وأشياء أخرى من الحديد
٦ — مصنع للأسلحة النارية

فى الحوض المرصود

٧ — مصنع للأسلحة النارية .
٨ — مسبك للأشياء الحديدية يدار بآلة بخارية
٩ — مصنع للأقمشة
١٠ — مصنع للبارود
١١ — معمل لتكرير ملح البارود

(١) تصنيف المؤرخ رنيه بك قطاوى . جـ ٢ ص ٣٨٠

١٢ – مصنع لنسيج القطن لأجل القلاع
١٣ – مصنع لدبغ الجلد
١٤ – معمل لصنع الأشياء الحديدية المستعملة فى الملاحة » اهـ

وقد ذكر فليكس منجان فى كتابه « تاريخ مصر » مامعربه عن مصانع القلعة والحوض المرصود من ص ١٣٢ إلى ص ١٣٤ :

معامل القلعة وتوابعها

« منذ عشر سنوات كانت هذه المعامل شيئا لا يذكر . ولكنها الآن متسعة الأرجاء وأقسامها الواسعة تشغل جزءا عظيما من القلعة يمتد من قصر صلاح الدين القديم إلى باب الانكشارية الذى يطل على ميدان الرميلة . وهى تحت إدارة قائد المدفعية أدهم بك ويشتغل فيها تسعمائة صانع فى معامل الأسلحة يصنعون فى الشهر من ستمائة إلى سبعمائة وخمسين بندقية . والبندقية الواحدة تتكلف اثنى عشر قرشا . ولرؤساء الصناع مرتبات ثابتة وللعمال أجر يومية . وفى مصنع خاص تصنع زناد بنادق المشاة وسيوف الفرسان ورماحهم . وفى معامل أخرى تصنع النيازك (الفواشيك) وحمائل السيوف وكل ما يتعلق بمعدات المشاة والفرسان وكذلك اللجم والسروج وملحقاتها . وصناديق المفرقعات ومواسير البنادق تشغل مكانا متسعا جدا . أما أهم هذه المعامل فهو معمل صب المدافع الذى يستدعى بذل مجهود كبير وانتباه أكبر . ويصنع فيه من ثلاثة مدافع إلى أربعة من عيار أربعة وثمانية أرطال فى كل شهر . وفى بعض الأحيان تصب فيه مدافع الهاون ذات الثمانى بوصات ومدافع من هذا النوع يبلغ قطرها أربعا وعشرين بوصة . وعماله لا يقلون عن ألف وخمسمائة عامل يستهلكون كمية عظيمة من الحديد والفحم . ولا غرابة فى ذلك فكل وال له جيش عرمرم ومدفعية جسيمة يجب أن يكون له معامل كهذه فيها كل ما يلزم لتموين تلك القوات » .

ثم وصف مصنع البنادق فى الحوض المرصود وهو لا يخرج عما ذكرناه .

معامل البارود

أقام محمد على معملا للبارود بطرف جزيرة الروضة . وكان بناؤه فسيحا ومناسبا وبعيدا عن المساكن . وقد تولى إدارته المسيو « مارتل » الذى كان من قبل مستخدما فى معمل البارود بمدينة سان شاماس وتولى العمل تحت إدارته تسعون عاملا موزعين على أقسام المعمل . منهم ١٨ عاملا يشتغلون فى خلط الكبريت والفحم وملح البارود و٢١ عاملا يشتغلون فى تقليب البارود فى الطواحين وعددها عشر ولكل طاحونة عشرون مدقة تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال وأربعون عاملا يشتغلون فى صنع الرش ويصنع منه كل يوم ٣٥ قنطارا .

وقد تعددت معامل البارود فى مصر وكانت تسمى كهرجالات وقد ذكرها « مانجان » وتعداد نتاجها عام ١٨٣٣ :

معمل القاهرة ٩٦٢١ قنطار — البدرشين ١٦٨٩ — الأشمونين ١٥٣٣ — الفيوم ١٢٧٩ — أهناس ١٢٥٠ — الطرانة ٤١٢ ومجموعها ١٥٧٨٤ قنطار

ولكى يمد محمد على الجيش بكل حاجاته أنشأ مصانع للغزل والنسيج بالخرنفش (١٨١٦) وفابريقة مالطة ببولاق لنسيج الأقمشة المختلفة . وورش الحدادة ومصانع الجوخ فى بولاق لسد حاجات الجند . ومصانع الحبال لكى تقوم بصناعة ما يلزم السفن الحربية والتجارية . وأمر بإنشاء مصنع للطرابيش بفوه ومعمل لسبك الحديد ببولاق ومصنع لألواح النحاس . ومصنع لعمل الصابون ودبغ الجلود برشيد .

الكتب العسكرية فى عهد محمد على

لم يك إنشاء الجيش على النظم الحديثة ، على عهد محمد على الكبير ، مشروعا مرتجلا . وإنما كان مدعما على أسس ثابتة كفلت له النجاح والفوز ، فى جميع ميادين القتال التى خاضتها جنوده . وليس بخاف أن تدريب الجيش يتطلب الرجوع إلى كتب ومؤلفات تعين المدرب — ضابطاً كان أم ضابط صف — تلقين الدروس العسكرية لتصبح ملكة فى الجند .

أوفد محمد على باشا طليعة الشبان ذكاء ومعرفة إلى المعاهد الحربية فى أوربا ليتلقوا أحدث ما وصلت إليه فنون القتال الحديث، وكانوا يتناولونها — كما لا يخفى — باللغة الأجنبية . فإذا عادوا إلى مصر بدءوا فى تلقينها تلامذة المدارس الحربية والجند ، باللغة التركية أو العربية . فكان لزاما — والحالة هذه — أن تنقل الكتب إلى احدى اللغتين . فبدأت حركة ترجمة الكتب العسكرية من الفرنسية أو التركية أو الإيطالية وسواها مما تدعو إليه حاجة الجند ، للنظام الداخلى أو التمرين أو بناء الحصون أو قذف القنابل . وعهد بذلك إلى الضباط أو المترجمين الملحقين بنظارة الحربية أو المدارس العسكرية . ومما يذكر أنهم كانوا فى مستهل الأمر يلقنونها للجنود وقلما يطبعونها ، وإذا حدث أن طبعوها لا يذكرون اسم مؤلفها أو مترجمها . ولكن تغيرت هذه الحال ، على أيام الخديو إسماعيل ، فكان يكتب اسم المؤلف أو المترجم على الكتاب .

ومن تحصيل الحاصل ، القول بأن الكتب التى طبعت ، فى أيام محمد على باشا ، سواء الخاص منها بالجيش أو البحرية ، جد قليلة ومكتوبة باللغة التركية

وتقابلنا ، فى المحفوظات التاريخية بقصر عابدين العامر ، عدة وثائق ، تلقى الضوء على الإجراءات الخاصة بطبع الكتب العسكرية ، تحقيقا لفائدة ضباط الجيش : ففى ١٤من المحرم ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢) قرر مجلس الجهادية تنفيذ إرادة محمد على لطبع ألف نسخة من كتاب استعمال السونكى

للمشاة والمزاريق للخيالة . وكان قد نهض بترجمته الاميرالاى كانى بك [١] .

وفى الخامس من جمادى الآخرة عام ١٢٤٨ ، أرسل إبراهيم باشا إلى سامى بك ليعجل بإرسال الكتاب الآنف ، ليوزع على ضباط آلايات المشاة [٢] .

وكان من أوائل الكتب العسكرية التى أجرى طبعها فى مصر كتاب نابليون بونابرت الذى اضطلع بترجمته حسن أفندى (التتارى ؟) وأشرف على طبعه السيد عبدالله عزيز أفندى . وقد بعث محمد على بالجزء الأول من هذا الكتاب إلى القائد إبراهيم ، فى غضون انشغاله بحروب الشام [٣] .

وحين تلقى إبراهيم هذا الكتاب سر أيما سرور وأكب عليه يطالعه بشغف حتى وقع بصره على عدة أخطاء به ، ولفت النظر إليها . والمعروف عن هذا الكتاب أنه قد طبع فى عدة أجزاء .

وقد عثرنا – فى خلال بحثنا هذه الوثائق واستجلاء غوامضها – على خطاب مرسل من القائد إبراهيم إلى الديوان الخديوى يطلب بين سطوره إرسال عشر نسخ من كتاب جر الأثقال الذى كان قد أعطى النسخة الأصيلة منه إلى عثمان باشا نور الدين لترجمته وطبعه [٤] .

وهذا كتاب هام آخر ، أمر بطبعه المغفور له محمد على الكبير ، منذ مائة عام ونيف ، وهو كتاب وصايا الإمبراطور فردريك الثانى لقادة جيشه . وقد نهض بتعريب هذا المؤلف اثنان هما : محمد عطاالله الشهير بشافى زادة ومختار أفندى [٥] .

وإذا خلفنا هذا نواجه فى عدد الوقائع المصرية رقم ٥٤٨ بتاريخ ٢٠ ربيع الثانى عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣) أن اسطفان أفندى المترجم قدم لمجلس الشورى

---

(١) أمين سامى باشا — تقويم النيل — والوقائع المصرية — العدد ٣٩٦ الصادر فى ٢٥ المحرم عام ١٢٤٨هـ

(٢) وثيقة رقم ٣٠ محفظة رقم ٢٤٠ عابدين بتارغ ٥ جمادى الآخرة عام ١٢٤٨هـ

(٣) أمر كريم رقم ٣٦٤ — دفتر رقم ٢١٠ بتاريخ ٢٨ شعبان ١٢٤٨ (١٨٣٣)

(٤) وثيقة رقم ٢٦٤ دفتر رقم ٧٧٨ ديوان خديوى (ص١٠٠) بتاريخ ٧ شوال ١٢٤٨هـ فبراير ١٨٣٣)

(٥) أمر كريم رقم ٤٠٤ دفتر رقم ٢١٠ بتاريخ ٨ شوال ١٢٤٨ (مارس ١٨٣٣)

العسكرى ترجمة كتاب قيادة الفرسان (قومندان سوارى) فقرر المجلس طبع ألف نسخة لما يحويه من الفوائد الشاملة، ويحرر خطابا لناظر المطبعة قاسم أفندى لطبعه

وفى عام ١٨٣٣ (٢٤ شوال ١٢٤٩ هـ) صدر أمر محمد على إلى وكيل الجهادية لطبع كتاب قلعة وقشلاق الذى تمت ترجمته ويأمره بسرعة توزيعه على ضباط الجيش وتلامذة المدارس الحربية ، وإيداع عدد وافر من نسخ الكتاب فى المخازن ، لتوزيعها فى المستقبل .

وفى عام ١٨٣٤ (٦ جمادى الآخرة عام ١٢٥٠) اغتبط محمد على من عناية سليمان الفرنساوى باشا بجمع وتأليف كتاب المناورات الحربية لبث الثقافة العسكرية بين ضباط الجيش ، وفى الحال أصدر أمره إلى وكيل الجهادية لتعيين مترجم وكاتب لمعاونة الباشا فى عمله ، للانتهاء من العمل فى أسرع وقت . ولكن حينما أخذ رأى إبراهيم باشا فى الكتاب أبدى ارتياحه وموافقته بيد أنه رأى أن تفك ملازم الكتاب وتعطى عدة ملازم منه لكل مترجم لكى يطبع الكتاب ويجرى توزيعه بين الضباط .

وغنى عن القول أن فى المحفوظات التاريخية جملة وثائق تؤيد اهتمام محمد على بترجمة الكتب العسكرية منها والمدنية ، وحث المترجمين على العمل بالسرعة والدقة . وأكثر من ذلك كان لا ينى عن أن يشير على ناظر المطبعة الأميرية بأن يحسن طبع هذه الكتب وتجليدها .

ومما يؤيد رغبة الباشا فى إنجاز طبع الكتب عقب ترجمتها بسرعة أمره الكريم فى الخامس عشر من ربيع الثانى عام ١٢٥٠ هـ (أغسطس ١٨٣٤) بإحالة ترجمة قانون السفرية الجديد إلى المترجم اسطفان أفندى والتشديد عليه فى الشروع فى ترجمته . وفى ٢٨ ذى الحجة عام ١٢٥٠ هـ (أبريل ١٨٣٥) صدر أمر آخر فى شأن ترجمة كتاب فرنسى خاص فى أنظمة وترقيات العساكر « وبناء عليه يشير بأنه لكون ترجمة هذا الكتاب من الأمور المهمة المستعجلة يلزم جمع التراجمة وإعطاء كل مترجم كراسا لتسهيل ترجمته فى أقرب وقت » .

وكذلك طلب محمد على إلى كانى بك « أخذ ثلاث نسخ من كتاب تعليم نامه، طوبجيان جهادية برية (معلم المدفعية) من أدهم بك وترجم بسرعة على أنها لازمة جداً »[١] .

وكان الباشا بالغ الاهتمام بأن تكون ترجمة الكتب دقيقة للغاية . ولذلك أصدر أمره بعقد اجتماع حضره سليمان باشا الفرنساوى رئيس أركان الحرب وقرر المجتمعون بأن لا يقدم ناظر قلم الترجمة أى كتاب للطبع ما لم يقابل ترجمته بالأصل مقابلة دقيقة وتصحح اصطلاحاتها وعباراتها ، كما يتعين أن يستوثق جيدا من صحة الترجمة ولياقتها للطبع ، وقد ألقيت عليه مسئولية صحة عبارات الكتب المترجمة . بل بلغ الأمر إلى أنه إذا لم يعرف فى قلم الترجمة بعض الاصطلاحات المستعملة فى العلوم والفنون والصنائع فلا يعمد إلى وضع اصطلاحات بالتخمين أو التكهن . وإنما يراجع الجهة المختصة ويتحقق من أهل الدراية والمعرفة[٢] .

وقد جرت العادة على أنه عقب موافقة الباشا على ترجمة الكتاب كان يستصدر أمر بطبعه طبعة أنيقة ، ويرسل منه عشر نسخ سواء أكان فى العلوم العسكرية أم الطبية إلى بوغوص بك مدير الأمور الافرنجية باسكندرية ، تمهيدا لإهدائها إلى دور الكتب فى أوربا ، وبتجليدها تجليدا فاخرا بقدر الاستطاعة[٣] .

الشيخ رفاعة بك رافع الطهطاوى :

وإذا ذكرت حركة التأليف والترجمة ، فى هذا العهد ، فينبغى أن يذكر بالإكبار الشيخ رفاعة بك رافع الطهطاوى . فإلى هذا العالم يعود الفضل فى الإشراف على ترجمة الكثير من المؤلفات التى مست إليها حاجة الجيش

---

(١) دفتر ٦٧ معية رقم ٢٥٧ بتاريخ ٢٩ رجب سنة ١٢٥١ (نوفبر ١٨٣٥) وقد ورد الكلام في هذا الموضوع فى كتاب الأستاذ جاك تاجر — حركة الترجمة بمصر فى خلال القرن التاسع عشر

(٢) دفتر ٢٠٨٣ صادر ووارد وديوان المدارس — جاك تاجر ص ٣٨

(٣) أمر خديوى بتاريخ ٣ ربيع الأول سنة ١٢٥٥هـ

ومدرسة الطب ، فى أيام محمد على . وقد تولى رياسة قسم الترجمة ، وتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة الطب ، ثم فى مدرسة المدفعية بطره . بل وعهد إليه فى ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية . ومن ثم أسندت إليه نظارة مدرسة الألسن لما أنشئت وكان علاوة على أعمال النظارة ينهض بالتدريس فيها .

وقد ترجم رفاعة بك فى عهد محمد على باشا مؤلفات كثيرة عدا ما صححه من أعمال سائر المترجمين . ومن مترجماته التى تتصل بالجيش :

– نبذة فى تاريخ اسكندر الأكبر

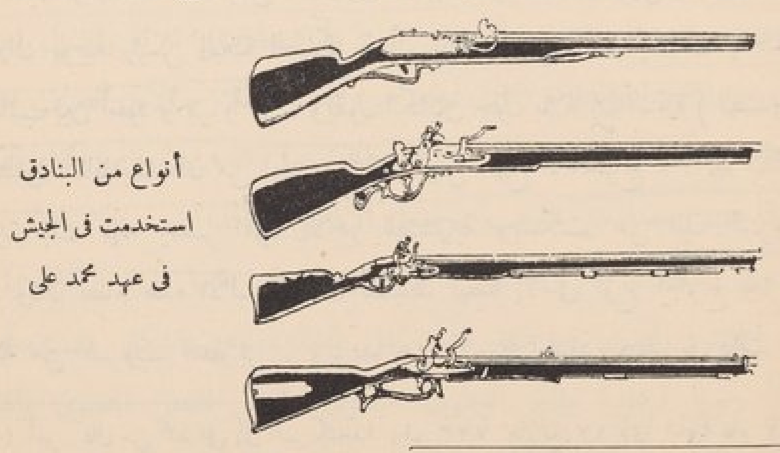
– قطعة من عمليات الضباط

أما أعماله الأدبية الأخرى فهى جد كثيرة [١] .

ومن مترجمى عهد محمد على : محمد عطاالله الشهير بشافى زادة الذى سبق أن أتينا على ذكره . وقد اضطلع بترجمة كتاب « قوانين العساكر الجهادية من الفرنسية إلى التركية » وطبع عام ١٢٣٨ هـ (١٨٢٣ م) .

ونذكر فى هذا السبيل أيضا رمضان عبد القادر مترجم كتاب قانون السفرية الذى نقله من الفرنسية وطبع سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) .

ومن الكتب العسكرية التى طبعت فى أيام محمد على تعليم نامه المشاة وقانون نامه الفرسان وأشكال سوارى وقانون الاسبتالية إلخ ...



أنواع من البنادق
استخدمت فى الجيش
فى عهد محمد على

(١) جاك تاجر — حركة الترجمة بمصر فى خلال القرن التاسع عشر — ص ٥٢ — ٥٦

الملابس العسكرية

تتضارب أقوال المؤرخين الذين كتبوا عن الجيش المصرى فى عهد محمد على فيما يتعلق بالملابس العسكرية . فلم تصل إلينا تفاصيل كثيرة عن شكل هذه الملابس إلى عام ١٨٢١ حيث تقابلنا بعض الوثائق التى تلقى الضوء على بعض الخطوط الأولية لإعداد ملابس للجيش . ومنها يتضح عناية محمد على بأمر الثياب العسكرية ويظهر لنا اهتمامه الشخصى الشديد بها فلا يقر شيئا منها إلا بعد الدرس والتمحيص[1] .

ويتبدى لنا أن ما تضمنه كتاب الدكتور كلوت بك (لمحة عامة فى مصر) عن ملابس الجيش هو صحيح بصورة إجمالية . فهو يقول إنها كانت تتألف من طربوش أحمر وسترة ضيقة (صدرية) وبنطلون (سروال واسع) ومنطقة تشد على الخصر ورباط للساق (طوزلق) وحذاء بلدى أحمر (مركوب) . وإن هذه الملابس كانت تصنع فى الصيف من قماش قطنى سميك وفى الشتاء من الجوخ .

أما لون هذه الملابس فتضاربت فيها أقوال المعاصرين . فقد ذكر الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية أن لون اللباس كان يختلف باختلاف الكتائب بين أسود وأحمر وأسمر . ويقول الكابتن جول بلانا إن السترة (الصدرية) والبنطلون كانا يصنعان من الجوخ الأحمر ومن نوع « السرج » . أما الدكتور كلوت بك فإنه يحصر اللون الأحمر للصدرية ويسكت عن لون السروال .

وكان نظام هذه الألبسة يتبعه الضباط أيضا إلا فى نوع الجوخ وما كان يزينه من ضروب التطريز . ويزيد عن كسوة الجنود بصدرية ذات أزرة

---

(١) أمر عال من محمد على إلى الـ كتخدا رقم ٧٧٣ بتاريخ ١٧ ذى الحجة عام ١٢٣٧ (٤ سبتمبر ١٨٢٢) صفحة ٨٤ سجل ٩ معية تركى

يلبسونها تحت السترة وكانت جميلة تكسب الضباط رونقا جميلا . وكانت تصرف الملابس للضباط فى مستهل الأمر على نفقة الوالى ثم أصبحت — فيما بعد — على نفقتهم مما جعل ألوانها متفاوتة بدرجة واضحة .

وكما رأينا كانت الملابس العسكرية فى عصر محمد على تتناسب مع الزى الوطنى للملابس المصرية فى القرن الماضى وقريبة الشبه بالشكشير التركى.

وكان يرتدى الجنود فى الصيف ، الملابس البيضاء من القطن الغليظ ، ويرتدى الفرسان ملابس تختلف باختلاف الوحدة مدرعة أو مزردة ، وعلى العموم كان يرتدى الفرسان ورجال المدفعية وجنود الحرس شتاء صدرية زرقاء اللون ، ورجال الأسلحة الأخرى صدرية حمراء . وكانت حلل ضباط الخيالة ذات جدائل مقصبة ، ويضع الفرسان أى المدرعون ومعظمهم من أهالى بعلبك الشام على رءوسهم خوذات من الطراز الذى كان معروفا فى أيام الصليبيين . وكان الفرسان غير المدرعين يضعون على رءوسهم القالوطة المصنوعة من الصلب تحيط بها عصابة من نفس المعدن . وكانت تثبت قطعة طويلة من الحديد لوقاية الأنف من ضربات السيف أمام واقية العينين .

وتكاد تتفق المصادر التاريخية على أن رداء الضباط لم يختلف عن ملابس الجند إلا فى نوع الجوخ ولونه . وما كان يزينه من ضروب التطريز وأنواع الشارات . وأن هذه الشارات تباينت بتباين الرتب . فالأمباشى كان يحمل على صدره شريطا واحدا والجاويش اثنين والباشجاويش ثلاثة والصول نصف هلال من الفضة والملازم الثانى نجما من الفضة والملازم الأول نصف هلال ونجما من الفضة واليوزباشى هلالا ونجما من الذهب وقائم المقام هلالا من الذهب ونجما من الذهب مرصعا بالألماس وهكذا ...

وفى المتحف الحربى الملكى لوحة من ورق عليها أزرار كان يلبسها أفراد الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا ، وهى ابتكار مصرى محض يشمل رموزا فرعونية وتاج الوجهين البحرى والقبلى للقطر المصرى والهلال والشمس تضىء بهجتهما خلف الجميع .

ملابس تلاميذ المدارس العسكرية :

وكان يرتدى تلامذة مدرسة الفرسان بالجيزة (١٨٣١) ملابس مشابهة لملابس الفرسان الفرنسيين فيما عدا القلنسوة ، وكانت الصدرية خضراء اللون ذات ضفائر موشاة بالصوف الأصفر للجنود . أما البنطلون فكان قرمزى اللون ، وكان لبدل الضباط جدائل مقصبة .

ولم يكن اختيار زى ضباط وجنود الجيش المصرى وشاراتهم ، عندما أنشأ محمد على جيشه على غرار النظام الأوربى ، مقيدا . إلى أن صدر الفرمان السلطانى إليه فى الثالث من فبراير ١٨٤١ والفرمان الذى تلاه فى شهر مايو من السنة نفسها وكلاهما كان عقب معاهدة لندن فى عام ١٨٤٠ ، بعد حرب محمد على باشا ضد الدولة العثمانية .

وقد نص فى الفرمانين الآنفين بعبارة صريحة على أن تكون ملابس وشارات وأعلام الجيش المصرى والبحرية المصرية مماثلة للجيش العثمانى والبحرية العثمانية على أساس أن الجيش المصرى معد لخدمة الباب العالى . وقد حرصت الدولة العثمانية كل الحرص على التمسك بهذا القيد فى فرماناتها لولاة مصر ، فلا يشعر الجيش المصرى بشخصيته المستقلة إذا بدا فى زى وأعلام وشارات لا تشعر بالتبعية شأنه فى ذلك شأن الجيوش المستقلة الحرة .

ومن المناسب أن نورد — فى هذا المجال — نص الجزء الخاص بملابس وشارات وأعلام ورتب الجيش المصرى والبحرية المصرية من الفرمانين كدليل تاريخى على المنحى الذى انتهجه الجيش فى تخير زى رجاله وشاراته وأعلامه وتطورها حسب الظروف :

وهذا ما ورد فى فرمان ٣ فبراير ١٨٤١ .

« ولكون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الأقمشة المستعملة لملبوسات العساكر هنا فلا بأس من ذلك فقط يجب ألا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية . وكذا ملابس الضباط وعلائم امتيازهم.وملابس الملاحين

وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين ضباطا برية وبحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين فيها راجع لإرادتنا الشاهانية ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية إلا بإذننا الخصوصى » .

وهذا ما ورد فى فرمان مايو ١٨٤١ :

« على أنه يقتضى ألا يكون هناك فرق بين النيشانات والرايات المستعملة فى جندية مصر وبين ما تستعمله عساكرنا منها فى سائر الممالك العثمانية وأن يلبس ضباط البحرية المصرية نفس العلامات التى يلبسها ضباط البحرية العثمانيون وأن تكون رايات السفن المصرية مماثلة لنفس رايات السفن العثمانية ومن ثم لوالى مصر أن يرقى ضباطه البرية والبحرية حتى رتبة أميرالاى . أما الترقى لما فوق هذه الرتبة كرتبة الميرلواء والفريق فمن الضرورى أن تطلبوا رضانا الملوكى وتحصلوا على أوامرنا الشاهانية بشأنه .

وليس لولاة مصر فى المستقبل أن ينشئوا ولا سفينة واحدة قبل حصولهم على رضا الباب العالى وعلى رخصة صريحة منه بذلك » . . .

لقد وضح مما أوردناه من نصوص هذين الفرمانين أن اختيار زى الجيش المصرى وشاراته وأعلامه وكذلك البحرية المصرية كانا خاضعين لقيد سياسى أوجبه تبعية مصر للدولة العثمانية ، وإن كان ترك بعض الحرية فى اختيار القماش الذى يناسب جو مصر — فمظهر القوات المحاربة دليل على شخصيتها .

شارات الأسلحة

وكانت لأسلحة الجيش المختلفة شارات تتميز بها عن بعضها فكانت شارة القسم الطبى ثعبانين ملتفين يعلوهما جناحان . وشارة الخيالة هلالاً فى داخله سيفان متقاطعان تعلوهما نجمة مثمنة . وكانت شارة المدفعية هلالا

بداخله سيفان متقاطعان عليهما عجلة . وشارة جنود عربات ذخيرة المدافع هلالاً بداخله ماسورتا مدفعين عليهما نجمة . أما شارة الجنود البلطجية فكانت هلالا بداخله بلطتان فى منتصفهما نجم مثمن .

وسنرفق بهذا الكلام بعض الوثائق التاريخية التى تتعلق بالملابس العسكرية تأييدا لما أثبتناه .

١ ــ من الجناب العالى إلى البك الكتخدا :

قد اطلعنا على إفادتكم الواردة ردا على ما كتب لكم وعلمنا أنه صار عمل جيكن (جاكتة قصيرة مفتوحة الأكمام) ويطور (بنطلون ضيق جدا) لكل من رتب البكباشى والصاغ والصول واليوزباشى والملازم أول والملازم الثانى ويطور مقصب وآخر سادة لأجل العلمدار (حامل العلم) وهم ضباط العساكر المعلمين المعسكرين فى ثكنات أسوان وفرشوط ووضعت ورقة على كل منها لتبيان نوعها وأرسلت . وذكرتم فيها أن هذه الملابس وإن كانت عملت من جوخ أحمر وأسود كما اتفق إلا أنكم استصوبتم عملها فيما بعد من جوخ صايا (نوع من الأجواخ) للضباط الحائزين لرتبة البكباشى . أما الضباط من رتبة الصاغ والصول واليوزباشى فمن جوخ صايا من نوع ¾ والضباط من رتبة الملازم أول والملازم الثانى وحامل العلم فمن جوخ صايا من نوع ½ وأن اليطورات وإن كانت واسعة نوعا ما إلا أنها ستفصل فى المستقبل أضيق من هذه وقد وردت الملابس أيضا وشاهدناها ووافقنا على أشكالها بعد أن ألبست بعض الأغوات بقصد التجربة .

فنبلغكم أننا نرى عدم فك هذه الملابس وإبقائها على حالها مادامت قد صنعت بهذا الشكل أما الملابس التى ستفصل فيما بعد فيجب تفصيلها أوسع من ذلك وحيث أن رتبة الصول ايمباشى هى بمثابة ملازم (مساعد) بكباشى فإن اليوزباشية أيضا فى حكم القول ايمباشية ولذلك يجب أن تكون ملابس اليوزباشية من درجة أقل نوعا ما بالنسبة للصول ايمباشية فاعملوا على عملها كذلك وتقتضى إرادتنا إبقاء الكسوة المقصبة المخصصة للعلمدار

وترك الكسوة الساده .

حاشية : وردت الملابس وشاهدناها ثم أعدناها إليكم إنما يا أخى هذه الملابس ستلبس أيام التعليم وفى أوقات الحروب ويحتاج الحال إلى ملابس سادة للبسها فى الأيام العادية فنطلب منكم أن تصنعوا ملابس سادة وترسلوها مع هذه الملابس حتى يلبسوها فى وقت مناسب لها ويباشرون عملهم أما إذا أخذوا ملابس العام الجديد فلا بأس من أن يستعملوا هذه الملابس القديمة فى لباسهم اليومى هذا ما خطر ببالنا رأينا إشعاركم به[1] .

٢ — من الجناب العالى إلى البكك الكتخدا :

لقد خطر ببالى إذ كنت أعاين كسى الضباط كما بينت لكم فى كتابنا الآخر أن الانباشيين يعدون من الضباط باعتبارهم رؤساء العشرات من الجنود فلو أعطى كل منهم كسوة من الجوخ وطرزت هذه الكسوة بشىء من القصب فكم تكلفنا الكسى التى تصرف لأنباشية الأورطة الواحدة ؟ فهذا هو الذى حملنا على كتابة هذه السطور وبما أن هذه الخاطرة قد خطرت على بالنا كما قدمنا فقد وجب الوقوف على حقيقة هذا الأمر شاوروا أهل المجلس بادئ الأمر عند وصول كتابى هذا ثم فصلوا كسوة من الجوخ وخيطوها واحسبوا نفقاتها على العادة ثم احسبوا كم تبلغ أثمان الكسى التى تصرف لأنباشية أورطة واحدة وارفعوا إلينا مجموع نفقاتها والقرار الذى اتخذتموه نتيجة لمشورتكم .

٣ — من الجناب العالى إلى الكتخدا :

علمت من خطابكم الوارد لنا أنكم ستبينون أثمان الملابس التى تقرر عملها لضباط العساكر الجهادية بعد ما تم ملابس كل أورطة من ضباطها إلى أنفارها بالغة أثمانها ما بلغت وسبق أن تقرر عمل ملابس للضباط من الجوخ الأسود لتلبس فى الأيام العادية وكتب لكم بإعداد ذلك ولكن نظرا

---

(١) المكاتبة التركية رقم ٦٣٧ ورقة ٧١ (دفتر ١٠ صادر معية تركى) بتاريخ ٢٢ ذى الحجة سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢١ — ١٨٢٢)

لما كتبه لنا عطوفة ولدنا الباشا والى جدة لا يقتضى خياطة تلك الملابس البسيطة وأنه يلزم توجيه الهمة لإعداد الملابس المقصبة هذا وبما أن من اللازم عمل أعلام بيض لكل أورطة من أورط العساكر المذكورة ومطلوب منكم أن تعدوا وتحضروا تسعة عشر علما (راية) ولتكن خفيفة لأنها أعلام مشاة وعلمها من فضة لا من نحاس مطرزة الأطراف بالقصب والكتابة التى فى وسطها تكون بالقصب وحاصل القول يلزم أن تعملوا رويتكم لأن تكون جميلة لائقة بالحمل موافقة للطراز العسكرى فيا حضرة الأخ عندما يصلكم ما كتبناه لكم بهذا الخصوص يلزم أن تبادروا إلى إجراء مقتضاه إن شاء الله تعالى(١).

٤ - من الجناب العالى إلى ناظر الجهادية :

أحطت علما بما اشتمل عليه خطابكم عن مجىء أمير اللواء حسن بك القبرصى للجيش واستحسان مأمورية كل من الميرالاى حسن بك وحسين بك فى آلايتهما ونصبه خيمته بجانبهما وطلبكم إرسال المرسوم اللازم الصدور لمأموريته واستفهامكم عن مقدار ماهيته لجهلكم بها وعن إعطاء الضباط فى الآلايات المنشأة من جديد ملابسهم أو عدم إعطائها حيث أنهم لم يعطوها بعد . أما المرسوم المطلوب فقد كتب وأرسل لكم ضمن كتابنا هذا وبوصوله لكم إن شاء الله تسلمونه له وتفهمونه ما اشتمل عليه وأما ماهيته فيلزم أن تكون معلومة لديكم فإذا لم تكن معلومة فهى مقيدة فى الدفاتر فانظروها واجروا على مقتضاها وأما ملابس الضباط فإنه وإن كان من اللازم إلباس الميرالاى والقائمقام والبكباشى كبابيتهم (برانسهم) بحضورنا ولكن ما دام أنهم نالوا تلك الرتب وصاروا من الكبراء حسب الأصول ومن المقتضى إلباسهم الكبابيت فاستدعوهم وألبسوهم كبابيتهم حسب المراسم المقررة وابذلوا الهمة بإكمال مأموريتهم واعملوا ما يقتضى لاستكمال الأسباب

---

(١) الوثيقة رقم ٣٨٢ بتاريخ ٧ محرم ١٢٣٨ ورقة ٧٥ — دفتر ١٠ معية تركى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢

الموجهة بتنظيم أحوالهم حيث أنه يجب إلباسهم كل واحد كسوته[١]

٥ ــ من الجناب العالى إلى الخواجه بغوص :

بما أن أرادتنا تقضى باستدعاء الجنرال ليرون إلى هذا الجانب على أن يحضر معه ثلاثة ملابس من ملابس رتبة اليوزباشى الخاصة بجنود الفرسان الدراجون (Dragoons) والهوسار (Hussar) والكويراسـير (Curriassier) وملابس واحدة من هذه الأنواع الثلاثة للجنود والضباط وإحضار السفينة التى أنشأها الجنرال المذكور فى مارسيليا لدعوته فنطلب منكم مخابرة الجنرال فى أسرع وقت طالبين منه حضوره وإحضار المطلوب منه معه .

حاشية : كنا أوصينا الجنرال المذكور فى متن الأمر بعدة أشياء فيما سبق ومطلوبنا أن يقوم سريعا ويقطع علاقته ويحضر ومعه الأشياء المطلوبة منه[٢] .

٦ ــ ملخص الأمر الصادر إلى قدرى أفندى ناظر الخياطين بالاسكندرية

بأنه يجب تفصيل الكسوتين من الجوخ فى السنة لكل من المماليك وأولاد الترك الموجودين بمدرسة الجهادية فى الاسكندرية وكذلك كسوة من الجوخ وكسوة من كل من البياض المحلاوى والبفتة المربعة لكل من أولاد الاسكندرية .والقرى الموجودين فيها أسوة بالتلاميذ الموجودين بمدرسة القصر العينى وأيضا يجب إعطاء كل منهم قميصا ولباسين ودكتين فى السنة على أن تكون الملابس المذكورة على مقاس كل واحد منهم وإبلاغ محمود بك ناظر الجهادية بذلك[٣] .

---

(١) الوثيقة ٩٧ بتاريخ ٥ محرم ١٢٤١ ورقة ٢٠ — دفتر ٢٠ معية تركى (٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٥)

(٢) الوثيقة رقم ٢٢٧ س ٣٨ بتاريخ ٢١ رمضان ١٢٤٤ — دفتر رقم ٣٩ معية تركى (٢٧ مارس ١٨٢٩)

(٣) وثيقة رقم ٤٦٧ ومقيد ٢٧ [نوفمبر ١٨٣١] بدفتر ٤١ معية تركى

مراجع الفصل

أسد رستم وعبد الرحمن زكى :

المهدات فى تاريخ الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير

القائمقام عبد الرحمن زكى :

الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير

الملابس العسكرية فى عهد محمد على الكبير

جاك تاجر :

حركة الترجمة والتأليف فى مصر أثناء القرن التاسع عشر

سمو الأمير الجليل عمر طوسون :

الجيش المصرى والبحرى فى عهد محمد على باشا

الصنائع والمدارس الحربية فى عهد محمد على باشا

اللواء محمد مختار باشا :

التوفيقات الإلهامية

الدكتور محمد فؤاد شكرى وزميلاه :

بناء دولة

Bowring, John:

Report on Egypt and Candia addressed to the Right Honourable Viscount Palmerston, London. 1840

Clot Bey:

Apercue Générale sur l'Egypte. 2 Vols. Paris 1840

Mengin, Felix:

Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed Aly. 2 Vols. Paris 1823

Paton. A. H:

A History of the Egyptian revolution. 2 Vols. 1870

Weygand: Histoire militaire de Moh. Ali et ses fils. 1936

الفصل العاشر

حملة الشام

١٨٣٢ — ١٨٣٩

سياسة محمد على العسكرية

لم تك القوة ، فى نهج محمد على ، إلا وسيلة لا غاية . لم تك إلا آلة العيش الكريم ، والحياة الحرة . فقد كان بطبعه وطبيعته كارها لسفك الدماء مؤثراً للاعتدال ، لا يضع سيفه حيث يكفيه سوطه ، ولا سوطه حيث يكفيه لسانه.

وفى هذا المعنى يقول رفاعة الطهطاوى عن حروب محمد على إنها «لم تك من محض العبث ولا من ذميم تعدى الحدود ، إذ كان جل مقصوده تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم أيقاظا وهم رقود» .

كان قبالة محمد على ، بعد ترتيب نظام داره (ملكه) وتنظيم شئون ولايته ، أن يتطلع بأفقه الوسيع إلى الميدان الفسيح الأرجاء المحيط به . رأى البحار العربية وسواحلها أجزاء أساسية من العالم العثمانى ، أهملها السلاطين إهمالا مشينا ، وهى شرايين الحياة بين الشرق والغرب ، تصلبت ولا بد أن يجرى فيها الدم الجديد . وخلف تلك السواحل ، فى أفريقية ، أجزاء من دار الإسلام مشتتة ، فاترة الحياة . فسعى فى السنوات الأولى من حكمه لينشئ صلات بينه وبين السلطات البريطانية فى الهند . ثم ساعد الباب العالى على إخماد ثورة الوهابيين ، فى بلاد العرب ، ونجد ، واليمن . ثم فتح السودان ، وضم أوصاله إلى أمه مصر . وعاون العثمانيين ضد اليونانيين فى ثورتهم وانتصر ابنه إبراهيم عليهم فى عدة معارك ، وفقد أسطوله فى سبيل مرضاة السلطان . ولولا تدخل الدول لظلت اليونان ولاية عثمانية . وأخضع محمد على جزيرة

كريت وما حولها من الجزائر الصغرى[١].

ولقد سجل محمد على هذه الفعال ، بل نلقاه قد اعترف بما يجيش فى صدره من آمال فى حديثه مع الفرنسى بوالكمت :

« لقد وضعت يدى على كل شىء . ولكن لكى أجعل كل شىء مثمرا . والمسألة مسألة إنتاج . وإذا لم أقم به أنا . فمن يقوم به غيرى . . . أين الذى كان يقدم الأموال اللازمة ، ويشير بالخطط التى تنتهج ، والمزروعات التى تزرع . أين الذى كان يتهيأ له أن يأخذ الناس بطلب العلوم والمعارف ، التى ترتب عليها تفوق أوربا . أتعتقد أن أحدا فى هذه المملكة خطر له أن يجلب القطن والحرير والتوت . لا أحد . كان لا مناص لى أن أقود هذه البلاد قيادة الأطفال . وإن تركها لنفسها يسلمها للفوضى التى أخرجتها منها . »

أنشأ محمد على قوات مصر الدفاعية — ولأجلها نهض بجميع مرافق البلاد من تعليم وصحة وتجارة وصناعة وزراعة . ولسنا ندعى بأنه وصل بقوات الدفاع ، فى عام ١٨٣٢ ، إلى درجة الكمال — كلا ، فقد كانت للجيش المحمدى العلوى مزاياه وعيوبه . تدرب أفراده ، فى خلال العشرين عاما ، على حروب المورة ، وكريت ، وبلاد العرب ، والسودان . فجاهدوا وناضلوا ، واكتسبوا ميزات شتى . وكان قادته بين بين ، أى عاديين ، خبروا القيادات الصغرى . أما الجنود فلم يكونوا آلات كما كانوا فى حروبهم السابقة ، بل أصبحوا — بعد ممارستهم فن القتال فى ميادين العراك التى خاضوها — فخورين بما أحرزوه من نصر . ثقتهم بقائدهم أو قادتهم كبيرة لا حد لها ، ميالين إلى النظام ويخشون الخروج عليه ، خوفا من بطش أبيهم وقائدهم إبراهيم — وهذا إبراهيم بطلهم ورمز مجدهم ، فى يده مقاليد القيادة العليا ، رأس عسكرية أثبتت أن صاحبها من طراز القادة الكبار ، تزينها الشجاعة والجرأة ، وكذلك البطش ، فضلا عن اتصال روحى بأولاده الجند الذين ارتبط بحبهم وتقديرهم كلما أتقنوا واجبهم .

(١) محمد شفيق غربال بك — محمد على الكبير — سلسلة أعلام الاسلام

وكان سليمان بك ، رئيس أركان حرب إبراهيم ، نابغة فى أمور التكتيك والأستراتيك ، يتحلى ببديهة نشطة ، وروح وثابة ، ونشاط ديناميكى . متفاهم مائة فى المائة مع قائده وصديقه وتلميذه إبراهيم . تبادل الاثنان المحبة والاحترام .

أما خير وصف لإبراهيم خال من الغلو والإسراف هو قول الماريشال الفرنسى فيجان عنه :

«Vainqueur, L'histoire doit légitiment lui laisser les lauriers de la victoire».

آلة الفتح :

استعان محمد على بالقوة إلى مراميه . فمثله وهو الرأس المفكر ما كان ليغيب عنه هذه العقيدة التى ما زالت إلى اليوم مبتغى القادة فى تحقيق أهدافهم ، أو التوصل إلى أطماعهم . فمن يستطيع أن يمارى فى أن القوة أهم وسائل السلطان والسيادة .

إن الحديث عن الجيش والأسطول ، فى عهد محمد على ، يتطلب عشرات المجلدات . وليس بوسعنا ، ونحن نتناول فتوح إبراهيم باشا فى الشام ، أن نغفل هذه الناحية ، وهى بمثابة القاعدة ولا سيما ونحن فى مناسبة الحديث عن الخطوط الرئيسية لسياسة محمد على العسكرية .

فعلى الرغم من قلة عدد سكان مصر ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، وما أورثها حكم الأتراك والمماليك من الفقر والجهل ، وما قاوم به الترك والشراكسة مشروعاته لإنشاء جيش حديث ، استطاع محمد على أن ينشئ جيشاً حديثاً وأسطولا قوياً ، وأن يمدهما بكل ما يحتاجان إليه مهما يصنع فى قلب البلاد . ولولا ذلك لعجزت البلاد عن القيام بأعباء الكفاح الحربى الطويل ، الذى اضطر إليه محمد على فى البلدان المجاورة[1] .

وفى هذا المضمار ، استعان محمد على ببعثة عسكرية فرنسية ، استقدم

---

(١) الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير لليوزباشى عبد الرحمن زكى (١٩٣٩)

ضباطها من فرنسا ، وآخرين من أسبانيا وإيطاليا . كما عنى بإرسال البعوث العسكرية المتباينة إلى المعاهد الحربية .

وأنشأ مدارس شتى للتعليم العسكرى ، وقسّمه إلى أنواع ، منها مدرسة للمدفعية وللمهندسين ومدرسة للفرسان وأخرى لأركان الحرب ومثلها للمشاة وواحدة للموسيقى ، فضلا عن المشافى ومدرسة للطب .

ولما كان إنشاء جيش قوى يتطلب أن تكون فى البلاد كل حاجاته من السلاح والذخيرة والمؤونة والأدوات والملابس وما إلى ذلك — فقد أقام هذا العاهل مصانع السلاح فى مصر ، فأنشأ ترسانة القلعة لصناعة الأسلحة وصب المدافع من أنواع شتى ، كما شاد معامل للبارود فى جزيرة الروضة والبدرشين والفيوم . . .

وأنشأ مصانع للغزل والنسيج والبطاطين لتمد الجيش والشعب بحاجاتهم ومصانع للحبال والطرابيش وسبك الحديد وطرق ألواح النحاس ودبغ الجلود .

وشيد الحصون والقلاع ، على ساحل مصر ، لأغراض الدفاع ، وأمدها بالمدافع والثكنات والورش .

أنشأ محمد على كل هذا ، حتى صارت البلاد كلها تعمل للجيش ، فى بابى الزراعة والصناعة ، ومما يتعين إبرازه — فى هذا السياق — أنه استطاع أن ينظم جيوشاً كبيرة وأسطولا ضخما محاربا ، وأن يقيم جل هذه المصانع والمعاهد ، لتدريب الجيش وتخريج رجاله وتغذيته بمطالبه جميعاً ، وأن يستمر على ذلك زمنا طويلا ، ويخوض حروبا عدة ، معتمدا على مرافق البلاد وقدرتها الاقتصادية دون سواها . ومن غير أن يقترض قرشاً واحدا من الخارج — وهذه وحدها حسنة تدعو إلى تمجيد ذكرى هذا الرجل ، فى كل آونة . ولولا ذلك لكانت منشآته الضخمة الواسعة النطاق نكبة على الأمة ...

سياسته الاقتصادية :

اعتمد رأس الأسرة العلوية على مبدأ الأرض للحاكم .. فحسّن طرائق الزراعة ، وراقب عمل الفلاح وزوده بالنصائح ، بل وأمده بالآلات ، وحفر

له الترع والمصارف – كما أدخل المحصولات الجديدة كالدخان والنيلة والقطن والحرير وزراعة الأشجار . فضلا عن إدخاله مساحات كبيرة من أراضى الصحراء وأصلحها للزراعة . . وبذا استطاع هذا القائد الموفق أن يبيع المحصولات المصرية فى الأسواق الأوربية . فأحرز ربحاً وافرا سهل له مواصلة إصلاحاته الكثيرة بدون ضيق أو عناء .

وكما أن محمداً عليا صار المزارع الوحيد[1] أضحى التاجر الوحيد ، ثم الصانع الوحيد ، أى أنه احتكر اقتصاديات البلاد ، أو بعبارة حديثة أممها ليضبط موارد البلاد بيد مدبرة ، ولينفق منها ما شاءت إرادته ، كما يقتضيه الصالح الوطنى .

وكانت الضرائب موردا هاماً لزيادة الدخل . وكانت منها ضريبة الأرض (الميرى) وضريبة « فردة الروس » التى فرضها على كل فرد مصرى بلغ سن الثانية عشرة ، وتتفاوت بحسب ثروة الرجل . فكانت تتراوح بين ٥٠٠ قرش و ١٥ قرشاً فى السنة – هذا فضلا عن عوائد الجمارك والذبح والسفن .

وتسنى لمحمد على ، بتشجيعه الصناعات ، أن يستغنى تدريجا عن الواردات والبضائع الأجنبية ، بحمايته تجارته وصناعته ، ولولا ذلك لما تهيأ له أن ينهض بقوات مصر الدفاعية وجعلها تعتمد على موارد البلاد ، على قدر الإمكان .

ومما يذكر أنه لم يتوفر المال لمحمد على ، فى بداءة الأمر ، لأن أبواب الإصلاح كانت مفتوحة على مصراعيها ، فضلا عن مطالبة السلطان بالنجدات العسكرية المثمرة . فلم تنعم مصر بحـالة سلم طويلة المدى فى ظل حكم محمد على . ولم يكد يقضى الأعوام الخمسة الأولى (١٨٠٥ – ١٠) فى التعرف إلى حاجيات مصر وما يستدعيه التنظيم الجديد للدار ، حتى التجأ إليه السلطان يطلب نجدته فى حرب الوهابيين (١٨١١ – ١٨١٨) . ثم

(١) ليس المقصود أن محمد على كان يضع يده على جل محصول الفلاح ، بل كانت الحكومة تترك له جانباً من المحصول ليبيعه بحرية

شغل فى حروب السودان ودارفور (١٨١٨ — ١٨٢٠) . وعقب ثلاثة أعوام طالبه السلطان بنجدته فى حملة المورة القاسية (١٨٢٢ — ١٨٢٨) فصرف كل دخله بوجه التقريب على إعداد الأسطول والجيش والعتاد . وفى عام ١٨٣٠ ظهرت بوادر سوء التفاهم بين محمد على وعبدالله الجزار ، ونشبت الحرب بينهما سنة ١٨٣١ ثم أعلن السلطان الحرب عليه (١٨٣١ — ١٨٣٣)

أما المدة بين ١٨٣٣ و ١٨٣٩ فكانت هدنة مسلحة أعد نفسه لحرب كبيرة حتى لا يؤخذ على غرة (١) .

وهكذا استنزفت الحروب معظم ما كان يجنيه محمد على من موارد الدولة إبان السلم .

الهدف

والآن ، وقد انتهى محمد على باشا من وضع أسس دولته ، وخط الخطوط الرئيسية لسياسته وأهدافه التى هيأها نصب عينيه ، ننسل إلى توضيح هذه الأهداف ، التى أرغم على تحقيقها مستعينا بالقوة ، وكان يبغى أن يتوصل إليها بالسياسة .

فعلى أثر انسحاب الجيوش المصرية والتركية من المورة، عقب معركة نفارين بدأ محمد على يراجع خطته السياسة العامة . فرأى أن الباب العالى لم يكافئه على خدماته وتضحياته حسبما وعده . فقط منحه حكم جزيرة كريت .

عندئذ بدأ لا يرحب بطلبات الباب العالى للنجدات العسكرية فى حربه ضد روسيا أو فى البلقان ، مكتفياً بإرسال إعانة مالية . فما كان من السلطان إلا أن اشتد حنقه على واليه فى مصر ، وراح يوقع بين محمد على وابنه إبراهيم .

ونرى محمدا عليا ، بعد معركة نفارين يعد نفسه لما عسى أن يحصل فى المستقبل . فلما استقر جنود حملة المورة بمصر ، شرع إبراهيم باشا يهيىء عقول

(١) A.E. Crouchley: The Economic Development of Modern Egypt; pp. 41-42

الضباط لاستقبال السياسة الجديدة مع الباب العالى . ومثل هذه السياسة تتجلى فى الخطبة التالية ، التى ألقاها خلال وليمة للضباط :

« ماذا استفدنا أنا وأنتم من السلطان . ألسنا فى الحقيقة كلنا أولاد محمد على الذى ربانا وعلمنا . ألم نأكل جميعاً من خيره . إن مصر لمحمد على . حق اكتسبه بالسيف ولا نعرف لنا ملكا غيره [١] .

الشرق أم الغرب :

ولم يكد الجنود المصرية ترتد إلى أوطانها بعد معارك الروم حتى يقدم دروفتى مندوب فرنسا فى مصر إلى محمد على مشروعاً يتعاون فيه الباشا مع فرنسا لفتح الجزائر وتونس وطرابلس ، وإخضاع شمال أفريقيا لها . وامتدت الأحاديث بين الرجلين شهورا — واشترط محمد على طائفة من الشروط الهامة فى صدرها تقديم سفن حربية ومدفعية ثقيلة وتمويل الحملة وغيرها وقبلت فرنسا غالبية الاقتراحات ولكن محمد على وازن القيم الاستراتيجية لهذا القطاع من شمال أفريقيا وتلك التى للشام والعراق . وتبدت له أيضاً ثمرات النصر فى الحالتين .

وأخيراً اعتمد على نفسه ، وعلى جيشه ، وعلى الله أولا . وأهمل نهائياً مشروع الجزائر . وهل بعد ملك الشام شيئاً آخر . إن امتلاكها يحميه ضد عدوان السلطان ، ويستر جناحه الأيمن ويمنحه السيادة على بيت المقدس ، حصن الأديان الثلاثة ، ويعطيه دمشق إحدى مدن الثقافة الإسلامية ، وتلى معظم حاجياته الاقتصادية .

ولم تك رغبة محمد على فى الاستحواذ على فلسطين (فقط) نتيجة لمشروع الجزائر . . . كلا — فإن محمدا عليا صرح فى عام ١٨١٢ للقنصل الإنجليزى فى مصر عن عزمه لفتح فلسطين عندما تحين الفرصة [٢] بيد أنه لم يقدم لأسباب شتى أظهرها عدم انتهائه من تنظيم قواته العسكرية على

(١) سجلات وزارة الخارجية (مصر) — من قنصل انجلترا العام ٨ يناير ١٨٣٢

(٢) Missett, June 20. 1812 (F. Office. 24-4).

الأساليب الحديثة . ونجدته للسلطان فى حرب الجزيرة العربية . كما أنه خشى الأثر الروحى للسلطان فى ولايته . فلما واتته الظروف ، امتشق الحسام ،

دوافع الحرب بين مصر وتركيا

١٨٣١ — ١٨٣٢

يتفق فريق من المؤرخين على أن النزاع بين محمد على باشا والسلطان محمود الثانى لا يرتد لأسباب قومية أو جنسية . والدليل على ذلك تصريحات محمد على لكبار الساسة أو ما خلفته لنا المحفوظات التاريخية .

فقد قال إبراهيم باشا ، فى خلال حملته الأولى فى الشام (١٨٣٢ — ١٨٣٣) « إن أبى لايزال العبد الخاضع للسلطان ، والمحامى عن الدين الحنيف[١] . ثم أكد محمد على للكولونيل هودجس (Hodges) فى سنة ١٨٤٠ إخلاصه لعرش الأستانة قائلا ماترجمته « أما من حيث تأييد العرش التركى فمن أكثر منى حمية فى ذلك ؟ . إن الشعب الملتف حولى يثور علىّ إذا حاولت أن أقلب ذلك العرش[٢] » . أضف إلى ذلك أن محمدا عليا كان على جانب وفير من الفطنة السياسية ، فعرف أنه لا يستطيع التغاضى عن مناهضة الدول الأوربية الكبرى إذا ابتغى أن يبدل الحالة الراهنة فى الأستانة .

إذن لم يك فى عزمة محمد على أن يحل محل السلطان على عرش الأستانة . فماذا كانت غايته من حروبه ؟ هل كان يرمى إلى إقامة عرش له فى وادى النيل فحسب ؟ نحن نذهب مع أصحاب هذا الرأى . فلقد ثبت أن محمداً علياً طفق يذكر الاستقلال فى أحاديثه حوالى سنة ١٨٢٥ وأثبت الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى مصر ما قاله محمد على حينما تناول أمنية الاستقلال هذه . والعبارة التالية مقتبسة من رسالة بعث بها الجنرال بوييه إلى الجنرال بيار فى الثامن عشر من يوليو عام ١٨٢٥ . قال فيها ما ترجمته :

(١) St. John, Egypt and Mohamed Ali, Vol. II. page 522.

(٢) Paton, History of the Egyptian Revolution. Vol. II. p. 169.

« أسهبت إليك فى كتاب سابق عما يتعلق بانتصارات إبراهيم باشا فى اليونان ، وأود أن أطلعك الآن على حديث سرى دار بينى وبين محمد على باشا حدثنى فى خلاله عن أمانيه . قال (محمد على) أنا أعرف أن السلطنة تسير يوماً فيوما إلى الردى ، وإنه ليصعب على أن أنشلها مما هى فيه . فلماذا أحاول المستحيل بوسائلى القليلة ؟ على أنى سأقيم على أنقاضها مملكة كبيرة ولدى جل الوسائل التى تساعدنى على الفور . إنى أستطيع أن أفتح عكاء ودمشق وبغداد بكلمة واحدة منى وبوساطة مقدرتى وجيوشى . وابنى المنتصر سيتوجه فى أقل من عام ليحقق مقاصدى على ضفاف دجلة والفرات لأنها حدود ثابتة للدولة التى أسعى فى إنشائها ، وستمكنه شجاعته العظيمة من الفوز[1]

الدوافع الحقيقية لحرب الشام الأولى

١ – تلقى المحفوظات الملكية المصرية ضوءا تتبدى خلاله دوافع الحرب المصرية التركية (الأولى) . وفى طليعتها – ولا مراء – نيات الباب العالى السيئة حيال مصر . وأول دليل على ذلك ما كتبه إبراهيم باشا فى خطاب إلى والده يقول له فيه :

« إن سوء النية والخديعة كامنان خلف المفاوضات ، التى تستر من ورائها الضربة القاصمة ، التى تعدها حكومة الأستانة ضد إبراهيم ووالده[2] » .

وكان محمد على قد رفع شكواه إلى الأميرال الكبير خليل باشا من المؤامرات التى تحاك حوله فى العاصمة التركية[3] . وكان إبراهيم ، على الرغم من انتصاراته فى الوقائع الثلاث عكا وحمص وبيلان ، على بينه من أن هزيمته فى الأناضول ستكون سبباً لخلاص مصر من أسرة محمد على[4] .

---

(١) Correspondance des Généraux Beillard et Boyer, p. 50.

(٢) وثيقة رقم ٥٨ محفظة ٢٣٢ بتاريخ ٢٣ رمضان عام ١٢٤٧ هـ من إبراهيم إلى محمد على

(٣) وثيقة رقم ٩ – ١٠ محفظة ٣ بتاريخ أول ربيع و ٢٥ جمادى الأولى عام ١٢٤٨

(٤) « « ٤٣ « ٢٤١ « ١٩ رجب عام ١٢٤٨ من إبراهيم إلى محمد على

وكان القائد لا يأمل فى توطيد سلم حقيقى بينا يجلس السلطان محمود على عرش آل عثمان .

ولا يغيب عنا أنه فى عام ١٨٠٥ ولى السلطان مكرها ولاية مصر لمحمد على ، وقد حاول فى السنة التالية أن ينقله إلى ولاية سالونيك . وفعلا وصل إلى مصر موسى باشا ، والى سالونيك ، يحمل فرمان سيده . وفى عام (١٨١٣ — ١٨١٤ (اجتذبت الأستانة ، إلى صفها ، لطيف باشا أحد رجال الحكومة المصرية ، وسلحته بفرمان لتقليده ولاية مصر ، إذا كللت مساعيه بالنجاح لقلب حكومة محمد على ، الذى عرف سر المؤامرة[١]. وفى عام ١٨٢٩ شاعت الأستانة أن توغر صدر محمد على ضد ابنه ، حينما نصبت إبراهيم باشا على مكة ، أظهر المناسب الشريفة فى الأمبراطورية العثمانية . وفى السنة التالية ، اقترح الباب العالى على الباشا (محمد على) ، أن يولى أدارة الثغور المصرية : إسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، إلى قبودان باشا ، عدوه القديم . . . الخ .

ولكى يذهب السلطان بعيدا فى الكيد لمحمد على ، فقد منح منصب الصدارة العظمى إلى خسرو باشا ، عدوه اللدود القديم .

ومجمل القول أنه منذ تقلد محمد على حكم مصر ، لم تفتر عزيمة السلطان عن انتهاج كل سبيل ، لعزل والى مصر من منصبه — ولذلك لا تعجب مطلقاً إذا نهض محمد على بمحاربة السلطان ، تستحثه إلى ذلك غريزة الدفاع عن النفس . يحارب للمحافظة على جاهه ، ومنصبه ، ومقامه . وأكثر من ذلك ، من المحتمل أنه كان يحارب للمحافظة على حياته أيضاً .

٢ — استقلال مصر :

هذه النوايا السيئة ، التى كان يضمرها السلطان لمحمد على ، خلال السنوات ١٨٠٥ — ١٨٣١ أيقظت الحذر بين جوانح محمد على ، الذى كان يتوقع نشوب الحرب فى أى وقت . لذلك رأيناه يعبئ موارد دولته ،

---

(١) Driault, Mohammed Ali et Napoleon (1807-1814) pp. 233-239.

ويؤمم تجارتها وصناعتها بل وأرضها ، وينشىء القوات الدفاعية ليحمى ذمارها ، من العدوان المرتقب . ولكى يعلن الاستقلال فى الوقت الملائم — وأن نضاله فى سبيل استقلال مصر أبانت عنه طائفة من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الباب العالى وكبار رجاله ، الذين يشغلون المناصب الهامة ، فى حكومة الشام . وكذلك فى الخطابات المتبادلة بين محمد على وإبراهيم .

وكان فى طليعة أعداء محمد على من هؤلاء الموظفين — عبد الله باشا الجزار والى عكاء ، فكان يكيل التهم جزافا ضد محمد على . وكان يطلق عليه الثائر والخارج عن طاعة السلطان . وكثيراً ما طالب رعايا السلطان أن يعلنوها حربا شعواء لا هوادة فيها ، لنصرة السلطان على محمد على .

وكان إبراهيم يعبر بصراحة عن الاستقلال ، سواء فى مجالسه الرسمية ، أو فى مكاتباته مع والده أو كبار الموظفين . كتب مرة من حلب إلى حاكمها التركى محمود باشا ، الذى هزمه فى حمص ، معبرا عن تصميمه على الاستيلاء على الأراضى العربية ، وليقطع نهائياً صلتهم بالحكومة التركية [١].

وبعد أيام قلائل ، صرح إبراهيم باشا للأمير بشير بعزمه على احتلال أدانة ، ليغلق الاتصال بالاستانة . وقد ثبت ذلك فى نشرة الجيش بتاريخ ، ٤ ربيع الأول عام ١٢٤٨ هـ . وفى مكاتبة أخرى لإبراهيم نادى أبيه بلفظة يا صاحب الجلالة وذكر كلمة مصر المستقلة [٢] . وفى تقرير سرى آخر من إبراهيم لأبيه أشار إلى الجهود المخلصة التى أضطلع بها لتدعيم أسرتهما [٣].

وعقب انتهاء معركة قونية ، وقبل احتلال كوتاهية ، وبينما كانت مفاوضات السلم دائرة ، كتب إبراهيم باشا إلى أبيه الخطاب التالى ، يقول له فيه :

---

(١) نشرة الجيش التى كان يقوم بها وحيد افندى . وثيقة رقم ١١٩ محفظة ٢٣٦ عابدين بتاريخ ٢٠ صفر عام ١٢٤٧هـ

(٢) إبراهيم باشا إلى محمد على باشا — وثيقة رقم ٧٢ عابدين محفظة ٢٣٨ بتاريخ ٩ ربيع الثانى عام ١٢٤٨هـ

(٣) من إبراهيم باشا إلى محمد على باشا — وثيقة رقم ١٩٠ عابدين محفظة ٢٤٠ بتاريخ ٢٧ جمادى الثانى عام ١٢٤٨هـ

. . . وطالما يتربع على العرش – السلطان محمود – فسوف لا نصل بقضيتنا إلى حل مقبول . وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التى قد تظهر فى صالحنا ، فإنه سيعمل كل ما فى وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة ، مما يجعل الأمة الإسلامية لا تعيش فى سلام – ولذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الإسلامى تتطلب منا أن لا نفكر فى مصالحنا فقط . بل وفى صالح رفاهية وسعادة الأمة الإسلامية . وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين لكى يجلس على العرش العثمانى وريثه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة . وباتخاذنا هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الإسلامى . وإذا طرأ فى ذهن أى أحد أن هذه الإجراءات سوف لا توافق عليها الحكومات الأوربية . فليس هناك خوف من تداخلهم . وإذا لم يرضوا بإجراءاتنا فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا . فإذا أحيطوا علماً بما تم ، نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع .

إننى فى طريقى إلى بروسه وموادانيا وسأسرع للوصول إليها . . . وسوف لا أستطيع القعود فى مكانى مدة أطول وإلا ساءت الأحوال لأن المؤنة فى قونية وما حولها لا تكفى قواتنا .

وفى أثناء فترة الهدنة المسلحة ، وقبيل نشوب الحرب الثانية بين الدولتين ، كتب إبراهيم لأبيه من كوتاهية رسالة تفصح عن أهدافه لما علم بوصول خليل باشا ، مندوب الباب العالى والجنرال مورافيف الروسى ، إلى محمد على ، لعقد الصلح على صورة مرضية . قال إبراهيم أن أهم ما يلزم البحث فيه معهما هو طلب الاستقلال وطلب إلحاق جزيرة قبرص وألوية أنطاكية وعلائية وجزر إيجه بمصر – ثم ضم تونس وطرابلس الغرب إذا أمكن .

وقال له أيضاً إننا إذا تهاودنا فى طلب الاستقلال يذهب كل عملنا الذى عملناه هباء وسدى . ولا يمكننا فيما بعد أن نخلص أنفسنا من إرهاق تلك الدولة بالتكاليف التى لا تنقطع . . . وما إليها مما تأتى فى هذه الوثيقة الهامة [1] .

---

(١) الوثيقة رقم ٨٥ – عابدين محفظة ٢٤٣ بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٢٤٨هـ

ولا ندرى – إلى أى مدى – كان الأب متفقاً فى الرأى مع الابن ؟ هل شاركه فى سياسته أم كان له نظرة أخرى ؟ ولكن الشىء الذى لا ريب فيه أن محمد علىّ كان يهدف أيضاً إلى الاستقلال . فقد تحدث عنه فى بداءة عام ١٨٢٥ . فى الخطاب الذى صاغه الجنرال بوييه رئيس البعثة العسكرية فى الجيش المصرى إلى الجنرال بليار (١٨ يوليو ١٨٢٥) وقد سبق ذكره .

وبعد خمس أو ست سنوات ، كتب محمد على لابنه رسالة سرية ، كانت تنم عن رضاه التام بخطة الابن فى استقلال مصر التام ، بيد أنه كان حذراً للغاية فى طريقة تنفيذ الخطة ، أى فى نوع التكتيك ، وإن كان هدفهما واحداً وهو (استقلال مصر) .

٣ – مصر لا تفى بحاجات الدولة الناهضة (المواد الخام) :

قبالة أمنية محمد على وإبراهيم للاستقلال بوادى النيل ، ارتأى الاثنان أن يعجلا بوضع أيديهما على الشام ، للإشراف على مقدراتها[1] .

لقد كانت مصر ، منذ مائة عام ونيف ، بالرغم من خصوبة تربتها لا تفى سكانها . وما كان يزرع فيها من أشجار الجميز والسنط لم يسد حاجة الأسطول والتعمير إلى الخشب . فكانت مصر تستورد معظم الوقود والأخشاب التى تدعو إليها حاجتها ، فى أعمال الحرب والسلم ، فى بناء السفن التجارية لنقل الغلال عن طريق النيل إلى اسكندرية ، وبحرا إلى مرافئ الشرق الأدنى . وصنع البوارج والنقالات الحربية ، التى لم تك هناك مندوحة من إنشائها فى حروبه .

نعم ، زادت ثروة مصر من الحاصلات الزراعية ، كالقطن والنيلة ، ومختلف المواد الغذائية . فلم يك من الصواب فى شىء أن تزرع فيها الغابات ليستعاض بأخشابها عن الاستيراد ، كما أنه لم يستفد من خشب السودان

(١) Asad Rustum: The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830-1841).

بعد أن تم فتحه . فاضطر محمد على إلى أن يحذو حذو تحوتمس الثالث ورمسيس الثانى وابن طولون للبحث عن الخشب ، فى سورية وبلاد القرم . وقد عرف رجال محمد على الانتفاع بحراج الشام والأناضول ، فى الفترة بين ١٨٣٢ و ١٨٤٠ ، فأرسلوا إلى مصر مئات الآلاف من جذوع الأشجار ، انتفع بها فى بناء البوارج ، وفى معامل الذخيرة والسلاح فى مصر .

كذلك كان لبنان غنياً بالمعادن ، من حديد ونحاس وذهب وفضة وزنك ، وقد كانت أبحاث بعض المعدنين ، الذين أوفدهم محمد على للبحث عنها ، من أقوى العوامل على تقرب محمد على من ولاة سورية ورغبته فى ضمها إلى مصر .

هذا كان موقف محمد على من المواد الرئيسية لصناعة الحرب وعتادها . كما كانت حاجته إلى المادة البشرية — وهى الرجال أهم خامات القتال .

لا ريب أن مصر أمدته فى كل حروبه بالرجال المكافحين . ولكن بعد فشل جهوده لتجنيد السودانيين ، رأى فى رجال الشام مادة تعينه . فتطلع إليهم لأنهم كانوا بطبيعة بلادهم شديدى البأس . كما أنهم كانوا كثيرى العدد . يعادلون سكان مصر آنذاك[١] وقد رحل من هؤلاء عدد وفير من أشدائهم الذين لجأوا إلى والى عكا ، لذلك لا نعجب إذا ألفينا محمد على يعتمد على أهل الشام فى جيوشه . وهو القائل :

« من جبال لبنان أجند جنودى . فأدرب منهم جيشاً كبيراً ولا أقف به إلا على ضفاف دجلة والفرات[٢] ».

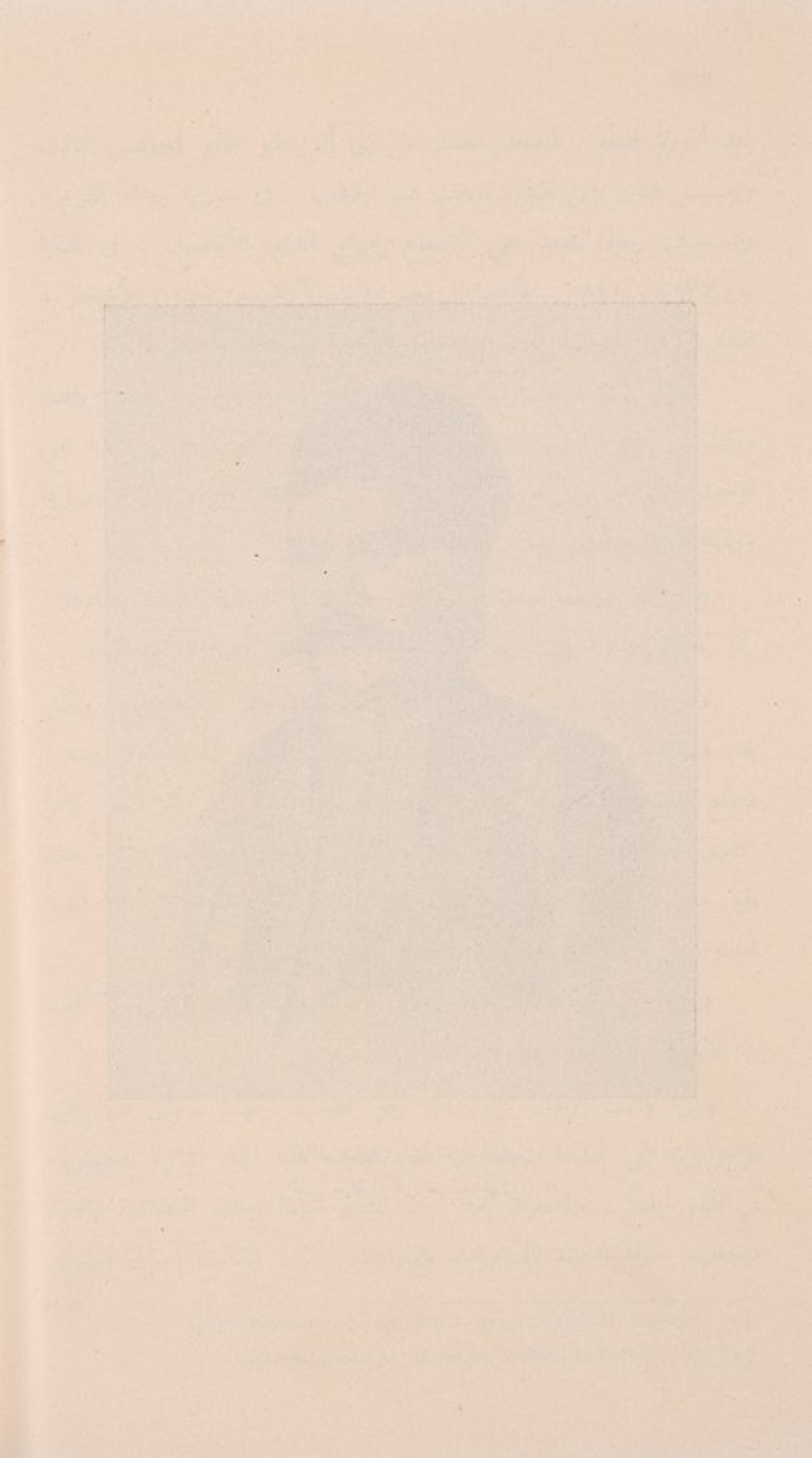
وإلى جانب الرجال أراد المال وهو عصب الجهاد . رأى أن يطبق الإجراءات التى نفذها بنجاح فى مصر ودرت عليه المال اللازم للجيوش — فى الشام أيضاً . والقُطران يمكن أن تؤلف منهما وحدة اقتصادية واحدة فيجعلهما سوقاً واحدة للصادرات والواردات . . وكانت أسواق مصر فى

(١) Guys: Beyrout et Liban. Vol. I. 275-276. Vol. II. 209-210.

(٢) Correspondance des Generaux Beillard et Boyer, p. 79.



القائد سليمان باشا الفرنساوى
رئيس هيئة أركان حرب الجيش



حاجة إلى الحرير والصابون وزيت الزيتون والتبغ والماشية . . . فضلا عن الخشب والمعادن .

إذن كانت الشام وضمها إلى وادى النيل أظهر العوامل فى نشوب الحرب لأنها كما يقول المؤرخ أسد رستم :

... Supplemented Egypt in a number of its economic necessities and offered an endless number of possibilities for the monopolies of the Pasha

٤ – مصر والشام وحدة طبعية وجغرافية :

ارتأى محمد على ، مثلما ارتأى أسلافه سلاطين الأيوبيين والمماليك ، أنه لا يتسنى التوسل بالسلم وحدود بلاده الشرقية مفتوحة فى وجه سلطان آل عثمان . فإن صحراء سيناء وحدها لا تعد خطا منيعاً للدفاع – والدفاع عن وادى النيل من الشرق يبدأ خطه الأول فى جبال طوروس كما لا يخفى . كذلك جبال سوريا الشاهقة وأوديتها العميقة وشعابها الضيقة . هذه وتلك كانت حاجزا طبعياً دون تقدم جيوش السلطان محمود جنوباً ، إذ لم تك فيها طرق صالحة لسير الجيوش . وهى مقبرة لجيوش الفرنج فى العصور الوسيطة ، كما كانت لجيوش المغول والحيثيين من قبلهم .

كان على الجيش العثمانى ، الذى يقدم على غزو الشام ، أن يجتاز جبال طوروس من طريق واحد أو من طريقين . وهذا أمر كان يعوق تقدمه كثيراً . وكان متعيناً عليه أن ينقل جل مهماته وحاجاته فى طريق وعر . فإذا أكره على التراجع استهدف لخطر كارثة تحل به فى ارتداده على عقبيه لاجتياز جبال طوروس ثانية .

أما محمد على فكان له وراء هذا الخط الأول من خطوط الدفاع خط ثان فى لبنان ، حيث كان فى وسعه الاعتماد على تأييد الأمير بشير الشهابى وأتباعه . كذلك كان له خط ثالث فى جبل الكرمل . وخط رابع فى صحراء سيناء . فضلا عن انتفاعه بالثغور على الساحل الممتد من اسكندرونة إلى اسكندرية .

والخلاصة أن الشام ومصر كانتا ، منذ مائة عام ، تؤلفان وحدة اقتصادية وجغرافية طبعية . وقد اعترف محمد على بهذه الحقيقة منذ أوائل عهد ولايته . ورغب بحروبه فى أن يجعل الإقليمين وحدة سياسية أيضاً . فقد كتب إلى وكيله فى الآستانة نجيب أفندى يقول « إن الشام لازمة لسلامة مصر »[١] .

٥ – إبراهيم والقومية العربية المصرية :

يقول الأستاذ المؤرخ شفيق غربال بك إن محمد على بدأ وعاش وانتهى عثمانياً مسلماً ، وإن مهمته كما حددها من مستهل الأمر إلى آخره كانت إحياء القوة العثمانية فى ثوب جديد . ورمى إلى أن يجد مكاناً لعالمه العثمانى الحى ، فى الدنيا الجديدة ، التى خلقها الانقلاب الاقتصادى فوصل بين أجزائها (بلاد العرب والشام ووادى النيل) وصيّرها وحدة حقيقية على الرغم من المنافسات القومية[٢] .

وفى مكان آخر من كتابه عن محمد على الكبير يجيب المؤرخ عن السؤال : « وما قدر مصر فى تفكيره وغاياته ؟ » الجواب الآتى :

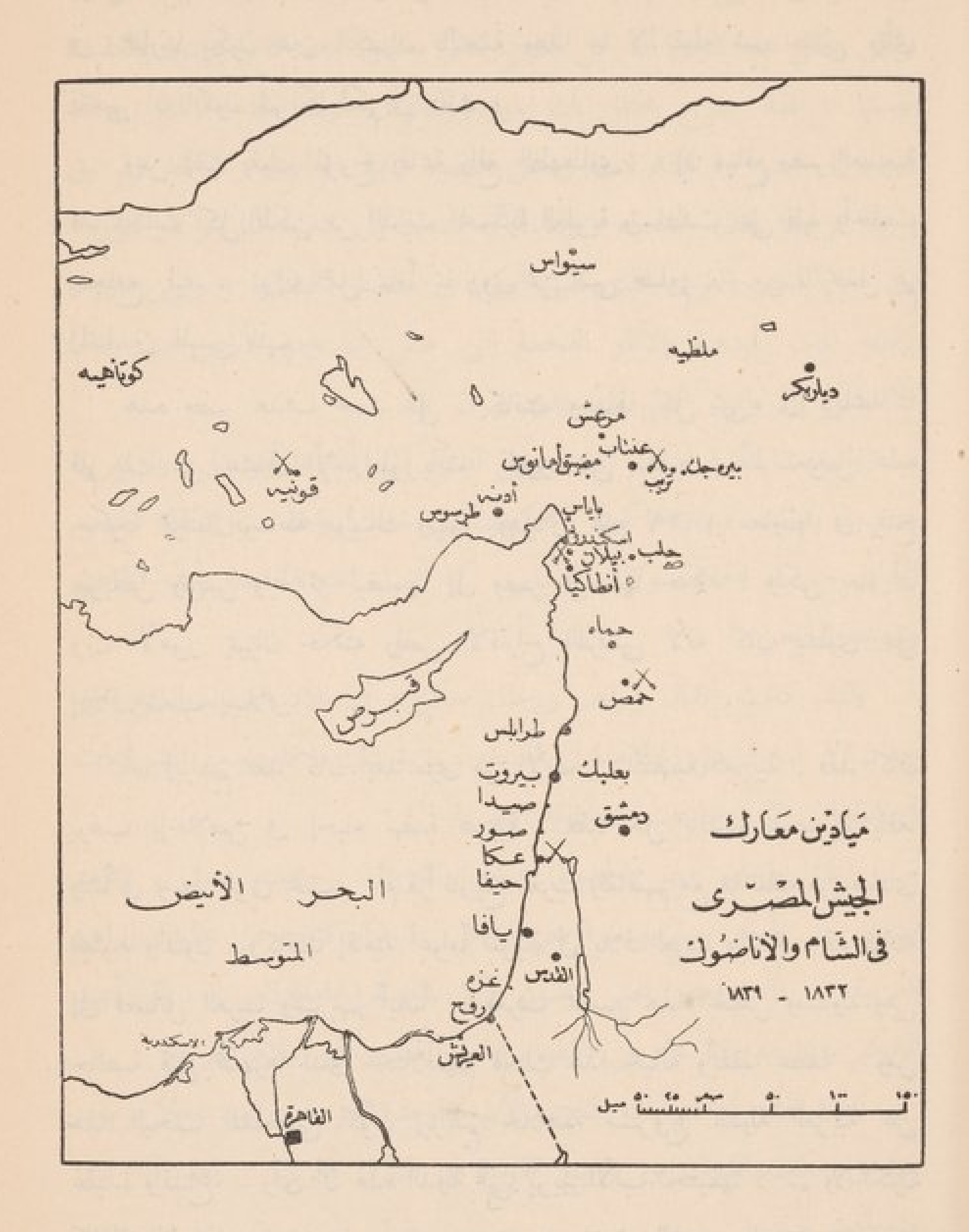
إن قدرها فى عينه عظم عظم المشروع كله . هى القلب من الجسم الحى الذى يروم أن يرى . وأبناؤها أعوانه فى البناء الكبير . نالت من حبه ونالوا من حبه القدر الأكبر رفض أن يتخذ منها عالماً صغيراً ضيقا محدود الآفاق ضعيف الآمال . كما رفض أن يكون معول الهدم فى العالم العثمانى حتى ولو كان الهدم اسمه الاستقلال والباعث المحرك له اسمه العصبية القومية . وكان خير من يعلم أن انفصام الوحدة العثمانية معناه تشتت قوتها وأجزائها ووقوع الأجزاء جزءاً جزءا فى حكم الدول الغربية .

لقد أحب محمد على مصر الحب كله . أو لم يقل فى منشور له من تلك المنشورات الممتعة التى يعبر بها عن كل ما يجول فى نفسه : إن نيلنا

---

(١) وثيقة رقم ٨ – عابدين محفظة ٣ بتاريخ ٣ محرم سنة ١٢٤٨هـ من محمد على باشا إلى نجيب افندى

(٢) الأستاذ محمد شفيق غربال بك – محمد على الكبير – سلسلة كتب أعلام الإسلام



ميادين معارك
الجيش المصري
فى الشام والاناضول
١٨٣٢ - ١٨٣٩
سيواس
ملطيه
ديار بكر
كوتاهيه
قونيه
مرعش
عنتاب
بيره جك
نزيب
مضيق أمانوس
أدنه
طرسوس
باياس
اسكندرونة
حلب
بيلان
أنطاكيا
حماه
حمص
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
حيفا
يافا
القدس
غزه
رفح
العريش
البحر الأبيض
المتوسط
الإسكندرية
القاهرة
ميل

لوطن عديم النظير كهذا هو من النعم الجسيمة وعدم القيام بالسعى والاجتهاد فى عمارتها يكون عين الكفران بالنعمة وهذا ما لا تقبله شيم جبلتى وتأبى نفسى أن أكون شريكا لكم فى ذلك » .

وعن ذلك يقول المؤرخ رفاعة رافع الطهطاوى : « إن منافع مصر العمومية قد تمكنت كل التمكن من الذات المحمدية العلوية وتسلطنت على قلبه وأخذت بمجامع لبه ، وإنه عمل تماماً بما روى عن النبى صلعم : « من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم » .

هذه مصر هدف محمد على . كانت وحدها كل شىء فى برنامجه ، فلم يك من عشاق الإمبراطوريات كغيره ممن سبقوه . ألم تعرض عليه حكومة فرنسا بوساطة بوليناك وميمو وهودار عام ١٨٢٩ معاونتها فى فتح طرابلس وتونس والجزائر ليضمها إلى مصر فيشملها حكمه ؟ ولكن بعد أن وزن الأمور بميزان حكمته رفض الاقتراح الفرنسى لأنه كان ينطوى على إذلال شعب إسلامى .

أما إبراهيم فقد كان أبعد مرمى من الأب فى القضية العربية . فقد كان يرغب بإخلاص فى إحياء نهضة عربية . فقد حل بالديار المصرية يافعا ونشأ فى وسط عربى بحت . ثم قرأ تاريخ العرب وثقافتهم مع ما تلقنه من مبادئ العلوم والفنون . وكانت إقامته أعواماً طويلة فى بلاد العرب والشام . قد قربته إلى فضائل العرب وعيوبهم أيضاً . فعرف محاسن هذا الجنس ومساوئه وهى خالصة قبل صهرها لدى اختلاطهم فحك هذا خياله وأيقظ عطفه . ومن هذا البحث الشخصى كوّن إبراهيم خلاصة مشروع الدولة العربية عن عقيدة واقتناع — رأى أن هذه الدولة التى يريد الأب تحقيقها لا تتم ولا تكون كاملة إلا إذا دعمت على أساس متين هو إحياء الشعب العربى وإنهاضه فتكون الدولة شامخة قوية ، روحاً وبنياناً .

ولقد يخيل إلى البعض أن تصريحات إبراهيم عن العروبة ، وإحياء التراث العربى ، لا تخرج عن عبارات الدعاية ، التى يلجأ إليها الساسة

والفاتحون لتخدير الأعصاب . . . أعصاب الشعوب المغلوبة على أمرها .
ولكن يبطل هذا الرأى أن كل الذين كانوا يعملون معه كانوا يؤمنون بالعقيدة نفسها ، فقد صرح مختار بك ياور إبراهيم فى حرب الشام قائلا : « لقد قدمنا إلى مصر ولم نكد نتجاوز سن الطفولة ولذلك لم نعد تركا قط ولم تبق رابطة تربطنا بذلك الشعب . إننا الآن ننتسب إلى شعب أنبل وأكثر تنورا ، إلى هذا الشعب العربى الذى سبق أوربا فى مضمار الحضارة ، وزين تاريخه بإقامة المدن المزدهرة والآثار الفخمة التى غطى بها وجه الأرض من جبال الأندلس إلى وادى النيل إلى حدود إيران » .

واتجهت فكرة إبراهيم إلى تحويل الدولة التى أنشأها أبوه إلى دولة عربية صميمة ينتسب فيها الحاكمون والمحكومون إلى شعب واحد . وإعطاء الجنس العربى جنسيته الخاصة وكيانه السياسى كما أن له لغته الخاصة وأدبه الخاص وتاريخه الخاص .

ولقد كانت أعمال إبراهيم ورجال حكومته فى بلاد العرب والشام خير برهان (١) صادق على إخلاصة فى عقيدته ، يؤيد ذلك ما قام به من المشروعات فى البلدان التى خضعت للحكومة المصرية (٢) .

ويتفق مؤرخو مصر الحديثة : شفيق غربال ، ومحمد رفعت ، ومحمد صبرى ، وأسد رستم وعبد الرحمن الرافعى ، فيما كتبوه عن عقيدة إبراهيم العربية ، الذى يعتبر بحق المؤسس الأول لمؤسسة الجامعة العربية ، التى أعيد التفكير فيها بعد مائة عام من انقضاء الحكم المصرى فى البلاد العربية .

لذلك نعتبر إبراهيم باشا المنادى الأول بالوحدة العربية ، فهو — ولا مرية — يستحق مكان الشرف فى تاريخ القومية فى الشرق العربى ، وهو كما قال عنه أسد رستم :

"He is the first Moslem of rank in the Arab World who conceived

(١) George Douin: La Mission de Baron de Bois le comte L'Egypte et la Syrie en 1833 p. 249-250

(٢) الأستاذ محمد كرد على — خطط الشام — ج ٣ ص ٥٧

of an Arab Movement and who was determined to make it effectual''

* * *

هذه أهم دوافع النضال التى استثارت الحرب بين محمد على والباب العالى ، وإن كان بعض المؤلفين جروا فى كتبهم على إيراد أسباب سطحية أخرى ، تكاد تتفرع عن الأسباب الرئيسية التى بسطناها يذكرون من بينها :

أن سوء التفاهم الذى ساد بين عبدالله باشا الجزار والى عكاء ومحمد على باشا ، مرجعه هجرة الفلاحين من مصر إلى ولاية الآخر ، وعدم وفاء عبد الله بدين عليه ، وسوء نيته وطموح محمد على للتسلط والتملك .

وما أشبه من أسباب أخرى . . .

حملة الشام الأولى

الجيش المصرى فى عام ١٨٣١ :

كان عدد الجيش المصرى النظامى ، حينما أعدت حملة الشام ، حوالى ٧٠٠٠٠ موزعة بين الأسلحة على الوجه الآتى :

١٨ آلاى مشاة .

٨ آلاى خيالة

١ آلاى مدفعية

علاوة على وحدات من المهندسين واللغامين وقوات غير نظامية .

أما الوحدات ، التى خصصت للحملة بقيادة إبراهيم ورئاسة هيئة أركان حرب سليمان باشا ، فكانت تتألف من :

٥ آلايات مشاة ، وهى الآلايات ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٣ وآلاى الحرس

٤ آلاى خيالة ، وهى الآلايات ٣ و ٥ و ٦ و ٧ المدرعة والرماحة

١ أورطة مدفعية تحتوى على ٤٠ مدفع ميدان و ٢٠ مدفع حصار و ١٠ هاون (زيدت فيما بعد) .

٤٠٠ جندى من المهندسين .

١٢٠٠ خيالة من البدو .

وكان في كل آلاى خيالة أربعمائة جمل ، لنقل المتاع والمياه ، كما ألحقت بكل أورطة حملة لنقل حاجاتها وقد أربى تعداد الحملة بأسرها على ٢٥٠٠٠ جندى ، منها ٣٠٠٠ خيالة [١] .

الأسطول :

وتألف الأسطول المصرى من ٢٣ سفينة حربية ، منها ٧ فرقاطات ، و٦ قرويته ، و ٣ أباريق ، و٧ سفن مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة. وهذه الوحدات البحرية كانت تحت إمارة أمير البحر عثمان نورالدين باشا .

الخطة العامة

تتفق — إلى مدى بعيد — خطة فتح الشام بقيادة إبراهيم ومثيلتها بقيادة نابليون . والفارق الأوحد أنه لم تك لهذا السيادة البحرية التامة فى شرقى البحر المتوسط نظراً لوجود الأسطول الإنجليزى ومنعه من حرية العمل . بينا اعتمد إبراهيم على تعاون قواته البحرية والبرية ، مثلما فعل تحوتمس ورمسيس من قبل . فقد كان الاتصال مستمرا ، عن طريق البحر ، بين مصر وقوات إبراهيم البحرية ، الشيء الذى افتقده نابليون ، وبعبارة أبين لم يك متيسراً .

قسمت وحدات الحملة إلى قسمين : كان على رأس القسم الأول إبراهيم ، الذى اتخذ البحر طريقاً يصل به إلى يافا ، وكانت قاعدته ثغر العريش . أما القسم الثانى فكان يقوده إبراهيم يكن وقد تحرك براً من الخانقاه.

---

(١) جاء فى كتاب تاريخ الحرب الشامية لـكاد لفين وبارو وصف موجز لآبار المياه ، التى مرت بها الحملة فى طريقها إلى يافا وكفايتها لإمداد المياه .

وصف ميادين الحرب

الشام وفلسطين

قبيل الخوض فى الحملات العسكرية ، فى فلسطين والشام ، يتعين أن نأتى بوصف موجز لأراضى هذا الإقليم ، التى تتألف منها ميادين المعارك التى نتناولها ، لأن الأرض وشكلها — كما لا يخفى — هى التى تملى نوع الحركات العسكرية وعملياتها التى يخوضها القائد الكبير إلى الجندى الصغير . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الجيش فى الميدان أشبه بالماء فى الوعاء ، يتشكل به حسبما يشاء !

يتيسر تقسيم سورية إلى أربع مناطق ، تتباين فى السعة ، تمتد من الشمال إلى الجنوب بموازاة بعضها تقريباً ، وأولى هذه المناطق — الشاطئ ويتكون من عدة سهول ساحلية ، تختلف فى اتساع رقعتها . وينفصل بعضها عن بعض بالجبال التى تمتد فى بعض الجهات ، إلى ساحل البحر المتوسط . مثل جبل الكرمل فى لبنان ، وجبال أحمر داغ بالقرب من أنطاكية . ومعظم المناطق الساحلية ضيقة ، إلا أنها تتسع فى الجنوب لدى سهل شارون . ويبلغ متوسط عرضه هناك حوالى ١٥ ميلا . وكثيراً ما تتجه السهول الساحلية نحو الداخل ، سائرة مع مجارى المياه ، ووديان الأنهار ، كسهل أسدرائيلون شمال الكرمل ، ووادى العاصى (الأورنت) لصق أنطاكية . غير أنه فى الوسط ، حول طرابلس وبيروت ، تضيق المنطقة الساحلية وتشبه شريطاً وعراً للغاية .

والمنطقة الثانية تشتمل على الجبال المشرفة على السهل الساحلى ، وهى ثلاث سلاسل جبال : الأنصارية فى الشمال (كابسوس قديماً) ولبنان فى الوسط ، وافرايام ويهودا فى الجنوب . والسلسلتان الأولتان عبارة عن جبال شامخة تصل فى بعض جهاتها إلى ١١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . أما الأخيرة فلها سطح فسيح غير منتظم ، وقليلا ما يتجاوز ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم .

وتحتوى ثنايا وقمم هذه الجبال على مناطق خصبة آهلة بالسكان .

والمنطقة الثالثة تشمل الأودية العميقة ، التى تسلك فيها الأنهر الثلاثة : العاصى ، والليتانى ، والأردن . ويصب الأولان فى البحر مباشرة — الأول فى فجوة لدى جبال الأنصارية وجبال أحمر داغ ، والثانى فى فجوة أضيق لصق صور من الشمال . أما الأردن ، ومعظم مجراه ينخفض عن سطح البحر ، فإنه يصب فى البحر الميت المغلق . ويتميز العاصى والليتانى بخصب وديانهما الفسيحة ، أما وادى الأردن فضيق لا يتهيأ عبوره إلا فى مناطق قليلة ، ويمتد وادى الأردن إلى الجنوب ، ويتصل بوادى العرابة الذى يصل إلى خليج العقبة .

وإلى شرق منطقة الوديان ، تقع الهضبة الشرقية الشامخة (التى يسميها القدامى جوف سورية) وهى مسطحة فى بعض الأماكن ، جبلية فى البعض الآخر ، ومتصلة بصحراء قاحلة ، فى كثير من المواضع . ومع ذلك تكثر فيها الأماكن الخصبة الوافرة المياه والثمر ، كالأراضى الواقعة حول حلب وحول دمشق وأرض مؤاب .

وفى الشمال يكون نهر الفرات وروافده حداً فاصلا ، تصلح فى حناياه العمليات العسكرية الوسيعة الحركات .

هذا هو وصف جغرافية الشام ، مسرح العمليات الحربية ، بإيجاز .

أما من الناحية الإدارية فقد كانت الشام مقسمة إلى خمس ولايات :

ولاية حلب ، وهى القسم الشمالى من البلاد .

ولاية بيروت ، وهى السواحل البحرية وما يليها فى داخلية البلاد ، من اللاذقية شمالا إلى حيفا جنوباً .

ولاية الشام (سورية) وقاعدتها مدينة دمشق ، وهى تشمل داخلية البلاد وشرقيها .

متصرفية القدس ، وهى تتضمن جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود مصر الشرقية .

متصرفية لبنان ، وهى الخامسة ، وكان لهانظام خاص واستقلال إدارى ولها وال تعينه الدول مع الباب العالى كل عشر سنين ، وموقعها فى أواسط بلاد الشام ، بين ولايتى سورية وبيروت .

وكانت مقاليد الحكومة بيد والى الإيالة الشامية ، وكان فى معظم الأحوال مستبداً ، وكثيراً ما صادر أموال الناس ، أما الشئون العسكرية فكان مرجعها مشير الجيش العثمانى ، ومقره فى دمشق .

كان الخراب شاملا البلاد ، والضرائب فادحة ، والظلم فاشيا . وظل الحال سنين طويلة على هذا النسق ، حتى صارت البلاد على شفا الدمار . إلى أن منّ الله بالفرج ، بدخول القوات المصرية ، فأمن الناس على أرواحهم وأموالهم [١] إلى قبيل مبارحتها البلاد فى عام ١٨٤١ . ولم يزل أهل الشام يتحدثون بإبراهيم باشا وحكومته إلى هذا الحين . وكان محمد باشا شريف واليا على الشام من قبل محمد على ، فجرى على خطة مولاه من الإصلاح والعدل ، مما اعترف به المؤرخون من أهل البلاد أو غيرهم وكذلك ما شاهده الرحالة أو رجال الحكومات الأجنبية .

مسير الحملة :

حدد ميعاد مسير الحملة فى أوائل عام ١٨٣١ ، بيد أنه تأجل من جراء انتشار الكوليرا فى مصر ، وقضت على حوالى خمسة الآف من رجال الجيش فحسب . . .

وفى يوم ٢٩ أكتوبر عام ١٨٣١ ، تحركت الطليعة ، من معسكر الخانقاه ، بقيادة اللواء إبراهيم يكن [٢] فمر ببلبيس والصالحية فقاطية فبئر

---

(١) حسر اللثام عن نكبات الشام — طبع مصر سنة ١٨٩٥

(٢) الملقب بالصغير — وهو ابن شقيقة محمد على باشا — ولد فى مصر عام ١٨٠٤ ، وهو شقيق أحمد باشا يكن الذى ولى على الحجاز ثم عين ناظراً للجهادية — ويلاحظ أن معظم قواد الحملة كانوا شباناً ومنهم إبراهيم باشا الذى لم يتجاوز الثالثة والأربعين بعد — كذلك أحمد المنكلى وسليم الحجازى وعباس حلمى الأول

العبد والعريش ، حيث استراح يوماً ، ثم وصل خان يونس فغزة[1] ومنها اتجه إلى يافا حيث تقابلت القوات مع وحدات القائد إبراهيم باشا ، الذى بلغها بحرا . فلما رسا الأسطول قبالة ثغرها نزل وجهاؤها وعرضوا عليه التسليم . وكانت حاميتها ٢٥٠ جنديا فأنزل بلوكا لاستلامها واستولى على مدافع قلعة يافا وكانت ٤٧ مدفعاً بذخائرها[2] .وهنا اجتمع قسما الجيش لتنفيذ الخطة الرئيسية .

ثم اندفعت كتيبة صوب بيت المقدس فاحتلتها ، كما تقدمت وحدات خفيفة أخرى يقودها حسن بك المناسترلى واستولت على صور وصيدا وبيروت وطرابلس .

الترتيبات الإدارية :

أن حملة عسكرية كبيرة مثل هذه كان لا بد لها من ترتيبات إدارية منظمة . ففضلا عما كان يحمله الجنود معهم من التعيين الميدانى فقد كان يرسل البقسماط على سفن من مصر إلى ثغور الشام . وأنشئت النزلات فى المدن والموانئ ، وخزنت بها كميات وفيرة من التعيين الجاف ، والذخيرة ، والبارود ، والخرطوش ، والأكياس ، والقذائف الحجرية ، وغيرها من الفشيك وعتاد الخيل ومهمات المدافع . وكان يرسل منها بانتظام كشوف عن الموجود من مختلف الذخيرة فى مستودعات الجيش ، كلما امتدت خطوط مواصلاته. وقد حفظ لنا التاريخ اسم مدير أكبر مستودعات التموين وهو نظيف بك ، كما أقيمت مستشفيات الميدان .

وقد عثرنا على وثيقة هامة ، عبارة عن تقرير من المهندس قاسم أغا بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ (١٨٣٢ م) تحتوى على آراء هامة فى هذا

---

(١) كانت لغزه قلعة منيعة تقع على مرتفع خربها الفرنسيون تخريباً تاماً ولم يلق المصريون أية مقاومة من رجالها .

(٢) ليافا موقع أهم من غزة لقربها من البحر ، وثغرها يسمح لرسو السفن وكان للمدينة سور وأبراج منيعة

الصدد ننقلها لأهميتها[١] .

بما أن الجيش المصرى أصبح بعيداً عن مصر يحول بينه وبينها الصحراء ، وأن طريق البحر ليس بمأمون دائما وأنه ليس هناك غلال لتموين الجيش لسبب ما استحكم فى البلاد المفتوحة من القحط والغلاء فأقترح ما يأتى :

أولا ــ مد خط من مصر وإنشاء شون للغلال على خط مستقيم طول الجهات التى تمتد فيها الحركات العسكرية ــ فى الصالحية وقاطية والعريش وغزة ويافا وحيفا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس وما إليها . . . ويودع فى كل هذه الشون مقدار واف من وسائل النقل ليتولى إيصال ونقل مؤنة الجيش من مصر إلى كل النقط حتى المعسكر .

ثانيا ــ ينشأ فى دمياط مستشفى كبير ليرسل إليه من الجيش العساكر المرضى والضعاف للمعالجة فيه ــ وتنشأ فيها أيضاً أورطة مؤقتة أو بلوكات تؤلف من الذين يشفون من هؤلاء المرضى ومن العساكر الجدد فيعين منهم الحراس فى الشون كما يسد منهم النقص الذى يحصل فى الآلايات ــ وإذا أخذ بهذا النظام فيصان كيان الجيش بحيث تبقى الآلايات التى يكون منها كاملة العدد ويحفظ أيضاً الطريق المشترك الذى بين مصر وبر الشام ويقل للغاية عدد الخسائر التى تحدث فى الدواب بسبب طول الطريق الممتد من مصر إلى هنا » .

معارك حصار عكاء

كانت عكاء محصنة بأسوار متينة وتحميها عدة أبراج من الشرق والشمال ، أما من جهة البحر فكانت الأسوار أقل متانة من الأسوار القائمة من جهة البر ، والمياه المجاورة لها قليلة العمق لا تسمح للسفن الكبيرة بالرسو على مقربة منها . وكانت جميع الحصون فى حالة جيدة . وقد وصفت حصون

(١) وثيقة رقم ٢٣٢ عابدين بتاريخ ٢٤ رمضان ١٢٤٧ هـ تقرير مقدم من المهندس قاسم أغا

عكاء فى كثير من الكتب المعاصرة وممن تناولها بالإفاضة الأستاذ أسد رستم[1]. وقد رأينا أن نبينها فى خارطة مرفقة بهذا رغبة فى الإيجاز المبتغى . وكانت حامية المدينة مؤلفة من ثلاث آلاف مقاتل ومعهم مدفعية قوية وكميات وفيرة من المؤن والذخيرة والمياه والطعام تكفى الحامية لحصار طويل الأمد . وبالاختصار كانت استحكامات عكا غاية فى المنعة بعد الإصلاح الذى شملها عقب انسحاب الفرنسيين منها .

وفى يوم ٢٦ نوفبر (١٨٣١) استهل إبراهيم محاصرة عكا فاستبسلت حاميتها فى الدفاع عنها — وقد امتاز العكاويون بروح قتال وبمعنوية عالية إلى نهاية القتال — وانتصرت حامية بعض الأبراج على المصريين ، مما حدا بإبراهيم أن يطلق نيران سفن مدفعيته عليها أياماً متواليات لكن بدون جدوى . وفى هذه الأثناء أرسل محمد على إلى عكا مهندساً قديراً تولى إدارة أعمال الحصار بكل دقة . وقد تمكن المصريون ، بالرغم من شدة مقاومة الحامية ، من فتح ثغرتين فى الجهة الشرقية من السور ، وأمطروا المدينة وابلا من القنابل والرصاص ، براً وبحراً ، فخربت أجزاء من المدينة ومات كثيرون من رجالها ، ومع ذلك استمرت تدافع بكل شجاعة ، وصبت المدافع المصرية النيران على أسوارها ونجحت فى فتح ثلاث ثغرات ولكن بدون أثر . وفى خلال تبادل النيران أصيبت بعض السفن المصرية بتلف كبير ، الشيء الذى دفع إبراهيم إلى القيام بهجوم عام . ولكن قبيل شروعه فى تنفيذ خطته دعا عبد الله باشا إلى التسليم فأبى .

استعصت عكا على الجيش المصرى ، وانقضت ثلاثة أشهر بدون معارك تستحق الذكر ، فارتأى إبراهيم الصمود قبالتها بينما تقدمت بعض وحداته — كما قلنا — واستولت على صور وصيدا وبيروت وطرابلس فى الشمال . ووضح فوز إبراهيم باشا العسكرى ، وتقدمه الخاطف ، واستيلاؤه على ثغور الشام الأخرى ، وهى مفاتيح ينفذ منها الفاتح إلى داخلية البلاد .

(١) Notes on AKKA and its Defences under Ibrahim Pasha. 1926

محمد على خارج على الخليفة :

رأى السلطان أمام اعتداء محمد على أن يعلن عصيانه وخروجه عليه[1] وذلك لكى يؤلب عليه العالم الإسلامى . ولما لم يذعن هذا لتهديده بادر إلى إعداد جيش يهاجم به قوات إبراهيم خلال انشغاله فى حصار عكاء ، ولكى يحرم خصمه من الانتفاع بالمبادأة ويربك خططه التى وضعها .

الجيش العثمانى النظامى

وهنا يجمل بنا أن نتناول الجيش المقابل ، الذى أعده السلطان محمود الثانى ونظمه بهمة ونشاط ، على الأساليب العسكرية الحديثة ، بعد قضائه على قوات الأنكشارية فى مذبحة فظيعة (١٦ يونيو ١٨٢٦) . وقد انتهى من ترتيب ٢٠ ألف جندى فى أخريات العام المذكور كانوا نواة القوة المسلحة المنظمة عند خليفة آل عثمان . ولم يك ليتم له هذا الوضع العسكرى الجديد فى بلاد ارتبط شعبها بالروح الدينية ، مما جعل قبوله للنظم الأوربية المستحدثة أمراً غير مستساغ .

وكان على رأس الجيش العثمانى السر عسكر حسين باشا ، الذى تم على يديه إبادة الأنكشارية . ومثل هذا القائد بدأ حياته حمالا فجاسوساً ثم قائد قلعة ثم مهيجاً فجلادا ثم باشا الباشوات . قيل عنه إنه كان سيفاً ماضيا فيما مضى ولكنه الآن سيف لا يخرج من قرابه . وقبل تقلده الجيش ألبسه السلطان محمود كسوة القيادة العليا ، وهى المعطف القصير ذى النبيقة المزركشة بأسلاك الذهب ، وأهدى إليه سيفا مرصعا بالألماس وجوادين عربيين مطهمين ، وقلده رتبة المشيرية ، ولقبه بالمشير الأكرم ، وولاه مصر وكريت والحبشة . ومثل هذا القائد كان نصيبه الفشل فى معركتى حمص وبيلان بعد أن كان واثقاً بالنصر . فلم تمض ساعتان على نشوب

---

(١) الفرمان الموجه من السلطان لحسين باشا الصادر فى الآستانة فى آخر ذى القعدة عام ١٢٤٧ هـ

القتال ، حتى بات طريدا شريدا ، فلم يقفو له على أثر إلى أن كشف أمره وقد أصيب بالرمد وفقد نظره ، فى إحدى مزارع ولاية بروصه .

وكان حسين باشا — بالرغم من مكانته وقوة شخصيته — يمثل الرجعية العسكرية ، لأنه لم يتحول عن تفكيره القديم ، ولم تتطور وجهة نظره ، بالرغم من المستحدثات التى أدخلت على الجيش الذى قدر عليه أن يتولى قيادته . فرأى السلطان أن يدعم الموقف بتعيين قائد آخر معه اسمه محمد باشا ينهض بقيادة جميع الوحدات المنظمة ، فيما عدا قوات الحرس ، وهما دعامتا الجيش المقاتل . وكان محمد باشا هذا نير التفكير ، ميالا إلى التجديد الحديث ، لذلك انقسم الجيش إلى فريقين — فريق المحافظين وفريق المجددين ! ومما زاد الطين بلة أن أصيب السردار بعلة مضنية كانت هى الأخرى سبب الكارثة التى تنتظره .

وكان الجيش الذى وضع تحت قيادته يتألف من ٦٠٠٠٠ جندى منها ٤٥ ألفا من وحدات النظام الجديد ، من الجنود الذين عنى بملبسهم ومأكلهم ورواتبهم — تجمعهم فضائل القناعة ، والشجاعة ، والصبر . وكانوا فى الواقع عدة المعارك ، وآلة القتال الحقيقية . ولكن كانت تنقصهم أظهر ميزات النجاح وهى النظام فضلا عن إسرافهم فى الحصول على الغنائم، وكان ضباطهم على شيء من التدريب، أما قادتهم فكانت تعوزهم الكفاءة .

أصدر السلطان أوامره إلى القائد حسين باشا ، بعد أن رقاه إلى رتبة المشير (سر عسكر) ، بأن ينظم جيشاً فى الأناضول ، ثم عين عثمان باشا اللبيب حاكما على طرابلس . ومن العجيب أن يكون الاثنان خصمين لدودين ! واستطاع عثمان باشا الحصول على معاونة حاكم حلب ، فأمده بالرجال والعتاد، ثم تقدم على رأس قواته صوب اللاذقية وطرابلس ، ليتولى شئون ولايته الجديدة. وقد نجح فى تأليب سكان الجهات التى مر بها ضد محمد على ، الخارج على الدولة والدين ! بالرغم من أن محمد على كان قد اكتسب احترام العالم الإسلامى أجمع ، عقب انتصاره الساحق على الوهابيين .

القوات المصرية

وكانت الحامية المصرية ، الموجودة فى طرابلس لحمايتها ، تبلغ ٣٠٠٠ جندى ، وكان قوامهم من القوات النظامية (الآلاى المشاة ١٨) تحت قيادة القائم مقام إدريس بك ، ومن قوات الأعراب والدروز بقيادة الأمير خليل ، أحد أبناء الأمير بشير الشهابى .

وبالرغم من تفوق قوات عثمان باشا على قوات إدريس بك فى الناحية العددية فلم يهاجم المدينة بل انتظر للعمل فيما بعد ، حسبما تملى عليه الظروف . وفعلا صادفه الحظ إذ خرج القائم مقام إدريس بك على رأس أورطة إلى السهل المكشوف ، خارج المدينة ، وهاجم قوات عثمان باشا ، التى تفوق قواته عددا وعتادا . . . فأبيدت الكتيبة وفر إدريس تاركا خلفه بقية وحداته.

وشجع هذا النصر السريع عثمان باشا على تدعيم معسكره أمام طرابلس، وفى ٣١ مارس هاجم المدينة فخرجت الحامية المصرية بقيادة محافظها الشجاع مصطفى بربر ومعه ٤٠٠ من الدروز الشجعان بقيادة الأمير خليل ، وأصلت المهاجمين نيرانا حامية ، وأبدوا من ضروب الجرأة والشجاعة ، وأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة ففروا أمامهم إلى مينة .

وصلت أخبار معركة طرابلس إلى أسماع إبراهيم باشا فى عكاء ، وبلغه أن طليعة جيش تركى تتجمع فى منطقة حماه ، فرأى أن يزايل عكاء تاركا إياها للقوات المحاصرة ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من شهر مارس ، وتقدم إلى صيداء وبيروت على رأس قول مؤلف من ١٠٠٠٠ جندى منها آلاى الحرس والآلاى السابع الخيالة وستة مدافع .

وفى ٤ أبريل وصل إلى بادرون على مبعدة ست ساعات من طرابلس . فلما سمع عثمان باشا بهذا التحول السريع ، واقتراب إبراهيم منه ، استولى عليه الفزع ، وترك مدفعيته وعتاده ، وولى الأدبار إلى منطقة حماه ، حيث عسكرت طلائع الجيش التركى .

وفى اليوم التالى دخل إبراهيم طرابلس ظافرا وأمر بإعدام بعض الخونة من كبار الموظفين الذين اتصلوا بالعدو . ثم قرر مطاردة عثمان باشا . فتجاوز لبنان ، وأدرك حمص ، وأصبح مشرفاً على وادى نهر الأورنت[١] وعلى مبعدة مرحلتين جنوبى حماه .

معركة الزراعة

قدر إبراهيم موقفه فرأى أنه لا يبعد كثيراً عن عكاء . ولذلك أرتأى أن يترك حمص حيث لا يتوافر العيش والمؤنة لجيشه ، واعتلى وادى الأورنت (العاصى) حتى وصل إلى خان قصير ، حيث عسكرت قواته إلى الشرق فى سهل الزراعة[٢] .

توهم عثمان باشا أن تراجع إبراهيم عن حمص علامة ضعفه ، فجمع إلى قواته حشدا من أهالى المنطقة والأكراد وفرسان العرب بلغ عددهم ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، وسار بهم لمقاتلة إبراهيم ، وكان هذا قد دبر له الخطة الناجحة وقسم قواته إلى قولين ، وحشد خلف كل منها مدفعيته فى أماكن مستورة عن بصر العدو .وخدع خصمه وأوهمه أنه سيلزم الدفاع . فانخدع القائد العثمانى وهجم بكل وحداته على القولين فلبثت هذه صامتة حتى إذا صار الأعداء على مسافة قريبة ارتد المصريون بسرعة عجيبة خلف المدافع وبمجرد انتهاء الارتداد طفقت المدافع تصب حممها . فحصدت المهاجمين حصدا ، ووقعت بهم الخسائر ، واختل نظامهم ، وسادهم الهرج ، وفى وقت قصير تفرق جمعهم ، وارتدوا خائبين ، فطاردهم الفرسان المصريون حتى دفعوا بهم إلى نهر الأورنت ومن نجا منهم مات غرقا . . .

انتهت معركة الزراعة (١٤ أبريل ١٨٣٢) بهزيمة الجيش التركى ، وارتد عثمان باشا إلى حماه ، وبقى فيها يرتقب وصول الأمداد .

---

(١) نهر ينبع فى لبنان بالقرب من بعلبك ويمر بحمص وحماه وانطاكيه ويصب عند السويدية ويعرف باسم نهر العاصى

(٢) قرية جنوبى حمص

وعاد إبراهيم إلى بعلبك ليستعد لجولة أخرى . وفيها التقى بابن أخيه عباس باشا ، الذى استدعاه من عكا على رأس الآلاى الثانى عشر المشاة والآلاى الخيالة الثالث وثلاث بطاريات .

أهمية موقع بعلبك :

وتقع مدينة بعلبك ، ذات الشهرة التاريخية ، فى وادى نهر الليتانى الذى يربط قسمى لبنان (الخارجى والداخلى) ويصل بين وادى نهر الأردن ونهر الأورنت — وفى هذه المنطقة تخرج الأنهر الثلاثة الأردن والليتانى والأورنت وتعمل معا أخدودا طويلا يكاد يكون موازيا للبحر المتوسط — وقد مرت ببعلبك أكثر الحملات العسكرية فى التاريخ ، سواء القادمة من الشمال أو الشرق أو الجنوب . فلها موقع استراتيجى هام يسيطر على إقليم الشام . وهى على مسافة متساوية من دمشق وبيروت وطرابلس — وقد ارتأى إبراهيم أن يسيطر على ما حولها ليحول دون وصول الإمدادات إلى الأتراك ويمنع قدوم أية قوة لمعاونة عبد الله الجزار لفك الحصار عنه . وكان قد أمن على أجناب جيشه بعد اطمئنانه لمسلك اللبنانيين نحوه .

لذلك رأى المحافظة بأى جهد على بعلبك وما حولها ويحرم العثمانيين من الاستيلاء عليها . ولضمان هذا لم يتردد فى إمداد عباس باشا بالآلاى الثامن عشر من طرابلس ، وبالآلاى الحادى عشر الذى وصل حديثاً ، وآلاى الحرس ، والآلاى السابع الخيالة ، الذى كان تحت قيادته .

وللأهمية نورد فى هذا السياق بياناً للقوات المصرية التى أصبحت مرابطة فى بعلبك — وهى بمثابة طليعة الجيش المصرى ، التى ستقابل الصدمة الأولى فى القتال المقبل :

٤ آلايات مشاة — ١١ و ١٢ و ١٨ والحرس .

٢ آلايات خيالة — ٣ و ٧ .

مدفعية كافية ووحدات مساعدة .

قوات غير نظامية .

والآن وقد نظم إبراهيم وأركان حربه سليمان بك (الفرنسى) الأوضاع الجديدة لتوزيع قواته فى شمال سورية ووسطها ، واطمأنت نفسه للموقف العسكرى العام ، عاد إلى عكاء العتيدة ، التى لم تلن صخرتها بعد . وعزم على الخلاص نهائياً من إخضاعها وفتحها ، لأنها لم تزل شوكة فى جنب قواته الأيسر . هذا علاوة على ما وصل إليه من أن جيش المشير حسين باشا قد اجتاز البوسفور (١٢ أبريل) وتقدمت طلائعه فى خطوات حثيثة .

عود إلى عكاء

لم يكن الاستيلاء على عكاء بالأمر اليسير ، فهى التى وقفت صامدة أمام عبقرية نابليون ، وهى التى يدافع عنها الآن عبد الله وهو رجل صارم القلب ، ثابت الجنان . فقد مرت أشهر أمام شجعان إبراهيم ولم تسقط فى أيديهم ، ولم تك منعتها هى الصعوبة التى قاومت قائدنا فحسب بل كان للخطة التى انتهجها الباب العالى أثرها . فقد كان السلطان يصب على إبراهيم اللعنات ، ويسلط عليه سيلا من فتاوى شيخ الإسلام . فمن ذلك أنه أصدر خطاً شريفاً يرمى فيه مصر بالمروق ثم تبعه فى ٤ مايو ١٨٣٢ بفرمان شاهانى بتجريد محمد على وإبراهيم وإباحة دمائهما . وهذا — ولا مرية — له أثره على الروح المعنوية للمدافعين . وكان السلطان قد أعلن الحرب رسمياً على محمد على فى ٢٣ أبريل .

عاد إبراهيم بعد أن اطمأن للموقف العسكرى فى الشمال إلى عكاء فى ٢٧ مايو ١٨٣٢ ، وحمل عليها حملة صادقة أشرف عليها بنفسه . وكان يتطلب من ضباطه أن يكونوا مثله صناديد لا يرهبون الموت . وطالت المعركة واشتد سعيرها ، فلما آذنت الشمس بالمغيب ، حمل إبراهيم على المدينة حملته الأخيرة . ولكن أبدى المهاجمون لدى مغيب الشمس من ضروب الجسارة والإقدام مثلما أبدوه فى أول النهار ، ودافع عبد الله دفاع الأبطال . بيد أن شجاعته لم تغن عنه شيئاً ، وسقط هذا الحصن المنيع بينما كان الليل يرخى سدوله

على جدران المدينة وأسوارها .

أوضاع القوات فى الاقتحام :

وقد وصف مستر سنت جون [1] استيلاء إبراهيم باشا على عكاء وصفاً مسهباً نلخصه فيما يلى :

فى صباح يوم ٢٦ مايو عام ١٨٣٢ ، دعا إبراهيم باشا إلى خيمته كبار ضباط القوات المهاجمة ، من قادة وأميرالايات وقادة كتائب ، وأصدر إليهم أوامره تتضمن الآتى :

اللواء أحمد المنكلى يتوجه بلوائه ومعه الكتائب الأولى من الآلاى الثانى المشاة للهجوم على برج (قبوبرجى — قلعة الباب).

الكتيبة الثانية المشاة تهاجم الثغرة المقابلة للنبى صالح .

الكتيبة الثالثة المشاة بقيادة عمر بك تهاجم الثغرة المعروفة بالزاوية . وعينت قوة احتياطية من الكتيبة الرابعة (الآلاى الثانى) تحت الثغرة الأولى لمساعدة إحدى القوات السابقة المهاجمة ، عند الحاجة .

وصدر الأمر إلى كتيبة من الآلاى العاشر بقيادة أميرآلاى للوقوف تحت الثغرة الثالثة للغرض المتقدم .

وصدر الأمر إلى كتيبة أخرى بنقل السلالم ، قبيل الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، إلى الخندق الواقع بجانب قبو برجى ، وبأن تكون هناك على استعداد للهجوم .

وزود القائد العام — فيما عدا ذلك — كل قائد بالتعليمات الخاصة به .

واشتغل المهندسون العسكريون بحفر الخنادق المتعرجة وإقامة متاريس قريبة من الأسوار ونصب المدافع ، وأتموا جل هذه الأعمال فى غمار الظلام ، بينما كانت نيران المدفعية تنصب باستمرار على المدينة .

وفى فجر ٢٧ مايو ، عقب شروق الشمس ، صدر أمر القائد العام

---

(1) St. John — Egypt under Mohammed Aly Vol. II p. 493 — 496.

بالهجوم ، واستمر القتال كما ذكرنا طيلة اليوم . وفى المساء سقطت عكا فى قبضة المصريين .

ومن ثم جاء أعيان عكاء يلتمسون الرحمة — ولما كان دائماً من شيمة الشجاع تعظيم الشجعان — فقد رأى إبراهيم فى فلول الجيش المنهزم أعداء له يفخر بمحاربتهم — فلم يسعه إلا أن يؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وبلغ منه أن سمح لهم بأن يحتفظوا بأسلحتهم .

أما عبد الله نفسه فلم يعده بأكثر من تأمينه على حياته ، لكنه تلقاه بما هو خليق بمقامه كوزير من وزراء الدولة من الحفاوة .

وكان طبيعياً أن يعمل الجند النهب فى عكا ، مثلما يفعل زملاؤهم فى الشرق والغرب ، قديماً وحديثاً ، رغم ما قطعه إبراهيم لأعيانها من الوعود ، وما أصدره من الأمر . فانطلقوا فى المدينة ينهبون محتوياتها ، بيد أن النظام لم يلبث أن أعيد فى صباح اليوم التالى . وبذل القائد الكبير كل ما فى وسعه ليكفر عن خروج الجند عن النظام ، وكان مما فعله أن أذاع بين الناس أن كل من فقد متاعه سيرد إليه إذا وجد ، وأمر جنوده أن يعيدوا كل ما كان فى حوزتهم من الأسلاب .

ومن تحصيل الحاصل القول بأن استيلاء إبراهيم على عكا قد وضع حدا نهائياً للجفوة الناشبة بين محمد على وعبد الله . كما أثار موجة من الاغتباط فى وادى النيل ، حيث أقيمت الزينات ثلاثة أيام متواليات[١].

أما خسائر المصريين فى معارك حصار عكاء فهى :

الجرحى		القتلى	
١	قائمقام	١	قائمقام

(١) التقارير الرسمية لحصار عكا ، من البداءة إلى سقوطها ، كثيرة فى مجموعة المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ، نذكر من أهمها :

— النشرة الثالثة للجيش المصرى فى الشام ، فى ٩ المحرم سنة ١٢٤٨ (٧ يونيو ١٨٣٢)

— تقرير القائد العام سمو ابراهيم باشا عن الهجوم على عكا والاستيلاء عليها .

— تقرير ابراهيم يكن باشا بتاريخ أول المحرم ١٢٤٨ هـ (٣٠ مايو ١٨٣٢)

١	بكباشى		
٢	قائد أورطة	٢	قائد أورطة
٢	صاغ	٢	صاغ
٨	يوزباشى	٣	يوزباشى
٤٧	ضابط	١٥	ضابط
١٣٦٨	جندى	٤٨٩	جندى
١٤٢٩	المجموع	٥١٢	المجموع

الاندفاع نحو الشمال

في ساحة الحركات

فى أوائل مايو عام ١٨٣٢ ، كان معظم الجيش العثمانى قد تجمع فى قونية ، على السفح الذى يقع شمالى طوروس ، واحتلت أدنة بعض الوحدات فيما يلى الجبال المذكورة من الجنوب .

وفى ١٤ مايو كان حسين باشا يقيم مع جيشه فى قونية ، لا يبدى حراكا وكأنه لا يتأهب لمعارك أو حروب ، تاركا الحبل على الغارب للجنود : لا تدريب أو مناورة ولا استعداد ولا نصائح للضباط أو توجيه . فعاثوا وأهملوا عتادهم ، ونسوا جيادهم فلا عناية بأمرها ولا علائق تقدم لها . وعبثا ما حاوله الضباط الأوربيون فى هيئة أركان حرب القائد ، بل قل ضاعت جهودهم هباء منثورا .

وعلى نقيض ذلك كانت الحال فى صفوف الجيش المصرى . نشاط موفور ملحوظ بين الجند وضباطهم ، معنوية عالية نتيجة لانتصاراتهم فى ستة أشهر ، تدريب متواتر وتطعيم لروح الحرب بين أفراد وحدات الإمدادات . تصلهم بين الفينة والفينة أنباء زملائهم فى الميادين الجنوبية .

كان محمد على يلاحق ابنه بالآلايات المدربة أول بأول ، فوصلته

الآلايات المشاة ٥ و ١٨ و ٢٠ ، والآلاى الثامن الخيالة و ٣٠٠٠ بدوى لسد خسائر الوحدات ، وملء المراكز الشاغرة ، تمسى مرتبات الحرب كاملة . وسفن العتاد تواصل الليل والنهار فى موانئ الشام ، التى باتت كلها خاضعة للقوات المصرية . وأسرع إبراهيم فى إصلاح ثغرى عكا وحيفا بمعاونة مهندس فرنسى لتكونا قاعدتين ساندتين للحملة المصرية وساعده فى ذلك ٤٠٠ من جنود المهندسين و ٢٠٠٠ من العمال . وكان الآلاى العاشر المشاة وقليل من الخيالة تتولى حراسة خطوط مواصلات القاعدة .

وهنا كان على إبراهيم أن يعمل فوراً ، دون مضيعة للوقت ، واقتناصاً للفرصة السانحة . فما كان بوسعه أن يبدد الوقت فى السرور والحفلات . وعلى عاتقه أهداف أخرى ينبغى أن يصلها ببعضها وإلا تلاشت الظروف المهيأة ، وباغته جيش السردار حسين باشا ، الذى انتهى من حشده فى الأناضول .

لقد أراح جنده ، وتمتعوا بنوم هادئ بعض الليالى ، تحت قبة السماء الصافية . وانتهى من ترتيب الشئون العسكرية فى عكاء ، وتقدم برأسه المفكر ينظم الخطوط الرئيسية ، فى الجولة الثانية إلى دمشق .

زايل عكاء فى يوم ٩ يونيو (١٨٣٢) فى جيش مؤلف من ١٨ ألف جندى ، نصفهم من الوحدات النظامية ، قاصداً دمشق ، تلبية أو إذعانا لأمر محمد على . لأن الاستيلاء عليها وعلى حلب وعكاء وطرابلس معناه الاستيلاء على الشام كلها . ولما كان الوالد يعتقد كما أدرك نابليون من قبل أن النصر يحب التقدم الذى تؤازره الكتائب اللجبة . “La victoire aime à marcher les gros bataillons لذلك نشهده يمد ابنه القائد بالوحدات والعتاد التى يتطلبها الموقف العسكرى أولا بأول

وفى ١٤ يونيو ، وصل إبراهيم الظافر ضواحى دمشق ، برفقة الأمير بشير الشهابى ، على رأس ١٨٠٠٠ من المقاتلين (٩٠٠٠ من الجنود النظامية) بعد مصادمة غير عنيفة بالأتراك الذين ولوا أمامه هاربين . ودخل دمشق

فى ١٦ يونيو ، فقابله الأهالى بفرح واغتباط . وجعلها مقر الحكومة المصرية فى الشام . ورتب الإدارة فيها على نسق جديد ، وعين عليها إبراهيم يكن باشا حاكماً ، وأقام لها حامية من الآلاى الثانى المشاة وأورطة من الآلاى الخامس والآلاى الخيالة الثامن

معركة حمص

اضطر إبراهيم أن يضيع أسبوعين فى دمشق إزاء الأنباء التى جاءته بانتشار الكوليرا فى حمص حرصاً على سلامة جنده ، ولم يبدد هذه الأيام هباء ، إذ راح يعد العدة لأسباب التقدم ، ويدرب جنده . أما حسين باشا فإنه — قبالة ضغط ضباطه الأوربيين — قد تخلى عن مراكزه حول أدنة ، وتقدم إلى أنطاكية ثم أنفذ محمد باشا ، والى حلب ، على قيادة مقدمة الجيش وأمره بأن يحصن نفسه فى حمص . والمسافة بين أنطاكية وحمص لا يستهان بها . ولا ندرى كيف أمر السردار أكرم قائد مقدمته بأن يبعد عن الجيش هل يا ترى نسى تعليمات المقدمة فى قانون الحرب ؟

فلما علم إبراهيم بالخطأ الذى اقترفه حسين باشا ، عزم على الاتصال بمقدمة الجيش التركى وسحقها ، ثم مهاجمة باقى الجيش بعد ذلك . فزايل دمشق زاحفاً على حمص[1] التى كان القائد التركى محمد باشا قد وصل إليها ، واستدعى من بعلبك وطرابلس بعض وحداته التى كانت تحت قيادة عباس حلمى باشا وحسن المناسترلى . فصارت القوة ، التى تجمعت تحت قيادة إبراهيم لدى وصوله إلى مشارف حمص فى الجنوب ، حوالى ثلاثين ألف مقاتل (مانجان ج ٣ ص ٤٢) ورأى أمامه المعسكر العثمانى إلى جنوبى حمص ذات القلعة المهدمة وتحت أسوارها القديمة .

---

(١) تقع مدينة حمص على الشاطىء الأيمن من نهر العاصى (الأورنت) وموقعها غاية فى الأهمية لأنها ملتقى عدة طرق . فهى على طريق بعلبك ودمشق جنوبا — وطريق أنطاكية وحلب شمالا

أوضاع الجيش التركى والمصرى :

كان محمد باشا يثق بالانتصار على خصمه «إبراهيم وفلاحيه» بل أوهمه اعتقاده أن سيفوز وحده فى معركة حمص وينال المجد بمفرده وبدون سرداره .

وفى صبيحة يوم ٧ يوليو وصل حمص وكانت أسوارها فى حالة طيبة ، تحيط بها الحدائق والقنوات التى يتسنى إعدادها لوسائل الدفاع . أما جنوده فقد أنهكها التعب ، وأسقمها السير الطويل فحطوا بأسلوبهم شمال المدينة ، على شاطىء الأورنت . بينما اقتنع القائد أنه فى مأمن من جنود إبراهيم — فأجل إلى الغد وضع خططه وتدابيره وبدأ يستعد لتشريف الحفلة الأنيقة التى أعدها له وضباطه — الباشا والى حلب — تكريماً لشخصه ! .

وبينما كان يتنعم بما لذ وطاب مما تشتهيه النفس من أضراب الطعام العثمانى ، وألوان الشراب السورى ، كان جنده وقد غادروا مخيمهم يتضورون جوعاً فى أسواق المدينة يخطفون الخبز وشرائح اللحم ، وكلما وصلت إليه أيديهم .

وفى مساء يوم ٧ يوليو (أيضاً) كانت وحدات الجيش المصرى قد اجتازت مسافة طويلة وصارت على مسيرة خمس ساعات من حمص . فعلم قائدها الكبير بوصول الجيش التركى إليها.

وكانت الوحدات المصرية تتألف من ثمانية آلايات مشاة وستة خيالة و ٣٨ قطعة مدفعية ، ومجموع القوة حوالى ٣٠٠٠٠ مقاتل يضاف إليها البدو غير النظاميين . وقد أفاده هؤلاء — وهم مهرة فى أعمال الاستكشاف — بوجود الجيش العثمانى .

وتناقل المعسكران المعلومات بوساطة عيونهما ، فأدرك محمد باشا ، وسط ضجيج الحفل والمرح ، تحرج الموقف ، فجمع كبار ضباطه لتقرير المصير . وهنا ارتأى البعض أن الأصوب التقهقر المنظم إلى موقع آخر بينا فضل آخرون خطة التحرك والقضاء على الجيش المصرى .

ولا مرية أنه كان من الأصوب فى مثل هذا الموقف ، الذى كان فيه

الباشا وجيشه ، التقهقر تجاه حلب ، للاتصال بقيادته العليا فى أنطاكية وبآلاف الأهالى الموالين للأتراك ، واستهواء إبراهيم إليهم حيث يسهل عليها إدارة المعركة حسب مشيئتها . ولكن هل يتفق هذا الرأى وحبه للمجد وهو قاب قوسين أو أدنى منه . . .

إذن ليتقبل المعركة ، ويتحدى إبراهيم ، فى سبيل شهوة المجد ! ! .

وقادته فطنته بأن يلتزم خطة الدفاع ، ويشبك نفسه بحمص ، متخذاً منها تكأة لحمايته ، ومن القناوات والمبانى المهدمة والأشجار موانع يقاتل جنده خلفها . . .

كان هذا حسن لو استبسل رجاله فى الدفاع والتشبث بمواقعهم . وبذا يعرقل تقدم جيش إبراهيم ويؤخره أياماً ، فيعطى الفرصة للمشير حسين باشا باتخاذ الخطة الصالحة فى الوقت والمكان المناسبين له .

وفى الصباح المبكر من يوم ٨ يوليو ، أزال محمد باشا معسكره ، ونشر جل قواته قبالة جنوبى المدينة أمام مزارعها الغناء .

وزع جيشه فى صفوف ثلاثة . وضع فى الصف الأول أربعة آلايات مشاة نظامية عبر الطريق الموصل من حمص إلى دمشق تتكئ ميمنته على الزاوية الكبرى للقناة المتصلة بنهر الأورنت . وميسرته فى فضاء الصحراء . وخلف الصف الأول ـ الصف الثانى ، وضع فيه آلايين نظاميين وآلاى خيالة عبر الطريق بين الأورنت ودمشق ويدعم بهما قلب وميمنة الصف الأول . وإلى شرق الطريق المذكور ، عند أكمة ، وضع آلايا آخر من الخيالة لتسند ميسرة الصف الأول .

وفى الصف الثالث ، الذى امتد بين الأورنت وضيعة مخربة ، تبعد حوالى ١٨٠٠ متر عن جنوب شرقى قلعة حمص ، وضع قواته غير النظامية وآلايا من الخيالة النظامية لحماية ميسرته .

وهكذا وزع مشاته وخيالته . أما توزيع مدفعيته فتم على الوجه الآتى :

وزع مدافعه بين صفوف وحداته الآنفة الذكر بمعدل مدفع فى كل

أورطة مشاة ومدفعين فى كل آلاى خيالة . وصف ٢١ مدفعاً فى مواقع مختارة خلف ميمنة قواته .

حركات الجيش المصرى :

وبينما كان الجيش التركى يتخذ أوضاعه المذكورة ، فى أحوال سادها الهرج والمرج ، كان الجيش المصرى ، الذى قضى ليلته على مقربة من طاحونة قديمة بالقرب من قصير ، قد طفق مسيره فى فجر يوم ٨ يوليو متجهاً صوب حمص ، وكان ترتيب سير القوات كالآتى :

فى المقدمة الآلايات المشاة ، ١٢ و ١٣ و ١٨ يتبعها آلاى الحرس والآلايان الخامس والحادى عشر (المشاة) واتخذت كل أورطة فى تشكيل قول مزدوج مفتوح (غير كامل الانتشار) أما الآلاى الثامن فكان فى الاحتياط ، خلف منتصف القوة .

أما المدفعية فكانت ثلاثة بطاريات منها فى الصف (الخط) الأول ، وأربع بطاريات وأبوسين فى الصف الأول والثانى[١] .

وكان توزيع الخيالة على النسق التالى :

ثلاثة آلايات على كلا جانبى التشكيل كله — فى ميمنته كما فى ميسرته ، وتحرس القوات غير النظامية من البدو أطراف الأجناب للقوات الاحتياطية .

وقد كان يسمح هذا التوزيع أو التشكيل لقائد القوات إبراهيم باشا بأن يقوم بالمناورات بحرية واسعة ، حسبما تمليه عليه طبيعة الأرض التى سيتقدم عليها ، وحسبما تصله المعلومات عن حركات العدو ، إذا غير خطته فى اللحظة الأخيرة إلى هجوم مضاد . وكانت الأرض إلى شرق الضيعة المخربة تسمح لإبراهيم بمناورة يقوم بها بحركة التفاف واسعة حول ميسرة الأتراك ، وهى أضعف نقط فى خط دفاعهم ، والتى لم ترتكز على موانع قوية تكسر من حدة الهجوم المصرى أن لم تقض عليه .

---

(١) الصف هنا يطلق على قوات الخط بأسره

خطة إبراهيم :

وأخيراً اتخذ إبراهيم قراره النهائى :

« يقوم قلب الجيش المصرى بالهجوم على واجهة الجيش التركى بكل قوته ، يطغى بمشاته وخيالته ومدفعيته نحو ميسرة الأتراك فى حركة التفاف واسعة ، بينما تقوم بعض مشاته بهجوم خادع بموازاة نهر الأرونت ، لشغل ميمنة الأتراك فى خطيه الأول والثانى ، وبذلك يربك عملهما نهائياً .

« يتجه لواء الخيالة للثانى (الآلايان ٢ و ٤ (والآلاى الثالث الرماحة المدرعين نحو الضيعة المهدمة ، وعند وصولها لأنسب المواقع تفتح تشكيلها بين الضيعة المذكورة والمزارع (جنوبى حمص) وتلف حول ميسرة المؤخرة التركية .

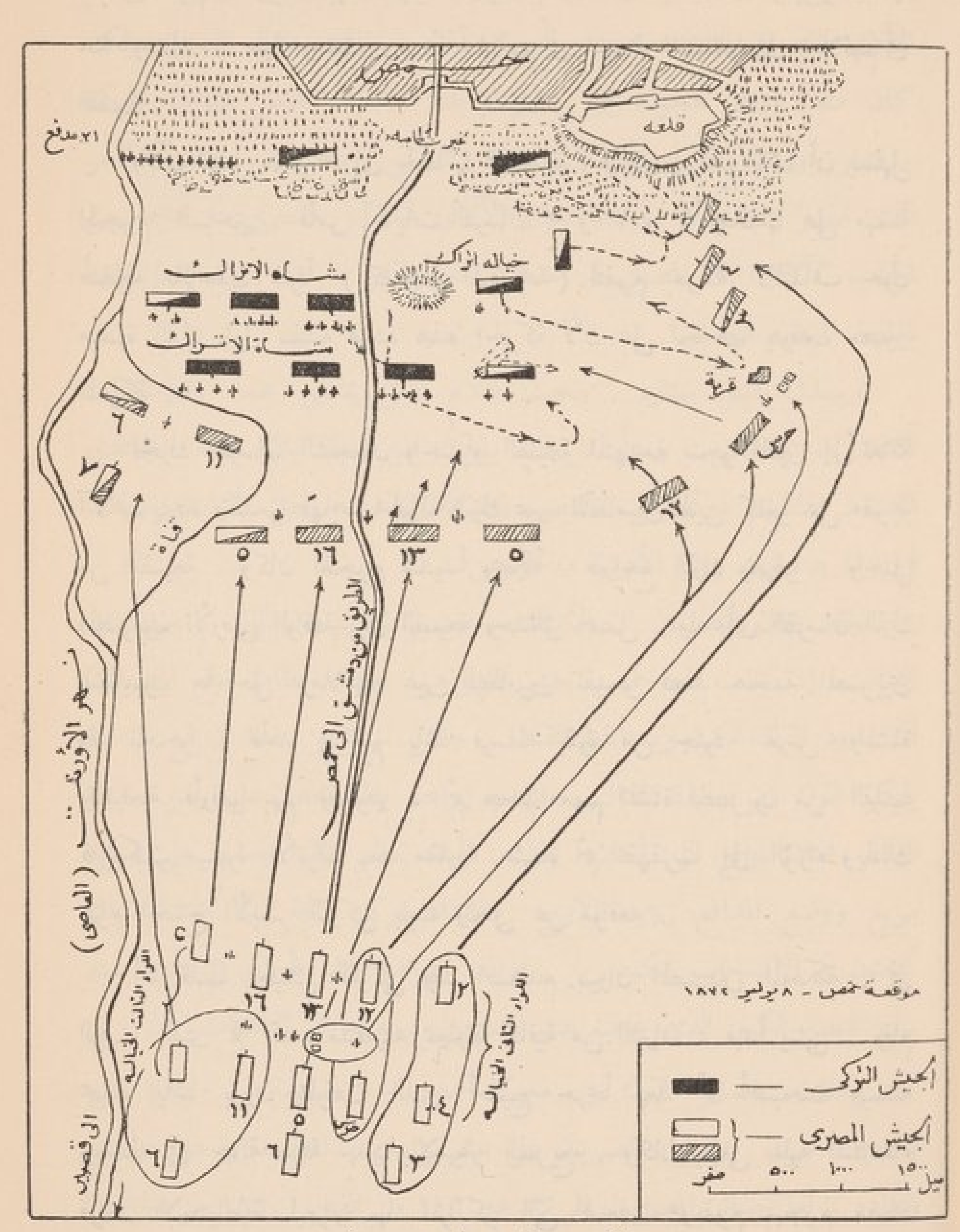
« آلاى الحرس والآلاى المشاة ١٨ تدعم القوة السابقة وتفتح تشكيلها عند وصولها إلى غرب وجنوب غربى الضيعة المهدمة .

« بطارية مدفعية وابوسان تتخذ مواقعها المناسبة حيال الضيعة .

« بينما تجرى هذه الحركات تأخذ الآلايات ١٣ و ١٨ مواقعها فى الأمام ويأخذ الآلاى الخامس مكانه بدلا عن الآلاى الثانى عشر وتفتح وحداتها على طريق دمشق الكبير أمام قوات الأتراك فى الصف الأول .

« فى الوقت نفسه تقوم قوة منفصلة مكونة من الآلاى الحادى عشر المشاة والآلاى السادس والسابع الخيالة وبطارية مدفعية بالتقدم نحو الأرض الواقعة بين نهر الأورنت والقناة (وتشبه الجزيرة أو الدلتا) لمهاجمة ميمنة الأتراك وكاحتياطى لها الآلاى السابع المدرع فى الصف الثانى — ولدى ظهورها تولى الرعب قلوب الأتراك ، وتحطمت أعصابهم ، فاضطر القائد إلى إصدار أوامره إلى أورطتين فى اليمين لتغيير مواجهتها لصد العدو المفاجئ ، ولكن كان الهرج قد عم الميدان .

لقد بلغ القتال عنفوانه — المعركة فى الساعة الخامسة مساء والمدفعية المصرية تقذف نيرانها الشديدة على صفوف الأتراك ، فتسدد إصاباتها بكل



موقعة حمص (٨ يوليو ١٨٣٢)

دقة وإحكام ، وترد عليها مدفعية الأتراك بدون خطة محددة ، وتتبعثر طلقاتها هنا وهناك . بينما وهنت روح مشاتهم فى الميمنة فانضموا إلى زملائهم فى القلب .

والآن تصل المعركة إلى لحظاتها الفاصلة . ورأى إبراهيم باشا أن يستهل الهجوم الساحق . فأمر آلايات الفرسان ٢ و ٣ و ٤ ومكانها على ميمنة صفوفه بالزحف شرقاً (كالخطة الموضوعة) لتقوم بحركة الالتفاف حول ميسرة الترك وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة لأن على نجاحها يتوقف مصير المعركة .

تحرك الفرسان الشجعان واجتازوا الضيعة المتهدمة بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف ياردة وتقدموا لمهاجمة الخيالة الترك غير النظاميين الذين كانوا على مقربة من الضيعة . وكان الهجوم شديداً ومحكماً . فتراجع الترك وتفرقوا ، واحتل المصريون الأرض الواقعة بين الضيعة وحدائق حمص . ولما رأى الفرسان الترك النظاميون ما حل بزملائهم غير النظاميين تقدموا لصد هجمة المصريين وقد نجحوا — فأمد إبراهيم باشا فرسانه بقوة من جنود الحرس والمشاة والمدفعية فأوقعوا بهم وفرقوهم ، ثم هجم معهم المشاة المصريون من القلب فارتبكت ميسرة الأتراك بعد مقاومة عنيدة ثم تقهقرت إلى الوراء وبذلك هزم الجناح الأيسر التركى برمته وتخلى عن مواقعه .

أما قلب الجيش التركى وقد اصطدم بنيران المصريين المحكمة . فى الوقت الذى لم تمده مدفعيته بمعاونة كافية من النيران ، فبدأ ينثنى . وقام محمد باشا بوزن الموقف الذى أصبح حرجاً بعد أن أصبحت ميمنته ووسطه فى حالة سيئة تهدد بالانهيار السريع . وكان ينبغى عليه استدعاء قواته الاحتياطية ليعزز بها المراكز التى ضعفت ويقوم بهجوم مضاد فى ناحية الضيعة . لكن لم يفعل — ووجد حلا يائسا يخرجه من الورطة فأمر آلاى خيالة فى ميسرة صفه الثانى بالهجوم على مدفعية المصريين الذين وصلوا إلى الضيعة كما أمر آلاى مشاة فى قلب الصف الأمامى (وكان هذا الآلاى

يرتكز على آلاى الميسرة فى الصف الثانى) للقيام بالهجوم بالسونكى لاقتحام الآلاى المصرى الثانى عشر . وأسرع آلاى خيالته بتنفيذ الهجوم ولكنه كان متعباً فكان هجومه غير منظم وقابلته مدفعية الحرس بنيرانها المحكمة — فدار وولى الأدبار — أما آلاى مشاة (التركى) فتقدم من القلب كالأمر الذى صدر إليه ولكن أوقفته نيران الآلاى الخامس المصرى ثم هاجمه من الجنب الآلاى ١٣ المصرى فى تشكيل مدرج من الميمنة . ولم يفعل شيئاً لمقاومة الهجوم المصرى .

ويسدل الليل ستاره . وتحت ظلام الليل يمتطى محمد باشا جواده قاصداً مدينه حمص ، وبدأ كل قائد يبحث عن وسيلة لينقذ نفسه . واقتدى الضباط بقادتهم ، ثم بدت الفوضى والهزيمة والذعر ، حين تأتى دور الجند فى ترك صفوفهم وولوا الأدبار مدحورين .

ولقد خال المصريون أن الأتراك — بعد لم شعثهم فى الليل — سيعاودون القتال ، إذ كانت قلعة حمص تحمى ظهورهم . ومرت لحظات توقع المصريون أن يعاود الترك الكرة ويستأنفوا القتال . ولكن شيئاً من هذا لم يقع ! ولم يفكر الترك فى معاودة القتال . فتقدم إبراهيم باشا بحذر على رأس جيشه الظافر محتلاً المواقع التى أخلاها الترك . وأعاد تنظيم قواتها وصفها على شكل مربع ووضع المدافع زواياه الأربع . فازداد مركزه منعة بينما كان الأتراك يُمعنون فى الانسحاب مكسورين . وبادر إبراهيم باشا فأرسل إلى أبيه ينبئه بهذا النصر الكبير الذى عرف عند المصريين بيوم هزيمة الباشوات .

وكانت خسائر الترك فى معركة حمص جد جسيمة — ٢٠٠٠ قتلى و ٢٥٠٠ أسرى . واستولى المصريون على عشرين من مدافعه علاوة على ذخائره وعتاده ، أما خسائر المصريين فلم تزد عن ١٠٢ من القتلى و ١٦٢ من الجرحى

وفى اليوم التالى دخل المصريون حمص (٦ يوليو) بينما كان الترك يعدون صوب حلب وأنطاكية . وغلب خيالتهم النظامية على أمرهم فاستولى غير النظاميين على جيادهم يمتطونها ! . .

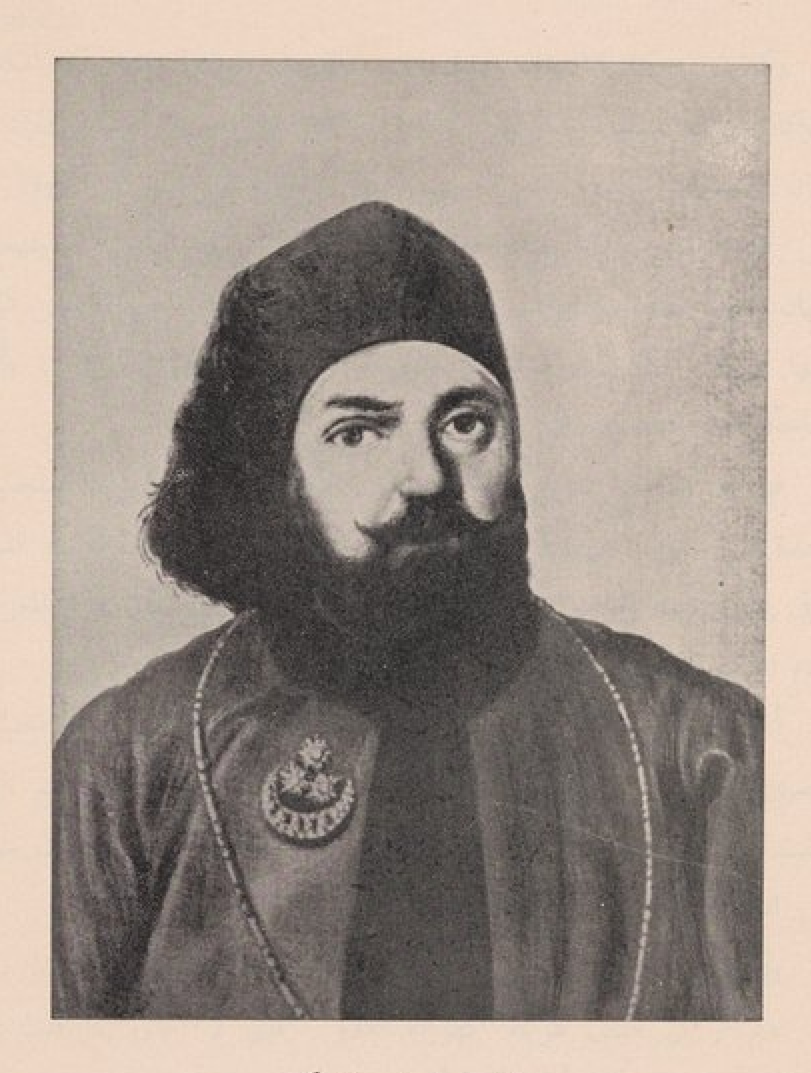
نقد حركات الجيشين :

يجد المعلق الناقد لحركات الجيش التركى مادة مستفيضة من الأخطاء التى اجترحتها القيادة . فبعد أن قررت الخروج من حمص لقبول المعركة صفت قواتها فى خطوط متقاربة بدون عمق كاف . فضلا عن عدم تفكيرها بوضع احتياط ينتفع به فى الوقت المناسب للقيام بهجوم مضاد . فقد كان صفه الثالث هزيلا (راجع الأوضاع السابقة) وكان تشكيل أوضاعه خطيا formation linéaire فلم يك قادراً على القيام بحركة مناورة لها تأثير ناجح على سير المعركة ، ولم ينتفع بطبيعة الأرض إلا من ناحية الميمنة (نهر الأورنت والقناة) ومع ذلك فقد كوم محمد باشا فى هذه الجبهة معظم قواته ، وترك ميسرة جيشه فى الهواء لا تعتمد على قوات أو موانع . كما أنه لم ينتفع بالحدائق أو التخوم التى تحيط بجنوب حمص وتركها والضيعة المهدمة لعدوه الذى انتفع بها تماماً .

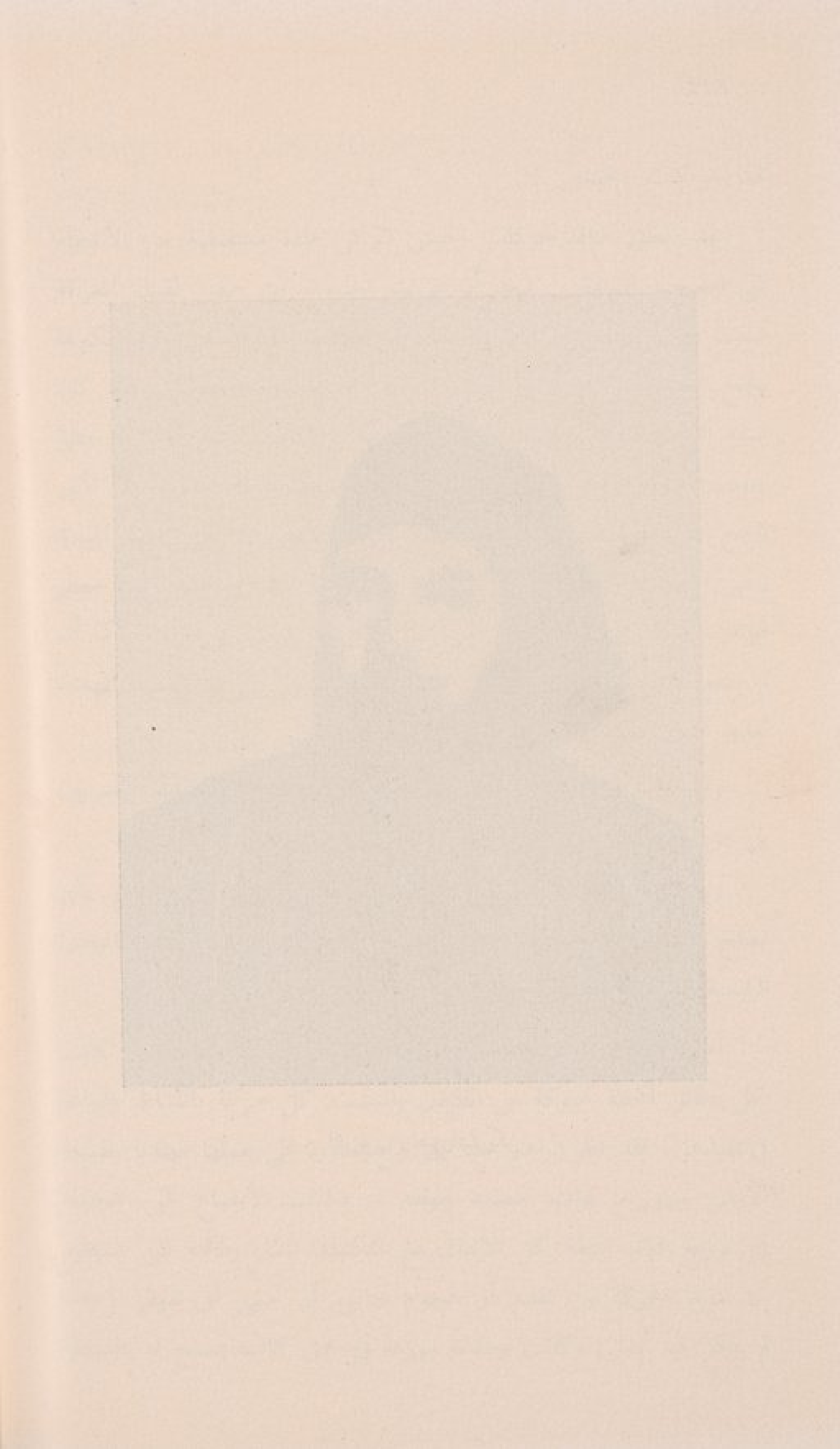
ولم يعرف كيف يوجه مدفعيته فى نيران متجمعة على وحدات المصريين بل بن توزيعها على أهداف كثيرة .

وبالاختصار كانت أوضاع الأتراك وتوزيع قواتهم لا يسمح بأى نجاح سواء فى حالة الدفاع أو فى حالة الهجوم المضاد . فقد أهملوا المبادئ الرئيسية للقتال الناجح .

أما فيما يختص بحركات المعركة من الجانب المصرى فقد كانت كل دقائق الخطة محبوكة من الطرفين واتسمت كل حركة بالنشاط والبراعة فى تنفيذها . فقد نظر إبراهيم جليا إلى نوع المناورة التى يعملها مهتديا بطبيعة الأرض وبتوزيع قوات خصمه وموقفه — فكانت الأوضاع التى اتخذها فى توزيع قواته متفقة كل الاتفاق مع التكتيك المثالى وطاقته التى يستطيع بها تنفيذ الحركة من تقدم أو هجوم جانبى أو جبهى أو تقهقر (وهذا لم يفكر فيه أبدا) وكانت وحداته موزعة فى عمق كاف يسمح له بالسيطرة



الفريق ابراهيم باشا يكن



على تنفيذ الحركات وفقاً لما يبتغى. وإن أحسن تعبير لبراعة مناورة إبراهيم نجده فى عبارة الماريشال فيجان فى كتابه المعروف

"La manœuvre était en germe dans le dispositif initial de son armée"

وكانت حركة الالتفاف حول جنب القوات التركية رائعة كما أسلفنا محبوكة فى تفاصيلها ومجموعها . كذلك كان هجومه على ميسرة الترك . وكان استخدام المدفعية يسير حسب خطة موضوعة لا هباء أو ارتجالا ، وهى قواعد المدرسة الحربية الحديثة التى وضع أسسها نابليون ، وفهمها سليمان بك . وهضمها إبراهيم ، فعرف كيف ينتفع بها . هى الأسس التى أهمها مرونة الخطة ، والقدرة على تنفيذها ، والسرعة فى إنجازها ، وأثر المفاجأة الذى استحدثه على العدو .

فى معركة حمص تقابل وجهاً لوجه للمرة الأولى جيشين شرقيين ، أسلحتهما واحدة ، وأسلوب حربهما متقنة . فكان النصر من نصيب الجانب الذى تفوق فى تنظيمه ونظامه فى القتال وروح قيادته العليا . وفى هذه المعركة هدم الجمود أمام الحركة والسرعة .

أجل . فى معركة حمص بانت روح القيادة المنظمة التى تسود الجيش المصرى ، ومحى الجنود المصريون هزيمتهم أو بعبارة أوضح أسلافهم التى لحقت بهم فى عام ١٥١٧ (معركة مرج دابق حينما اعتدى السلطان سليم على استقلال مصر وهزم سلطانها الغورى) .

وفى التقرير الذى رفعه إبراهيم لأبيه عن المعركة قال عن العدو !

«لم أر فى حياتى هزيمة كهزيمة العدو . فإنى لا أغالى إذا قلت إنه لو زحف على مئتا ألف أو ثلاثمائة ألف من عساكره لما نبض لى بسببهم نبض أو اكترثت بهم ونحن بمشيئة الله ظافرون بأولئك العساكر أينما وجدوا وقد أرسلنا الأسرى إلى عكا وأمرنا ديوان أفندى بأن يقبل فى التقاعد كل من يريد تسجيل اسمه فيه ويرسل من يرغب فى العودة إلى وطنه إليه فى مصر أو غيرها . وقد بلغ عدد القتلى منا ١٠٢ والجرحى ١٦٢ وخسرنا ١٧٢ جواداً» .

معركة بيلان

قضى إبراهيم وجنوده ليلتهم فى المواقع التى كانت تحتلها بالأمس جنود الترك ، وفى تاسع يوليو دخل حمص على رأس شجعانه ، وقصد بهم إلى حلب فبلغ حماه فى عاشره ، وكان رجاله يلتقطون الأسرى وقد ارتضى معظمهم الاندماج تحت رايته . هذا فضلا عن المدافع والعتاد . وفى حماه عثر على خيرات الطعام الوفيرة التى كدستها القيادة العثمانية ، لأنهم راموا جعل حماه قاعدة لعملياتهم ، وقد سارع إبراهيم فى مطاردته العدو ليحرمه من التجمع وإعادة ترتيب صفوفه ، فكان يسير بقواته فى الساعات الأولى من النهار ومن ثم يمنحهم الراحة . وقد تقدموا سراعا فاحتلوا ماهنيكه يوم ١١ ومعار ونعمان فى يوم ١٢ وتل سلطان يوم ١٣ ووزيتان يوم ١٥ .

وهنا يحسن أن نعرض أعمال السردار حسين باشا مذ تركناه بعد إصدار أوامره لقائده محمد باشا . فإنه تقدم على رأس قسم من الجيش بين اسكندرونة وأنطاكية ، كان من بينه ٨٠٠ خيال و ٧٠٠جمل تحمل الذخيرة ميمما صوب حمص . وكان يظن أنه سيسبق إبراهيم ويملى عليه المعركة فالتقى فى طريقه بفلول جيش محمد باشا وعرف نبأ هزيمة حمص . وعلى ذلك ارتد إلى حلب ليتخذها قاعدة حربية . وطلب حسين من أعيانها أن يمدوه بالمؤونة والرجال ولكن كان أهلها قد بغضوا الحكم التركى وأشفقوا على مدينتهم أن يحل بها الخراب ، فأبوا أن يدخل أحد من جنوده إلى مدينتهم ، ولم يسمحوا إلا للجنود الجرحى والمرضى بالدخول ، ثم أغلقوا أبوابها . .

احتفظ حسين باشا بالهدوء وقال مداعبا الذين حوله : « إن جوادى لا أستطيع إرغامه على شرب الماء . فقد صمم على أن يرتوى من ماء النيل ..»

وقبالة عناد الحلبيين اضطر السردار إلى مبارحة مدينتهم يوم ١٤ يوليو قاصدا اسكندرونة حيث كان يرسو الأسطول العثمانى ، فأصبح بين عاملين : هل يعود إلى بيلان (جنوبى اسكندرونة) أم ينطلق نحو الشمال

ويحصن نفسه بالقرب من مضيق طوروس المفتاح الشمالى . وأخيراً قر قراره على اتخاذ مكان حصين لدى مضيق بيلان (١) وساعدته طبيعة الأرض على الامتناع بها .

أما إبراهيم فقد وصل حلب يوم ١٧ واضطر للإقامة فيها عدة أيام لتستريح جنوده ، وينفضوا عن أنفسهم متاعب القتال والوباء ، الذى تفشى فى بعض صفوفهم ، نتيجة لما خلفه الأتراك وراءهم.وقد أفاد من بقائه هناك ، بعد أن أوضح للأهالى من جميع الملل أهداف أبيه من قتال الباب العالى . فانضموا إليه بعد أن تبدت نواياه ، وسمعوا خطباء المساجد يخطبون باسم خليفة المسلمين ، وفى أثناء إقامته جاءته وفود من أورفا ودياربكر تعلن خضوع المدينتين لحكم محمد على .

وفى ٢٥ يوليو زايل حلب مبتغية أنطاكيا ، وقسم قواته إلى شعبتين إحداهما تؤلف من غير النظاميين اتخذوا طريقهم إلى أنطاكية مباشرة، وثانيتهما قواته النظامية وقد عبروا مضيق كليس للالتفاف شمال أنطاكية والاستيلاء عليها من الخلف .

وفى يوم ٢٨ وصل إبراهيم قبالة أنطاكية ، وحدثت عدة مناوشات بين البدو وبضع مئين من الترك ، ثم دخل المدينة وكان حسين باشا قد أعلن أنه سيدافع عنها لكنه لم يفعل .

وقف إبراهيم أمام جبل أمانوس ، وهو من شعاب جبال طوروس أو امتداد لها شاهق العلو ، يرتفع نحو ١٨٠٠ متر ، يجتازه مضيق بيلان الذى يصل بين سهل أنطاكية وخليج اسكندرونة ، أو يفصل بين سورية وكيليكيا . وهو الممر الذى اجتازه جمع من قادة العالم العسكريين لفتح الشرق ، من مصريين وآشوريين وفرس وإغريق ورومان وعرب وفرنج وترك

---

(١) تقع مدينة بيلان جنوبى الاسكندرونة وشمالى المضيق والجبل المعروفين باسمها. ويصل إليها طريقان ، طريق من كليس وطريق من أنطاكية . ويقترب الطريقان فى سفح الجبل بحيث يفصل بينهما نحو ٣٠٠٠ متر ثم يلتقيان فى المضيق جنوبى بيلان — فيصبحان طريقا واحدا يصل إلى المدينة (الحركة القومية — للرافعى — ج ٢ ص ٢٥٣) .

وسواهم . واليوم يدنو منه قائدنا إبراهيم ليجتازه وليس ذلك عليه بعسير . هذا اليوم هو صباح ٢٩ يوليو .

مواقع الجيش التركى الدفاعية :

كان الجيش التركى مؤلفاً من نحو ٤٥٠٠٠ من المقاتلين ، من جميع الأسلحة ، و ١٦٠ مدفعاً بقيادة حسين باشا ، يرابط فى مواقع منيعة — اتخذ مواقعه على قمم جبال بيلان . فاحتشدت المشاة وتؤلف من خمس أورط فوق هضبة ، يصل طرفه الأيمن (ميمنة الجيش) إلى طريق وعر يخترق جبال أمانوس آتيا من خان قومرط إلى بيلان ، وطرفه الأيسر (حيث القلب) إلى طريق الوسط الواصل من أنطاكية إلى بيلان ويؤلف من ١٤ أورطة مشاة . أما ميسرة الجيش (٥ أورط) فكانت ترابط على امتداد ذلك الخط فيما يلى هذا الطريق ، تعاونها بعض المدافع الموضوعة على أكمة قريبة من الطريق . وأقام الترك أمام صفوف المشاة بعض الموانع والبلانقات وزعوا خلالها المدافع . وفى واد ضيق يقطع الطريق جنوبى بيلان كان آلايان من خيالتهم .

وكانت مؤخرة الترك المؤلفة معظمها من المشاة موزعة فى خط واحد على قمة أمانوس ، وهكذا ترى من أول نظرة أن حسين باشا لم يك موفقا فى وضع خطة دفاعه . فقد اتبع الأسلوب الخطى فى توزيع قواته وأهمل العمق ، الذى يسهل عليه القيام بالمناورات على مقياس كبير .

خطة الجيش المصرى :

عسكر الجيش المصرى فى السهل المنبسط ، تحت مضيق بيلان ، غربى الطريق الواصل من كليس وأنطاكية ، واتخذ المشاة مواقعهم فى الصفوف الأمامية ، وخلفهم الخيالة والمدفعية فى الوسط ، وخلف هذه الصفوف مهمات الجيش وعتاده .

استعرض إبراهيم باشا مواقع الترك على جبل بيلان ، فوجدها منيعة ، يصعب على قواته أن تنال منها فوزاً . وفى مساء يوم ٢٨ جمع مجلسا من ضباطه

لوضع قرارهم النهائى فى الخطة التى ستنفذ فرأى بعضهم تأجيل الهجوم على على المضيق إلى بعد الغد ، ورأى الآخرون القيام بهجوم غداً ليحرموا العدو من تعزيز مراكزه أو وصول إمدادات إليه من اسكندرونة .

ومن محاسن الصدف ، أن يقع المستشار الفنى لحسين باشا فى قبضة إبراهيم ، ، وهو الكابتن الفرنسى (Thevenin) بعد الاستيلاء على حلب ، فحرم الأتراك من معاونته .

وينتهى قرار المجلس إلى الأخذ بخطة الهجوم فى اليوم التالى (صباح ٢٩ يوليو) ، والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك من الجنب ، تمهيداً للإحاطة بها ، ثم احتلال بعض المرتفعات المتسلطة على القلب . ويجعل مشاة الأتراك هدفاً لنيران المدافع المصرية ، وفى الوقت نفسه يرسل جزءاً من قواته للإحاطة بميمنة الأتراك – وكانت خطته صورة لما اتبعه فى معركة حمص – وكانت خطة الالتفاف تتطلب القوات الآتية :

٤ آلايات مشاة

٣ آلايات خيالة

٤ بطاريات مدفعية ميدان (وفى مصدر آخر ٢)

٢ مدفع أبوس

وأخذ إبراهيم باشا على كاهله قيادة هذه الوحدات ، لأهمية دورها المطلوب تنفيذه .

وأمر أميرالآلاى حسن بك المناسترلى بالاستعداد للهجوم المباشر على قلب وميمنة الأتراك والتقدم عن طريق بيلان – أنطاكية ، على رأس الآلاى ١٣ وبطارية مدفعية – فتقدم إلى الطريق واحتل الموقع المطلوب بينما تبعه الآلاى الخيالة الخامس كقوة احتياطية له فى هجومه على ميمنة الجيش التركى .

أما اللواء الثانى الخيالة ، والآلاى السادس الرماحين المدرعين ، فطلب منهم العمل بين القوتين الآنفتين ، ومساعدة إحداهما لدى الضرورة ، بينما يكون الآلاى ١٨ المشاة وبطارية ميدان فى الاحتياط .

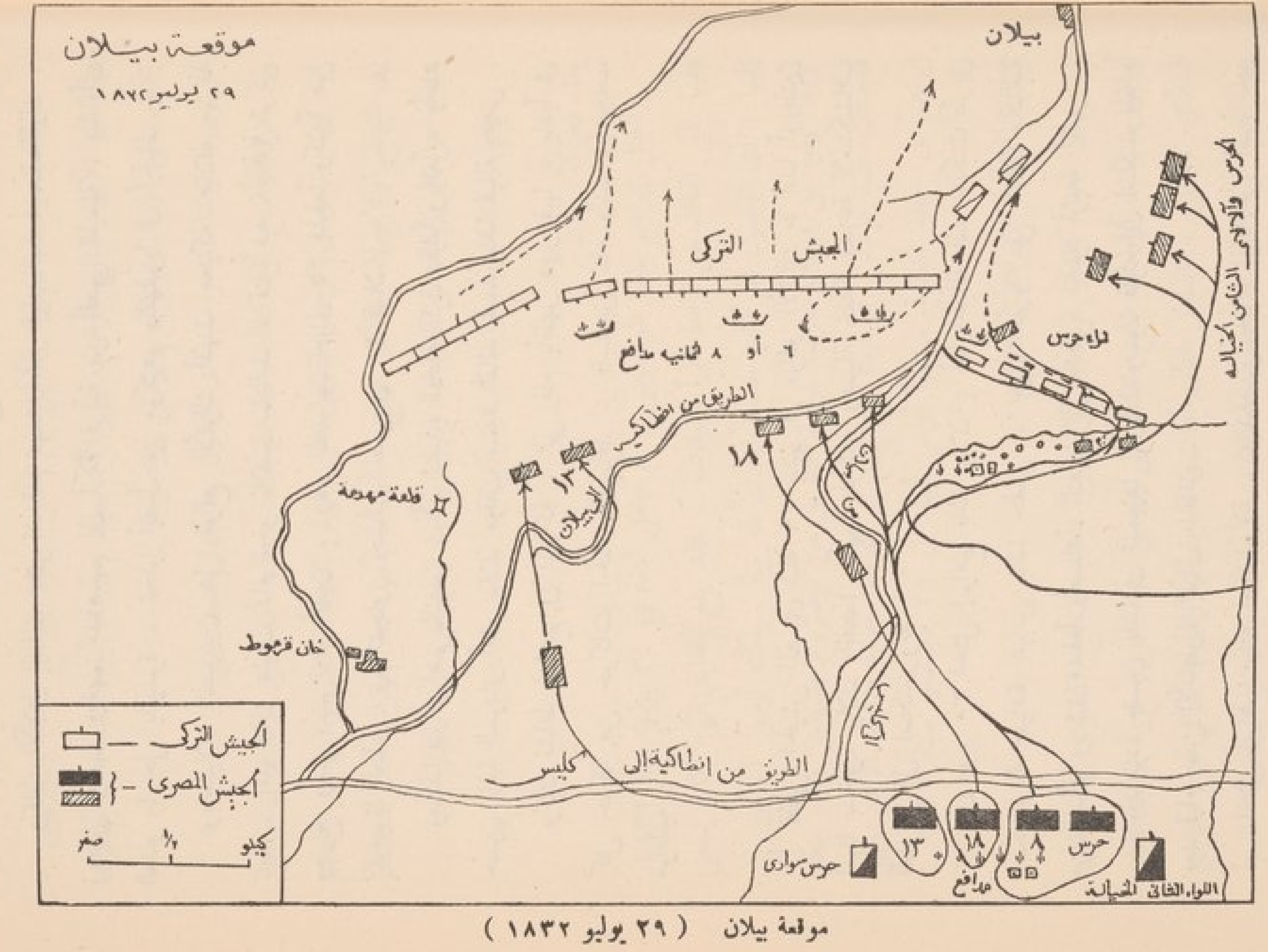
المعركة

وما شاهدت القيادة التركية تقدم الشعبتين (القولين) المصريتين حتى أمرت بفتح النيران الشديدة فى طريق تقدمهما فغمرتهما القذائف بعنف . وفى الحال ردت عليها مدفعية البطاريتين المصرية التى فى القول اليمين بنيران محكمة للغاية وشديدة التأثير — وفتحت فصيلتان من القناصة تشكيلها بسرعة (من الحرس) واخترقت غابة صغيرة واقتحمت الجبهة برصاصها السريع . وبعد قليل لحق بالفصيلتين أورطة من الحرس ومعها أبوسين واستمروا فى هجومهم الموفق ونجحوا فى إسكات الميسرة التركية ، واستمر وصول بقية آلاى الحرس بسرعة مع أفراد الآلاى الثامن فى أمواج تدريجية متتالية . وفى نفس الوقت كان الهجوم الجبهى بقيادة المناسترلى سائراً على ما يرام ونجحت البطارية التى تحت قيادته فى إنزال الخسائر الجسيمة بالأتراك . وهنا انحرف الآلاى ١٣ المشاة إلى غرب الطريق (أنطاكية) وهاجم ميمنة العدو . وأخذ الآلاى ١٨ مكانه فى الهجوم العنيف ضد قوات القلب .

وفى اللحظة التى انتهى فيها آلاى الحرس من تحقيق أهدافه الأولى . تهيأ للالتفاف بميسرة العدو فلم ينتظر حسين باشا اللطمة التى كانت مسددة نحوه — وعمل على التقهقر السريع نحو بيلان . وانتهز الفرصة القناصة المصريون فهجموا على بطارية تركية (٦ مدافع) كانت قد تركت وحدها بدون مشاة تحرسها وصعد جنودها إليها على أكمة تطل عليها وأسكتوها . وحاولت آلايات الخيالة التركية القيام بحركة تقدم إلى الأمام فصدتها نيران الحرس ، الشيء الذى جعلها تسرع نحو بيلان بغير نظام وقد تبدد جمعهم ...

وهكذا خلا الطريق إلى بيلان من قوات الأعداء . . .

وبعد أن ارتدت ميسرة الترك ، وصل المصريون فى تقدمهم إلى طريق بيلان نفسه ، وتحرج مركز قلب الجيش التركى ، وأدركت قيادته أن خط الرجعة إلى بيلان أصبح مقطوعاً بوصول المصريين إلى الطريق . فلاذ



موقعة بيلان (٢٩ يوليو ١٨٣٢)

العدو بالفرار ، وتخلى عما بقى له من المواقع ، وتشتتت وحداته فى الجبال

وكان الآلاى الثالث عشر قد قام بمهمته خير قيام ضد ميمنة الترك ، ووصل رماتهم ومعهم مدفعيتهم إلى أكمة قريبة من أقصى الميمنة . ولما رأى العدو ما حل بالميسرة ، تخلوا أيضاً عن مركزهم وتقهقروا فى الجبال .

وباستيلاء المصريين على مواقع الأتراك انتهت معركة بيلان بهزيمة تامة ، بعد قتال عنيف دام نحو ثلاث ساعات ، قتل فيه ٢٥٠٠ تركى وجرح وأسر منهم نحو ألفين ، وغنم المصريون حوالى ٢٥ مدفعاً وكثيراً من الذخيرة والعتاد . ولم تتجاوز خسائر المصريين ٢٠ قتيلا .

وهكذا فاز إبراهيم بالنصر ، لأن تنفيذه للخطة كان دقيقاً ورائعاً ، وأعاد حسين باشا السردار أمام بيلان موقف سلفه القائد محمد باشا قبالة حمص .

وكان نشاط إبراهيم فى المعركة ، التى قام بأظهر دور فيها ، بادياً فى كل حركة من حركات الجند والضباط ، فاستحق ثناء والده وإعجاب مواطنيه . . .

• • •

قضى الجيش المصرى ليلة ٢٩ يوليو فى مواقع الأتراك ما عدا أورطتين أمرتا بدخول بيلان وانفصل منهما بلوكان وفصيلة خيالة مدرعة لاستكشاف الطريق إلى اسكندرونة

وفى يوم ٣٠ احتل إبراهيم باشا بيلان ، أما الخيالة فقد سلكت طريق اسكندرونة بقيادة عباس باشا حلمى ، حيث عثروا على كميات مكدسة من الغنائم و ١٤ مدفعاً وأصناف التعيين التى تكفى الجنود أربعة أشهر .

وقد تردد حسين باشا فى تدميرها . وكان وصول فلوله إلى اسكندرونة ، بعد قيام سفن الأسطول العثمانى بدقائق . . .

احتل إبراهيم ميناء اسكندرونة ، واندفعت الخيالة إلى باياس آسرة نحو ١٤٠٠ تركى وسلمت له أنطاكية واللاذقية والسويدية . أما حسين فقد أسرع نحو أدنة بعد اجتيازه مضيق طوروس على رأس شراذم لا يفخر أى قائد

فى الدنيا أن يكونوا جنوده .

وعقب راحة قصيرة الأجل ، احتل جنود إبراهيم أدنة وطوروس ، وكانت الأولى مفتاح الزحف على الأناضول ، وبعد أيام كان العلم المصرى يخفق على أورفا وعينتاب ومرعش وقيصرية .

وبعد هذا النصر ، فأى الطرق يسلكها محمد على ؟ !

من الواضح أنه كان قبالته طريقان : فإما أن يعلن الاستقلال ويأمر ابنه أن يستمر فى الزحف للقضاء على جيوش السلطان الهاربة فيضطر الخصم إلى التسليم والاعتراف بالأمر الواقع ، أو أن يأمر ابنه بالوقوف أملا أن ينال هدفه عن طريق تدخل الدول ، ولم يخل أحد الطريقين من أخطار .

وسيبين لنا مسير الحوادث ما سيكون . . . .

بعد معركة بيلان :

احتل إبراهيم باشا طورسوس ، ثم دخل أدنه فى ٣١ يوليو سنة ١٨٣٢. وفيها تلقى القائد من والده أمراً بالوقوف ، فقد بلغ الغاية التى كان يسعى إليها ، أى الوصول إلى آخر حدود البلدان العربية . ولكنه أرسل آلايين إلى أورفا وقوة من فرسان العرب لمراقبة الطريق من أرضروم وسيواس وديار بكر فاحتلت القوة مرعش كما أرسل قوة إلى نهر الفرات لحماية جناحه الأيمن وبقى إبراهيم فى خطة الدفاع منتظراً أوامر أبيه إلى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ .

موقف إنجلترة من نجاح إبراهيم :

وإلى هنا كانت السياسة الإنجليزية أمام النجاح المصرى غامضة . أمامها سبيلان أولهما أن تدع محمد على يؤسس دولة عربية قوية لصد التيار السلافى الروسى ، والسبيل الثانى أن تحتفظ بتركيا وتقويها لتظل هى الحاجز بينما تهدم الامبراطورية المصرية الناشئة ، لأنها إذا عاشت أصبحت حاجزاً قوياً على طريق الهند .

فأى السبيلين تتجه إليه سياسة الإنجليز ؟ لقد فضلوا الوقوف فى منتصف

الطريق فلا يقاومون محمد على ولا يظاهرون السلطان خوفاً من روسيا . أما سياسة إبراهيم فهى أخذ الأمور بالقوة وإيقاف الدول أمام الأمر الواقع .

لذلك كان يستأذن والده بالزحف على قونية ، ثم الآستانة ، ويرجوه فى أن يحمل خطباء المساجد على إلقاء الخطبة باسمه . فكتب محمد على إلى ابنه فى الثامن من شهر سبتمبر يقول :

« تقول لى فى كتابك أنك تريد أن تسك المعدن وهو حام . وأنك تريد أن يخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد — فاعلم ياولدى إنا لم نصل إلى مركزنا الذى نشغله الآن إلا بقوة الوداعة وخفض الجانب فإنه يكفينى أن أحمل اسم (محمد على) خالصاً من كل رتبة وزينة فهو أكبر لى من جميع ألقاب السلطنة والملك لأن هذا الاسم وحده هو الذى خولنى الشرف الذى يحللنى الآن . فكيف أستطيع ياولدى أن أتركه إلى سواه لايا ولدى إنى أحفظ اسمى (محمد على) وأنت يا ابنى تحفظ اسمك (إبراهيم) وكفى وعليك رحمة الله وبركاته »

أما فرنسا فقد أبلغت الباب العالى أن إصراره على القتال لا يوصله إلى نتيجة لضعف قوته دون قوة محمد على التى تتزايد بحراً وبراً .

معركة قونية

الجيش العثمانى :

أين قادة الترك ؟ لقد دحرهم إبراهيم الواحد تلو الآخر . ولم يتبق لدى السلطان محمود إلا القائد رشيد باشا ، زميل إبراهيم فى حرب المورة ، وزعيم حرب العصابات . . . ولكن أين الجيش الذى سيوليه قيادته ، بعد أن افتقد جنوده فى فيافى الأناضول ؟ !

نادى السلطان وزيره الكبير رشيد باشا ، بطل ميسولونجى وآثينا ، وقاهر ثورة أشقودرة ، فلبى القائد النداء . ومضى إلى الآستانة ليضع حياته فى خدمة السلطان . وليعد التدابير لجيشه الجديد . وفى أخريات اكتوبر انتظم الجيش

الثانى فى أربعة أقسام : أولها مؤلف من ٢٠,٠٠٠ من النظاميين والألبانيين يحتشد فى أشقودرة حيث كانت الرياسة العليا للجيش ومقر الوزير ، والقسم الثانى مكون من ٢٠,٠٠٠ فى أرضروم واحتشدوا بين سيواس وقيصرية بقيادة عثمان باشا والى طرابزون ومعه عثمان آخر ، والقسم الثالث بقيادة سليمان باشا تعداده حوالى ١٠,٠٠٠ يعد حشده فى منطقة طوروس على ميسرة إبراهيم باشا لستر « صاتاليا » ، أما القسم الرابع من الجيش التركى فقد تألف من أنقاض جيش حسين باشا وعدده يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ يتجمع لدى قونية بقيادة رءوف باشا

بلغ الجيش العثمانى فى مجموعه ٨٠,٠٠٠ أى ثلاثة أمثال جيش إبراهيم ، ولكن هذا التفوق العددى لم يك كل شىء ، فكانت تنقصه قوة الالتحام ، وكان كل قسم منه يختلف عن الآخر فى الكفاءة والتدريب والنظام والقيادة والتنظيم العسكرى أيضاً . أما السلطان فلم يدخر وسعاً لبث الحماسة فى صدور جنوده الذين يتوقف عليهم كيان دولته . وتوسل إلى ذلك بشتى السبل ، من طوابير العرض إلى مقابلة الضباط والتوسع فى إقامة الولائم للجند وتوزيع النياشين على الضباط إلى منح الرتب المتعددة وكسوات التشريفة والخلع الثمينة والسيوف . وكان يداوم على حضور الصلوات مع أفراد جيشه .

ولما ودع السلطان جيشه قال لرشيد باشا — وقد منحه ولاية مصر والحجاز وكريت وحلب وما إليها : « أنقذ الدولة فإن شكرى لك ولعساكرك إذا أنت فعلت لا يكون له حد » .

الجيش المصرى :

وكان عدد الجيش المصرى فى الشام بعد وصول الإمدادات إليه من مصر والأسرى الذين بدأ ينظمهم مع السوريين المجندين يتألف من :

١٠ آلايات مشاة .

١٢ آلاى فرسان .

مدفعية .

٥٠٠٠ وحدات مساعدة .

٢٠٠٠ بدو .

وصل مجموعها إلى ٥٠٠٠٠ مقاتل تقريباً .

مثل هذا الجيش ، من الناحية الإدارية ، أفضل تنسيقاً ، من الجيش الآخر . ولا غرو فقد كان أرقى الجيوش كلها ، التى أنشأها محمد على . وفى الواقع ، كان هذا الجيش موضع فخار مصر ، واعتزاز محمد على وإبراهيم وسليمان بك ، بل ومحل عنايتهم الأولى .

ومن بين الوحدات المذكورة قوات كبيرة تعمل على خطوط المواصلات أو موزعة فى الحاميات الرئيسية وتبلغ هذه حوالى النصف . ولذلك يتسنى القول بأن ٢٧,٠٠٠ مقاتل فحسب ، هى التى كانت تحت قيادة إبراهيم باشا ، فى عمليات الميدان . يقابلها ٨٠,٠٠٠ تحت قيادة رشيد باشا [١] هم خليط من أجناس الامبراطورية العثمانية .

وبناء على المعلومات التى كانت تصل إلى إبراهيم عن تجمعات الجيش التركى طلب إلى أبيه أن يوافقه على اجتياز طوروس ، ليقضى على تجمعات الأتراك أولا بأول ، قبل تكامل استعدادها ، ولأنه كان يخشى حلول زمهرير شتاء هضاب الأناضول . وتمر الأيام والمراسلات متصلة بين قائد الجيش ورئيس الدولة (محمد على) أولهما يتكلم بلهجة الجندى ، وثانيهما بلهجة السياسى ، وتتعارض آراؤهما . ويجبر إبراهيم على إنتهاج خطة الدفاع ، بينما تجمعت قواته فى منطقة أدنة — طوروس بين خليج اسكندرونة وكليكيا . ثم تصل إبراهيم أنباء وثيقة بأن الفصائل التركية قد استحوذت على مضيق طوروس ، وهو الممر الذى يصل بين أدنة وقونية ، وأن هذه الفصائل بدأت تناوش نقطه الأمامية ، مما دعا إبراهيم إلى التصميم على الاستيلاء على المضيق بدون انتظار أوامر عالية ، ليتحكم فى نقطه الأمامية ومخافره القوية . وكان لا بد له أن يستولى على هرقله (أركلى) وقد دخلها فى يوم ١٥ أكتوبر .

كان هناك طريقان يفضيان من أدنة إلى أركلى عبر طوروس، أحدهما

(١) فى إحصاء كاد لنى ٥٣٫٠٠٠ مقاتل — ص ٢٩٥

عن سبيل منارة خان وشفت خان وأولان كيشلى وشابان ، والآخر عن سبيل طوروس ونمرود وشاكال وزلنبيا .

وأصدر إبراهيم أمره إلى قواته غير النظامية والبدو باتباع الطريق الأيمن ، للهجوم على شفت خان ، بينا يقود بنفسه قوة مختلطة مؤلفة من آلاى خيالة وآلاى مشاة وبطارية مدفعية ، ويتبع الطريق الأيسر ليهاجم نمرود .

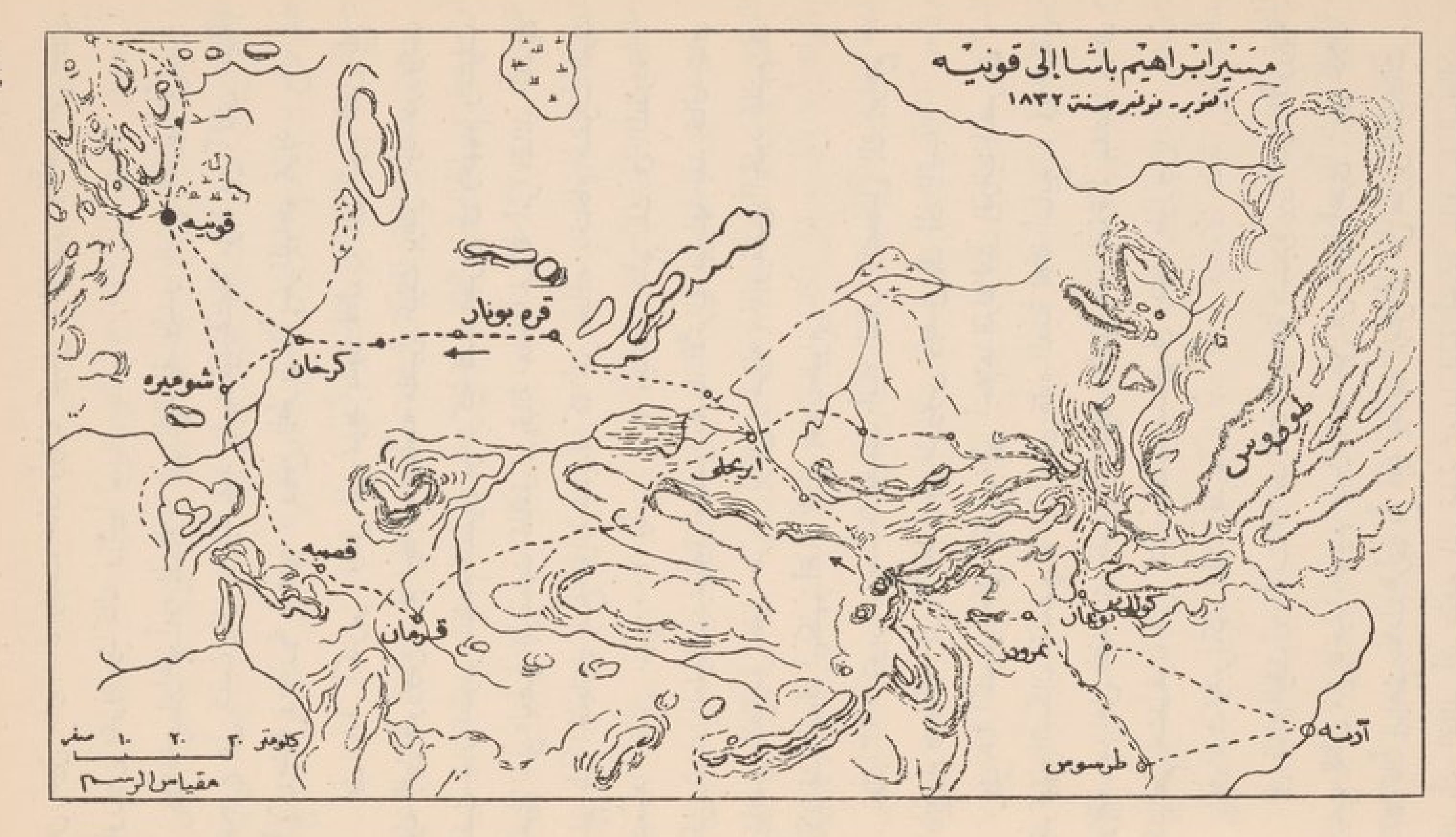
وفى ١٨ أكتوبر وصل إلى نمرود بدون قتال ، وفى اليوم التالى بلغ قول اليمين طوروس ، ثم اجتازت مقدمته مضيق كولك بوغاز . ولما عبر وادى شفت خان اعترض التقدم المصرى قوة تركية لتسد الطريق فى وجههم واستولت أخرى على بعض المرتفعات الهامة . وقبالة هذه الحركة أمر القائد المصرى سليم بك الحجازى بفتح نيران شديدة كما أمر خيالته باقتحام صفوف الترك فتبعثرها وتقتل منهم ٢٠٠ وتأسر ٣٠٠ ويستمر سليم بك فى المطاردة ، لكن تصله المعلومات بمقاومة منظمة يبديها الأتراك فيزيلها بعد قتال شاق ويواصل المطاردة عبر طريق أركلى (هرقله) . ويقضى الجنود ليلتهم فى أولان قشلاق وقد أنهكتهم أعمال القتال خلال اليوم .

وفى ٢٣ أكتوبر ، بعد ما وصلت أنباء القتال بالتفصيل إلى إبراهيم ، بارح نمرود وتقدم إلى الأمام ليعبر طوروس ويصل إلى إلى زانيب

وفى ٢٥ أكتوبر احتل أركلى ، التى أخلاها الترك لدى اقتراب المصريين ، وقد ابتهج السكان لمقدمهم ثم استراح فى هذه المدينة ثلاثة أسابيع ، فى انتظار موافقة أبيه على التقدم فى قلب الأناضول . ومثل هذه الفترة لم يبددها سدى فقد نظم حشد قواته التى كان معظمها يستجم فى جنوب طوروس .

وفى ١١ نوفمبر كان الحشد قد تم . . .

فى ذياك الوقت ، كانت الاتصالات السياسية مستمرة بين الدول الأوربية والباب العالى من ناحية ، وبينها وبين محمد على من ناحية أخرى . وفى خلال ذلك كان إبراهيم يتبادل الرأى مع أبيه بوساطة الرسل أو عن طريق المكاتبات . وقد رأى القائد أن يتقدم إلى قونية تمهيدا لوثبة أخرى يهدد بها السلطان .



مسير ابراهيم باشا الى قونيه
أكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٣٢
قونيه
قره بونار
كرخان
شوميره
قصبه
قرمان
طوروس
كولك بوغاز
آدنه
طرسوس
كيلومتر ٣٠ ٢٠ ١٠ صفر
مقياس الرسم

أما الأب الحكيم فكان يرى أن يعود من قونية بعد دخولها ويترك النتائج للرأى العام فى الآستانة لعله يؤثر فى موقف السلطان . وفى الرسالة الآتية يتبدى لنا موقف الرجلين ، حيث رد إبراهيم على أبيه فى الثالث من نوفبر يقول :

« يجب علينا حسب أوامرك أن نتقهقر إلى الوراء بعد الاستيلاء على قونية . فالشائع أن الصدر الأعظم يزحف علينا بقوة كبيرة فإذا نحن تقهقرنا عزوا ذلك إلى الجبن والخوف وإلى عجزنا عن مقابلته وفوق هذا كله فإن الصدر الأعظم يغنم الفرصة للزحف على قونية . وقد يتجاوزها للحاق بنا مذيعاً خبر تقهقرنا ومن يدرى ما يكون من وراء ذلك فقد ينضم إليه الشعب . وقد تثور سورية والأناضول علينا ويظل الغرض من تقهقرنا خفياً لا يفهم . وبناء على ما تقدم لا ينبغى لنا أن ندع الفرصة تفوتنا فنحن نذهب إلى قونية ونشتت العدو ، وننتظر فيها وصول الصدر الأعظم لنقهره إذا أراد مهاجمتنا لذلك أطلب منك يا والدى أن ترسل آلايين من المدد فى الحال » .

ثم تلقى إبراهيم من والده فى الثالث عشر من نوفبر الأمر بألا يتجاوز قونية ، نظراً لأن التقدم إلى ما وراءها ، فى الظروف الراهنة ، لا تنظر إليه الدول بعين الرضا .

وفى ١٦ نوفبر ، أجاب محمد على على كتاب إبراهيم الذى كان قد أرسله إليه فى الثالث من نوفبر فأقره على رأيه . بيد أنه نبه عليه ألا يتجاوز قونية ، لأنه لا يعرف بوجه قاطع رأى الدول . . .

التقدم إلى قونية

كان قبالة إبراهيم باشا طريقان يفضيان إلى قونية من أركلى ، أحدهما فى اليمين يمر بالمدن : كيجيد ، وكارابونار ، وكاتانية ، وإيزميل ، وقارخان ، وثانيهما فى اليسار يمر بـ : كارامان ، وكاسابا ، وشوميرة . وقد أمرت القوات النظامية بانتهاج الطريق الأول ، والقوات غير النظامية بانتهاج الطريق الثانى .

وفيما يلى أمر التحرك الذى أصدره إبراهيم لقواته النظامية :

يتحرك الجيش بالنظام التالى : تسير المشاة فى قولين

قول اليمين مؤلف من الحرس والآلاى ١٤

وقول اليسار مؤلف من الآلاى ١٣ و ١٨

على ألا يبتعد القولان عن بعضهما إلا بمقدار ما يسمح به تشكيل الفتح فى صفين :

الحرس والآلاى ٣ فى الصف الأول .

والآلاى ١٤ و ١٨ فى الصف الثانى.

والمدفعية فى تشكيل القطار أو بالأصناف كما يسمح الطريق .

توضع مدفعية فى رأس القول على ميسرة الآلايين ١٤ و ١٨ .

يسير اللواء الخيالة الثانى فى المقدمة على قولين — الآلاى الثانى فى طليعة الحرس والآلاى الرابع فى طليعته الآلاى ١٣ المشاة .

أما المهمات فتكون خلف المدفعية بثلاثمائة ياردة بالترتيب الآتى :

مهمات القائد العام ورئيس أركان حربه — متاع المدفعية — فالخيالة فالمشاة .

ويعمل الترتيب اللازم للمحافظة على المواصلات بين الوحدات .

١٧ نوفمبر :

تحرك الجيش بنظام كامل ، وبدون صعوبة أو مقاومة ، وفى ١٧ نوفمبر غادر قول اليمين كارخان متجها إلى شوميرة ليلتقى بقول اليسار . وفى هذا اليوم علم إبراهيم أن العدو أخلى قونية فى الليلة السابقة . فلم يبدد وقتاً ، ونهض على رأس بعض قواته السريعة والمدفعية قاصداً قونية ، فدخلها ليلة ١٧ ، وفى الصباح اتجه نحو آق شهر فصيلة المطاردة مؤلفة من الخيالة المنظمة والآلاى الرابع الخيالة وبطاريتين مدفعية . وتلحق هذه القوة حرس المؤخرة التركى فى ضواحى ايلجون وتنزل به خسائر فادحة وتحصل على عدد من الأسرى وتعود مسرعة إلى قونية لتلحق بقوات إبراهيم .

يلقى نفسه على مبعدة ٢٢٠ كيلومتراً من حدود بلاده — وهى مسافة طويلة واستطالت خطوط مواصلاته ولا بد أن يحتاط لحماية جناحى جيشه — ولذلك أشار فى الحال لأحد قواده محمود بك باحتلال أورفا حيث تؤدى الطرق إلى سيواس وأرضروم — مستعيناً بالبدو . كما يأمر كجوق إبراهيم (يكن) بالسير على رأس الآلاى المشاة وبطاريتين وخيالة غير نظامية من حلب إلى مرعش عن طريق عينتاب — ثم يأمر قائده محمد بك أن يذهب على رأس بعض الأورط وبطارية إلى قيصرية (وكان فى هرقله) . كل هذه العمليات كان الغرض منها حماية خطوط عملياته ضد جيش عثمان باشا الذى طفق فى الاحتشاد فى أوائل ديسمبر حولى منطقة سيواس ثم يأمر عباس باشا حلمى بمغادرة أدنة لرقابة قوات سليمان باشا التركية فى أضاليا .

واتخذ إبراهيم باشا ضواحى قونية قاعدة عسكرية وأخذ يعد قواته لقتال الأتراك ، ويدرب جنوده على التمرينات فى المواقع التى توقع نشوب المعارك فيها . ولئن كان جيشه الذى أصبح تحت يده الآن (بعد التوزيعات المذكورة وحماية خطوط المواصلات) لا يتجاوز عدده ١٨,٠٠٠ مقاتل ، منهم ألف من البدو ، إلا أنه كان يمتاز بحسن النظام ، وكفاية القيادة والتدريب على القتال ، وسمو المعنويات .

كانت وحدات إبراهيم ، فى موقفها الأخير ، تؤلف على الوجه التالى :

٢٠ أورطة مشاة ، ٢٤ بلوك خيالة ، ٤٨ مدفعاً .

ومما يثير العجب حقاً ، أن عدد الجيش المصرى كان ثلث الجيش التركى . . .

عودة للجيش التركى :

وصل رشيد باشا إلى آق شهر ، ونزل فى قديم خان ، على مبعدة تسع ساعات من شمالى غربى قونية ، على رأس جيش عدده ٥٤,٠٠٠ موزعين كالآتى :

٥٤ أورطة مشاة .

٢٨ بلوك خيالة .

١٠٠ مدفع .

٢٠,٠٠٠ من غير النظاميين .

كان رشيد يتسنى له الإفادة من طبيعة الأناضول القاسية ، لاستهواء إبراهيم إلى عدة معارك ، تنهك قواته ، وتؤثر عليه تأثيراً مرهقاً ، لكنه كانت تحركه تعليمات الصدر الأعظم خسرو باشا . رجل الدولة فى ذياك العهد . وهو الذى أشار إليه مراراً بالإسراع بمهاجمة قوات إبراهيم والقضاء عليها . ولما طلب أن يرسل إليه ألفين من جنوده فى الاحتياط رفض السلطان رجاء قائده وأبان له أنه يريد الاحتفاظ بهم لحماية الآستانة .

ولم يك على رشيد إلا تلبية أوامر الباب العالى ، فزايل آق شهر ميمماً صوب قونية .

(المصادمات الأولى)

وفى يوم ١٨ ديسمبر ، يتعثر قول تركى فى قرية سيله المنيعة[١] وكان يحتلها ألفا مصرى . فيمدهم إبراهيم بسرعة بآلاى مشاة وأورطة من (الآلاى ١٩) والآلاى الثالث الخيالة وخمسمائة فارس غير نظاميين وبطارية . وكانت النتيجة أن ردت الجنود التركية على أعقابها مدحورة بعد أن أسر منها ٥٠٠ أسير وتركت ثمانية بيارق وخمسة مدافع وكمية وفيرة من العتاد .

وفى اليوم التالى ، هاجم المصريون حامية تركية كانت تحتل دوكوز لوخان التى تبعد ثلاث ساعات من قونية ، على الطريق المؤدى إلى لاديك . وقد كان المهاجمون من الحرس والخيالة (٣ آلايات) وثلاث بطاريات . فلم يضع الأتراك وقتهم وبادروا بالتسليم وانضموا إلى زملائهم أسرى اليوم السابق فى قيصرية ، وقد أفادوا بمقدمهم قوات محمد بك .

(١) تقع على بعد ثمانية كيلومترات شمال غربى قونية .

وفى مساء ٢٠ ديسمبر ، علم إبراهيم باشا أن رشيد غادر لاديك على رأس قواته فى اتجاه قونية ، لبدء القتال ، بعد أن وزع على جنوده تعيين بقسماط لأربعة أيام وشعير لمدة يومين .

وكان رشيد باشا قد أرسل كتابا إلى إبراهيم ، يطلب منه الانسحاب من وجه جيوش السلطان ، فرد عليه بخطاب جاء فيه : « لسنا نحن أنت وأنا بمسئولين عن الدماء التى تراق ولكن التبعة تقع على الذين أمرونا ولا سبيل إلى مخالفة ما أمروا » .

معركة قونية (٢١ ديسمبر ١٨٣٢)

كان صباح يوم الجمعة ، والضباب يخيم على ميدان القتال ، ونزلت درجة البرد إلى ١١ سنتجراد ، وحال الطقس دون اكتشاف كل من القائدين مواقع جيش خصمه . على أن إبراهيم امتاز على « رشيد » بأنه درس أرض المنطقة التى ستدور فيها المعركة دراسة دقيقة ودرب جنوده عدة مرات على مناورات القتال مدة كافية . . .

وقبل وصف توزيع قوات الجيش يتعين علينا أن نرسم صورة للموقع الذى سيدور فيه القتال . . .

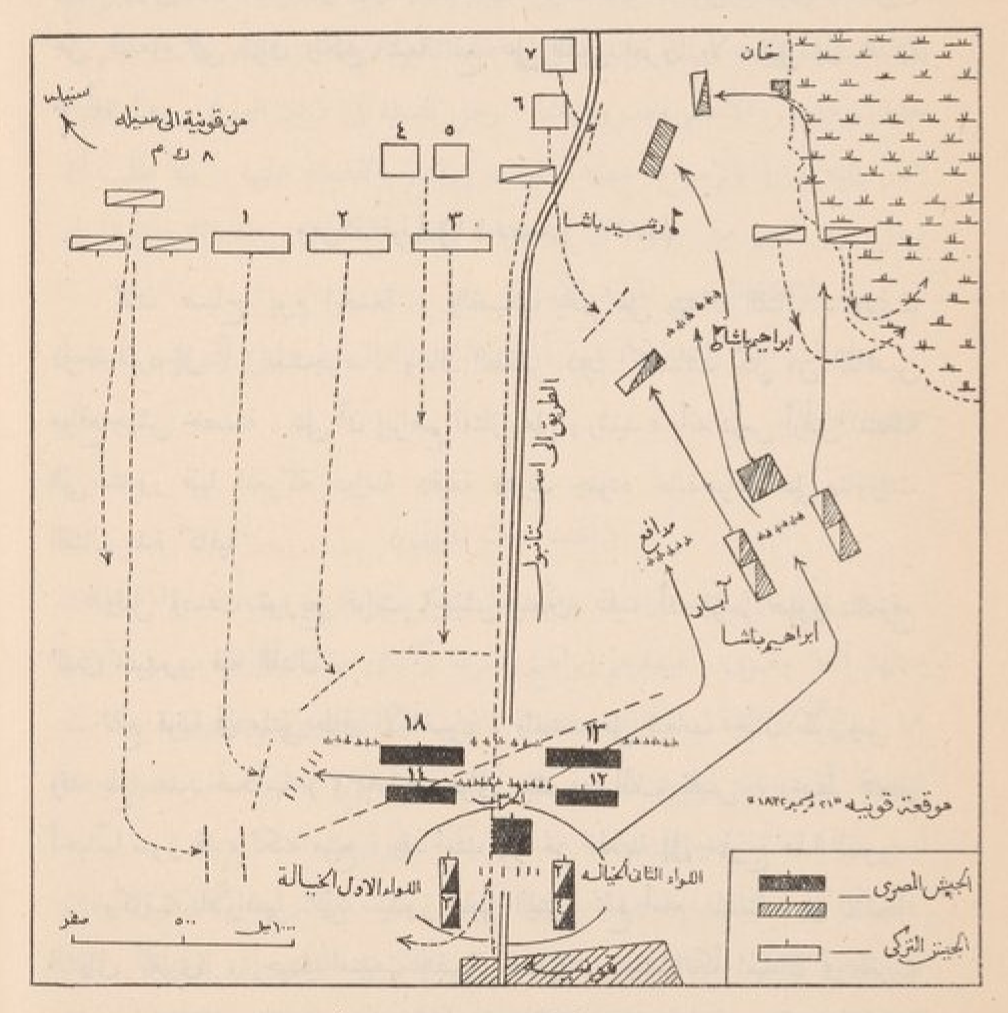
تقع قونية فى ملتقى طرق الأناضول ، وتستند على شعاب جبال طوروس ، وقد بلغ عدد سكانها (١٨٣٢) حوالى عشرين ألف نفس ، يحيط بمعظم أحيائها سور قديم لكنه منيع . وقد امتد جزء من المدينة إلى خارج هذا السور .

وكانت الأراضى التى سيدور عليها القتال تقع أمام المدينة ، فى الاتجاه الشمالى الغربى ، حيث امتدت هضبة خصبة ، وقد اتكأ الميدان فى الغرب على ميول تلال سيلة وتحدها من الشرق طائفة من المستنقعات . وكان الطريق الموصل بين لاديك والآستانة يمر بمنتصف ميدان المعركة تماماً .

وقد دبر إبراهيم خطته كما فعل فى المعركتين السالفتين ، على المعلومات التى وقف عليها عن جيش العدو ، ومعرفته التامة بأخلاق قائده منذ تعاونا

فى المورة ، فضلا على معرفته بطبيعة الأرض .

توقع إبراهيم أن « رشيد » سيلجأ إلى توزيع جيشه الضخم على امتداد الهضبة الفسيحة بين جبال سيلة ومنطقة المستنقعات ، وأنه سيسدد مرماه نحو قونية ، بالالتفاف حول ميسرة الجيش المصرى .



موقعة قونية (٣١ ديسمبر ١٨٣٢)

استعرض إبراهيم ، بمساعدة سليمان بك ، الموقف . وجالت فى رأس الباشا خطتان ، رأى إن هوهجم على ميمنة الأتراك فلن تكون النتيجة محمودة ،

ذلك لأنها رابطت على سفح الجبل ، فى مواقع حصينة ، بعكس الميسرة التى كانت تستند إلى مستنقعات مكشوفة .

ورأى الباشا أن يفاجئ خصمه ، قبل فتح قواته فى تشكيل القتال ، وبدأت خطته تتبلور ، وقرر ألا يبدأ فتح نيران مدفعيته ، حتى تصبح قوات رشيد باشا فى داخل المرمى ، فيوجهها إلى قلبه ، وبذا يستطيع استخدام جناحه الأيمن على خير وجه . وكانت هذه الخطة السليمة خير ما اهتدى إليه ونتيجة لتفكيره المستمر ، الذى بنى عليه تدريب الجند ومناوراتهم ، خلال مقامه فى قونية .

ويستدل من عدة شواهد على أن رشيد باشا لم يك واثقاً ١٠٠٪ بالنصر . ومن الأدلة أنه سلم خاتم الدولة إلى وكيله أحمد فوزى باشا فى الليلة السابقة للمعركة .

الجيش المصرى فى تشكيل القتال

وزع إبراهيم باشا قواته فى ثلاثة صفوف ، يرتكز وسطها على طريق لاديك:

الصف الأول بقيادة سليم بك المناسترلى يؤلف الآلايين ١٣،١٨

الصف الثانى بقيادة سليمان بك « سيف » يؤلف الآلايين المشاة ١٢،١٤ . وعلى بعد خمسمائة خطوة من الصف الأول فى تشكيل قول مزدوج .

والاحتياط بقيادة سليم بك ، وهو آلاى الحرس ، على بعد ثلاثمائة خطوة من الصف الثانى ، فى تشكيل قول مزدوج ومعه اللواءان الخيالة ١، ٢

وإلى الطرف الأيمن فى المؤخرة قوات الدلاة والبدو .

أما المدفعية فكانت ٣ بطاريات فى الصف الأول موزعة فى اليمين والقلب واليسار :

بطاريتان فى وسط الصف الثانى .

بطارية فى الاحتياط خلف الحرس .

وكاحتياط ضد حركة تطويق قد يهدد بها العدو ، أمر إبراهيم كل آلاى

مشاة فى الصف الثانى أن يعين أورطة فى تشكيل مربع على كلا الجانبين ، على مسيرة ١٥٠ متراً من الآلاى .

الجيش التركى فى تشكيل القتال

أما رشيد باشا فقد وزع قواته فى صفوف أربعة : الصف الأول منها فى تشكيل مفتوح ، أما الثلاثة الأخرى فكانت فى تشكيل منضم بالأورطة . وقد تألف الصف الأول من آلاى الحرس و ٢ آلاى خيالة نظامية .

والصف الثانى ٢ آلاى مشاة و ٢ آلاى خيالة .

والصف الثالث والرابع — كل منهما آلاى مشاة .

وفى المؤخرة ، إلى اليمين وإلى الشمال ، قوات غير نظامية وألبانيين ورجال البوسنة مشاة وخيالة .

أما المدفعية فموزعة بطارياتها بين الصفوف بمعدل مدفعين فى كل أورطة مشاة وأربعة مدافع فى كل آلاى خيالة .

وتولى رشيد قيادة الميسرة ، وهى أضعف نقطة ، وتولى قيادة قوات القلب سعد الله باشا ، والميمنة خير الدين باشا . وقد وجدت وحدات العدو صعوبة شديدة فى اتخاذ مواقفها من جراء الضباب ولكن مرت لحظة خفت فيها كثافته فاستطاع إبراهيم أن يلمح توزيع الجيش العثمانى ، وكان يبعد عنه حوالى ٣٠٠٠ متر .

ثم تقدمت صفوف الأتراك حتى صارت على مسيرة نحو ستمائة متر من مواقع القوات المصرية . وفى الظهر أخذت المدافع التركية تطلق القنابل على على المصريين ، فلم يردوا عليها بالضرب ، إلى أن تعرف إبراهيم باشا على صوت إطلاق النار مواقع الترك — وتقدم الصف الثانى المصرى حتى اقترب من الصف الأول ليتفادى فتك الشظايا التى كانت تنصب عليه .

ثم استهلت المدفعية المصرية عملها فى كل الجبهة — بنيران شديدة متواصلة من الجانبين ، وأحكام بالغ فى التسديد ، حتى لقد زلزلت الأرض فى كل الجهات ...

وفى أثناء المعمعة ، كان يتنقل إبراهيم بين الجند ، مشجعاً ، ويثير الهمم قائلا :

« عفارم — عفارم — أيوه يا ولد — ما شاء الله — عفارم »

وفى خلال لحظة انكشف فيها الضباب ازداد إبراهيم علماً بمواقع الترك ، وتبين نقطة الضعف التى يصيب منها الهدف — ذلك أن قوة الخيالة كانت تؤلف ميسرة الجيش التركى وقد أخطأت القيادة التركية فى أنها لم تحكم الصلة بين الفرسان والمشاة خلال التقدم . وحدثت بينهما ثغرة ، يبلغ طولها نحو ألف خطوة ، جعلت الميسرة فى شبه عزلة عن بقية الجيش .

فانتهز إبراهيم باشا هذه الفرصة ، واعتزم الهجوم بقوات الحرس والفرسان ، خلال هذه الثغرة ، ليخترق صفوف الترك . وبادر فعلا فأصدر تعليماته بتحرك هذه القوات ، وتولى بنفسه قيادة هذه الحركة . فزحفت قوة الحرس يتبعها الفرسان ، واجتازت عين مياه بقليل ، ثم انعطفت نحو الشمال حيث ميسرة الترك وهاجمتها هجوما عنيفاً ، وشدت المدفعية أزرها . فصبت قنابلها على الترك ، واكتسحتهم من الجنب . وكان الهجوم شديداً ، والضرب محكما . فاهتزت مراكز الترك هزا عنيفاً لقسوة الهجوم ، واضطروا للتقهقر شمالا من غير نظام ، فى المستنقعات ، وبذا هزمت ميسرة الجيش التركى .

ومن سوء الجد ، لم يظاهرنا التوفيق لمعرفة أسماء الوحدات المصرية ، التى اضطلعت بهذا الهجوم وإن كانت تتفق جميع المصادر على ذكر « الحرس » واللواء الرابع الخيالة بقيادة أحمد المنكلى والمدفعية والآلاى الثانى الخيالة .

دبرت هذه الهجمة على أفضل تدبير ، وبينما كان يستعد الحرس للمسير إلى خان قديم لمح إبراهيم إلى اليسار آلاى من مشاة الترك (اتضح فيما بعد أنه الآلاى ١٧) يتقدم فى تشكيل منضم وكان رشيد باشا قد أمر قائده لمعاونة الخيالة فى الإطباق على الميمنة المصرية — فأمر إبراهيم الحرس بتغيير مواجهته وأن تنضم إليه فى الحال الآلايين الخيالة ١ و ٢ وبطارية مدفعية للقيام بهجوم ضد الجنب التركى (الآلاى ١٧) الذى انهالت

عليه النيران الشديدة من ثلاثة مصادر ، وأحاط به المصريون ، وأوقعوا برجاله حتى سلموا سلاحهم .

ولما أدرك رشيد باشا أن ميسرته قد وقع فيها الاضطراب والفشل ، أراد أن يلم شعثها ، ويبث الحمية فى نفوس رجاله — فقصد مواقع الجند ، بيد أنه لم يفز بطائل . وضل الطريق فى الضباب الكثيف وبينما يمضى فى طريقه وقع فى أيدى العرب المصريين ، فأحاطوا به ، وجردوه من سلاحه ، واقتادوه أسيراً إلى ابن محمد على الكبير .

ثم أمر إبراهيم قواته الاحتياطية ، بعد تركها وحدة من المدفعية وأورطة مشاة ، للتقدم مع الحرس فى طريق مواز لطريق لاديك للقضاء على الاحتياطى العثمانى ، وانضم إليها نصف بطارية والآلاى الخيالة الثانى وكان منتظراً أن ينضم إليها اللواء الأول ، ولكنه لم يستطع السير فى الضباب ، وقام بمناورة فيما بعد على مقربة من الخان والمستنقعات ، ثم ساعد الجناح المصرى الأيمن أمام قونية .

أما الآلاى الرابع فكان أكثر توفيقاً فى مناورته . فقد تابع مطاردته الخيالة الأتراك ، فى المستنقعات ، ووصل إلى الخان ولحق آلاى الحرس فى الوقت الذى كان يهجم فيه الآلاى ١٩ المشاة الأتراك ، الذى كان فى الصف الرابع العثمانى . وقد وصل الآن إلى موقعه فى الصف الثانى . وكانت نيران الشرخجية المصرية تنصب كالمطر بإحكام ، تساعدها قذائف المدفعية ، على أجناب ومؤخرة هذا الآلاى (١٩) . وكانت إحدى كتائبه تشكلت فى هيئة مربع وباشرت العمل بهمة ، عندما أقدم الآلاى الرابع الخيالة . فاندثرت المقاومة بعد وقت قصير ، وعم الفزع فى قلب القوات التركية ، وفر الجند غير النظامى إلى تلال سيلة ، عن طريق لاديك . وكانت تخرج القوات التركية من دائرة النضال .

ولكن كان هناك بصيص من الأمل لدى القائد العثمانى ، الذى تسلم القيادة بعد انهيار ميسرته وقلبه . ورأى أنه إذا نجح فى مناورته ، مستعينا

بقوات الميمنة ، استطاع الصمود وتحويل نتائج المعركة ، ولكن كانت حركة المناورة البارعة التى نفذها إبراهيم فى الحال ، أخرت ، بل قضت على خطة خصمه .

الساعة الآن الخامسة مساء . . . والقتال مازال مستمرا ، وأصبح موقف الأتراك يعتمد كل الاعتماد على الآلايات المشاة الثلاثة التى فى الصف التركى الأول وخيالته تكون منها خطا منكسراً للإحاطة بالميسرة المصرية ، التى كان قوامها آلايين مشاة وآلاى خيالة الصف الثانى – وكان الطريق الرئيسى إلى الآستانة يسير إلى غربها .

وقد واجه المصريون هذا الخط ، الذى هددهم برباطة جأش وثبات . وفى الحال أجريت العمليات الآتية – أسرعت بطارية مدفعية الصف الثانى لمعاونة بطارية الميسرة فى الصف الأول . ثم صبت المدفعية سواء منها فى القلب أو فى الميسرة نيرانها صوب الأعداء – فحصد صفوفهم حصدا . واستبسلت الميسرة فى الضرب والقتال ، إذ كان على دفاعها يتوقف مصير معركة اليوم . واستمرت الملحمة ثلاث أرباع ساعة ثم أسفرت عن كسر هجمة الأتراك بل وهزيمتهم وتشتيت وحداتهم فى السهل وفى قونية .

ثم أراد العثمانيون أن يبذلوا جهداً آخر علهم يكسبون ظفرا – فتحركت قوة من خيالتهم ووصلت تجاه الصف الأول من قواتنا . فلم يحفل بها أبناء النيل ، لأنها كانت صائرة نحو الفشل . فتقدمت إلى ما وراء صفوف الجيش وهناك تشتت شملها .

انتهت وقعة قونية بهزيمة قوات الإمبراطورية العثمانية ، بعد أن استطال القتال فيها سبع ساعات . إذ بدأت فى الظهر وانقضت بعد غروب الشمس بساعتين . وكانت خسائر الترك كالآتى :

٥٠٠٠ – ٦٠٠٠	أسير وقائد الجيوش وبينهم عدد موفور من الضباط
٣٠٠٠	قتيل
٤٦	مدفعاً وعدد كثير من الأعلام العسكرية

أما ضحايا المصريين فكانت ٢٦٢ قتيلا و ٥٣٠ جريحا .

وفى الساعة الثامنة والنصف مساء ، عاد إبراهيم باشا إلى قونية ، ليتلقى تهنئة ضباطه ورجاله .

وقد قال إدوار جوان فى كتابه المعروف عن معركة قونية ، إن قوة الأتراك كانت ثلاثة أضعاف المصريين إلا أنهم كانوا أقل تدريباً وبسالة وخفة .

نتائج المعركة :

رأينا المعركة تنتهى بظفر رائع لا مثيل له . وأصبحت الأبواب التى تفضى إلى عاصمة الخلافة مفتوحة على مصراعيها ، تستقبل جيوش مصر الغازية . وقد فقد السلطان جيوشه ، التى اعتمد عليها ، للقضاء على خصمه يلتفت يمنة ويسره فلا يجد نصيرا سوى حلفائه الروس ، الذين يكرههم العثمانيون لأنهم أعداء ملتهم ، وخصوم شعبهم ، منذ استولوا على استانبول . وكان جديرا بالقائد العظيم إبراهيم أن لا يعبأ بالمفاوضات والارتباكات السياسية ، ويواصل انتصاراته ، حتى يدخل على رأس جيوشه المظفرة الآستانة ، ويخضع السلطان محمود ويملى عليه إرادته ، بينما يقتحم الأسطول المصرى المياه اليونانية ويعبر الدردنيل ، وينزل قواته فى الثغور العثمانية وما وراءها . ولكن ارتبط إبراهيم بعجلة والده السياسية ، فلم يقدم على التقدم إلى العاصمة الفتانة ، ليصل إليها قبل قدوم القوات الروسية ، التى جاءتها فى ١٣ فبراير سنة ١٨٣٣[١] .

ولم تك تمض أيام ، حتى يتبوأ محمد على عرش آل عثمان ، مكان السلطان الذى كانت رعيته تنظر إليه كحليف للروس ، بينما كانت فى صميمها ترنو إلى حاكم قوى ينتشلهم من الهاوية التى أوقعها السلطان فيها

ولنسأل أنفسنا سؤالا — وماذا يكون موقف المسلمين من محمد على . . .

(١) انتهت معركة قونية فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٢

وهو فى نظر بعضهم ذلك الثائر الذى اعتدى على الخليفة ، وأنزله بقوة السيف ، ونزع السلطة منه .

والجواب على ذلك نراه فيما اعتاد عليه البشر — مسلمون وغير مسلمين — وهو الملك لمن يستحق الملك والحق للقوى وليس للضعيف . وما كان محمد على إلا عبقرياً من طراز الرجال المصلحين . بدأ إصلاح ولاية مصر ثم أراد إصلاح السلطنة كلها . وكان جديراً بالقيام بهذه المهمة ، وكاد يصل إلى هدفه لولا تدخل الدول ، التى كان هدفها العمل على إضعاف الدولة العثمانية لكى يرثوها بعد القضاء عليها . وقد تحققت أهدافهم بعد نصف قرن من الزمان ، وذهبت الإمبراطورية العثمانية فى عداد التاريخ .

التردد بين محمد على وإبراهيم

أقام إبراهيم باشا شهراً فى قونية ، يعيد تنظيم قواته ، عقب انتصاره الرائع ، ولم يستطع مواصلة مطاردة فلول جيش رشيد قبل وصول أوامر والده إليه . وقد كتب لأبيه خطابا فى ٢٨ ديسمبر يقول له فيه :

« أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعى محمد رشيد باشا ، وأستطيع خلع السلطان حالا ، وبدون صعوبة ولكنى مضطر أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا فى استانبول فالواجب أن نذهب إلى استانبول حيث نملى إرادتنا وإنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوة لا توصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الإشاعات التى تذيعها إلى غرض سياسى بأنا نهدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها إلى الأمام . فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لايقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى ضلمبفجة بضاحية استامبول . فالواجب إذن أن نواصل الزحف حتى بروصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة

على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قد تقضى إلى عزل السلطان . وإذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا وأننا لولا الأمران الأخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب استامبول وإنى لأسائل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى إصدار تلك الأوامر إلى . . .

أهو الخوف من أوربا أم هو شىء آخر لا أعرفه . . .

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا . نعم إنى ألتمس إبلاغى أمركم القاطع بهذا الصدد . »

وصل هذا الكتاب إلى محمد على ، فسلم برأى إبراهيم وأذنه بالتقدم ، وفى التو قام القائد على رأس جيشه فى ٢٠ يناير وقد قسمه إلى شطرين . فوصل إلى كوتاهية فى ٢ فبراير ، وتحمل الجنود زمهرير الشتاء القارس ، وصار على مبعدة ٥٠ كيلومترا من الآستانة .

وكان إبراهيم عندما زحف من قونية إلى كوتاهية قد كتب إلى أبيه الخطاب التالى :

« اليوم (٢٠ يناير سنة ١٨٣٣) بدأ الجيش بالزحف على قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقل ولا توجد فى طريقنا أية مقاومة حتى استامبول ليست فيها حركة استعداد للمقاومة وهذا يدل على أنهم قد وضعوا جميع آمالهم بالصلح . ولأجل هذا الصلح أرسل إليك خليل رفعت باشا ولكنى أرى جهد ما يصل إليه علمى الضعيف أنه ما دام السلطان محمود المشئوم على العرش لا يمكن أن يكون هناك صلح صحيح ولا نهاية للأزمة لأنه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام ويعمل لها . كما كان فى الماضى وللجور على هذه الأمة الإسلامية التعسة وظلمها . فبحق حبنا لهذه الأمة وبحق غيرتنا الدينية أرى من الواجب المحتم علينا لا العمل لمصلحتنا فقط ولكن العمل فوق كل شىء وقبل كل شىء لمصلحة هذه كلها ومن

أجل ذلك يجب علينا أن نرجع إلى القرار الأول أى خلع هذا السلطان المشئوم ووضع ابنه ولى العهد على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك يحرك هذه الأمة من سباتها العميق .

فإذا اعترضت على بأن أوربا تعترضنا قلت لك إننا لا ندع لها الوقت للتدخل وبذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لأن مشروعنا ينفذ قبل أن يعرف وبذلك نضع أوربا أمام الأمر الواقع — وإذا كانت أوربا تغتنم الفرصة لإشباع مطامعها من هذه الدولة فأية تبعة تقع علينا . . .وهل باستطاعتنا أن نمنعها عن تحقيق خطة تسعى لتحقيقها منذ ٨٤ سنة .

. . . ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقدم إلى بورصة ومودانيا فلا وقت إذن لتلقى شئ منك أو من استامبول يحوم على التقدم .

أما أنا فإذا بقيت هنا فإنى لا أجد أقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى إلا الذهاب إلى بروصة ومن هناك أرسل إليك رسولا بما تكون قد قررناه تبعاً للظروف . . .

وكان على أبواب كوتاهية حينما تلقى خطابا من محمد على يأمره بالوقوف عن الزحف حيث يدركه خطابه وهو يعلم أنه ليس للسلطان جندى واحد فى طريقه إلى عاصمة الخلافة . وذكر له أن السلطان أرسل خليل رفعت باشا إليه (محمد على) ليتفق معه .

وقبل أن يصل إلى بروصة كما اعتزم ، تلقى الأمر من والده بأن يقف ، وكان هذا الأمر بعد وصول الجنرال مورافيف مبعوث قيصر روسيا إلى إسكندرية ، ثم وصول خليل رفعت باشا مندوب الباب العالى . يحمل إلى محمد على عفو السلطان عنه وولايته عكا وملحقاتها، ولكن لصداقة محمد على له ، اتفق معه على شروط للاتفاق أهمها أن يعطى محمد على ولاية سورية وأدنة ، وأن تبرم بينه وبين خسرو باشا محالفة تعاون تضع حدا لنزاعهما .

ووصل إلى إبراهيم باشا ثلاثة رسل من الآستانة ، الأول رسول الباب العالى ليبلغه أنهم أرسلوا إلى والده رسولا للاتفاق ، والثانى رسول الجنرال مورافيف

والثالث رسول سفير فرنسا . وكان إبراهيم يعتقد أن الاتفاق بين خليل رفعت باشا وبين أبيه أمر ممكن ، ولكنه كان يرى أن الصلح الذى يبرم مع السلطان محمود هو صلح غير دائم ، بل يكون بمثابة هدنة ، حتى يتمكن السلطان من العودة إلى القتال . ويتضح رأيه مما كتبه لأبيه ، فى الثالث من فبراير :

« أرى أن يكون الاستقلال مقدما على كل شىء فى المناقشات التى تدور بينك وبين الرسولين مورافيف وخليل باشا — فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شىء ، وبعد الاعتراف بالاستقلال يجب أن نطلب أضاليا وأدنة وجزيرة قبرص وأن يضم إلى مصر — إن كان ذلك فى الإمكان — تونس وطرابلس . ذلك أقل ما يجب أن نطلبه ولا نتساءل عن أى شىء كان مهما كان الأمر لأن مصلحتنا تقضى به . أما إصرارنا على الاستقلال فلكى نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فإذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع مجهوداتنا ضياعا ومكننا تحت يد هذه الحكومة الخبيثة التى تهددنا بمطالبها الدائمة وبطلب المال . فمن الآن يجب أن نتخلص من الأعباء المبهظة ولا نجد خلاصاً إلا بالاستقلال . أما السبب الذى يدعونا لطلب أضاليا وأدنة فهو شدة حاجاتنا إلى الخشب . لأن مستقبل أسطولنا معلق على ذلك ما دامت بلادنا محرومة من الخشب وأنت تذكر أن انجلتره منعت ورود الخشب إلينا فاضطررنا أن نلجأ إلى النمسا التى أزعجنا رفضها إزعاجاً لا نستطيع نسيانه . وهل من حاجة بى لأبين شدة حاجتنا إلى الخشب . . . فأنت أنت ذاتك قلت لى فى الأمر الذى أصدرته حديثاً ، كما أنه يجب عليك أن لا تهمل وسيلة من الوسائل لصد الجيش التركى كذلك يجب أن تعمل كل ما باستطاعتك عمله للحصول على الخشب .

« أما ضم قبرص إلى مصر فهو أيضاً لازم لا مندوحة عنه . لسببين : الأول ليكون مركزاً لأسطولنا والثانى لمنع الباب العالى من أن يكون له طريق إلى أملاكنا وإذا شئت أن تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث على أن تتنازل عنها فى المستقبل لأن هذه الولاية لا تنفع

شيئاً وهى كستارة بعيدة جداً عن مصر وتتطلب نفقات باهظة .

هذا ما أعرضه على مسامعك وأوجه إليك مع منتهى الاحترام أنظارك »

وفى ٣٠ يناير كان خبر تقدم إبراهيم من قونية إلى كوتاهية وقره‌قول حصار قد وصل إلى الآستانة فاستشاط السلطان غضبا ولجأ إلى أصدقائه الروس يستنجدهم . ومن حسن حظه أنه كان قد وصل لإبراهيم أمر أبيه بوقف التقدم . وكان إبراهيم هدد بروسة كما استولى أربعة من جنوده وضابط على أزمير .

وهنا تبدأ الدول تعدل موقفها السياسى من ظفر جيوش إبراهيم . ويرفض محمد على اقتراحاتها المشينة . وتبدأ انجلترا تكشف عن سياستها نحو نجاح محمد على وقد خشيت أن تقف مصر شوكة فى طريقها إلى الهند .

وتتضح سياسة انجلترا هذه من الرسالة التى كتبها بالمرستون إلى وبليام كامبل السفير الإنجليزى فى كابل ، وذلك بعد ما أذيعت شروط الاتفاق الأولى بين تركيا ومصر :

« أن الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جدا ما دامت هذه الشروط تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق إلى العراق — وفوق هذا يجب أن يثبت كل سنة فيما أعطى له وإن كان تثبيته فى ولاية مصر دائماً — وقد كان قصده تأليف مملكة عربية لجميع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن فى ذاته لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا فلا يمكننا أن نسلم به .

أضف إلى ما تقدم أن تركيا أفضل دولة تملك طريق الهند ، فهى أفضل من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ، نزوعاً للعمل ، كثير الحركة .

فالواجب علينا أن نساعد السلطان على أن يعيد تنظيم جيشه وأسطوله وماليته فإذا استطاع أن يعيد النظام إلى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء .

وظلت المناورات السياسية تديرها الدول الكبرى ، بيد أنها ضعفت عند ما رأت جيشاً روسيا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل وأسطولا كبيرا يحميان السلطنة ، بناء على رغبة السلطان . فأقلق بال فرنسا وانجلترة واستمرت الدسائس الدولية تعمل فى الخفاء ضد محمد على للحد من مطالبه وإجباره على سحب قواته ، وإذ بالباب العالى يرضخ لمطالب الوالى العظيم .

فأثرت هذه المفاجأة على خصومه . وأخيراً أبرم بين الطرفين اتفاق

كوتاهية (١٤ مايو ١٨٣٣) فوضع حدا مؤقتا للنزاع بين الدولتين . وبهذا الصلح ولى محمد على مصر والحجاز وكريت وجعل إبراهيم باشا واليا على سورية وعكا ودمشق وطرابلس وحلب ومحصلا لولاية أدنة ، ورفرف العلم المصرى على جل هذه الأقاليم .

وبذا انتهى — ولو مؤقتا النزاع بين الدولتين رغم أنف الدول ، التى كانت تهوى الصيد فى الماء العكر . وكسب محمد على ثمرات النصر الحلوة . وبرهن للملأ أنه رجل صريح لا يعتمد على الحرب بل يرغب السلام . وصرح للمندوب الفرنسى قائلا :

إننى رجل سلام لا أهدف إلا لشىء واحد هو أن أقف أيامى الباقية لإسعاد البلدان التى أحكمها ، ويسألوننى أن أقدم الدليل على سلوكى هذا فأجيب بأننى أتوسل لأوربا أن تقنع تركيا بأننى لن أهاجمها كما تضمن تركيا فلا تهاجمنى[١] .

وقد قضى احتلال الشام عسكريا فى عام ١٨٣٣ بتوزيع حاميات الجيش المصرى داخل البلاد الآتية :

القوات المصرية فى فبراير ١٨٣٣[٢] .

الوحدات	مصر	الجزيرة العربية	السودان	كريت	سورية	المجموع
٢٣ آلاى مشاة	١٧٣٥٢	٧٠١٧	٥١٥٧	٥٠٠٤	٣٥٥٧٧	٧٠٣٣٧
٣ آلاى مدفعية	٤١٠٢				٢٢٥٥	٦٣٥٧
فيلق مهندسين	٢٩٨٩	١٠١			٨٥٢	٣٩٤٢
١٣ آلاى خيالة نظامية	٢٦٧٠				٥٢٩٢	٧٩٦٢
خيالة غير نظامية[٣]	٧٠٠	٧٠٠	٤٨٤		١٥٥١	٣٤٣٥
بدو	—	٦٦٨	٦٠٤		٤٠٩٨	٥٣٧٠
	٢٧٩١٣	٨٥١٦	٦٢٤٥	٥٠٠٤	٤٩٦٢٥	٩٧٣٠٣

(١) مراسلات مستر كامبل قنصل بريطانيا فى مصر إلى وزارة الخارجية فى ١٣ مايو سنة ١٨٣٣

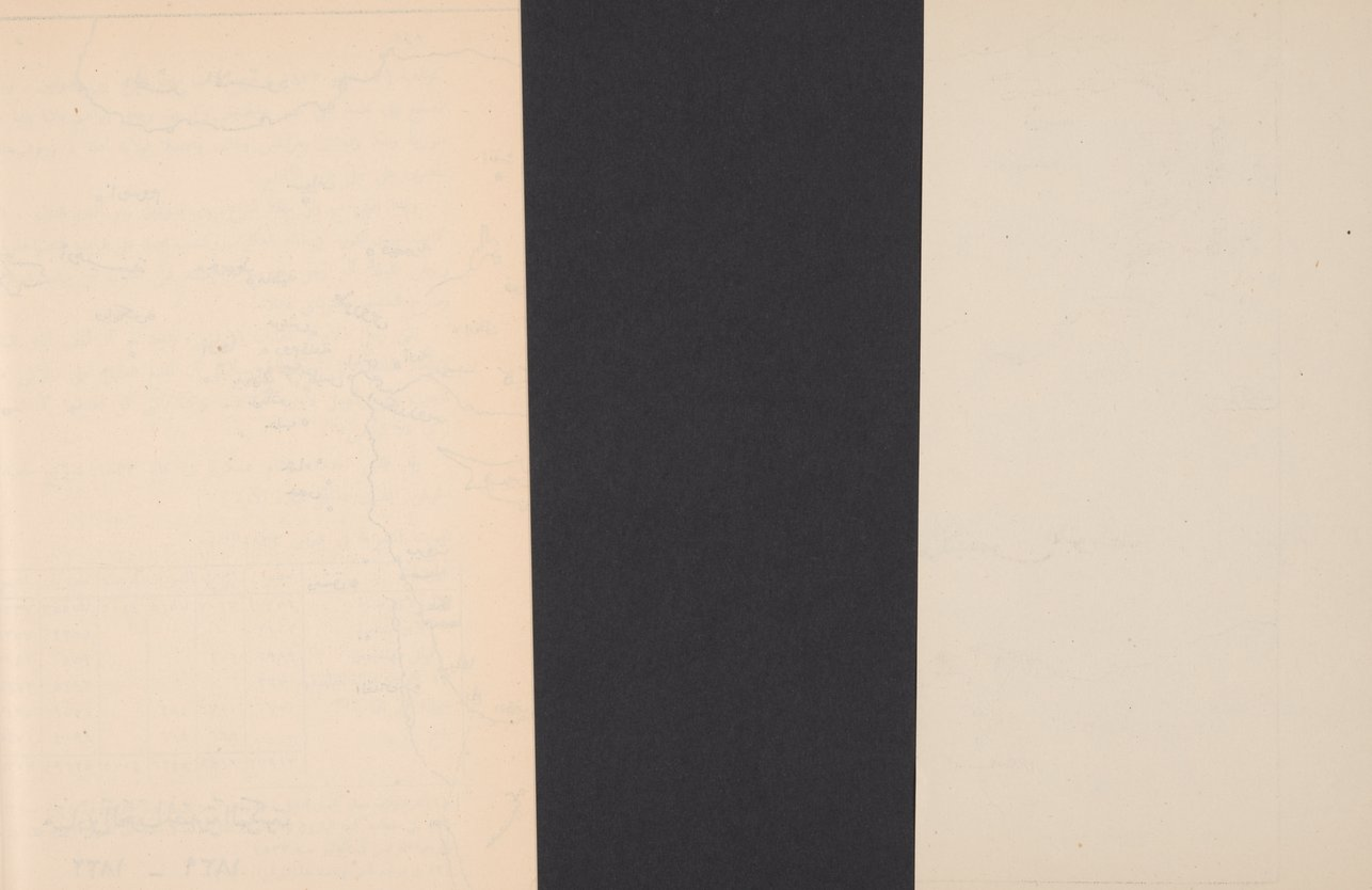
(٢) من خطاب كتبه البارون بواليكونت ممثل فرنسا فى مصر إلى الدوق (Broglie) وزير الخارجية الفرنسى فى ٢ يوليو سنة ١٨٣٣

(٣) فى مرجع آخر وجدنا هذا الرقم ١٩٨٠٠

ميادين الحرب المصرية التركية

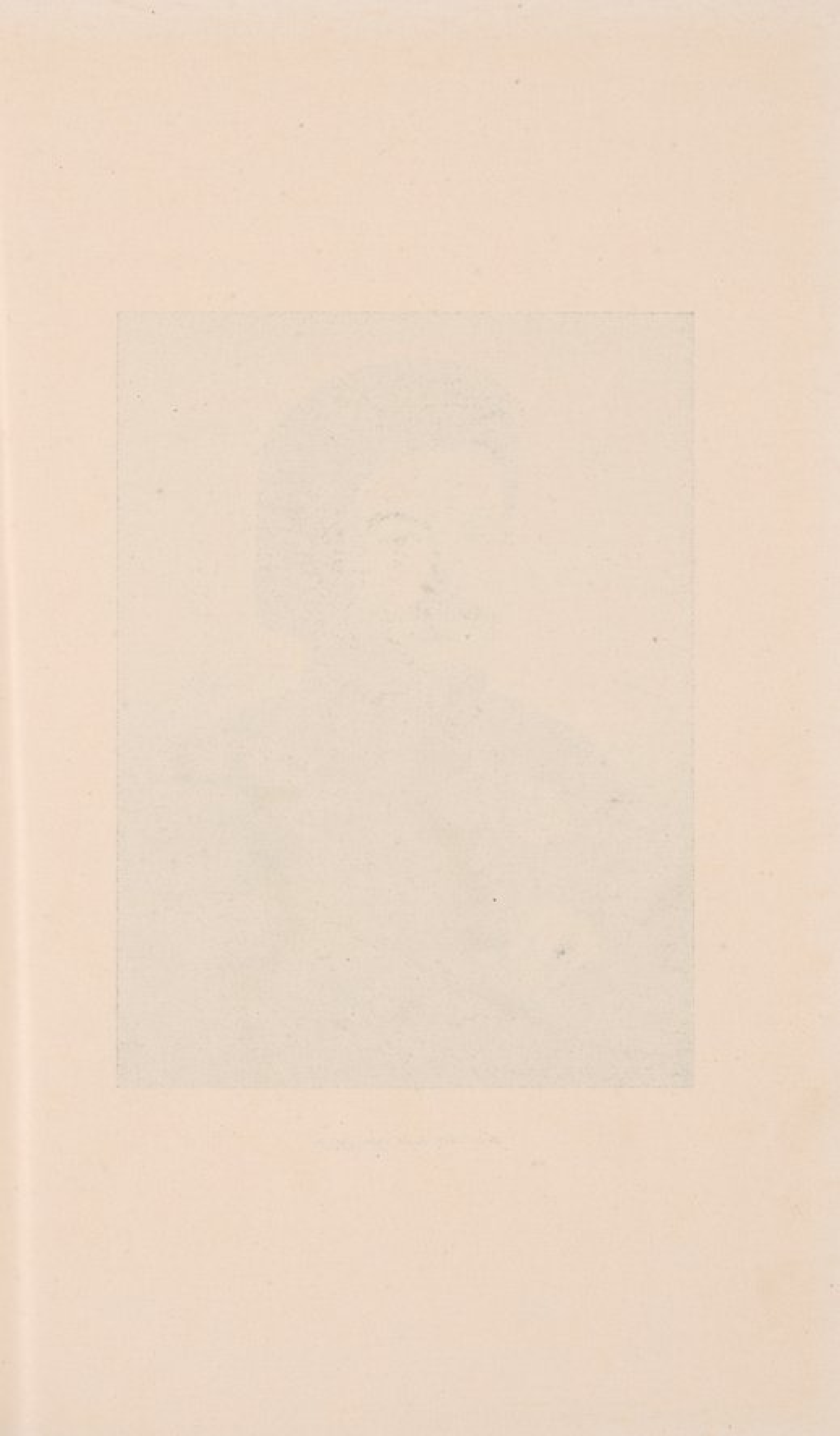
١٨٣٢ - ١٨٣٩

البحر الأسود
استانبول
بروسه
كوتاهية
أزمير
رودس
كريت
ر الأبيض المتوسط
مصر
أنقرة
سيواس
أرضروم
قيصرية
خربوط
ملطية
أرمينية
طوروس
دياربكر
مرعش
إكالى
أورفا
روم قلعة
أدنة
باياس
نزيب
بيرجك
كليس
مرسينا
اسكندرون
تل باشر
حلب
حماه
حمص
قبرص
بيروت
صيداء
دمشق
عكا
حيفا
يافا
القدس
رفح
العريش





الفريق خورشيد باشا طاهر



وإلى جانب هذه القوات المحاربة ، كانت توجد الوحدات التالية :

طلبة المدارس الحربية	٣٤٨٨
قوات البوليس المحلية	٦٧٩٩٨
جنود البحرية ودور الصنعة	٢٥١٤٣
صناع وعمال فى خدمة الجيش	١٩٣٩٣٢

وقد كانت معظم وحدات الجيش موزعة فى حاميات الشام ، وقد بلغ عدد أفرادها من القوات النظامية فى عام ١٨٣٣ — ٧١٦٣١ ، أما غير النظامية فقد كان ١١١١٩ أكثرها موزعاً فى أدنة وأورفا وحلب وعكا وعينتاب .

هدنة مسلحة بين حربى الشام

١٨٣٣ — ١٨٣٩

كانت اتفاقية كوتاهية بين الدولتين هدنة لمدة سنين قلائل ، استعد الطرفان فى خلالها لاستئناف القتال . وكانت حكومة الباب العالى لا تنفك تنفث الدسائس بوساطة أعوانها بشتى الوسائل . فلما ضاق محمد على ذرعا ، وآيس من إصلاح ذات البين ، اعتزم على إعلان استقلال مصر ،

الادارة المصرية فى الولايات :

وكانت للحكومات المعينة من قبل مصر فى ولاياتها بالشام والبلاد العربية وكريت . . . إدارات منظمة . تعنى برفاهية سكانها ، عادلة فى أحكامها ، فرتبت فى الشام مجلسا للشورى على النظم الحديثة ، ونظمت الشئون المالية . بل هيأ إبراهيم نظاماً لجباية الخراج ، ومعاملة الرعايا بالعدل والمساواة ، بغض النظر عن تفاوت الطبقات الدنيوية ، وتباين المذاهب

الدينية . مثل هذا التعديل فى أسلوب الحكم ، جعل الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ يستثقلون الإدارة المصرية . ويتمنون عودة البلاد إلى أحضان الدولة العثمانية . نظراً لأنهم لم يستطيعوا العيش وليس لهم جاه أو سطوة . بعد أن توطد الأمن فى ربوع أوطانهم ، وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة على النظم المنتهجة فى مصر ، وعمت تربية دودة الحرير ، واستخرجت بعض المعادن ، ودكت بعض القلاع التى كان يلوذ بها الثائرون وقطاع الطرق . وأكثر من ذلك قرب إبراهيم العلماء والأدباء ، كما رخص للدول الأجنبية فى إرسال معتمديهم إلى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله[١] .

ثورة فلسطين (١٨٣٤)[٢]

وسوف نمر سراعا على أهم الأحداث التى مرت بفلسطين ، لعلاقتنا بواجبات الحاميات العسكرية ، التى لم يعرف رجالها الراحة ، منذ عام ١٨٣٤ ولم يمض عام ونصف العام على معارك الحملة الشامية المظفرة . وسنذكر أهم الدوافع التى بثت فيها بذور الثورة ، وأشاعت بها مظاهر التمرد . .

١ – الدعايات السيئة التى اضطلع بها بنجاح رجال تركيا وجواسيسهم ، ووكلاء الدول الأوربية ، وقد كانت لها نتائج وخيمة فى مقاومة الحكم المصرى والعمل على تقويضه ، ولا سيما فى نابلس وبيت المقدس ثم فى دمشق وحلب – وكان الدروز ، إلى حد ما ، واللبنانيون من أوفى أصدقاء إبراهيم . كما لعب الدين دورا كبيراً فى مناهضة باشا مصر . ويتبدى أن الشاميين كبعض المصريين – فى صورة عامة – لم يروا أعمال محمد على فى صورتها الحقيقية إلا بعد وفاته وانقضاء زمن طويل . وليس هناك أدنى ريب فى أن الأب وابنه كانا متقدمين على جيلهما بعشرات السنين .

٢ – تفشى التذمر وعدم الرضى بين الزعماء والمشايخ وأتباع عبد الله

---

(١) الأستاذ محمد كرد على — الحكومة المصرية فى الشام ص ٢٢ — ٢٤.

(٢) الأمير عمر طوسون — تمرد فلسطين واستخدام الجنود النظامية فى قمعها — مجلة الجيش المجلد ٤ العدد ٤ ص ٤٧٥.

الجزار ، ممن حرموا المناصب والوظائف الكبرى التى كانوا يأملونها ، أو فقدوا الجاه والمال بعد ما نظمت أحوال البلاد — فجرت عدة وقائع بين المصريين والعكاويين والصافيتيين وأهل نابلس (الشيخ قاسم الأحمد) ثم حدثت معارك فى حلب ومثلها فى بيروت — وقد نكل بالكثيرين من زعماء البلاد ولا سيما آل طوقان وأعيان الأتراك .

٣ — وعلاوة على ذلك فقد توفرت الأسباب المادية لثورة الشام وفلسطين وأهمها الضرائب الفادحة التى فرضها إبراهيم على الأراضى بعد إصلاحها والجمارك ، وما جره نظام الاحتكار فى أثره ، والتدخل فى إلزام بعض أصحاب الحرف والصناعات اليدوية بالعمل فيها طبقا لسياسة اقتصادية عليا ، تكفل توطيد الأساليب فى مصر والشام .

٤ — وأظهر مسببات التذمر نفرة الناس من الجندية الإلزامية التى فرضها محمد على . فقد كره الشاميون الخدمة العسكرية بعد مرور مئات السنين وهم يفلحون الأرض أو يحترفون الصناعات الدنيا . وأضحوا يعدون التجنيد من باب إلقاء النفس فى التهلكة — وقد زال من أفكارهم معنى الدفاع عن الوطن بعد أن حكمهم الغرباء قرونا بالسوط — وقد أفضى نظام التجنيد الذى ثاروا ضده ، إلى هجرة عدد كبير من أهل الشام ، إلى آسيا الصغرى والعراق والبادية والجبال .

وبالاختصار أفضت هذه الأسباب منفردة أو مجتمعة إلى :

(ا) عصيان بيت المقدس (ابريل ١٨٣٤) وقمعة وكان زعيمه الشيخ قاسم الأحمد وأبو غوشى — وقد استمرت الثورة فترة ، مما جعل محمد على يسافر بنفسه على رأس إمداد كبير .

(ب) عصيان صفد وقد أخمده الأمير بشير الشهابى .

(ج) فتنة دمشق وطرابلس (١٨٣٤) وعكار وصفيتا وحلب وأنطاكية وبعلبك وبيروت .

(د) ثورة النصيرية شرقى اللاذقية (١٨٣٤ — ١٨٣٥) .

ولا مرية فى أن هذه المعارك أنهكت قوى الجنود بحالة مستمرة . وقد أبدى إبراهيم فى قمعها كثيراً من الشدة ، بيد أنه استحوذ على إعجاب الثائرين أنفسهم ، بتعريض نفسه للمخاطر بجرأة لا يتصورها عاقل . وعلى هذا يقال فى الجبل أن أبا خليل – وهذه هى الكنية التى يكنيه بها الشعب – محجب بحجاب ضد الجروح فعله محقق ، وأنه بعد كل واقعة كان ينفض رداءه فيتساقط منه الرصاص كالديمة فاقدا قوته .

وقبل آخر العام ، تمت عملية التجنيد فى سورية ، وتم النقص فى جميع الآلايات المعسكرة فيها . . . .

ثورة الدروز فى حوران (١٨٣٦ – ١٨٣٨)

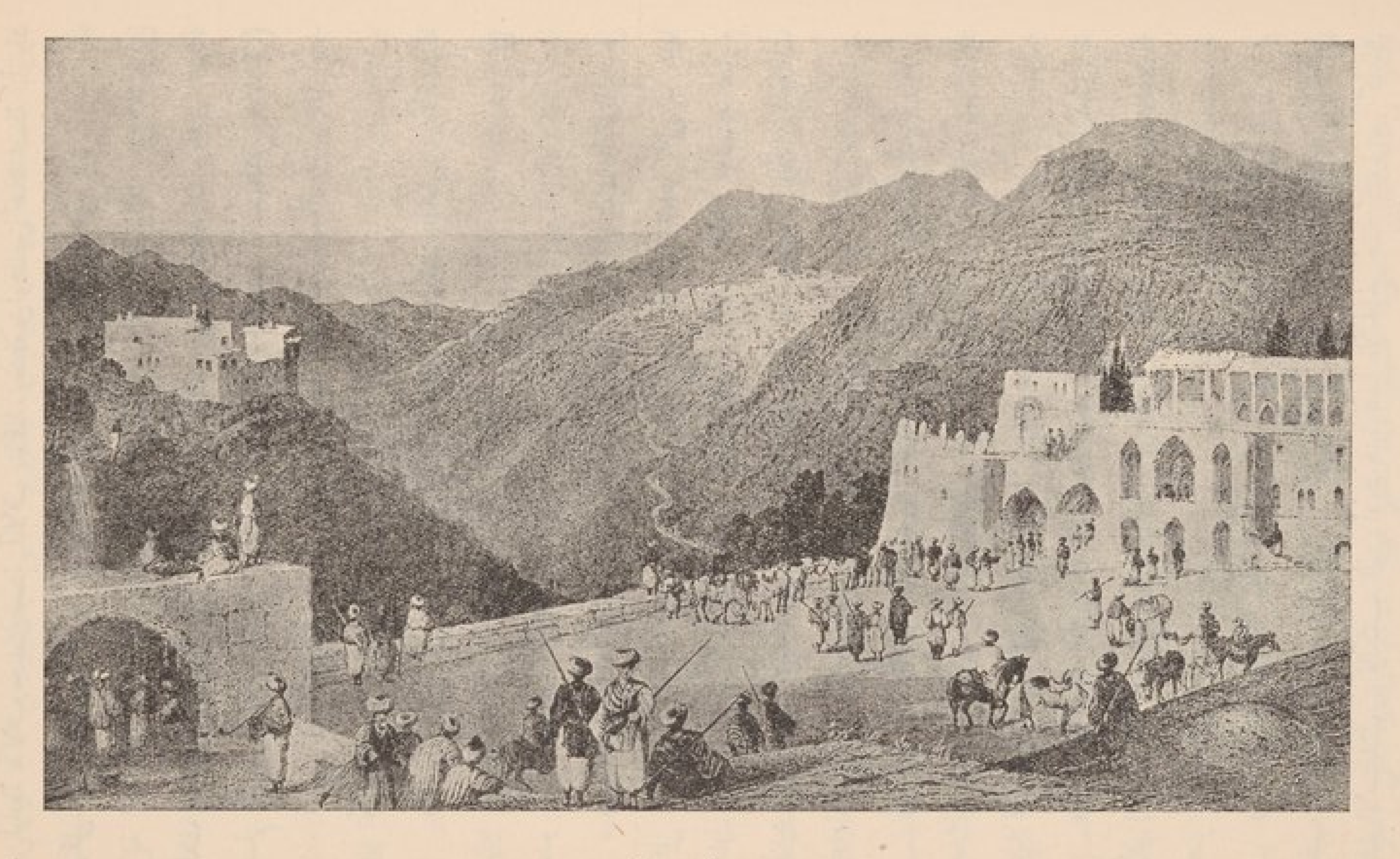
ولم يستتب الأمر بعد هدوء الأحوال فى الشام ، حتى شبت ثورة الدروز فى حوران ، وكان إبراهيم باشا أعفاهم من التجنيد ، ثم ارتأى تطبيق قانونه عليهم لحاجة إلى زيادة جيشه ، استعدادا لملاقاة العثمانيين . فشبت ثورتهم فى حوران (نوفمبر ١٨٣٧) ولقد شُرحت معارك هذه الثورة بحملاتها الثلاث التى قاد واحدة منها إبراهيم بنفسه فى مقال طيب نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى مجلة الجيش[١] ولو جزأنا حملات هذه الثورة الثلاثة[٢] فيما يلى :

١ – حملة على أغا البصيلى ، رئيس الهوارة ، مؤلفة من ٤٥٠ من فرسانه. وقد فاز فى مستهل الأمر ضد الثوار فى بصرى ، ثم استدرجوه إلى الجبال ، وانقضوا على رجاله وأبادوهم جميعاً .

٢ – حملة الفريق أحمد باشا المنكلى ، ناظر الحربية ، وكانت مؤلفة من ١٤٠٥٠ مقاتل من المشاة والفرسان والمدفعية – قام على رأسهم فى ١٢ فبراير ١٨٣٨ وقد ناضلوا فى عدة معارك ، خرجوا من بعضها فائزين ، ولكن كانت نتيجتها مشئومة ، فقد هزمت قبالة الثوار ، وفقد المصريون أكثر

(١) مجلة الجيش – المجلد الخامس – العدد ٤ – ص ١ – ١٧

(٢) توجد معارك أخرى صغيرة لا نعدها بين الحملات الثلاث الكبرى



بيت الدين بلبنان

من أربعة آلاف جندى وستة آلاف بندقية ومدفعين وخمسين حملا محملة بأزواد وكل متاع الضباط ، واستشهد قائد اللوائين والى بك وراجى بك .

٣ – قبالة انتصارات الثوار ، نظم إبراهيم باشا حملة ثالثة من عشرين ألف مقاتل وتولى قيادتها . وتسنى له الإطباق على ثوار حوران ووادى التيم . فسلم التيميون ومن بعدهم بقية الثوار فى منطقة اللجاه (اغسطس ١٨٣٨)

قضى إبراهيم على ثورة حوران عقب امتدادها تسعة أشهر ، بعد أن تكبد خسائر باهظة .

وقد خرج الجيش المصرى من فوزه الختامى ، فى تلك المعارك ، باكتسابه مزايا لا حصر لها ، فى التدريب والقيادة . فقد كانت هذه حروباً مع عدو عنيد مسلح . يكافح لطرد المصريين من بلاده .

وإبان انشغال المصريين فى هذه الحروب ، كان الباب العالى يعمل كل ما فى وسعه لتخليص سورية وإقليم أدنة من محمد على ، بينما حاول هذا اكتساب ود السلطان . وفعلا أوفد فى عام ١٨٣٧ مندوبه صارم أفندى ليفاوض محمد على لتسوية الخلاف بطريقة ودية ، ولكن أخفقت المحادثات ولم يتفق الطرفان على شروط ما . . .

وحيال عناد الحكومة العثمانية ، اعتزم محمد على – كما سبق أن أورينا – إعلان استقلال مصر ، واستدعى وكلاء الدول فى مصر وحدثهم بعزمه هذا فى مايوا عام ١٨٣٨ معتمدا على حق مصر[١].

وتدخلت الدول لحل الخلاف بين البلدين ، فباءت مساعيها بالفشل ، لأن إنجلترة كانت من وراء تركيا تحرضها على قتال محمد على ، واسترداد مصر أيضاً من حوزته .

ومن المؤكد أن إعلان استقلال مصر تأتى متأخراً ، بالرغم عن أن إبراهيم عقب انتصاره فى معركة قونية كثيراً ما ألح على أبيه فى كتاباته أن يعلن هذا الاستقلال . والكتب التى أورد فيها هذا الألحاح جد كثيرة – كذلك

(١) كادلفين وبارو — سنتان من تاريخ الشرق — ج ١ ص ٢٢ و ٤٦ .

تناولت تصريحاته لرجال الحكومات الأوربية الشيء الكثير من هذه الرغبة . وفى السابع من المحرم عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥) ، أى بعد أربع سنوات تصرمت على اتفاقية كوتاهية ، كتب إبراهيم إلى أبيه رسالة كانت على قصرها تنم عن الحسرة والألم ، لأن أباه لم يأخذ برأيه لما طلب إليه إعلان الاستقلال قال :

« لا بد أنك تذكر حين وقفت بجنودى فى قونية وكتبت أطلب إليك بإلحاح وفى خضوع وتواضع أن ننتهز الفرصة ونعلن استقلالنا فكتبت إلى تقول إنك قانع أن تكون « محمد على » وكفى . مع أننا كنا منتصرين . وكانت الفرصة سانحة ولكنك لم تشأ . والآن وقد مضى وقت طويل على تسوية النزاع وتعيين الحدود تطلب الاستقلال » .

وقد كان إبراهيم على حق . . . لأن الاستقلال يؤخذ ولا يطلب .

الدولة العثمانية فى ١٨٣٩

شاهد القرن التاسع عشر انحلال الدولة العثمانية ، بعد ما قطعت شوطاً من المجد الفسيح ، فى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد جاهد بعض سلاطينها كيما ينشلوها من تفادى هذه الخاتمة ولكن ذهبت محاولتهم سدى بعد ما دب الفساد فى جسمها . فالشعب كره الإصلاح ، لأنه لم يفهمه على وجهه . وغمره جهل الغرور وأحلام السيادة ، ووجد فى قبول الإصلاح مسبة وعارا ، فأصر على العناد . وكانت الدول الأوربية تعمل مخلصة على مساعدة الشعوب المسيحية الخاضعة للعثمانيين ، للتملص نهائياً من سيادة الأمبراطورية الهرمة

حاول السلطان سليم الثالث (١٧٨٨ — ١٨٠٨) تنظيم جيوشه ، بيد أنه شغل بمحاربة روسيا . ثم خسر الحرب ، ونهض فى وجهه أنصار الرجعية ، وقتلوا رجاله الذين اعتمد عليهم فى تنظيم قواته ، ثم أرغموه على اعتزال عرشه وتخلصوا منه . وقد حاول خلفه السلطان مصطفى الرابع أن ينهض

بالجيش . فكان نصيبه الاغتيال . ولم ييأس السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ١٨٣٩) . فقد استطاع بمعاونة بعض وزرائه تنظيم الجيش . وبدأ بإدخال التدريب الحديث إلى صفوف لانكشارية بعد ما فهم زعماءهم ما جرته تقاليدهم البالية على البلاد من الفساد والفوضى . وبالرغم من أخذهم باللين لم يستطع التخلص منهم إلا باغتيالهم فى مذبحة كبرى . فارتاحت الدولة من شرورهم ومن ثم بدأ السلطان يكثر من الجنود النظاميين ، ويعدل القوانين ، التى لم تعد صالحة للعصر ، كما طفق يجدد فى أنظمة الحكومة .

ولكنه شغل بالفتن والحروب الكثيرة التى لم تكد تنتهى واحدة فيها حتى تبدأ أخرى بتشجيع دول أوربا التى هدفت إلى القضاء على آل عثمان أو على الأقل إلى بقائها دولة هزيلة لا حول لها والقوة .

كانت الحروب المتتالية التى شنتها روسيا ، أو الدويلات الخاضعة للعثمانيين ، أظهر عوامل القضاء على مكانة تركيا كدولة عظمى ذات بأس وسطوة ، التى كانت تقترب يوما بعد يوم من مقبرتها . ومع هذا الانحلال التدريجى لم يعرف رجال تركيا الانتفاع من كفاءة بعض حكامها ورجالها فى الولايات العثمانية وفى طليعتهم محمد على باشا فى مصر وعلى باشا والى يانيا

كانت هذه حال تركيا ، حينما بدأ سوء التفاهم بينها وبين محمد على . بلاد أنهكتها الحروب المتتالية ، وأضعفتها ملازمة شعبها إلى الجمود وعدم التحول عن القديم البالى ، وغباء رجالها ، الذين انقادوا فى سياستهم العمياء لنصائح بعض سياسى الدول الأجنبية . فعجلوا بدمارها — وجيش جديد بدئ أخيراً فى إعادة تدريبه وتسليحه بعد انقضاء فترة قصيرة على التخلص من وحدات الانكشارية الباسلة .

معركة نزيب

الجيش العثمانى فى عام (١٨٣٩) :

تألف الجيش العثمانى من حوالى ٨٠ الف مقاتل و ٣٠٠ مدفع حشد

معظمها فى منطقة ملطية بشرق الأناضول . وكان هذا الجيش أنظم وأقوى الجيوش العثمانية منذ أن تخلصت تركيا من الجيوش النظامية ،وتوفر عتاده الحربى وأعد منه الشىء الكثير فى ملطية ودياربكر . ووضع تحت قيادة حافظ باشا سر عسكر باشا الجيش فى آسيا ، بعد وفاة رشيد باشا فى عام ١٨٣٦ ، يعاونه هيئة من ضباط أركان الحرب الألمان برياسة فون مولتكه الذى حظى بالشهرة فيما بعد .

وكان قائد الجيش ، الذى وضعت فيه الدولة ثقتها للقضاء المبرم على الجيش المصرى ، قد منح رتبة السر عسكر السامية عقب انتصاره على ثورة الأكراد . ولد فى عام ١٧٩٦ من أسرة قوقازية عريقة ، وعنى بتربيته وتعليمه منذ الصغر ، فتلقى اللغات التركية والعربية والفارسية ، وحفظ القرآن وهو فى السابعة عشر من عمره . ثم التحق بخدمة السلطان فى فرقة ال Hahigi حيث ارتقى سريعاً . وما أن شكل الجيش النظامى حتى تقدم للخدمة فيه كجندى بسيط فى الخيالة ، ولحده حالفه التوفيق فوصل إلى رتبة بمباشى فى خلال الحرب الروسية التركية . إلا أنه أصيب فيها بجرح شفى منه . وحدث أن أنعم عليه برتبة قائد اللواء والفرقة عقب أعوام قلائل . وقاد الحملة العسكرية التى وجهتها تركيا لإخماد الثورة فى البانيا . وعلى أثر إتمام مهمته . عينه السلطان حاكماً على إقليم سيواس بالأناضول . وفى غضون اضطلاعه بمنصبه أمره الباب العالى باخماد ثورة كردستان ، فأورى فى جل معاركها نبوغاً ونظاماً وشجاعة ودراية تامة بإدارة الحرب ، وتم له اخضاع الكرد . وكان من جراء نصره الكبير أن أنعم عليه السلطان بنيشان الافتخار وترقيته إلى رتبة سير عسكر الجيش فى آسيا .

وإلى جانب مزايا هذا القائد العسكرية ، كان واسع الأفق فى تفكيره ، بعيد النظر فى تدبيره . لم يك جامداً شأن الكثيرين من قادة العثمانيين فى القرن الثامن عشر . وأكثر من ذلك كبير القلب . نبيل الشعور ، يمقت إراقة الدماء بدون داع . أضف إلى ذلك كله أنه كان محبوباً عند الأهالى

والجند ، عزوف عن الدنيسة ، مهيب الطلعة ، كريم الخلق والطباع ، محترماً للغاية . أما بيته فقد كان مفتوحاً على مصراعيه يتناول الطعام على موائده ثمانمائة شخص . ديناً لدرجة يقال أنه طلب إلى جنوده الصلاة قبيل الأنخراط فى القتال .

وكان كثيرون من ضباط أركان حرب الباشا ممن تلقوا علومهم فى المدارس الحربية فى أوربا . وفى طليعتهم محمد رشيد بك الذى صار فيما بعد قائداً ومديراً عاماً للمدفعية التركية وكان من المقربين إلى خسرو باشا ناظر النظار — وقد عين رئيساً لهيئة أركان حرب حافظ باشا فحسده الكثيرون من ضباط الجيش العظام ، الذين أفلحوا فى الكيد له عند السر عسكر — لذلك لم ينتفع بمواهبه ظناً منه أنه عين عليه لينقل أخبار الجيش إلى رئيسه .

فلما زايل الجيش التركى قاعدته فى ملطية ، أمره القائد بأن يشرف على أعمال الأسعاف الطبى ، والمستشفيات العسكرية ؛

ويظهر أن التجارب والمحن التى مرت بأحوال الجيش العثمانى ، وهزائمه المتتالية ، فى معارك ١٨٣٢ ، لم يفد الباب العالى منها شيئاً كثيراً .

وإلى جانب الجيش العثمانى النظامى ، كانت هناك وحدات من الاحتياطى غير المدربة تدريباً كاملا فضلا عن أن معنوياتها لم تك فى مستوى معنويات الواحدات المنظمة .

وفيما يلى توزيع وحدات الجيش العثمانى[1]

قيادة عزت محمد باشا	أنقرة	١٢,٠٠٠	٤	بطاريات مدفعية
« على باشا	قونية	٢٠,٠٠٠	١٠	» »
« حافظ باشا	ملطية	٤٢,٠٠٠	٢٤	» »
« عثمان باشا	قيصرية	٥,٦٠٠	٢	» »

(١) ذكرت «الجورنال دى ديبا» بتاريخ الاثنين ٣ يونيو ١٨٣٩ نقلا عن «جازيت دو جسبورج» إن قوات الجيش التركى ٦٥ ألف مقاتل ومعهم مائة مدفع ميدان .

قيادة على بك　موزعة فى مناطق شتى　٧,٥٠٠　١٢ بطارية مدفعية
٨٧,٠٠٠ جندى ٥٢ بطارية

الجيش المصرى بعد صلح كوتاهية :

وعلى نقيض حال الدولة التركية ، استمرت مصر ، بزعامة مصلحها الكبير فى نشاطها الصناعى والعلمى والعسكرى ، بالرغم من الثورات والفتن ، التى شبت فى مناحى الشام وفلسطين وبلاد العرب ، التى أنهكت الجيش خمسة أعوام طوال . وطموح الباشا ، ورغبته فى المحافظة على مركز دولته (ولايته) موطدا ومدعم الأركان وطبيعة ممتلكاته ، جعلت محتما عليه أن يحافظ على قوة كبيرة ، استطاع بفضلها المحافظة عليها . والسير بسفينته وسط عواصف دعاية الحكومة التركية والبر يطانية فى كل مكان تدين بالولاء للباشا . وفضلا عن ذلك كان يرى محمد على استعداد الباب العالى للقتال ، والعمل على زيادة قواته الدفاعية ، ولم يجف المداد الذى كتبت به اتفاقية كوتاهية ، فوضع نصب عينيه عقيدة « إذا أردت السلم فاستعد للحرب . Si Vis Pacem par Bellum

فليس هناك ما يخلق الحرب أكثر من وجود ضعيف وقوى ، وليس هناك أيضاً ما يخفف من ويلات الحرب ويطيل أمد السلم أكثر من تكافؤ القوى . فالسلم لا يمكن أن يوجد إلا إذا كان مسلحاً ، تحميه الأسلحة وقلوب المحاربين المتأهبين للذود عنه .

ونظراً لكثرة الفتن والثورات التى عمّت فى داخلية الشام وفلسطين ، اضطر إبراهيم إلى توزيع قواته من البحر الميت إلى طوروس ، ومن الساحل إلى الفرات . ثم التمس من أبيه أن ينجده بإمداد قوى . فأرسل إليه ناظر حربيته على رأس جيش مؤلف من ستين ألفا نظامياً وثمانية آلاف غير نظامى معظمهم من الفرسان و ٢٥٠٠٠ من البدو وقد الحق بهم ١٦٠٠٠ مارونى .

وعلى العموم ، كان الجيش المصرى مركباً من وحدات مارست الحروب

والمناورات ، منذ عشرين عاماً ، فى نظام وتدريب كاملين .

وكانت معنويات المصريين عالية للغاية ، ولا دهشة فى ذلك ، فقد حاربوا وخرجوا ظافرين من جميع المعارك الكبرى التى قاتلوا فيها — وكان عتادهم وذخيرتهم وأسلحتهم وفيرة فى أيديهم . أو خلفهم فى مستودعات ونزلات ، إلى جانب مخازن الجيش فى اسكندرونة ويافا — وكان ينقل أكوام التعيين والمهمات ١٥٠٠٠ جمل بين الدلتا والعريش ثم ينقلها عرب عنازة إلى المعسكرات .

الجيش المصرى فى معركة نزيب

١ — المشاة :

فرقة الحرس — ٣ آلايات — ١و ٢ و ٣ (بقيادة الفريق عثمان باشا)	٨٦١٧
اللواء الأول — آلايان ٦ و٢٢ (بقيادة أمير اللواء سليم بك)	٤٧٣١
اللواء الثانى — آلايان ٤ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء إبراهيم بك)	٥٢١٦
اللواء الثالث — آلايان ٦ و ١٢ (بقيادة أمير اللواء حمزة بك)	٧٣٩٣
اللواء الرابع — آلايان ٩ و ١٤ (بقيادة أمير اللواء عمر بك)	٤٥٥١
اللواء الخامس — ٣ آلايات ١٠ و١١ ١٧ (بقيادة أمير اللواء فرحات بك)	٧١٦٥
مجموع المشاة	٣٧٦٧٣

(ب) الخيالة :

لواء الحرس — آلايان (بقيادة الفريق أحمد المنكلى باشا)	١٧٣٨
اللواء الأول الخيالة — آلايان ١١ و ٢ (بقيادة أمير اللواء رستم)	١٦٧٩
اللواء الثانى الخيالة — آلايان ١ و ١٣ (بقيادة الجوخدار)	١٧٢٨
اللواء الثالث الخيالة — آلايان ٦ و ١٠ (بقيادة إبراهيم بك)	١٦٣٠
مجموع الخيالة	٦٧٧٥

الجيش التركى
الجيش المصرى
كيلو ٢ ١ صفر
موقعة نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
نزيب
٢٤ يونيو ١٨٣٩
الجيش التركى بقيادة حافظ باشا
٣٧ آلاى مشاه
٩ آلاى خياله
١٤٠ مدفع
٣٨,٠٠٠ جندى
ابراهيم باشا
سليمان باشا
نزيب
طريق عينتاب الى بوجك
خانى كارزين
نهر كارزين
مجرى مزار
آلاى مشاه
آلاى خياله
٢ بطاريتين
٢ آلاى مشاه
٢ بطاريتين
نهر كارزين
قنطرة هرجون
طريق حلب
حزار
الطريق الى
بيرة جك من حلب
الجيش المصرى بقيادة ابراهيم باشا
١٤ آلاى مشاه
٨ آلاى خياله
١٢٠ مدفع
٤٠,٠٠٠ جندى

موقعة نزيب (٢٤ يونيو ١٨٣٩)

(ج) المدفعية : بقيادة أمير اللواء جعفر صادق بك :

مدفعية الحرس . (بقيادة أمير الآلاى خالد بك)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الثانى المشاة (بقيادة أميرالآلاى محمد العنتبلى)	٢٠٦٦
آلاى المدفعية الأول الخيالة (بقيادة أميرالآلاى حاذق بك)	١٠٤٠
آلاى المدفعية الثانى الخيالة (بقيادة أميرالآلاى زكى بك)	١٠٦٧
مجموع المدفعية	٦٢٣٩

المجموع الكلى للجيش ٥٠٠٧٣ ضابطاً وجنديا بصحبتهم ١٦٢ مدفعاً .

الحوادث الممهدة لمعركة نزيب (١٨٣٩)

لكى نقدم صورة واضحة للمعركة ، مستكملة المعالم ، يتعين أن نقفو أثر الأحداث التى أفضت إلى القتال الحاسم . . . .

١ ــ حصنت القيادة المصرية مضيق كولك ، أحد مضايق طوروس ، وهو منفذ الزحف من الأناضول إلى سورية ، وزادت تعداد الحاميات فى ولاية أدنة .

٢ ــ لما علم القائد حافظ باشا بأعمال المصريين ، رام تلافى الزحف من هذا المضيق ، والقيام به من منطقة أورفا ودياربكر ، حيث لا تواجهه مضايق أو مسالك وعرة أو جبال .

٣ ــ اتصل ذلك بالقيادة المصرية ، فحول إبراهيم باشا وحدات كثيرة من جيوشه إلى حلب ، لمراقبة طلائع الجيش التركى فى عينتاب وكليس القريبة من الحدود التركية[1] .

---

(١) ليس المقصود بكلمة كلز المدينة ذاتها وإنما المنطقة الخارجية المحصورة بين أقصى الانحناء الشرق المائل فى نهر الفرات وخليج اسكندرونة ، وهى تعرف بنواحى بيره جك . ويتسنى الوصول من هذا الموضع إلى خمسة مواضع مهمة تقع فى البلاد التركية .

١ ـــ يتسنى الوصول منه بالطريق المار من عينتاب ومرعش والمنتهى إلى الشمال حتى سهل الأناضول (الطريق الملكى قديما) .

ب ـــ وبطريق آخر يتجه صوب الغرب ، مارايكليكيا ومواشيها ، حتى غرب الأناضول . =



القائد إبراهيم باشا وضباط هيئة أركان حربه في ميدان موقعة نزيب

٤ ــ عهد القائد حافظ باشا إلى أحد قائديه عبور نهر الفرات ، فانتقل هذا إلى الشاطىء الأيمن يوم ٢١ أبريل سنة ١٨٣٩ . وفى الحال نهض إبراهيم باشا ببعض التحركات الهامة ، لتحاشى الخطر ،وارتجى من أبيه إرسال الإمدادات ، وسأله رأيه فى الأمور الهامة

٥ ــ فى منتصف ابريل ، بدلت وحدات الجيش التركى مراكزها ، واتجهت صوب ساموساته ، وتجمع لواء إسماعيل باشا فى بيره جك فى أبريل . وبعد أيام وصل هذه المدينة حافظ باشا ، وفيها تسلم كتابا من السلطان يأمره فيه بالتقدم ، فاستولى على ساموساته ، ثم قصد إلى بيره جك (على الشاطىء الأيسر للفرات) .

وفى ذاك الوقت ، اعتدت قوة كردية على حيوانات كانت ترعى للمصريين ، ولكى يجتنب إبراهيم الصدام تقهقر إلى حماة ، وأرسل إلى والده يسأله ماذا يكون موقفه إذا هاجمه الأتراك ؛ وبالرغم من الضغط السياسى على الباشا ، أرتأى أن يستعد ، وسارع فى ارسال الإمدادات بقيادة ناظر الحربية ، فوصل هذا إلى حلب والحرب وشيكة الوقوع .

٦ ــ فى الثانى والعشرين من شهر مايو ، عبرت طلائع الجيش التركى الفرات ووصلت إلى نزيب[١] داخل الحدود السورية . واحتلت المنطقة التى بين نهر الفرات وأحد أفرعة الصغرى المسمى ساجور[٢] وتقدمت القوات التركية فاحتلت قرية تل باش ، واقترفت فيها الفظائع .

= ج — يتيسر الوصول من طريق حلب ــ الأردن ــ فلسطين إلى مصر ، ويعرف هذا الطريق باسم طريق الهند التجارى أو طريق الحرير .

د — ويصل الطريق الذى يمر باستسامة نهرى دجله وفرات والمتجهة نحو الجنوب الشرق إلى العراق فإيران والصين وما إليها..

هـ — وبوساطة دياربكر يتهيأ الوصول إلى القوقاز وأذربيجان .

من هنا يتجلى أهمية منطقة بيره جك العسكرية ومضيق كلز ، الذى تخيره حافظ باشا ، ليضرب ضربته ضد إبراهيم .

(١) تقع نزيب على الطريق الواصل بين بيره جك واسكندرونة وموقعها غربى بيره جك.

(٢) ينبع نهير ساجور بالقرب من عينتاب ويمر بها ويصب فى الفرات ، وهو الحد الفاصل بين أملاك مصر ، وتركيا ، فى ذلك الحين ، والمرسوم فى اتفاقية كوتاهية .

٧ – وفى مساء اليوم التالى ، أوفد إبراهيم – بعد علمه بتقدم الترك – ١٤ رسولا إلى مختلف مراكزه يحملون نبأ الحشد العام فى حلب . وفى صباح الرابع والعشرين جمع أعيان المدينة وأنبأهم بما اقترفته قوات السلطان وطاب معونتهم . وفى اليوم التالى أرسل إلى أورول خمسمائة من عرب الهنادى بقيادة الأميرالاى معجون بك للوقوف على حركات طلائع الترك أولا بأول . وحشد إبراهيم معظم وحدات الجيش فى معسكر با أورطة ، على مبعدة ثمانية كيلومترات شمال حلب ، بقيادة مساعده الفريق سليمان باشا الفرنساوى . وكانت تحت أمرته ١٨ آلاى مشاة و ١٢٠ مدفعاً .

أما الأتراك فاستمروا فى تقدمهم نحو مزار داخل الأراضى السورية ، واضطر عرب الهنادى إلى التقهقر فى تجاه تل باش كالأوامر التى صدرت إليهم ، وغار الأتراك على ١٤ قرية تابعة لعينتاب ونهبوها .

٨ – لم يستطع إبراهيم قبالة تلك الاعتداءات أن يقف مكتوف اليدين . ففى ٢٩ (التاسع والعشرين) مايو بارح حلب على رأس سبعة آلاى خيالة و ١١ بطارية مدفعية خفيفة ، واتفق مع سليمان باشا أن يكون على أهبة التحرك على رأس المشاة . وبينما كان إبراهيم فى الطريق ، أخلى الأتراك تل باشر ، التى احتلوها منذ أيام ، ثم استحوذ الترك على عينتاب ، بعد إخلائها من القوات المصرية . ولما فاق تحرش الأتراك بالأراضى المصرية فوق ما كان مرتقبا ، أرسل إبراهيم إلى أبية يصف تطور الموقف .

٩ – بعد ٤٨ ساعة وصل إلى ثغر الإسكندرونة كابتن كاييه الذى بعثه المارشال صولت رئيس مجلس وزراء فرنسا ووزير خارجيتها برسالة إلى محمد على باشا ، يقول له فيها إنه بالرغم من الحوادث التى وقعت فإن مصالحه ستظل محترمة . وبعد أن قدم (١٤ يونيو) كاييه رسالته أسرع فى السفر (٢٠ يونيو) إلى مركز قيادة إبراهيم ، لمراقبة الحوادث ولإتمام مهمته التى تأتى لأجلها من باريز . كذلك حمل الضابط فولتر رسالة أخرى للسر عسكر حافظ باشا . وصل كاييه إلى طرابلس الشام ، وفى ٢٤ أخذ طريقه إلى

مقر إبراهيم عن سبيل أنطاكية ، فوصل عقب انتهاء المعركة الكبرى وهزيمة العثمانيين فى نزيب .

١٠ – دفع إبراهيم طلائعه الخيالة ، التى أزالت مقاومة الأتراك بسهولة ، واستخلصت طريق حلب وامتنه ، فى ٣ يونيو حتى توزيل ، وبدأ إبراهيم فى مراقبة الطريقين المؤديين إلى عينتاب ونزيب ، حيث كانت منطقة الحشد التركية .

١١ – فى الخامس من يونيو ، استدعى إبراهيم حامية عينتاب ، ولم يترك بها سوى كتيبة واحدة ، لحماية قلعتها . وبعد أيام استسلمت هذه القوة لسليمان باشا ، القائد العثمانى الثانى . وفى ٦ يونيو حدثت مصادمة بين قوات معجون بك المنادى وسليمان باشا . وكانت خسائر الفريقين متعادلة . ثم اتجه معجون بك إلى توزيل .

وفى يوم ٧ يونيو ، قام حافظ باشا ، على رأس قوة ، للاستكشاف ، مؤلفة من خمسة آلايات خيالة و ٣٠٠٠ خيالة غير نظامية ، تؤيده المدفعية . وعبر نهر ساجور الكبير ، وقابلت الخيالة المصرية وعبرت ساجور الصغير واتجهت نحو العدو فى قولين . وتبادل الطرفان النيران ، واشتبكت قواتهما غير النظامية ثم عاد حافظ باشا أدراجه ، ولم يلحق به إبراهيم عملا بتوصيات أبيه ، التى كان فى انتظارها ، بالرغم من تحكك حافظ باشا .

١٢ – وعملا بتعليمات الأب ، أرسل إبراهيم فى يوم ٨ يونيو إلى حافظ باشا كتابا جاء فيه :

إذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الأمر بإعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن . وإذا كنتم تودون القتال فهلموا إلى ميدانه بصراحة وإقدام وأملى ألا يفوتكم فى هذه الحالة أن تعرفوا أنكم تقاتلون أبطالا لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم – أما الدسائس التى تمضون فى تدبيرها فإنها ليست مما يطاق احتماله طويلا .

فرد حافظ باشا على هذا الكتاب بعبارة منمقة ، ولكنه حاذر أن يبدى رأياً صريحاً .

وفى رسالة لمحمد على (فى ٩ يونيو عام ١٨٣٩) لإبراهيم قال :

إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول . وإذا ما عثرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نوقفه لأنه يبذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال — وكلما صبرنا عليه رغبة منا فى عدم معارضة رغبات الدول الكبرى زاد عدونا توغلا فى بلادنا وزادت الأمور تحرجاً وتلك حال ترغمنا على العمل — فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدى فإن الدول لن تلقى علينا التبعة — فنصيحتى إليك أن تبادر عند وصول رسالتى إلى يديك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا أرضنا وأن لا نكتفى بإخراجهم منها — بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله — وبعون الله إذا وفقت النصر فاستمر فى تقدمك إلى مالطية وخربوط وأورفا وديار بكر .

وهذ أمر صريح للهجوم . . .

١٣ — وفى يوم ١٨ يونيو زايل الجيش ، تحت أمرة سليمان باشا ، معسكر يا أورطة ، ووصل فى اليوم التالى إلى توزل ، حيث عبرت معظم وحدات الجيش نهر ساجور الكبير . وفى يوم ٢٠ سارت إلى قرية ميزار[١] فى خمسة قولات مشاة وقولين خيالة ، فوصلتها فى الساعة العاشرة صباحاً . وألقت فيها طليعة تركية مؤلفة من : آلايين مشاة وخمسة مدافع وخمسمائة جندى غير نظامى ففوجئت وأسرع البدو المصريون ، طلائع القوة ، بالانتقال إلى المقدمة التركية غير النظامية وتبادلوا إطلاق النيران . وبعد قليل أخذت القوات النظامية فى الانسحاب إلى نزيب .

وما كاد الجيش المصرى يبرز على المرتفعات (جنوبى مزار) حتى كانت جميع طليعة الجيش التركى قد انسحبت إلى نزيب تاركة

(١) تقع مزار فى الطريق الموصل إلى قرية نزيب .

خيامها وعتادها ، فغنمتها الجنود المصرية ، ودخل إبراهيم مزار فى الساعة السادسة مساء يوم ٢٠ وقد أصبح على مسيرة ساعتين مشيا من خصومه ولا بد من استكشاف الأراضى . فلم تك هناك خارطات تفصيلية كما هو الحال فى هذه الأيام .

وحالما استقر المعسكر ، حاول سليمان باشا الفرنساوى أن يستكشف الأراضى وقوة معسكر الأتراك بيد أنه استحال عليه أن يعرف بالدقة نوع الاستحكامات وتقدير حقيقة قوة العدو .

وكان إبراهيم باشا ينتظر بفروغ الصبر عودة سليمان باشا ، إذ كان قد قرر القيام بهجوم فى الغد ، وكان سليمان لا يوافقه . وعلى ذلك ، فعند عودته ، اتفق كلاهما على القيام فى الصباح المبكر بالاستكشاف بينما يرسل سليمان باشا فى الوقت ذاته اثنين من ياورانه وهما F. Perrier وأراجو ليرتادا الأراضى على ضفة نهر مزار اليمنى ، لكشف طريق يسمح بعمل حركة التفاف حول الجناح الأيسر للجيش التركى ، وتحويل مواجهته إلى الخلف إذا لم يتسن مهاجمته من الأمام .

١٤ — وفى بحر يوم ٢١ يونيو ، عبر الياوران [١] كبرى مزار ، وتتبعا مجرى النهر فى اتجاه كوبرى كرسين — فلاحظا أن فى الطريق كثيرا من العقبات يتهيأ تذليلها بسير المدفعية . وبعد انقضاء ساعة واحدة من قيام الياورين امتطى إبراهيم باشا جواده وسار ١٥٠٠ بدوى إلى المعسكر التركى لاستكشافه وما لبث أن لحقه سليمان باشا وفى قيادته ٤ آلايات خيالة وبطاريتين من المدفعية الراكبة . وتصدت لهم قوة تركية ، وتبادلوا النيران فترة ولم يفز إبراهيم بطائل ، فعادوا إلى مزار . وفيها عرض سليمان باشا على إبراهيم أن يدير الجناح الأيسر للجيش التركى بوساطة السير جنباً ، والتقدم إلى خلف الصفوف التركية ، وبذلك يكرهونها على الدوران ، وترك الموقع المحصن ، والقتال فى الأرض المكشوفة .

---

(١) كان معهما آلاى خيالة .

١٥ – وفى الصباح المبكر من ٢٢ يونيو ، انتقل الجيش المصرى من معسكر مزار إلى الجنوب . واجتازت فى الحال بعض وحدات من المشاة قنطرة مزار ، ورابطت فوق التلال المطلة على مزار للمراقبة . ولبثت الخيالة فى مكانها مكونة ستارا لتخفى – على قدر الإمكان – عن العدو منظر الحركة . وشرعت المدفعية فى عبور قنطرة مزار ، واستغرق هذا الانسحاب ساعات كاملات . وبعد اجتياز المضيق انتظمت القوة بلا توان ، استعدادا للسير فى ترتيب القتال . ومن ثم أخذ ٢٠٠٠ بدوى مكانهم فى الجيش وابتدأ الزحف .

ولم يتخذ الجيش فى بداءة الأمر خط سيره الحقيقى . بل انحرف كأنه يبتغى حلب ، وكان سليمان باشا يشير على سير القولات حتى لا تحدث ثغرات طويلة بين بعضها البعض ، يستطيع العدو أن يستفيد منها بتوجيه قوات كثيفة تربك هذة الحركة . ولذلك استنفد هذا السير مدة عشر ساعات لقطع المسافة بين مزار وكرسين .

بعد وقفة للاستراحة فى قرية كورد يكالا ، عاود الجيش السير ، فظهرت وحدات تركية على اليسار ، على مدى ٣٠٠ متر من جانبه الأيسر . وفى الحال أخذ سليمان باشا ثلاث كتائب مشاة وست من الخيالة وتوجه أمام هذه الوحدات ليهدد سيرها . وفى الوقت ذاته أمر باحتلال بعض التلال الصغيرة واكمة تقوم على يمين القولات . فأسرعت بطاريتان فى احتلال الأكمة وأخذت ثمانى كتائب موقفها تنتظر أية حركة يضطلع بها الترك . علاوة على حماية مسير الجماعات الأخرى ، التى كانت تفد تباعاً . . .

ولاح أن غرض الوحدات التركية لم يك سوى الاستكشاف والوقوف على قوة الجيش واتجاه مسيره ، وفى هذه اللحظة كانت المسافة بين كوبرى كرسين والجيش المصرى فرسخين تقريباً ، وكانت خطة القيادة المصرية قد ابتدأت تظهر لعين كل جندى : وهى إدارة مواجهة الجيش التركى وإكراهه على تغييرها بترك مواقعه المنيعة التى أعدها . ولاندرى لماذا أغفل القائد العام العثمانى مهاجمة الجيش المصرى من جنبه أثناء حركة التفافه أو على

الأقل حراسة كوبرى (هرجون) كرسين والدفاع عنه ولمنع الجيش المصرى من عبوره بأى ثمن لأنه مفتاح موقعهم — وقد ألح الضابطان البروسيان مولباخ وفون مولتكه على القائد أن يهاجم المصريين فلم يعبأ بنصيحتهما — فعرضا عليه أن يتراجع الجيش التركى إلى معسكره الأصلى فى بيره جك فلم يعمل برأيهما : وكانت الوحدات التركية التى هددت أجناب الجيش المصرى تراجعت بسبب انتهاء واجبها .

١٦ — وكان الليل قد أقبل حينما بلغت القولات المصرية المتقدمة كوبرى كرسين (هرجون) واستعدت لاجتيازه . وعادت قوات البدو وأخبروا القيادة بأنه ليس للعدو أثر فى هذه الجهة — كما أفادوا بخلو الكوبرى من قوات للدفاع عنه . فابتهج إبراهيم لدى سماعه هذه الأنباء السارة ، وفى الحال أسرع على رأس خيالته ووصل إلى الكوبرى وجلس على حجر ، وأمر بإحضار شبقه وأخذ يشجع الضباط والجنود كلما مرت أمامه وحدة من الجند .

أما سليمان باشا فقد كان يراقب حركة مرور الوحدات عند مدخل المضيق الذى يفضى إلى الكوبرى خوفاً من الضغط والازدحام — وكان الطريق الذى يسبق الكوبرى بمسافة حوالى ٩٠٠ متر يبدأ فى الانحدار بشدة ويأخذ فى الضيق باستمرار إلى أن يصل إلى الكوبرى — وعرضه يسع فى أضيق نقطة مرور ثمانية جنود — وكانت مياه نهر كرسين فى هذا الشهر (يونيو) شحيحة مما سمح لجند السوارى بعبوره بسهولة وكانت ضفتاه غير مرتفعتين .

وبالرغم من الاحتياطات ، حدث ضغط شديد بين الواحدات ، واختل النظام ، وكان فى استطاعة الأتراك أن يمطروا نيرانهم على الكوبرى والمضيق ويقلبوا خطة إبراهيم الجريئة رأساً على عقب — بيد أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم بدءوا فى تحويل مواقع جنودهم .

واستمر توالى مرور الجند على الكوبرى ساعات طويلة . اجتازته الخيالة والمشاة فالمدفعية إلى الساعة الثانية صباحاً . وقد أفادت القيادة

من التحركات الليلية التى لم يكشف حقيقتها العدو . وبمجرد انهاء وصول الوحدات ، على الضفة الأمامية ، أخذ سليمان باشا يرتب نظامها على شكل مروحة بمينها ويسارها يرتكزان على النهر ، ووضع جزءا من المدفعية على منحدر المرتفعات الأمامية فى تشكيل بطاريات فى كافة الاتجاهات وخلفها ثلاثة صفوف مشاه ثم الخيالة والعتاد ، ثم ماتبقى من المدفعية خلف الصف الثالث .

١٧ – وفى ٢٣ نشط الجيش المصرى فى الاستعداد للمعركة ، واجتمع الضباط بالقائد إبراهيم فى خيمته ، حيث أثنى على ما أبدوه خلال اليومين السابقين ، وطلب إليهم أن يحققوا النصر ، ويرفعوا اسم مصر ، مثلما رفعوه من قبل . ثم اتجهوا إلى خيمة رئيس أركان الحرب ، سليمان باشا ، الذى ألقى عليهم أوامره وختمها بالعبارة :

« غداً نلتقى الظهر فى خيمة حافظ باشا ، حيث نحتسى القهوة . . »

وانتهى الهزيع الأول من الليل بدون أية حركة فى المعسكريين ، سوى أنه لوحظ أن الأتراك يعملون بجد ونشاط فى إقامة استحكامات سريعة وقتية ، لستر مواجهتهم الجديدة ، على قدر المستطاع .

وحوالى منتصف الليل ، انقطع بقية السكون الذى ساد المعسكر بطلقات المدفعية ، وطير العدو خيمتى إبراهيم وسليمان .

واستهل التراشق بالمدافع ، وسط الخيول والجنود ، واختل النظام فى المعسكر ، ولاذت الخيول بالفرار – وكان إبراهيم باشا يجول فى مناحى المعسكر ، حاثا الجنود على الصمت ورباطة الجاش ، وملازمة النظام .

أما سليمان باشا فقد اتجه إلى مدافع الصفوف الأمامية وأمر بتوجيه نيرانها صوب مدفعية الترك ونشر نيران مدفعيته فى كافة الصفوف ، وبعد قليل خمدت مدفعية العدو .

وكانت خسائر هذه الإغارة الليلية طفيفة . ولما هدأت الحال أمر القائد العام بالتفتيش ، فظهر أن ما يقرب من مائة جندى وأورطتين من

الآلاى الثالث الحرس المشاة وجميعهم من السوريين المجندين غير موجودين ، فأمر إبراهيم ضباطه بتعقبهم والبحث عنهم ، فوجدوهم متجهين صوب معسكر العدو ، فأرجعوهم وأدعوا أنهم ضلوا الطريق ، فجلدوا وغيروا ضباطهم .

١٨ – فى ٢٤ يونيو لما طفق نور الفجر يلوح فى السماء ، كان قد تم تشكيل الجيش المصرى فى ترتيب السير الآتى مستهلا من كوبرى كرسين!

أولا – ٣ خطوط من المشاة موازية لبعضها ، الخط الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة والخط الثانى على يمين الأول مؤلف من ٢٠ كتيبة مثلها ، والثالث على يمين الثانى مكونا من ثمانية كتائب ، وجميع كتائب الثلاثة الخطوط بعضها خلف بعض .

ثانياً – على يسار خط المشاة الأول وعلى بعد ١٥٠ مترا منه تسع بطاريات (٥٤ مدفعاً) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

ثالثاً – على يمين خط المشاة الثالث وعلى مبعدة ١٠٠ متر منه ١٠ بطاريات (٦٠ مدفعا) على خط واحد فى موازاة خط المشاة المذكور .

رابعاً – أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) خلف خطوط المشاة الثلاثة .

خامساً – أربع بطاريات (٢٤ مدفعا) أمام الثلاثة الخطوط المشاة لسند الستة آلايات الخيالة التى أمامهم عند اللزوم .

سادساً – الستة آلايات الخيالة أمام الأربع بطاريات الأخيرة فى موازاة خط المشاة الثالث .

سابعاً – فرقة الحرس المؤلفة من ١٢ كتيبة خلف الأربع بطاريات التى وراء خطوط المشاة الثلاثة بصفة احتياطية .

ثامناً – لواء خيالة الحرس مؤلف من آلايين أحدهما من لابسى الدروع والآخر من حاملى الرماح خلف الجميع كحرس مؤخرة .

وفى أثناء السير ارتد آلايان من الخيالة إلى الخلف من الجهة اليسرى لحراسة مؤخرة الجيش وفى بداءة المسير للقيام بحركة الالتفاف ، انحرفت القوات قليلا نحو الشمال الشرقى ، فى اتجاه بيره جك وبعد أن تقدمت

القوة حوالى كيلومتر ، فى ذات الاتجاه ، ولاحظت القيادة أن الجيش التركى لم يتحرك من مواقعه الدفاعية ، أمرت بالالتفاف نصف لفة إلى اليسار وبذلك صارت خطوط تقدم الجيش المصرى موازية تقريباً لخطوط الجيش التركى . ثم كررت نصف لفة أخرى ، واتجه الجيش المصرى إلى ربوتين صغيرتين قبالة الجناح الأيسر التركى ولم يحتلهما . فأمر فى الحال سليمان باشا باحتلال العليا منهما (تل سليمان باشا) ووضع بطارية من عيار كبير فوقها كما أمر بوضع أربعة الآيات خيالة خلف الربوة الثانية وآلايين من المشاة لسندهم .

أوضاع الجيش التركى :

وكان الجيش التركى ، فى موقفه الدفاعى ، موزعاً على النمط التالى :

تتألف قوات الميمنة من الحرس — والقلب والميسرة من ثلاثة لواءات مشاة — وفى امتداد الميسرة القوات غير النظامية . وفى الخط الأول ١٤ كتيبة و ٩٢ مدفعاً وفى الخط الثانى ١٣ كتيبة ، والاحتياطى أربعة لواءات رديف و ٩ آلايات خيالة و ١٣ مدفعاً . وكانت كتائب الخط فى تشكيل مفتوح وكتائب الاحتياطى فى تشكيل قولات .

والآن يتسنى لنا القول بأن معركة نزيب ابتدأت بالفعل وقد انتهت الممهدات . . .

معركة نزيب

بعد أن احتل الجيش المصرى الأكمتين ، فطن حافظ باشا إلى غلطته فى عدم احتلالهما من قبل ولكى يحاول إصلاح الخطأ ، بدأ بإطلاق النار على الجيش المصرى ، بينما أمر سليمان باشا بالالتفاف إلى اليسار كيما يكون جناحهم الأيمن أقرب للجيش التركى من وسطه وميسرته — وامد ميمنته بأربعة آلايات خيالة وآلاى مشاة من الحرس والآلاى ١٤ المشاة — وكانت

هذه الميمنة بقيادة سليمان باشا ، والقلب بقيادة الفريق أحمد المنكلى ، والميسرة بقيادة الفريق عثمان باشا .

فلما شهد حافظ باشا هذه الحركة ، وعلم أن ميسرته هى التى ستتحمل عبء الهجوم ، نقل إليها بعض كتائب الميمنة ، بل وقرب إلى الميمنة بعض الاحتياطى من الخيالة والمدفعية .

ومهدت المدفعية المصرية بالضرب المبرح ، فردت عليها المدفعية التركية واستمر تبادل النيران ما ينوف على ساعتين ، وكانت نيران المصريين منصبة على المدفعية التركية ، بينما مدفعية الأتراك انصبت على صفوف المشاة المصريين ، فكانت الخسائر أقل . وقد اسكتت البطارية التى وضعها سليمان باشا فوق تل سليمان عدة مدافع تركية .

ولما لاحظ سليمان باشا أن الميسرة التركية لم تتأثر ، أمر بزيادة إطلاق مدفعية الهاون وبدون انقطاع على الصفوف التركية ، وبعد قليل بدأت الميسرة التركية فى التراجع ، وفر بعض الجنود ، وقد تزعزعت معنويتهم ولاسيما بعد حدوث انفجارين فى عربات جبخانة للجيش التركى ، بتأثير نيران المدفعية المصرية . ثم تزايد الارتباك فى صفوف العدو بعد أن أطلق قائد المدفعية المصرية الأميرالاى جعفر بك صادق بعض الصواريخ على المشاة والمدفعية التركية .

أزمة دقيقة :

لما تبين سليمان حرج موقف الأتراك ، أمر قسما من الصف الأول لميمنته أن يتقدم مسنودا من قسم الصف الثانى ، وأمر أيضاً بطارية عيار كبير أن تنزل من الأكمة وتتبعهم لتسندهم . فاتجهت الجنود صوب خطوط العدو ، ولدى اقترابهم منها ، قوبلوا بنيران حامية من مدافعه ومن مدافع أخرى كانت مختفية . فتقهقروا بدون انتظام ، بل مما زاد الطين بلة أن لاذت بعض الوحدات بالفرار . ومن حسن الحظ أن قلب الجيش وميسرته لم يشعروا

بما حصل للميمنة لانخفاضات الأرض وارتفاعاتها ، التى اخفت عنهم حرج الموقف . وحدث أيضاً ، فى ذات الوقت ، أن ذخيرة المدفعية المصرية أوشكت على النفاد فاندفعت مع المشاة إلى الخلف ، فأسرع سليمان باشا لعلاج الموقف السيء ، وأمر المدفعية القريبة منه باحتلال الأكمة مرة أخرى وأن تفتح نيرانها بشدة على الأعداء وعلى المنسحبين . ومما خفف بعض الأثر وصول ستة آلايات خيالة وبطاريتين راكبة وآلاى حرس مشاة وآلاى آخر من القوات المصرية إلى شرق نزيب وكان قد صدر الأمر إليها للقيام بحركة التفاف واسعة حول الميسرة التركية لشد أزر قوات المشاة التى سبق ذكرها . وشرعت فى تطويق ميسرة العدو والهجوم عليه . وقد بدأ الهجوم اللواء الأول الخيالة (بقيادة رستم بك) فرده الأتراك وكاد ينتهى الموقف بمأساة لولا أن تداركة اللواء الثانى بقيادة الأميرالاى إبراهيم بك الجوقدار .

فى هذه الساعة الحرجة ، كاد الجيش المصرى يغلب على أمره ، لولا وصول الذخيرة إلى بطارياتها وفتح النيران الشديدة على ميسرة الترك ، التى كانت تصل لها الإمدادات بصفة مستمرة ، وكذلك القلب . وقد سبب نشاط المدفعية المصرية الكبيرة العيار رفع معنوية قوات سليمان باشا بعد أن كاد أمل النجاح يتبدد . واستأنفوا الهجوم على الأتراك ، ثم الاقتحام بالسونكى ، وفى هذه اللحظة وصل إبراهيم باشا ، على رأس آلايين من الخيالة الحرس جاءا تحت قيادة المنكلى باشا لمعاونة الميمنة المصرية ، وسار إلى خلفهما اللواء الثانى الخيالة المؤلف من الآلايين (١و ١٣) فأكملا المعمعة . وهنا بادرت خيالة العدو بالفرار ، وعجلا الآلايان فى سيرهما إلى المعسكر التركى فاستوليا على القسم الأيسر منه ، مكتسحين شراذم العدو المتفرقة فى الطريق .

وللسرعة التى وصل بها إبراهيم فضل إنقاذ الميمنة المصرية مما أصابها من التفكك ، وقد كانت على وشك الانهيار والهزيمة ، وبدأت كفة المعركة

تميل إلى المصريين ، مما جعل سليمان يستغل الموقف .

وكان القتال قد عم الجبهة بأسرها ، من الشمال إلى الجنوب ، وانتقل إلى القلب والميمنة التركية حيث قاوم الفريق خالد باشا بكل شدة ، إلى أن أصيب برصاصة قاتلة ، ومن ثم لم تحدث أية مقاومة . بل قل فر جنوده بعد إلقاء أسلحتهم . وكانت وحدات الفريق المصرى عثمان باشا تكتسح الأتراك بعدما أدوا واجبهم فى القتال . ولما لم يطق العدو تلقى هجمات المصريين المتتابعة ، انسحب بقاياه إلى معسكره القديم ، فأقتفى القائد أثرها بمدفعية الخطين الأول والثانى من المشاة ، بينما اتخذ الخط الثالث الاحتياطى للمشاة والمدفعية مراكزها على الربوات والقمم المتوجة لموقع المعسكر العثمانى .

وبالاختصار أصبحت هزيمة الترك عامة (١)

أما إبراهيم القائد الملهم فقد اتجه إلى خيمة القائد حافظ باشا فى المعسكر ليكتب رسالته إلى أبيه ، وقد جاء فيها :

« أكتب هذه الأسطر تحت خيمة حافظ باشا ، التى لم ينقل العدو شيئاً مما كانت تحتويه ، وقد استولينا على الأمتعة والمهمات والمدافع والخزانة ، واسرنا عدداً عظيما من الجنود ، وإنى أود أن أقتفى أثر الأعداء ولكنى لا أجد منهم أحدا — وكان تفرق الجيش العثمانى اشتاتا وفراره بسرعة لم نستطع معها إدراكه بعد معركة دامت ساعتين فقط . كان هجومنا عليه من جميع النقط معاً . وكان أحمد باشا المنكلى على قيادة ميمنتنا وسليمان باشا على قيادة الميسرة . أما القلب فكنت أتولى قيادته (٢) وكانت نيران مدفعيتنا حامية جداً . وقد أعاد هذا الفوز السريع إلى ماكنت عليه فى سن العشرين من النشاط والانشراح والقوة . وسنوافيكم بالتفصيل قريباً » .

لقد انتهى الأمر ، وحلت الهزيمة بجيش السلطان ، واستولى جند إبراهيم

---

(١) من تقرير سليمان باشا الفرنساوى عن المعركة .

(٢) تم هذا فى الدور الختامى من معركة نزيب .

على نحو ٢٠,٠٠٠ بندقية و ١٤٠ مدفعا بذخائرها ، كما استولى فى اليوم التالى على ٣٤ مدفعا فى حصن بيره جك . وبلغت خسائر الترك نحو ٤٥٠٠ قتيل وجريح ، وأسر منهم بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل . وترك حافظ باشا خزينته وتحتوى على الآف الجنيهات وأوراقه وخططه ووساماته . . . وذابت قوات الترك فى الحاميات العسكرية فى الأناضول .

أما خسائر المصريين فبلغت نحو ٣٠٠٠ بين قتيل وجريح . . .

وأصبح إبراهيم باشا ، بعد معركة نزيب ، سيد الأناضول على الإطلاق ، وصار الطريق قبالته مفتوحاً إلى استانبول .

النكبات تتوالى :

وقبلما يبلغ خبر هزيمة الجيش العثمانى مسامع السلطان محمود كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة ، وصعدت روحه إلى الرفيق الأعلى . . .

* * *

لم يقف إبراهيم مكتوف اليدين ، بعد ان اباد جيش حافظ باشا وبعد أن عثر على خطة العدو الحربية ، فقرأ فى فقراتها السابعة أن الاستيلاء على مصر ينبغى أن يكون الغرض الثانى من غرض الأتراك ، وتضمنت توليته واليا على مصر بدل والده . فلما أيقن أن السلطان كان ينتوى أن يجعل هذه الحرب ساحقة ، زال ما عسى أن يكون لديه من أثر التردد فى مواصلة الزحف ، وكان فى مستهل أعماله أن استرد عينتاب ، وأعد العدة لموالاة الزحف على مرعش وملطية ودياربكر .

تحليل معركة نزيب ونقدها :

إذا حكمنا بالنتائج ، ظهرت لنا معركة نزيب فى صورتها الختامية كأمجد صفحة فى تاريخ الجيوش المصرية . يضعها بعض المؤرخين فى مستوى معركة اوسترلتز التى قضى فيها نابليون على زهرة الجيوش النمسوية . غير أننا إذا تطلعنا إلى سير المعركة ، وتطور أدوارها ، لألفينا أن أخطاء فنية عديدة

قد اكتنفتها من جانبى القيادة المصرية والتركية [١].

ولعل القارئ يذكر أنه فى ٢٠ يونيو تقدم إبراهيم باشا إلى مزار ، ثم نزيب ، لملاقاة العدو ، ولم تك لديه أية معلومات دقيقة عن مواقع الجيش العثمانى أو تفاصيل عن طبيعة الأرض ، التى ستنشب عليها المعركة. وليس هناك أدنى شك فى أن القيادة ارتكبت هذا الخطأ نتيجة لعدم المبالاة والاستهتار بالعدو وكادت تقترف خطة الهجوم عليه بالمواجهة ، لولا تغييرها للخطة فى اللحظة الأخيرة أو ارتجال خطة الالتفاف والسير الطويل المرهق على مرأى من العدو . كل هذا مخالف للقوانين الأولية لفن الحرب . وصحيح أن إبراهيم ترك بعض قواته فى مزار ولكن كل الجيش بحركته التى وصفناها من غير أن يفكر فى حجز قوة كبيرة من جيشه كاحتياطى له إذا لم تنجح خطته التى اعتمد عليها فى تحطيم شوكة العدو نهائياً وكانت يقظة سليمان باشا وإشرافه الدقيق على تنظيم الوحدات ، فى خلال سيرها ، وتحمل الجنود أعباء السير المرهق ، بدون توقف ، وتحت حرارة تتفاوت بين ٣٥° و ٤٠° عملا رائعا يستحق الثناء والمديح .

وياليت هذه المحنة القاسية قد انتهت لدى هذا الحد ، فإن الجيش ما كاد يصل إلى قنطرة هرجون حتى أراد إبراهيم أن يهجم على العثمانيين وينتهى منهم ، فى ظلام الليل البهيم ، ويعبر نهر كرسين وهدفه الوصول بقواته إلى الضفة الشمالية من النهر ، وهذه جرأة تدهش أى قائد سوى إبراهيم . فقد اعتاد على أن يأتى بالمعجزات ، ضارباً صفح الحائط بقوانين الميدان ، وأحياناً بنفسية الرجال . وهو خير ما يتصف به إبراهيم ، البطل الجبار .

وخطأ آخر ارتكبه قائدنا المظفر . فإنه فى اليوم السابق للمعركة ويوم

---

(١) كان المارشال فيجان آخر المؤلفين العسكريين الذين تناولوا نقد معركة نزيب فى كتابه المعروف عن حملات الجيش فى عهد محمد على وأحفاده . وقد اقتبس المارشال معظم الآراء التى تضمنها نقده مما كتبه موريه وكادلفين وبارو وفردنان بزيه ياور سليمان باشا وهذا القائد نفسه — وقد رجعنا إليها فى نقدنا بعد اطلاعنا على تقارير ابراهيم باشا ونشرات الجيش المنشورة فى الوقائع المصرية .

المعركة لم يؤمن على قواته ، وكان يقذف بها كلها بدون حيطة أو حذر . ولولا أن السر عسكر كان أكثر جرأة ، وتناول الموقف بشئ من الصبر لدار رحى القتال دورة أخرى .

وعندما ارتجت صفوف الميمنة المصرية ، كادت تفقد العنان ، لولا تدخل المدفعية الكبيرة العيار ، التى صبت نيرانها الحامية فوق الأكمتين ، على ميسرة الترك والقلب ، وفى هذه اللحظة اثبت السر عسكر أنه أضعف من خصمه إبراهيم ولم يفعل شيئاً حيال ثبات رجال المدفعية المصرية ، وراحت من يديه فرصتان : الأولى فى بداءة نزول القوات المصرية فى مزار ، والأخرى فى أثناء تحركها الطويل إلى هرجون .

وكان حافظ يؤمن بعقيدة الدفاع كما آمنت بعده بمائة عام (١٩٣٩) رئاسة هيئة أركان حرب الجمهورية الفرنسية بخطة الدفاع الثابت فى خط ماجينو . ولو أنه قام بعمل مناورة صغيرة فيها شىء من المجازفة لارتد بجيشه إلى بيره جك وقضى على خطة إبراهيم المرتجلة – وكان جيش مصر لا يحمل معه إلا مؤونة يومين . . . ولكنها جرأة إبراهيم وبطولته أنقذتاه وقادتاه إلى الظفر الحلو . وكان فى مكنة حافظ باشا الرجوع إلى وراء الفرات والامتناع به كحاجز ومانع ضد عدوه بيد أنه لم يفعل شيئاً من هذا قبالة المفاجأة المصرية .

أليست المفاجأة من أهم مبادىء الحرب الخالدة ، التى أكسبت كثيراً من القادة شهرة ذائعة فى التاريخ ! ؟ . .

لم يحفل حافظ باشا بنصائح ضباطه البروسيين ، وفضل أيسر الخطط ، التى تدور فى رأس أى قائد – هذه الخطة هى التى رأيناها قد نفذها ، وهى إدارة صفوف الجنود من الغرب إلى الشرق ، وعمل استحكامات خفيفة لم تغن شيئاً قبالة الطوفان المصرى .

وياليته لم ينس وضع بعض قواته الخفيفة لدى رأس قنطرة هرجون لكى تقاوم طلائع المصريين بعض الوقت ، ولكى يفيد فى خلاله بعمل شىء

هام — لم يفعل شيئاً من هذا أيضاً بيد أنه قنع بالركود فى مواقعه الجديدة وانتظار المكتوب فى القدر ، عملا بمواعظ رجاله المولوية والبكتاشية حملة القماقم ولابسى الطراطير والقفاطين ! !

لنطالع ما ارتكبه إبراهيم مرة أخرى من مخالفة لقوانين الميدان المقدسة لدى الجندى ! :

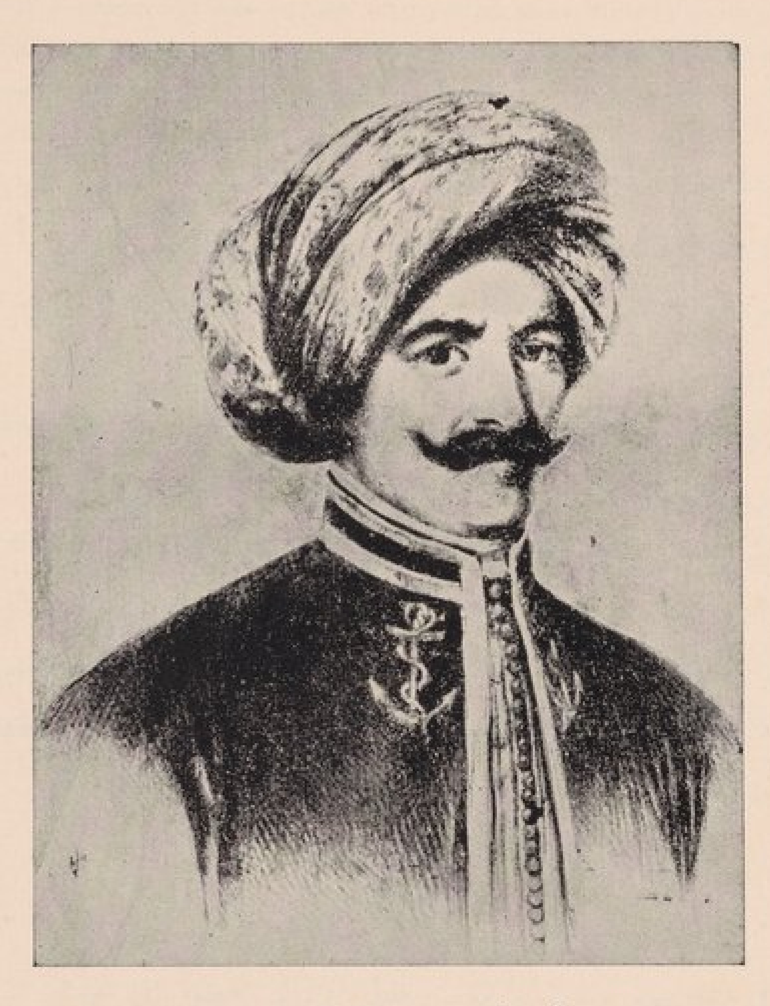
قبل إبراهيم المعركة متجهاً بقواته نحو الغرب وإلى ميسرته نهر كرسين وإلى خلفه الفرات الكبير وفى هذا الوضع الحرج لم تك له خطوط تقهقر يرتد عليها عند اللزوم . وقد يرد على هذا النقد معجب برأيه إبراهيم قائلا ومتى عرف إبراهيم القهقرى ؟ أن هذه الكلمة لا وجود لها فى عبقريته الشامخة ولكنا نرى أن ينبغى ألا يهمل القائد التفكير فيما سيحدث أو لا يحدث .

بيد أننا نحمد العاقبة — بعد أن رأينا خصمه يقف موقفا سلبيا — ولولا هذه السلبية مرة أخرى توج النصر هامة أبطال نزيب .

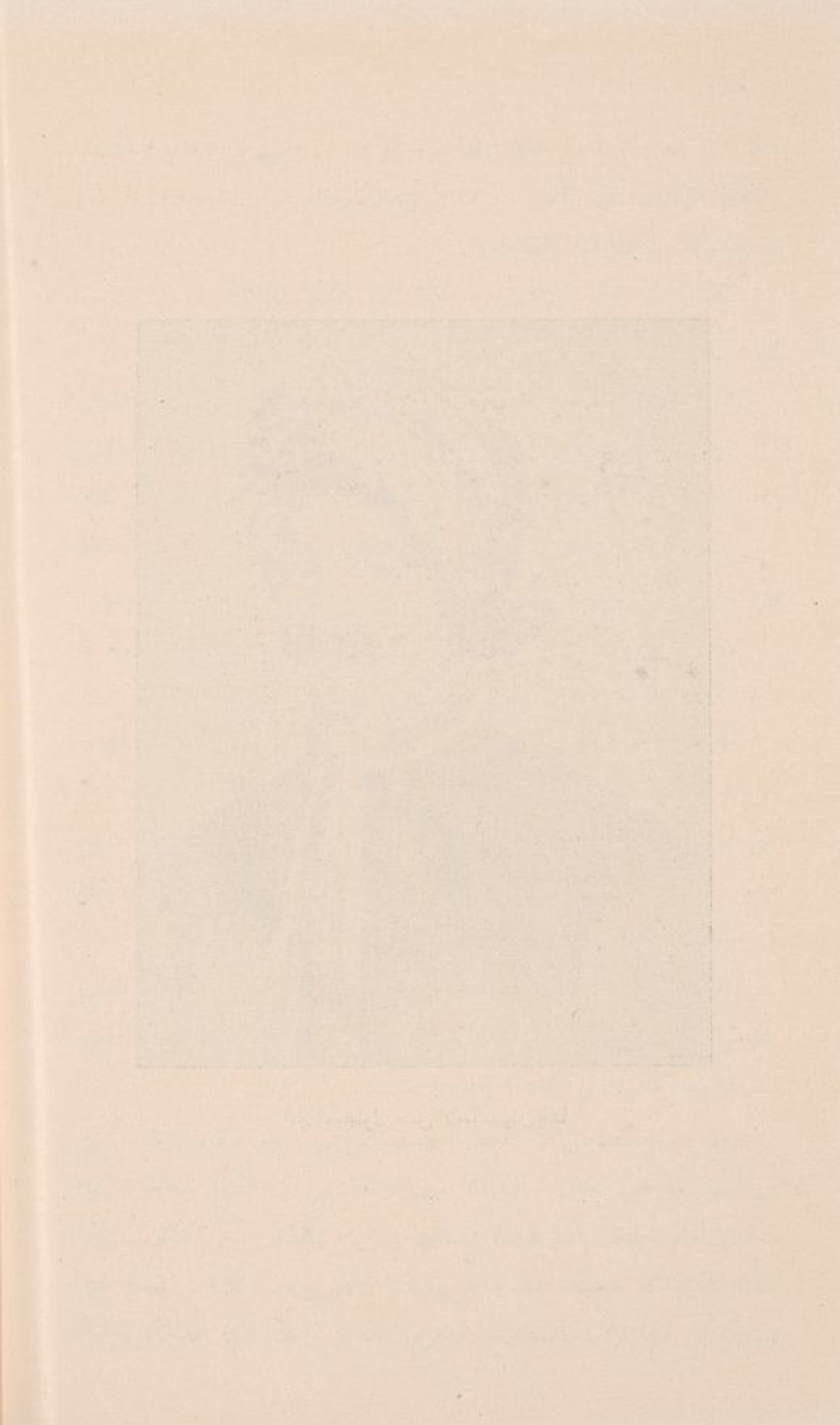
والراهن أن اعتماد إبراهيم اعتماداً كليا على ميمنته جعل خطته هشة ، سريعة الكسر ، لو لم يلك حافظ باشا قبالته . ولكنها المدفعية مرة أخرى هى التى انتشلت الموقف . فقد كان المدفعيون هم رجالات نزيب ، الذين نحيي ذكراهم ، ونحنى لهم رؤسنا ، ولا ننسى معهم نشاط سليمان وحنكته فى سرعة إدارة المعركة وتوجيهها . . .

لقد وقع عبء القتال برمته على الميمنة ومدفعية المصريين . أما القلب والميسرة فكان نصيبهما فى المعركة عادى للغاية ، ولا نستطيع أن نقول بأن قواتهما اشتركا فى اللحظة الحرجة .

ولم يفد حافظ باشا من أخطاء خصمه إبراهيم ، ولو مرة واحدة ، حتى فى أسهل المواقف عند ما ابتدأت ميسره المصريين فى الفتح ومعاونة الميمنة كانت أمام حافظ باشا فرصة أضاعها بسلبيته وفقده روح القتال . ولولا ذلك لتسنى له بميمنته القضاء على ميسرة المصريين . لكنه لم يفعل شيئاً ولم يفكر فيما يعرف بإصطلاح الهجوم المضاد ، نظراً لأن المفاجأة والجرأة



أمير الأسطول حسن الاسكندرانى باشا



والمبادأة أيضاً ، وهى من عناصر نجاح إبراهيم ، غلبته على أمره ، وقضت على جيش السلطان .

ونلخص موقف حافظ باشا فى العبارة التى وصفه بها الماريشال فيجان وهى :

"Il a maintenu son armée dans une immobilité passive, il a soumis ses jeunes recrues a l'epreuve la plus rude que puissent supporter des troupes non aguerries, se faire tuer sur place. Dans ces conditions le dénovement etait fatal."

والخلاصة ، فبالرغم عن النصر وعن نتائج نزيب فى السياسة الدولية ، فإنها لا تعد ظفراً عسكرياً فنياً لإبراهيم من طراز معارك حمص وقونية ، حتى فيما يعود على المشاة . لأن الفضل فى النجاح يعود — ولا مراء — إلى المدفعية — والمدفعيون من وراء مدافعهم الثقيلة . فكان المشاة قد اعتمدوا على ما جنوه من شهرة مضت ، حينما أدوا واجبهم فى سلاح المشاة ، ملكة الأسلحة فى معركتى حمص وقونية .

وليس معنى هذا النقد انتقاص من قدر القائد إبراهيم . . . كلا ، فإن أعمال إبراهيم فى ميادين الحروب والإدارة قد سجلها التاريخ بمداد الفخار والإطراء . والنقد فن ليس هناك أيسر منه . أما قيادة الجند والظفر بهم فى ساحات القتال ففن لا يجيده إلا طراز فريد من الرجال ، قلما يظهرون على مسارح العالم إلا نادرا . . .

خاتمة النصر

فى مساء يوم نزيب ، يممت فلول الأتراك المحطمة إلى مرعش ، وفر بعضها نحو الجبال شمال بيره جك ، ومضى حافظ باشا فى طريقه إلى روم كاله وبهينه ، لعله يجمع أشتات قواته فى مالطية .

وكان الجيش المصرى قد أنهكه القتال ، فسمح إبراهيم لجنده بالراحة يوما . وفى السادس والعشرين من يونيو غادر قائدنا نزيب تصحبه ثلاثة آلايات من المشاة وبطاريتان وعرب الهنادى ، وقصد بيره جك التى كان

يحميها آلاى من مشاة الترك ، فولى هؤلاء الأدبار مذعورين حينما اقترب منهم المصريون ، وغنم الأخيرون ٣٥ مدفعاً من العيار الكبير . ولم يمكث إبراهيم كثيراً حتى سلم قيادة القوة إلى القائمقام معجون بك ، قائد المنادى ، وأمره بالاستيلاء على مستودعات التعيين والعتاد فى أورفة (شرق بيره جك) وارتد هو وبعض الخيالة إلى نزيب .

وفى مساء السابع والعشرين ، قام إبراهيم على رأس أربعة آلايات مشاة وستة خيالة وست بطاريات فى تجاه مرعش ، التى مرت بها فلول العثمانيين وفى صباح ٢٨ دخل عينتاب . وحين أقبل مساء ٢٩ عسكر فى اينجاسويو شمال غربى عينتاب ، وكانت خطة إبراهيم فى القضاء على العثمانيين أن يتجه سليمان باشا إلى مالطية وأورفة فى الشرق ، بينما يتجه هو بقواته من أدنه إلى قونية ، عن طريق مضيق طوروس .

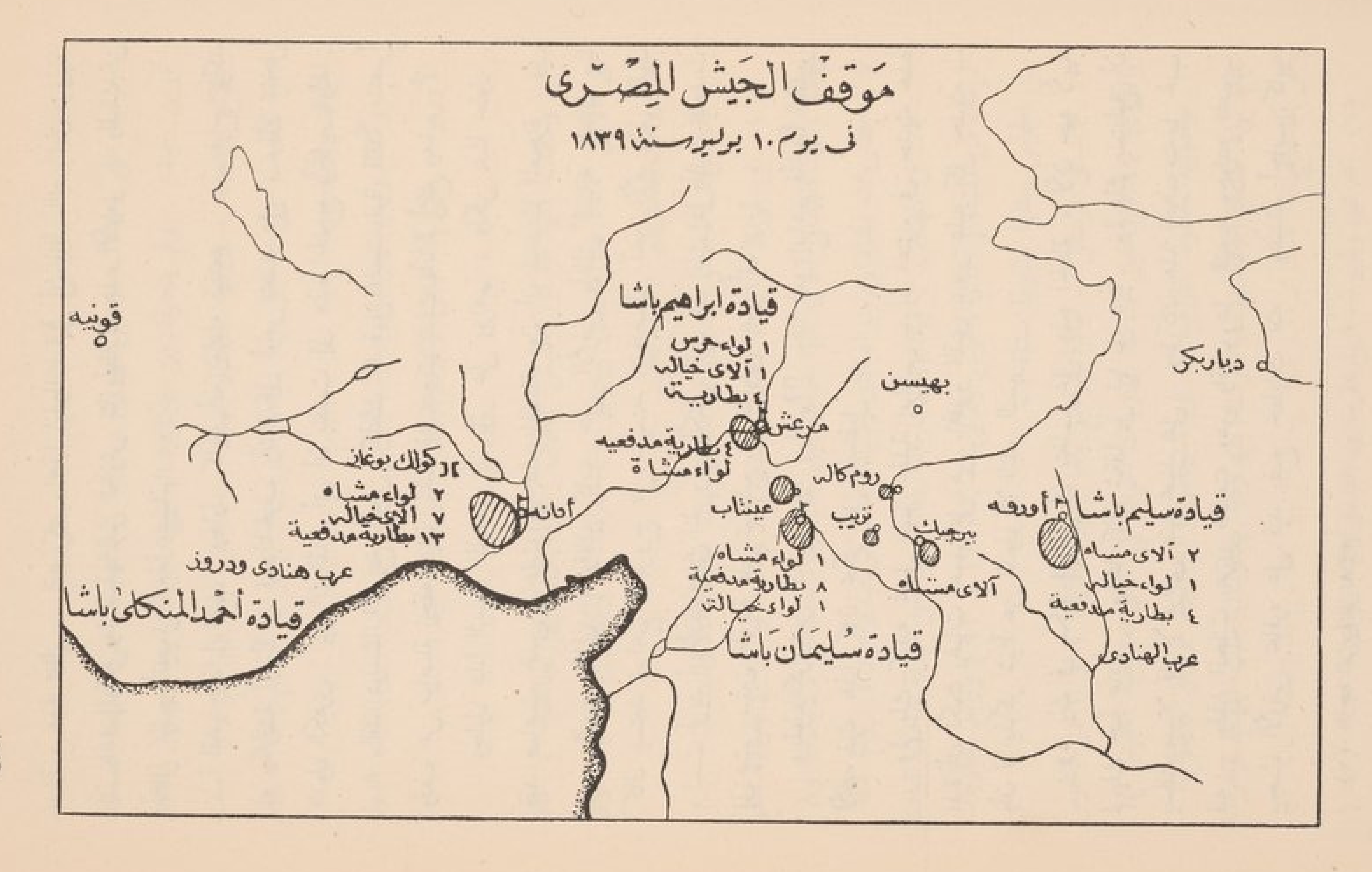
وبينما كان يرتب إبراهيم خطته فى أينجاسويو ، وصل كابتن كاييه ، رسول الحكومة الفرنسية ، يحمل خطاب محمد على المؤرخ فى ١٦ يونيو لأبنه ، الذى يقول له فيه « الزم مكانك ولا تتقدم » .

العودة إلى كابتن كاييه رسول فرنسا :

ذكرنا ضمن الحوادث الممهدة لمعركة نزيب وصول هذا الضابط إلى مصر ومقابلته لمحمد على ، ثم سفره على التو لملاقاة إبراهيم فى الميدان ، فوصل إلى معسكره بعد أن تصرمت معركة نزيب .

وعقب أن رحب به إبراهيم ، قال الكابتن إنه قد سافر ليلا ونهاراً لكى يكون أول مهنئيه ! ! ثم أمسك عن الحديث برهة ، إلى أن قال : « إنى أحمل إليك خطاباً من أبيك » .

فسر إبراهيم حين أصغى إلى هذا النبأ . وفض خاتم الرسالة من فوره. وما كان أشد أسفه إذ تلا فيها أمراً من أبيه بوقف تقدم الجنود ومن ثم لم يتمالك نفسه وصاح غاضباً .


موقف الجيش المصرى
فى يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٣٩
قونيه
قيادة ابراهيم باشا
١ لواء حرس
١ آلاى خياله
٤ بطارية
مرعش
٤ بطارية مدفعيه
لواء مشاة
بهيسن
ديار بكر
كولك بوغاز
٢ لواء مشاه
٧ الاى خياله
١٣ بطارية مدفعية
أدانه
عرب هنادى ودروز
قيادة أحمد المنكلى باشا
روم كالى
عينتاب
نزيب
بيرجيك
١ لواء مشاه
٨ بطارية مدفعية
١ لواء خياله
قيادة سليمان باشا
آلاى مشاه
قيادة سليم باشا
أورفه
٢ آلاى مشاه
١ لواء خياله
٤ بطارية مدفعية
عرب الهنادى

« هذا محال — لقد كتب هذا الخطاب قبل أن ننال النصر فى نزيب. إن هذه الموقعة وما سبقها من تحرش بنا يبطلان هذه الأوامر — ولذلك لن أعمل بها وسأتحمل تبعة عصيانها »

لقد حزن إبراهيم . وحاول كابيه أن يجادله ليقنعه . . . فراح يؤكد له معارضة أوربا فى قيام الحرب وأشار إلى أوامر محمد على ، وإلى تدخل الدول الكبرى . بيد أن القائد أبى أن ينصت إلى هذه الحجج وأجابه بقوله :

«لقد درست التاريخ أليس كذلك ؟ فهل سمعت مرة قائداً منتصراً وقف عن مواصلة زحفه . إن كنت قد سمعت بذلك فأنا لم أسمع به .»

وحاول هذا الرسول الملحف أن يؤثر على إبراهيم ، ولكن عبثا حاول . فقد ضاعت خمس ساعات فى هذه المقابلة دون أن تحدث المعجزة . وفى فجر اليوم التالى ، وقف كابيه على الأرض وأطلق للسانه العنان بينا كان يستعد إبراهيم للخروج من خيمته ، فاضطر آخر الأمر إلى القول « لست أريد أن أدعوك إلى الخروج ولكننى أقول لك إنك إذا ظللت تتحدث إلى عشر سنين طويلة فلن تستطيع أن تحولنى عن رأيى » .

ويقول كرابيتس كاتب سيرة إبراهيم[1] وهنا قدر إبراهيم فأخطأ التقدير لأنه بقوله هذا كان يحكم على المستقبل .

ولم يك كابيه يجهل فهم عقلية إبراهيم — إذ اعتزم فى حديثه هذه المرة أن تكون رغبات محمد على هى المحور الذى يدور عليه كل حديثه — وأن لا يذكر شيئاً عن الدول إلا النذر اليسير .

ولم يك فى مكنة إبراهيم أن يتغلب على هذه الخطة ، لأن حبه لأبيه لم يك حباً عاديا . وإنما كان شغفا بل تيما بل دينا . ولم يك يستطيع أن يسلك سبيلا قد لا يرضى عنها محمد على . وما كان هذا لخوف منه بل لحب فيه — ولهذا انحلت عرى مقاومته وهو واقف على قدميه وجواده المحبوب يبحث الأرض بحافره على قيد بضع خطوات منه . وعندئذ أجاب كابيه

(١) الترجمة العربية ص ٢٤٨ .

إلى ما طلب ، ورضى أن لا يعبر جبال طوروس ، وأن تقتصر أعماله الحربية على احتلال مرعش وأورفة . وهما نقطتان لا غنى عنهما لضمان تموين جيشه . ولم يتحرك من مكانه ، حتى أمر أن يوفد رسولا ليلحق طلائع جنوده ، ويحول دون زحفهم[١] . فعل ذلك إبراهيم وهو آسف جل الأسف على ما فعل . . . فعله فى ساعة النصر ، لأنه لم يشأ أن يثير المتاعب لأبيه .

وكان رضاه وموافقته بداءة نكوص محمد على قبالة تهديدات الدول الأوربية ، التى لا تبتغى للشرق سوى الخمول والمتاعب .

• • •

وكانت أهم مراكز الجيش العثمانى آنذاك فى قونية ومالطية : كان فى الأولى ٢٥,٠٠٠ جندى وحوالى ٤٠ مدفعاً ، وكان فى الثانية حوالى ٢٠,٠٠٠ جندى و ٣٠ مدفعاً .

أما موقف الجيش المصرى فى أول يوليو ، فكان كالآتى :

١ ــ فى أورفة : ثلاثة آلايات مشاة (٩ و ١٤ و ٢٢) بقيادة سليم باشا ، وقد انفصل آلاى منها لحراسة بيره جك ولواء خيالة (الآلايان ٢ و٨) و ٤ بطاريات مشاة وعرب الهنادى وكتيبة احتلت نزيب وأخرى فى روم كاله .

٢ ــ فى عينتاب : قيادة سليمان باشا بعد عودته من أورفة وتحت قيادته لواءان من المشاة (آلاى الحرس والآلايات ٦ و ١٧ و ٤٣) وأربع بطاريات من الحرس ومثلها بطارية مشاة .

٣ ــ فى مرعش ــ قيادة إبراهيم باشا ومعه الآلايان ٢ و ٣ من الحرس والآلاى ١١ الرماحين ــ ٤ بطاريات خيالة (آلاى مدفعية الحرس) .

ولحماية خطوط المواصلات فى أينجاسويو ــ بين مرعش وعينتاب ــ قام لواء المشاة (الآلاى ١١ و ١٢) ومعه بطاريتان بتلك المهمة ولحراسة ممر ألما داج .

(١) كاد لفين وبارو ــ تاريخ الحرب بين محمد على والباب العالى .

٤ — وفى أدنة — تجمعت تحت قيادة أحمد المنكلى باشا قوة كبرى لمراقبة مداخل مضيق طوروس فى تجاه أركلى وقونية — وكانت تتألف من :

لواءان مشاة (الآلايات ٥ و ٢٤ و ٣٠ و ٣١) و ٧ آلا يات خيالة (رماحة الحرس والآلايات ١ و ٤ و ٦ و ٧ و ١٠ و ١٣) و ١٣ بطارية وقوة من الهنادى والدروز .

وعلى ذلك يلاحظ أن معظم الوحدات المصرية كانت متجمعة بين عينتاب وأدنة — وكان مركز ثقلها فى مرعش — وكانت جبهة أورفا — مالطية ثانوية ، وللأتراك فى مالطية حوالى عشرة آلاف .

وكانت قوات الجيش المصرى فى الشام ٣ آلايات مشاة (الآلاى ١٨ فى بعلبك و ٢٥ فى دمشق و ٣٥ فى عكا) وآلاى خيالة (١٢ رماحين) فى بعلبك .

ولايخفى أن هذه الوحدات لم تك مرتباتها الحربية كاملة ، فقد نقصت كثيراً . وعلى ذلك لم يتجاوز جيش إبراهيم الرقم ٤٦٠٠٠ .

بينما كان يجرى هذا فى الأناضول ، وقع حادث هام للغاية — ففى ١٤ يوليو سلم أمير البحر أحمد فوزى باشا ، قائد الأسطول العثمانى ، وعدو خسرو باشا . جميع سفنه إلى محمد على باشا فى الميناء الغربى بالإسكندرية . وكان هذا الأسطول يتألف من ٢٠ بارجة تحمل ٢١٠٠٠ بحار و ١٦٠٠٠ من الجنود .

ومن هذا يتبدى أن السلطنة فقدت ، فى أيام ، جيشها وأسطولها وسلطانها ! فياله من موقف حزين عصيب .

° ° °

كان يتعين ، بعد إيقاف إبراهيم عن التقدم ، إقرار مصر فى حدودها التى استحوذت عليها بمقتضى اتفاق كوتاهية ، أى أن تشمل سورية وبلاد العرب وأدنة وكريت . ولكن أوربا لم تعامل مصر بمثل العطف الذى عاملت به اليونان ، فى ثورتها على تركيا ، وكان انتصار مصر فى معركة

نزيب سببا فى تقلقل التوازن الاوربى والمسألة الشرقية ، فوقفت الدول الكبرى مواقف متباينة ، تبعاً لأطماعها ونزعاتها ، بل لقد جاهرت علنا إنجلترة بعدائها لمصر وأعلنت وجهة نظرها فى وجوب المحافظة على كيان السلطنة العثمانية .

هذا وبينما كان رجال الباب العالى يعملون لإصدار فرمان لتحقيق اتفاقية كوتاهية اجتمع ممثلوا الدول الخمس فى الآستانة (بروسيا وفرنسا وانجلترا والنمسا وروسيا) وأرسلوا مذكرة إلى الباب العالى أعلنوا فيها أن الاتفاق بين الدول الخمس الكبرى أصبح أمراً واقعاً ، وأنها تدعو الباب العالى ألا يبرم اتفاقاً من دون أخذ رأى الدول .

واتفقت انجلترا وروسيا على تحطيم قوة مصر الخارجية وانتزاع الشام من محمد على وحرمانه من فتوحاته التى أنفقت مصر فيها أموالها ودماء أبنائها تسع سنوات .

وعجل بالمرستون بالاتفاق مع مندوبى روسيا والنمسا وبروسيا (ما عدا فرنسا) على الوقوف فى وجه محمد على — وأمضوا معاً فى لندن معاهدة ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ . وأهم شروطها تتلخص فى أنه إذا خضع محمد على ، فى خلال عشرة أيام ، ورد كريت والأماكن المقدسة ببلاد العرب وأدنة والشام أعطته الدولة ولاية مصر وراثية وولاية عكا مدة حياته ، وإلا أخضعته الدول بالقوة . ونظرت فى أمره من جديد .

رفض محمد على هذه الشروط ، وطفقت الصحافة الفرنسية تندد بالسياسة الانجليزية ، وكادت تشتعل الحرب من جراء المسألة المصرية . . .

وذهبت فى أثناء ذلك أساطيل الحلفاء وحاصرت سواحل الشام ثم استولت عليها ، وانتشرت الفتن فى الشام ولبنان ، بفضل رجال المخابرات الإنجليزية فاضطر محمد على أن يرسل لابنه أمراً بالانسحاب من الشام .

أصدر إبراهيم أوامره إلى جيشه فى التاسع والعشرين من ديسمبر ١٨٤٠ بالجلاء ، وقد كان يؤلف من ٥٥,٠٠٠ جندى يصحبهم ١٥٠ مدفعاً ،

وكان يتبع ذلك الجيش نحو سبعة آلاف من الأسرات والأتباع . بدأ الحشد فى حلب ، وبعد ستة أيام من خروج إبراهيم باشا من دمشق ، أعيد حكم السلطان .

وفى المزيريب (شرقى بحيرة طبرية) ارتاح الجيش ثلاثة أيام ، ولكن مما يذكر أن البرد كان شديداً . وقد قسم إبراهيم جيشه إلى خمسة أقسام : أحدها بقيادة سليم باشا ، والثانى بقيادة أحمد باشا الدره مللى والثالث بقيادة أحمد باشا المنكلى ، والرابع بقيادة سليمان باشا الفرنساوى ، والخامس بقيادته ، وعين للقسم الأول طريق شرق الأردن إلى غزة والعريش . والثانى طريق الحج ومعان فالعقبة ومنها إلى نخل والسويس ، أما هو وكان قسمه مؤلفاً من الحرس وعرب الهنادى والباشبوزق فجعل وجهته غزة ليركب منها البحر إلى مصر . وتمكن إبراهيم بحسن خطته ، ودقة نظام جيشه ، ونشاط ضباطه من أن يلعب بقواد الحلفاء الذين كانوا يتربصون له فى الطريق ، وأن يفلت من بين أيديهم ، حتى قالوا فى وصف ارتداده ورجوعه سالماً ، إنه ربح أكبر معركة سلمية بالارتداد . وقد تحمل جيش إبراهيم متاعب جد كبيرة لايحتملها جيش آخر ، لأنه كان يسير فى الصحراء القليلة الماء والزاد ، حتى اضطر الجنود إلى التهام لحوم الخيل ، وأن يعيشوا أياماً على عشب برية . وكانوا قبل وصولهم إلى السواحل فى غزة أو العقبة يكافحون الجوع والعطش وقطاع الطرق .

وفى الخامس والعشرين من يناير ، وصل القسم الأول من جيش إبراهيم إلى غزة ، أما جيش سليمان باشا فإنه سار على طريق الحج وكان يحسب أنهم سيرسلون إليه من مصر ، بطريق صحراء السويس ، الزاد والماء ولكن خاب أمله .

وصل إبراهيم إلى غزة فى الحادى والثلاثين من يناير ، وأرسل إلى والده يسأله بعض حاجيات الجيش فبعث بها إليه . وغادر أخر جندى غزة فى ١٩ فبراير عام ١٨٤١ .

ومن المحزن أن الجيش — فى خلال انسحابه من الشام — فقد ما لا يقل عن ثلاثين الفا . وهكذا عاد جيش مصر بعد أن حظى بالمجد والظفر ، فى أربع معارك كبرى . ولو شاء وشاءت السياسة لجعل لمصر حقها الوسيع فى الحياة [١] .

عاد الجيش إلى وطنه — وكان جيشاً لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة على رأسه قائد شاركه فى جل أطواره ، لم تنقصه القريحة العسكرية . وكفى محمد على من ذكرى خالدة أنه استطاع فى اثنى عشر عاماً فحسب أن يضع تحت إمرة ابنه جيشاً مصرياً مؤلفا من مائتى ألف جندى فى دولة ناشئة لم يتجاوز عدد سكانها الأربعه ملايين . . .

إبراهيم القائد

نرى لزاما علينا أن نستوفى البحث فى عدة أسطر ، عن إبراهيم القائد تقديراً بل وفاء لهذا الجندى الباسل ، الذى كان المنفذ الفريد لسياسة أبيه ، فى إقامة دولته العتيدة .

ولعلنا قد وقفنا على النجاح الذى أصابه إبراهيم فى جل المعارك ، التى حاربها ضد قادة جيوش الترك ، واختمر فى رؤسنا أنه قائد من طراز نادر . لقد أكمل مشروعات أبيه فى خلال حياته وليس كإسكندر الأكبر عقب انقضاء فليب . وفضلا عن ذلك ، فإن سجايا الجندية الكاملة قد تأصلت فى إبراهيم كما رأينا .

كانت لإبراهيم قدرة عجيبة على « فلوذة » جنوده — نعم يجعلهم كالفولاذ فى الصلابة والصمود قبالة أعدائهم ، فلا يلينون له ، أو يهزمون أمام إرادته وقد كان لقوة تأثيره عليهم ، وضربه المثل لهم ، أكبر ضمان للظفر الذى كلّل هامتهم ، فى كل معركة قاتلوا بشجاعة فيها . لا يرضى أن يعمل

---

(١) صدر فرمان الولاية إلى محمد على فى ابريل سنة ١٨٤١ ، وأقرته الدول فى ٢٢ مايو .

أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاق نفسه هو على عمله . يطيعه الجميع ، ويخشونه أكثر من سواه ، لأن فى يده العقاب ، ومع ذلك التفت حوله قلوب الجند . كنت تراه فى حروبه دائم اليقظة كالصقر لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الأفرار بسرعة تنقله بين الصفوف ، دون أن يشعر به أحد . لا يحيط به فى حله وارتحاله سوى أربعة أو خمسة من رجاله — وكثيراً ما ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك القدوة لغيره — وهو حدب على جنوده ، يعطف عليهم ويحادثهم ويشجعهم ، ويصغى إلى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم . . . ولكنه لا ينسى قط مقامه . وكان يثنى — دواماً — على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعاً يحتمون به من بعض ضباطهم . وبلغ من أمرهم أنهم كانوا أحياناً يرفضون تنفيذ أوامرهم ويقولون إنهم سيرفعون أمرهم إلى إبراهيم .

ولما كان إبراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج ، سريع الغضب ، فإنك تراه أحياناً إذا استثير يمشى ذهاباً وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب « الشبك » كأنه يهدىء بهما أعصابه ، قبل أن يصدر أوامره .

ترى إبراهيم ، فى ميدان القتال ، رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر ، أو ثارت عليه القبائل .

لم يسلم خير القادة وأعقلهم من الخطأ ، وقد لامه الكثيرون من الكتاب الأوربيين أو الحاسدون ونقول إن إبراهيم لم يك معصوماً من الخطأ ، فإن له أغلاطه ، ولكنه لم يك بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . وكان يحظى بكل المزايا المرغوبة لقيادة الجند فى الشرق .

وصفوة القول أن الصفات التى تميز إبراهيم بها تتجمع فى الشجاعة النادرة ، وفى القوة البدنية الهائلة ، وفى النشاط الجم والحظ والتوفيق ، وسط الأخطار المحدقة . والحيلة الواسعة ، والهدوء ، وضبط النفس فى أحرج الأوقات وأشد الأخطار . والقدرة الهائلة على كتم عواطفه ومشاعره .

وطبيعى أن بعض هذه السجايا كانت تنقلب فى بعض الأحايين إلى نقائضها : فكان فى بعض الفترات جريئاً مخاطراً فى البداية — وهو الذى عرف بشدة الحذر . وكان قاسياً ولاسيما حين لم تك السياسة تملى عليه الحلم والعفو ، وحين كان لايخشى الرأى العام الأوربى . وكان إبراهيم — فضلا عن ذلك — وثيق الاعتداد بنفسه ، لا يلقى إلى النصيحة أذناً صاغية ، ولا يحفل بآراء الآخرين ، اللهم إلا إذا وجد فى مآزق صعب وأزمة خطيرة . كما أنه فى بعض الأحيان يسرف فى الوعود أبان الأزمات التى كانت تمر به ، ثم ينسى هذه الوعود بعد ذلك ضاحكا من بساطة الذين خدعهم بها . . . وهكذا نرى إبراهيم يجمع بين طرفى النقيض . وكان من رجال المتناقضات ، والحق أن سحنته كانت تشهد بالهدوء والطيبة فى أوقات سروره ، بيد أنه إذا ما قطب جبينه تبدى على وجهه طابع القسوة والشدة والاستهانة بكل شىء . وكان أقل الأسباب كافياً لإحداث هذا التغيير فى سحنته من الطيبة إلى الشدة — وكان ذلك يبعث الرعب فيمن حوله — وكان صوته قاصفاً لا رنين له ويلوح فى بعض اللحظات كزئير الأسد . ولم يك يستطيع أن يقرب منه دون وجل إلا القليل من أقاربه ، وكان الكل يخضعون لنفوذه . وكانت شخصيته وحدها خليقة ببعث هذا الاحترام... ولم يك الباعث عليه رتبته ونفوذه وحسب . وكان يعرف كيف يستغل الرجال فكان يتملقهم ويداعبهم ويقربهم إليه إذا اقتضى الأمر . وكان يعرف كيف يشجع جنوده ويحملهم على مجابهة أشد الأخطار بشجاعة مثلى . وكان وجوده شديد التأثير فى قدرتهم على القتال .

وكان يستطيع أكثر من أى شخص آخر أن يستغل فى القتال الموارد القليلة الموجودة فى البلاد . وإذا كان فى بعض الظروف يلجأ إلى التخريب — كما حدث فى معارك المورة — فإن ذلك كان فى الضرورة القصوى — وكان إبراهيم فى ذلك الميدان أكثر اعتدالا من غيره من القادة .

ففى البلد الذى لم تك له أى أداة إدارية ، ولم يك فيه أى فرع من

فروع الإدارة الحكومية المنظمة استطاع إبراهيم أن يخلق كل شيء وأن يعمل كل شيء بنفسه . وكانت الثقة تحل أينما ظهر .

قاد إبراهيم الحملات العسكرية التى تمّت فى عهد أبيه . وقد شهدنا كم من القادة الأتراك ولاّهم السلطان قيادة جيوشه ، بيد أنهم لم يفوزوا من إبراهيم بطائل — ذلك لأنه كان من « عيار » ممتاز وجبلة نادرة .

امتاز بالكفاية والمقدرة والخبرة بأساليب حروب العصابات والحروب المنظمة ، بالرغم عن عدم تمسكه بقوانين القتال المدونة فى كتب عصره . . . بل قل كان يثور عليها ولا يتبعها ، لأن فى طبيعته الشيء الكثير مما يضمن النصر ، ويحقق أغراض الحرب .

كان يفكر فى الأمر ، ثم يعزم عليه ، ثم يعمل به ، واضعاً نصب عينيه مواطن الضعف من عدوه ، ويجيشه من تلك الناحية ، فيوجه إليه الطعنة القاتلة . كان يعرف إبراهيم — دواماً — مقدرة خصمه سواء أكانوا من سكان البوادى أو الأناضول أو أوربا أو بلاد الإغريق ، ولذلك أحرز النجاح فى أشتات مشروعاته .

كان لا يقدم على قتال عدوه إلا إذا أكمل حشد الجنود ووضع ترتيباته الإدارية ، وشرح لهم خطته ثم ينزل عليه بضربته القاصمة ، بينا يشرف أثناء القتال على أن كل وحدة تنهض بتنفيذ نصيبها فى المعركة على أكمل وجه — فإذا شاهدها تخيب رجاءه — بادر بإصلاح الموقف بما يتطلبه من نقل جنود أو معاونة بالمدفعية أو احتلال موقع دفاعى مؤقت لستر خطة الهجوم المضاد فى الوقت المناسب . ولذلك كان يفضل دائماً أن يكون فى طليعة جيشه ليشرف بنفسه على المعركة ، وليرقب مواطن الضعف من عدوه ويوجه إليها ضربته القاضية .

المراجع

١ – المراجع العربية

١ – أسد رستم .

إن معجم الأستاذ أسد رستم فى وثائق الشام كان خير مساعد لنا للوقوف على أهم الوثائق التاريخية التى تتعلق بحروب الشام .

– الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا – ٥ مجلدات

– بيانات بوثائق الشام وما يساعد على فهم مقاصد محمد على باشا الكبير

٢ – أمين سامى باشا .

– تقويم النيل ج ١ و ٢

٣ – ادوار جوان وترجمة محمد مسعود

– مصر فى القرن التاسع عشر

٤ – الفريق إسماعيل سرهنك

– حقائق الأخبار عن دول البحار – ٣ أجزاء

٥ – الخورى بولس قرالى .

– فتوحات إبراهيم باشا المصرى فى فلسطين ولبنان وسوريا

٦ – داود بركات .

– البطل الفاتح إبراهيم باشا

٧ – عبد الرحمن الجبرتى .

– عجائب الآثار فى تراجم الأخبار

٨ — يوزباشى عبد الرحمن زكى .
— الجيش المصرى فى عهد محمد على الكبير
٩ — سمو الأمير عمر طوسون .
— صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على
— مقالات هامة فى مجلة الجيش المصرى
— خرائط ومصورات
١٠ — عبد الرحمن الرافعى
— الحركة القومية ج ٢
١١ — كلوت بك وترجمة محمد مسعود
— لمحة عامة فى تاريخ مصر — ج ١ و ٢
١٢ — كرابيتس وترجمة محمد بدران
— إبراهيم باشا
١٣ — كريم ثابت
— محمد على
١٤ — ميخائيل مشاقة
— مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان
١٥ — محمد رفعت
— تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة
١٦ — محمد قاسم وحسين حسنى
— تاريخ القرن التاسع عشر .

٢ ـ المراجع الأجنبية

1. Cadalvéne et Barrault: Histoire de la guerre de Mehemet Ali Pasha contre la Porte Ottomane en Syrie et en Asie Mineure.
2. Cadalvène et Breuvery: L'Egypte et la Turquie de 1829-1836, 2 vols.
3. Guemard, G: Les Rèformes en Egypte, 1760-1848.
4. Hamont, P.N.: L'Egypte sous Mohammed Ali, 1845.
5. Mengin, F.: Histoire de l'Egypte sous le Gouvernment de Mohammed Ali. 2 vols. 1823.
6. Moltke, Helmuth von: Briefe uber Zustande und Begebenheiten in der Turkie aus dem Jahren 1835.
7. Mouriez, P.: Histoire de Mehmet Ali. 1857. 4 vols.
8. Paton, A.A.: A History of the Egyptian Revolution. 1863. 2 vols.
9. Phillips, W.A.: Mehmet Ali: "The Cambridge Modern History vol. X, Chapter 17."
10. Planat, J.: Histoire de la Régénèration de l'Egypte.
11. Puckler-Muskau, Prince: Egypt under Mohammed Ali, 1845, 2 vols.
12. Rustum, A.J.: The Royal Archives of Egypt and the Origins of the Egyptian Expedition to Syria (1830-1841).
13. Sabri, M.: L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali.
14. Shafic Ghorbal: The Beginning of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali, 1928.
15. St. John, J.A.: Egypt and Mohammed Ali, 1834, 2 vols.
16. De Vaulabelle, A.: Histoire Moderne de l'Egypte, 1801-1834.
17. Vingtrinier, A.: Soliman Pacha, Col. Sèves., 1860.
18. Weygand: Histoire Militaire de Mohammed Ali et ses Fils, 1936, 2 vols.

الفصل الحادى عشر

الدفاع الساحلى

فى أيام محمد على الكبير

لما وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر كان يحيط بمدينة الإسكندرية سور متين البنيان تناثرت فيه الأبراج والمزاغل . وحول بعض أجزائه خندق متصل بالبحر الأبيض . وعدا أبراج هذا السور الذى شيده المسلمون عقب فتح البلاد كانت هناك عند وصول تلك الحملة قلعة قايتباى . وحصن آخر عرف بطابية فاروس الصغيرة [1] تقع فى نهاية خط الصخور بآخر امتداد الميناء الشرقية للدفاع عنها من جهة الشرق . ولم يكن يوجد من هذه الطابية الصغيرة عند قدوم الفرنسيين إلا برج مربع الشكل متخرب به بقايا من المدافع القديمة . وكان يتبدى أيضاً فى موضع مدرسة رأس التين الأميرية حصن ثالث يشرف على الميناء الغربية .

وفى أثناء الاحتلال الفرنسى شيدت بعض حصون لحماية الثغر كانت أهمها :

١ ـ حصن كوم الدكة ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم وأطلق عليها حصن كريتان .

٢ ـ حصن كوم الناضورة ولاتزال آثاره باقية وأطلق عليه حصن كافاريالى .

٣ ـ حصن لوتورك (اسم أحد القادة الفرنسيين) وقد أقاموه غربى الحصن السابق على شاطىء البحر فى الموضع الذى به طابية صالح الحالية

٤ ـ حصن كليوباترة وقد شيدوه على المرتفعات القائم عليها اليوم المستشفى الأميرى . وسمى بهذا الاسم لمجاورته لمسلة أطلق عليها كليوباترة .

---

(١) هى طابية السلسلة الحالية بالاسكندرية .

وعدا تلك الحصون فقد أقاموا صفوفاً من بطاريات المدافع بالقرب من ثكنات رأس التين . شيدت فى أماكنها فيما بعد بعض الطوابى المشهورة كطوابى الفنار ورأس التين والاسبتالية

• • •

ولما اضطلع محمد على باشا بحكم البلاد ، وأتم بناء قلعته على قمة المقطم وسار شوطا يذكر فى إصلاح قلعة الجبل ، وجه عنايته إلى أسوار الإسكندرية فجددها وأصلح أبراجها فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨١١ . ولكنه لم يبدأ جدياً فى تحصين ساحل البحر الأبيض إلا عقب انتهاء معركة نزيب عام ١٨٣٩ ورأى ما دبرته ضده الحكومات الأوربية .

وكان تحصين الإسكندرية أول ما شغل به الباشا ، لا لأهمية موقعها الاستراتيجى فحسب بل لأنها تكاد تكون محرومة من الحصون الطبيعية على رغم وجود مداخل بحرية فيها معاثر وصخور خطرة .

وليس بخاف أن الإسكندرية يسهل الوصول إليها من عدة مواضع فى شواطئها الطويلة المقفرة ، ومعظم هذه الشواطىء خلجان بعضها بعيد وبعضها قريب من حصونها القديمة التى رممت أو من الحصون الصغيرة الجديدة والأبراج التى عززت حامياتها حتى ليلوح لعين الناظر أنها ذات قوة عظيمة . ولكنها فى الواقع غير وافية بالمرام إذا هاجمها عدو . وعلى ذلك فلم يكن تحصين الإسكندرية وشواطئها وضواحيها بالأمر الهين .

• • •

أرتأى محمد على أن يستقدم بعض المهندسين العسكريين الإخصائيين فى تشييد الحصون الساحلية . كان على رأسهم الكولونيل المهندس جاليس والكابتن مورو اميل ، اللذين أوصى الجنرال دود مدير التحصينات العسكرية على اختيارهما ووافق على ذلك الماريشال سولت .

وفى سبتمبر عام ١٨٤٠ قابل هذا الماريشال الكولونيل جاليس وأمره بالسفر إلى مصر لمقابلة محمد على باشا للاضطلاع بالمهمة الكبرى فوصل

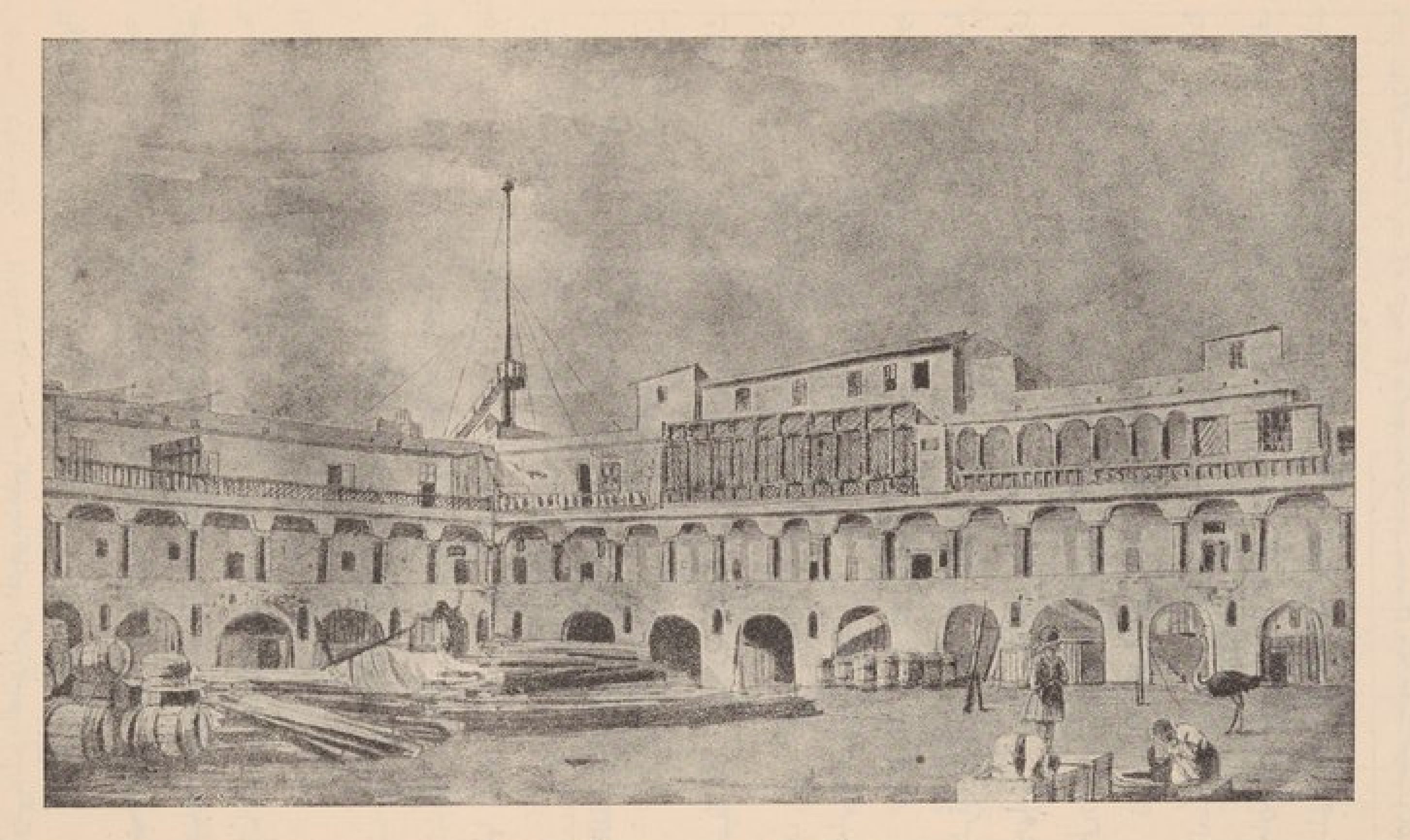
إلى إسكندرية بعد أيام وقابل مسيو كوشيليه القنصل العام لفرنسا فى الثغر . وقد أفهمه بأنه سيتولى إدارة قسم الهندسة العسكرية فى جيش الباشا .

فهم جاليس جيداً أهمية وخطورة مهمته وبدأ العمل . فكان يتنقل من مكان إلى مكان راكبا عربة أو على متن حمار أو فى سفينة شراعية أو غيرها حسب حالة الجهة التى يقصدها . وكان يقضى كل وقته من الصباح الباكر فى عمل شاق وتفتيش دقيق كما كان يقوم بعد الظهر بتحرير مذكراته ومراجعة رسوماته .

وبسرعة أتم تقريراً رفعه إلى الوالى بين فيه حالة المواقع الضعيفة بإسكندرية واقترح المبادرة بالعمل لتقويتها حتى لا تؤخذ على غرة . وأشار بالمسارعة بوضع بطاريات طوبجية خلف حاجز الفنار لمنع دخول وحدات العدو البحرية الخفيفة إلى الميناء الجديد ، لأنه إذا حدث ذلك فإن القنابل المحرقة يمكنها أن تلقى عليها كما تلقى على الأسطول المصرى الحربى وعلى الميناء القديم .

وطلب فى تقريره أيضاً وضع الأتربة أمام باب رشيد وإقامة بناء (حاجز) شرق قلعة العجمى بإسكندرية ، ولم يفته أن يقترح ضرورة وضع (جرادل) ملأى بالمياه فى كل طابق من قصر الوالى وفى جميع المحال العمومية والخصوصية وتعيين الحرس الكافى عليها لرش الماء عند حدوث حرائق لسرعة إطفائها حتى لا يقع أى تلف .

وبعد مضى بضعة أيام ، أرسل جاليس إلى باريس تقريراً مفصلا مطولا عن حالة استحكامات الإسكندرية وعن الأعمال التى قام بها وعن ما أخذه تحت إدارته من أول لحظة . وعن حالة جهات أبى قير . فقال إن نزول العدو من المراكب إلى أبى قير أمر صعب للغاية فقد ظهر له أن شاطىء أبى قير وعر ولا يتسنى العبور منه لأنه عبارة عن شريط من الأرض يتغير عرضه وسعته مسافة تتراوح بين ميل وميل ونصف ، وهو وعر المسالك ، وأن الأرض هناك ، أى فى أبى قير وعرة لأنها عبارة عن شبه أكوام وتلال رملية تماثل التلال الواقعة شرق إسكندرية وأنه يتيسر الانتفاع من حالة هذه



مساكن ضباط دار الصناعة باسكندرية

الأرض لمنع العدو من الهجوم عليها .

وأخيراً فإنه رأى بالقرب من الإسكندرية من جهة ترعة المحمودية بقايا استحكامات عالية موجودة منذ أربعين سنة أقامها جنود نابليون فحمد هذه المصادفة بقوله « إن هذه مصادفات سعيدة لنا لأنى سأعيد بناء أعمال آبائنا القدماء » .

ويتسنى تلخيص تقرير الكولونيل جاليس فى النقاط الآتية :

أن أهم خطوط الدفاع عن الساحل الشمالى ثلاثة :

الأول — خط الساحل و يحتاج إلى إقامة حصون قوية يمكن بها الدفاع عنها وصد هجمات سفن الأعداء التى تهدد البلاد .

الثانى — لايحتاج لشىء لأنه معزز بالعراقيل الطبيعية كالمستنقعات والبحيرات الماثلة فيه — وهى بحيرات المنزلة والبرلس وأدكو ورشيد وأبو قير ومريوط .

الثالث — يتهيأ الدفاع عنه عند اللزوم بإقامة بعض استحكامات خفيفة على المسالك الواقعة بين البحيرات المذكورة آنفا . وهذه المسالك هى التى توصل خط الساحل بالوجه البحرى وداخل القطر . ومنها يمكن صد العدو إذا نجح فى الوصول إلى الساحل .

وذكر جاليس بك أيضاً أنه يلزم إنشاء بعض الحصون على الحدود الشرقية بجهات الصالحية لوقوعها على طريق سورية . وجهات الإسماعيلية وجهات السويس لأنها ميناء مصر على البحر الأحمر . وبجهات أخرى على البحر الأحمر كالطور والقصير وغيره من ساحل عيذاب والعقبة [١] .

فلما اطلع محمد على باشا على هذا التقرير وافق عليه وأصدر أوامره بالعمل . ولكن مثل هذا الإجراء استبقه صدور أمر الباشا بتشكيل لجنة لمعاونة الكولونيل يرأسها الأمير سعيد بك ومعه أمير البحر حسن الإسكندرانى وسليم باشا قائد المدفعية وأمير البحر لطيف بك مدير الترسانة وموجيل بك

---

(١) استمر جاليس بك فى خدمة الحكومة المصرية فى خلال حكم عباس وسعيد ووافته المنية عام ١٨٦٢ بعد خدمة عسكرية حوالى ٤٣ سنة .

المهندس وهو سار . وانضم إلى جاليس بك زمرة من المهندسين المصريين ممن أتموا دراستهم فى مدارس أوربا نذكر منهم :

الصاغ حسن دمياطى و اليوزباشى أحمد بقلى وأحمد أسعد والملازمين يوسف واصف وحسن برينى وعلى محمد ومحمد عرفه وعلى إبراهيم ومحمود محمد وعثمان محمد وغيرهم . وقد قام على أكتاف هؤلاء تحصين السواحل المصرية وإصلاح القلاع القديمة .

وفى عام ١٨٤٠ كانت حصون الإسكندرية التى شيدت أو أصلحت قد بلغت حدا لابأس به من المنعة والقوة وقد ذكرها الملازم البحرى نيوجنت من رجال البحرية البريطانية .

الحصون	مدافع	أهوان	الجملة
(١) طابية السلسلة	٦	—	٦
(٢) « قبور اليهود	١٠	—	١٠
(٣) « كوم الدكة	٦	٣	٩
(٤) « كوم الناضورة	١٢	٤	١٦
(٥) « قايتباى	٢٠	١٢	٣٢
(٦) « ألاطة	١٠	١	١١
(٧) « سراى رأس التين	٤٦	١٧	٦٣
(٨) « فنار رأس التين	٣٣	١٠	٤٣
(٩) « صالح أغا	١٥	٣	١٨
(١٠) « أم قبيبة	٣٠	—	٣٠
(١١) « القمرية	١٠	٣	١٣
(١٢) « الملاحة القديمة	١٠	..	١٠
(١٣) « الملاحة الجديدة	٣٤	—	٣٤
(١٤) « الدخيلة	١٠	٣	١٣
(١٥) « جزيرة العجمى أو المرابطة	٨	٣	١١
(١٦) طوابى دائرة السور القديم	٧٠	—	٧٠
الجملة	٣٣٠	٥٩	٣٨٩

وفى أواخر أيام حكم محمد على كان قد أزداد عدد الحصون كما يستدل على ذلك من القائمة المؤرخة فى عام (١٢٦٤ هـ – ١٨٤٨ م) وقد وضعها حسن باشا الإسكندرانى ناظر البحرية المصرية الذى أدركته الوفاة سنة ١٨٥٥ فغرق مع من غرق فى سفينة القيادة مفتاح جهاد فى حرب القرم التى اشتركت فيها سفن الأسطول المصرى .

وقد نقل هذه القائمة اللواء إسماعيل باشا سرهنك[١] ومنها يتبين أن عدد تلك الحصون ومدافعها كان كالآتى .

الحصون	مدافع	أهوان	الجملة
(١) طابية الفنار	٥٧	٦	٦٣
(٢) « الفنار الصغيرة	١	—	١
(٣) « التراب الهلالية[٢]	٦١	١٢	٧٣
(٤) « الاسبتالية الجديدة	١٣	١٠	٢٣
(٥) « الاسبتالية القديمة	٢٥	—	٢٥
(٦) « ألاطة	٥٧	٧	٦٤
(٧) قلعة برج الظفر	١١٠	٦	١١٦
(٨) طابية ظهر منزل الفرنسيس[٣]	٦	٦	١٢
(٩) طابية المفحمة[٤]	٨	—	٨
(١٠) « مسلة فرعون	٩	—	٩
(١١) « قبور اليهود القديمة[٥]	١٠	—	١٠
(١٢) « « « الجديدة	٢٠	—	٢٠
(١٣) « برج السلسلة	١٨	١	١٩
(١٤) « باب شرقى[٦]	٦	—	٦

(١) حقائق الأخبار عن دول البحار – جـ ٢ – ص ٢٥٩ . وقد شغل إسماعيل باشا منصب وكيل نظارة الحربية فى أوائل هذا القرن . وكان أبوه سرهنك قبودان من رجال البحرية فى عصر محمد على .

(٢) محلها فى عام ١٩٣٨ حلقة السمك بالأنفوشى بالإسكندرية .

(٣) محلها ميدان سعد زغلول فى عام ١٩٣٨ .

(٤) عند نهاية شارع البورصة القديمة .

(٥) محلها المستشفى الأميرى .

(٦) موجود بعض آثارها لليوم فى شارع باب رشيد .

الحصون	مدافع	أهوان	الجملة
(١٥) طابية كوم الناظورة	١٠	١	١١
(١٦) « الدخلية	٣	—	٣
(١٧) « السلمية	٢٠	٢	٢٢
(١٨) « المكس	٤٠	٩	٤٩
(١٩) « العمرية	٩	١	١٠
(٢٠) « أم قبيبة	٥٦	٤	٦٠
(٢١) « الملاحة القديمة	١٤	١	١٥
(٢٢) « « الجديدة	٣٤	١	٣٥
(٢٣) « طالح أغا	١٣	—	١٣
(٢٤) « باب سدرة	٨	—	٨
(٢٥) « كوم الدكة	٩	٢	١١
الجملة	٦١٧	٦٩	٦٨٦

وقد أوضح سمو الأمير عمر طوسون مواقع تلك الحصون فى كتابه «صفحة من تاريخ مصر» فقال :

١ و ٢ – طابيتا الفنار والفنار الصغيرة . هما الآن عبارة عن الطابية المعروفة بطابية الفنار برأس التين .

٣ – طابية التراب . وهى الآن تشغل خط النار شمال قصر رأس التين . لهذا تسمى طابية قصر رأس التين .

٤ و ٥ – طابيتا الاسبتالية القديمة والاسبتالية الجديدة تقعان الآن تجاه ثكنات وميس ضباط الحرس الملكى فى المكان الذى كان قائماً عليه هذان المستشفيان .

٦ – طابية ألاطة – لا تزال فى موضعها كما كانت إلى الآن شرقى حمام الأنفوشى وبها مركز لخفر سواحل قسم الإسكندرية . وألاطة كلمة تركية معناها الجزيرة . وهذه الطابية الآن تعرف عند الناس باسم طابية القضاء

(١) تضاف إلى حصون الإسكندرية طابية العجمى . فقد كانت موجودة فى أيام محمد على

٧ – قلعة برج الظفر . ورأى سمو المغفور له الأمير عمر طوسون أنها طابية قايتباى للأسباب الآتية :

(١) يسميه كثير من المؤلفين باسم قايتباى .

(ب) عدم ذكر اسم حصن قايتباى فى قائمة حسن باشا الإسكندرانى مع أنه كان أهم حصون الإسكندرية كما يستدل من حالة تسليحه .

(ج) مجىء هذا الحصن فى الذكر بعد طابية ألاطة فى قائمة حسن باشا الإسكندرانى وكذلك فى الوضع الجغرافى بعد هذا الحصن شرقاً .

نعم كان يوجد بين موقع مسجد الإمام البوصيرى وسراى المحافظة القديمة على شاطىء البحر برج صغير كان معروفاً بين الناس باسم برج الزفر (برج الظفر) . وقد زال ومحيت آثاره منذ أن ردم ساحل البحر فى هذه الجهة وأقيم بناء رصيف الميناء الشرقية الجديد . فيجوز أن يكون برج الظفر هو هذا البرج الذى زال . وقلعة برج الظفر هى الطابية المعروفة بطابية قايتباى . ولا محيد عن أحد هذين الرأيين . وإهمال ذكر برج الظفر بهذا الاسم وحده فى قائمة حسن باشا الاسكندرانى يكون لأنه أدمجت تحت اسم قلعة برج الظفر أو لأنه لم تكن له أهمية حربية .

٨ – طابية ظهر منزل الفرنسيس . كانت واقعة كما يدل على ذلك اسمها على البحر خلف قنصلية فرنسا القديمة التى كانت مشيدة محل ميدان سعد زغلول الآن وقد دمرتها نيران الأسطول البريطانى سنة ١٨٨٢ عند إطلاق قنابله على المدينة .

٩ – طابية المفحمة . كانت قائمة على شاطىء البحر أيضاً شرقى الطابية السابقة عند نهاية شارع البورصة القديمة .

١٠ – طابية مسلة فرعون . كانت كما يدل على ذلك اسمها قرب مسلة فرعون بجوار محطة الرمل الحالية .

١١ و ١٢ – طابيتا قبور اليهود القديمة وقبور اليهود الجديدة . وكانت أولهما فى موضع المستشفى الأميرى الحالى . والثانية بين نهاية شارع يوسف عز الدين ورأس السلسلة .

١٣ — طابية برج السلسلة . كانت تشغل الرأس الداخل فى البحر الذى حولته البلدية إلى منتزه .

١٤ — طابية باب شرقى . كانت قائمة بالقرب من أحد أبواب سور المدينة وهو الباب المسمى بهذا الاسم والمسمى أيضاً بباب رشيد . وموقعها الآن فى شارع فؤاد الأول عند ملتقى شارع السلطان حسين كامل بشارع بلجيكا .

١٥ — طابية كوم الناضورة . مازالت باقية الآن مركز إشارات مصلحة الموانى والمنائر .

١٧ — طابية السلمية . وهذه لا بد أن موقعها كان بين طابيتى الدخلية والمكس .

١٨ — طابية المكس . وهى قائمة إلى الآن قرب باب العرب .

١٩ — طابية القمرية . كانت واقعة شرقى الطابية السابقة فى موضع إشارات مصلحة الموانى والمنائر .

٢٠ — طابية أم قبيبة . كانت شرقى طابية القمرية المذكور وبينها وبين طابية صالح أغا فى موضع شوادر الخشب الآن .

٢١ و ٢٢ — طابيتا الملاحة القديمة والملاحة الجديدة . هما على هذا الترتيب حصنا اليسرى الصغرى واليسرى الكبرى الحاليتان القائمتان بين طريق المكس وبحيرة مريوط خلف المحطة القديمة التى كانت لخط سكة حديد مريوط ثم تحولت الآن مدرسة للبنات . (مدرسة العلمات الورديان) والحصن الشرقى منهما الذى هو طابية الملاحة القديمة مبين بخريطة مصلحة المساحة باسم حصن الملاحة .

٢٣ — طابية صالح أغا . لاتزال باقية إلى الآن ومعروفة باسم طابية صالح . وهى التى تقوم باطلاق المدافع لتحية السفن الحربية القادمة من الإسكندرية .

٢٤ — طابية باب سدرة . كان موقعها قرب أحد أبواب سور العرب

المعروف بباب سدرة وموقع هذا الباب الآن شارع الخديو الأول تجاه شارع عمود السوارى .

٢٥ – طابية كوم الدكة الدماس . لاتزال باقية إلى الآن فى موقعها على الشارع المعروف بشارع نبى الله دانيال .

ولما ولى المغفور له إبراهيم باشا أمور البلاد اشتغل فى تكميل طوابى الاسكندرية واستحكاماتها على الوجه الذى أسست عليه فى عهد والده . وشحنها بالجنود والأسلحة والذخيرة ومر بالسواحل من الإسكندرية إلى رشيد قاصداً دمياط واستكشفها بنفسه . وأمر بإنشاء مائتين وخمسين شلوبة طوبجية فى الإسكندرية . كل واحدة تحمل مدفعين لحفظ البوغازات والملاحات وكان عازما على تخطيط طريق يبتدىء من الإسكندرية بناحية أبى قير ويستمر لرشيد ليسهل سير الجنود والمهمات عند الحاجة . لكن لم تمهله الأيام حتى توفى إلى رحمة الله .

حصون أبى قير

وقد عنى محمد على بتحصين المنطقة التى تحيط بخليج أبى قير المشهور ألم يشهد معركتيه البرية والبحرية وسمع بمعركة نلسون وما كان من نتائجها المعروفة التى قلبت آمال نابليون الكبير رأساً على عقب ؟

أقدم على تحصين طابية البرج التى تقع على رأس شبه جزيرة أبى قير وهى أقدم الطوابى الأربع التى ما زالت ترى بقاياها إلى اليوم . وشحنها بالمدافع . وشيد طابية السبع (كوساباشا) وتقع خلف البرج على مرتفع بينهما وبين المصيف الشرقى . كما أقام فى جنو بى تلك الطابية ، على قمة التل الرملى ، طابية الرمل .

حصون رشيد

وفى الأعوام الأولى لولاية محمد على باشا ، بعد مغادرة الحملة الإنجليزية أرض مصر . لم يغب على بال هذا العاهل أهمية موقع رشيد ، فأمر بتشييد عدة حصون لحماية بوغازها وشحنها بالمدافع الثقيلة .

وفيما يلى أهم تلك الحصون والأبراج .

طابية النوى	كان بها	تسعة مدافع
« العباسى	« «	« «
« الطواخية	« «	خمسة «
« المنزلاوى	« «	ثلاثة «
« محل الشركة	« «	مدفع واحد
« برج رشيد (قايتباى)	« «	١٤ مدفعا
« قلعة البوغاز	« «	١٨ «
« الطابية الشرقية	« «	١٠ مدافع
« الطابية الغربية	« «	١٠ «

ولما كانت المسافة بين رشيد والبرلس حافلة بالموانع الطبيعية كالمستنقعات والبرك ، فلم يشيد عليها حصون أو أبراج . وكان فى البرلس قلعتان (الشرقية والغربية) اندثرتا اليوم ولم يبق منها سوى أطلال بالطوب الأحمر . وتشاهد مدافعها ملقاة على الأرض وليست فى مواضعها الأصلية . وبجوار منار البرلس طابية تحتوى على خمسة مدافع لا يزال واحد منها على عربته فى موضعه الأصلى فوق قمة تل رملى . ذلك لأن الطابية تهدمت وطمرت جدرانها السفلية بالرمال .

وفى المسافة الماثلة بين فنار البرلس وبوغاز جمصه طابيتان الأولى تعرف بالعياش وإلى شرقيها طابية القرعة ثم إلى شرقى بوغاز جمصه المذكور طابية جمصه وإلى شرقيها بنحو ١٢٤٠٠ مترا برج باوتجنجى (برج نمرة ٣)

وإلى شرقية بنحو ٤٠٠٠ مترا برج رقم ٢ وإلى شرقيه أيضاً البرج رقم ١ . وقد حشدت كافة هذه الأبراج بالمدافع الثقيلة التى ما زالت ملقاة هناك إلى اليوم.

حصون دمياط

فإذا وصلنا إلى دمياط ألفينا طابيتين كبيرتين تحميان البوغاز : هما طابية غرب البوغاز وطابية شرقيه والمسافة بينهما حوالى ٦٠٠ مترا — وتعرف الأولى اليوم بطابية الشيخ يوسف . وقد تسلمها مجلس بلدى دمياط ووضع على برجها صهريج مياه لمصيف رأس البر . ومدافع هذه القلعة منطرحة على الرمال ..

أما الطابية الشرقية فلا تزال حافظة لشكلها الأصلى وبأغلب مبانيها ولا نشاهد فيها إلا مدافع أرمسترونج (عصر إسماعيل باشا) .

وإلى جنوبى هذه الطابية كانت توجد طابية عزبة البرج التى يظهر أنها كانت ثكنة عسكرية فى عهد محمد على .

وفى المسافة التى تصل ما بين دمياط وبورسعيد حصنان : الأول يعرف بطابية الديبة وتبعد عن شرقى طابية «شرق البوغاز» بنحو ٣٣ كليو مترا . وفى الواقع أن هذا الاسم يطلق على طابيتين : الديبة البحرية وهى المشرفة على البحر ، والديبة القبلية التى تبعد عن الأولى بمائتى متر وكانت تقع على البرزخ الفاصل لبحيرة المنزلة عن البحر .

وإلى شرقى الطابيتين الآنفتين تقع طابية الجميل الغربية التى أغارت المياه على مبانيها فغمرت معظم هيكلها المنقرض ، وتلوح اليوم شبيهة بجزيرة فى وسط البحر ! ومن الطريف أن بها طرقات وقاعات لا تزال عقود سقوفها باقية . وخاتمة تلك المجموعة القديمة من الحصون طابية الجميل الشرقية التى أصابها التهدم منذ زمن .

وبهذا تنتهى الخطة أو الخطوات التى اقتفاها محمد على الكبير لتأمين السواحل المصرية ، سواء باستدعاء الأخصائيين فى شئونها ، أو إقامة الحصون وترميمها ، أو تقوية المواقع الاستراتيجيه وإعدادها .

الفصل الثانى عشر

الجيش فى أيامه الأخيرة

لم يلبث عدد الجيش أن نقص عقب انتهاء الحروب السورية فى عام ١٨٤١ وصحيح أن الباشا عين أفضل قواده حكاما على المديريات والأقاليم بينما عكف الباقون على زراعة الأرض الواسعة التى تنازل لهم عنها مكافأة لهم على خدماتهم ، ولكن النشاط العسكرى مافتىء أن تجدد بعد فترة قصيرة فقد استأنف إبرهيم باشا يعاونه سليمان باشا الفرنساوى العناية بتدريب الجند وإقرار النظام فى صفوف الجيش ، كما عهد الباشا منذ ١٨٤١ إلى المهندس الفرنسى « غاليس بك » Galice بإنشاء تحصينات جديدة فى الإسكندرية ورشيد وجميع المواقع المعرضة لخطر الغزو على الشواطىء المصرية وقد ذكر القنصل الإنجليزى شارلس مرى . Marray فى يونيه ١٨٤٥ أن الباشا كان يلح على غاليس بك فى إتمام التحصينات على وجه السرعة ثم قدم غاليس بك مأمور الاستحكامات وتنظيم الإسكندرية ، تقريرين عن أعمال التحصينات وافق الباشا عليها ، أما عدد الجيش ، فقد ذكر « مرى » فى إحدى رسائله إلى حكومته فى مايو ١٨٤٥ ، أن الباشا يحتفظ بجيش أكبر مما تسمح به الفرمانات إذ كان الجيش فى ذلك العام يتألف من ثمانية عشر آلايا من المشاة ، منها سبعة فى السودان ، كما كان يتألف من تسعة آلايات من « السوارى » وعشرين ألفا من رجال المدفعية ، أى أنه كان يبلغ ثمانين ألفا لم يكن يدرب منهم غير عشرين ألفا ، احتراما لنصوص فرمانات الوراثة التى صدرت فى عام ١٨٤١ أما الباقون فقد كلفوا إنجاز المنشآت العامة كالجسور والقناطر والرياحات والترع . وفى مارس

١٨٤٦ كتب « مرى » أن الباشا يريد تجنيد خمسين ألفا ، لاستخدامهم فى تحصينات القناطر الخيرية وفى الأعمال العامة الأخرى ، دون أن يكونوا من النظاميين ، لكيلا تتدخل الدول ، ومهما يكن من الأمر فإن عدد الجيش لم يهبط قط فيما بقى من عهد محمد على إلى الحد الذى نصت عليه الفرمانات .

ولعل دواعى هذا النشاط العسكرى ، تصميم الباشا ثم ولده إبرهيم ، على الاحتفاظ بذلك الوضع السياسى الذى حصلت عليه البلاد فى تسوية (١٤٨٠ — ١٨٤١) وقد وجد إبرهيم أن أفضل الطرق لصون هذا الوضع ، أن تستمر العناية بالاستحكامات والتحصينات ، التى أنشئت على شواطىء البلاد الشمالية فى دمياط . والإسكندرية ورشيد ، ولهذا قام فى أواخر أيامه بزيارتها كما استقدم إليها الجنود من القناطر . وفى يوليو ١٨٤٨ كان قد تم وضع المدافع فى الموانى الساحلية ورأى إبرهيم كذلك إعادة تنظيم الجيش فأمر بزيادة عدد المجندين إلى حد استرعى نظر انجلتره ودعا إلى الاستفسار عن السبب فى تجاوز العدد الذى نصت عليه الفرمانات . والواقع أن حالة إبرهيم الصحية ازدادت سوءا منذ يوليو ١٨٤٨ ، حتى لقد ذكر « توسيجة » Tossigga قنصل اليونان أنها كانت تتحسن يوما وتثقل يوما آخر .

ولهذا بات إبراهيم يخشى أن يكون اشتغال الدول الكبرى بمعالجة الثورات الأوربية التى نشبت فى عام ١٨٤٨ ، فرصة ينتهزها الباب العالى لإلغاء ما حصل عليه محمد على من امتيازات ، بمقتضى فرمانات ١٨٤١ . وقد أثبتت الحوادث أن إبرهيم كان على حق فيما ذهب إليه ، إذ حاولت تركيا الانتقاص من تلك الامتيازات ، بعد أن قضى إبراهيم نحبه فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ . غير أنه مهما يكن من الأمر ، فلا ريب فى أن صفحة من أروع صفحات الجيش المصرى قد انطوت بوفاة قائده العظيم .

انتهت حروب الامبراطورية فإلى أين يذهب الجيش العظيم ؟ هل يصبح الجيش بلا عمل ؟ وماذا يصنع به محمد على ؟

كان لا يحتمل الباشا الكبير مشاهدة قواته الفاتحة تذوب أمامه . . .

فهل يشتت شملها ويعيد جنودها ثانية إلى قراهم ؟

رأى محمد على أن يحول ذلك الجيش اللجب . . . الذى أضناه التعب فى صحراء سينا وسهول الشام وبطاح الأناضول . . .إلى أياد منتجة عاملة فعول على الانتفاع به فى نشر دعاية الزراعة والإدارة . كما يفعل اليوم الحكام العقلاء فى الدول الحديثة . فحول أسنة رماح جنوده البواسل إلى خطوط المحاريث وجداول المياه . . وأصدر أوامره للاستغناء عن الآلاف من الموظفين ليحل كبار الضباط محلهم فى مناصبهم فتولى مناصب إدارة الأقاليم والمديريات القادة العظام . وتقلد صغار الضباط الوظائف الصغرى . واحتفظ بزهرة رجال الجيش للخدمة فى حاميات القاهرة والاسكندرية(١).

ولا شك فى أن هذا العمل الجديد لم يعجب جمهرة الجنود ، الذين كلفوا للعبء به — مع أعباء الجندى الفلاح . لأن هذا العمل المضنى قد حرمهم لذة الراحة التى كانوا يحلمون بها بعد انتصاراتهم والنظام الشديد الذى مارسوه خلال أعوام الحروب المتواصلة . وها هم الآن يزاولون أعمال الزراعة تحت تأثير قواعد النظام العسكرى والضبط والربط .

ولكن بمرور الزمن لم تثمر هذه الخدمة نتاجا طيبا . فاستغنى عنها الباشا . وبدأ فى تخفيض قوات الجيش تدريجا .

وكانت مشروعات محمد على الهجومية قد انتهت بالرغم عن آماله . فتحولت سياسته الهجومية إلى سياسة دفاعية . وكان قد استدعى الكولونيل الفرنسى جاليس ومنحه رتبة بك وكلفه بدراسة وسائل الدفاع والتحصين عن السواحل المصرية . وبالأخص الدفاع عن ميناء الإسكندرية فأفلح جاليس فى عمله . وظلت سياسة الدفاع متبعة إلى أيام إسماعيل .

وفى عصر محمد على بلغت الحصون والاستحكامات المصرية ما لم تبلغه فى أى عصر مضى .

° ° °

(١) Paton - A History of the Egyptian Revolution. vol. II. Page 222

لقد شاهدنا كيف أحيى محمد على مصر من جديد . وأنهضها من نومها العميق . ثم وضعها فى المستوى اللائق بها بين الدول الأوربية فأنشأ لها من العدم جيشاً وطنياً ضخما على أحدث نظام أثبتت جنوده قوة مصر . واستعان به على قضاء مآربه . فكان عنوان سيادته وآلة سلطانه . وحقق به أحلامه الواسعة .

لقد كان محمد على يعرف مكانة الجيش فى الدولة القوية . وكان يعلم أيضاً أن سعادة الوطن فى سعادة الجيش . فلم يبخل عليه بالأموال الطائلة . وكان يعلم أنه بالحرب سيبلغ المركز الذى خلق له ولذلك كان دائما مطمئنا لأنه كان قويا .

وقد رأينا أيضاً أنه فى أقل من ربع قرن أحل هذا العاهل الكبير الجيوش المنظمة محل القوات الأجنبية غير المنظمة . بعد أن أجاد تعليمها وتدريبها . فهز بها عرش السلطان هزاً عنيفاً . وجعل الأمم المعاصرة القوية تخشى أمره .

ولأجل الجيش الناشىء أنشأ محمد على المصانع ومعامل الأسلحة والذخيرة . وشيد الثكنات وأقام المخازن ونظم المشافى . ولأنه كان قويا لم تقف أمام عزيمته ونشاطه عقبة تعرقل خطته ، فرأيناه ينتصر على جميع المشاغبات الداخلية بالرغم من التعصب الدينى ومقاومة أهل زمانه لكل شىء جديد . وكان يتجاهل هؤلاء أحياناً ويتفق مضطراً مع الزعماء ثم يقاومهم مرة أخرى . فقد كان يتزعم شعبا متأخراً عنه بأجيال ويريد له التطور والتقدم السريعين .

ولا شك أن العمل الذى قام به محمد على كان مجيداً . وقل أن يدانيه فيه أحد . فقد استطاع تدوين اسمه بين عظماء التاريخ . وأعاد عظمة مصر القديمة وأحيى مجدها التالد ورفع مكانتها بين الأمم

لكن أنى لإنسان لا يخطئ . فإن القوات الدفاعية فى أمة من الأمم لا تقوم بين عشية وضحاها فهى عمل جبار يتطلب أناة وإتقانا ومالا . . وأكثر من ذلك روحا ورأسا . وبدون تلك العناصر الحيوية . لا يستطيع شعب أن يقول « أنا شعب قوى » .



الفريق أحمد المنكلى باشا



أدرك محمد على كل هذا . . وكان يعلم تمام العلم أن البناء الذى سيقدم على تشييده يحتاج إلى أساس متين ومواد قوية تتحمل كل الأثقال التى يريدها

كان لجيش محمد على رأس القائد العبقرى . لم تنقصه القريحة العسكرية . فوجد فى إبراهيم مثالا للقائد الحازم الذى لا يكاد يخرج من نصر حتى يدرك ظفرا جديدا . وبفضل قيادة إبراهيم للجيش ومن عاونه من الضباط الأوربيين استطاع بناء الآلة الحربية . وجعلها فى مستوى كامل من التدريب والتعليم كما برهن الجنود وهم الأغلبية الساحقة فى الجيش على أنهم لا يختلفون عن أى جند فى العالم . ولا سيما إذا عرفت قيادتهم كيف تجيد استخدامهم(١) .

أما ضباط الجيش فقد أسرع محمد على فى تكوينهم رغبة منه فى تحقيق برامجه العسكرية قبل أوانها . فقد عرفنا فيما تقدم أن المدارس الحربية الأولى أسست فى أسوان عام ١٨٢٠ وأخرجت أول دفعة من ضباطها الجدد بعد ثلاثة سنوات . . . ثم كانت حروب الاستقلال الأولى عام ١٨٣١ . فكانت الثمانية أعوام غير كافية لتعليم ضباط حديثى الخدمة فنون القيادة العملية فى ميدان القتال . فضلا عن أن بعض ضباط وحدات الجيش كانوا قد اكتسبوا خبره فنية فى ميادين بلاد الموره والحجاز والسودان . ولكن كان هذا غير كاف أيضاً .

ولا يغيب عن البال أن الضباط الكبار كانوا غير مصريين . وأثر هذا لا يخفى على أحد . ولا سيما فى أعمال الفتح والتضحية فقد كان أهم ماعنوا به هؤلاء جمع المال عن طريق مرتباتهم وما كانوا يقطعونه من الأراضى الزراعية . وكانوا أيضاً يشعرون أنهم لا يقلون عن محمد على أو ابنه أو أقاربه كفاءة ومقدرة .

---

(١) راجع كتابات المؤلفين عن الجندى المصرى فى الكتب الآتية :

ا — كادلفين وبارو : حرب محمد على ضد الباب العالى . ص ٥٦ و ١٨٩ و ٣٧٣ .

ب — رسائل البارون بوالكونت ص ٢٤٠ .

حـ — كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ج ٢ ص ٢٢٦ (الأصل الفرنسى) .

د — رحلة المريشال مارمون — ج ٣ ص ٢٨٥ و ٢٩٣ و ٢٩٣ و ٢٩٥ .

هـ — عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ج ٣ ص ٣٨٠ — ٣٨٧ .

لقد أسس محمد على صرحه العظيم على أرض متحركة (Sur un terrain mouvant) لأن فئة الضباط وهى الفئة الهامة فى الجيش لم تكن ولدت بعد أو تعلمت . فلم تظهر هذه الطبقة إلا فى جيش إسماعيل باشا . بعد أن تعلمت وتدربت وتثقفت وعرفت أهمية وجودها .

وفى جميع الجيوش كما هو الحال فى المجتمعات والأمم . نرى أفراد الطبقة المتوسطة إذا أتقن تعليمهم وعنى بتدريبهم كانوا عنصر القوة فى الأمة . فهم الذين يمدونها بالدم الجديد والوطنية العاملة والرأس المصقولة . فهذهالطبقة لم تكن لها أثر فى جيش محمد على لأنها لم تكن موجودة فى عصره . ومن هنا لم تتوفر النتائج التى تطلع إليها محمد على وأرادها لشعبه الجديد .

بيد أننا سنقدر فى كل عصر فضل محمد على فى تكوين الجيش المصرى الحديث الذى أحرز به بالرغم عن عدة أشياء ظفراً يتلوه آخر . . كان جيشا لم تعرف صفوفه الهزيمة مرة واحدة . وكفى محمد على ذكرى مجيدة أنه استطاع فى اثنى عشر عاما فقط أن يضع تحت إمرة ابنه جيشاً مستقلا مؤلفا من مائتى ألف جندى فى دولة جديدة لم يتجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين بحال من الاحوال .

والواقع أن عمله كان شبيهاً بمعجزة من المعجزات .

---

(١) كتاب الجيش المصرى فى عهد خلفاء محمد على للمؤلف — تحت الطبع .

ملاحق الكتاب

١ – إحصائيات

نورد فيما يلى أربع إحصائيات تبين مدى قوات الجيش فى أبرز سنواته استقيت من مراجع شتى . تضمنت أعداده ورجاله ووحداته .

الجيش المصرى فى عام ١٨٢٨ م

الوحدات	القواد	مراكز الوحدات	القوة عند التكوين	القوة الحالية
الآلاى الأول المشاه	رستم بك	٣ أورط فى سنار وأورطتان فى كردفان	٤٠٠٠	٢٥٠٠
« الثانى «	محمد بك	القاهرة ومكث فى حرب الحجاز ثلاث سنوات قبل رجوعه إلى القاهرة	٤٠٠٠	٣٢٠٠
« الثالث «				
« الرابع «				
« الخامس «		فى الموره تحت قيادة إبراهيم باشا		
« السادس «	سليمان بك	وخسر هذا الجيش نحو نصفه فى	٢٨٠٠٠	١٦٠٠٠
« السابع «	حسن بك	هذه الحرب ماعدا الآلاى العاشر		
« الثامن «	حسين بك			
« العاشر «	أحمد بك			
« التاسع «	محمود بك	الحجاز تحت قيادة أحمد باشايكن	٨٠٠٠	٧٠٠٠
« الثانى عشر «	عابدين بك			
« الحادى عشر «	سليم بك	جهاد أباد	٤٠٠٠	١٠٠٠
أورطتان غير موقومتين		اسكندرية	١٦٠٠	١٤٠٠
ثلاث أورط مدفعية	أدهم بك	جهادأباد ولاتزال فى حالة التكوين	٢٤٠٠	١٨٠٠
أربعة وعشرون بلوكا للمهمات		« « « « « « « «	٧٤٤	٣٠٠
بلوكان للجندرمة	مصطفى أفندى	جهاد أباد	٢٠٠	١٥٠
مدفعيون أتراك		موزعون فى حصون مصر		٨٠٠
اثنا عشر بلوكا بلطجية		بلوك مع كل آلاى مشاه	١٢٠٠	٧٠٠

الوحدات	القواد	المراكز والوحدات	القوة عند التكوين	القوة الحالية
بلوك للمواد الملتهبة		اسكندرية	١٠	٨٠
بلوك للكبارى والجسور		«	١٠٠	٨٠
أساس الضباط		جهاد أباد	٨٠٠	٥٠٠
مدارس حربية				١٠٠٠
مشاه ألبانيون		٢٠٠٠ بموره والباقى بمصروجزيرة كريت		٦٠٠٠
فرسان أتراك		موزعون فى مصر ومــوره وشبه جزيرة العرب		٦٠٠٠
باشبوزق غير نظامين				
			٥٥١٤٤	٥١٥١٠

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٣

أسماء البلاد والأماكن التى بها قوات الجيش	الفرسان النظاميون	المشاه النظاميون	المدفعيون	فرق الهندسة	فرسان باشبوزق	عرب	مغاربه	فرنسيون	مدارس حربية	أجناس مختلفة	أركان حرب البحريه وجنودها	عساكر ممرنة على البحرية
مصر	٢٦٧٠	١٧٤٣٧	٤١٠٢	٢٩٨٩	٧٠٠			١٥				
مكة والحجاز	—	٦٨٧٠	—	١٠١	٧٠٠	٦٦٨	١٧٧					
السودان		٥١٥٧			٤٨٤	٦٠٤						
كندية		٥٠٠٤										
المعسكر	٥٢٩٢	٣٥٥٤٣	٢٢٥٥	٨٥٢	١٥٥١	٤٠٩٨	٣٤					
الأساطيل بالإسكندريه											١٦٧٨٥	
الترسانة بالإسكندرية												٨٣٥٨
مدرسة أركان الحرب بقصر العينى									١٥٢٦			
المدرسة الحربية البحرية بالإسكندرية							١		١٢٥٠			
حاسبون فى مصالح الجيش										٣٠٠		
كتبة ومترجمون بالترسانه										٤١٢		
الجملة	٧٩٦٢	٧٠٠١١	٦٣٥٧	٣٩٤٢	٣٤٣٥	٥٣٧٠	٢١٢	١٥	٢٧٧٦	٧١٢	١٦٧٨٥	٨٣٥٨

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٧م

المشاة

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاى ضباط وصف ضباط وعساكر
حرس			
١ «	عينتاب	سورية	٣٠٤٨
٢ «	مرعش	«	٢٦٤٥
٣	حلب	«	٢٤٣٥
١	سنار	السودان	٤٥٤٧
٢	عينتاب	سورية	٢٢٥١
٣	اليمن	جزيرة العرب	١٥٢٦
٤	مرعش	سورية	٢٥٩٣
٥	أذنه	«	٢٦٢٩
٦	كلس	«	٢٣٦٢
٧	الحجاز	جزيره العرب	٢١٩٢
٨	سنار	السودان	٣٣٩٦
٩	حلب	سوريه	٢٣٠٤ ا
١٠	«	«	٢٠٥٤
١١	أورفه	«	٢٣٣٨
١٢	عينتاب	«	٢٣٢٦
١٣	الحجاز	جزيرة العرب	١٢٢٥
١٤	حلب	سورية	١٩٨٨
١٥	الدرعية	جزيرة العرب	٢٥٥٥
١٦	كندية	« كريد	٢١٤٩
١٧	أورفه	سورية	٢٣٦٩
١٨	عكا	«	٢٠٤٩

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الآلاي ضباط وصف ضباط وعساكر
١٩	الحجاز	جزيرة العرب	٢٣٤٩
٢٠	اليمن	«	٢٦٧٧
٢١	الحجاز	«	٢٣٦٣
٢٢	أورفه	سوريه	٢٢١٢
٢٣	ينبع	جزيرة العرب	٢٣٤٢
٢٤	أنطاكيه	سوريه	٣١٣١
٢٥	القدس	«	١٧٥٥
٢٦	القاهرة	مصر	٣٣١٨
٢٧	الجديده	«	٢١٢٩
٢٨	«	«	٢٤٤٦
٢٩	أذنه	سوريه	٣١٧٢
٣٠	حماة	«	٢٩٢٥
٣١	حلب	«	٢٤٠١
٣٢	القاهرة	مصر	٣٣١٨
٣٣	اسكندريه	«	٢٦٠٤
٣٤	كليس	سوريه	٢٥٦٤
٣٥	القاهرة	مصر	٣٣١٢
		الجملة	٩٦٩٩٩

الفرسان

١ حرس	أنطاكيه	سورية	٧٩٦
٢ «	بيسان	«	٨٤٤
١	أورفه	«	٨٢٥
٢	زنبه	«	٨٣٠
٣	القاهرة	مصر	٨٣٢
٤	أذنه	سورية	٦٧٨

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة لالآى ضباط وصف ضباط وعساكر
٥	القاهرة	مصر	٨٣٢
٦	دمشق	سورية	٧٧٠
٧	طرسوس	»	٧٤٢
٨	دمشق	»	٧١٢
٩	اسكندرية	مصر	٨١٦
١٠	عكا	سورية	٧٦٨
١١	كلس	»	٧٥٦
١٢	طرسوس	»	٦٦٢
١٣	أورفه	»	٨٠٦
		الجملة	١١٦٨٤

المدفعية

رقم الآلاى	المركز	القطر	قوة الالآى ضباط وصف ضباط وعساكر
١ حرس	حماه	سورية	١٣٧٢
٢	اسكندرية	مصر	٢٣٤٩
٣	حلب	سورية	١٩٤٩
١	حمص	»	٩٨٢
٢	دمشق	»	١٠٠٧
٣	القاهرة	مصر	٣٢٢٥
أورطة	الحجاز	جزيرة العرب	٣٧٩
٤	بلوكات	سورية	٣٣٧
		الجملة	١١٦٠٠

المهندسون

رقم الالآى	المركز	القطر	قوة الالآى ضباط وصف ضباط وعساكر
١	عكا	سورية	٨١٢
أورطه	أدلب	«	٧٥٨
«	اسكندرية	مصر	٨٠٨
«	القاهرة	«	٥٦٤
		الجملة	٢٩٤٢

مجموع قوة الجيش النظامى المصرى سنة ١٨٣٧ م

عدد	
٩٦٩٩٩	المشاه
١١٦٨٤	الفرسان
١١٦٠٠	المدفعية
٢٩٤٢	المهندسون
١٢٣٢٢٥	المجموع

بيان توزيع الجيش المصرى على الأقطار المحمية

عدد		عدد	
٢٦٥٦٨	مصر	٧٩٤٣	السودان
٦٧٩٥٧	سورية	٣١٤٩	جزيرة كريد
١٧٦٠٨	جزيرة العرب	١٢٣٢٢٥	

الجيش المصرى فى عام ١٨٣٩ م

الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددها
الآلاى الأول	من مدفعية الحرس	حماه	١٣٧٢
« الثانى	من مدفعية المشاه	الأسكندرية	٢٣٤٩
« الثالث	« «	حلب	١٩٤٩
« الأول	« الراكبة	حمص	٩٨٢
« الثانى	« «	دمشق	١٠٠٧
أربع كتائب	من المدفعية	عكاء	٣٣٧
الأورطة الأولى	«	الحجاز	٣٧٩
الآلاى الأول	من مشاه الحرس	عينتاب	٣٠٤٨
« الثانى	« «	مرعش	٢٦٤٥
« الثالث	« «	حلب	٢٤٣٥
« الأول	المشاه (الأورطة الخامسة)	السودان	٤٥٤٧
« الثانى	من المشاه	عينتاب	٢٢٥١
« الثالث	«	اليمن	١٥٢٦
« الرابع	«	مرعش	٢٥٩٣
« الخامس	«	أذنه	٢٦٢٩
« السادس	«	كلس	٢٣٦٢
« السابع	«	الحجاز	٢١٩٢
« الثامن	«	السودان	٣٣٩٦
« التاسع	«	حلب	٢٣٠٤
« العاشر	«	«	٢٠٥٤
« الحادى عشر	«	أورفه	٢٣٣٨
« الثانى عشر	«	عينتاب	٢٣٢٦
« الثالث عشر	«	الحجاز	١٢٢٥
« الرابع عشر	«	حلب	١٩٨٨

تابع الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددها
الآلاى الخامس عشر	من المشاة	الدرعية	٢٥٥٥
« السادس عشر	»	كندية	٣١٤٩
« السابع عشر	»	أورفه	٢٣٦٩
« الثامن عشر	»	عكاء	٢٠٤٩
« التاسع عشر	»	الحجاز	٢٣٤٩
الآلاى العشرون	»	اليمن	٢٦٧٧
« الحادى والعشرون	»	الحجاز	٢٣٦٣
« الثانى «	»	أورفه	٢٢١٢
« الثالث «	»	ينبع	٢٣٤٢
« الرابع «	»	أنطاكيه	٣١٣١
« الخامس «	»	القدس	١٧٥٥
« السادس «	»	القاهرة	٣٣١٨
« السابع «	»	الجديده	٢١٢٩
« الثامن «	»	»	٢٤٤٦
« التاسع «	»	أذنه	٣١٧٢
« الثلاثون	»	حماه	٢٩٢٥
« الحادى والثلاثون	»	حلب	٢٤٠١
« الثانى «	»	القاهرة	٣٣١٨
« الثالث «	»	الإسكندرية	٢٦٠٤
« الرابع «	»	كلس	٢٥٦٤
« الخامس «	»	القاهرة	٣٣١٨
« الأول	من فرسان الحرس	اللاذقية	٧٩٦
« الثانى	فرسان الحرس المدرعون	بيسان	٨٤٤
« الأول	من الفرسان	أورفه	٨٢٥
« الثانى	» »	زمبه	٨٣٠
« الثالث	من الفرسان فى الطريق إلى	الإسكندرية	٨٤٧

تابع الجيوش النظامية

وحداتها	نوعها	مراكزها	عددها
الالآى الرابع	من الفرسان	أذنه	٦٧٨
« الخامس	من الفرسان فى الطريق إلى	الإسكندرونة	٨٤٧
« السادس	من الفرسان	دمشق	٧٧٠
« السابع	» »	طرسوس	٧٤٢
« الثامن	» »	دمشق	٧١٢
« التاسع	من الفرسان فى الطريق إلى	الإسكندرونة	٨١٦
« العاشر	» »	عكاء	٧٦٨
« الحادى عشر	» »	كلس	٧٥٦
« الثانى عشر	» »	طرسوس	٦٦٢
« الثالث عشر	» »	أورفه	٨٠٦
أورطة	الجنود الأقدمين	القاهرة	٣٩٨٠
الآلاى الأول	من حملة البلط	عكاء	٨١٢
الأورطة الأولى	من الجنود الأقدمين	الإسكندرونة	٧٩١
أورطتان	» »	طرابلس	١٦٤١
أورطة	» »	دنقله	٨٥٥
»	من المهندسين	أدلب	٧٥٨
»	من حملة البلط	الإسكندرية	٨٠٨
كتيبة	نسافون للألغام	القاهرة	٩٤
أساس الضباط		»	٢٨٥
١٦ بلوكا	من الجنود الأقدمين	موزعين فى أنحاء مصر	١٦٧١
صانعو المفرقعات		مصر القديمة	١٨٥
آلاى قرابينة	ذوو القرابينة	فى معية رئيس القوات	١١٥٢
كتيبة قرابينة	» »	الحجاز	١٠٦
بلوكان	من الجنود القدماء	»	٢٠٠
		المجموع	١٣٠٣٠٠

٢ ـ أسلحة ووحدات الجيش

آلاى المشاة الأول (١ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن حملة هكس باشا وأبيد عن آخره فى صحارى كردفان مع أفراد الحملة فى نفس العام .

آلاى المشاة الثانى (٢ جى آلاى بيادة)

هيئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أنشىء من جديد فى أواخر السنة المذكورة وأنفذ إلى السودان ضمن حملة (هكس) باشا وانقضى عن آخره فى صحراوات كردفان مع بقية أفراد الحملة فى نهاية تلك السنة .

آلاى المشاة الثالث (٣ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ عقب الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه من جديد فى أواخر السنة الآنفة وأرسل إلى السودان ضمن قوات (هكس) باشا وأبيد فى فلوات كردفان

آلاى المشاة الرابع (٤ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية . ثم أعيد إنشاؤه فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان ضمن جيش (هكس) باشا وأبيد فى صحراوات كردفان

آلاى المشاة الخامس (٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ . وفى سنة ١٨٧١ ، عندما أدخل

الخديو إسماعيل تشكيل الفرق فى الجيش ، فاتخذ هذا الآلاى رقم (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد التخفيض الذى أصاب الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء حالة القطر المالية ، رقم فى سنة ١٨٨٠ بالنمرة الأصلية . ثم فى الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز رقم مرة أخرى (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) وألغى بعد الثورة فى سنة ١٨٨٢ . وحدث أن أعيد إنشاؤه من جديد تحت رقمه الأصلى فى أخريات السنة المذكورة وأرسل إلى السودان بين وحدات حملة (هكس) باشا وظل فى الخرطوم كحامية لها . وبعد حصارها وسقوطها فى سنة ١٨٨٥ أبيد هذا الآلاى وكان أطول آلايات الجيش عمرا .

آلاى المشاة السادس (٦ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٣ واشترك فى حرب سورية سنة ١٨٣١ ولم يعد منها لخيانة قائده الذى سلمه لجيش الحلفاء بعد وقعة بيروت فى سنة ١٨٤٠ وقد فعل هذا خوفا من إبراهيم لغلطة كان قد اقترفها فى غضون القتال .

وعقب عودة الجيش من هذه الحرب ، فى سنة ١٨٤١ ، أعيد إنشاء هذه الآلاى من جديد .

وفى سنة ١٨٧١ ، عندما نسق نظام الجيش على وتيرة فرق منفردة ، حمل هذا الآلاى رقم (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وبعد تخفيض الجيش فى سنة ١٨٧٩ ، لسوء مالية مصر ، رقم بنمرته الأصلية . وفى الثورة العرابية ، عندما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز ، نمر مرة أخرى (٢ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى بعد الثورة الآنفة فى سنة ١٨٨٢ .

آلاى المشاة السابع (٧ جى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى ١٨٢٤ . وفى عام ١٨٧١ ، حينما استحدث نظام الفرق فى الجيش ، أخذ هذا الآلاى رقم (٣ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما أصاب الجيش التخفيض لسوء مالية مصر فى ذياك العهد .

وعندما قبض العرابيون على أزمة الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى بنمرته الأصلية . ثم نمر مرة أخرى لدى زيادة الجيش فى تلك السنة لمحاربة الإنجليز بنمرة (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المشاة الثامن (٨ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٤ . وفى سنة ١٨٧١ عندما استحدث نظام الفرق فى الجيش رقم الآلاى الآنف (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك العهد . وبعد ما قبض العرابيون على زمام الحكم زادوا الجيش فى أوائل سنة ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى برقمه الأصلى .

وعندما زيد الجيش فى تلك السنة الأخيرة لمحاربة الإنجليز نمر مرة أخرى (٤ جى بيادة ٢ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢

آلاى المشاة التاسع (٩ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى عام ١٨٢٤ . وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب سورية . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدا للدولة العلية فى حرب روسيا المعروفة بحرب القرم من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب ، ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٧٠ .

وعند ما شكل الخديو إسماعيل الجيش على فرق منفردة فى سنة ١٨٧١ وزاده فى نفس السنة ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره (١ جى بيادة ٢ جى فرقة) . ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذياك العهد . ثم أعيد إنشاؤه مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ م وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمواجهة الإنجليز ونمر مرة أخرى : (١ جى بيادة ٣ جى فرقة)

ثم ألغى مع باقى وحدات الجيش بعد الثورة المذكورة فى سنة ١٨٨٢ م .

آلاى المشاة العاشر (١٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ م . ثم توجه لحرب سورية سنة ١٨٣١ م ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد وبعد عودة الجيش من هذه الحرب فى سنة ١٨٤١ م أعيد إنشاء الآلاى المذكور لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ وبعد انتهاء الحرب المذكورة ألغى فى سنة ١٨٥٦ أم . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ م وألغى فى سنة ١٨٧٠ .

وعندما هيأ الخديو إسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره (٢ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عند ما خفض الجيش لسوء المالية المصرية فى ذلك العهد وأعيد إنشاؤه للمرة الخامسة فى سنة ١٨٨٢ م حينما زاد العرابيون الجيش لمحاربة الإنجليز ونمره نمرة أخرى : (١ جى بيادة ٣ جى فرقة) . ثم ألغى مع باقى الجيش بعد الثورة العرابية فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلاى الحادى عشر المشاة (١١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ م . ألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أعيد إنشاؤه من جديد لتكوين الجيش الذى أرسله عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب روسيا من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ م وحدث أن ألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . وفى سنة ١٨٦٦ م أنشىء مرة ثالثة ثم ألغى فى سنة ١٨٧٠ م .

وعندما نظم الخديو إسماعيل الجيش فى فرق منفردة ، فى سنة ١٨٧١ م ، وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من

جديد ونمره : (٣ جى بيادة ٣ جى جى فرقة) ثم ألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض فيها الجيش لسوء مالية مصر . ثم أنشىء مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمواجهة الإنجليز ونمر مرة أخرى : (٣ جى بيادة ٣ جى فرقة) ثم ألغى عقب الثورة المذكورة .

الآلاى الثانى عشر المشاة (١٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول لمساعدة الدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ م وألغى فى سنة سنة ١٨٧٠ م . وعندما استحدث الخديو إسماعيل فى الجيش الفرق المنفردة فى سنة ١٨٧١ م وزاده فى سنة ١٨٧٤ م فرقة واحدة هى ٣ جى فرقة أنشأ هذا الآلاى من جديد ونمره : (٤ جى بيادة ٣ جى فرقة) . وألغى فى سنة ١٨٧٩ م عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذياك الوقت . ثم أنشئ مرة خامسة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العرابية ونمر مرة أخرى : (٤ جى بادة ٣ جى فرقة) . وألغى بعد الثورة

الآلاى الثالث عشر المشاة (١٣ جى آلاى بيادة)

ولد فى سنة ١٨٢٨ وألغى فى سنة ١٨٤٢ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب . وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب تم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ . ثم أنشىء للمرة الرابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة

العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الإنجليز ونمر : (١ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع عشر المشاة (١٤ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ثم أنشىء من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس الأول لمعاونة الدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشىء مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمحاربة الإنكليزية ونمر : (٢ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة .

الآلاى الخامس عشر المشاة (١٥ جى آلاى بيادة)

أنشىء فى سنة ١٨٣١ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشىء مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية حينما زيد الجيش لمحاربة الإنكليز ونمر : (٣ جى بيادة ٤ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى السادس عشر المشاة (١٦ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية فى عهد محمد على باشا وعودته من جزيرة كريت التى كان فيها هذا الآلاى . ثم أنشىء من جديد لتكوين الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة

١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ بعد انتهاء هذه الحرب ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٠ م . ثم أنشىء مرة رابعة فى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الإنكليز ونمر : (٤ جى بيادة ٤ جى فرقة) . وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م.

الآلاى السابع عشر المشاة (١٧ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشىء من جديد لتأليف الجيش المرسل من قبل عباس باشا الأول مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥ م . وألغى فى سنة ١٨٥٦ عقب انتهاء هذه الحرب ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ م وألغى فى سنة ١٨٧٠ . ثم أنشىء مرة رابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمجابهة الإنكليز ونمر: (١ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى

الآلاى الثامن عشر المشاة (١٨ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ م وأرسل مع الجيش إلى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها . ثم أنشىء من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٥م وألغى فى سنة ١٨٥٦م عقب انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٦٨ . ثم أنشىء للمرة الرابعة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمجابهة الإنكليز ونمر: (٢ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلاى التاسع عشر المشاة (١٩ جى آلاى بيادة)

أنشىء فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا

بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .
ثم أنشىء من جديد فى سنة ١٨٥٤ لتكوين الجيش المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٠ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد انتهاء هذه الحرب . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الإنكليز ونمر: (٣ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة .

الآلاى العشرون المشاة (٢٠ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .
ثم أنشئ من جديد فى سنة ١٨٥٤ م لتكوين الجيش المصرى المرسل من قبل سعيد باشا مساعدة للدولة العلية فى حرب الروس من سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٥ م وألغى فى سنة ١٨٥٦ م بعد تصرم هذه الحرب . ثم أنشىء للمرة الثالثة فى سنة ١٨٨٢ م فى وقت الثورة العرابية عندما زيد الجيش لمحاربة الإنجليز ونمر : (٤ جى بيادة ٥ جى فرقة) وألغى بعد هذه الثورة

الآلاى الحادى والعشرون المشاة (٢١ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤١ فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه .

الآلاى الثانى والعشرون المشاة (٢٢ جى آلاى بيادة)

أنشئ فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثالث والعشرون المشاة (٢٣ جى آلاى بيادة)

أنشىء فى سنة ١٨٣٤ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على

باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الرابع والعشرون المشاة (٢٤ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد إرتداد الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الخامس والعشرون المشاة (٢٥ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ وأرسل مع الجيش فى حرب سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم بعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى السادس والعشرون المشاة (٢٦ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى السابع والعشرون المشاة (٢٧ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد أوبة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثامن والعشرون المشاة (٢٨ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧م وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد عودة الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى التاسع والعشرون المشاة (٢٩ جى آلاى بيادة)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ م وأرسل مع الجيش المحارب فى

سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى المحاربات ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثلاثون المشاة (٣٠ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد بعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الحادى والثلاثون المشاة (٣١ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ م بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثانى والثلاثون المشاة (٣٢ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ ولم يشترك فى حرب من الحروب وألغى فى سنة ١٨٤١ م عقب أوبة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يعد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الثالث والثلاثون المشاة (٣٣ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ وألغى فى سنة ١٨٤١ م فى عهد محمد على باشا بعد رجوع الجيش الذى كان فى جزيرة العرب وكان هذا الآلاى قسما منه ولم يجدد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الرابع والثلاثون المشاة (٣٤ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش المحارب فى سورية ولم يعد منها ولعله أسر أو أبيد فى معاركها الحربية ولم يجدد إنشاؤه بعد ذلك .

الآلاى الخامس والثلاثون المشاة (٣٥ جى آلاى بيادة)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٨ م وأرسل مع الجيش فى حرب

سورية ولم يعد من هذه الحرب من هذا الآلاى سوى تسعة جنود فحسب ، لأنه كان حامية عكا وفى خلال دفاعه عن هذه المدينة قبالة أسطول الحلفاء انفجرت (جبخانته) وأفنت أكثر جنوده وألغى فى سنة ١٨٤١ ولم يجدد إنشاؤه بعد ذلك .

سلاح الخيالة

الآلاى الأول (١ جى آلاى سوارى)

أنشىء فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى لسنة ١٨٨٢ م .

الآلاى الثانى (٢ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨١٩ وألغى فى سنة ١٨٨٢ م .

الآلاى الثالث (٣ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشىء للمرة الثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذياك العهد . وفى الثورة العرابية ، عندما زيد الجيش فى سنة ١٨٨٢ لمحاربة الإنكليز ، أنشىء مره ثالثة وألغى بعد هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الجيش .

الآلاى الرابع (٤ آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أنشىء ثانية فى سنة ١٨٦٥ وألغى فى سنة ١٨٧٩ حينما أصيب الجيش بالتخفيض لسوء مالية مصر آنذاك . ثم فى الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمجابهة الإنكليز فى سنة ١٨٨٢ ، أنشىء لثالث مرة وألغى عقب هذه الثورة فى تلك السنة مع باقى الوحدات العسكرية .

الآلاى الخامس (٥ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام ثم أنشىء مرة ثانية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وحدث أن أنشىء لثالث مرة فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء المالية فى ذياك العهد .

الآلاى السادس (٦ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حرب الشام . وأنشىء مرة تالية فى سنة ١٨٤٨ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٧٤ م وألغى فى سنة ١٨٧٩ عندما خفض الجيش لسوء مالية مصر فى ذلك الوقت .

الآلاى السابع (٧ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٩ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد عودة الجيش من حروب سورية ثم أنشىء مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الثامن (٨ جى آلاى سوارى)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ بعد أوبة الجيش من معارك سورية . ثم استحدث مرة ثانية فى سنة ١٨٤٩ وألغى فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى التاسع (٩ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد رجوع الجيش من وقائع سورية ثم أنشىء مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ وألغى بعد انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى العاشر (١٠ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣١ وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من معارك سورية ثم أعيد إنشاؤه مرة ثانية فى حرب القرم فى سنة ١٨٥٤ وألغى عقب انتهائها فى سنة ١٨٥٥ .

الآلاى الحادى عشر (١١ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة القوات المصرية من حرب سورية .

الآلاى الثانى عشر (١٢ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد عودة الجيش من حرب سورية .

الآلاى الثالث عشر (١٣ جى آلاى سوارى)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ م وألغى فى سنة ١٨٤٢ م بعد أوبة الجيش من الحرب السورية .

المدفعية

آلاى المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٨٠ بعد ما قبض

العرابيون على أزمة الحكم وزادوا الجيش فى أوائل ١٨٨٢ وأعادوا هذا الآلاى ثم ألغى بعد الثورة العرابية فى السنة المذكورة مع باقى الجيش .

آلاى المدفعية الثالث (٣ جى آلاى طوبجية)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٢٥ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد أوبة الجيش من معارك سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشىء مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٧٩ . ثم أعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمحاربة الإنكليز وألغى بعد هذه الثورة فى السنة المذكورة مع باقى وحدات الجيش .

آلاى المدفعية الرابع (٤ جى آلاى طوبجية)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٨٢ فى وقت الثورة العرابية عند ما زيد الجيش لمحاربة الإنكليز ثم ألغى بعد هذه الثورة فى السنة الآنفة مع بقية وحدات الجيش .

١ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا .. ثم أنشىء للمرة الثانية فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٦ . ولم يجدد إنشاؤه بعد ذلك .

٢ جى آلاى طوبجية سوارى

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٥ م وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حروب سورية فى عهد محمد على باشا ولم يجدد إنشاؤه بعد .

مدفعية السواحل

الآلاى الأول سواحل (١ جى آلاى سواحل)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٤٦ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ م بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش

الآلاى الثانى سواحل (٢ جى آلاى سواحل)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٥١ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش .

الآلاى الثالث سواحل (٣ جى آلاى سواحل)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٧٤ م وألغى فى سنة ١٨٨٢ م بعد الثورة العرابية مع باقى الجيش

المهندسون العسكريون

البلطجية والكبروجية

ذكر القومندان « بلانا » أن عدد المهندسين العسكريين فى الجيش بلغ فى عام ١٨٢٨ القوات الآتية :

١٢ بلوكا بلطجية عددها ١٢٠٠ جندى بمعدل بلوك مهندسين لكل آلاى مشاة يلحق به وقت الحرب .

١ بلوك كبروجية عدته مائة جندى .

وقد استهل فى ذياك الوقت فى تنظيم بلوك للألغام .

وأورد البارون بوالكونت إحصائية للجيش المصرى عام ١٨٣٣ جاء فيه أن عدد المهندسين العسكريين كان ٢٩٤٢ .

وفى إحصائية الجيش لعام ١٨٣٩ التى تأتت فى كتاب كلوت بك (جـ ٢ ص ٣٥١) ورد ذكر المهندسين العسكريين على الوجه التالى :

الآلاى الأول من البلطجية فى عكا	٨١٢
آلاى المهندسين فى أدليب	٧٥٨
آلاى البلطجية فى الإسكندرية	٨٠٨
وحدات اللغامين فى القاهرة	٠٩٤
المجموع	٢٤٧٢

وحدات الحرس المشاة

آلاى الحرس الأول (١ جى آلاى غارديا)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٠ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أنشىء من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثانى (٢ جى آلاى غارديا)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤٩ . ثم أنشىء من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وأعيد إنشاؤه للمرة الثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الثالث (٣ جى آلاى غارديا)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٧ وألغى فى سنة ١٨٤١ . ثم أنشىء من جديد فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٥ . وأعيد إنشاؤه مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى الحرس الرابع (٤ جى آلاى غارديا)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٦٩ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

وحدات الحرس الخيالة

آلاى حرس الخيالة الأول (١ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٢ وألغى فى سنة ١٨٥٤ . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٦ وألغى فى سنة ١٧٩٨ م .

آلاى حرس الخيالة الثانى (٢ جى آلاى سوارى غارديا)

أنشىء هذا الآلاى فى سنة ١٨٤٣ وألغى فى سنة ١٨٤٩ م . ثم أعيد إنشاؤه فى سنة ١٨٥٣ وألغى فى سنة ١٨٥٤ م . ثم أنشىء مرة ثالثة فى سنة ١٨٦٧ وألغى فى سنة ١٨٧٩ م .

وحدات الحرس المدفعية

آلاى حرس المدفعية الأول (١ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٢ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من حرب سورية فى عهد محمد على باشا . ثم أنشىء مرة ثانية فى سنة ١٨٧٤ وألغى فى سنة ١٨٨٠ .

آلاى حرس المدفعية الثانى (٢ جى آلاى طوبجية غارديا)

أنشئ هذا الآلاى فى سنة ١٨٣٤ وألغى فى سنة ١٨٤١ بعد عودة الجيش من المعارك السورية فى عهد محمد على باشا .

من الوثائق التاريخية

والحديث عن إنشاء الوحدات العسكرية السابقة قد لا تستوعبه المجلدات ، وتقصر ولا ريب دونه الصفحات ، الشيء الذى حدا بنا ، فى هذا السباق — إلى أن نأتى — على سبيل المثال — فيما يلى ببعض الوثائق الخاصة بالآلايات السابع والثامن والتاسع المشاة . . .

ففى الثانى من ذى القعدة عام ١٣٤٠ هـ (١٨ يونيو ١٨٢٥) كتب محمد على إلى ابنه الخطاب الآتى :

« من الجناب العالى إلى الباشا السر عسكر[١] .

« نحمد الله تعالى حمداً مضاعفاً على أن جعلنا مظهراً لآثار فيض نعمه بما عزمنا عليه من تشكيل الآلايات ١٠ جى و ١١ جى و ١٢ جى بيادة فقد بدأنا مستعينين بالله تعالى بأعدادهم وتهيئة ما يلزم لهم من الضباط حتى القائمقامات من الآلايات ٧ جى و ٨ جى و ٩ جى بيادة وأورطة الأوجاق وأخذنا بتنظيم الجنود اللازمة لها وبفضل الله تعالى فى أقرب وقت سيكون ذلك رهين محاسن الكمال بأكماله ولم ينقصها أى تلك الآلايات إلا الرؤساء وقد رأينا من المناسب تعيين أحمد أفندى المنكلى وسليم أغا قائمقام الآلاى ٢ جى بيادة المأمور للحجاز وصالح أغا قائمقام الآلاى ٤ جى بيادة المأمور للمورة وبما أن أحمد أفندى هنا قد أعلمناه بذلك وأرسلنا الخبر للحجاز وأحلنا إرسال صالح أفندى العهدة سعادتكم وأن أحمد أفندى وإن كان لازما ثمة فقد اضطررنا لحسن مأموريته إلى ترقيته لرتبة الميرالاى حسب الإيجاب .

« وقد كتبنا لكم ذلك ليكون معلوما لكم إن شاء الله تعالى » .

---

(١) وثيقة رقم ٤٣ — دفتر ٢٠ معية تركى ورقة ١١ بتاريخ ٣ ذى القعدة ١٢٤٠هـ.

تشكيل الآلايات ١٠ و ١١و ١٢

وإذا خلفنا ذلك نجد أنه فى السابع عشر من شوال عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤) قد صدر أمر الوالى إلى إبراهيم باشا بأنه تيسر تشكيل الآلايات ١٠ و ١١ و ١٢ وتعيين القواد والضباط اللازمين لها . . . وبتعيين أحمد المنكلى المبعوث المعين بين الطرفين سابقا أميرالايا لأحد تلك الآلايات وأنه لا تساع نطاق النظام العسكرى قد جدد ترتيب علاوه عل النسق القديم وتعيين لواء يكون تحت قيادته الآلايين .

إنشاء أورطة الرجال العسكرية

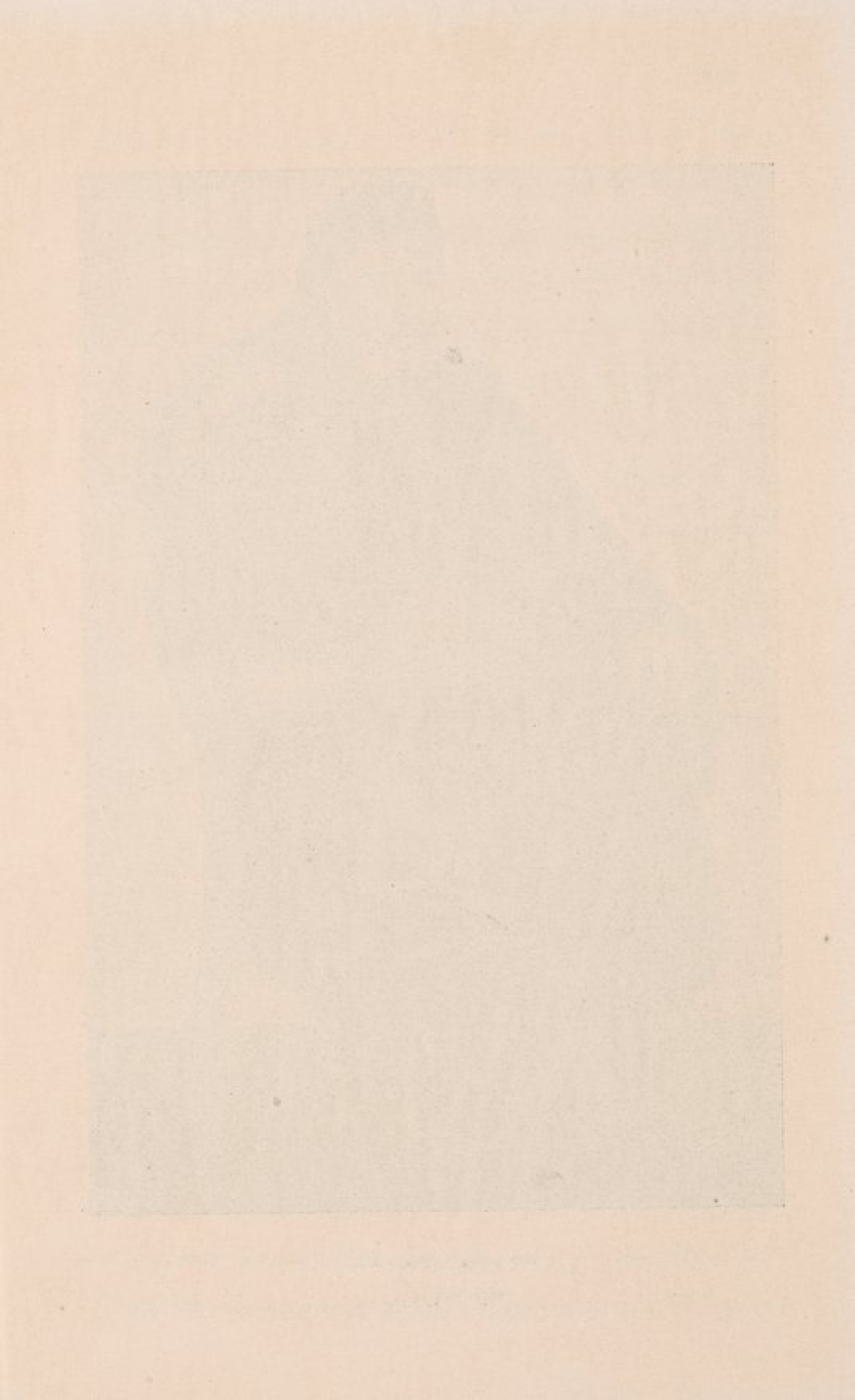
« من الجناب العالى إلى الصاغقول والصول قول أغاسية واليوزباشية والملازمين الأولين والثانين وسائر الضباط بأورطة العساكر الجهادية .

كنت آمل أن تلاميذ السنة الدراسية الثالثة قد أتقنوا بفضل الجهود المبذولة التعاليم الخاصة بالبيادة والطوبجية وتعلموا الحساب ومجموعة المهندسين وأصول الهندسة والمثلثات المسطحة مما أقدرهم على تخطيط البلدان واستطلاع أحوال الأراضى ورسم الخرائط أو الاستحكامات الخفيفة والقوية وأنهم برعوا فى هذه المواد نظريا وعمليا حتى تكونت لديهم القدرة على إجراء كل علم منها وسهل عليهم المثلثات الفلكية وإنشاء الخرائط بالهندسة كما أنهم قد ترجموا من اللغة الفرنسية بعض أشياء مما يفيد مصلحتنا ويوافق أصولنا (وكنت أقول إنهم لم يقفوا عند هذا الحد) بل شرعوا فى دراسة فن الحرب وكذلك تلامذة السنة الدراسية الثانية هم أيضاً يستفرغون جهدهم ليلحقوا بتلامذة السنة الثالثة ويبلغوا مستواهم كما هى الحالة فى تلامذة السنة الأولى فإنهم لا يضنون بجهد فى بلوغ مرتبة تلاميذ السنة الثانية (أجل كنت أمنى النفس بهذا) إلا أنه قد ظهر من نتيجة الامتحان التى عرضت على أخيراً أن الصول قول أغاسية . حسين أفندى وعلى أفندى من القول أغاسية ،

وسليمان أفندى ممش زاده وأحمد أفندى الحربوطلى من اليوزباشية والملازم الثانى عبد الله أفندى من تلامذة السنة الدراسية الثانية هم وحدهم من بين سائر التلاميذ قد اجتهدوا طبق أمرى ووفق مرضاتى وبذلوا المساعى لتحصيل العلوم وكسب المعارف وقد ظهر أيضاً من النتيجة الآنفة الذكر أن تلامذة السنة الدراسية الأولى قد بلغ بهم الكسل مبلغا أقعدهم عن الحضور وتلقى الدروس بالمدرسة فضلا عن الجد والسعى فلما علمت هذا قد أمرت بترقية الصول أغاسين المذكورين إلى رتبة الصاغقول أغاسى وترقية اليوزباشين إلى رتبة الصول قول ، والملازم الثانى إلى الملازم الأول ، ثم إنى بقدر ما سررت من مساعى هؤلاء قد شعرت بخيبة الأمل فى حزن مضاعف وتأثير كبير من فتور التلاميذ القدماء ولا سيما من توانى القول أغاسية وكسل التلاميذ المستجدين وقد انبعث هنا عثمان بك رئيس رجال الجهادية لأنه لم يعر لهذه المسألة ما يستحقه من العناية والاهتمام ولم يأخذ التلاميذ الكسالى بالشدة ليحملهم على الجد والسعى وتساهل فى معاقبة من لم يرجع منهم إلى الرشد والإنصاف بما يستاهله لكى يكونوا عبرة لغيرهم ولما كان اليوزباشى خورشيد أفندى أخلد إلى الكسل ولم يحصل شيئاً يذكر بالرغم من هذه المدة الطويلة ولم يقدر قدر الرتبة التى يحوزها فقد خفضت رتبته درجة ثم إنى كما أعطف على المجتهدين لكسب العلوم والمعارف وأبذل لهم مكافأة على مساعيهم لا أتأخر عن إنزال العقاب على المتكاسلين وعلى الذين يقصرون جهدهم على تحصيل نظريات أى فن من الفنون ويحول كسلهم دون إجادة تطبيقه العملى ، هذا وقد تقرر أن أصحاب الرتب الذين لم ينالوا رتبهم عن جدارة ولا يسعون أيضاً ليكونوا جديرين بها لا يتركون منعممون بهذه الرتبة بل تنزل رتبهم إلى درجة تليق بأحوالهم ولذلك ينبغى أن تنظم جداول فى أواخر كل شهر يبين فيها مبلغ كل منكم من العلم والأخلاق ثم تعرض هذه الجداول علينا لنعلم أحوالكم ونعامل كل واحد منكم بما يليق بحاله كما يجب عقد امتحان لكم جميعاً فى كل ثلاثة أشهر مرة فى حدود الأصول الجهادية وتعرض نتيجته علينا للاطلاع .



القائد الكبير ابراهيم باشا
فى أخريات حياته



« وقد أصدرنا أمرنا هذا من الإسكندرية حيث نقيم فيها الآن وأرسلناه إليكم فمتى وصل بمنه تعالى وعلمتوه فالواجب عليكم أن تبذلوا ما فى وسعكم من الجهود على أداء مهمتكم وفق إرادتى وطبق مرضاتى على وجه يتفق والقواعد الإنسانية لكى تنالوا عطفى فتسهدوا فى ظلى وتمتازوا بين أقرانكم وتكونوا نافعين لى ولأنفسكم ولديننا وشعبنا جميعاً[1] .

٣ ــ معاهدة لندرة

سبب إبرام هذه المعاهدة أنه لما أبرمت معاهدة كوتاهية أثار السلطان محمود أهل الشام على محمد على باشا ثم أوعز إلى جيشه بعبور نهر الفرات ومهاجمة الجنود المصرية فعاد الخلف بين الفريقين إلى أشد مما كان عليه وحدثت معارك بينهما أفضت إلى معركة نصيبين فى ٢٤ يونيه ١٨٣٩ (١٠ ربيع ثانى ١٢٥٥) ففاز المصريون على الجند العثمانى وغنموا منه ١٦٦ مدفعا و ٢٠ ألف بندقية عدا الذخائر والمؤن وتوفى السلطان قبل أن ينتهى إليه هذا النبأ وخلفه على عرش السلطنه السلطان عبد المجيد بالغا من العمر ١٦ عاماً فازدادت أحوال الدولة أرتباكا خصوصاً وأن أحمد باشا القبطان العام للدونتمة العثمانية أتى بها إلى الإسكندرية وسلمها إلى محمد على باشا وخشيت الدول لهذا السبب أن يزحف إبراهيم على الآستانة وترى الروسيا منفذا للعمل بمضمون معاهدة خونكار أسكله سى السالفة الذكر أو أن يسرع محمد على بقبول ما عرضه عليه الباب العالى من بقاء ولاية مصر فى عقبه واستيلائه على البلاد التى فتحها بسلاحه فقمن قومة واحدة باقتراح من النمسا وقدمن إلى الدولة العلية مذكرة إجماعية يلزمنها فيها أن لاتعمل عملا أو تتصرف فى أمر إلا بعد استشارتهن فانصاع الباب العالى لهذه المذكرة واجتمع السفراء لدى الصدر الأعظم (٣٠ يوليو ١٨٣٩) وتداولوا فيما يجب إعطاؤه لمحمد على

(١) وثيقة رقم ٢١٣ — دفتر ٢٦ معية تركى ص ٥٩ — بتاريخ ٢١ ربيع ١٢٤٣ هـ (١١ نوفبر سنة ١٨٢٧م) .

باشا فقال سفيرا انكلترا والنمسا بضرورة إرجاع الشام للدولة العلية وعارضهما فى هذا الرأى سفيرا الروسيا وفرنسا وطلبا منحه ملك مصر وولايات الشام ولكن سفيرا بروسيا انحاز إلى الرأى الأول فتقرر بالأغلبية . ثم اقترح دى ماترنيخ كبير وزراء النمسا عقد مؤتمر دولى فى فينا أو لوندره لإتمام المداولات فى المسألة المصرية فرفض طلبه خصوصاً من انكلترا وفرنسا أما الروسيا فأعلنت أنها لاتزال مصرة على التمسك بمعاهدة خونكار اسكله سى إذا تعدى إبراهيم باشا حدود الشام وثار ثائر الخلاف بين الدول المتداخلة كل منهن يرمى إلى رأى ، ففرنسا كانت تذهب إلى وجوب منح محمد عل باشا حق الوراثة فى البلاد التى فتحها وإنكلترا إلى قصر هذا الحق على مصر دون سواها (لأنها كانت تخشى على طريقها إلى الهند) وعضدتها الروسيا فيما ذهبت إليه‌لا لشىء سوى توسيع فرجة الخلاف بينها وبين فرنسا ثم دارت مخابرات كثيرة بين الدول على غير جدوى لأن فرنسا توسعت فى تعضيد مصر حتى إنه لما ولى المسيو تييرس رئاسة الوزاره الفرنسوية أراد فى حسم المسألة المصرية أن يتفق رأساً مع الباب العالى ومحمد على باشا بأن يلزم الباب العالى بترك مصر والشام لمحمد على ولذريته وأوعز إلى محمد على باشا أن لا يقبل مطالب إنكلترا وأن يقوى مركزه فى الشام ويتأهب للكفاح وأن فرنسا مستعدة لنجدته لو عارضته إنكلترا فلما علم اللورد بامرستون رئيس وزارة إنكلترا بذلك حنق على فرنسا واجتهد فى الاتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا على إرجاع محمد على باشا إلى حدود مصر وإلزامه بالقوة إذا لم يطع وقد نجح بلمرستون فى سعيه حيث عقد فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ مع الدول المذكورة المعاهدة التالية التى صدق عليها مندوب الدول العلية وسميت بمعاهدة لوندره وهذا نصها :

(١) يلزم محمد على باشا بإرجاع ما فتحه للدولة العلية ويحفظ لنفسه الجزء الجنوبى من الشام مع عدم دخول عكا فى هذا القسم . (٢) أن يكون لإنكلترا حق الاتفاق مع النمسا فى محاصرة فرض الشام ومساعدة كل

من أراد من سكان الشام خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية . (٣) أن يكون لمراكب الروسيا والنمسا وإنكلترا معاً حق الدخول فى البوسفور لوقاية القسطنطينية لو تقدمت الجيوش المصرية نحوها . (٤) أن لا يكون لأحد حق الدخول فى مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة . (٥) يجب على الدول الموقع مندوبوها على هذا الاتفاق أن تصدق عليه فى مدة لاتزيد عن شهر بحيث يكون التصديق بلوندره» . وأرفق بهذه الاتفاقية العقد المنفصل الذى بنى عليه الفرمان المانح لمصر استقلالها وهذا نصه :

«قد عول جلالة السلطان على منح محمد على شروط الاتفاقية الآتى بيانها بعد وإعلانها إليه :

(١) يعد جلالته بأن يمنح محمد على لنفسه ولذريته من صلبه بعده إدارة باشوية مصر ووعده أيضاً بأن يمنحه مدة حياته مع لقب باشا عكا وقومندانية قلعتها إدارة القسم الجنوبى من سوريا المبينة حدودها فيما يلى : بالخط الذاهب من رأس النخل على شواطىء البحر الأبيض المتوسط إلى مصب نهر سيزبان فى النهاية الشمالية من بحيرة طبرية والممتد على الساحل الغربى لهذه البحيرة متبعا بعد ذلك الضفة اليمنى من نهر الأردن والساحل الشمالى للبحر الميت متطاولا فيما يليه على خط مستقيم إلى البحر الأحمر بالنقطة الشمالية من خليج العقبة ثم يتبع الساحل الغربى لهذا الخليج والساحل الغربى لخليج السويس حتى يصل إلى ثغر السويس على أن جلالته يعلق على هذا الاقتراح شرطا وهو قبول محمد على إياه فى العشرة الأيام التالية لإبلاغه إليه فى ثغر الإسكندرية بواسطة مندوب من طرف جلالته وفى الوقت نفسه يتعهد محمد على بأن يقدم إلى هذا المندوب التعليمات اللازمة إلى قواد قوتيه الحربيتين البرية والبحرية بالانسحاب حالا من بلاد العرب وسائر المدن المقدسة الموجودة بها ومن جزيرة قنديا ومركز أطنة ومن بقية أقسام المملكة العثمانية الغير الداخلة فى حدود مصر وكذلك من أقسام باشوية عكا كما

هو مبين فيما سبق . (٢) إذا مضت مهلة العشرة أيام ولم يقبل محمد على الاتفاق على ما ذكر كان للسلطان أن يسترد ما عرضه عليه من إدارة باشوية عكا مدة حياته ولكن جلالته يرضى مع ذلك بأن يمنح محمد على ولذريته من الصلب بعده باشوية مصر متى قبل ذلك فى ظرف العشرة الأيام التالية (للعشرة الأيام الأولى) أعنى فى مدة عشرين يوما تمضى بعد وصول البلاغ إليه وذلك متى أعطى لمندوب السلطان التعليمات اللازمة لقواد قوتيه العسكريتين البرية والبحرية بالتراجع حالا إلى داخل حدوده وباشوية القطر المصرى . (٣) الجزية السنوية اللازم أن يدفعها محمد على للسلطان يجب أن تكون مناسبة لسعة الأراضى التى تخول إدارتها إليه كثرة وقلة تبعا لقبوله مقتضى أحد البلاغين السالفى الذكر (٤) من المعلوم فضلا عما تقدم أن محمد على سيكون فى كلا الأمرين وبعد انقضاء الأجل المعين وهو عشرة أيام أو عشرين يوما ملزما بتسليم الدونمة العثمانية مع ما يتبعها من البحرية والأسلحة إلى المندوب العثمانى الذى سيناط به استلامها ويحضر هذا التسليم قومندانات الأساطيل المتحالفة . ومن المعلوم أيضاً أنه لايسوغ لمحمد على بوجه من الوجوه أن يحسب أو يخصم من الجزية المقرر عليه دفعها للسلطان نفقات الدونمة العثمانية أثناء المدة التى قامت فيها بميناء القطر المصرى . (٥) إن سائر معاهدات وقوانين السلطنة العثمانية تسرى على مصر وباشوية عكا كما تبين أعلاه كأنها سارية بالسوا على قسم من أملاك السلطنة العثمانية ولكن السلطان يقبل على شرط تسديد الجزية السالفة الذكر بالانتظام أن يجبى محمد على وذريته من بعده المكوس والضرائب باسمه (أى اسم السلطان) فى الأقاليم التى عهد إليه بإدارتها . ومن المعلوم عدا ما تقدم أن محمد على وذريته من بعده يقومون بنفقات الإدارة الملكية والعسكرية لتلك الأقاليم مقابل جبايتهم المكوس والضرائب الآنفة الذكر . (٦) لما كانت القوات العسكرية البرية والبحرية التى يقوم بأمرها باشا مصر وعكا جزءا من قوات السلطنة العثمانية فإنها تعتبر دائما كأن القيام بأمرها إنما هو لخدمة وصالح

الحكومة . (٧) إن هذا العقد المنفصل يكون له نفس القوة والقيمة كما لو كان مدرجا كلمة بكلمة فى اتفاقية هذا اليوم وسيتم تبادل التصديق عليه بلوندرة فى آن واحد مع هذه الاتفاقية وبناء عليه فقد أمضى مفوضو الدول على هذا وبصموا عليه بخاتم جيوشهم . حرر فى لوندره « ١٥ يوليو ١٨٤٠ » وتلا هذا توقيعات المفوضين وهم الفيكونت بلمرستون عن المملكة المتحدة من بريطانيا العظمى وإرلنده والبارون دى نومن عن إمبراطور النمسا وملك هنكاريا والبوهيم والبارون دى بولو عن ملك بروسيا والبارون برونو عن قيصر الروسيا وشكيب أفندى عن جلالة السلطان .

الخط الشريف المؤرخ ١٣ فبراير ١٨٤١

لا نفيض فى الكلام على الحوادث التى تلت صدور اتفاقية لوندره والعقد المنفصل الملحق بها وإنما نذكر أن الدول الأربع المتحالفة أكثرت فيه من الشروط والقيود عمداً لتطمين خاطر السلطان الذى كان يخشى أن تفلت مصر من يده لما كان يعلمه من أن ضرب الجزية على بلد إنما هو الطريق لحصوله على استقلاله والباب المفتوح لتجزئة أملاك السلطنة وبناء على هذا فقد بعث جلالته إلى محمد على بالخط الشريف الآتى نصه بتاريخ ١٣ فبراير ١٨٤١ الموافق ٢١ ذى القعدة ١٢٥٦ وهو الذى مع تحويره يعتبر أساساً لاستقلال مصر الإدارى :

« رأينا بسرور ما أبديتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ومصلحة بابنا العالى فطول اختباركم ومالكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدة مديدة لايتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدون من الغيرة والحكمة فى إدارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة فى تعطفاتنا الملوكانية

وثقتنا بكم فتقدرون فى الوقت نفسه إحساننا إليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التى اقترنتم بها فى أولادكم وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الأعظم ومنحناكم فضلا عن ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها : متى خلا منصب الولاية المصرية يعهد إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا وإذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لأولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالإرث بعدكم يجب عليه الحضور إلى الآستانة لتقليده الولاية المذكورة على أن حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا لقبا أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولاحقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع أحكام خطنا الشريف الصادر عن كلخانه وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها أو تلك التى ستجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الأيام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الإجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضاً وكل ما هو مفروض على المصريين من الأموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى . ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للمضار والأموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الأموال والضرائب بما بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الإيرادات الناتجة من الرسوم الجمركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شىء ويؤدى إلى خزينة بابنا العالى العامرة والثلاثة الأرباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والإدارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وأثمان القلال الملزمة مصر بتقديمها سنوياً إلى البلاد المقدسة (مكة والمدينة) ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدىء من عام ١٢٥٧ (١٢ فبراير

١٨٤١) ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم فى مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى يمكن أن تجد عليها . ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الإيرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب وكان الوقوف على هذه الأحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية فينظر فى ذلك ذلك فيما بعد ويجرى ما يوافق إرادتنا السلطانية . « ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبا لصك النقود لما فى ذلك من الأهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من العيار ولا من جهة القيمة اقتضت إرادتنا السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز لحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالآستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها . « ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ١٨٠٠٠ نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد ولكن حيث أن قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كقوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين على أنه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد أن يخدم الجند مدة ٥ سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضاً فى مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا عشرون ألف رجل ليبدأوا الخدمة فيحفظ منهم ١٨٠٠٠ رجل فى مصر ويرسل الألفان هنا لأداء مدة خدمتهم . وحيث أن خمس العشرين ألف رجل رجل واجب استبدالهم سنوياً فيؤخذ من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل فى ذلك واجبات الإنسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى فى مصر ٣٦٠٠ عسكرى من الجنود الجديدة والأربعمائة يرسلون إلى هنا ومن أتم خدمته من الجنود المرسلة ومن الجنود الباقية فى مصر يرجعون إلى مساكنهم ولا يسوغ

طلبهم للخدمة مرة ثانية ومع كون مناخ مصر قد يستلزم أقمشة خلاف المستعملة لملبوسات العساكر فلا بأس من ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التميزية وراية الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضباط وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجالنا وسفننا . وللحكومة المصرية أن تعين ضباط برية وبحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلا من هذه الرتبة فالتعيين فيه راجع لإرادتنا الشاهانية . ولا يسوغ لوالى مصر أن ينشىء من الآن فصاعدا سفنا حربية إلا بأذننا الخصوصى « وحيث أن الامتياز المعطى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه فعدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لإبطال هذا الامتياز وإلغائه فى الحال وبناء عليه أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدروا أنتم وأولادكم قدر إحساننا الشاهانى فتعتنوا كل الاعتناء بإتمام الشروط المقررة فيه وتحموا أهالى مصر من كل فعل إكراهى وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم مع الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية وإخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد الموكولة ولايتها لعهدتكم » ٢١ ذو الحجة ١٨٥٦ الموافق ١٣ فبراير ١٨٤١ . ولقد أبلغ هذا الخط الشريف إلى الدول فى ١١ مارس ١٨٤١ فأجبن عليه فى ١٣ منه بمذكره إجماعية اعتبرت بمثابة تصديق على هذا الفرمان الشاهانى وأنزلته فى منزلة العهود الدولية وقد أعقبته الدولة بفرمانات أخرى إلا أنها لم تغير شيئاً من جوهره إذ كان المقصود منها توسيع نطاق الامتيازات المعطاة لمصر على أنه بالرغم عن وضوح عبارة الخط الشريف المؤرخ ١٣ فبراير ١٨٤١ وصراحة معانيه قد بعثت الدول إلى الباب العالى مذكرة ثانية يعترفن فيها للسلطان بحق التدخل فى شئون مصر الخصيصة بها وإناطة والى مصر بكل أو بعض هذا الحق .

فرمان ٢٦ الحجة ١٢٥٦ الخاص بالسودان

منذ سنة ١٨٢٠ كان ساكن الجنان محمد على باشا قد نشر أعلام نفوذه وتملكه على بلاد السودان فأصبح مجرى النيل من ينابيعه إلى مصابه فى قبضة يديه . وكانت الدولة العلية لا تملك قبل محمد على من هذا المجرى إلا ما يلى شمال الشلال الثانى الواقع جنوبى وادى حلفا وكان الأهلون هناك يدفعون الضرائب والمكوس لجباة سلاطين آل عثمان بغير انتظام فلما كانت سنتا ١٨١٤ ، ١٨١٥ أنفذ محمد على إليهم قوة من الجند لجباية الضرائب وكان أمراء السودان وسراته منشقين وقتئذ على أنفسهم فاغتنم صهر محمد على باشا هذه الفرصة لإخضاع السودان وإلحاقه بمصر وهو بذلك إنما أعاد لها بلادا كانت تملكها من عصور متوغلة فى القدم فقد ثبت من نقوش هياكل طيبة أن فرعون تحوتمس الثالث (من الأسرة الملوكية الرابعة) بلغ فى إحدى جولاته إلى بحيرات وسط أفريقية الكبرى التى يشتق منها النيل واحتل نقطا حربية كثيرة على هذا النهر بتلك الإصقاع ولكى لا يحدث خلاف بعد بشأن الولاية على هذا الإقليم قد أصدر السلطان فرمانا خاصا بها فى نفس التاريخ الذى صدر فيه الفرمان السابق وهذا نصه :

« إلى وزيرى الخ . . . إنه كما توضح فى فرمان سلطانى غير هذا قد رأينا أن نثبتكم على ولاية مصر بحدود معينة وأن نضيف إليها طريقة التوارث بشروط معلومة . ولقد رأينا فضلا عما تقدم أن نقلدكم ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجية عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث وعليه فبقوة الاختبار والحكمة التى امتزتم بهما تقومون بإدارة هذه المقاطعات وترتيب شؤونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين وترسلون فى كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان

الإيرادات السنوية جميعها . وحيث أنه يحدث من وقت إلى آخر أن تهجم الجنود على قرى المقاطعات المذكورة فيأسرون الفتيان من ذكور وإناث ويبقونهم فى قبضة يدهم لقاء رواتبهم وحيث أن هذه الأمور مما تفضى معها الحال لانقراض أهالى تلك البلاد وخرابها فضلا عن مخالفتها للشريعة الصحيحة المقدسة وكلا الأمرين لم يكن بأقل فظاعة من أمر متواتر الحدوث وهو تشويه الرجال ليقوموا بخفر الحريم وهو مما لا ينطبق على إرادتنا السنية فضلا عن مناقضته كل المناقضة لمبادىء العدل والإنسانية المنتشرة من يوم جلوسنا على عرش السلطنة العلية فعليكم أن تتلافوا هذه الأمور بما ينبغى من العناية لمنع حدوثها فى المستقبل ولا يبرح عن بالكم أنه فيما عدا بعض أشخاص توجهوا إلى مصر على أسطولنا الملوكى قد عفوت عن جميع الضباط والعساكر والمأمورين فأعلنوا لهم الخبر السار .ثم إنه وإن يكن تعيين الضباط المصريين إلى ما فوق رتبة أغاس يستلزم بموجب فرماننا السلطانى السابق العرض عنه لأعتابنا الملوكية ولكن لابأس من إرسال بيان بأسماء من رقيتم من ضباط جنودكم إلى بابنا العالى لترسل إليهم الفرمانات المؤذنة بتثبيتهم فى رتبهم . هذا ما نطقت به إرادتنا السامية فعليكم الإسراع إلى العمل بمقتضاها » .

فرمان سنة ١٨٧٣ الشامل للفرمانات السابقة

ظلت أحوال مصر بعد صدور فرمان محمد على باشا فى ١٣ فبراير ١٨٤١ المبنى على اتفاقية لوندره كما هى عليه من حيث السياسة العامة فى بقية أيام حياته وفى عهد عباس الأول وسعيد ، فلما ولى الخديو إسماعيل باشا على مصر رأى أن يتمم العمل الذى كان بدأبه محمد على باشا وعول على تضحية كل شيء فى سبيل تخويل مصر سائر الحقوق والامتيازات التى تجعلها شبه مستقلة عن الدولة فتمكن من استصدار فرمانات سنى ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ ، ١٨٦٩ ، ١٨٧٢ التى حققت شطراً كبيراً من أمانيه

ثم فرمان سنة ١٨٧٣ الذى يندمج فيه مضمون الفرمانات السالفة وها هو بنصه بعد الديباجة :

« . . . قد نظرنا بعين الاهتمام إلى طلبك المتعلق بإصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المانح للمرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الإرثية سواء كانت تلك الفرمانات متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها . فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى ويكون دائماً نافذا ومرعى الأجراء .

« إن كيفية وراثة الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ، ربيع آخر ١٢٧٥ قد غيرت على وجه أن تنتقل الخديوية من متبوئ كرسيها إلى كبير أبنائه أيضاً وهلم جرا علما بأن ذلك أدنى إلى المصلحة وأشد ملاءمة لأحوال البلاد المصرية .

« واختصاصاً لك بانعطافى الذى صرت لى أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وإثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة لخديوية مصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصوع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائه من بعده فإذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر إخوته أو لأكبر بنى أخيه الأكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة فى أبناء البنات . ولأجل تأييد هذه الأحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية :

« إذا توفى الخديو وكان كبير ولده . قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشر سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر إليه فرماننا بوجه السرعة . وإذا كان الخديو المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوباً للوصاية وعين كيفيتها وذوى إدارتها بصك مثبت بشهادة اثنين من رؤساء

حكومته ، فأولئك الأوصياء يقبضون إذ ذاك على أزمة الأعمال عقب وفاة الخديو ثم ينهون بذلك إلى الباب العالى ليثبتهم فى مناصبهم ولكن إذا توفى الخديو بغير وصية وكان ابنه قاصرا لمجلس الوصاية يؤلف عندئذ من متولى إدارة الداخلية والحربية والمالية والخارجية والحقانية ومن قائد العسكر ومفتش المديريات فيجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديو وصيا بإجماع الآراء أو بغالبيته فإذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لأرفعهما رتبة باعتبار الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون ذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل انتهاء مدتها فى الصورة الأولى أى فيما إذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديو المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما إذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الأول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات المملكة وبمجرد القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر إدارة أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته إرادتنا السلطانية .

« ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهة سكانها من أهم الأمور لدينا وكانت إدارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدة على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت إدارة الملكية والمالية بجميع شروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة المتعلقة بها وكان من المعلوم أن إدارة أى مملكة وحسن انتظامها وتزايد عمرانها وسعادة سكانها مما لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الإدارة العمومية والأحوال والموقع وأمزجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة واللزوم .

« ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو الحكومة مع الأجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة التامة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى أمور الجمارك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للإخلال بمعاهدات الدولة السياسية . « ولكون خديو مصر حائزاً لحق التصرف المطلق فى الأمور المالية فقد أعطيت لى الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية . « وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارىء — وهو أهم الأمور وأحوجها إلى العناية — من أقدم الوظائف المختصة بخديو مصر فقد منحناه الإذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيقها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العسكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولاتحديد . وأبقينا كذلك لخديو مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية إلى رتبة ميرالاى والملكية إلى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كأعلام عساكرنا السلطانية بلا فرق ولاتمييز . ولا يجوز لخديو مصر أن ينشىء البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج فنى استطاعته أن ينشئها متى شاء .

« ولأجل إعلان الأحكام السابق بيانها وتأييدها أصدرنا إليكم هذا الفرمان الجليل القدر من ديواننا الهمايونى وأعطى لكم متمما ومعدلا وشارحا للخطوط الشريفة والأوامر المنيفة الصادرة إلى هذا التاريخ سواء كان فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى إدارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الإجراء على ممر الزمان قائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا السلطانية . « فينبغى أن تعلموا قدر لطف

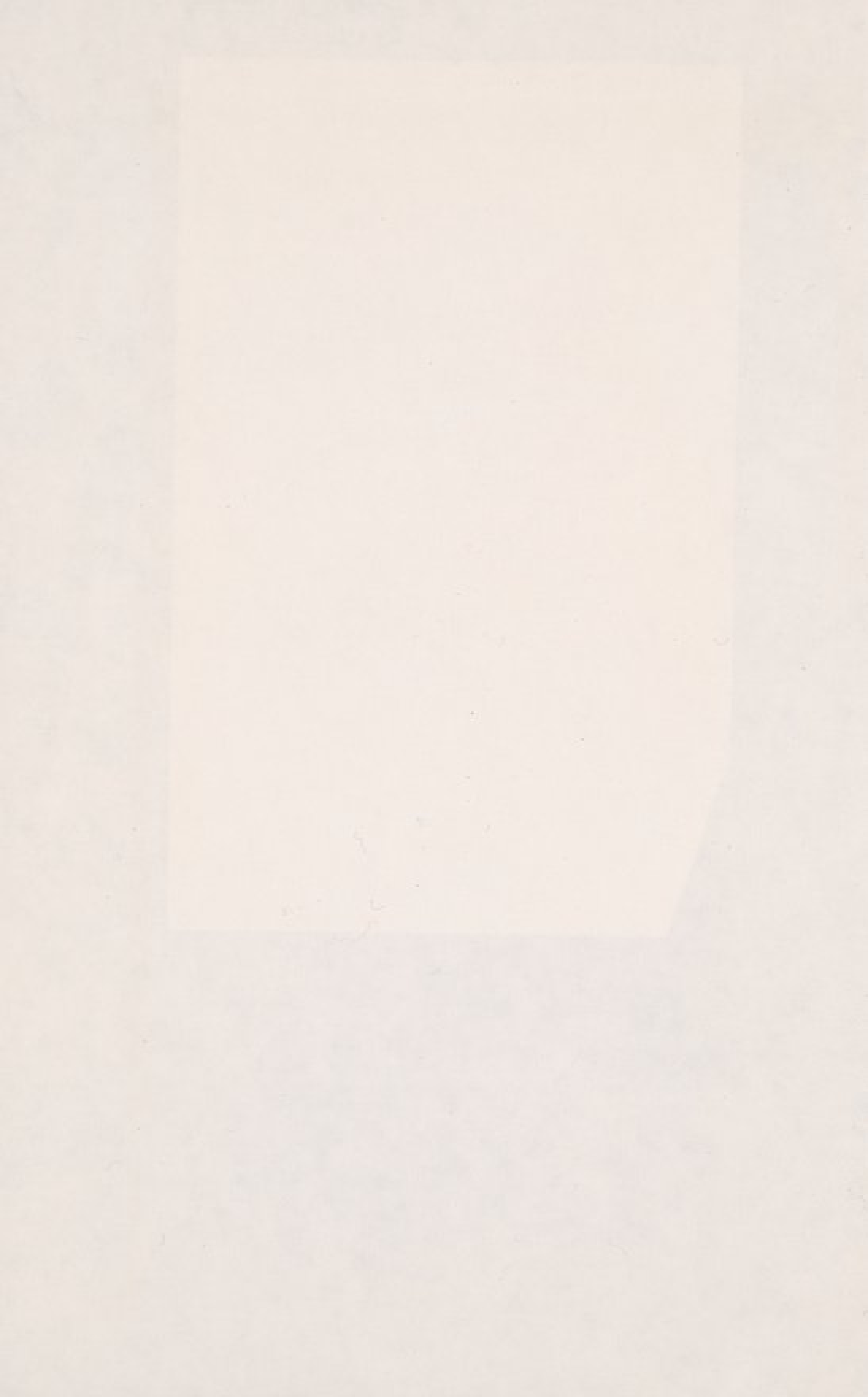
عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة إلى تنظيم الإدارة على محور الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شؤونها وتأييد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية خراجا سنويا فى أوقاتها المعينة إلى خزينتنا العامرة السلطانية على الترتيب والقواعد المرعية » .

هذا هو نص الفرمان الجامع لشتات الامتيازات المتفرقة فى الفرمانات السالفة وإليه يجب الرجوع فى كل ما يتعلق بحالة مصر السياسية متى أريد الإلمام ببيانها الأوفى ولا بأس مع هذا من القول بأن استقلال مصر يرجع إلى الفرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ المؤسس على اتفاقية لوندرة المبرمة فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ والعقد المنفصل المتصل بها لأنهما أساس تلك الفرمانات والاستقلال الضيق المذكور فيها أساس الاستقلال الواسع الممنوح بمقتضاها فى عهد إسماعيل .



عنايتنا بوقاية الشخص ما يصرفوا اهتمامنا إلى تنظيم الإدارة على نحو الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شؤونها وتأييد راحتها من حيث ما تقرره عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما يترتب عليه من الحقوق تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة في هذا الفرمان بالتدقيق في تأدية الخراج وتحسين [illegible] المقرر [illegible] في أوقاتها المعينة إلى خزينتنا العامرة السلطانية بالترتيب الموضح بالفرمان .

هذا هو نص الفرمان الشهير المشتمل الامتيازات المذكورة في الفرمانات السالفة وإليه يجب الرجوع في كل ما يتعلق بعلاقة مصر السياسية مع الباب العالي [illegible] الأول ولا بأس [illegible] من [illegible] أن استقلال مصر يرجع إلى الفرمان ١٣ فبراير ١٨٤١ المنصوص على [illegible] لإدارة الوراثة في ١٩ يونيو ١٨٤١ والعقد المفصل [illegible] لأنهما أساس تلك الامتيازات والامتيازات [illegible] المذكورة لنا أساس الاستقلال الرسمي الممنوح [illegible] في عهد إسماعيل



DATE DUE

